

حُسينُ سَيِّدُ الشُّهداءِ
حَقِيقَةُ بِلَا انتِهاءِ

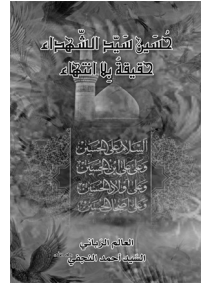
مُحْفَوظَاتُ
جَمِيعِ الْحَقُوقِ

الطبعة الأولى ١٤٣٩ هـ - ٢٠١٧ م

حسين سيد الشهداء حقيقة بلا انقضاء

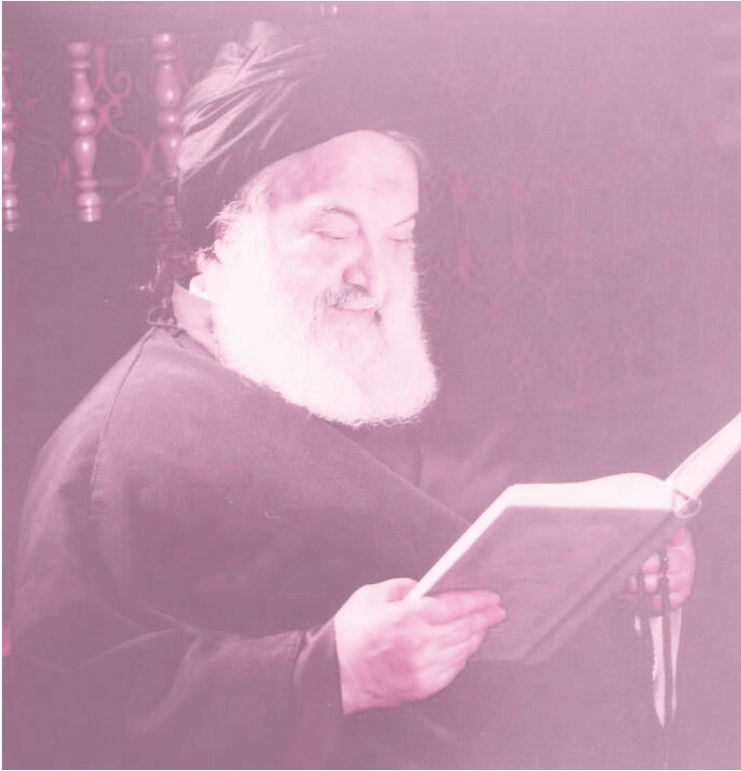
العالم الربّاني

آية الله السيّد أحمد النجفي (دام ظلّه)



لبنان - بيروت
تلفون: ٠٣/٦٣٨١٨٤

حُسينُ سَيِّدِ الشُّهداءِ حَقِيقَةُ بِلَا انْتِهَاءِ



العالم الربّاني

آية الله السيّد أحمد النجفي (دام ظلّه)



تمهيد أول

هناك مسألة تُعتبر من المسائل المثيرة للجدل وهي على قدر كبير من الأهمية لما يترتب عليها من آثار خطيرة على رأسها التكفير والإخراج من الدين. من هنا، وجب لفت انتباه القارئ إلى هذه المسألة وفتح الآفاق أمامه وتوسيع إطار فكره وفهمه في ما يرتبط بها، ألا وهي مسألة الغلو. فكثيراً ما يُطرح هذا المصطلح ولكنه يُقدّم بطريقة ضبابية ومشبوهة، ولذلك نجد أن الكثيرين لا يمتلكون فهماً واضحاً وصريحاً له ويقع البعض ضحية من يستخدمه كفضاعة لتخويف الناس وإبعادهم عن المعارف والحقائق الخاصة بأهل البيت عليه السلام، غير مُلتفتين إلى أن هناك آراء متعدّدة حول المسألة وعلى كل فرد أن يميل إلى الرأي الذي يجده مُوافقاً للقرآن والسنة. ومن هنا، وجب الكلام في مسألة الغلو وتقديمها بنحوٍ علميٍّ مستندٍ إلى الآراء اللغوية والاصطلاحية من جهة، وروايات أهل البيت عليه السلام من جهةٍ أخرى.

الغلو لغةً هو الإرتفاع ومجاورة القدر والحدّ في كل شيء. واصطلاحاً هو أن تنسب لأحد ما ليس فيه وتعتقد بذلك، كما يُصطلح على أنه مجاوزة الحدّ المعقول والمفروض في العقائد الدينية والواجبات الشرعية. وهنا يطرح السؤال نفسه: من الذي يحدّد إذا كان هذا الأمر أو ذاك موجوداً في المنسوب إليه أو غير موجود؟ ومن الذي يرسم الحدّ؟ وعبارة عن أيّ شيء هو؟ ووفقاً لأيّ عقل يُعدّ معقولاً أو غير معقول؟

إن الفرق بين اللغة والاصطلاح هو أنه في اللغة قد توضع كلمة لها معنى متعدّد الاتجاهات ولكن حين يُكثّرُ الناس من استخدامها في اتجاه واحد، تصبح هذه الكلمة عبارة عن مصطلح يدلّ على معنى معيّن واحد. مثلاً: كلمة ربّ، تعني في أصل اللغة الصّاحب والمالك للشيء أو المربّي والمدير والمدير، أما من ناحية الإصطلاح فهي تستخدم للدلالة على الله تعالى لأنه المصداق الأوّل على الصّاحب والمالك لكلّ شيء، فيقال مثلاً: ربّ العالمين، ربّ الناس... وهكذا بالنسبة لكلمة الغلوّ، فالغلوّ لغة^(١) هو التجاوز عن الحدّ أما عملياً فبات القصد منه كل من يعطي أهل البيت ﷺ مقامات وفضائل ومناقب يرى البعض أنها مبالغ فيها، وفقاً لأسباب سنعرضها فيما بعد. غير أنّ هناك من يرى أن ما ينبغي أن نعتمده أساساً لتحديد مصطلح الغلوّ هو كلام أهل البيت ﷺ ولا أحد سواهم، إذ يقول الإمام الصادق ﷺ: «... إنّ الغلاة شرٌّ خلق الله، يُصغّرون عظمة الله، ويدّعون الرّبوبية لعباد الله...»^(٢)، فالإمام ﷺ يحدّد الغلوّ ويحصّره في ادّعاء الرّبوبية لغير الله تعالى. أمّا الحديث في فضائل أهل البيت ومناقبهم ومقاماتهم ﷺ، فيرى أصحاب هذا الرأي أنه لا يدخل ضمن تعريف الغلوّ على الإطلاق، لأنّه مهما قيل في حقّهم فلن يبلغ أحدٌ مقامهم ولن يتجاوز أحدٌ الحدّ فيهم طالما أنّه جعل لهم ربّاً يؤوبون إليه، إذ أنّهم القائلون:

(١) من الأمثلة على عدم إحاطتنا بكل معاني المفردات التي تتضمنها اللغة العربية، فهّمنا لمفردة «الغفلة»، حيث لا يتبادر إلى ذهننا عند ذكرها سوى المعنى السلبيّ لها وهو السّهو عن أمر ما، غير أنّ لهذه المفردة معنى آخر إيجابياً. فقد خاطب الله تعالى نبيه ﷺ في كتابه قائلاً: ﴿تَحَنَّنْ نَفْسُ عَلَيَّ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (سورة يوسف، آية ٣)، فكان ذلك مديحاً له وليس ذمّاً كما يظنّ البعض، إذ ورد عن أمير المؤمنين ﷺ: «أشرف أخلاق الكريم تغافله عما يعلم»، (ميزان الحكمة، ج ٣ ص ٢٢٨٧). كما ورد حديثه ﷺ بنحو آخر: «من أشرف أعمال [أحوال] الكريم غفلته عما يعلم»، ميزان الحكمة، ج ٣ ص ٢٢٨٧.

(٢) أمالي الطوسي، ص ٦٥٠.

«إجعلوا لنا رباً نؤوب إليه وقولوا فينا ما شئتم»^(١). فاستناداً إلى تعريف الغلو لغةً واصطلاحاً من غير المقبول أن تُنسب تهمة الغلو إلى المتكلم عن فضائل أهل البيت عليه السلام، وأقصى ما يمكن فعله في هذه الحالة هو النقاش والبحث بسند الرواية.

وفي الواقع، ثمة من يطرح رأياً غاية في الأهمية بما يتعلق بروايات أهل البيت عليه السلام، إذ يلفت إلى وجوب مراعاة عدة أمور في أحاديثهم عليه السلام، كمدارة ظرفية المتلقي وزمان الكلام وطبيعة السؤال المطروح. فتارةً يتكلم الإمام عليه السلام بحسب قابلية السامع وقدّر احتماله^(٢)، على قاعدة «أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم»، فقد يجيب شخصين بإجابتين مختلفتين تبعاً لقابلية وسعة كل منهما، حتى أنه قد لا يوصل الحقائق إلى الناس بشكل مباشر أحياناً، فيستخدم أحد أصحابه للإخبار بالمعارف أو حتى قد يُنطق الحيوانات والنباتات والجمادات لأجل هذه الغاية، وذلك بحسب المرتبة الفكرية والمعنوية للمُخاطب. وتارةً يأتي كلام الإمام عليه السلام بحسب طبيعة سؤال السائل، حيث ورد: «لو زدتم في السؤال حرفاً لزدنا في الجواب حرفاً»^(٣). وأحياناً يتبع الإمام النقيّة في كلامه. وأحياناً أخرى يُظهر الأمور كما هي بنحو مُحكم فيكون كلامه آيات مُحكمات، بينما يتبع البعض المُتشابه من كلام الإمام، ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾^(٤). ففي رواية عن الإمام الرضا عليه السلام، يقول لابن هذاب: «إن أنا أخبرتك أنك ستبتلى في هذه الأيام بدم ذي رحم لك أكنت مصدقاً لي؟ قال: لا، فإن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى. قال عليه السلام: أوليس الله يقول: ﴿عَلِمُ

(١) مختصر بصائر الدرجات، ص ٥٩.

(٢) إذ تكلم آل محمد صلوات الله عليهم كثيراً بأحاديث ظاهرها النقيّة أمام العامة أو أمام من يروونه ضعيف الدين أو اليقين وهو يُبحث رجالياً في محله عبر السند ورواياته والدلالة.

(٣) كشف الحق في مسائل المعراج، ص ٣٤.

(٤) سورة آل عمران، آية ٧.

الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴿١﴾ فرسول الله عند الله مرتضى، ونحن ورثة ذلك الرسول الذي أطلعه الله على ما شاء من غيبه، فعلمنا ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وإن الذي أخبرتك يا بن هذاب لكائن إلى خمسة أيام، فإن لم يصح ما قلت لك في هذه المدة فإني كذاب مفتر، وإن صح فتعلم أنك الراد على الله وعلى رسوله ﴿٢﴾. كما ورد في الرواية أنه «ما كل ما يُعلم يُقال، ولا كل ما يُقال حان وقته، ولا كل ما حان وقته حضر أهله» ﴿٣﴾، ولهذا نجد أنه في زمان كل إمام تظهر وتنكشف حقائق لم تكن قد كُشِفَتْ في زمان الإمام الذي سبقه. وعلى سبيل المثال، لم تكن الحقيقة التي أظهرها الإمام العسكري (عليه السلام) معروفة من قبل، حيث قال: «قد سعدنا ذرى الحقائق بأقدام النبوة والولاية، ونورنا السبع الطرائق بأعلام الفتوة... فالكلیم أليس حلة الاصطفاء لما عهدنا منه الوفاء، وروح القدس في جنان الصاقورة ذاق من حدائقنا الباكورة...» ﴿٤﴾، وكذلك فقد وصلنا من صاحب الزمان (عليه السلام) حقائق جديدة لم يقلها إمام قبله، حتى أن البعض أنكرها وشكك بصحتها لعدم احتمالها لها، ومن ذلك ما كشفه (عليه السلام) في الزيارة الرجبية، حيث قال: «لا فَرْقَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا إِلَّا أَنَّهُمْ عِبَادُكَ وَخَلْقُكَ». علاوة على ذلك، يستفيد أنصار هذا الرأي من حقيقة أن بمقدور كل إمام نسخ كلام الإمام الذي قبله أو حتى كلام سابق له نفسه، فعن منصور بن حازم قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): «ما بالي أسألك عن المسألة فتجيبني فيها بالجواب، ثم يجيئك غيري فتجيبه فيها بجواب آخر» ﴿٥﴾؟ فقال: إنا نجيب الناس على الزيادة والنقصان، قال: قلت: فأخبرني عن أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) صدقوا على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أم كذبوا؟ قال: بل صدقوا،

(١) سورة الجن، آية ٢٦ - ٢٧.

(٢) الخرائج، ج ١ ص ٣٤٣.

(٣) بحار الأنوار، ج ٥٣ ص ١١٥.

(٤) بحار الأنوار، ج ٧٨ ص ٣٧٨.

(٥) أي أن الإمام (عليه السلام) يجب كل بحسبه.

قال: قلت: فما بالهم اختلفوا؟ فقال: أما تعلم أن الرجل كان يأتي رسول الله ﷺ فيسأله عن المسألة فيجيبه فيها بالجواب ثم يجيبه بعد ذلك ما ينسخ ذلك الجواب، فنسخت الأحاديث بعضها بعضاً^(١). وعن زرارة بن أعين، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «سألته عن مسألة فأجابني ثم جاءه رجل فسأله عنها فأجابه بخلاف ما أجابني، ثم جاء رجل آخر فأجابه بخلاف ما أجابني وأجاب صاحبي، فلما خرج الرجلان قلت: يا ابن رسول الله، رجلان من أهل العراق من شيعتكم قدما يسألان فأجبت كل واحد منهما بغير ما أجبت به صاحبه؟ فقال: يا زرارة، إن هذا خير لنا وأبقى لنا ولكم ولو اجتمعتم على أمر واحد لصدقكم الناس علينا ولكان أقل لبقائنا وبقائكم»^(٢). وعن الحسين بن المختار عن بعض أصحابنا، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أرايتك لو حدثتك بحديث العام ثم جئتني من قابل فحدثتك بخلافه بأيّهما كنت تأخذ؟ قال: قلت: كنت آخذ بالأخير، فقال لي: رحمك الله»^(٣)، وعن المعلى بن خنيس قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «إذا جاء حديث عن أولكم وحديث عن آخركم بأيّهما نأخذ؟ فقال: خذوا به حتى يبلغكم عن الحيّ، فإن بلغكم عن الحي فخذوا قوله»، قال: «ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: إنا والله لا ندخلكم إلا فيما يسعكم، وفي حديث آخر خذوا بالأحدث»^(٤). وبالتالي، فإنّا كلّما تقدّمنا في الزمن، كلّما تكامل ظهور الحقيقة، حتى تظهر بشكل كامل وتأمّ مع ظهور صاحب الزمان عليه السلام.

كما حتّنا أئمّتنا عليه السلام على ضرورة تمييز المُحكّم من المتشابه من القول، حيث قالوا إنّ في أخبارهم متشابهاً كمتشابه القرآن ومحكمّاً كمحكم القرآن، فينبغي أن نردّ متشابهها إلى محكمها، وأن لا نتّبع متشابهها دون محكمها فنضلّ^(٥). هذا

(١) الكافي، ج ١ ص ٦٥.

(٢) الكافي، ج ١ ص ٦٥.

(٣) (الكافي، ج ١ ص ٦٧). وهو دليل على النسخ.

(٤) الكافي، ج ١ ص ٦٧.

(٥) عيون أخبار الرضا، ج ١ ص ٢٩٠.

إلى جانب كلامهم عليه السلام عن مسألة البداء التي تعتبر غاية في الأهمية ومن أصول عقائد الإمامية، حيث يُغيّر الله تعالى القضاء المكتوب ويبدّله، فقد ورد في الرواية عن سعد بن عبد الله الأشعري قال: حدّثني أبو هاشم داود بن القاسم الجعفري قال: «كنتُ عند أبي الحسن عليه السلام وقتَ وفاة ابنه أبي جعفر - وقد كان أشار إليه ودلّ عليه - فإني لأفكر في نفسي وأقول: هذه قضية أبي إبراهيم وقضية إسماعيل، فأقبل عليّ أبو الحسن عليه السلام فقال: نعم يا أبا هاشم، بدا الله تعالى في أبي جعفر وصيّر مكانه أبا محمد، كما بدا الله في إسماعيل بعدما دلّ عليه أبو عبد الله عليه السلام ونصّبه، وهو كما حدّثتَ به نفسك وإنْ كره المبطلون، أبو محمد ابني الخلف من بعدي عنده ما تحتاجون إليه ومعه آلة الإمامة والحمد لله»^(١). وقد استدعت هذه المسألة انحراف وضلال^(٢) بعض الناس الذين ما استطاعوا أن يفهموا مسألة البداء ولا أن يصدّقوا بها وضاعوا بين المُحكّم والمُتشابه من كلام الأئمة عليهم السلام، فسُمّوا الواقفة، فعن محمد بن عليّ الرضا عليه السلام أنه قال: «الواقفة هم حمير الشيعة ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾»^(٣). وكذلك جرّت مسألة البداء في توقيت ظهور القائم عجل الله فرجه، فعن أبي حمزة الثمالي قال: قلتُ لأبي جعفر عليه السلام: «إن عليّاً عليه السلام كان يقول إلى السبعين بلاء، وكان يقول بعد البلاء رخاء وقد مضت السبعون ولم نر رخاء؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: يا ثابت إن الله تعالى كان وقتَ هذا الأمر في السبعين، فلما قُتل الحسين اشتدّ غضب الله على أهل الأرض فأخّره إلى أربعين ومائة سنة فحدّثناكم فأذعنتم الحديث، وكشفتم قناع السّتر، فأخّره الله ولم يجعل له بعد ذلك وقتاً عندنا، ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾»^(٤). وعن أمير المؤمنين عليه السلام في حديثٍ طويل يقول: «ولولا آية في كتاب الله لأخبرتكم بما

(١) الغيبة، ج ١ ص ٢٢٤.

(٢) ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾، سورة العنكبوت، آية ٢.

(٣) بحار الأنوار، ج ٤٨ ص ٢٦٧.

(٤) بحار الأنوار، ج ٥٢ ص ١٠٥.

كان وبما يكون وبما هو كائن إلى يوم القيامة، وهي هذه الآية: ﴿يَمَحُورُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(١).

وبالتالي، لا يكون الرجل من الشيعة فقيهاً حتى يعرف معاريض كلام أهل البيت عليه السلام^(٢)، فأفقه الناس هو من عرف معاني كلامهم^(٣) الذي ينصرف على سبعين وجهاً^(٤)، والعلامة التي تحدّد منازل الشيعة هي قدر ما يحسنون من روايات أهل البيت عليه السلام^(٥) الذين لا يعدّون الفقيه فقيهاً حتى يكون مفهّماً محدثاً^(٦). وبالتالي، فليس الكلّ قادراً على تبيان معاني كلام أهل البيت واستخراج مُحكمه من متشابهه. ومن هنا، ثمة من عيّن أولى درجات الغلوّ بنفي السّهو عن النّبّي صلى الله عليه وآله، وثمة من وجد مشكلة في كلمة «ربّ» التي يطلقها البعض أحياناً على أهل البيت عليه السلام، بينما لم يعتبرها آخرون غلوّاً إذا لم يتجاوز بها الحدّ ولم يقصد بها أنّ أهل البيت عليه السلام هم أرباب من دون الله، فهذه الكلمة، كما سبق ذكره، تُستخدم في اللغة بمعنى المربّي والصّاحب والرّأس^(٧)، حيث يُقال: ربّ البيت، وربّ العمل وغيرهما من العبارات. كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَّه الشَّيْطَانُ ذِكْرَ

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٢ ص ٥١٤.

(٢) بحار الأنوار، ج ٢ ص ١٨٤.

(٣) من كلام آية الله بهجت رضوان الله عليه أنه لا يكون العالم عالماً إلا أن ينظر في الحديث فيعرف إذا كان صادراً عن آل محمد عليه السلام أم لا. (يعني أن يكون من أهل الدّراية).

(٤) بصائر الدرجات، ج ١ ص ٣٤٩.

(٥) «اعرفوا منازل شيعتنا بقدر ما يُحسنون من رواياتهم عنّا»، وسائل الشيعة، ج ١٨ ص ١٠٧.

(٦) (وسائل الشيعة، ج ٢٠ ص ١١٤). أي أنّ الفقيه عندهم ليس فقط من أهل الفتوى والإفتاء بل أيضاً من أهل القلوب الذين قالوا فيهم: «ما من عبدٍ أحبّنا وزاد في حبّنا وأخلص في معرفتنا وسأل مسألة إلا ونفثنا في روعه جواباً لتلك المسألة»، وهذا هو المحدث والملهم.

(٧) أو القيوم على الملوك ومدير شؤونه وذلك من مختصّات الربوبية العامة.

رَبِّهِ فَلَيْثَ فِي السَّجَنِ بَضْعَ سِنِينَ^(١)، والرَّبُّ في الآية بمعنى المَلِكِ. وكذلك فإنَّ أهل البيت عليه السلام كانوا يستخدمون تعبير الربِّ في كلامهم، إذ رُوِيَ «أَنَّ عَلِيًّا اشْتَرَى تَمْرًا بِالكُوفَةِ، فَجَعَلَهُ فِي طَرَفِ رِدَائِهِ، فَتَبَادَرَ النَّاسُ إِلَى حَمَلِهِ، وَقَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَحْنُ نَحْمِلُهُ؟ فَقَالَ عليه السلام: رَبُّ الْعِيَالِ أَحَقُّ بِحَمَلِهِ»^(٢). وكذلك فقد ورد في كثيرٍ من الأدعية المنقولة عن أهل البيت عليه السلام تعبير ربِّ الأرباب، إذ ورد في أحد الأدعية: «يَا عَلِيُّمُ يَا حَكِيمُ يَا رَبَّ الْأَرْبَابِ وَسَيِّدَ السَّادَاتِ»، ممَّا يعني أن الله عزَّ وجلَّ هو ربُّ كلِّ ما يمكن أن يُطلق عليه كلمة الربِّ في الوجود. يقول الله تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا^(٣)». كما يقول تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ^(٤)». من الشائع أن الغلوَّ ينطوي على معنى ذي طابع سلبيٍّ غير ممدوح، إلا أن ما هو معلوم في اللغة أنَّ اللفظة تكتسب معناها بحسب السياق الذي تردُّ فيه وبالتالي فقد يتغير المعنى إلى عكسه. فالبعض يرى أنَّه في الآية الثانية التي جاءت في سورة المائدة - وهي نزلت بعد سورة النساء - ظهرت كلمة الغلوَّ بحِثِّيَّةٍ مختلفة وتفصيلٍ إضافيٍّ، حيث تَبَعَهَا تحديدٌ وتوصيفٌ عبر تعبير «غير الحق». ويعرب أهل اللغة كلمة «غير» في هذا الموضع على أنها نعتٌ للمفعول المطلق المحذوف «غلوًّا» منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة وهو مضاف إلى كلمة «الحق» التي تُعَرَّبُ مضاف إليه مجرور وعلامة جرِّه الكسرة الظاهرة. فالجملة هي: «لا تغلو في دينكم غلوًّا غير الحق»، ولفظة «غير»، نعتٌ

(١) سورة يوسف، آية ٤٢.

(٢) بحار الأنوار، ج ٣٧ ص ٥٤.

(٣) سورة النساء، آية ١٧١.

(٤) سورة المائدة، آية ٧٧.

لغلوّ دالّ على الغلو المستثنى من النهي بعكس الغلوّ غير الحق. ومن جهة ثانية، يلحظ البعض أنه يمكن استخدام لفظة «غير» كأداة استثناء ويجري عليها أحكام المستثنى، حيث تُعرب على أنها مُستثنى منصوب بالفتحة وهو مضاف، فتأتي الكلمة التالية مضافاً إليه مجرور، وهو ما ينطبق على كلمة «الحقّ» الآتية بعد «غير». وعليه، يمكن فهم الآية الكريمة كاللّحو التالي: يا أهل الكتاب لا تغلّوا في دينكم «إلا» الحقّ. وبكل الأحوال، إذا ما قارنّا بين الآيتين، نجد أنّ تعبير «الحق» هو المشترك بينهما، فهو الهدف والمطلوب والغاية والمقصد. ومن المعلوم أن الله تعالى هو الحق وأنّ عليّاً مع الحقّ والحقّ مع عليّ، يدور معه كيفما دار^(١).

وبعيداً عن حيثيّات اللغة والإعراب، هناك من يعتبر أنّ المغالاة بمعناها المتعارف عليه مذمومة ومرفوضة غير أنّ الحبّ النابع من القلب ممدوح ولا إشكال فيه، مُستندين في رأيهم هذا إلى أنّ الإنسان مفطور على المغالاة^(٢) في من يحبّ، فكيف يطره الله على هذه الشاكلة ثمّ ينهاه عن ذلك! والدليل ما ورد في دعاء العبرّات: «أفما يكفيني يا ربّ وسيلةً إليك، وذريعةً لديك، أنني لأوليّاء دينك مُوالٍ، وفي محبّتهم مُغالٍ»^(٣). ففي الحبّ، من الطبيعي أن يكون المحبّ مغالياً في عشق محبوبه، كما هو نصّ الدعاء، ولكنّ المشكلة قد تكون، برأيهم، في ظهور هذا الغلوّ إلى الخارج بكلامٍ أو سلوكٍ خاطئ^(٤)، ولعلّه من أجل ذلك وردت الروايات الدائمة في المُغالين مثل قول أمير المؤمنين عليه السلام: «هلك فيّ رجلان محبّ غالٍ ومبغض قالٍ»^(٥)، وقولهم عليهم السلام: «إلينا يرجع الغالي

(١) ميزان الحكمة، ج ١ ص ١٣٨.

(٢) أي الإكثار في المدح والذكر ولا يجد نفسه في ذلك مسرفاً أبداً.

(٣) أي مُقدّم محبّتهم على كل أمور ديني ودنيائي وهي شعارٌ مرفوع.

(٤) أي ترجمة ذلك بطريقة تُسيء إلى المحبوب.

(٥) نهج البلاغة، الحكمة ٤٦٩.

فلا نقبله، وبنا يلحق المقصّر فنقبله»^(١)، علماً أن هناك رواية أخرى تقول: «الغالي في محبتنا نردّه إلينا ويثبت ويستجيب ويرجع، والمقصّر ندعوه إلى اللحاق والإقرار بما فضلنا الله به فلا يثبت ولا يستجيب ولا يرجع ولا يلحق بنا»^(٢). وفي رواية عن المفضل بن عمر قال: قلت للصّادق عليه السلام: «يا مولاي، من المقصرة والمرتفعة؟ قال: يا مفضل، المقصرة»^(٣) الذين هداهم الله إلى فضل علمنا، وأفضينا إليهم بسرّنا، فشكّوا فينا وأنكروا فضلنا وقالوا: لم يكن الله ليعطيهم سلطانه وقدرته. وأما المرتفعة، فالذين يرتفعون بمحبتنا وولايتنا أهل البيت، وأظهروها بغير حقيقة فليسوا منّا ولا نحن أئمتهم أولئك يعذبون بعذاب الأمم الطاغية حتى لا يبقى نوع من العذاب إلا عُذبوا به. قال المفضل: قلت يا سيدي، أليس قد روينا عنكم أنكم قلت: الغالي يُردّ إلينا والتالي نُلحقه بنا؟ قال: يا مفضل، ظننت أن التالي هو المقصّر؟ قال: كذا ظننت يا سيدي. قال: كلا، التالي هو من أختار شيعتنا القائلين بفضلنا المتمسّكين بحبل الله وبحبلنا،

(١) أمالي الطوسي، ص ٦٥٠.

(٢) الهداية الكبرى، ص ٤٣٢.

(٣) في رواية عن جابر وهو يُحدّث الإمام الباقر عليه السلام: «قلت: يا بن رسول الله ومن المقصّر؟ قال: الذين قصرُوا في معرفة الأئمة وعن معرفة ما فرض الله عليهم من أمره وروحه، قلت: يا سيدي، وما معرفة روحه؟ قال عليه السلام: أن يعرف كل من خصّه الله تعالى بالروح فقد فوض إليه أمره يخلق بإذنه ويحيي بإذنه ويعلم الغير ما في الضمائر ويعلم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وذلك أن هذا الروح من أمر الله تعالى، فمن خصّه الله تعالى بهذا الروح فهذا كامل غير ناقص يفعل ما يشاء بإذن الله، يسير من المشرق إلى المغرب في لحظة واحدة، يعرج به إلى السماء وينزل به إلى الأرض ويفعل ما شاء وأراد»، (بحار الأنوار، ج ٢٦ ص ١٤ - ١٥)، وهذا المقصّر هو عدوّ آل محمّد عليه السلام، حيث يقول الإمام الصادق عليه السلام: «يا مفضل، النَّاصِبَةُ أَعْدَاؤُكُمْ وَالْمُقَصِّرَةُ أَعْدَاؤُنَا، لِأَنَّ النَّاصِبَةَ تُطَالِبُكُمْ أَنْ تَقْدِمُوا عَلَيْنَا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَلَا يَعْرِفُوا مِنْ فَضْلِنَا شَيْئاً، وَالْمُقَصِّرَةُ قَدْ وَافَقُوكُمْ عَلَى الْبَرَاءَةِ مِمَّنْ ذَكَرْنَا وَعَرَفُوا فَضْلَنَا وَحَقَّنَا فَأَنْكَرُوهُ وَجَحَدُوهُ وَقَالُوا: هَذَا لَيْسَ لَهُمْ لَأَنَّهُمْ بَشَرٌ مِثْلُنَا، وَقَدْ صَدَقُوا أَنَّنَا بَشَرٌ مِثْلَهُمْ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ بِمَا يَفُوضُهُ إِلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ فَنَحْنُ نَفْعَلُ بِإِذْنِهِ»، صحيفة الأبرار، ج ٢ ص ٥٢٦ نقلاً عن الهداية الكبرى.

الذين يزدادون بفضلنا وعلمنا، وإذا ورد عليه خبر عنا قبله وعمل به ولم يشك فيه، فإن لم يُطْفَئْ رَدُّهُ إلينا ولم يردّه علينا؛ فذاك هو التالي. وأما الغالي فليس يتخذنا أرباباً من دون^(١) الله، وإنما اقتدى بقولنا: إجعلونا عبيد الله مربوبين مرزوقين وقولوا في فضلنا ما شئتم فلن تدركوهم^(٢).

ويستعين أصحاب هذا الرأي برواية الإمام الصادق عليه السلام لتبيان أوصاف المغالي المنبوذ، حيث يقول عليه السلام: «إحذروا على شبابكم الغلاة لا يُفسدوهم، فإنَّ الغلاة شرُّ خلق الله، يُصعِّرون عَظْمة الله، ويدعون الربوبية لعباد الله، والله إنَّ الغلاة شرُّ من اليهود والنصارى والمجوس والذين أشركوا... لأنَّ الغالي قد اعتاد ترك الصلوة والزكاة والصيام والحجّ فلا يقدر على ترك عاداته وعلى الرجوع إلى طاعة الله عزَّ وجلَّ أبداً...»^(٣). إذاً، فالغلوّ من حيث العقيدة هو جعل البعض أرباباً من دون الله، ومن حيث الفقه هو ترك الشريعة والعبادات^(٤)، وقد قال الله تعالى وهو يخاطب عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾^(٥)، فالنقطة المنهي عنها هي تربيهم من دون الله.

كما يذكر أنصار هذا الرأي مصداقاً آخر للغلوّ وهو أن يتكلّم الإنسان بكلام رفيع عن أهل البيت عليهم السلام مع عدم وجوده واقعاً في القلب، فيكون غلوّه بمعنى النفاق والرياء، لأنَّ مَنْ كان ظاهره في ولاية أمير المؤمنين عليه السلام أكثر من باطنه خفّت موازينه^(٦). وكذلك فإن المغالي بغير الحق فاسق، حيث يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْرَبْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى

(١) أي أنَّ المعيار في عدم الضلال هو عدم جعلهم أرباباً مستقلّين وهو ممتنع بالذات.

(٢) صحيفة الأبرار، ج ٢ ص ٥١٧.

(٣) أمالي الطوسي، ص ٦٥٠.

(٤) ومنعهم من جعله الزيادة في الدين بما يُسند إلى المولى من دون دليل بما يراه من اجتهاد رأيه وهو غير مُلزم به في مقام العمل وعليه ذهب بعض الأصحاب.

(٥) سورة المائدة، آية ١١٦.

(٦) مشارق أنوار اليقين، ص ٢٤٦.

يَأْتِيكَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ^(١). فالإنسان يغالي في حبه لأهله وماله وشهوته ومنصبه وأهوائه، ولا ينفك عن ذكرهم في كل الأوقات حتى بصلاته، إلى أن يصيروا وردّه لا ذكره فحسب. ولكنّه، في المقابل، يرتدع ويخاف من الغلوّ في حبّ أهل البيت عليهم السلام، مُتناسياً قول رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»^(٢). كما أنه يغالي في البذل والإنفاق على أهله وأولاده وأحبّائه^(٣) إلا أنه يترث ويفكر حين تتعلق المسألة بالبذل والإنفاق في سبيل الله وأهل البيت عليهم السلام، لأن ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾^(٤) و﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾^(٥). والبعض يقضي ليله ونهاره وهو ينهى عن الغلوّ في أهل البيت عليهم السلام ويحذّر منه ويذمّ المغالين، في الوقت الذي تراه يغالي في شربه وأكله وحبه للنساء وتدخين النرجيلة وكسب الأموال والأرباح، فما نفع ذمّه للغلوّ قولاً في حين أنّه من المغالين فعلاً؟! أم هل أنّ المحظور هو الغلوّ في حبّ أهل البيت عليهم السلام والحديث عن مقاماتهم فقط في حين أنّه من المسموح الغلوّ في الماديّات والأموال الدنيوية؟ هذا مع العلم أنه قد صرّح القرآن الكريم بخُسران هذه الطائفة، ومع ذلك لا نرى أحداً ينهى عنه مع وضوح نصّه وموثوقيّة صدوره!

أما بالنسبة للأسباب التي تدفع الناس إلى الوقوع في الغلوّ أو رمي غيرهم به، فثمة من يرى أنّ أحد هذه الأسباب هو جهل الناس بالله (بأسمائه وصفاته) وبقدرته تبارك وتعالى. وهنا من المفيد إيراد لمحة موجزة عن الأسماء والصفات الإلهية وكيفية ظهورها ونفاذها في كل الكون لإثبات وجود الله سبحانه وتعالى ووحدانيّته. إن هذا الوجود فيه من القوانين والأنظمة ما يُتسدّل به على وجود

(١) سورة التوبة، آية ٢٤.

(٢) ميزان الحكمة، ج ٢ ص ٢٣٧.

(٣) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلَهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، سورة المنافقون، آية ٩.

(٤) سورة النجم، آية ٣٠.

(٥) سورة الإسراء، آية ٨٤.

المدبر والصانع، فما من سبب في هذا الكون إلا وله مسبب وما من معلول إلا وله علّة. فمثلاً: كلّ موجود على وجه الأرض هو مخلوق، ممّا يدلّ على وجود الخالق، وهذا المخلوق يحتاج إلى الرزق وكلّ أسباب الحياة والعيش، ممّا يدلّ على وجود الرازق والمحيي، وإذا مرض يحتاج إلى الشفاء ممّا يدلّ على وجود الشافي، كما أنّ كل دابة على وجه الأرض منتهاها إلى الموت، ممّا يدلّ على وجود المميت، وهكذا بالنسبة لبقية الأسماء الإلهية. تظهر هذه الأسماء وتتجلّى في كافة المخلوقات ولكن بقدر محدود، فمثلاً عندما تلد المرأة تكون مظهرًا لاسم الله الخالق، كما أنّ الرجل هو مظهر اسم الله الرازق والمعطي، والقاتل مظهر اسم الله القابض، والطبيب مظهر اسم الله الشافي... ولكن كما يقول الفلاسفة، فإنه من الحتميّ وجود أمّهات للأسماء تؤدي وظيفة الحاكمة والضابطة لعمل كل اسم على حدة وهذه الأسماء هي «الأوّل» و«الآخر» و«الظاهر» و«الباطن». فلولا هذه الأسماء لما كان هناك ضابط يضبط عمل اسم الله «الخالق»، على سبيل المثال، ولكانت الكرة الأرضية قد فاضت بالخلائق وكذا بالنسبة لاسم الله «الرازق» و«المميت»، إلخ. وفوق هذه الأسماء، هناك اسم جامع حاكم على هذه الأسماء الأربعة ومن ورائها كل الأسماء الإلهية، وهو الإسم الأعظم. وإن مرجع الأسماء الإلهية إلى الإسم المقدّس الجامع المانع فهو جامع لشمّلها وشامل لجمعها، مُتَجَلٍّ في أفرادها ثمّ إنّ «لكل اسم من الأسماء الإلهية صورة باطنة في العالم تسمى بالصورة الغيبية وصورة ظاهرة تسمى بالصورة العينية، وإن لكلّ الأسماء ربّاً وهي مربوبة له والحقيقة المحمّدية صورة الإسم الجامع الإلهية ومنه الاستمداد لجميع الأشياء وتلك الحقيقة هي التي تربّي صور العالم كلها بالربّ الظاهر فيها وهو ربّ الأرباب، لأنها هي الظاهرة في تلك المظاهر، فبصورتها الظاهرة المناسبة لصورة العالم التي هي مظهر الاسم الأعظم وله الربوبية المطلقة، ولذلك قال رسول الله ﷺ: خُصِّصَتْ بفتحة الكتاب وخواتيم البقرة وأُعطيَتْ جوامع الكلم»^(١). وانطلاقاً ممّا تقدّم،

(١) مشارق الأمان ولباب حقائق الإيمان، ص ٤٦.

فإنّه من أجل هداية الموجودات وتعريفها بأنّ هناك حاكماً واحداً إليه ترجع كل هذه الأسماء والصفات، كان لا بدّ من إرسال الرّسل والأنبياء في كل زمانٍ ومكان. وكان من الضروريّ أن يكون هذا الرسول أو النبيّ مظهرّاً للأسماء والصفات الإلهية حتى ينجذب إليه الناس ويكون مصداقاً وتعيّناً للحقيقة التي يدعو إليها. ومن هنا، كان الأنبياء كالنبيّ موسى وعيسى وإبراهيم ونوح عليهم السلام مُظهرين لبعض الأسماء الإلهية كالخالق والقادر والرازق والحليم... ومن أجل إظهار الحقيقة على نحوٍ أكمل، أوجد الله تعالى في الخلق مظاهر تامّة لجميع أسمائه وصفاته - ويتعبّر أدقّ لاسمه الأعظم (تعيّناً للإنسان الكامل أي المعصوم) - ولم يُخلِ الوجود منها في أيّ زمانٍ لئلا تنقطع حجّته على الخلق ولئلا يُفقد الحاكم على كلّ الأسماء والصفات الإلهية، فبهذه المظاهر التامّة يُستدلّ على الله وبها يُعرّف ويوحّد. فمَنْ هي هذه المظاهر التامّة؟ قال أبو عبدالله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾: «نحن والله الأسماء الحسنی التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلا بمعرفتنا»^(١)، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته المعروفة بخطبة البيان: «وأنا الإسم الأعظم». فأهل البيت عليهم السلام هم المظاهر التامّة لأسماء الله تعالى لا بل هم أسماء الله نفسها كما توضّح الرواية السابقة. وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «نحن الأدلاء على الله»^(٢)، وقد ورد في دعاء الصباح: «يا مَنْ دلّ على ذاته بذاته وتنزّه عن مجانسة مخلوقاته». فهل يمكن معرفتهم عليهم السلام؟ قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الإمام يا طارق بشر ملكيّ وجسد سماويّ وأمر إلهي وروح قدسي ومقام عليّ ونور جليّ وسرّخفيّ، فهو ملكيّ الذات إلهي الصفات...»^(٣).

إذاً، بالعودة إلى الرّأي القائل بأنّ جهل الناس بأسماء الله وصفاته هو أحد أسباب الوقوع في الغلوّ أو اتهام الغير به، تتفرّع من هذا الجهل نتائج متعدّدة.

(١) الكافي، ج ١ ص ١٤٣.

(٢) الكافي، ج ١ ص ١٩٣.

(٣) بحار الأنوار، ج ٢٥ ص ١٦٩ - ١٧٤ ب ٤؛ مشارق أنوار اليقين، ص ١١٤ - ١١٧.

فحين رأى الناس معجزات النبي عيسى عليه السلام وشاهدوه يولد من غير أب ويحيي الموتى ويشفي المرضى ويصعد إلى السماء، غالوا فيه وقالوا إنه الله، أو ابن الله والعياذ بالله، وكذلك فعل البعض حينما عاينوا بعض أفعال أمير المؤمنين علي عليه السلام، وما ذلك إلا نتيجة جهلهم بتمظهر أسماء الله وصفاته في الخلق، والله تعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾^(١)، فقد حد هؤلاء الجهل قدرة الله وقيدوها ببعض الأسماء والصفات والأفعال^(٢)، وكلما رأوا من هو قادر على الإحياء والإماتة والخلق جعلوه إلهاً وعبدوه، ولم يعلموا أن الله أكبر من كل ذلك. وإذا كان هذا هو معيار الألوهية، فسيصبح السامري إلهاً لأنه استطاع خلق^(٣) عجل له خوار^(٤) ليعبده الناس، كما وتذكر الروايات أن الأعور الدجال سيحيي الموتى ويُمطر السماء فهل سيُجعل هو الآخر إلهاً؟ وبالعكس، فإن البعض نتيجة لجهله ولكي لا يقع في الشرك، بحسب ظنه، حين يسمع بفضائل ومناقب أهل البيت عليه السلام وبأنهم قادرون على الإحياء والإماتة والخلق والرزق^(٥) وما إلى ذلك، إما ينكر هذه الحقائق ويتهم قائلها بالغلو أو يستثقلها

(١) سورة الزمر، آية ٦٧.

(٢) والحقيقة أنها مطلقة، بحيث لا يمكن تصوّرها ولا إدراكها، وما ظهر على يد آل محمد صلوات الله عليهم ما هو إلا غيض من فيض، وذلك لأن أقلّ تقييد لأي صفة أو اسم هو كفر بالله تعالى من باب أن من حدّه فقد عدّه ومن عدّه فقد كفر.

(٣) عند العوام يسمّى «خلق» وعند أهل العلم يسمّى «إنشاء».

(٤) عن الإمام الباقر عليه السلام: «... ثم أوحى الله إلى موسى عليه السلام: ﴿فَإِنَّا قَدَفَتْنَا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾. فقال موسى عليه السلام: يا رب، العجل من السامري، فالخوار ممن؟ فقال: مني يا موسى، إني لما رأيتهم قد ولّوا عني إلى العجل، أحببت أن أزيدهم فتنة...»، تفسير القمي، ج ٢ ص ٦٢.

(٥) عن أبي حمزة الثمالي، عن علي بن الحسين عليه السلام، قال: «قلت: الأئمة يحيون الموتى ويبرئون الأكمه والأبرص ويمشون على الماء؟ قال: ما أعطى الله نبياً شيئاً قط إلا وقد أعطاه محمداً عليه السلام، وأعطاه ما لم يكن عندهم. قلت: وكل ما كان عند رسول الله عليه السلام قد أعطاه أمير المؤمنين عليه السلام؟ قال نعم، ثم الحسن والحسين عليه السلام، ثم من بعد كل =

بسبب تلوثه بالذنوب والمعاصي، لأن من قارف ذنباً فارق عقله لا يرجع إليه أبداً^(١)، ومن هنا يتأتى قصور العقل والعجز عن استيعاب حقائق ومقامات أهل البيت عليهم السلام، بخلاف من هو صافٍ وطاهر من الذنوب فيقبل الحقائق كما هي.

إذن، منشأ كل الاختلافات هو الجهل بمقام الأسماء والصفات ظهوراً وتعييناً. وليس كل الناس يطيقون أمر أهل البيت عليهم السلام ويفهمون حقائقهم فهذه المسألة تحتاج إلى إذنٍ وتوفيق، إذ أن أمرهم صعبٌ مستصعب لا يحتمله إلا صدور مشرقة وقلوب منيرة وأفئدة سليمة وأخلاق حسنة^(٢). وفي الواقع، هناك من الناس من يتمكن من الوصول في العلم والمعرفة إلى درجة لم يتمكن سواه من الوصول إليها، فتُكشَف له حقائق وأسرار لم تُكشَف لغيره. وحين يبدأ بالبوح بشيء مما كُشِف له وعرفه، يعجز من هم دونه في المعرفة عن استيعاب تلك الحقيقة وإدراكها لأنهم ليسوا من سنخها، ويتجاوز الكلام الذي يسمعون حدَّ

=إمام إماماً إلى يوم القيامة، مع الزيادة التي تحدث في كل سنة وفي كل شهر. ثم قال: إي والله في كل ساعة، بصائر الدرجات، ص ٢٠٥.

(١) (ميزان الحكمة، ج ٢ ص ٩٨٧). ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (سورة المطففين، آية ١٤)، ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾، سورة البقرة، آية ٧٤.

(٢) «لأن الله قد أخذ على شيعتنا الميثاق فمن وفى لنا وفى الله له بالجنة، ومن أبغضنا ولم يؤد إلينا حقنا فهو في النار، وإن عندنا سراً من الله ما كلف الله به أحداً غيرنا ثم أمرنا بتبليغه فبلغناه فلم نجد له أهلاً ولا موضعاً ولا حملة يحملونه حتى خلق الله لذلك قوماً خلّقوا من طينة محمد وذريته صلى الله عليهم ومن نورهم، صنعهم الله بفضل صنع رحمته فبلغناهم عن الله ما أمرنا، فقبلوه واحتملوا ذلك ولم تضطرب قلوبهم، ومالت أرواحهم إلى معرفتنا وسرنا، والبحث عن أمرنا، وإن الله خلق أقواماً للنار وأمرنا أن نبلغهم ذلك فبلغناه فاشمأزت قلوبهم منه ونفروا عنه وردّوه علينا ولم يحتملوه وكذبوا به وطبع الله على قلوبهم، ثم أطلق ألسنتهم ببعض الحق فهم ينطقون به لفظاً وقلوبهم منكرة له. ثم بكى ورفع يديه وقال: اللهم إن هذه الشذمة المطيعين لأمرك قليلون، اللهم فاجعل محياهم محياناً ومماتهم مماتنا، ولا تُسلط عليهم عدواً فإنك إن سلطت عليهم عدواً لن تُعبد»، بحار الأنوار، ج ٢ ص ٢١٠.

عقولهم^(١)، فمنهم من يتَّقِ الله ويحتمل أن يكون هذا العلم صحيحاً فيمتنع عن قدح وذمّ المتحدّث به، ومنهم - وهم الأكثرية - من يسارع إلى نفي هذه الحقيقة ويُعجّل برمي المتفوّه بها بالغلوّ من دون الاستناد إلى القرآن والسنة وإلى التعريف العلمي والفلسفي والواقعي للغلوّ، وذلك حتى يُبعد الناس عنه ويخوّفهم من قبول الكلام الذي قاله وكشّف عنه لئلاّ يصبحوا من «المغالين» فيخرجون بذلك عن الدين^(٢)! وهنا يصحّ على هؤلاء أيضاً قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، إذ حدّوا قدرة الله تعالى ونسوا أنه حين يشاء يهب ما لا حدّ له من الفضائل والمناقب لمن يشاء، وقد ورد عنهم عليه السلام: «مَنْ أَنْكَرَ شَيْئاً مِمَّا أَعْطَانَا اللَّهُ فَقَدْ أَنْكَرَ قُدْرَةَ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ وَمَشِيَّتَهُ فِينَا»^(٣). وكان هذا دأب الجهلة منذ زمن الأئمة عليهم السلام، إذ قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «لو أخذتُ مائة قلوبهم كالذهب المصفى، ثم أخذت من المائة عشرة، ثم أخذت من العشرة واحداً، ثم اخترته ببعض ما عندي فإذن لقال: عليّ أكذب العرب، وذلك لأن الناس أعداء ما جهلوه، فإذا طلع لهم باب من العلم فقصر دونه أفهامهم كذبوا قائله»^(٤). وهناك من يعتبر أنّ من الأسباب التي تدفع الناس إلى اتهام غيرهم بالغلوّ، الحسد^(٥) وحبّ المنصب والرئاسة. فتارةً، يوجّه الحاسد سهامه صوب الشخص المُتكلّم عن تلك المقامات والعلوم الرفيعة، وتارةً أخرى يكون قصده الحقيقي استهداف أهل البيت عليهم السلام أنفسهم، فلا يقبل مقاماتهم وينكرها ويعمل على دحضها بشتّى الوسائل، ومع علمه^(٦) بحقيقتها وصحّتها إلا أنه يحاول طمسها

(١) وذلك لضعف القابل عندهم، فالقلوب أوعية وخيرها أوعاها، أي أوسعها، والناس

معادن كالذهب والفضّة، أي أنه يمكن أن تجد معدناً لا يقبل الصقل وإذا صقلته تلف.

(٢) وهو دأب المتلبّسين بلباس أهل العلم وهدفهم إبقاء شهرتهم والتفاف العوام حولهم.

(٣) بحار الأنوار، ج ٢٦ ص ٦ - ٧.

(٤) آداب النفس، ج ١ ص ٩٢.

(٥) ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلٍ﴾، سورة النساء، آية ٥٤.

(٦) من كلام للإمام عليّ عليه السلام: «بلى والله لقد سمعوها ووعوها، ولكنهم حليّت الدنيا في

أعينهم وراقهم زبرجها»، نهج البلاغة، الخطبة رقم ٣.

وإخفاءها^(١) حتى لا يخسر مقامه وجاهه عند الناس ، لا سيّما إذا كان من أهل العلم^(٢) الذين يلجأ الناس إليهم ويجمعون حولهم. وحتى لا يظهر بمظهر الحاسد والمحِبّ للرئاسة والمناصب، يتَّهم المتكلّم بهذه المعارف والعلوم بالغلوّ.

وبالعودة إلى مسألة تعريف الغلوّ وتعيين معناه وحدوده، نقلنا، في البداية، التعريف الشائع للغلوّ لغةً واصطلاحاً، والمشارك بينهما أن الغلوّ هو تجاوز الحدّ المفترض. يقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٣). ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾^(٤). ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾^(٥). ﴿الْأُمُورَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾^(٦). وفقاً للآيات المذكورة، فإنّ الله تعالى مرّةً يحذّرنا من الاعتداء على حدوده ومرّةً يحذّرنا من الاقتراب منها حتى، ومرّةً أخرى يُثني على الحافظين لها. إن الله سبحانه وتعالى هو الذي يرسم الحدّ ويعيّنه، وأهل البيت سلام الله عليهم يظهرون هذا الحدّ وبيّنون ماهيّته، والسؤال الذي يطرح نفسه: هل إنّ أهل البيت عليهم السلام يبيّنون هذا الحدّ بناءً على عقولهم وظرفيّتهم هم أم على عقول وظرفيّة الناس الذين لا يمكن لهم أن يفقهوا حقيقة قولهم عليهم السلام، فيقعون إما في التفريط أو في الإفراط؟

(١) عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «لا يعذب الله هذا الخلق إلا بذنوب العلماء الذين يكتمون الحق من فضل عليّ وعترته عليه السلام»، ألا إنه لم يمش فوق الأرض بعد النّبيين والمرسلين أفضل من شيعة عليّ بن أبي طالب عليه السلام الذين يظهرون أمره وينشرون فضله، أولئك تغشاهم الرّحمة وتستغفر لهم الملائكة، الويل كل الويل لمن يكتُم فضله»، الدّمة الساكية، ص ٨٢.

(٢) ورد في الحديث: «إنّ الحسد عشرة أجزاء منها تسعة بين العلماء وواحد في النّاس ولهم من ذلك الجزء الحظّ الأوفر»، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ص ١٥٢.

(٣) سورة البقرة، آية ٢٢٩.

(٤) سورة الطلاق، آية ١.

(٥) سورة البقرة، آية ١٨٧.

(٦) سورة التوبة، آية ١١٢.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «ألا إن الدهر فينا قُسمت حدوده»^(١)، وكذلك ورد في زيارة له عليه السلام: «السلام على شجرة طوبى وسدره المنتهى»، ومن المعلوم أن سدره المنتهى هي آخر حد يصل إليه الإنسان. وعن الصادق عليه السلام أنه قال: «ليس وراءه (أي الإمام) غاية ولا له نهاية»^(٢). وعليه، يتبين أن أهل البيت عليهم السلام هم حدّ الله^(٣). والحدّ المعقول، الذي يُذكر في التعريفات، ينبغي أن يكون بحسب العقل الأوّل، أي رسول الله صلى الله عليه وآله، لا بحسب عقولنا القاصرة^(٤)، إذ أننا نُسقط آراءنا ومعتقداتنا على القرآن وروايات أهل البيت عليهم السلام بينما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إياكم وأصحاب الرأي، فإنهم أعداء السُنن»^(٥). لذا، علينا أن نحفظ حدّنا وقدرنا ونلتزم بالحدود التي رسمها الله عزّ وجلّ وأظهرها بأهل البيت عليهم السلام، فلا نُعيّن حدوداً من عندنا ونفرضها على الله وأهل البيت، وأفضل الأدب أن يقف الإنسان عند حدّه ولا يتعدى قدره^(٦). فجبرائيل عليه السلام، وما أدراك ما جبرائيل! وقف عند حدّه ولم يتعدّه حين وصل إلى السماء الرابعة، حيث

(١) مشارق أنوار اليقين، ص ١٥٠.

(٢) الهداية الكبرى، الباب ٤ ص ٤٣٤.

(٣) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَنْ عَرَفْنَا فَقَدْ عَرَفَ اللَّهَ»، (أمالى الصدوق، ص ٧٥٤). ورد في الزيارة الجامعة الكبيرة: «مَنْ أَرَادَ اللَّهَ بَدَأَ بِكُمْ، وَمَنْ وَحَدَهُ قَبْلَ عَنُكُمْ، وَمَنْ قَصَدَهُ تَوَجَّهَ بِكُمْ».

(٤) قال الإمام الباقر عليه السلام: «كلّ ما ميزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم، ولعلّ النمل الصغار تتوهم أن الله تعالى زبانيّتين»، بحار الأنوار، ج ٦ ص ٢٩٣.

(٥) قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «يا معشر شيعتنا والمُتَحِلِّين مودّتنا، إياكم وأصحاب الرأي، فإنهم أعداء السُنن، تفلّتت منهم الأحاديث أن يحفظوها وأُعِيَتْهُمْ السُنّة أن يُوْهَوا، فاتخذوا عباد الله خولاً، وماله دولا، فذلّت لهم الرقاب وأطاعهم الخلق أشباه الكلاب، ونازعوا الحقّ أهله، وتمثلوا بالأئمة الصادقين وهم من الجهّال والكفار والملاعين، فسُئِلُوا عَمَّا لَا يَعْلَمُونَ، فَأَنْفَوْا أَنْ يَعْتَرَفُوا بِأَنْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، فعارضوا الدين بآرائهم فضلّوا وأصلّوا، أمّا لو كان الدّين بالقياس، لكان باطن الرّجلين أولى بالمسح من ظاهرهما»، تفسير الإمام العسكري عليه السلام، ص ٥٣.

(٦) غرر الحكم، ص ٢٤٧.

قال: «لو دنوْتُ أنملةً لاحتَرقت»^(١). وهناك من يعتبر أنه ليس المطلوب عدم تجاوز حدِّ الله الذي هو أهل البيت عليهم السلام فحسب، بل أيضاً حدود العارفين بهم^(٢)، إذ أن هناك من لا يتجرأ على تجاوز حدود أهل البيت بشكل مباشر، فيعمد إلى انتهاك حدود وحرمة من يتكلَّم عن مقاماتهم ومناقبهم، فيتجاوز الحدَّ معه ويكفره ويخرجه من الدين^(٣). وهكذا، كلٌّ من لا يروق لنا رأيه أو نعجز عن استيعاب قوله، نعتدي عليه ونتجاوز الحدَّ معه، في حين أن الوحيد القادر على إظهار الحدَّ وتبيانهِ وتقديمه وتأخيرهِ كما يرتئي ويشاء هو النبي والإمام لأنهما الأعراف والأدرى بهذا الحدَّ وكيفية إظهاره.

ولكن مع هذا، نجد أن تعريفات الغلوِّ مختلفة ومتفاوتة باختلاف وتفاوت آراء واضعيها. ولا بدّ من لفت النظر إلى مسألة هامّة للغاية وهي أنه كما سبقت الإشارة إلى ضرورة مراعاة عدّة أمور في روايات أهل البيت عليهم السلام، فكَذلك هو الأمر بما يتعلق بكلام العلماء، إذ أنه حين تكلم العلماء السابقين من أساطين المذهب، أعلى الله مقامهم، عن الغلوِّ وحددوا حدوده، كان ذلك إمّا مراعاةً للتقيّة أو بسبب ضعف عقول الناس وقابليّاتهم واستعداداتهم وإيمانهم في ذلك الزمن أو بسبب عدم توفّر الظروف الملائمة لإبداء رأيه الصريح بالغلوِّ لأنّ «ما كل ما يُعلم يُقال، ولا كل ما يُقال حان وقته، ولا كل ما حان وقته حضر أهله»^(٤)، غير أنّ أصحاب الأهواء تلقفوا كلام العلماء كلٌّ بما يُوافق هواه ومصلحته الخاصّة.

(١) بحار الأنوار، ج ١٨ ص ٣٨٢.

(٢) «إياك ثم إياك والله حفيظك في أولاك وأخراك أن تحمل أمثاله (أحد العرفاء) على ظاهرها من غير الغور الكامل إلى غامرها، ولا تأخذ بيدك الطعن عليهم من غير فهم مقصدهم، كما هو دأب بعض المنتسبين إلى العلم، فإنهم جعلوا ميزان عدم صحة المطالب عدم اطلاعهم عليها أو عدم فهمهم إياها»، مصباح الهداية، وميض ٧ ص ٣٧١.

(٣) «إنني قلتُ للمرحوم الشيخ آبادي رحمته الله وكان يُحدّث عدداً من الكسبة عن هذه القضايا مثلما كان يُحدّث بها الجميع، قلتُ له: أين هؤلاء من هذه القضايا؟ فأجاب: دُع هذه الكُفريات تطرق أسماع هؤلاء أيضاً»، تفسير آية البسملّة (محاضرات معرفية)، ص ١٢٠.

(٤) بحار الأنوار، ج ٥٣ ص ١١٥.

وبكل الأحوال، لا بدّ من لفت النظر إلى أنّ المشهور بين العلماء أنّ لا تقليد في العقيدة^(١) - بعكس دأب أهل العامة - وعليه، فإنها لا تؤخذ من الفقهاء، بل على الفرد أن يسعى بنفسه لبناء عقيدته وفقاً لما يُمليه عليه عقله وقلبه، وذلك استناداً إلى الدليل الواضح والبرهان البيّن قلبياً كان أم لُبياً لأنه سيُحاجّ في اعتقاداته في قبره وبرزخه. أما ما ينطبق عليه حكم التقليد فهو المسائل والأحكام الفقهيّة فقط لا غير، وعن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال: «من دخل في هذا الدّين بالرجال أخرجه منه الرجال كما أدخلوه فيه، ومن دخل فيه بالكتاب والسنة زالت الجبال قبل أن يزول»^(٢). فعلى الموالى أن يستند بأخذه لمعالم دينه إلى من يكون كلامه مستنداً إلى القرآن والسنة ولديه دراية بهما، «وذلك لا يكون إلا (في) بعض فقهاء الشيعة لا جميعهم»^(٣).

وبعد ما تقدّم من آراء، أين تكمن المشكلة برأي القارئ العزيز؟ هل تكمن في المغالاة^(٤) بحبّ أهل البيت عليهم السلام والكشف عن شموخ مقاماتهم مع جعلهم عبيداً مربوبين، أم في جعلهم غير مربوبين ولا حقيقة فوق حقيقتهم؟ علماً أنه ورد عنهم عليهم السلام، «لا تتجاوزوا بنا العبوديّة، ثمّ قولوا فينا ما شئتم ولن تبلغوا»^(٥).

(١) «العقيدة بمفهومها اللغوي العام: ما عُقد عليها القلب والضمير وجمعها عقائد ويُرادفها في الدلالة على هذا المفهوم (معتقد واعتقاد). وأصل هذه الكلمات (اعتقد) التي هي بمعنى: صدّق وثبّت وصدّق. يقال: اعتقد الإخاء بينهما، ويُراد به: صدق الإخاء وثبت. ويُقال: اعتقد الأمر، ويُقصد به: صدّقه وتدين به وعقد عليه قلبه وضميره. ولا يبعد رجوع كل ذلك إلى أصل واحد هو: (العقد) بمعنى الأحكام. يُقال: عقد اليمين أو البيع عقداً، أي أحكمه إحكاماً، كعقدة الخيط أو الحبل من حيث صعوبة نقضها»، راجع قواميس اللغة العربية: مادة (عقد) كما في معجم متن اللغة، ج ٤ ص ١٥٧، والمنجد، ص ٥١٩ ط ١٧ وأقرب الموارد، ص ٨٠٧.

(٢) بحار الأنوار، ج ٢ ص ١٠٥.

(٣) تفسير الإمام العسكري، ص ٣٠١.

(٤) المغالاة بالمعنى الممدوح والمطلوب وهو إظهار الحق وإبطال الباطل.

(٥) الاحتجاج، ج ٢ ص ٢٣٣ - ٢٣٤.

و«نزهونا عن الربوبية وارفعوا عنا حظوظ البشرية، فلا يقاس بنا أحد من الناس»^(١).

وفي الختام، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ويمنّ علينا بعيش السعداء وموت الشهداء ومرافقة العليين محمّد وآل محمّد صلوات الله عليهم أجمعين. ونسأله تعالى أن يُعجّل فرج مولانا بقيّة الله الأعظم صاحب الزّمان ﷺ ويجعلنا ممّن يأخذ بحجزتهم، ويمكّث في ظلهم، ويعيننا على تأدية حقوقه إليه، والاجتهاد في طاعته، واجتناب معصيته، ويمنّ علينا برضاه، ويهب لنا رأفته ورحمته، ودعاءه وخيره، ما ننال به سعة من رحمته، وفوزاً عنده، ويجعل صلواتنا به مقبولة، وذنوبنا به مغفورة، ودعاءنا به مستجاباً، ويجعل أرزاقنا به مبسوطة، وهمومنا به مكفّية، وحوائجنا به مقضيّة، ويُقبل إلينا بوجهه الكريم، ويقبل تقربنا إليه، وينظر إلينا نظرة رحمة، نستكمل بها الكرامة عنده، ثم لا يصرفها عنا بجوده، ويسقينا من حوض جده ﷺ بكأسه، وييده رياً رويّاً هنيئاً سائغاً لا ظماً بعده.

مُحَمَّدٌ طَائِفٌ

تمهيد ثانٍ

إن الله عزّ وجلّ خلق الإنسانَ لغايةٍ وهي العبودية. غير أنّه لا يمكن تحقيق هذه الغاية من دون المعرفة، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، أيّ ليعرفون، كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، حيث قال: «خرج الحسين بن عليّ عليه السلام على أصحابه فقال: «أيها الناس، إنّ الله جلّ ذكره ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه. فقال له رجل: يا بن رسول الله، بأبي أنت وأمي، فما معرفة الله؟ قال: معرفة أهل كل زمانٍ إمامهم الذي يجب عليهم طاعته»^(١). إذاً، معرفة الله هي معرفة أهل البيت عليهم السلام، ولا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه^(٢) ولا يقبل الله أعمال العباد إلا بمعرفتهم^(٣) كما لا يستكمل أحد الإيمان حتى يعرفهم كنه معرفتهم بالنورانية^(٤)، فمن استكمل معرفتهم فهو على الدين القيم^(٥) ومن عرفهم كنه معرفتهم كان مؤمناً في السّنام الأعلى^(٦). وليس المقصود من معرفتهم معرفة أسمائهم وأسماء آبائهم بل معرفة أنهم علموا ما خلق الله عزّ وجلّ وذراه وبراه

(١) علل الشرائع، ج ١ ص ٩.

(٢) بحار الأنوار، ج ٨ ص ٣٤٠.

(٣) أصول الكافي، ج ١ ص ٢٠٣.

(٤) بحار الأنوار، ج ٢٦ ص ١.

(٥) بحار الأنوار، ج ٢٦ ص ٣.

(٦) بحار الأنوار، ج ٢٦ ص ١١٦.

وأنهم كلمة التقوى وخزّان السماوات والأرضين والجبال والرّمال والبحار وعلموا كم في السماء من نجم وملك ووزن الجبال وكيل ماء البحار وأنهارها وعيونها، وما تسقط من ورقة إلا علموها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين^(١).

إنّ معرفة هذه الحقيقة لا تُعطى لأيّ كان، فقد ورد في الرواية أنّ كميل بن زياد سأل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: ما الحقيقة؟ فقال سلام الله عليه: «ما لك والحقيقة...»^(٢)، في إشارة إلى ثقلها ومشقّة حملها. كما قال الإمام الرضا عليه السلام: «فوالله لا وصل إلى حقيقة معرفتنا إلا من منّ الله بها عليه وارتضىناه لنا ولياً»^(٣).

في الواقع، تحتاج هذه الحقيقة إلى رجالٍ، فعن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال: «الرجل كلّ الرجل نِعَمَ الرجل، هو الذي جعل هواه تبعاً لأمر الله، وقواه مبذولة في رضى الله، يرى الذلّ مع الحق أقرب إلى عزّ الأبد من العزّ في الباطل، ويعلم أن قليل ما يحتمله من ضرّائها يؤديه إلى دوام النعيم في دار لا تبيد ولا تنفد، وإنّ كثير ما يلحقه من سرّائها إن اتبع هواه، يؤديه إلى عذاب لا انقطاع له ولا يزول، فذلّكم الرجل نِعَمَ الرجل، فيه فتمسّكوا، وبسنته فاقتدوا، وإلى ربّكم به فتوسّلوا، فإنه لا تُردّ له دعوة، ولا تخيب له طلب»^(٤). كما يقول مولانا الإمام الجواد عليه السلام في حديثه مع بعض أصحابه: «إنّ رضى الله وطاعته ونصيحتُهُ لا تُقبل ولا تُوجد ولا تُعرف إلّا في عبادٍ غُرباء، أخلاء من النّاس، قد اتّخذهم النّاس سُخْرِيّاً، لما يرمونهم به من المنكرات. وكان يُقال: لا يكون المؤمن مؤمناً حتّى يكون أبغض إلى النّاس من جيفة الحمار...»^(٥). وفي حديث أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾... فقال: يا كميل بن زياد، أطلبهم. قال كميل: وأين أطلبهم يا أمير

(١) بحار الأنوار، ج ٢٦ ص ١١٦.

(٢) روضة المتقين، ج ٢ ص ٨١.

(٣) الهداية الكبرى، ص ٢٩٩ باب ١١.

(٤) العوالم، ج ٣ ص ٤٠٢ - ٤٠٣ ح ٤٣.

(٥) الكافي، ج ٨ ص ٥٦ - ٥٧.

المؤمنين؟ قال ﷺ: في أطراف الأرض تجدهم قد اتخذوا الأرض فراشاً، والماء طيباً، والقرآن شعاراً، والدعاء دثاراً، باكين العيون، دنسين الثياب، يقرضون العيش قرضاً، إن غابوا لم يُفتقدوا وإن شهدوا لم يعرفوا، وإن خطبوا لم يُزَوَّجوا وإن قالوا لم يُنصت لقولهم...»^(١). وعن الإمام الصادق ﷺ: «الفقر والفاقة وأنواع البلاء أسرع إليهم من ركض الخيل»^(٢).

إنّ رجال الحقيقة هم رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه، لا تلهيهم تجارة ولا بيعٌ عن ذكر الله^(٣)، ولا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً، والعلوّ هو كلّ ما يجعل لصاحبه شأنًا أو رفعةً أو مقاماً أيّاً يكن حجم ودرجة هذا الشأن والمقام والرفعة، حيث يقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٤)، فهم المستضعفون في الأرض^(٥) والأسارى^(٦) فيها. وفي ذلك علامة على خلوّ قلوبهم من حبّ الرئاسة والشهرة التي هي الآفة الأشدّ خطورة على القلب.

(١) مسند الإمام عليّ ﷺ، ج ٩ ص ٤١٥ - ٤١٦.

(٢) تحف العقول، ص ٣٢٥.

(٣) عن أبي جعفر ﷺ أنه قال: «﴿إِنَّ الصُّلُوَّةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فالنهي كلام والفحشاء والمنكر رجال ونحن ذكر الله ونحن أكبر»، تفسير نور الثقلين، ج ٤ ص ١٦١.

(٤) (سورة القصص، آية ٨٣). عن سعد بن طريف عن أبي جعفر ﷺ: «... قلت: وما دار الجلال؟ قال: نحن الدار وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ نحن العاقبة يا سعد...»، (بصائر الدرجات، ج ١٢ ص ٣١٢). ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بَيَاتِنَتَنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَالَّذِينَ كَذَبُوا بَيَاتِنَتَنَا وَلَفَكَا الْأَخِرَةَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، سورة الأعراف، آية ١٤٦ - ١٤٧.

(٥) ﴿وَرِيدٌ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾، سورة القصص، آية ٥.

(٦) «ألا ومن أحبّ علياً سُمّي في السماوات أسير الله في الأرض»، بحار الأنوار، ج ٦٥ ص ١٢٥.

إنَّ حبَّ الرئاسة نوعان: ظاهريّ وباطنيّ؛ الأوّل يكون بترؤس الأجساد والأموال والممتلكات وما إلى ذلك من ماديّات، والثاني يكون بترؤس القلوب والأرواح عبر احتلال مركزٍ ومنزلة ومكانة فيها، مما يؤدي إلى امتلاك القدرة على السيطرة عليها، وهذا هو الرياء المنهيّ عنه في الشريعة، إذ يعتبر شركاً خفياً ومقدّمة للوصول إلى الشرك الجليّ. وأمّا الشهرة فأدهى وأمرّ على الروح والقلب، إذ أنّ أهل الحقيقة يتمنّون لو أن أحداً في العالم لا يعرفهم بل لو أنهم لا يعرفون أنفسهم حتى، ذلك أنّ الشهرة تحول بين الإنسان والحقيقة وتسدّ الطريق أمامه.

وبغية تخليصهم من هاتين الآفتين، أي حبّ الرئاسة والشهرة، امتحن الله عز وجلّ الموالين المحبّين، كأصحاب الأئمة: زرارة بن أعين^(١) والمفضل بن عمر وجابر بن يزيد الجعفي^(٢) وغيرهم، بإبعاد الناس عنهم وحملهم على نبذهم،

(١) عن عبد الله بن زرارة، قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «إقرأ على والدك السلام وقل له: إنما أعيبك دفاعاً مني عنك، فإن الناس والعدو يسارعون إلى كل من قرّبناه وحمدناه مكانه، لإدخال الأذى فيمن نحبه ونقرّبه، فيذمّونه لمحبتنا له وقربه ودنوّه منا، ويرون إدخال الأذى عليه وقتله، ويحمدون كل من عبّناه نحن وأن يُحمد أمره، فإنما أعيبك لأنك رجل اشتهرت بنا وبميلك إلينا، وأنت في ذلك مذموم عند الناس، غير محمود الأثر، لمودتك لنا، وبميلك إلينا، فأحببتُ أن أعيبك ليحمدوا أمرك في الدين بعيبك ونقصك، ويكون بذلك منا دفع شرهم عنك...»، وسائل الشيعة، ج ٢٠ ص ١٩٦ - ١٩٧.

(٢) عن النعمان بن بشير قال: «كنت مزاملاً لجابر بن يزيد الجعفي، فلما أن كنا بالمدينة دخل على أبي جعفر عليه السلام فودعه وخرج من عنده... فلما نهض بنا البعير إذا أنا برجل طوال آدم معه كتباً، فناوله جابراً فتناوله فقبّله ووضع على عينيه وإذا هو: من محمد بن علي إلى جابر بن يزيد وعليه طين أسود رطب، فقال له: متى عهدك بسيدي؟ فقال: الساعة... ففك الخاتم وأقبل يقرأه ويقبض وجهه حتى أتى على آخره، ثم أمسك الكتاب فما رأته ضاحكاً ولا مسروراً حتى وافى الكوفة، فلما وافينا الكوفة ليلاً بتّ ليلتي، فلما أصبحت أتيتُه إعظماً له فوجدته قد خرج عليّ وفي عنقه كعاب، قد علقها وقد ركب قسبة وهو يقول: «أجد منصور بن جمهور أميراً غير مأمور» وأبياتاً من نحو هذا فنظر في وجهي ونظرت في وجهه فلم يقل لي شيئاً ولم أقل له وأقبلت أبكي لما رأته واجتمع عليّ وعليه الصبيان والناس، وجاء حتى دخل الرحبة وأقبل يدور مع الصبيان والناس يقولون: جُنَّ جابر بن يزيد جنّ...»، الكافي، ج ١ ص ٣٩٦ - ٣٩٧.

حيث قال الله تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا نَحِبُّونَ﴾^(١)، كما ورد في الحديث القدسي: «أخفيتُ رضاي في جفاء المخلوق، فمن كان يريد رضاي فليتحمل من الآخرين جفاءهم»^(٢). وقد هدف الإمتحان الإلهي هذا إلى حفظ التوحيد في قلوب هؤلاء الأصحاب ليبقى «هو» وحده لا شريك له، فقد أخرجوا من قلوب الناس من جهة، لأنهم إن دَعَوُا الناس لم يسمعوا دعاءهم ولو سمعوا ما استجابوا لهم و﴿لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾^(٣)؛ وأخرج الناس من قلوبهم من جهة ثانية، كما أدى هذا الامتحان إلى حمايتهم وحقق دمائهم، من جهة ثالثة. فكل من يجعل الله تبارك وتعالى له في باطنه سبيلاً إلى المقامات المعنوية، يُبتلى بإراقة ماء وجهه وحط قدره في أعين الناس حتى يغفل عن كل ما عداه وينقطع إليه وحده.

فالحقيقة، إذًا، ليست إلا لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، قتل لأجلها نفسه وتخلّى في وجوده عن الدنيا والآخرة معاً^(٤). وبغير ذلك لن يحصل عليها وإن حصل على شيءٍ منها، فسيُسلب منه ويُمحى من قلبه^(٥)، ومردّ هذا إلى أنّ من لا يقتل نفسه ودنياه وحتى آخرته لأجل الحقيقة، لن يرتدع، في يوم من الأيام، عن ارتكاب ما من شأنه أن يستوجب سلب الولاية والإيمان منه وإثبات الضلالة مكانهما، وهو ما سنأتي على ذكره فيما بعد.

ولا تُحصّل الحقيقة بمطالعة الكتب أو تلقّي الدروس عند الفضلاء والعرفاء، فليس العلم بكثرة التعلم، إنما هو نور يقذفه الله في قلب من يريد أن يهديه^(٦)،

(١) (سورة آل عمران، آية ٩٢). وماء الوجه هو ممّا يحبّه الإنسان وينبغي عليه بذله إذا ما أراد نيل البرّ.

(٢) مستدرک الوسائل، ج ١١ ص ٢٨٩.

(٣) سورة الأنفال، آية ٢٣.

(٤) قال رسول الله ﷺ: «الدنيا حرام على أهل الآخرة، والآخرة حرام على أهل الدنيا، وهما حرامان (الدنيا والآخرة) على أهل الله»، عوالي اللئالي، ج ٤ ص ١١٩.

(٥) ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾، سورة الرعد، آية ٣٩.

(٦) (بحار الأنوار، ج ٦٧ ص ١٤٠ ح ٥). وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «العِلْمُ عِلْمَانِ: مَطْبُوعٌ=

وهو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم. ولا يُحْصَل ما في الصدور إلا بالقلوب، وما لم يكن المرء من أهل القلوب وأهل النور، فلا يُتَعَبَّن نفسه بالورود إلى بحر الحقيقة، لأنه سيغرق ولن يتمكن من الخلاص بالسباحة بين أمواجها العاتية.

إذاً، المطلوب من الساعي للحصول على هذه الحقيقة أن يكون من أهل القلوب، أي من أهل المحبة والعشق، وما لم يكن كذلك، لن يقدر على اجتياز العقبات والامتحانات التي سيصطدم بها في الطريق. فقبل الورود إلى الحقيقة وأثناءه وقيل الوصول إليها، سيبقى الناس محطّ اختبار وتمحيص وغربة، حتى يذهب الكدر ويبقى الصّفو. فمنهم من يلوذ بالفرار في أوّل الطريق ومنهم من يفرّ في منتصفه ومنهم في آخره قبل الوصول بقليل. وهذا ما حصل في كربلاء، حيث سألت العقيلة أخيها عليها السلام أن يستعلم من أصحابه نيّاتهم، فأخضع سيّد الشهداء عليه السلام مَنْ كان معه لاختبارات ثلاثة، وكانت النتيجة أن رَحَلَ الكدر منهم وبقي الصّفو. وفي السّياق نفسه، نورد هذه الرواية: عن عمر بن حنظلة قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: «إني أظنّ أنّ لي عندك منزلة، قال: أجل، قال: قلت: فإنّ لي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قلت: تُعَلِّمَنِي الإِسْمَ الأعظم، قال: وتطبيقه؟ قلت: نعم، قال: فادخل البيت، قال: فدخل البيت فوضع أبو جعفر عليه السلام يده على الأرض، فأظلم البيت فأرعدت فرائص عمر، فقال: ما تقول؟ أعلمك؟ فقال: لا، قال: فرفع يده فرجع البيت كما كان»^(١). فهذا الرجل أتى بنفسه عند الإمام وطلب منه الحقيقة وقد لبّى الإمام طلبه، إلا أنه هو مَنْ تراجع في منتصف الطريق!

وكذلك فقد مرّ كبار الصّحابة في منعطفات خطيرة أدّت إلى سقوطهم وارتدادهم في وسط الطريق. والجدير بالذكر أنّ أكثر الناس يضلّون بسبب

=وَمَسْمُوعٌ، وَلَا يَنْفَعُ الْمَسْمُوعُ إِذَا لَمْ يَكُنِ الْمَطْبُوعُ»، نهج البلاغة، الحكمة رقم ٣٣٨؛

كشف الغمّة، ج ٣ ص ١٣٧.

(١) بصائر الدرجات، ج ٤ ص ٢٣٠.

خواص أهل الحق لا العوام منهم ويُخدعون بأهل التُّسك والعبادة والزهد، لأنّ أمثال هؤلاء عندهم من السُّطوة والتأثير على الناس ما من شأنه أن يترك أثراً على قلوبهم وعقولهم وإيمانهم، علماً أنّ إبليس نفسه كان من أهل الورع والنسك والعبادة. ومن هؤلاء الصّحابة الزبير بن العوام الذي كان حاضراً وقت حادثة الدار والهجوم على باب الزهراء (عليها السلام) وكان ممّن لبّوا أمير المؤمنين (عليه السلام) حين دعا الناس إلى نصرته^(١). ولكنّ الزبير بعد ذلك ارتدّ وظهر حبّه للدنيا والمنصب والرئاسة وحول وجهه سيفه لمحاربة أمير المؤمنين (عليه السلام)، فعن بكر بن عيسى قال: «لما اصطف الناس للحرب بالبصرة، خرج طلحة والزبير في صفّ أصحابهما، فنادى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) الزبير بن العوام فقال له: يا أبا عبد الله، أدنُ مني لأفضي إليك بسرّ عندي فدنا منه حتى اختلفت أعناق فرسيهما، فقال له أمير المؤمنين (عليه السلام): نشدتك الله إن ذكرك شياً فذكرته، أما تعترف به؟ فقال: نعم. فقال: أما تذكر يوماً كنت مقبلاً عليّ بالمدينة تحدّثني إذ خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فرآك معي وأنت تبسم إليّ فقال لك: يا زبير، أتحبّ عليّاً؟ فقلت: وكيف لا أحبه وبينني وبينه من النسب والمودة في الله ما ليس لغيره! فقال: إنك ستقاتله وأنت له ظالم. فقلت: أعوذ بالله من ذلك؟ فنكسّ الزبير رأسه ثم قال: إني أنسيت هذا المقام. فقال له أمير المؤمنين (عليه السلام): دع هذا، أفلستَ بايعتني طائعاً؟ قال: بلى. قال: فوجدت مني حدثاً يوجبُ مفارقتي؟ فسكت ثم قال: لا جرم والله لا قاتلتُك. ورجع متوجهاً نحو البصرة فقال له طلحة: ما لك يا زبير! تنصرف عنا؟ سحرَكَ ابن أبي طالب؟ فقال: لا ولكن ذكرني ما كان أنسانيه الدهر واحتجّ عليّ ببيعتي له. فقال طلحة:

(١) روى سليم بن قيس عن سلمان المحمّدي رضوان الله تعالى عليه: «فلما كان الليل حمل عليّ فاطمة على حمار وأخذ بيدي ابني الحسن والحسين (عليهما السلام) فلم يدع أحداً من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا أتاه في منزله، فناشدهم الله حقّه ودعاهم إلى نصرته، فما استجاب منهم رجل غيرنا الأربعة (سلمان وأبو ذر والمقداد والزبير) فإنّا حلّقنا رؤوسنا وبذلنا له نصرتنا، وكان الزبير أشدّنا بصيرة في نصرته»، كتاب سليم بن قيس الهلالي، ص ١٤٦.

لا، ولكن جَبُنْتَ وانتفح سحرِك... فقال له عبد الله: يا أبة، جئتَ بهذين العسكرين العظيمين حتى إذا اصطقًا للحرب قلت: أتركهما وأنصرف، فما تقول قريش غداً بالمدينة؟ الله الله يا أبة لا تشمت الأعداء ولا تشين نفسك بالهزيمة قبل القتال. قال: يا بني ما أصنع وقد حلفت له بالله ألا أقاتله؟ قال له: فكفر عن يمينك ولا تفسد أمرنا. فقال الزبير: عبيدي مكحول حرٌّ لوجه الله كفارة يميني. ثم عاد معهم للقتال»^(١).

وكذلك فإنَّ عبد الله بن العباس، لما ولّاه أمير المؤمنين عليه السلام البصرة، سرق من بيت مالها فكاثبه أمير المؤمنين عليه السلام على إثر ذلك يقول: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي كُنْتُ أَشْرَكْتُكَ فِي أَمَانَتِي، وَجَعَلْتُكَ شِعَارِي وَبِطَانَتِي... فَلَمَّا رَأَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى ابْنِ عَمِّكَ قَدْ كَلَبَ، وَالْعَدُوَّ قَدْ حَرَبَ، وَأَمَانَةَ النَّاسِ قَدْ خَزَيْتَ، وَهَذِهِ الْأُمَّةُ قَدْ فَتَنَتْ وَشَغَرَتْ، قَلَبْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهَرَ الْمَجَنِّ، فَفَارَقْتَهُ مَعَ الْمُفَارِقِينَ، وَخَذَلْتَهُ مَعَ الْخَاذِلِينَ، وَخُنْتَهُ مَعَ الْخَائِنِينَ، فَلَا ابْنَ عَمِّكَ آسَيْتَ، وَلَا الْأَمَانَةَ أَدَيْتَ...»^(٢). وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ الْعَبْدَ يُصْبِحُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُصْبِحُ كَافِرًا وَيُمْسِي مُؤْمِنًا، وَقَوْمٌ يَعَارُونَ الْإِيمَانَ ثُمَّ يُسْلِبُونَهُ، وَيُسَمُّونَ الْمَعَارِينَ، ثُمَّ قَالَ: فَلَانِ مِنْهُمْ»^(٣)، وفي تعليقه على هذه الرواية، قال العلامة المجلسي: «والظاهر أن المراد بفلان أبو الخطاب وكُنِيَ عنه بفلان لمصلحة... ويحتمل أن يكون كناية عن ابن عباس فإنه قد انحرف عن أمير المؤمنين عليه السلام

(١) (أمالى الطوسي، ص ١٣٧). عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «اللهم اجزِ طلحة والزبير جزاء الظالم الفاجر والخفور الغادر»، (أمالى المفيد، ص ٢٩٥ المجلس ٣٥). ومن خطبة له عليه السلام في جماعة من الناس: «وقد بايعتموني الآن، وبايعني هذان الرجلان طلحة والزبير على الطوع منهما ومنكم الإيثار، ثم نهضاً يريدان البصرة ليفرقا جماعتكم ويلقيا بأسكم بينكم، اللهم فخذهما لغشهما لهذه الأمة وسوء نظرهما للعامة. ثم قال: انفروا رحمكم الله في طلب هذين الناكثين القاسطين الباغيين قبل أن يفوت تدارك ما جنياه»، الإرشاد، ص ١٣١.

(٢) نهج البلاغة للشرىف الرضى، ص ٦٦٨ - ٦٦٩ - ٦٧٠.

(٣) الكافي، ج ٢ ص ٤١٧؛ مرآة العقول، ص ٢٤٣.

وذهب بأموال البصرة إلى الحجاز، ووقع بينه عليه السلام وبينه مكاتبات تدل على شقاوته وارتداده...»^(١). كما ورد عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «ارتدَّ الناسُ بعد النبي إلا ثلاثة نفر: المقداد بن الأسود وأبو ذرَّ الغفاري وسلمان الفارسي، ثم إن الناس عرفوا ولحقوا بعد»^(٢)، فلم يذكر اسمَ ابن عباس بين أسماء المُستثنين من الرِّدة. وفي سياق الكلام عن ابن عباس نذكر هاتين الروايتين: عن ابن عباس قال: «ما حسدْتُ علياً عليه السلام بشيءٍ ممَّا سبق من سوابقه بأفضل من شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يقول: يا معاشر قريش أنتم كفرتم فرأيتموني في كتيبةٍ أضرب بها وجوهكم، فأتى جبرئيل عليه السلام فغمزه وقال: يا محمَّد، قل إن شاء الله أو عليّ بن أبي طالب، فقال محمَّد: إن شاء الله أو عليّ بن أبي طالب»^(٣). وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «بينما أبي جالس وعنده نفر، إذ استضحك حتى اغرورقت عيناه دموعاً ثم قال: هل تدرون ما أضحكني؟ قال: فقالوا: لا. قال: زعم ابن عباس أنه من ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾... [إلى أن قال] هكذا حكم الله ليلة تنزل فيها أمره، إن جحدتها بعدما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله، فأدخلك الله النار كما أعمى بصرك يوم جحدتها عليّ بن أبي طالب عليه السلام... قال: فقال ابن عباس: ما اختلفنا في شيء فحكمه إلى الله، فقلتُ له: فهل حَكَمَ الله في حكم من حكمه بأمرين؟ قال: لا، فقلتُ: ههنا هلكت وأهلكت»^(٤).

(١) مرآة العقول، ص ٢٤٣.

(٢) الاختصاص، ص ٤؛ بحار الأنوار، ج ٣٤ ص ٢٧٣.

(٣) بحار الأنوار، ج ٢٩ ص ٤٦١؛ عن كتاب الروضة، ص ١٤٠؛ أمالي المفيد، ص ١١٣.

(٤) الرواية كاملة: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «بينما أبي جالس وعنده نفر، إذ استضحك حتى اغرورقت عيناه دموعاً ثم قال: هل تدرون ما أضحكني؟ قال: فقالوا: لا. قال: زعم ابن عباس أنه من ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ فقلتُ له: هل رأيت الملائكة يا ابن عباس تخبرك بولايتها لك في الدنيا والآخرة مع الأمن من الخوف والحزن؟ قال: فقال: إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وقد دخل في هذا جميع الأمة، فاستضحكتُ ثم قلت: صدقت يا ابن عباس، أنشدك الله، هل في حكم الله جلّ ذكره اختلاف؟ قال: فقال: لا، فقلت: ما ترى في رجل ضرب رجلاً أصابعه بالسيف حتى =

ومن هنا، يتبين أنّ على المرء التسليم للإمام في كلّ ما يقوله ويفعله وإلا خرج من الإيمان إلى الكفر، لأنّ الورود إلى محضره ﷺ هو ورودٌ إمّا إلى إيمان ونور أو كفر وظلمة. ونورد هذه الرواية على سبيل المثال: عن يونس بن ظبيان، قال: «استأذنت على أبي عبد الله ﷺ فخرج إليّ معتب فأذن لي، فدخلتُ ولم يدخل معي كما كان يدخل. فلما أنّ صرْتُ في الدار، نظرتُ إلى رجل على صورة أبي عبد الله ﷺ، فسلمتُ عليه كما كنتُ أفعل، قال: من أنت يا هذا؟ لقد وردت على كفر أو إيمان. وكان بين يديه رجلان كأنّ على رؤوسهما الطير، فقال لي: أدخل. فدخلت الدار الثانية، فإذا رجلٌ على صورته ﷺ، وإذا بين يديه جمعٌ كثيرٌ كلهم صورهم واحدة، فقال: مَنْ تريد؟ قلت: أريد أبا عبد الله. فقال: قد وردت على أمرٍ عظيم، إمّا كفر أو إيمان. ثم خرج من البيت رجلٌ قد بدا به الشيب، فأخذ بيدي، وأوقفني على الباب وغشي بصري من النور، فقلت: السلام عليك يا بيت الله ونوره وحجابه. فقال: وعليك السلام يا

=سقطت ثم ذهب وأتى به رجل آخر فأطار كفه فأتني به إليك وأنت قاضٍ، كيف أنت صانع؟ قال: أقول لهذا القاطع: أعطه دية كفه وأقول لهذا المقطوع: صالحه على ما شئت، وابعث به إلى ذوي عدل، قلت: جاء الاختلاف في حكم الله عزّ ذكره ونقضت القول الأول، أبى الله عزّ ذكره أن يُحدّث في خلقه شيئاً من الحدود [و] ليس تفسيره في الأرض، اقطع قاطع الكفّ أصلاً ثم أعطه دية الأصابع، هكذا حكم الله ليلة تنزل فيها أمره، إن جحدتها بعدما سمعت من رسول الله ﷺ، فأدخلك الله النار كما أعمى بصرك يوم جحدتها عليّ بن أبي طالب ﷺ، قال: فلذلك عمي بصري، وقال: وما علمك بذلك؟ فوالله إنّ عمي بصري إلا من صفقة جناح الملك، قال: فاستضحكت ثم تركته يومه ذلك لسخافة عقله. ثم لقيته فقلت: يا ابن عباس، ما تكلمت بصدقٍ مثل أمس، قال لك علي بن أبي طالب ﷺ: إن ليلة القدر في كل سنة وإنه ينزل في تلك الليلة أمر السنة وإنّ لذلك الأمر ولاة بعد رسول الله ﷺ، فقلت: من هم؟ فقال: أنا وأحد عشر من صليبي أئمة محدّثون، فقلت: لا أراها كانت إلا مع رسول الله ﷺ، فتبدّى لك الملك الذي حدّثه، فقال: كذبت يا عبدالله، رأيت عيناى الذي حدّثك به عليّ - ولم تره عيناه ولكن وعى قلبه ووقر في سمعه - فقلت صفقك بجناحه فعصيت. قال: فقال ابن عباس: ما اختلفنا في شيء فحكّمه إلى الله، فقلتُ له: فهل حكّم الله في حكم من حكمه بأمرين؟ قال: لا، فقلتُ: ههنا هلكت وأهلكت»، شرح أصول الكافي، ج ٦ ص ٣.

يونس. فدخلتُ البيت فإذا بين يديه طائران يحكيان، فكنْتُ أفهم كلام أبي عبد الله عليه السلام ولا أفهم كلامهما. فلما خرجا قال: يا يونس، سلْ، نحن نجلي النور في الظلمات، ونحن البيت المعمور الذي من دخله كان آمناً، نحن عزة الله وكبريائه. قال: قلت: جُعِلْتُ فداك، رأيتُ شيئاً عجيباً، رأيتُ رجلاً على صورتك! قال: يا يونس، إنا لا نوصف، ذلك صاحب السماء الثالثة يسأل أن أستأذن الله له أن يصيِّره مع أخ له في السماء الرابعة. قال: قلت: فهؤلاء الذين في الدار؟ قال: هؤلاء أصحاب القائم من الملائكة. قال: قلت: فهذان؟ قال: جبرئيل وميكائيل، نزلا إلى الأرض، فلن يصعدا حتى يكون هذا الأمر إن شاء الله (تعالى)، وهم خمسة آلاف. يا يونس، بنا أضاعت الأبصار، وسمعت الآذان، ووَعَت القلوب الإيمان^(١).

وكذلك فإنَّ من أخصَّ الخواص الذين فسقوا عن ولاية إمامهم وضلّوا عنها أحد إخوة الإمام الرضا عليه السلام واسمه العباس، حيث طمع في الإرث والمال وأنكر على الإمام الرضا عليه السلام حقه في ما خوله إياه أبوه الكاظم عليه السلام ووصل به الحال إلى أن يشكوه عند قاضي المدينة، مُتَّهماً الإمام بأنه يريد الاستيلاء على الأموال دونه هو وإخوته^(٢). وعلى الرغم مما تبينته الرواية من سوء ما كان عليه

(١) دلائل الإمامة، ص ٢٧٠ - ٢٧١.

(٢) تقول الرواية: «قال أبو الحكم، فحدّثني عبد الله بن آدم الجعفري عن يزيد بن سليط قال: كان أبو عمران الطلحي قاضي المدينة فلما مضى موسى قدّمه إخوته إلى الطلحي القاضي فقال العباس بن موسى: أصلحك الله وأمتع بك، إن في أسفل هذا الكتاب كنزاً وجوهرًا ويريد أن يحتجبه ويأخذه دوننا ولم يدع أبونا عليه السلام شيئاً إلا ألجأه إليه وتركنا عالة ولولا أنني أكف نفسي لأخبرتكم بشيء على رؤوس الملائكة... فقال العباس للقاضي: أصلحك الله فض الخاتم وقرأ ما تحته فقال أبو عمران: لا أفضه حسبي ما لعني أبوك اليوم، فقال العباس: فأنا أفضه، فقال: ذاك إليك، ففضّ العباس الخاتم فإذا فيه إخراجهم وإقرار عليّ لها وحده وإدخاله إياهم في ولاية عليّ إن أحبّوا أو كرهوا وإخراجهم من حدّ الصدقة وغيرها وكان فتحه عليهم بلاء وفضيحة وذلة ولعليّ عليه السلام خيرة... ثم إن علياً عليه السلام التفت إلى العباس فقال: يا أخي، إني أعلم أنه إنما حملكم على هذه الغرائم والديون التي عليكم، فانطلق يا سعيد فتعّين لي ما عليهم، ثم اقض=

العباس بن الإمام الكاظم عليه السلام وأذيتته لإمام زمانه، إلا أن الناس قد شيدوا له مزاراً في منطقة الشرطة بالعراق، وهم اليوم يزورونه ويتبركون به!

ولأجل هذا، ينبغي عدم الاغترار^(١) بأشخاصٍ يظهرون بمظهر العالم الجليل المقرب من الإمام، أو ببعض رجال الدين والعلماء^(٢)، في زماننا هذا، من الذين يتلبسون بلباس الحقيقة. وعلى الموالي أن يضع نصب عينيه دائماً كلام أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «لا يُعرف الحق بالرجال، إعرف الحق تعرف أهله»^(٣)، ومن كلام للإمام العسكري عليه السلام: «... ومنهم قوم نصاب لا يقدرّون على القدح فينا، فيتعلمون بعض علومنا الصحيحة، فيتوجهون به عند شيعتنا،

=عندهم ولا والله لا أدع مواساتكم وبرّكم ما مشيت على الأرض فقولوا ما شئتم، فقال العباس: ما تعطينا إلا من فضول أموالنا وما لنا عندك أكثر، فقال: قولوا ما شئتم فالعرض عرضكم، فإن تحسنوا فذاك لكم عند الله وإن تسيئوا فإن الله غفور رحيم... فوثب العباس فقال: والله ما هو كذلك وما جعل الله لك من رأي علينا ولكن حسد أبينا لنا وإرادته ما أراد مما لا يسوّغه الله إياه ولا إياك وإنك لتعرف أنني أعرف صفوان بن يحيى بياح السابري بالكوفة ولئن سلمت لأغصصنه بريقه وأنت معه، فقال علي بن موسى الرضا عليه السلام: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أما إني يا إخوتي فحريص على مسرتكم، الله يعلم، اللهم إن كنت تعلم أنني أحب صلاحهم وأني بارّ بهم وأصل لهم رفيق عليهم أعني بأمورهم ليلاً ونهاراً فأجزني به خيراً وإن كنت على غير ذلك فأنت علام الغيوب فأجزني به ما أنا أهله إن كان شراً فشراً وإن كان خيراً فخيراً، اللهم أصلحهم وأصلح لهم واخسأ عنا وعنهم الشيطان وأعنهم على طاعتك ووفقهم لرشدك، أما أنا يا أخي فحريص على مسرتكم، جاهد على صلاحكم، والله على ما نقول وكيل فقال العباس: ما أعرفني بلسانك وليس لمسحاتك عندي طين، فافترق القوم على هذا وصلى الله على محمد وآله»، الكافي، ج ١ ص ٣١٧ - ٣١٨ - ٣١٩.

(١) عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «فأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه. وذلك لا يكون إلا (في) بعض فقهاء الشيعة لا جميعهم»، تفسير الإمام العسكري، ص ٣٠١.

(٢) عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «من دخل في هذا الدّين بالرجال أخرجه منه الرجال كما أدخلوه فيه، ومن دخل فيه بالكتاب والسنة زالت الجبال قبل أن يزول»، بحار الأنوار، ج ٢ ص ١٠٥.

(٣) بحار الأنوار، ج ٤٠ ص ١٢٦؛ روضة الواعظين، ص ٣١.

وينتقصون بنا عند نصّابنا، ثمّ يضيفون إليه أضعافه، وأضعاف أضعافه من الأكاذيب علينا التي نحن براء منها، فيقبله المستسلمون من شيعتنا على أنّه من علومنا، فضلّوا وأضلّوا، وهم أضرّ على ضعفاء شيعتنا من جيش يزيد على الحسين بن علي عليه السلام وأصحابه^(١). ومن وصيّة الإمام الصادق عليه السلام لابن النعمان: «يا ابن النعمان إنا أهل بيت لا يزال الشيطان يُدخل فينا من ليس منا ولا من أهل ديننا، (والمقصود هو العالم الشيعي بدلالة كلمة «فينا») فإذا رفعه ونظر إليه الناس أمره الشيطان فيكذب علينا، وكلما ذهب واحد جاء آخر»^(٢). وعن أمير المؤمنين عليه السلام في وصف أتباع الشيطان: «اتّخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً، واتّخذهم له أشراكاً، فباض وفرّخ في صدورهم»^(٣). فعلى الموالى أن يأخذ معالم دينه ممّن يستند كلامه إلى القرآن والروايات ولديه دراية بهما، ويوضح الإمام، في رواية، كيف يكون العالم الحقيقي فيقول: «إعرفوا منازل شيعتنا بقدر ما يُحسنون من رواياتهم عنّا؛ فإنّا لا نعدّ الفقيه منهم فقيهاً حتى يكون محدّثاً. فليل له: أويكون المؤمن محدّثاً؟ قال: يكون مفهّماً، والمفهم محدّث»^(٤). وفي حديثٍ لصاحب الزمان عجل الله فرجه الشريف: «وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا»^(٥)، ومن خلال ربط الرواية الأخيرة برواية «إعرفوا منازل شيعتنا...»، نخلّص إلى أن رواية أحاديث أهل البيت عليهم السلام تتفاوت منزلتهم بقدر ما يُحسنون من رواياتهم عنهم عليهم السلام. ورواية الحديث ينقسمون إلى أقسام، فمنهم من يروي الأحاديث العقائدية ومنهم من

(١) وسائل الشيعة، ج ٢٧ ص ١٣١.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧٥ ص ٢٨٩.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة رقم ٧.

(٤) (وسائل الشيعة، ج ١٨ ص ١٠٧)، وإذا قال قائل إن المقصود هو «محدّث» لا «محدّث»،

فلمّ إذا كان سائل الإمام مُتعبجاً حين قال: أويكون المؤمن محدّثاً؟ وأمير المؤمنين عليه السلام

يقول: «وما برح لله عزت وآلؤه في البرهة بعد البرهة، وفي أزمان الفترات، عباد ناجاهم

في فكرهم، وكلمهم في ذات عقولهم، فاستصبحوا بنور يقظة في الأسماع والأبصار

والأفئدة»، بحار الأنوار، ج ٦٦ ص ٣٢٥.

(٥) بحار الأنوار، ج ٥٣ ص ١٨١.

يروى الأحاديث الأخلاقية وآخرون يروون الأحاديث الفقهية الخاصة بالحلال والحرام، ولهذا يوصي الإمام بالرجوع إلى رواة الحديث لا إلى راوي الحديث، فينبغي الرجوع بالفقه إلى الفقيه فيه (وإن كان هناك فرق بين المفتي والفقيه، فمن الممكن أن تجد مُفتياً إلا أنه يفتقر إلى الفقاهة بنظر أهل البيت (عليهم السلام) كما ينبغي الرجوع بالعرفان إلى الفقيه بالعرفان وهكذا دواليك، وقد روي عن الإمام عليّ (عليه السلام): «فقيه واحد أشدّ على إبليس من ألف عابد»^(١). وللإشارة، فإن أصل معنى الروايات هو الإرتواء، وأما الراوي، فهو مَنْ يروي نفسه والآخرين معه. والإمام (عليه السلام) يقول: «إعرفوا منازل شيعتنا بقدر ما يحسنون من رواياتهم عنا»، فمن كان قدر إحسانه ودرايته^(٢) للرواية أكبر، كانت منزلته وقربه من الإمام أكبر. والحُسْنُ هو فاطمة سلام الله عليها، إذ قال رسول الله ﷺ: «لو كان الحُسْنُ شخصاً لكان فاطمة، بل هي أعظم، فإنّ فاطمة ابنتي خير أهل الأرض عنصراً وشرفاً وكرماً»^(٣)، فعلى هذا العالم الراوي أن يكون مرتبطاً بفاطمة (عليها السلام) حتى يُحسِّن من روايات أهل البيت (عليهم السلام). كما يقول الإمام: «إنا لا نعدّ الفقيه فقيهاً حتى يكون مُحدثاً»، وفي رواية أخرى: «مَنْ زار الحسين بن عليّ (عليه السلام) عارفاً بحقه، كان من محدّثي الله تعالى فوق عرشه»^(٤). فهذا التحديث لا يكون إلا لمن زار الحسين (عليه السلام) عارفاً بحقه، أي لمن كان عنده عرفانٌ بحق الحسين بن عليّ (عليه السلام) وليس مجرد علم فحسب. وخلاصة القول، إنه بقدر ما يكون راوي الحديث فاطمياً وحسينياً، بقدر ما تكون منزلته أرفع، ويكون مشمولاً بكلام الإمام العسكري (عليه السلام): «فأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلّدوه، وذلك لا يكون إلّا (في) بعض فقهاء الشيعة لا كلّهم»^(٥).

(١) بحار الأنوار، ج ٥ ص ١٦.

(٢) «حديث تدريه، خير من ألف ترويه»، بحار الأنوار، ج ٢ ص ١٨٤.

(٣) فرائد السمطين، ج ٢ ص ٦٨.

(٤) مستدرک الوسائل، ج ١٠ ص ٢٥١.

(٥) وسائل الشيعة، ج ٢٧ ص ١٣١.

إِنَّ كُلَّ الْارْتِدَادِ وَالْانْحِرَافِ وَالضَّلَالِ ابْتِدَاءُ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي وَالثَّلَاثُ لَعْنَهُمُ اللَّهُ، فَتِلْكَ الْفِتْنَةُ الْمُرْتَدَّةُ الْكَافِرَةُ بِالْحَقِيقَةِ، بَدَّلَتْ الْأَحْكَامَ، وَخَلَطَتْ الْحَلَالَ بِالْحَرَامِ، وَاسْتَخَفَّتْ بِالْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ. وَمَا يَنْبَغِي عَلَى الْإِنْسَانِ فَعَلُهُ هُوَ النَّظَرُ إِلَى الْمَاضِي وَأَخَذُ الْعِبْرَةِ مِنْهُ، وَإِلَّا سَيَقَعُ فِي الْأَمْرِ نَفْسُهُ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ، حَيْثُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾^(١): «لَتَرْكَبَنَّ سَنَةً مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذُو النَعْلِ بِالنَعْلِ، وَالْقُدَّةُ بِالْقُدَّةِ وَلَا تَخْطُتُونَ طَرِيقَتَهُمْ، شَبْرَ بَشِيرٍ، وَذِرَاعَ بَذِرَاعٍ، وَبَاعَ بَبَاعٍ، حَتَّى أَنْ لَوْ كَانَ مِنْ قَبْلَكُمْ دَخَلَ جَحْرُ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ، قَالُوا: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى تَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: فَمَنْ أَعْنِي؟ لَتَنْقُضَنَّ عَرَى الْإِسْلَامِ عُرُوهَ عُرُوهَ، فَيَكُونُ أَوَّلُ مَا تَنْقُضُونَ مِنْ دِينِكُمُ الْإِمَامَةَ وَآخِرُهُ الصَّلَاةَ»^(٢).

إِنَّ اللَّهَ قَدْ يُجْرِي، فِي الْبَدَايَةِ، بَعْضَ الْحِكْمَةِ وَالْحَقِّ عَلَى لِسَانِ أَيِّ كَانَ، فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ نَطَقَ بِأَحْرَفِ الْحَقِيقَةِ صَارَ مِنْ أَهْلِهَا وَهَذَا مُثَبَّتٌ فِي رَوَايَاتِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَرُبَّ حَامِلٍ فَقْهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ^(٣)، كَمَا يَقُولُ الْإِمَامُ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَمِنْهُمْ قَوْمٌ نُصَابٌ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْقَدَحِ فِينَا، يَتَعَلَّمُونَ بَعْضَ عُلُومِنَا الصَّحِيحَةَ فَيَتَوَجَّهُونَ بِهِ عِنْدَ شِيعَتِنَا، وَيَتَنَقِّصُونَ (بِنَا) عِنْدَ نُصَابِنَا»^(٤). فَعَلَى طَالِبِ الْحَقِيقَةِ أَنْ يَأْخُذَ بِالْمُحْكَمِ مِنَ الْقَوْلِ لَا بِالْمُتَشَابِهِ مِنْهُ، وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ الْمَرْءُ مِنْ أَهْلِ الْقُلُوبِ، كَمَا ذَكَرْنَا سَابِقًا، إِذْ لَا بَدَّ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ الْوُصُولُ إِلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ بِوَسْطَةِ الْعَقْلِ، فَجَبْرَائِيلُ نَفْسُهُ، الْمُعْبَّرُ عَنْهُ بِالْعَقْلِ، أَقَرَّ بِأَنْ لَوْ دَنَا قَيْدُ أَنْمَلَةٍ لَاحْتَرَقَ. وَإِنَّمَا يَكُونُ السَّلُوكُ إِلَيْهَا بِالْقَلْبِ وَالْحَبِّ، وَكَلِمَا اسْتَغْرَقَتْ بِحَبِّ إِمَامِكَ وَعَشَقَهُ، كَلِمَا انْتَفَتَ إِنْيتُكَ وَأَنَانِيَّتُكَ وَتَلَاشَتْ رُوحَكَ وَغَابَتْ بِمَنْ هُوَ غَائِبٌ بِغَيْبِ اللَّهِ بَلَا اسْتِتَارَ.

وعليه، أَنْ تَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْقُلُوبِ هُوَ شَرْطٌ لِلْوُصُولِ إِلَى الْمَعْرِفَةِ. وَإِنْ لَمْ تَكُنْ

(١) سورة الإنشقاق، آية ٢٠.

(٢) تفسير القمّي، ج ٢ ص ٤١٣.

(٣) عوالي اللئالي، ج ٤ ص ٦٦.

(٤) تفسير الإمام العسكري عليه السلام، ص ٢٩٩.

منهم، إسعَ أن تكون ممّن يُظهرون الإحترام والأدب لهم ويحرصون على تكوين ارتباطٍ بهم، وإلا فلن تكون مرتبطاً سوى بنفسك وشيطانك ودنياك، وستكون ذا قلبٍ قاسٍ، فيقتصر وجود العلم في عقلك دون قلبك ما يُعرّضك لارتكاب الأخطاء وصدور المعاصي والشطحيات منك، حتى ولو وصلت إلى أعلى درجات العلم.

«وهذا العلم مختصّ بأصحاب القلوب... المستفيدين من مشكاة النبوة ومصباح الولاية بالرياضات والمجاهدات. هيهات! نحن وأمثالنا لا نعرف من العلم إلا ظاهره ولا من مرموزات الأنبياء والأولياء ورواياتهم إلا سوادها وقشرها؛ لتعلّقنا بظلمة عالم الطبيعة وقصر نظرنا عليها وتشبّثنا بمنسوجات عناكب المادة، ووقف همّنا عندها، مع أنها أوهن من بيت العنكبوت: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾. وليس لنا بهذه العيون العمياء والمناطق الخرساء مشاهدة أنوار علومه وتجليات ذاته وصفاته وأسمائه والتكلم فيها؛ فإن من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور، ولا يُدرك النور إلا النور ولا العلم إلا العالم»^(١).

فعلى قدر العشق تكون المعونة وعلى قدر الاختلاط بأهل القلوب تأتي المعرفة، فقل لي من تعاشر ومن تحبّ وتخالل، أقل لك من أنت.

إن الحقيقة ليس سهلٌ قولها والبوحُ بها، ولطالما خشيَ الأولياء من كشفها والإفصاح عنها، ولهذا ندعو لإمام زماننا عجل الله فرجه بالقول: «اللَّهُمَّ أَظْهِرْ بِهِ دِينَكَ، وَسُنَّةَ نَبِيِّكَ، حَتَّى لَا يَسْتَخْفِيَ بِشَيْءٍ مِنَ الْحَقِّ، مَخَافَةَ أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ». ومن أجل هذه الحقيقة، أُذِلَّ عزيز أهل البيت عليه السلام وأقْرِحَتْ جفونهم وأُسبِلَتْ دموعهم وأُوصِلَتْ مصائبهم بفجائع الأبد. ولأجلها عُقَّ سلمانها، وطرِدَ مقدادها، ونُفِيَ جندبها وفُتِّقَ بطن عمارها. ولأجل الحقيقة كذلك، تحمّلت زينب عليها السلام كلَّ ما جرى عليها من ضربٍ وسبيٍّ وهتكٍ، ف«الحقيقة هتك الستر لغلبة السر». وللحقيقة ذاتها، تخلى أصحاب سيّد الشهداء عليه السلام عن أولادهم

(١) شرح دعاء السحر، ص ١١٨ - ١١٩.

وحرائرهم وكل دنياهم وحتى آخرتهم^(١) وأراقوا كل شيء عند قدمي وليهم ولم يبالوا^(٢).

إن الحقيقة هي كشفٌ وجذبٌ يكشف لك سُبحات الجلال من غير إشارة ومن غير صدور أي فعل منك، وهي جذبةٌ إلهيةٌ أحديةٌ تجذب نفوس أهل العرش إلى أصلهم لكن بصفة التوحيد، وعندها يلوح نور صبح الأزل - وهو الحسين بن عليّ عليه السلام - على قلبك لتصبح بيتاً للنور ونوراً من نور فيأمر الله برفع هذا القلب لأن اسمه يُذكر فيه^(٣).

إن الإمام الحسين عليه السلام هو نفسه الحقيقة التي نبحت عنها وكل ما عداه سراب. فلقد تهذمت أركان الهدى قبيل استشهاد مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، حيث وقف جبرائيل بين السماء والأرض منادياً: «تهذمت والله أركان الهدى، وانطمست والله نجوم السماء وأعلام التقى، وانفصمت والله العروة الوثقى»^(٤). وقد كانت آخر وصاياه لابنه الحسين عليه السلام: «اي بني، لا تؤيس مذنباً»^(٥). فبالحسين لا غيره يتم الاتصال بالله ورسوله وكل الأئمة عليهم السلام وصولاً لإمام زماننا عجل الله فرجه الشريف الذي يظهر رافعاً راية: «يا لثارات الحسين».

فالحسين عليه السلام هو سفينة الخلاص التي أنجّت نوحاً عليه السلام وقُبِلَتْ بها توبة آدم عليه السلام وتمسك بها إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، فقد ورد عن رسول الله ﷺ: «الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة»^(٦)، كما ورد عنهم سلام الله عليهم: «كلنا سفن النجاة ولكن سفينة جدي الحسين أوسع وفي لجج البحار

(١) قال رسول الله ﷺ: «إن الجنة لأشوق إلى سلمان من سلمان إلى الجنة وإن الجنة لأعشق لسلمان من سلمان للجنة»، بحار الأنوار، ج ٢٢ ص ٣٤١.

(٢) قال حبيب بن مظاهر محدثاً عليّ الأكبر عليه السلام: «لأجل أبيك طلقنا حلائلنا وفارقنا أهالينا وأعرضنا عن زهرة دنيانا»، ثمرات الأعواد، ج ١ ص ٢١٢.

(٣) ﴿فِي بُيُوتٍ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾، سورة النور، آية ٣٦.

(٤) بحار الأنوار، ج ٤٢ ص ٢٨٢.

(٥) تحف العقول، ص ٩١.

(٦) بحار الأنوار، ج ٣٦ ص ٢٠٥.

أسرع»^(١). فكلّ من يصبو للوصول إلى برّ الأمان، يسعى إلى اللحاق بالحسين، وهذا قوله عليه السلام: «فإنه من لحق بي منكم استشهد معي، ومن تخلف لم يبلغ الفتح، والسلام»^(٢).

وأما السبيل إلى هذا اللحاق، فلا يكون إلا بالحبّ وقد ورد في الرواية أنه «وَفَدَّ إلى الحسين عليه السلام وَفَدَّ فقالوا: يا بن رسول الله، إنّ أصحابنا وَفَدُوا إلى معاوية وَوَفَدْنَا نحن إليك. فقال: إذن أُجيزكم بأكثر ممّا يجيزهم. فقالوا: جُعِلْنَا فداك إنّما جئنا مُرتادين لديننا. قال: فطأطأ رأسه ونكت في الأرض وأطرق طويلاً ثم رفع رأسه فقال: قصيرة من طويلة، مَنْ أَحَبَّنَا لم يُحِبَّنَا لقربة بيننا وبينه ولا لمعروف أسديناه إليه إنّما أَحَبَّنَا لله ورسوله فمن أَحَبَّنَا جاء معنا يوم القيامة كهاتين وَقرن بين سبّابتيه»^(٣). ومن لوازم هذا الحبّ والعشق الولائيّين البكاء على مصائب المحبوب، من جهة، وبُغض أعدائه والبراءة منهم من جهة أخرى. ولهذا حثّنا أئمتنا على البكاء على مصائبهم ولا سيّما مصيبة سيّد الشهداء عليه السلام، فعن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «فعلى مثل الحسين فليبك الباكون، فإنّ البكاء يحطّ الذنوب العظام»^(٤). وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «... ما بكى أحدٌ رحمةً لنا ولما لقينا إلا رحمه الله قبل أن تخرج الدمعة من عينه، فإذا سالت دموعه على خدّه فلو أن قطرة من دموعه سقطت في جهنّم لأطفأت حرّها حتى لا يوجد لها حرٌّ...»^(٥). كما ورد في دعاء الزيارة الجامعة لأئمة المؤمنين عليهم السلام: «وتجعل دمعا غزيراً في طاعتك، وعبرتنا جارية فيما يقربنا منك، وقلبنا عطوفاً على أوليائك»^(٦). وورد فيه أيضاً: «يتقرّب أهل السماء بحبّكم، وبالبراءة من أعدائكم، وتواتر البكاء على مصابكم،

(١) بحار الأنوار، ج ٢٦ ص ٣٢٢.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٢ ص ٨١.

(٣) أعلام الدين، ص ٤٦٠.

(٤) أمالي الصدوق، ص ١٩٠.

(٥) وسائل الشيعة، ص ٥٠٨.

(٦) بحار الأنوار، ج ١٠٢ ص ١٦٩ - ١٧٠.

والاستغفار لشيئكم ومحبيكم»^(١). فبالبراءة من أعدائهم والبكاء على مصائبهم والتوسل بهم بنية صادقة ومخلصة، قد نُزِّقَ بلحظةٍ من لحظات المولى ونحظى بجذبة من جذباته وحينها فقط نفنى عن أنفسنا ونَتَّصل بتلك الحقيقة المطلقة. وما لم نحصل على الجذب من ناحية المعشوق، فسيبقى عملنا مُعرَّضاً لأن يكون مصداقاً للآية الكريمة: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾^(٢)، في حين أنَّ جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين.

ومن هنا، ينبغي الحذر، فكما سبق وذكرنا، أن هناك شخصيات تاريخية معروفة قد انحرفت وضلَّت في نهاية المطاف، فليس كلٌّ من حصل على شيءٍ من الحقيقة، بإمكانه الاحتفاظ به والثبات عليه، إذ أخبرنا أئمتنا عليهم السلام أنَّ حقيقة الإيمان والولاية قد تكون مستودعة ومُعارة أو مستقرة وثابتة، حيث يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «فمن الإيمان ما يكون ثابتاً مستقراً في القلوب، ومنه ما يكون عواري بين القلوب والصدور إلى أجل معلوم...»^(٣). وعنه عليه السلام: «يا كميل، إنَّه مستقرٌّ ومستودع واحذر أن تكون من المستودعين. يا كميل، إنَّما تستحق أن تكون مستقراً إذا لزمَت الجادة الواضحة التي لا تخرجك إلى عوج ولا تزيلك عن منهج ما حملناك عليه وهديناك إليه»^(٤).

وثمة أسباب عديدة تؤدي بالإنسان إلى أن يُسلب الإيمان والولاية. أبرز هذه الأسباب: أولاً، الكذب على الله ورسوله وأهل بيته عليهم السلام، حيث ورد عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال يوماً لأصحابه: «... إنَّ المغيرة كذب على أبي عليه السلام فسلبه الله الإيمان»^(٥). وعن أبي الحسن عليه السلام قال: «... واستودع قوماً إيماناً فإن شاء أتمَّه وإن شاء سلبهم إياه، وإن أبا الخطاب كان ممَّن أعاره الله الإيمان فلمَّا

(١) مصباح الزائر، ص ٢٤١؛ المزار الكبير، ص ٩٦ - ٩٧.

(٢) سورة الفرقان، آية ٢٣.

(٣) نهج البلاغة، خطبة ١٨٩.

(٤) بحار الأنوار، ج ٧٤ ص ٢٧٢.

(٥) رجال الكشي، ص ٢٢٥.

كذب على أبي سلبه الله الإيمان»^(١). وللإشارة، فإن الكذب على الله ورسوله ﷺ يتخذ عدّة أشكال، إذ يمكن لأحدهم أن يذكر كلاماً عن الله ورسوله لم يذكره الله ورسوله على الإطلاق، أو يمكن أن ينقل كلاماً ورد عن الله ورسوله ولكنه يأتي به بنحوٍ منقوص، أو ربّما ينقل كلاماً صحيحاً ولكن يُحرّفه ولو بحرفٍ واحد، وكلّه يُعدّ كذباً على الله ورسوله مهما كانت الذريعة التي يتدرّع بها الكاذب، إذ يبرّر البعض كذبه بالقول إنه يفعل ذلك ليُخفّف عن الناس مشقّة وثقل بعض الروايات والحقائق المتعلقة بأهل البيت ﷺ، غير أنّ هذا لا يُخرجه من حقيقة أنه كاذب على الله ورسوله ﷺ، وقد قال بعض العلماء: «حذف البعض من أرباب الحديث الروايات الصعبة مع الإقرار بصحّة سندها في كتبهم! وهذا الوضع مستمرّ حتى اليوم أيضاً. فالظاهر أن هناك قراراً مُتخذاً في الحوزات الشيعية بعدم الاعتناء بأصول العقائد»^(٢). ثانياً، إذاعة أسرار أهل البيت ﷺ، حيث قال أبو عبد الله ﷺ: «من أذاع علينا حديثنا سلبه الله الإيمان»^(٣)، كما ورد أنه دخل رجلٌ على أبي عبد الله ﷺ أيام قُتل المعلّى بن خنيس وصُلب، فخاطبه الإمام قائلاً: «يا حفص، إنّي نهيتُ المعلّى عن أمر فأذاعه فقبول بما ترى، قلت له: إنّ لنا حديثاً من حفظه حفظ الله عليه دينه وديناه، ومن أذاعه علينا سلبه الله دينه»^(٤). ثالثاً، أذية المؤمنين، فقد ورد عن الإمام الصادق ﷺ أنه قال: «مَنْ روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروته ليسقط من أعين الناس أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان»^(٥)، ولهذا، فإنّ من أهم شروط ثبات الولاية والإيمان محبة المؤمنين والموالين والحرص على مداراتهم وعدم أذيتهم، ومن هنا نقرأ في زيارة

(١) رجال الكشي، ص ٢٥١.

(٢) مقدمة كتاب مصباح الهداية، تحقيق جلال الدين الآشتياني، ص ٢٣٩.

(٣) الكافي، ج ٢ ص ٢٧٥.

(٤) مختصر بصائر الدرجات، ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٥) الوسائل، ج ٨ ص ٦٠٨.

عاشوراء: «إِنِّي سَلِّمٌ لِّمَن سَالَمَكُم، وَحَرْبٌ لِّمَن حَارَبَكُم، وَوَلِيٌّ لِّمَن وَالَاكُم، وَعَدُوٌّ لِّمَن عَادَاكُم»، كما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «كُنْ مُحِبًّا لِّآلِ مُحَمَّدٍ وَإِنْ كُنْتَ فَاسِقًا وَمُحِبًّا لِّمُحِبِّيهِمْ وَإِنْ كَانُوا فَاسِقِينَ»^(١)، ولنحذر من أن نكون من النواصب الذين عرّفهم الإمام الصادق عليه السلام بالقول: «ليس الناصب من نصب لنا أهل البيت لأنك لا تجد أحداً يقول: أنا أبغض محمداً وآل محمد، ولكن الناصب من نصب لكم وهو يعلم أنكم تتولونا أو تبتروون من أعدائنا»^(٢). رابعاً، التقصير في حقوق الإخوان، فقد ورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «... إذا قصّروا في حقوق إخوانهم، ولم يشاركوهم في أموالهم، ولم يشاوروهم في سرّ أمورهم وعلاانيتهم، واستبدّوا بحطام الدنيا دونهم، فهناك يُسلب المعروف ويُسلخ من دونه سلخاً، ويصيبه من آفات هذه الدنيا وبلائها ما لا يطيقه ولا يحتمله من الأوجاع في نفسه وذهاب ماله وتشتّت شمله لما قصّر في بر إخوانه»^(٣). خامساً، كتمان العلم، فعنهم عليهم السلام أنهم قالوا: «إذا ظهرت البدع فعلى العالم أن يُظهر علمه، فإن لم يفعل سلب نور الإيمان»^(٤). ومن هنا، فليكن دعاءنا دائماً: «ولا تسلبني ما مننت به عليّ ولا تستردّ شيئاً مما أحسنت به إليّ، ولا تنزع مني النعم التي أنعمت بها عليّ وتزيد فيما خولتني، وتضاعفه أضعافاً مضاعفة»^(٥).

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين ونسألك اللهم أن تغفر لنا ما سلف من ذنوبنا على كثرتها، وتعصمنا فيما بقي من عمرنا، وتطهّر ديننا مما يدنسه ويشينه ويزري به، وتحميه من الريب والشك، والفساد والشرك، وتثبتنا على طاعتك وطاعة رسولك، وذريته النجباء السعداء، صلواتك عليهم ورحمتك

(١) القطرة، ج ١ ص ٢٣٥ ح ٩.

(٢) معاني الأخبار، ج ١ ص ٣٦٥.

(٣) مستدرک الوسائل، ج ١ ص ٣٣٢.

(٤) بحار الأنوار، ج ٤٨ ص ٢٥٢.

(٥) بحار الأنوار، ج ١٠٢ ص ١٧٠.

وسلامك وبركاتك وتحيينا ما أحييتنا على طاعتهم، وتميتنا إذا أمتتنا على طاعتهم، وأن لا تمحو من قلوبنا مودتهم ومحبتهم وبغض أعدائهم، ومرافقة أوليائهم وبرّهم ونسألك يا ربّ توبة نصوحاً ترضاهها، ونية تحمدها، وعملاً صالحاً تقبله وتهوّن علينا سكرات الموت، وتحشرنا في زمرة محمد وآله صلوات الله عليه وعليهم، وتدخلنا الجنة برحمتك.

أَكْبَرُ

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين المعصومين، واللعنة الدائمة على أعدائهم ومخالفهم ومعانديهم ومبغضهم ومنكري فضائلهم ومناقبهم من الآن إلى قيام يوم الدين، آمين يا ربّ العالمين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾^(١). يعجز اللسان عن إيفاء الله حقه من الشكر لقاء هذا التوفيق العظيم الذي كان من نصيبنا نحن العبيد الضعفاء العاجزين، إذ لطالما تمنّى أهل معرفة وولاية محمد وآل محمد ﷺ التسديد في جمع ونشر معارف سليل السادة الكربلائين آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى. فالحمد لله الذي منّ علينا بالنجاح في إنجاز هذا العمل المُشتمل على معارف شيعيّة ولائيّة كربلائيّة راقية أفاضها علينا دام ظلّه من بحر معارفه الغزيرة.

عزيزي القارئ، إنّ طالب الحقيقة لا ينأى بنفسه عنها لمجرّد خروجها من وعاء لا تستسيغه نفسه، ذلك أنّ الحكمة ضالّة المؤمن، فحيثما وجد أحدكم ضالّته فليأخذها^(٢) وخذ الحكمة من أفواه المجانين^(٣). فإذا ما قرأت مطلباً لم

(١) سورة الأعراف، آية ٤٣.

(٢) الكافي، ج ٨ ص ١٦٧.

(٣) مصباح الشريعة، ص ٣٩٨.

يَنَلْ إعجابك أو لم تقدر على حمّله، لا تُنكره من دون بيّنة، وعليك برّده إلى قائله، فلعلّه ورد عن أهل البيت عليهم السلام وأنت لا علم لك بذلك، وقد قالوا عليهم السلام: «لا تردّوا علينا ما أوردنا عليكم... فما فهمتموه فاحمدوا الله عليه، وما جهلتموه فردّوه إلينا، وقولوا: أئمتنا أعلم بما قالوا»^(١)، «وقل: القول منّي في جميع الأشياء قول آل محمّد، فيما أسروا وما أعلنوا وفيما بلغني عنهم وفيما لم يبلغني»^(٢). فإذا وصل إليك كلام أيّ حكيم أو عارف أو عالم لا ينسجم مع ذوقك وعقلك وما اعتدّت على سماعه ومعرفته من قبل، لا تُعرض عنه فوراً ولا تحكم عليه بالبطلان والوهم. فكما يمكن للفقيه أن يُصدر فتاوى لم تعهدها من قبل ولكنها مستندة إلى كتاب الله تعالى وأحاديث الأئمة عليهم السلام، فكذلك يمكن للعارف أن يتكلم بمعارف إلهية وغيبية لم يتكلّم بها أحد قبله ولكنه يمتلك دليلاً عليها من القرآن والسنة، فلماذا تقبل بفتوى الأوّل بينما لا تكتفي بفرض كلام الثاني فحسب، بل تتجرّأ عليه وتُكفّره؟ وفي هذه الحالة تكون قد ردّدت على الله ورسوله من دون أيّ مسوّغ. لذا، عزيزي القارئ، إذا لم تُوفّق لأن تكون من أهل المقامات المعنوية الرفيعة، فلا تكن من الجاحدين والرّافضين لها، لأنّ ذلك من مكائد الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء اللذين يعملان جاهدين على حرمانك من الوصول إلى الكمالات الروحيّة والمعنوية بحمّلك على معاداة العارفين والأولياء وإنكار مقاماتهم، فلا تكن من المنكرين، وإلا صرّت واحداً من قطاع طريق الحقّ والهداية.

كتاب «حسين سيّد الشهداء حقيقة بلا انتهاء» هو عبارة عن مجموعة محاضرات لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى تم إلقاؤها عام ١٣٦٤هـ. ش الموافق لعام ١٤٠٦ هـ.ق. وقد جرى تفرّغها وطباعتها وتهذيبها لغوياً وجمعها ضمن اثني عشر «فيض». وقد حاولنا قدر الإمكان توخّي الدقّة والأمانة في تفرّغ هذه المحاضرات وطباعتها، مع الإشارة إلى أن بعض

(١) بحار الأنوار، ج ٤٦ ص ٢٧٨

(٢) الكافي ج ١ ص ٣٩١.

المطالب قد تم تكرارها أكثر من مرة بهدف إنعاش ذاكرة الحاضرين في المحفل وتعريف المستمعين الجُدد عليها. وحفظاً للأمانة، وانطلاقاً من أنّ تكرار بعض المطالب يُسهّم في توضيحها وترسيخها في ذهن القارئ، أبقينا على المحاضرات كما هي وامتنعنا عن حذف المكرّر منها. وقد تمّ تدعيم هذه الفيوضات بالهوامش التي جاءت إمّا بهدف توثيق المتن بالآيات القرآنية والروايات المنقولة عن أهل البيت عليه السلام أو شرح وتوضيح المطالب الواردة فيها أو الاستفاضة بتلك المطالب.

بدايةً، من الضروريّ لفت انتباه القارئ العزيز إلى أنه إذا ما ورد مصطلح «الذات» أو «كنه الذات» أو «الذات الربوبية» أو «الذات الإلهية» على لسان العرفاء أو غيرهم، ينبغي أن يعلم ما هو مقصد كل واحدٍ منهم، لأن أكثر الخلافات الواقعة بين أهل السير والسلوك هي من حيث المصطلح لا من حيث الحقيقة. فالبعض، مثلاً، يعتبر أنّ الذات الإلهية مختلفة عن كنه الذات التي هي ليست معبودة أو معروفة لأحد، حتى للأنبياء والأولياء. والبعض الآخر يعتبر أنّ الذات الإلهية هي نفس كنه الذات. ولذا، عندما يقول أحد العارفين إنّ أهل البيت عليه السلام قد انفنوا بالذات الإلهية، يأتي آخر ويكفره باعتبار أنّ الذات الإلهية عنده ليست معروفة لأحد، فكيف تحققوا بها وانفنوا فيها؟ وهكذا يبدأ كلّ واحدٍ منهم يطعن بالآخر ويتقرّب إلى الله بلعنه والبراءة منه. ومن هنا، فإنّ المطلوب هو التدبّر ومعرفة ما قصد هذا أو ذاك من استخدامه لأحد هذه المصطلحات، ثمّ من بعد ذلك يتمّ إصدار الأحكام. «إياك ثم إياك والله حفيظك في أولاك وأخراك أن تحمل أمثاله على ظاهرها من غير الغور الكامل إلى غامرها، ولا تأخذ بيدك الطعن عليهم من غير فهم مقصدهم، كما هو دأب بعض المنتسبين إلى العلم، فإنهم جعلوا ميزان عدم صحة المطالب عدم اطلاعهم عليها أو عدم فهمهم إياها»^(١)، «وأوصيك أيها الأخ الأعزّ، أن لا تُسيء الظن بهؤلاء العرفاء والحكماء الذين كثيراً منهم من خلّص شيعة عليّ بن أبي طالب وأولاده

(١) مصباح الهداية، وميض ٧ ص ٣٧١.

المعصومين ﷺ وسلّاك طريقتهم والتمسّكين بولايتهم وإياك أن تقول عنهم قولاً منكراً أو تسمع إلى ما قيل في حقّهم فتقع فيما تقع، ولا يمكن الإطلاع على حقيقة مقاصدهم بمجرد مطالعة كتبهم من غير الرجوع إلى أهل اصطلاحهم، فإنّ لكل قوم لساناً ولكل طريقة بياناً^(١).

تتناول فيوضاتُ «كتاب حسين سيّد الشهداء حقيقة بلا انتهاء» مطلّبين توحيديين اثنين بشكلٍ أساسيٍّ: الأوّل هو تبيان أنّ ذات الحق تعالى منزّهة عن جميع الحيثيّات والعوارض وعن أيّ شكلٍ من أشكال النّسبة والتشبيه وأنّ أهل البيت ﷺ هم تعيّن أسماء الله الحسنى وصفاته العليا وكلماته التامة، فضلاً عن تبيان المقام الشامخ لولاية أمير المؤمنين ﷺ. أما الثاني فهو عرضٌ للطرق الثلاث التي من شأنها أن توصل السّالك الموالي إلى التوحيد وهي: العبادة والذكر والعشق. كما ويتضمّن الكتاب بين دفتيه معارف ولائية راقية وأخرى ذوقية ليست إلا لأهلها^(٢)، ويتناول أحداث عاشوراء وشخصيّات كربلاء كما لم يتناولها أحدٌ من قبل، حيث يكشف آية الله السيّد أحمد النجفي دام ظلّه بعضاً من حقيقة كربلاء وعاشوراء الحسين ﷺ.

في ما يتعلّق بالمطلب الأساسي الأوّل، فإنّ أحداً لا يستطيع الوصول إلى الذات الربوبية، حيث أنّ أقصى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان هو اسم ذات الحقّ، فالحق لا يظهر إلا بالاسم والاسم ليس إلا حقيقة ولاية محمّد وآل محمّد عليهم الصلاة والسلام. ولا يمكن معرفة التوحيد إلا من مجرى الولاية، وكلّما تعمّق الإنسان في التوحيد أكثر، كلما شعر بعجز أكبر. ومن أجل ذلك استخدم الحق المتعال طريق المثل لتعريف الإنسان على الحقائق، فلا يمكن للإنسان أن يعرف الحقيقة ويفهمها إلا من خلال هذا الطريق، إذ يقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٣)، وعن رسول الله ﷺ أنه قال

(١) مصباح الهداية، مصباح ٤٣ ص ٣٠٥.

(٢) ﴿لَمَنْ كَانَ لِمُوقَاتٍ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، سورة ق، آية ٣٧.

(٣) سورة النحل، آية ٦٠.

لعليّ عليه السلام : «يا عليّ، أنت حجة الله، وأنت باب الله، وأنت الطريق إلى الله، وأنت النبا العظيم، وأنت الصراط المستقيم، وأنت المثل الأعلى»^(١).

إذاً، فاسم الذات هو المقصد، ويُصرّح أمير المؤمنين عليه السلام، بلسان كلّ الأئمة الطاهرين، عن عجز كلّ المخلوقات عن الإطلاع على الذات الإلهية المقدسة. فكلّ الأئمة عليهم السلام يعترفون بالعجز ويؤكدون أنّ معرفة الله في مرتبة الذات أمر محال وممتنع، «فليس الله عرف من عرف ذاته»^(٢)، «قد جهل الله من استوصفه وتعدّاه من مثله وأخطأه من اكتنّه»^(٣)، «لا تقع الأوهام على كنهه ولا تُحيط الأفهام بذاته»^(٤) كما قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام في خطبته في إخلاص التوحيد. وقال عليه السلام أيضاً: «انتهى المخلوق إلى مثله، وألجأه الطلب إلى شكله، الطلب مردود والطريق مسدود»^(٥)، وعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «تفكروا في كلّ شيء ولا تفكروا في ذات الله»^(٦)، وقال أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الخصوص: «من تفكّر في ذات الله ألحد»^(٧). فكلّ من يتصدّى لهذا المورد بفكره وعقله، سوف يجد أنّ ما ينكشف له ليس إلّا نتاج أفكاره القاصرة المحدودة، فعن عليّ بن الحسين عليهما السلام أنه قال: «إنّ دين الله لا يصاب بالعقول الناقصة والآراء الباطلة والمقاييس الفاسدة ولا يصاب إلّا بالتسليم»^(٨). وكلّ ما يميّزه الإنسان بعقله هو مخلوق مثله مردودٌ إليه طبق حديث الإمام الباقر عليه السلام الذي قال: «كلّ ما ميزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه مخلوقٌ مصنوعٌ مثلكم مردودٌ إليكم، ولعلّ النمل الصّغار تتوهم أنّ الله تعالى زبانيتين، فإنّ ذلك كمالها، ويتوهم أنّ عدمها نقصان لمن لا يتصف بهما، وهذا حال العقلاء فيما يصفون

(١) عيون الأخبار، ص ١٨١.

(٢) تحف العقول، ج ١ ص ٦١.

(٣) تحف العقول، ج ١ ص ٦٣.

(٤) تحف العقول، ج ١ ص ٦٥.

(٥) تفسير ستّ سور، ج ١ ص ٤٦٣.

(٦) ميزان الحكمة، ج ٣ ص ١٨٩٢.

(٧) ميزان الحكمة، ج ٣ ص ١٨٩٢.

(٨) كمال الدين وتمام النعمة، ص ٣٢٤.

الله تعالى به»^(١). وأمّا مقام الباري تعالى فهو أرفع وأجلّ، فالله أكبر! وقد سُئل الإمام الصادق عليه السلام عن المعنى من قول «الله أكبر»، فقال عليه السلام: «الله أكبر من أن يُوصف»^(٢)، حتّى بوصف خاتم الأنبياء عليه السلام ووصف أمير المؤمنين عليه السلام. «فالهويّة الغيبيّة الأحديّة هي في عماءٍ وبُطونٍ وغيبٍ وكُمُونٍ لا اسم لها في عوالم الذكر الحكيم، ولا رسم، ولا أثر لحقيقتها المقدسة في الملك والملكوت، ولا وسم؛ منقطعٌ عنها آمال العارفين، وتزلّ لدى سرادقات جلالها أقدام السالكين، محجوبٌ عن ساحة قدسها قلوب الأولياء والكاملين، غير معروفة لأحدٍ من الأنبياء والمرسلين، ولا معبودة لأحدٍ من العابدين والسالكين الراشدين، ولا مقصودة لأصحاب المعرفة من المكاشفين»^(٣).

يقول الله عزّ وجلّ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾^(٤)، وعن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «نحن والله الأسماء الحسنی التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلا بمعرفتنا»^(٥). إنّنا حين نتكلم عن مقام الاسم وشأنه ورفعته، فإنه لا ينبغي فصله عن الذات، إذ بالنتيجة كل ما هو حاصلٌ للاسم يعود إلى الذات وليس باستقلالية عنها. فاسم الله موصولٌ به والفصل بينهما هو الشرك بعينه، ﴿الَّذِينَ يَنْفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٦). وينبغي إلفات النظر إلى مسألة غاية في الأهمية وهي أنه في روايات أهل البيت عليه السلام، تارة تردّ كلمة «الله» بمعنى الاسم وتارة أخرى تردّ بمعنى الذات أو كنه الذات، فيجب التنبّه إلى هذه النقطة حتى يتمكن القارئ من

(١) بحار الأنوار، ج ٦٦ ص ٢٩٣.

(٢) عليّ بن محمّد، عن سهل بن زياد، عن ابن محبوب، عمّن ذكره، عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: قال رجلٌ عنده: الله أكبر. فقال: الله أكبر من أيّ شيء؟ فقال: من كلّ شيء. فقال أبو عبد الله عليه السلام: حدّثه! فقال الرجل: كيف أقول؟ قال: قل: الله أكبر من أن يوصف»، الكافي، ج ١ ص ١١٧.

(٣) مصباح الهداية، ص ١٦.

(٤) سورة الإسراء، آية ١١٠.

(٥) الكافي، ج ١ ص ١٤٤.

(٦) سورة البقرة، آية ٢٧.

فهم المعنى الصحيح للرواية. فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «اسم الله غير الله»^(١)، ومن أوجّه فهم هذه الرواية أنّ نفس اسم «الله» هو غير «الله» الذي يمكن أن يكون المقصود به الذات أو كنه الذات. ويقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ الوصول إنّما يكون إلى معرفة الله، ومعرفة الله غير الله (ذات الله)... إنّ الفاصلة بين معرفة الله والله هي الفاصلة بين العدم والوجود».

ورد عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «من عبد الله بالتوهم فقد كفر، ومن عبد الإسم دون المعنى فقد كفر، ومن عبد الإسم والمعنى فقد أشرك، ومن عبد المعنى بإيقاع الأسماء عليه بصفاته التي وصف بها نفسه فعقد عليه قلبه ونطق به لسانه في سرائره وعلايته فأولئك أصحاب أمير المؤمنين سلام الله عليه حقاً»^(٢)، كما يقول عليه السلام في رواية طويلة: «والإسم من نور الذات بلا تبعيض»^(٣) وفي موضع آخر يقول عليه السلام: «النور لم يكن باطناً في الذات فظهر منه، ولا ظاهراً منه فبطن فيه، بل النور من الذات بلا تبعيض وغائب في غيبه بلا استتار ومُشرق منه بلا انفصال كالشعاع من القرص»... «وإنّ الذات لا يقال لها نور لأنها منيرة كل نور»^(٤). كما ورد في الرواية نفسها: «إنّ الصورة الأنزعية»^(٥) التي قالت ظاهري إمامة ووصية، وباطني غيب منيع لا يدرك ليست كلية الباري ولا الباري سواها، وهي هو إثباتاً وإيجاداً وعياناً ويقيناً لا هي هو كلاً ولا جمعاً ولا إحصاءً ولا إحاطة... «لا هي هو ولا هو غيرها»^(٦)، كما قال عليه السلام: «ليس وراءه (الإمام) غاية ولا له نهاية»^(٧).

(١) الكافي، ج ١ ص ١٩٢.

(٢) الكافي، ج ١ ص ٨٧.

(٣) الهداية الكبرى، الباب ٤ ص ٢٧٧.

(٤) الهداية الكبرى، الباب ٤ ص ٢٧٦.

(٥) أي المنتزعة من الذات.

(٦) الهداية الكبرى، الباب ٤ ص ٢٧٧.

(٧) الهداية الكبرى، باب ٤ ص ٢٧٧.

وفي ختام الكلام عن المطلب الأول، نقول إنّ الذوات المقدّسة لأهل البيت (عليه السلام) ليست واجبة الوجود حتى يدّعي البعض الألوهيّة والربوبية لها ولا ممكنة الوجود كبقية الخلق، وكما يقول الله تعالى: ﴿لَا شَرَفَ لَآ غَرَبَةَ﴾^(١)، فهي ليست حادثة كسائر الحوادث ولا قديمة كقدم الله عزّ وجلّ.

«إياك، ثم إياك، والله حفيظك في أولاك وأخراك، أن تتبّع ما تشابه من كلمات العرفاء السالكين وبيانات الأولياء الكاملين... فإنّ اتباع المتشابهات من كلماتهم من غير التجسّس لمغزى مرامهم والتفتيش البالغ لحقيقة مقاصدهم عند وليّ مرشد يرشدك إليها يوجب الخروج عن طور التوحيد الذي هو قرّة أعين أهل المعرفة والأولياء، والإلحاد بأسماء الله التي هي كعبة قلوب السالكين والعرفاء»^(٢).

أما المطلب الثاني الذي يتناوله الكتاب، فيرتبط بالطرق الثلاثة التي من شأنها أن توصلَ إلى التوحيد. وفي هذا الصّدّد، نجد أنّ طريقيّ العبادة والذكر ينطويان على شروطٍ عديدة يتوجّب على السّالك الموالي تحقيقها حتى يصل بهذين الطريقين إلى التوحيد. ومن هذه الشروط تحقيق الاستغراق والفناء في العبادة أو الذكر، وهذا لا يتمّ إلا بتحقيق الإخلاص وخلوّ العمل من أيّ رياء، فعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال: «إنّ الله لا يقبل عملاً فيه مثقال ذرّة من رياء»^(٣). وكما هو معلوم، ليس من السّهل تحقيق شرط الإخلاص^(٤) والتطهّر من الرّياء بشكل تامّ، وفي الوقت عينه، إذا تمّ الإخلال بأيّ شرطٍ من شروط هذين الطريقين، سوف يتعذّر على السّالك الموالي الوصول إلى التوحيد عبرهما، ومن هنا، كان هذان الطريقان محفوفين بالعقبات والمخاطر.

فإذا دقّقنا في عبادتنا، نجد أنّها ليست على الشكل الذي يوصلنا إلى

(١) سورة النور، آية ٣٥.

(٢) مصباح الهداية، مصباح ٤٢.

(٣) ميزان الحكمة، ج ٢ ص ١٠١٧.

(٤) ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، سورة البينة، آية ٥.

الاستغراق والفناء، وإلى التوحيد في نهاية المطاف. وعلى سبيل المثال، حتى تكون الصلاة مقبولة، يلزم تحقق عدة شروط فيها وأهمّها شرط الإخلاص، وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم العلامة التي تدلّ على قبول الصلاة وهي أنها تنهى المُصلّي عن الفحشاء والمنكر، حيث قال عزّ وجلّ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، ولكننا نرى أن غالبية المصلّين لا تُجَتِّ منهُم صفات الفحشاء والمنكر بشكل تامّ، حيث يُصلّي الإنسان لعشرين وأربعين وخمسين سنة ومع ذلك يستمرّ في الكذب والغيبة، ما يعني أن تلك الصلاة غير مقبولة، وما ذلك إلا لأنها افتقرت إلى الإخلاص وإلى الأساس الصحيح الذي ينبغي أن تقوم عليه. فبمثل هذه الصلاة، لن يصل الإنسان إلى التوحيد، ومن هنا، كان طريق العبادة صعباً وغير مُيسّر للجميع.

وكذلك بالنسبة إلى طريق الذكر، فللذكر أربع مراتب: ذكرٌ كُتِبِي، وذكرٌ لفظي، وذكرٌ ذهني، وذكرٌ واقعيّ وحقيقيّ وعينيّ. فالذكر الكُتِبِي يتحقق حين يتمّ كتابة الأذكار لاسيّما أسماء الله تعالى كالودود والرحمن والقيوم والقدوس وما إلى ذلك. والذكر اللفظي هو ما يُتلفّظ به من هذه الأسماء. أمّا الذكر الذهني، فهو عندما يتدبّر الذاكر بأسماء الله تعالى. فهذا الذكر المتداول بين العوام لا يوصل إلى التوحيد، حسبما يؤكّد آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى، لكونه يفتقر إلى البُعد العينيّ الواقعيّ الحقيقيّ، إذ أنّ الذكر العينيّ الواقعيّ هو أهل البيت (عليه السلام) (القرآن الناطق)، حيث يقول رسول الله ﷺ: «الذكر أنا والأئمة أهل الذكر»^(١)، كما يقول الإمام الباقر (عليه السلام): «نحن ذكر الله ونحن أكبر»^(٢)، وورد عنهم (عليهم السلام) أيضاً: «إنّا إذا ذُكرنا ذُكر الله»^(٣). وقد فُسِّر وطُبّق الذكر بالرسول الأكرم وعلي بن أبي طالب صلى الله عليهما وآلهما والأسماء الحسنی بأئمة الهدى، وكذلك فُسِّرَت وطُبِّقَت آيات الله عليهم فهم الآيات الإلهية وأسماء

(١) الكافي، ج ١ ص ٢١٠.

(٢) الكافي، ج ٢ ص ٥٩٨ ح ١.

(٣) الكافي، ج ٢ ص ١٨٦.

الله الحسنی وذكر الله الأكبر^(١). ويقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾^(٢) فذكر الحق، كما نستخلص من الروايات السابقة، هو ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، ومن يُعرض عن هذا الذكر فإنَّ له معيشةً ضنكاً، أي أن الله تعالى سيُقبل كل الأبواب في وجهه وسيكدر عليه عيشه. أما مَنْ يلتزم هذا الذكر، فسيصل إلى غايته التي هي التوحيد، ولكن المشكلة أن هذا الذكر غير معلوم عند النَّاس ولذلك لا يصلون من خلاله.

إذاً، من الواضح أنَّ ما له الحقيقة الأصلية إنّما هو الذكر الواقعي، وهو الذي ترتّب عليه كافة الآثار الواقعية، وأما الذكر الذهني فقد جعل دلالة وآية تدلّ على الذكر الواقعي، وكذا الذكر اللفظي الذي جعل عنواناً دالاً على الذكر الذهني والواقعي الخارجي، وبنفس النحو يدلّ الوجود الكتبي، فما هو شفاء ورحمة ليس هو الذكر الكتبي أو اللفظي بحيث أنَّ مجرد قراءة ألفاظ الذكر تؤدّي إلى الشفاء، بل وحده مَنْ وصل إلى الذكر الأصليّ وتعيّن به وانتقش بقلبه يمكن أن يكون هذا الذكر شفاءً ورحمة له.

ويقول الله تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْنِي فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾^(٣). فالوجود العينيّ الواقعيّ للقرآن - المُسمّى بالذكر - كامنٌ في صدور الذين أوتوا العلم، أي في قلوبهم، ولا يُحصّل ما في القلب إلا بالقلب عبر الحبّ والعشق، مثلما أنه لا يُحصّل الشمّ إلا بالأنف ولا الذوق إلا باللسان ولا السمع إلا بالأذن وهكذا. وعليه، فإن قلوب الذين أوتوا العلم تشتمل على الذكر العينيّ الواقعيّ وما يترتب عليه من آثار واقعية حقيقية.

وكما أنَّ ذكر الله هو ذكر أهل البيت عليهم السلام، فكذلك خدمة الله وعشقه هي خدمة أهل البيت وعشقهم، وقد قال رسول الله ﷺ: «معاشر عباد الله، عليكم بخدمة من أكرمه الله بالارتضاء، واجتباها بالاصطفاء، وجعله أفضل أهل الأرض

(١) الآداب المعنوية للصلاة، ص ٣٦٥.

(٢) سورة طه، آية ١٢٤.

(٣) سورة العنكبوت، آية ٤٩.

والسماء بعد محمد سيّد الأنبياء، عليّ بن أبي طالب عليه السلام وبموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه وقضاء حقوق إخوانكم الذين هم في موالاته ومعاداة أعدائه شركاؤكم»^(١)، كما قال عليه السلام: «سيّد القوم خادمهم»^(٢)، أي أن خادم أهل البيت عليه السلام هو سيّد قومه. وهنيئاً لمن كان خادماً لابن فاطمة الزكيّة عليها السلام الذي قال في دعاء عرفة: «إلهي تردّدي في الآثار يوجبُ بُعدَ المزار فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك»^(٣)، كما ورد في دعاء كميل: «حتى تكون أعمالي وأورادي كلها ورداً واحداً وحالي في خدمتك سرمداً»^(٤). فما هي هذه الخدمة السرمديّة وكيف تكون، هل فكّرنا بذلك؟ يصرّح أهل البيت عليهم السلام، على لسان الإمام الصادق، بالقول: «كلنا سفن النجاة ولكن سفينة جدي الحسين أوسع وفي لجج البحار أسرع»^(٥)، وعن الرسول الأكرم عليه السلام أنه قال: «إن الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة»^(٦). ولعلّ مثل هذه الروايات توصلنا إلى الإجابة على السؤال الآنف طرحه، فصحيحٌ أن خدمة أهل البيت سلام الله عليهم أجمعين توصل إلى الله تعالى، غير أنّ طريق خدمة الحسين عليه السلام وعشقه هو الأسرع، مما يجعلنا نعتقد بأنّ خدمة سيّد الشهداء هي الخدمة السرمديّة، وأنّ عشقه هو الطريق الأقرب.

إذاً، فالطريق الثالث هو العشق وهو الطريق الأضمن والأقرب والأسرع والأقلّ خطورة للوصول إلى التوحيد. والعشق المقصود هنا، كما ذكرنا سابقاً، هو عشق ومحبة سيّد الشهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام، فقد ورد في الحديث: «أحبّ الله من أحبّ حسيناً»^(٧)، ما يعني أن محبّ الحسين عليه السلام يحصل على

(١) تفسير الإمام العسكري، ص ١٢٧.

(٢) مكارم الأخلاق، ص ٢٥١.

(٣) دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام، مفاتيح الجنان.

(٤) دعاء كميل، مفاتيح الجنان.

(٥) بحار الأنوار، ج ٢٦ ص ٣٢٢.

(٦) مدينة المعاجز، ج ٤ ص ٥١.

(٧) كامل الزيارات، ص ٥٢.

محبة الله تعالى ومن المؤكد أنّ مَنْ يحصل على محبة الله، يصل إلى الكمال. وقد ورد عن الإمام الرضا (عليه السلام): «يا ابن شبيب، إنّ سرّك أن تلقى الله ولا ذنب عليك، فزُر الحسين (عليه السلام)»^(١)، و«على مثل الحسين فليبك الباكون، فإنّ البكاء عليه يحطّ الذنوب العظام»^(٢)، كما قال (عليه السلام): «مَنْ زار قبر أبي عبد الله بشطّ الفرات كان كمن زار الله فوق عرشه»^(٣). وبالتالي، فعشق الحسين (عليه السلام)، بما يشتمل عليه من زيارة وبكاء، يُقرّب السالك الموالي من الله لا بل يؤمّن له اللقاء معه تعالى، كما يضمن غفران الذنوب حتى العظام منها، وكلها خصائص توصل إلى التوحيد ولا تنوّفّر في أيّ من طريقيّ الذكر أو العبادة الآنف ذكرهما من الناحية العملية. ومن هنا، اختصر لنا سيّد الشهداء (عليه السلام) طريق التوحيد بعشقه، وهو الذي أفنى كل وجوده في معشوقه المطلق فبات هو العشق والعاشق والمعشوق.

وفي الحقيقة، فإنّ العشق يُطهّر الروح من الأخلاط والشوائب، فهو يصنّف ويمحو الصفات الرذيلة الناشئة من الأنانية (كالكذب والرياء والحقد والحسد والشهوة والغضب وغيرها) ويعمر القلب ويبنيه بعد خرابه ونُحوله وسُقمه، ويجعله خالصاً مصفّياً كالذهب الخالص، فالحبّ يسوق المحبّ نحو المشابهة والمشاركة بالمحبوب. فهو الذي جعل زهير بن القين الذي كان عثمانياً الهوى يخرج من عند زوجته زهيراً ويرجع إليها حسيناً! فأينما شِعّ وجوده (عليه السلام) ظهر الجمال. والعشق هو الطريق الأسرع لقتل النفس والوصول إلى أعلى مراتب التوحيد، «وَمَنْ عَشَقْتُهُ قَتَلْتُهُ وَمَنْ قَتَلْتُهُ فَعَلَيْ دِيَّتِهِ وَأَنَا دِيَّتُهُ»^(٤). ولكن كيف يتجلّى هذا العشق وكيف يعشق الله عبده؟

إنّ الله تعالى لحبّه وعشقه لمحمد وآل محمد أظهر هذا الوجود، وحين ينظر إلى قلب صار عاشقاً لهم ولهاناً بهم (عليه السلام)، عندها يلحظه وينظر إليه، «والحظني

(١) بحار الأنوار، ج ٩٨ ص ١٠٣.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٤ ص ٢٨٤.

(٣) التهذيب، ج ٦ ص ٤٥ ح ٩٨.

(٤) المواعظ العددية، ص ٣٠٩.

بلحظة من لحظاتك تنور بها قلبي بمعرفتك خاصّة ومعرفة أوليائك»^(١). فإدراك التوحيد لا يتحقق إلّا بالفناء الكامل فيهم ﷺ، إذ لا يتحقق الفناء في الله لأحد إلّا أن يكون فانياً في محمد وآل محمد، وإدراك هذا المقام يكون بالمحبة، فالمحبة هي صانعة التوحيد ومحقة الوحدة وأول ما تكون هذه المحبة مع الخلق حيث يتحقق التوحيد معهم ثم مع الخالق.

ولو أمعنا النظر بتلك العين الملكوتية، التي قال عنها الرسول الأكرم ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بعين الله»^(٢)، لرأينا أنّ العشق الحسيني يمثل السبيل السلوكية بجميع مراحلها ودرجاتها، وإنّ كل الحقائق التي انكشفت للكاملين في عالم الوجود ومكملته كانت عن مجرى عاشوراء الإمام الحسين ﷺ، وظهور هذه الحقائق وانكشاف هذه الأسرار للعالمين يحتاج إلى معرفة بحقيقة هذا الطريق والوحدة معه ﷺ، فالحسين ﷺ أفضل وزدٍ وذكرٍ وعملٍ لأجل رفع الحجب والموانع والوصول إلى الله تعالى. وعندما نعلن تولّينا ومحبتنا للإمام الحسين ﷺ نقول: «يا ليتنا كنّا معكم فنفوز فوزاً عظيماً»، فهذه المحبة محبة جمعية، والدافع الأساس لهذه المحبة الجمعية تخلص الموالي من أيّ هوى وهوس في باب المحبة الولائية والإلهية. فالحسين ﷺ للسالكين الموالين نورٌ قلبي وبرهانٌ عقلي ومعينٌ إلهي، لذا فمن يريد السير والسلوك فليسر إلى الواله المحب فانياً أفعاله بأفعال سيّد الشهداء ﷺ وصفاته بصفاته وذاته بذاته، ولأنّه ﷺ فإن بالله عزّ وجلّ، فإننا سنفنى بالله عند فئنا به، «أحبّ الله من أحبّ حسيناً».

لقد فتح الإمام الحسين ﷺ لنا الطريق في كربلاء لنيل رضا الله^(٣)، حيث خطّ بدمه منهاجاً وصراطاً لشيّعته، بدأ منذ ما قبل يوم عاشوراء ويمتدّ أثره ليصل

(١) بحار الأنوار، ج ٩١ ص ٩٦.

(٢) الكافي، ج ١ ص ٢١٥.

(٣) عن الإمام الحسين ﷺ أنه قال: «رضا الله رضانا أهل البيت»، (بحار الأنوار، ج ٤٤ ص ٣٦٧). وفي الحديث القدسي: «أخفيت رضاي في جفاء المخلوق، فمن كان يريد رضاي فليتحمل من الآخرين جفاءهم»، مستدرك الوسائل، ج ١١ ص ٢٨٩.

إلى يوم القيامة. فرسم لأهل التوحيد توحيدهم ولأهل العشق عشقهم ولأهل العبادة عبوديتهم ولسان حاله يخاطبهم قائلاً: إن أردتم الوصال «فها هنا محط رحالنا وها هنا مناخ ركابنا». غير أنه لا بد من البذل كشرط أول للوصول إلى كربلاء، ودليل ذلك ما عبّر عنه الإمام (عليه السلام) في أكثر من موضع حيث قال: «من كان فينا باذلاً مهجته»، و«ها هنا تُسبى نساؤنا»، و«يا دهر أف لك من خليل» ومثيلاتها من العبارات التي تشير إلى أهمية البذل ونوعه وكمه وكيفه في هذا الطريق.

وكلّ من يظنّ أن هناك سبيلاً آخر غير ما خطّه سيّد الشهداء (عليه السلام) ورسمه في كربلاء للوصول بكل الحقائق التوحيدية والولائية هو إمّا غافل أو جاهل، وعليه أن يلتفت إلى كلامه (عليه السلام) حين قال: «كلّ سالك سبيلي»، ما يعني أن لا سبيل لكم غيري، فلا طريق لكم للوصول إلى الله والتحقيق بأسمائه وصفاته ومعرفته والعبودية له إلا إذا سلكتم مسلكي وسبيلي. وقد اختصر لنا سيّد الشهداء الطريق بكربلاء التي هي أسرع الطرق^(١) إلى الله وأقربها منه، إذ ورد في زيارة عاشوراء: «يا أبا عبد الله إني أتقربُ إلى الله وإلى رسوله وإلى أمير المؤمنين وإلى فاطمة وإلى الحسن وإليك بموالاتك وبالبراءة ممّن قاتلك ونصب لك الحرب»، «اللهم إني أتقربُ إليك في هذا اليوم وفي موقفي هذا وآيام حياتي بالبراءة منهم واللّعة عليهم وبالموالاتة لنيك وآل نبيك عليه وعليهم السّلام»، «وأتقربُ إلى الله ثمّ إليكم بموالاتكم وموالاتكم وبالبراءة من أعدائكم والنّاصبين لكم الحرب وبالبراءة من أشياعهم وأتباعهم». كما أنّ في تربة كربلاء الشفاء من كل داء، مادياً كان أو معنوياً، وقد أتت عظمة هذه التربة من ساكنها والإستفادة منها منوطة بمدى معرفة وعشق ساكن كربلاء الذي هو الإمام الحسين (عليه السلام)، فالسير والسلوك من كربلاء وفي كربلاء وإلى كربلاء لما فيها من حقائق وأسرار ومعارف وعبر، فمنها الحياة وبها الإرتقاء.

(١) قال الإمام الصادق (عليه السلام): «كلنا سفن النجاة ولكن سفينة جدي الحسين أوسع وفي لبحج البحار أسرع»، بحار الأنوار، ج ٢٦ ص ٣٢٢.

وبعدما تقدّم، يتحصّل لدينا أنّ الطريق الأوحد للوصول إلى الله تعالى هو محبة وعشق محمد وآل محمد، وعلى وجه الخصوص محبة وعشق سيد الشهداء عليه السلام، ومقدمة هذه المحبة معرفتهم التي عليها دارت القرون الأولى، لذا ينبغي على الإنسان أن يكون عالماً عارفاً بهم عليهم السلام.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الناس ثلاثة أصناف في تلقّف المعارف والحقائق والمقامات الخاصّة بأهل البيت عليهم السلام. الصّنف الأوّل: يُدعّن لهذه الحقائق ويتقبّلها ويصدّقها من دون تردّد. الصّنف الثاني: يتوقّف عند هذه المعارف التي تركّ لديه نوعاً من الصّدمة، فيشكّ بها ويتردّد في قبولها، وذلك بسبب الطريقة التي تمّت برمجة عقله بها، في ما يرتبط بمقامات أهل البيت عليهم السلام والولاية لهم، والتربية التي تربّى عليها وما ورثه عن آبائه وأجداده في هذا المجال، وأمثال هذا الصّنف ينتهي بهم الحال إمّا إلى الرّكون لتلك البرمجة والتربية والإرث فينكرون حقائق أهل البيت عليهم السلام أو يتمكّنون، بتوفيقٍ من الله، من تخطّي كل هذه العوائق وتقبّل مقاماتهم عليهم السلام. أمّا الصّنف الثالث من الناس فيُسارع إلى إنكار الحقائق الولائية ورفضها من دون تردّد.

أيها الموالي، إنّ أردت الحقيقة، فهي لا تُعرف بالرجال، فاعرف الرجال بالمقال، لا المقال بالرجال، حيث يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ الحقّ والباطل لا يُعرفان بأفكار الرجال، إعرف الحقّ تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف أهله»^(١). وإن أردت وصال الحقيقة، فما عليك إلا أن تشتمّ شذاها من ندى عالم ربّانيّ انتهل من علم السرّ^(٢) فارتوى وأروى وكان الراوي لكلّ ظمآن، وما

(١) وقد نُقلت عبارة الإمام عليه السلام بطريقة مختلفة: «يا حار، إنك ملبوس عليك إن الحق والباطل لا يعرفان بالناس ولكن اعرف الحق باتباع من اتبعه والباطل باجتنب من اجتنبه»، نهج السعادة، ج ١ ص ٢٩٨.

(٢) ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال لولده اسماعيل: «يا بنيّ، إجتهد في تعلّم علم السرّ فإنّ بركته كثيرة، أكثر مما يُظنّ. يا بنيّ، من تعلّم علم العلانية وترك علم السرّ يهلك ولا يسعد. يا بنيّ، إنّ أردت أن يكرمك ربّك بعلم السرّ، فعليك ببغض الدنيا، واعرف خدمة الصالحين، وأحكم أمرك للموت، فإذا اجتمعت فيك هذه الخصال الثلاث، يكرمك ربّك بعلم السرّ».

هذا الكتاب إلا قدح من ماء عشقه الولائي يسقي به المتعطّشين للحقيقة، ولكن كلُّ يرتوي بقدر عطشه وعشقه.

وفي الختام، نتمنّى المزيد من التوفيق الظاهري والباطني، تحت لواء محمد وآل بيته صلى الله عليهم أجمعين، لكلّ من بذل جهداً في جمع وحفظ ونشر هذه المعارف الولاية.

محمد باقر

الفيض الأول

«الله» في مرتبة التنزل الإسمي

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١). «الله» نور، «نور السماوات والأرض». لقد أتت تلك الحقيقة في مجرى الإسم، حيث أُعطيَتْ أعظم الأسماء^(٢) وهو اسم «الله». وحين مرّت عبر مجرى الإسم، تنزّلت تنزلاً

(١) (سورة النور، آية ٣٥). وصف الله تعالى أهل البيت ﷺ بأنهم لا حادثين ولا قدماء حيث قال في آية النور: ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾، واللازم للإضاءة ثلاثة عناصر: النار والهواء والدهن. فالنار مثال على ولاية الله الربوبية إذ لا يوجد مربوب لا ذكراً ولا عيناً، والهواء مثال على الحقيقة المحمدية الربوبية إذ يوجد مربوب ذكراً، والدهن الصافي مثال على الحقيقة العلوية الربوبية إذ يوجد مربوب ذكراً وعيناً. ولا شك أن النار من دون توسط الهواء لا تتعلق بالدهن.

(٢) «إن الأسماء تنقسم بنوع من القسمة إلى أسماء الذات وأسماء الصفات وأسماء الأفعال وإن كانت كلها أسماء الذات ولكن باعتبار ظهور الذات فيها تسمى أسماء الذات وباعتبار ظهور الصفات فيها تسمى أسماء الصفات وبظهور الأفعال فيها تسمى أسماء الأفعال وأكثر الأسماء جامعة للاعتبارات الثلاثة... مثل الربّ فهو بمعنى الثابت من الأسماء الذاتية وبمعنى المالك من الأسماء الصفاتية وبمعنى المصلح من الأسماء الأفعالية... إن تجليات الحق في حضرة الأحدية تجلّ بالأسماء الذاتية وتجليه في الحضرة الواحدية تجلّ بأسماء الصفات وتجليه في حضرات الأعيان الخارجية تجلّ بأسماء الأفعال، ولعل الآيات الشريفة في آخر سورة الحشر ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

إسمياً. ف«الله» هو الإسم^(١) الجامع لكل الصفات^(٢) الكمالية والجلالية والجمالية. والله، في التنزل الإسمي هو ﴿نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. وإنّ التنزل الأوّلي الذي اتخذ شكل الإسم^(٣)، هو الولاية^(٤). إذاً، في التوحيد، يتم

عَلَيْهِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَرِّئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ تكون إشارة إلى المقامات الثلاثة»، الآداب المعنوية للصلاة، ص ٥٣٨.

(١) الفرق بين الإسم والصفة هو أنه إذا اعتبرنا مثلاً أن هناك كلمتين: «فلان» و«العلم» فيكون «فلان» هو ذات مجردة عن الاتصاف بأي صفة، والعلم هو صفة مجردة. فالإسم هو الصفة مع لحاظ الذات، والصفة تكون دون لحاظ الذات. ف: فلان (الذات) + العلم (صفة) = فلان عالم (إذن عالم هنا هو اسم وليس صفة) والعلم دون لحاظ الذات هو صفة. إذن: العلم صفة والعالم اسم والحياة صفة والحي اسم والقدرة صفة والقادر اسم والإرادة صفة والمريد اسم وهكذا إلى آخر الأسماء والصفات، فالفرق بينها هو باللحاظ لا بشيء آخر. وإن الإسم العيني إذا أردنا أن نلفظه أو نكتبه أو نحكي عنه فهو عبارة عن مجموعة من الحروف هي: ع + ا + ل + م وهذه الحروف يطلق عليها إسم الاسم.

(٢) إن الصفة مظهر للكمالات والأسماء مظهر للصفات والأفعال مظهر للأسماء والأكوان مظهر للأفعال... هناك صفات ذاتية وصفات فعلية، وهي: أن الصفة التي يتصف الله تعالى بها ولا يتصف بعكسها هي صفة ذات مثل العلم والقدرة والحياة، وأما الصفة التي يتصف الله تعالى بها وبالعكسها فهي صفة فعل مثل الرضا والغضب، الحب والكراهة، البسط والقبض... والصفات الذاتية حسب قول بعض العلماء هي ثلاثة: الحياة والعلم والقدرة. الجدير ذكره هو أن مرجع الصفات الذاتية كلها إلى صفة الحياة ومرجع الصفات الفعلية إلى صفة القيومية ولذا كان الإسم «يا حي يا قيوم» جامعاً لكل الأسماء الإلهية واعتبر أنه الإسم الأعظم. يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ الله لا بدّ أن يعرف على نحو لا يفرض فيه التضاد، فتمام الصفات التي تتجلّى في الحق لا بدّ أن تُعرف عن غير طريق التضاد، وعندما ثبت لا بدّ أن تثبت بالعجز عن المعرفة والإثبات».

(٣) عن الإمام الصادق عليه السلام: «يا مفضل، الذي ظهر به الإسم ضياء نوره وظل ضيائه الذي تشخص به للخلق لينظروه، ودلّهم على باريه ليعرفوه بالصورة التي هي صفة النفس والنفس صفة الذات والاسم مخترع من نفس نور الذات، ولذلك سمّي نفساً ولأجل ذلك قوله ﴿وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ فَتَسُبُّوا﴾، وأنا أحذركم أن يجعل محمّداً مصنوعاً لكان الذات محدثاً مصنوعاً»، الهداية الكبرى، الباب ٤ ص ٢٧٧.

(٤) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «هذه الولاية هي التشريعية في مجال=

التعريف بحقيقة الولاية^(١)، التي هي تنزل الذات في الإسم الذي هو «الله». وهذا ما أريد إظهاره لنا في مثل النور: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، الله^(٢) الإسم هو نور السماوات والأرض. وكلما يُراد التحدث عن تلك الحقيقة البحتة والبسيطة، يجب الحديث عن أمير المؤمنين ورسول الله صلى الله عليهما وآلهما^(٣). وحتى لو أراد الإنسان أن يفكر فيها لا أن يتكلم، عليه أيضاً سلوك السبيل نفسه. والله يفعل ذلك أيضاً، فعندما يريد التحدث عن تلك الحقيقة البحتة والبسيطة - الذات^(٤) - يُتم ذلك بـ«هوية الهو».

- =الحكومة، وهي التكوينية في عالم الوجود، ولا بدّ أن نقرّ بهما ولو نفينا أيّ شأن من هذين الشأين فسوف يؤدي ذلك إلى نقص في الولاية.
- (١) قال رسول الله ﷺ: «جحد نعمة الله كفر وجحد نبوتي كفر، وجحد ولاية عليّ كفر، لأن التوحيد لا يبنى إلا على الولاية»، مشارق أنوار اليقين، ص ١٠١.
- (٢) الله هو اسم الذات وهو الإسم الجامع والحاكم على جميع الأسماء والصفات الإلهية وهو مبدأ كل شيء وإليه يرجع كل شيء. وعن مولى الموحدين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في خطبته في إخلاص التوحيد: «فليس الله عرف من عرف ذاته»، (تحف العقول، ص ٦٢)، وإنما معرفة الإسم الأعظم الذي هو الله.
- (٣) لأنهما تعيّن الإسم الأعظم، قال الإمام عليّ عليه السلام: «أنا الإسم الأعظم»، (خطبة البيان، نجاه الهالكين، ص ٨٧). «الإسم هو التجلي المطلق، والتعين الأول له هو تعين الولاية الأحمدية والعلوية وحتى لو لم يرد هذا المعنى، فالقضية هي على هذا المعنى فهناك تجلي مطلق يكون تعينه الأول هو المرتبة الأعلى للوجود وهي مرتبة الولاية المطلقة. وهذا الاسم يكون مرةً لمقام الذات، حيث اسمه الجامع هو «الله» والأسماء الأخرى ظهورٌ للرحمانية والرحمانية... وهي جميعها تجليات الاسم الأعظم»، تفسير آية البسملة (محاضرات معرفية)، ص ٨٤.
- (٤) «إعلم، أيها المهاجر إلى الله بقدّم المعرفة واليقين... أنّ الهوية الغيبية الأحدية والعنقاء والمغرب المستكنّ في غيب الهوية والحقيقة الكامنة تحت السراقات النورية والحجب الظلمانية في «عما» وبطون وغيب وكمون لا اسم لها في عوالم الذكر الحكيم، ولا رسم، ولا أثر لحقيقتها المقدسة في الملك والملكوت، ولا وسم؛ منقطع عنها آمال العارفين، وتزلّ لدى سرادقات جلالها أقدام السالكين، محجوب عن ساحة قدسها قلوب الأولياء والكاملين، غير معروفة لأحد من الأنبياء والمرسلين، ولا معبودة لأحد من العابدين والسالكين الراشدين، ولا مقصودة لأصحاب المعرفة من المكاشفين»، مصباح الهداية، ص ١٦.

ال«هو» مرتبة بين التنزل الأولي والذات

تفصل «هوية الهو» بين التنزل الأولي والذات^(١)، ما يعني أن الحق المتعال يُشخّص بـ«هوية الهو»^(٢) في مسير التنزل من الذات وقبل أن يتنزل باسم «الله». و«هوية الهو» تلك هي مقام الولاية الشامخ^(٣):

هوي هو الله أحد هوي توست جلوه الله صمد روي توست
هوي همين است وديگر هوي نيست روي همين است ديگر روي نيست

(١) «إن للذات المقدسة أسماء وصفات وشؤوناً جمالية وجلالية ولها أسماء ذاتية في مقام الأحدية الذي هو مقام الغيب، ولا بدّ أن يُقال لتلك الأسماء الأسماء الذاتية، وبتعيين الأسماء الذاتية يتجلى بالفيض الأقدس، وبهذا التجلي في كسوة الأسماء الذاتية يتعين ويظهر مقام الواحدية وحضرة الأسماء والصفات ومقام الألوهية، فعلم أنه بعد الذات المقدسة من حيث هي، ثلاث مقامات ومشاهد آخر: مقام الغيب الأحدي ومقام التجلي بالفيض الأقدس، ولعل العماء الواردة في الحديث النبوي تكون إشارة إليه، ومقام الواحدية الذي هو الاسم الأعظم بأحدية الجمع، ومقام الأسماء والصفات بالكثرة التفصيلية،... إن هذه المقامات الثلاثة مع أنها في مقام التكثير الاسمائي متكررة لكنها في نفس الحال لفي غاية الوحدة على حسب الحقيقة، وإن التجلي بالفيض الأقدس على حسب مقام الظهور فهو الله وعلى حسب مقام البطون أحد. ولعل (هو) يكون إشارة إلى مقام الذات، وحيث هو إشارة غيبية فهو في الحقيقة إشارة إلى المجهول والله وأحد إشارة إلى مقام الواحدية والأحدية فيعرف الذات التي هي المجهول المطلق بالأسماء الذاتية والأسماء الواحدية الصفاتية، فهو في الحقيقة إشارة إلى أن الذات هي الغيب وأيدي الآمال عنها قاصرة وصرف العمر في التفكر في الذات موجب للضلالة، وما هو مورد لمعرفة أهل الله وعلم العالمين بالله هو مقام الواحدية والأحدية، فالواحدية لعامة أهل الله والأحدية للخلّص من أهل الله»، الآداب المعنوية للصلاة، ص ٤٦٩ - ٤٧٠.

(٢) «يا مَنْ لا يَعْلَمُ كَيْفَ هُوَ إِلَّا هُوَ، يا مَنْ لا يَعْلَمُ ما هُوَ إِلَّا هُوَ، يا مَنْ لا يَعْلَمُ ما يَعْلَمُهُ، إِلَّا هُوَ»، دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة، مفاتيح الجنان.

(٣) قال رسول الله ﷺ: «وَلَا يُؤْمِنُ بِهِ إِلَّا مُؤْمِنٌ مُّخْلِصٌ»، (خطبة الغدير، لمحمد باقر الأنصاري، ص ٢٧). «الولاية هي العلّة الغائية في كمال الأصول والفروع، والمعقول والمشروع، فلها التقدّم بالفرض والتأخّر بالحكم، لأن الولي المطلق هنا هو الإنسان الذي يلبسه الله خلعة الجمال والكمال، ويجعل قلبه مكان مشيئته وعلمه، ويلبسه قباء التصرف والحكم، فهو الأمر الإلهي في العالم البشري، فهو كالشمس المنيرة التي جعل الله فيها قوّة النور والحياة، والإشراق والإحراق، فهي الضوء لأهل الدهور، وإليه =

في التشخيص التام، يظهر الحق بـ «وجه الله»^(١)، فحين يريد الحق تعالى تحقيق التشخيص التام، يظهر^(٢) ويتجلى بالصورة^(٣). قالوا عليه السلام: «نحن وجه الله

=الإشارة بقولهم الحق: (مقاماتك وآياتك وعلاماتك، لا فرق بينها وبينك إلا أنهم عبادك) التأنيث في الضمير راجع إلى الذوات التي هي صفات الحق والجمال المطلق، وقوله: (إلا أنهم عبادك)، الضمير هنا عائد إلى أجسادهم المقدسة، وهياكلهم المعصومة المطهرة التي هي وعاء الأمر الإلهي، وجمال النور القدسي. وسبب الفرق والنفي موجب لثبات خواص الربوبية لهم، لأن الرب القديم جل جلاله حكم عدل نافذ الحكم، غني عن الظلم، لا يتوهم ولا يتهم، والولي المطلق كذلك»، (مشارك أنوار اليقين، ص ٢٥٥). وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا المعنى الذي لا يقع عليه إسم ولا شبه»، بحار الأنوار، ج ٣٩ ص ٣٤٧ ح ٢٠.

(١) عن ابن المغيرة قال: «كنا عند أبي عبد الله عليه السلام فسأله رجل عن قول الله تعالى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قال: ما يقولون فيه؟ قلت: يقولون يهلك كل شيء إلا وجهه فقال: يهلك كل شيء إلا وجهه الذي يؤتى منه ونحن وجه الله الذي يؤتى منه»، (بصائر الدرجات، ص ٨٦؛ الكافي، ج ١ ص ١٤٣). «فَأَسْأَلُكَ يَا رَبِّ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الْأَرْضُ وَالسَّمَاوَاتُ، وَكُشِفَتْ بِهِ الظُّلُمَاتُ، وَصُلِّحَ بِهِ أَمْرُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ»، دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة، مفاتيح الجنان.

(٢) عن الإمام الصادق عليه السلام: «يا مفضل، إن الظهور تمام البطون والبطون تمام الظهور والقدرة والقوة تمام الفعل»، (الهداية الكبرى، الباب ٤ ص ٢٧٦). «إن الله سبحانه هو الذات البحت، والمجهول المطلق، والذات الساذج، وذات بلا اعتبار، والكنز المخفي، وشمس الأزل، ومجهول النعت، لا يعلم كنه ذاته، ولا يدري حقيقة صفاته، وهو على ما هو عليه في عز صفاته، لا يعلم كيف هو إلا هو، فالطريق مسدود، والطلب مردود، فلا اسم له، ولا رسم له، لأن في الاسم اعتبار المسمى، وهو ينافي كونه ذاتاً بحتاً، ولأن الإسم إنما وضع ليُعرف المسمى به، والمجهول المطلق لا يعرف، فلا اسم. فهذه الأسماء التي تطلق عليه تعالى باعتبار ظهوراته وتجلياته في مرايا القوابل والاستعدادات، فبكل ظهور ظهر اسم من الأسماء، وبكل تجلي ظهرت صفة من الصفات، فالاسم للظهور، والصفة للتجلي. فمثلاً: لما ظهر بالألوهية سُمي بالله، فالله اسم لجهة ظهوره بالألوهية، ولما ظهر بالرحمة الواسعة سُمي بالرحمن، ولما ظهر بالقدرة سُمي بالقادر... إن القول بأن لفظ (الله) موضوع بإزاء الذات المقدسة من حيث هي الواجبة القديمة (الذات الربوبية)، باطل مردود، لاعترافيهم بأن مرتبة الأحدية لا اسم لها، ولا رسم، ولا عبارة عنها، ولا إشارة إليها. وإن أُريد به أنه موضوع بإزاء الذات الظاهرة بالأسماء والصفات، هو مقام المقامات والعلامات التي لا تعطيل لها في كل مكان...»، نجاة الهالكين، ص ١٦٣ - ١٦٥.

(٣) عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن الصورة الأنزعية التي قالت ظاهري إمامة ووصية، =

المضيء»^(١)، «نحن أسماء الله الحسنی»^(٢)، «نحن كلمات الله التامة»، «نحن كلمات الله التامات»^(٣)، كلتا الروایتين موجودتان. وفي مسير التنزل الأول الذي لم يركن إلى الإسم والذي يشار إليه بـ«هوية الهو»، جاءت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٤). ولذا، عندما أراد رسول الله ﷺ التحدث، تلفظ بكلمة «قل» أيضاً

=وياطني غيب منيع لا يدرك ليست كلية الباري ولا الباري سواها، وهي هو إثباتاً وإيجاداً وعياناً وبقيناً لا هي هو كلاً ولا جمعاً ولا إحصاءً ولا إحاطة»، وعنه ﷺ: «إن الصورة نور منير وقدرة قدير»، كما قال ﷺ: «الصورة الأنزعية هي الضياء والظل، وهي التي لا تتغير في قديم الدهور، ولا في ما يحدث من الأزمان... وتلك الصورة هيولى الهيولات وفاعلة المفعولات وأسن الحركات وعلة كل علة لا بعدها سر ولا يعلم ما هي إلا هو»، (الهداية الكبرى، الباب ٤ ص ٢٧٧). ورد عن أمير المؤمنين: «الصورة الإنسانية هي أكبر حجج الله على خلقه، وهي الكتاب الذي كتبه بيده، وهي الهيكل الذي بناه بحكمته، وهي مجموع صور العالمين، وهي المختصر من اللوح المحفوظ، وهي الشاهدة على كل غائب، وهي الحجة على كل جاحد، وهي الطريق المستقيم إلى كل خير، وهي الجسر الممدود بين الجنة والنار»، المجلي، ص ١٦٩، الحقائق للকাশاني، ص ٣٤٩ وفيه عن الصادق ﷺ.

(١) ورد في زيارة أمير المؤمنين ﷺ التي يُزار بها في يوم المولد النبوي الشريف: «أَسْلَامٌ عَلَى اسْمِ اللَّهِ الرَّضِيِّ وَوَجْهِهِ الْمُضِيِّ، وَجَنِّهِ الْقَوِيِّ، وَصِرَاطِهِ السَّوِيِّ»، المزار الكبير.
(٢) عن أبي عبد الله سلام الله عليه: «نحن والله الأسماء الحسنی التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلا بمعرفتنا»، الكافي، ج ١ ص ١٤٣.

(٣) من كلام لأمير المؤمنين ﷺ: «وفيكم من يعلم أني الكلمة التامة، والآية الباقية، والحجة البالغة»، مدينة المعاجز، ج ١ ص ٥٤٧.

(٤) (سورة الإخلاص، آية ١). «قال أبو جعفر باقر علم الأولين والآخرين في معنى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ «قل» أي أظهر ما أوحينا ونبأناك به بتأليف الحروف التي قرأناها عليك، ليتهدى بها مَنْ ﴿أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ سَهِيْدٌ﴾ و«هو» اسم مكنى مشاراً إلى غائب، «فالهاء» تنبيه عن معنى ثابت و«الواو» إشارة إلى الغائب عن الحواس، كما أن قولك «هذا» إشارة إلى الشاهد عند الحواس. وذلك أن الكفار نبّهوا على آلهتهم بحرف إشارة الشاهد المدرك فقالوا: (هذه آلهتنا) المحسوسة المدركة بالأبصار، فأشّر أنت يا محمد إلى إلهك الذي تدعو إليه [حتى نراه وندركه] فأنزل الله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فالهاء تثبت للثابت والواو إشارة إلى الغائب عن درك الحواس، وإنه المتعالي عن ذلك، بل هو مدرك الأبصار ومُبدع الحواس»، (شرح الأسماء أو شرح دعاء الجوشن الكبير، ص ٥٢٦ =

رغم انعدام الحاجة إليها، قل يا رسول الله «هو الله أحد». فهذا الـ«هو» يعبر، كما قلنا، عن مسير التنزل إلى الاسم، قبل الوصول إلى اسم «الله». وفي الواقع، لم يكن رسول الله ﷺ بحاجة لكلمة «قل» في ظاهر الأمر^(١)، ولكن نظراً لتعبير الـ«هو» وأنه هو نفسه من يتحدث، نقل كلمة «قل» أيضاً.

اسم الله هو حقيقة الولاية

دعوني أعبر عن هذا الكلام بلباس آخر وصورة أخرى. ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢)، الله، الذي هو تنزل الاسم في مقام الشخص والتعيين الإسمي، نور

(= ٥٢٧). يقول آية الله السيد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «(هو) في مقام عدم التناهي لا بُعد ولا شكل له ولا حدّ، و(هو) له تنزّل، وإسم هذا التنزّل هو الله، وله تنزّل ثانٍ وثالث ورابع، فهو الصمد وهو الأحد وهو الفرد، ولكن مع كلّ هذا نقول إنّ أيّ إسم في مقام التّوحيد وأيّ رسم وأيّ صفة ونعت بل وأيّ نحو من البيان يتنافى مع التّوحيد ولذلك هو وحده يمكنه أن يبيّن الحقيقة على ما هي عليه... هوته تعالى وتقدّس حريم لا يُدرك ولا يُوصف، لا إسم له ولا رسم ولا صفة له ولا نعت، ويعبر عن مرتبة التّوحيد تلك بـ(هو)»، انتهى. وقد ورد في كتاب الآداب المعنوية، ص ٤٦٩ - ٤٧٠: «يمكن أن يكون (هو) إشارة إلى مقام الفيض الأقدس وهو تجلي الذات بتعين الأسماء الذاتية (الله) إشارة إلى مقام أحدية الجمع الأسمائية، وهو حضرة الإسم الأعظم و(أحد) إشارة إلى مقام الأحدية».

(١) إن كل موجود مندرج تحت الوجود المقدس لحضرة رسول الله ﷺ ومنطوق فيه، كما قال أمير المؤمنين لرسول الله صلى الله عليه وآلهما: «أتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر، وأنت الكتاب المبين الذي يخرج منه المصمّر». ولهذا، جعل الله الخطاب بالقرآن الكريم موجهاً إلى الرسول ﷺ فقط بـ: «قل» ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (سورة الناس، آية ١)، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (سورة الفلق، آية ١)، وبالتالي فإن الخطاب القرآني موجّه إلى كل من هو مندرج تحت الوجود المقدس لرسول الله ﷺ.

(٢) عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه ﷺ قال في هذه الآية ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: «بدأ بنور نفسه ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ مثل هُداة في قلب المؤمن «كمشكاة فيها مصباح» والمشكاة جوف المؤمن والقنديل قلبه، والمصباح النور الذي جعله الله في قلبه. ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ﴾، قال: الشجرة المؤمن ﴿زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: على سواء الجبل ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ﴾ أي لا شرق لها، ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي لا غرب لها إذا طلعت الشمس، طلعت =

السموات والأرض. فهذا «الله» هو اسم، والرواية على ذلك موجودة، إذ في نفس تفسيره وفي مقدمته المسمّاة «مرآة الأنوار»، يقول المرحوم البحراني إن الاسم هو حقيقة الولاية، حتى ولو كان هذا الاسم هو اسم الجلالة «الله» أو كلمة «إله». ويتطرق إلى الروايات التي تتحدث عن هاتين الكلمتين (الله وإله)، ويورد روايات تتعلق بالتنزل الأولي حيث يتشخص الحق بالاسم الجامع^(١)، وهو ظهور ولاية محمد وآل محمد عليهم الصلاة والسلام. وفي ذيل الآية ﴿وَهُوَ

=عليها وإذا غربت، غربت عليها. ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ﴾: يكاد النور الذي جعله الله في قلبه يضيء وإن لم يتكلم. ﴿تُورُّ عَلَى نُورٍ﴾: فريضة على فريضة، وسنة على سنة ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ﴾ فهذا مثل ضربه الله للمؤمن. ثم قال: فالمؤمن يتقلب في خمسة من النور: مدخله نور، ومخرجه نور، وعلمه نور، وكلامه نور، و(مضيئه) مصيره يوم القيامة إلى الجنة نور. قلت لجعفر بن محمد عليه السلام: إنهم يقولون: مثل نور الرب. قال: سبحان الله ليس لله مثل، قال الله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾، تفسير القمي، ج ٢ ص ١٠٣.

(١) «(حم) أي الجامع لجوامع الأسماء الحسنى التي هي تسعة وتسعون اسماً، من أحصاها دخل الجنة، إذ الحاء بينتها هي التسعة، والميم بينتها هي التسعون، والجامع هو الحقيقة المحمدية وهي حقيقة حقائق الأشياء كلها، واللام أئمة الأسماء، وعلم آدم الأسماء كلها، والكتاب المبين، ذلك الكتاب الذي هو العلوية العليا، هو آدم الكتابي، كما أن المحمدية البيضاء هي عقل الكل هو آدم الكلامي، والعلوية العليا التي هي نفس الكل... خليفة عقل الكل، وهي آدم الكتابي، منزلتها من المحمدية البيضاء منزلة حواء من آدم، ومنزلة اللوح من القلم الأعلى، فالكتاب هو التسعة الواسعة، كما أن آدم كذلك، وهو الآدمية الأولى الكتابية وحواء الأولى، كما أن المحمدية البيضاء هي الآدمية الأولى الكلامية، والكتاب خليفة الكلام، كما أن الفرقان خليفة القرآن، إنا أنزلناه في ليلة مباركة، أي أنزلنا الكتاب المبين، وهو الفاروق الكلّي في الفاطمية الزهراء، والزهراء هي حواء روحاني، الله نور السماوات والأرض، مثل نوره كمشكاة، أي فاطمية الزهراء فيها مصباح، أي المحمدية البيضاء والمصباح في زجاجة، أي في العلوية العليا، والعلوية نزلت في المشكاة الزهراوية، نزول روح الكل في جسم الكل، الذي فيه يفرق كل أمر حكيم، أي إمام بعد إمام إلى يوم القيامة، ومصدوقة آية النور هو الإنسان المحمّدي بمصباحه وزجاجته ومشكاته، حم والكتاب المبين، إنا أنزلناه في إجمالية مباركه ولاية»، مقدمة وتعليقات مفاتيح الغيب، ص ٧٨٧.

الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُهُ^(١)

(١) وعن هشام بن الحكم، أنه سأل أبا عبد الله عليه السلام عن أسماء الله واشتقاقها: الله ممّ هو مشتق؟ فقال: «يا هشام، الله مشتق من إله، وإله يقتضي مألوهاً، والاسم غير المسمى، فمن عبد الإسم دون المعنى فقد كفر ولم يعبد شيئاً، ومن عبد الاسم والمعنى فقد أشرك وعبد اثنين، ومن عبد المعنى دون الإسم فذاك التوحيد، أفهمت يا هشام؟ قال: قلت: زدني قال: الله تسعة وتسعون اسماً، فلو كان الاسم هو المسمى لكان كل اسم منها إلهاً، ولكن الله معنى يُدُلُّ عليه بهذه الأسماء، وكلها غيره، يا هشام، الخبز اسم للمأكل، والماء اسم للمشروب، والثوب اسم للملبوس، والنار اسم للمحرق، أفهمت يا هشام فهماً تدفع به وتناضل به أعداءنا المتخذين مع الله عز وجل غيره؟ قلت: نعم، فقال: نفعلك الله به وثبتك يا هشام. قال: فوالله ما قهرني أحد في التوحيد حتى قمت مقامي هذا»، (توحيد الصدوق، ص ٢٢٠ ح ١٢). إن الذات الربوبية ليست إلهاً للأرض والسماء بل هي أكبر وأعظم (الله أكبر)، وليس لها إسم أو رسم، فذات الله منزّهة عن كلّ إسم وصفة وهذه «الحقيقة الغيبية بذاتها لا تنظر نظر لطف أو قهر ولا تتوجه توجّه رحمة أو غضب إلى العوالم الغيبية والشهادية»، (مصباح الهداية، مصباح ٢ ص ١٧). «وهو (أي مقام الهو) ظلّ كل شيء... وهو المثل الأعلى الذي أشار إليه تعالى بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُهُ﴾»، (الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٣٨٩). «المراد بالله هو حقيقة المؤمن، والله الإسمي، لا المسمّى الذي هو إله الآلهة»، (الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ١٩٠). «﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾» (سورة الأنبياء، آية ٣٠)، والماء الطهور الذي لا ينجسه شيء من الأرجاس الطبيعية والأنجاس الظلمانية والقذارات الإمكانية، وهو نور السماوات والأرض: «﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾» (سورة النور، آية ٣٥) وله مقام الإلهية: «﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُهُ﴾» وهو الهيولى الأولى ومع السماء سماء ومع الأرض أرض، وهو مقام القيومية المطلقة على الأشياء: «﴿مَّا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾» (سورة الرحمن، آية ٢٦). والنفس الرحمانية: «﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾» (سورة الحجر، آية ٢٩) والفيض المنبسط، والوجود المطلق، ومقام قاب قوسين، ومقام التدلي، والأفق الأعلى، والتجلّي الساري، والنور المرشوش، والرق المنثور، والكلام المذكور، والكتاب المسطور، وكلمة «كن» الوجودي، ووجه الله الباقي، «﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾» (سورة الرحمن، آية ٢٦ - ٢٧)، إلى غير ذلك من الألقاب والإشارات، عباراتنا شتى وحسنك واحد»، (شرح دعاء السحر، ص ١٠٠ - ١٠١)، وعن الإمام محمد الباقر عليه السلام: «نحن وجه الله ونحن عين الله في خلقه ويده المبسوطة بالرحمة على عباده»، (الكافي، ج ١ ص ١٤٣). «إنّ رسول الله ﷺ أمر بقطع يد لصّ، فقال اللصّ: يا رسول الله، قدّمته في =

وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ^(١)، يقول الإمام الصادق عليه الصلاة والسلام إن المقصود من «إله» السماوات و«إله» الأرض هو جدنا أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام. وكل من يُنكر هذا المعنى، يَشِي بأنه لم يفهم^(٢) آية ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

تنزيه ذات الحق عن التشبيه

بحسب اعتقاد التوحيد الأصل الذي تُشكّل أحاديث أهل البيت عليهم الصلاة والسلام أصله ومعناه، من غير الممكن ضرب الأمثال عن الحق المتعال، بأي شيء من الأشياء. «يا من دلّ على ذاته بذاته^(٣)، وتنزه عن مجانسة مخلوقاته^(٤)». لذلك، فإن تلك الذات لا يجري عليها، في أيّ من الاعتبارات، الحمل الذاتي الأولي ولا الحمل الشائع الصناعي^(٥) مهما توخينا اللطافة في هذا الحمل. ﴿اللَّهُ

=الإسلام وتأمّر بالقطع؟ فقال: لو كانت ابنتي فاطمة، فسمعت فاطمة عليها السلام فحزنت، فنزل جبرائيل عليه السلام بقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْطَبَنَّ عَلَيْكَ﴾ فحزن رسول الله ﷺ فنزل: ﴿لَوْ كَانَ فِيمَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، فتعجب النبي ﷺ من ذلك، فنزل جبرائيل عليه السلام وقال: كانت فاطمة عليها السلام حزينه من قولك فهذه الآيات لموافقتها لترضى»، المناقب لابن شهر آشوب، ج ٣ ص ٣٢٤؛ القطرة ج ١ ص ٢٦٦.

(١) سورة الزخرف، آية ٨٤.
(٢) ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾، (سورة يونس، آية ٣٩). عن الإمام الصادق عليه السلام: «سحقاً لمن يروي ما لا يدري ويعتقد ما لا يتصرف في عقل ولا يتضح في لب، وذلك إيمان اللسان ووعد الحواس، والحنة فيه على صاحبه»، الهداية الكبرى، الباب ٤ ص ٢٧٥.

(٣) ورد في الدعاء: «أسألك بحقّ الحسين بن عليّ عليه السلام السبط التابع لمرضاتك والناصح في دينك والدليل على ذاتك...»، أدعية ساعات النهار، الساعة الثالثة، مفاتيح الجنان.

(٤) دعاء الصباح لأمر المؤمنين عليهم السلام، مفاتيح الجنان.

(٥) الحمل هو نسبة شيء إلى شيء آخر ففي قولنا: «زيد قائم»، نسبنا صفة القيام إلى زيد، وحكّمنا عليه باتّصافه بصفة القيام. والحمل الشائع الصناعي هو ما كان فيه المحمول أحد أحكام الموضوع الخارجة ذاتاً عن ماهيته والثابتة له بلحاظ وجوده. فالموضوع بما هو موجود له مجموعة من الآثار والأحكام، وحينما تحمل هذه الآثار والأحكام على الموضوع بما هو موجود فالحمل عندئذ يكون حملاً شائعاً صناعياً. والتعبير عنه بالشائع باعتبار شيوع استعماله بين الناس، وأمّا التعبير عنه بالصناعي فباعتبار تداول استعماله في الصناعات، أي في العلوم.

نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١﴾، إسم «الله» هو نور السماوات والأرض وليس ذات الله ^(١). ولا أظن أن الأمر بحاجة إلى الاستدلال، لأن جميعنا معتقد بهذه المسألة في الاعتقاد الأولي.

فاعتقادنا هو أن هذه الذات ليست نوراً ^(٢) ولا روحاً ولا سماءً ولا أرضاً، إذ ينبغي تحييدها وتنزيهها عن كل أنواع الحمل الشائع الصناعي أيّاً كان تركيبه. «الله» نور يعني أن اسم «الله» نور ^(٣)، «بسم الله النور، بسم الله نور على نور» ^(٤).

رواية «بسم الله النور»

يروى سلمان أنه ابتلي بحمّى شديدة، فقصده سيّدة العالمين وشفيعتهما الصديقة الطاهرة فاطمة عليها الصلاة والسلام، على تلك الحال من الحمّى

(١) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «كلّ ما يُشاهد في الخلق من الوجود هو من أشعة الذات وهو إسمٌ للذات، وكلّ الموجودات هي آياته تعالى وتقدّس، فهو «لم يلد» بمعنى أنّه لم ينفصل عنه شيء، و«لم يولد» بمعنى أنّه لم يحز على شيء من مقام خارجي، فكلّ الموجودات في عالم الوجود هي أشعته وأنواره، فلا الذات أخذت من مكان ما، ولم يأخذ أحدٌ من الذات».

(٢) عن الإمام الصادق عليه السلام: «وإن الذات لا يقال لها نور لأنها منيرة كل نور»، الهداية الكبرى، الباب ٤ ص ٢٧٦.

(٣) «المراد بالنور هو أوّل تجلي عالم أرواحهم من مرتبة اسم الله الذي هو أوّل ظهور عالم الوجود بالنورانية، فهو ظاهر بنفسه، ومظهر لسائر المراتب من الأسماء الحسنى، كما سبق في رواية حدوث الأسماء من قوله عليه السلام: «فالظاهر هو الله تبارك وتعالى»، (الكافي، ج ١ ص ١١٢)، الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٣٩٩ - ٤٠٠.

(٤) في حديث للإمام الصادق عليه السلام مع المفضل: «واعلم أن النور لم يكن باطناً في الذات فظهر منه، ولا ظاهراً منه فبطن فيه، بل النور من الذات بلا تبعض وغائب في غيبه بلا استتار ومشرق منه بلا انفصال كالشعاع من القرص، والنور من الشعاع لمولاك»، الهداية الكبرى، الباب ٤ ص ٢٧٦.

الملتبهة. فقالت له: يا سلمان، سأعلمك^(١) دعاءً تدعو به كلما أصيبت بالحمى فتزول عنك، إقرأ هذا الدعاء^(٢):

«بسم الله النور، بسم الله نور على نور»^(٣) إلى آخر الدعاء المذكور في «مفاتيح الجنان»^(٤)، الذي يعدّ من الكتب المباركة، حيث من المؤكد أن المرحوم الحاج الشيخ عباس القمي رحمته الله قد حظي بعناية حضرة بقية الله عليه السلام^(٥)،

(١) في مقام العلم والمعرفة، الناس أربعة أصناف: (١) رباني آيات الله: الإمام، الإسم الأعظم، ربّ الأسماء والصفات [وَبِاسْمِكَ الْأَعْظَمِ الْأَعْظَمِ الْأَجَلِّ الْأَكْرَمِ، الَّذِي خَلَقْتَهُ فَاسْتَقَرَّ فِي ظِلِّكَ فَلَا يَخْرُجُ مِنْكَ إِلَى غَيْرِكَ، أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَهْلِ بَيْتِهِ الطَّاهِرِينَ]. (٢) عالم ربّاني: العالم بهم. (٣) متعلّم على سبيل نجاة: شيعتهم ومواليهم المتبرّئين من أعدائهم. (٤) همج رعا ينعمون مع كل ناعق: الكافرون والمشركون والشاكّون والضّالون عن محمد وآل محمد عليهم السلام.

(٢) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «كلّ هذه الأدعية في الواقع هي لأجل تحقّق التّوحيد مع المبدأ وإسقاط الحيثيّة والإنيّة»، وفي موضع آخر يقول سماحته: «إنّ الدعاء لا يُستجاب إلّا أن يكون من الموحّد».

(٣) «بسم الله الرحمن الرحيم، بسم الله النور، بسم الله نور النور، بسم الله نور على نور، بسم الله الذي هو مدبّر الأمور، بسم الله الذي خلق النور من النور، الحمد لله الذي خلق النور من النور وأنزل النور على الطور في كتاب مسطور في رق منشور بقدر مقدور على نبّي محبوب الحمد لله الذي هو بالعزّ مذكور وبالفخر مشهور وعلى السراء والضراء مشكور وصلى الله على سيّدنا محمد وآله الطاهرين»، مفاتيح الجنان.

(٤) «سماحة الإمام كان لا يُبدي رأيه في المسائل العبادية أبداً. بل كان كسائر الأفراد يؤدّي الأعمال بالصورة التي ورد ذكرها بشكل دقيق، وكان يقرأ أدعية كتاب «مفاتيح الجنان» كما كُتبت بالضبط... وكان يأنس بكتاب «مفاتيح الجنان» لدرجة أنه كان يتمزّق بين يديه كل عدّة أشهر، فكنا نضطر إلى تجليده من جديد أو نوّمن له نسخة أخرى»، كلمته في مراسم أعياد انتصار الثورة الإسلامية، بتاريخ ١٩٩٥/٢/١م، من كتاب آراء ومواقف سماحة السيّد أحمد الخميني رحمته الله، ص ٢٧١ - ٢٧٢.

(٥) ﴿بَقِيَتْ لِلَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، (سورة هود، آية ٨٦). روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «للقائم غيبتان إحداها قصيرة والأخرى طويلة. الغيبة الأولى لا يعلم بمكانه فيها إلا خاصّة شيعته والأخرى لا يعلم بمكانه فيها إلا خاصّة موالیه»، الكافي، ج ١ ص ٣٤٠ ح ١٩.

فأعدّ الكتاب، الذي يعتبر من ذخائر الشيعة، بإذنٍ منه ﷺ. وينقل الشيخ عباس هذا الدعاء عن سلمان رضوان الله تعالى عليه الذي يقول: عندما قرأت هذا الدعاء، ذهب الحمى عني، وما علّمته لأحدٍ، إلا وترك الأثر نفسه عليه لدى قراءته.

يبين هذا الدعاء معنى آية النور بمقدار ما. ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، «بسم الله النور»، إسم الله هو نور^(١) السماوات والأرض، فالذات غير قابلة للشيوع

(١) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «في الآونة الأخيرة، توصّل العلماء والباحثون إلى فرضية مفادها أن «النور» هو أول مخلوق ظهر في عالم الوجود، وذلك وفقاً لحساباتهم المرتكزة على عالم المادة والظاهر. وفي الماضي، كان العلماء يقولون إن الماء هو أول ما ظهر في الوجود، ثم خرجت خلية منه وأصبحت حيواناً مائياً، وحصل التكاثر بعد ذلك. ولكنّ النظرية التي ظهرت مؤخراً دحضت سابقتها، وبات الاعتقاد بأن النور هو أول ظاهر في عالم الوجود، ومن ثم وُجد من النور الماء والسماء والأرض... غير أنّ ذلك النور لا يشبه نور المصباح أو الشمس، فالشمس نفسها قد خلقت منه. ولذا، يقول رسول الله ﷺ: «أنا وعليّ من نور واحد»، فما هو ذاك النور الذي يربط رسول الله ﷺ نفسه به؟ ذلك النور هو نفس ما تحدث عنه آية ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، «أنا وعليّ من نور واحد»، ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكُوفٍ﴾، أي أنّ كلّنا، أنا وعليّ، من النور الوجودي للصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها الصلاة والسلام. «أنا وعليّ من نور واحد»، النور هو «المشكاة» الموجودة في «الزجاجة»، بحسب المثل الذي صُرب في القرآن. فأول أثر لتجلي الحق كان «النور الفاطمي» ومن ثم اشتق منه محمّد وعليّ عليهما الصلاة والسلام، انتهى... وقد ورد في الحديث القدسي: «يا أحمد لولاك لما خلقت الأفلاك، ولولا عليّ لما خلقتك، ولولا فاطمة لما خلقتكما»، (ملتقى البحرين، ص ١٤) فهي علّتهما. إضافة إلى ذلك، يُذكر في حديث الكساء المبارك أن رسول الله ﷺ قصد فاطمة سلام الله عليها حين وجد في بدنه ضعفاً، ولكن لم يكن ذلك من باب الضعف الذي نعرفه، فالنبي ﷺ لمّا ظهر كنيّ، إحتك بالأنجاس المحيطين به، وعندما كان يريد التطهّر من كل ذلك، كان يتجه إلى مصدر الطهارة والتطهير، نور فاطمة صلوات الله عليها. وإنما لُقِّبت بـ«أمّ أبيها» لأنها أصل نوره. وهي في عالم اللاهوت، فاطر السماوات والأرض، ﴿وَجْهَتْ وَجْهَهُ لِلدِّينِ فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، إذ تجدر الإشارة إلى أن اسم «فاطر» في عالمي اللاهوت والملكوت لا علاقة له بالتأنيث والتذكير، لأنهما من عوالم الحقيقة المجردة من الكثرة وكل مشتقات المادة. وكذلك فإنّ ظاهر=

والانتشار، ولا يمكن التدخل والتصرف فيها بأي وجه من الوجوه أو شكل من الأشكال. أما الاسم فهو قابلٌ للتفكيك والشيوع في مراتب مختلفة كما أنه قابل للانتشار. وبالتالي، فإن اسم الله هو نور السماوات والأرض.

قال أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام: «ما لله آية أكبر مني»^(١) و«ما لله نبأ أعظم مني»^(٢) و«أنا اسم الله الأعظم»^(٣). وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(٤)، و«نحن أسماء الله الحسنى»^(٥).

=الاسم الأعظم هو رسول الله ﷺ وباطنه هو أمير المؤمنين ﷺ أما باطن باطنه أو سرّ سرّه فهي الصديقة الطاهرة فاطمة ﷺ.

(١) (بحار الأنوار، ج ٢٦ ص ١). يقول الله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْدِرٍ﴾ (سورة القمر، آية ٤٢)، ﴿إِنَّ الَّذِي كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾، (سورة الأعراف، آية ٤٠). يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ الآيات قد جُعِلَتْ لأجل معرفة الأسماء، فقد خلق الله كلّ عالم الوجود وأظهره لأجل معرفة عليّ، لأنّ معرفة الله لا تحصل إلّا بمعرفة الوليّ، وكلّ من طلب غير هذا فقد وقع في الضلال»، وقد ورد عن الإمام الصادق ﷺ: «بنا عرف الله»، الكافي، ج ١ ص ١٩٣.

(٢) بصائر الدرجات، ص ٩٧.

(٣) قال الإمام عليّ ﷺ: «أنا الاسم الأعظم»، (خطبة البيان، نجاة المهالكين، ص ٨٧). «وهو الاسم الأعظم الذي به تنفعل الكائنات، الحاكم المتصرّف «في كل الكائنات» وفي سائر الموجودات، فهو الأوّل والآخر والباطن والظاهر، الأوّل بالأنوار والآخر بالأدوار، والباطن بالأسرار، الظاهر بالآثار، فهو مقام الربّ العليّ في وجوب الطاعة والأمر... إن عليّاً حاكم يوم الدين، ومالك يوم الدين ووليّ يوم الدين بأمر ربّ العالمين»، (مشارك أنوار اليقين، ص ١٠٠ - ٢٧٣). «إنّ (الاسم الأعظم) هو صاحب مقام الجمع ومقام التفصيل. فإنّ هذا الاسم المبارك هو (أمّ الأسماء). وهو يجمع بنحو من الوحدة والبساطة جميع الأسماء الكلية والجزئية والفرعية والأصلية. ويتجلّى هذا الاسم - لا مفهومه بل حقيقته - على نحو التفصيل في جميع المظاهر الوجودية»، مقدمة كتاب مصباح الهداية، تحقيق جلال الدين الآشتياني، ص ٢٤٠.

(٤) الأعراف، آية ١٨٠.

(٥) عن أبي عبد الله ﷺ في قول الله عزّ وجلّ ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾: «نحن والله الأسماء الحسنى التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلا بمعرفتنا»، (الكافي، ج ١ =

إنَّ هذا النور الذي يستحوذ على السماء والأرض ويعطي الهداية^(١) للكون في الظاهر والباطن، هو تلك الحقيقة التي تؤمّن العالم^(٢) بأسره، هو اسم

=ص ١٤٣). وعن رسول الله ﷺ: «... وأسألك يا الله بحق هذه الأسماء الجليلة الرفيعة عندك العالية المنيرة التي اخترتها لنفسك واختصصتها لذكرك.. وجعلتها دليلاً عليك وسبباً إليك»، (بحار الأنوار، ج ٩٤ ص ٢١٨). وعن الإمام الجواد ﷺ أنه قال: «... ثم خلقها (أي الأسماء) وسيلة بينه وبين خلقه يتضرعون إليه ويعبدونه...»، (توحيد الصدوق، ص ١٩٣). وعنه ﷺ أيضاً: «الأسماء والصفات مخلوقات»، (الكافي، ج ١ ص ١١٦). وعن الإمام الباقر ﷺ: «إن الأسماء صفات وصف (الله تعالى) بها نفسه»، (أصول الكافي، ج ١ ص ٨٨). ويقول الإمام الصادق ﷺ: «... الله يسمى بأسماء، وهو غير أسمائه والأسماء غيره»، (الكافي، ج ١ ص ١١٤). وعنه ﷺ قال: «اسم الله غيره، وكل شيء وقع عليه اسم شيء فهو مخلوق ما خلا الله. فأما ما عبّرت الألسن، أو عملت الأيدي، فهو مخلوق، والله غاية من غاياته والمغيي غير الغاية، والغاية موصوفة وكل موصوف مصنوع، وصانع الأشياء غير موصوف بحدّ مسمّى، لم يتكوّن فيعرف كينونته بصنع غيره، ولم يتناه إلى غاية إلا كانت غيره، لا يزل من فهم هذا الحكم أبداً، وهو التوحيد الخالص، فارعوه وصدّقوه وتفهموه بإذن الله من زعم أنه يعرف الله بحجاب أو بصورة أو بمثال فهو مشرك، لأن حجابيه ومثاله وصورته غيره، وإنما هو واحد متوحد، فكيف يوحد من زعم أنه عرفه بغيره، وإنما عرف الله من عرفه بالله، فمن لم يعرفه به فليس يعرفه، إنما يعرف غيره، ليس بين الخالق والمخلوق شيء، والله خالق الأشياء لا من شيء كان، والله يسمّى بأسمائه، وهو غير أسمائه والأسماء غيره»، (أصول الكافي، ص ١٦٥ - ١٦٦). وقال ﷺ: «اسم الله غير الله، وكل شيء وقع عليه اسم شيء فهو مخلوق ما خلا الله»، (الكافي، ج ١ ص ١٩٢).

(١) للهداية معنيان: (١) إراءة الطريق، (٢) الإيصال إلى المطلوب. ومن وجهة نظر آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى فإنّ الهداية هي الجذب والإنجذاب نحو المطلوب بنحو يصير الطالب لها عين المطلوب وفانياً فيه ومظهراً لآثاره.

(٢) «عند أهل الله من الإمامية وأرباب الحقيقة من الإثني عشرية: العالم يدور على سبعة من الأقطاب، فهم كبار الأنبياء والرسل وهؤلاء: آدم ونوح وإبراهيم وداود وموسى وعيسى ومحمد ﷺ، تطبيقاً على الكواكب السبعة السيّارة؛ وأمّا الإثني عشر من الأولياء، فهم أوصياء محمد ﷺ، تطبيقاً على البروج الإثني عشر من الأولياء؛ لكن اعلم - أيّدنا الله وإياك - أنّ جميع الأنبياء والرسل من آدم إلى عيسى ﷺ مظهر من مظاهر خاتم الأنبياء محمد ﷺ وجميع الأوصياء والأولياء مظهر من مظاهر سيّد الأولياء عليّ ﷺ، =

= لقوله ﷺ: «بُعث عليّ مع كلّ نبيّ سرّاً وبُعث معي جهرّاً». وكما أنّ كلّ الأنبياء كالأقمار المقتبسين من شمس نبوة خاتم الأنبياء أو كالفروع والأغصان والأوراق المتفرعة من أصل شجرة طوبى النبوة الختمية المحمدية، كذلك كلّ الأولياء كالأقمار المكتسبين من نور شمس ولاية سيّد الأولياء أو كالفروع والأغصان والأوراق المتفرعة من أصل شجرة طوبى الختمية العلوية... والحاصل أنّ مدار العالم على السبعة من الأقطاب والإثني عشر من الأولياء. وعلة هذا العدد أعني التسعة عشر، تطبيق العالم الصوري مع العالم المعنوي، فإن انتظام العالم الصوري بالسبعة من الكواكب والإثني عشر من البروج، فتصير تسعة عشر بحكم قوله تعالى: عليها تسعة عشر... وأما علة كون أوصياء نبينا ﷺ - الذي عليهم مدار عالمنا - اثني عشر فهي كثيرة... ان الولاية تهدي القلوب إلى سلوك الحقّ كما يهدي نور الشمس والقمر أبصار الخلائق إلى المناهج، فهما نوران هاديان: الإمامة تهدي نور البصائر، والشمس والقمر يهديان الأبصار، ومحالّ النور الهادي للأبصار اثنا عشر برجاً، فيجب أن يكون محالّ النور الهادي للبصائر كذلك بطريق التطابق... وورد في الأحاديث: أنّ حامل الأرض هو الحوت، والحوت آخر البروج، فيكون المعنى أنّ الحامل للأرض آخر بروج الإمامة وهو المهديّ المنتظر ﷺ، حامل نور الإمامة، القائم بأعبائها إلى أن تقوم الساعة، (شرح الأسماء أو شرح دعاء الجوشن الكبير، ص ١٠٤ - ١٠٥ - ١٠٧). ووردت في كتاب «تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم» صورة عن الدائرة الأفقية تطبيقاً بالأقطاب والأئمة، صورة ومعنى بحكم قوله تعالى: ﴿سَتُرِيَهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (سورة فصلت، آية ٥٣) ومفادها: الحمل: المرتضى، الثور: الحسن، الجوزاء: الحسين، السرطان: السجاد، الأسد: الباقر، السنبلة: الصادق، الميزان: الكاظم، العقرب: الرضا، القوس: التقي، الجدي: النقي، الدلو: العسكري، الحوت: المهدي. كما وردت صورة عن الدائرة الأنفسية تطبيقاً بالأقطاب والأئمة، صورة ومعنى بحكم قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (سورة الإسراء، آية ١٤) ومفادها: الحمل: الخيال، الثور: الوهم، الجوزاء: الحس المشترك، السرطان: المفكرة، الأسد: الحافظة، السنبلة: الباصرة، الميزان: السامعة، العقرب: الذائقة، القوس: الشامة، الجدي: اللامسة، الدلو: الغضبية، الحوت: الشهوية. كما ورد في الكتاب نفسه صور عن الأفلاك السبعة والأقاليم السبعة والأرواح السبعة والعلوم السبعة، نورد اثنين منها: صورة الأرواح السبعة وما يقابلها من صورة العلوم السبعة:

النفس الحيوانية مظهر الاسم القادر الذي بمثابة آدم، ويقابلها، العلوم الضرورية من اقتضاء النفس الحيوانية التي هي بمثابة القطب في العالم.

الله^(١). واسم الله هو حقيقة الولاية الإلهية لمحمد وآل محمد عليهم الصلاة والسلام^(٢). فلنخرج من العبارات المُبهمَة ومن الخشية والخوف، ولنتكلم

= النفس اللوامة مظهر الاسم المريد الذي بمثابة نوح، ويقابلها، العلوم النظرية من اقتضاء النفس اللوامة التي هي بمثابة القطب في العالم.
 النفس الملهمة مظهر الاسم المتكلم الذي بمثابة إبراهيم، ويقابلها، العلوم الإلهامية من اقتضاء النفس الملهمة التي هي بمثابة القطب في العالم.
 النفس المطمئنة مظهر الاسم السميع الذي بمثابة داود، يقابلها، العلوم الحكيمة من اقتضاء النفس المطمئنة التي هي بمثابة القطب في العالم.
 العقل بالملكة مظهر الاسم البصير الذي بمثابة موسى.
 العقل بالفعل مظهر الاسم الجواد الذي بمثابة عيسى، ويقابله، العلوم الدنيّة من اقتضاء العقل بالفعل التي هي بمثابة القطب في العالم.
 العقل المستفاد مظهر الاسم المقسط الذي بمثابة محمد، ويقابله، العلوم الإلهية من اقتضاء العقل المستفاد التي هي بمثابة القطب.

(١) «إياك وأن تظن من قولنا: إن مرتبة الاسم «الله» الأعظم أقرب الأسماء إلى عالم القدس وأول مظاهر الفيض الأقدس باعتبار اشتماله على كل الأسماء والصفات، أن ساير الأسماء الإلهية غير جامع لحقائق الأسماء، ناقصة في تجوهر ذاتها... بل الإيمان بها أن تعتقد أن كل اسم من الأسماء الإلهية جامع لجميع الأسماء مشتمل على كل الحقائق... وهي متحدة الذات مع الذات المقدسة، والكل متحد مع الكل... (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ أَسْمَائِكَ بِأَكْبَرِهَا وَكُلِّ أَسْمَائِكَ كَبِيرَةٍ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَسْمَائِكَ كُلِّهَا، (دعاء البهاء) وأما قولنا إن الاسم الكذائي من أسماء الجلال وذاك من أسماء الجمال وهذا الرحيم وذلك القهار الجبار باعتبار ظهور كل في ما اختص به وأن ما يقابله باطن فيه فالرحيم تكون الرحمة فيه ظاهرة والسخط باطن فيه، والجمال ظهور الجمال وبطون الجلال، والجلال بالعكس والظاهر مختفٍ في الباطن والباطن مستكن في الظاهر وكذا الأول في الآخر والآخر في الأول. وأما اسم «الله» الأعظم، رب الأسماء والأرباب، فهو في حدّ الاعتدال والاستقامة وله البرزخية الكبرى، لا الجمال يغلب جلاله، ولا الجلال جماله؛ لا الظاهر حاكم على باطنه، ولا الباطن على ظاهره فهو الظاهر في عين البطون، والباطن في عين الظهور، والأول بعين الآخرة، والآخر بعين الأولية»، مصباح الهداية، ص ٣١ - ٣٢.

(٢) «قد عرفت أن اسم الله الذي هو سرّ آل محمد ﷺ في كل نفس هو الذي لا يمكن بلوغ السالكين إلى رب العالمين إلا بمعرفته، ولا التوحيد والهداية إلا بوصولهم إليه في=

بشوق ولهفة كما تقتضي الرجولة^(١).

تجلّت الذات المقدسة لأمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام، وأصبحت نور السماوات والأرض. فكيف، إذاً، يكون «الله» نور السماوات والأرض؟ إنّ كل من يقول بأن الله (الذات الإلهية) هو نور السماوات والأرض ليس إلا ملحداً لم يشتم رائحة التوحيد حتى. فلا يمكن لله أن يكون نوراً بهذا العنوان الذي نتحدث عنه، لأن الذات منزّهة^(٢) عن هذه المسائل، فاسمها هو النور، وهذا الاسم هو تلك الحقيقة، نعني الولاية^(٣).

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٤)، ينبغي أن لا يتوجّه الإنسان إلى الذات في هذا الموضع، بل إلى الإسم^(٥)، فذلك هو نور السماوات والأرض. عندما كنا

=عوالمهم، وهو الذي يهديهم ويرشدهم إلى حقيقة التوحيد ومعرفة إله الآلهة جلّ جلاله، ولولاه ما عرف الله، (الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٣١٠). ومن كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «أشرف الموجودات هي الدّوات المقدّسة للمعصومين ﷺ هم الأسماء الحسنى، ويعتبر الارتباط بالذات، كما تبين، عن غير طريق الإسميّة والوصفيّة إلحاداً، فإنّ الله تعالى لم يلد ولم يولد».

(١) وهي تقتضي أن لا يخاف في الله لومة لائم.
(٢) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ نفي السوء نقص في مجال المعرفة، لأنّه إثبات للنقص ولو مفهوماً، ومن هنا، تنزيه ذات الباري نقص في المعرفة، وهذا معنى «سبحان الله، سبحان الله»، أي لا تنزه الحقّ تعالى بنفي الصفات الناقصة عنه، فلا تقلّ إنّ الله لا يكذب ولا تقلّ إنّ الله لا يقوم بالأعمال القبيحة».
(٣) «للولاية.. ثلاث مراتب: الأولى: الولاية السريّة الاستحقاقية وهي ولاية الاسم الذي هو المثل الأعلى... الثانية: الولاية الحكميّة الجعليّة... والثالثة: الولاية الخلافية»، الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ١٥٧ - ١٥٨ - ١٥٩.

(٤) ورد في الدعاء: «اللهم صفا نورك في أتمّ عظمتك وعلا ضياؤك في أبهى ضوئك أسألك بنورك الذي نورّت به السماوات والأرضين وقصمت به الجبابرة وأحييت به الأموات وأممتّ به الأحياء... وأتممتّ به الكلمات وأقمتّ به السماوات...»، أدعية ساعات النهار، الساعة الرابعة، مفاتيح الجنان.

(٥) عن الإمام الصادق ﷺ: «والاسم من نور الذات بلا تبعيض، وظاهره بلا تجزي يدعو إلى مولاه ويشير إلى معناه»، الهداية الكبرى، الباب ٤ ص ٢٧٧.

صغاراً، علمونا التوحيد بالقول: إن الله نور، فرحنا نفتش ونبحث في كل شيء علّنا نراه، غير أننا فشلنا. ولكن، عندما لمع هذا النور وأضاء فضاء عالم الوجود بمقدار، رأينا أنه لا يمكن الاستفادة إلا من نور وجود أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام.

الفرق بين الإسم والمسمّى

﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(١)، تجلّى الربّ^(٢) بالإسمية هنا. وفي «بسم الله الرحمن الرحيم»، ظهرت الحقيقة بالاسم الذي هو نفسه صاحب الولاية الكلية والمطلقة^(٣). إسم «الله» هو غير الذات، فالإسم غير المسمّى^(٤). الكل يقبل

(١) سورة العلق، آية ١.

(٢) الربّ «هو اسم الله المربي لجميع الأشياء والمفيض على من في الأرض والسماء، وليس المراد منه ذات الحق تعالى، لثبوت تنزهه وتقده عن التربية، لأنها معنى فعلي توجد بوجود المفاعيل، وتفقد بفقدانها... فالغاية للأشياء هو المربي لها، وهو هذا الاسم الأعظم المربي لكل شيء، والمعطي لكل نور وفيّ بالله سبحانه، لثبوت تكرمه وتعاليه عن مباشرة الأحداث بذاته المقدسة، لأن النسب والإضافات والاقتراانات والاتصالات منقطعة بينه تعالى وبينها، لانعدامها واضمحلالها عند سطوع نور جلاله، فلهذا «تجلّى لها بها، وبها امتنع منها» كما قال سيّد الموحدين ﷺ.... ومن هنا تعرف معنى قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (سورة القيامة، آية ٢٢ - ٢٣) يعني إلى مُرَبِّهَا، وبعبارة إلى عليّ ﷺ لثبوت كونه هو المربي، قال ﷺ: أنا وعليّ أبوا هذه الأمة، نجاة الهالكين، ص ٢١٢ - ٢١٣.

(٣) «جميع دائرة الوجود وتجليات الغيب والشهود... موجود جمعاً في «بسم الله» الذي هو الإسم الأعظم وفي الباء التي هي مقام السببية وفي النقطة التي هي سرّ السببية وعليّ ﷺ هو سرّ الولاية»، الآداب المعنوية للصلاة، ص ٤٢٨.

(٤) من كلام آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «يقول أمير المؤمنين ﷺ: «وأسماءه تعبير». إنّ الإسم الإلهي غير مسمّاه، ولكن عندما نقول: زيد جالس، فليس الذي جلس هو الإسم اللفظي أو الكتبي بل نفس زيد جلس؛ نعم، الإسم تعبير عن الذات، وهو مبين للمسمّى وكاشف عنه، ولكنّ الاسم ليس عين الذات، بل هو مظهر المسمّى ومُظهر المسمّى».

بذلك ولا أحد يقول بخلافه، فأين الاسم من المسمّى؟^(١) ينبغي إزالة هذا الوهم^(٢)، فمن يريد الشيطان أن ينفذ إليه ويعترض طريق فهمه، يسأل عن الفرق بين الاسم والمسمّى، والفرق بين الذات المقدسة والحق المتعال. نوّد أن نقطع الطريق عليه ونقول إن الاسم غير المسمّى رغم ما ورد في الزيارة الرجبية، المذكورة في مفاتيح الجنان، أن «لا فرق بينك وبينها». ونظراً إلى عجز البشر

(١) «الاسم عند العرفاء هو حقيقة الوجود مأخوذة بتعيّن من التعيّنات الصفاتية من كمالاته تعالى أو باعتبار تجلّ خاصّ من التجليات الإلهية. فالوجود الحقيقي مأخوذاً بتعيّن الظاهرية بالذات والمظهرية للغير اسم «النور»؛ وتعيّن كونه ما به الإنكشاف لذاته ولغيره اسم «العليم»؛ وتعيّن كونه خيراً محضاً وعشقاً صرفاً اسم «المريد»؛ وتعيّن الفياضية الذاتية للنورية عن علم ومشية اسم «القدير»؛ وتعيّن الدراكية والفعالية اسم «الحي»؛ وتعيّن الإعراب عمّا في الضمير المخفي والمكنون الغيبي اسم «المتكلم»؛ وهكذا وكذا مأخوذاً بتجلّ خاص على ماهية خاصّة... فنفس الوجود الذي لم يلحظ معه تعيّن ما، بل بنحو اللاتعيّن البحث هو المسمّى، والوجود بشرط التعيّن هو الاسم، ونفس التعيّن هو الصفة، والمأخوذ بجميع التعيّنات الكمالية اللائقة به المستتعبة للوازنها من الأعيان الثابتة الموجودة بوجود الأسماء - كالأسماء بوجود المسمّى - هو مقام الأسماء والصفات، الذي يقال له في عرف العرفاء: المرتبة الواحدية، كما يقال للموجود الذي هو اللاتعيّن البحث: المرتبة الأحدية. والمراد من اللاتعيّن: عدم ملاحظة التعيّن الوصفي، وأمّا بحسب الهوية والوجود فهو عين التشخص والتعيّن والمتشخص بذاته والمتعيّن بنفسه، وهذه الألفاظ ومفاهيمها، مثل الحي العليم المريد القدير وغيرها، أسماء الأسماء»، شرح الأسماء أو شرح دعاء الجوشن الكبير، ص ٥٧٤ - ٥٧٥.

(٢) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «حذار أن يقع الإنسان في مهلكة قياس الحقائق الإلهية بوهمه وخياله، فإنّ الإنسان لا خبر له عن تلك الحقائق، ومن يريد أن يتعرف على هذه الحقائق لا بدّ أن يطلبها عند أهلها»، انتهى. فعن عليّ بن الحسين عليه السلام: «إنّ دين الله لا يصاب بالعقول الناقصة والآراء الباطلة والمقاييس الفاسدة ولا يصاب إلّا بالتسليم»، (كمال الدين وتمام النعمة، ص ٣٢٤). وعن عبد الله بن أبي يعفور، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «والله لو فلقت رمانة بنصفين، فقلت: هذا حرام وهذا حلال، لشهدت أنّ الذي قلت: حلال حلال، وأنّ الذي قلت: حرام حرام، فقال: رحمك الله رحمك الله»، (رجال الكشي، ج ٢ ص ٥١٨)، ذلك أن «المعروف ما أمرتم به والمنكر ما نهيتهم عنه» كما ورد في زيارة آل يس.

عن الفهم والإدراك^(١)، قالوا: «إلا أنهم عبادك وخلقك»، ذلك أنهم يهيئون السفرة ويضعون الطعام بحسب طبيعة مآكل أهلها. فلو لم يكونوا مشركين^(٢)، ما قالوا «إلا أنهم عبادك وخلقك».

إذاً، «الله»^(٣) تنزّل أولي وهذا التنزّل هو تشخّص إسمي، والكلام لا يشمل ذات المسمّى. ف «الله» الاسم هو «نور السماوات والأرض». وهذا الاسم هو حقيقة ولاية نور السماوات والأرض. ذلك أنّ الحق لا يظهر إلا بالاسم^(٤)،

(١) عن الإمام العسكري عليه السلام أنه قال: «ألسنا قد قلنا لكم لا تسألونا عن علم الغيب؟ فنخرج ما علمنا منه إليكم، فيسمعه من لا يطيقه استماعه فيكفر»، الهداية الكبرى، ص ٣٣٤.

(٢) ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾، سورة غافر، آية ١٢.

(٣) «الله» هو الاسم الأعظم والتجلي الأول والأسماء منها ما هي في مقام الذات ومنها في مقام التجليات بالاسمية وهناك أيضاً أسماء التجلي الفعلي الذي يقال لقسم منه مقام الأحد، وللآخر مقام الواحدية وللثالث مقام المشيئة ومثل هذه المصطلحات، ويحتمل أن تكون مقامات الأسماء الثلاثة هي المقصودة بالآيات الأخيرة من سورة الحشر، تفسير آية البسملة (محاضرات معرفية)، ص ٨٥.

(٤) من كلام لآية الله السيد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «ما يقال من الفناء في الله هو في مقام الإسم، وما يقال من الإستغراق في بحار التوحيد هو باعتبار الإسم، ولكن من جهة أخرى، ليس للإسم أصالة من ذاته، بل هو مأخوذ من شعاع المسمّى». عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «إنّ الله تبارك وتعالى خلق إسماً بالحروف غير متصوّت، وباللفظ غير منطوق وبالشخص غير مجسّد وبالتشبيه غير موصوف وباللون غير مصبوغ، منفي عن الأقطار، مبعد عنه الحدود، محجوب عنه حسّ كل متوهّم، مستتر غير مستور، فجعله كلمة تامة على أربعة أجزاء وهو الإسم المكنون المخزون، معاً ليس منها واحد قبل آخر، فأظهر منها ثلاثة أسماء لفاقة الخلق إليها وحجب منها واحداً وهو الإسم المكنون المخزون، فهذه الأسماء التي ظهرت، فالظاهر هو الله تبارك وتعالى، وسخر سبحانه لكل اسم من هذه الأسماء أربعة أركان، فذلك اثنا عشر ركناً، ثم خلق لكل ركن منها ثلاثين اسماً فعلاً منسوباً إليها فهو الرحمن، الرحيم، الملك القدوس، الخالق الباري، المصور، الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، العليم، الخبير، السميع، البصير، الحكيم، العزيز، الجبار، المتكبر، العلي، العظيم، المقنن، القادر، السلام، المؤمن، المهيمن، (الباريء) المنشئ، البديع، الرفيع، الجليل، الكريم، الرازق، المحيي، =

وليس الاسم سوى حقيقة الولاية^(١) الإلهية لمحمد وآل محمد ﷺ^(٢)، لا شيء آخر.

ذات الحق منزّهة عن كل أشكال النسبة

لقد تبين، وبالقدر اللازم، أن ذات الحق المقدسة منزّهة عن كل أشكال النسبة. ولكن مذ كانت النسبة ثابتة على لسان القرآن والشرع، يتم تحميلها للإسم. فعند نسب اليد إلى الحق كما في: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾^(٣)، تُربط هذه النسبة بالإسم، وكذلك الحال عند نسب الوجه إليه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾^(٤). والكلام نفسه ينطبق على مسألة حمل الصفات على الذات. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٥)، ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٦)، تُعزى هذه النسبة

=المميت، الباعث، الوارث، فهذه الأسماء وما كان من الأسماء الحسنى حتى تتم ثلاث مائة وستين اسماً فهي نسبة لهذه الأسماء الثلاثة، وهذه الأسماء الثلاثة أركان، وحجب الاسم الواحد المكنون المخزون بهذه الأسماء الثلاثة وذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ﴾، أصول الكافي، ص ١٦٤ - ١٦٥.

(١) «إن حقيقة الخلافة والولاية هي ظهور الألوهية وهي أصل الوجود وكماله وكل موجود له حظ من الوجود له حظ من حقيقة الألوهية وظهورها الذي هو حقيقة الخلافة والولاية اللطيفة الإلهية ثابتة على ناصية جميع الكائنات من عوالم الغيب إلى منتهى علم الشهادة، وتلك اللطيفة الإلهية هي حقيقة الوجود المنبسط والنفوس الرحمانى والحق المخلوق به الذي هو بعينه باطن الخلافة الحتمية والولاية المطلقة العلوية»، الآداب المعنوية للصلاة، ص ٢٦٥.

(٢) «لمحمد وآله الطاهرين صلوات الله وسلامه عليهم سرّ وعلانية. أما سرّهم ﷺ فهو الذي مبدأ كلّ موجود... وأما مرتبة علانيتهم فهي إنيّاتهم وتعيّناتهم»، الشمس الطالعة من مشارق الزبارة الجامعة، ص ١٢٨.

(٣) (سورة الفتح، آية ١٠). «... المراد باليدين الصفتان المتقابلتان، كالصفة الجلالية والصفة الجمالية»، تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم، ج ١ ص ٤٢٠.

(٤) سورة الرحمن، آية ٢٦ - ٢٧.

(٥) سورة البقرة، آية ٢٠.

(٦) سورة الحشر، آية ٢٢.

إلى الإسم لا الذات، أي أن الإسم هو الرحمن الرحيم والاسم هو على كل شيء قدير. وقد يسأل سائل: ما الإشكال إن وضعنا هذه النسبة على الذات؟ هذا هو الإشكال التوحيدي الأكبر، إذ يعني أن تلك الذات غير منزّهة. ولذلك يقول مولى جميع أهل اليقين عليه الصلاة والسلام: «ونظام التوحيد نفي الصفات عنه»^(١). وأنا أقول بكل جرأة: وكمال التوحيد نفي الصفات عن الإسم^(٢).

ذات الحق لا تقبل الحيثيات

يقبل الإسم الحيثية كما يقبل النسبة، فاسم الله هو الخالق والقادر والرحمان والرحيم وغفار الذنوب... أما الذات فبريئة منها جميعها.

«كان الله ولم يكن معه شيء»^(٣)، لا يصح استخدام فعل «كان» مع الله في أيّ وقت من الأوقات. فالاسم هو المقصود في هذا التعبير، إذ لو حُمِل الزمان على الذات، لجُعِل لها «حدّ» على الفور، كالحَدّ المتمثل بالزمان الماضي في حالة «كان». ولذلك يفسّر المعصوم عليه الصلاة والسلام آية ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾^(٤) بالقول:

(١) (عيون أخبار الرضا، ج ٢ ص ١٣٥). يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «... وكمال توحيد الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه...»، (نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام، ج ١ ص ١٥). ورد في الدعاء: «يا مَنْ تعالى عن الصفات كلّها يا مَنْ جلّ عن معاني اللطف ولطف عن معاني الجلال»، (أدعية ساعات النهار، الساعة السادسة، مفاتيح الجنان). يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «نظام هذا التّوحيد هو نفي الصّفات عنه، وهذا الضمير (هـ) الموجود في (عنه) و(معرفته) و(توحيد) لا يمكن أن نرجعه إلى الله تعالى، فهو تلك الهوية التي لا تشخّص لها أصلاً، ونعبّر عن تلك الحقيقة بعالم «عماء»، وبالعالم البحت والبسيط».

(٢) ورد في الدعاء: «يا مَنْ تعالى عن الصّفات نورّه»، أدعية ساعات النهار، الساعة السابعة، مفاتيح الجنان.

(٣) عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: «كان الله ولا شيء معه»، بحار الأنوار، ج ١٥ ص ٢٧.

(٤) سورة الفجر، آية ٢٢.

نحن أهل البيت الذين نجى^(١). وهنا سأتكلم بكلام^(٢)، وأدعو الله أن يكشف الحجاب عن أعيننا بقدر يوفقنا فيه لقبوله في سياق تنزيه الذات، فإنما نريد أن نكون موحدين وأن نعطي معرفة التوحيد وفهمه، هذا في حال كان قابلاً للفهم! إذاً، إن تلك الذات منزّهة، «وكمال التوحيد نفى الصفات عنه»^(٣). فمقولة «كان الله ولم يكن معه شيء»^(٤) تعني أنّ علياً عليه الصلاة والسلام كان ولم يكن

(١) حدّثنا عليّ بن الحسين بن عليّ بن فضال عن أبيه، قال: سألت الرضا عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾، فقال: «إن الله عزّ وجلّ لا يوصف بالمجيء والذهاب، تعالى الله عن الانتقال، إنّما يعني بذلك وجاء أمر ربك والمَلَكُ صَفًّا صَفًّا»، (تفسير البرهان، ج ٥ ص ٦٥٦). ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «... فسلموا الله أمره، فحنّ أمر الله»، (حديث النورانية، مشارق أنوار اليقين في أسرار أمير المؤمنين، ص ١٦٠ - ١٦٢)، ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (سورة هود، آية ٧٣). كما ورد في دعاء الفرج المذكور في مفاتيح الجنان: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، أُولِي الْأَمْرِ الَّذِينَ فَرَضْتَ عَلَيْنَا طَاعَتَهُمْ». ومن ألقاب إمام الزمان عليه السلام، «صاحب الأمر»، حيث نناديه قائلين: «يا صاحب الأمر أدركنا». ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾، سورة طه، آية ١١١ - ١١٢.

(٢) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «كلّ ما نقوله من الحديث إنّما يصل إلى السامع بقدر وجوده، إلّا أن يصل الإنسان إلى الاضمحلال والفناء الوجودي التام»، (ولك وجودٌ بقدر توحيدك).

(٣) أهل البيت عليه السلام نزهوه تعالى بخرق تمام الحجب «حتى وصلوا إلى عالم العظمة الذي هو عالم الوجود بقولٍ مطلق، وعالم نفى الأسماء، وعالم قاب قوسين، ثمّ بنفي هذا العالم وقعوا في عالم العدم وعالم «أو أدنى». ثمّ رفع الله بهم إلى عالم آخر الذي ليس فيه نفى ولا إثبات، ولا يمكن فيه إثبات النفي، ولا نفى الإثبات، فولّوها وتحيروا، كما هو المروي عن رسول الله ﷺ: «أنّه لمّا نفى كل شيءٍ وعرج به فوق كلّ ما يتصوّر من العوالم فلم يهتد إلى شيءٍ قال: «ربّ زدني فيك تحيراً»، وهو قولهم عليه السلام: كمال توحيد نفى الصفات عنه»، الشمس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٣٢٠.

(٤) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «ليس الكمال أن تكون المعية من جهة الله تعالى وتقدّس، بل الكمال أن تكون المعية من جهتك، وأمّا الحقّ فله معية مع كلّ الأشياء بلا انفصال».

(٥) «كان الله...»، الله الاسم، يعني كان اسم الذات ولم يكن معه شيء، «كنتُ كنزاً مخفياً=

معه شيء^(١)، إذ لا يصحّ أن نقول بأنّ الذات هي التي كانت. فهذا أمر خاطئ لأن الذات لا تقبل الحيثية أصلاً، كما لا تقبل النسبة إلى زمانٍ أو صفةٍ أو أيٍّ من هذه العوارض التي نتحدث عنها.

لن نقدر على معرفة الذات^(٢). ولماذا علينا أن نعرفها أصلاً؟ فلنعرف الإسم. ولنعرف أنفسنا، لا بل فلنُعرف الأثاث الذي نجلس عليه والطعام الذي لا ندري منه سوى أنه قابل للأكل. أيريد^(٣) الإنسان أن يعرف الله؟ تلك الحقيقة موجودة

= فأحببتُ أن أعرّف فخلقتُ الخلق لكي أعرّف»، (بحار الأنوار، ج ٨٤ ص ١٩٩)، والخلق هم الأسماء، وقد ورد عنهم ﷺ: «نحن والله الأسماء الحسنی»، الكافي، ج ١ ص ١٤٣.

(١) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ عليّاً هو كلّ الوجود ووجود الكلّ، فعليّ هو ظهور كلّ الأسماء والصفات الإلهية».

(٢) عن أبي عبد الله سلام الله عليه: «إياكم والتفكر في الله فإنّ التفكر في الله لا يزيد إلا تيهّاً لأن الله عز وجل لا تدركه الأبصار ولا يوصف بمقدار»، (توحيد الصدوق، ص ٤٥٧). ومن كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «كلّ هذه الصفات من الرحيم والعليم والرحمن والودود التي نقولها وننسبها إليه تعالى ليست مناسبة مع الذات الربوبية، وهذا اللباس لا يتلبّس به الحقّ تعالى، ومن هنا عندما ننسب له تعالى كلّ هذه الصفات لا بدّ أن تكبر الله بعدها مباشرة (الله أكبر)، فإنّ الله أكبر من أن يوصف، ولكن حتّى بوصف خاتم الأنبياء؟ نعم حتّى بوصف خاتم الأنبياء ﷺ. حتّى بوصف أمير المؤمنين ﷺ؟ نعم حتّى بوصف أمير المؤمنين ﷺ. بل أمير المؤمنين ﷺ هو الذي يعلم أنّ الله أكبر من أن يوصف، فإنّ الحقّ تعالى أكبر من أيّ وصف يُعطى له بأيّ مقدار كان. الله أكبر، الله أكبر»، وقد ورد عن الرسول الأكرم ﷺ أنه قال: «ما عبدناك حقّ عبادتك وما عرفناك حق معرفتك»، بحار الأنوار، ج ٦٨ ص ٢٣.

(٣) أيها السالك لا تقل: أريدُ الله! وهل تُراك عرفته حتى تطلبه؟ فأنت لم تقدر على أن تريده وتطلبه ولن تقدر على ذلك! فهو غير محدود وأنت محدود، وطلبك بنفسك، والتأشّي عن نفسك محدود، إنّ ذلك الإله المتصوّر والمتخيّل والمتوهّم، بتصورك وتخيّلك وتوهّمك ليس في الحقيقة إلّا نفسك التي تصوّرتها إلهاً، «إنّ كل ما تصوّرتموه بأذهانكم هو مخلوق مثلكم مردود إليكم»، (بحار الأنوار، ج ٦٦ ص ٢٩٣)، كما قال الإمام الباقر ﷺ. فكفّ عن طلبك، وادفن أمنيّتك هذه معك في القبر: أن ترى الله أو أن تصل إلى لقائه وأن تطلبه! أخرج بنفسك من الطلب، واترك طلبك ورغبتك التي كانت لك =

في مقام عالٍ وفي حصنٍ لا يمكن لأيِّ فكر أو عقل أن يصل إليه^(١)، وهذا من المسلّم به. وكذلك الحال مع تلك الذوات المقدّسة، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «يا عليّ ما عرف الله إلا أنا وأنت، وما عرفني إلا الله وأنت، وما عرفك إلا الله وأنا»^(٢).

=حتى الآن، وكلّ نفسك إلى الله ودّعه يُردّ لك ويطلب لك، «إلهي أغني بتدبيرك لي عن تدبيري وباختيارك عن اختياري»، (دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة، مفاتيح الجنان)، فإذا كان السالك مسلماً أمره بالكلية لله عزّ وجلّ، تابعاً له ظاهراً وباطناً راضياً بكل ما يُجرّبه عليه وما يختاره له، حينها تمتدّ له تلك اليد الملكوتية لتسلك به إلى الله تبارك وتعالى.

(١) ﴿تَكَ حُدُودَ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (سورة البقرة، آية ٢٢٩). يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ كلّ من يريد أن يطوي هذا الطريق بالتفكّر والتعقّل يحترق ويذوب»، انتهى... إذ لا يمكن للمحدود الإحاطة بالمطلق، ومن يدنو منه قيد أنملة بالتفكّر والتعقّل يحترق، كما قال جبرائيل ﷺ لرسول الله ﷺ: «لو دنوت أنملة لا احترقت»، (بحار الأنوار، ج ١٨ ص ٣٨٢). «إنّ الله تعالى لمّا لا يمكن معرفته والتلقّي منه لكلّ أحد. جعل له خليفة، فجعل معرفته معرفته، وطاعته طاعته، ومعصيته معصيته، ورضاه رضاه، وسخطه سخطه، وحبّه حبّه، وبغضه بغضه، وولايته ولايته، والإقبال إليه إقبالاً إليه، والإعراض عنه إعراضاً عنه، فهل يمكن بعد ذلك الإيمان بالله إلا بالإيمان به، وطاعة الله إلا بطاعته، وحبّه إلا بحبّه، ومعرفته إلا بمعرفته، وهل يقبل الله تعالى شيئاً من الطاعات من أحد إلا ممّن أخذ ولاة أمره، وهل يمكن ولايته لله مع إنكاره لولاية من ولّاه الله عليه؟ وهل يمكن بعد ذلك الإعتماد على العقل في طاعة الله والعبادة له في عرض الكتاب والسنة؟ لا والله ولذلك قال الإمام ﷺ: «إن دين الله لا يصاب بالعقول الناقصة». والسنة عبارة عمّا سنّه رسول الله ﷺ من أعمال الجوارح التي هي مرتبة فعل ذلك الدين، أعني صورته في عالم الأفعال، فكما أنّ الدين الذي هو عبارة عن اسم الله الذي لا يصاب بالعقول، فكذلك لا يقاس مراتبه بالعقول، يعني لا يمكن قياس مراتبه بها، ووزنها وتعيين حدودها بالعقول»، الشمس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٥٤٩ - ٥٥٠.

(٢) (مختصر بصائر الدرجات، ص ١٢٥). من كلام لأمر المؤمنين ﷺ: «... وهل يُعرف أو يوصف أو يُعلم أو يُفهم أو يُدرك شأن من هو نقطة الكائنات وقطب الدوائر وسرّ الممكنات وشعاع جلال الكبرياء وشرف الأرض والسماء...»، (كتاب مسند الإمام علي ﷺ، ج ٩ ص ٣٣؛ مشارق أنوار اليقين، ص ١١٤). وعنه ﷺ: «ظاهري ولاية=

إلقاء الإسم في المسمّى

كلّ من يعبد الإسم من دون إلقائه في المسمّى هو مشرك^(١)، إذ ينبغي أولاً إلقاء الإسم في المسمّى وبعد ذلك عبادته، فلا يُفصل بينهما^(٢)، «لا فرق بينك وبينها إلا أنهم عبادك وخلقك». إننا نذرف الدمع لمظلومية أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام الذي ألزموه بيته، غير أن المُبكي أنه حين يُراد إيجاد طريقه، ينبغي السّير في الشرك للوصول إليه. فلا يمكن أن تجعل من أحدهم موحداً ليجد الطريق إلى أمير المؤمنين عليه السلام، لأنّ الأغلال التي أوجدها الله وغلّ بها قلبه، تحول بينه وبين قبوله^(٣) تلك الحقيقة، فلا يقبل بـ«لا فرق بينك وبينها» ما لم يُقل «إلا أنهم عبادك وخلقك». على كل العالم أن ينكبّ على البكاء لأن التوحيد بذلك المعنى الذي نتحدث عنه هو توحيد يقطر الشرك والكفر من جميع جوانبه. فما من أحد غيرهم يفهم التوحيد، وما من أحد غيرهم، على وجه الخصوص، يعرف ما معنى الله^(٤).

=ووصاية، وباطني غيب لا يدرك»، (مشارق أنوار اليقين، ص ٧٠). كما ورد عن السيّد الزهراء عليها السلام أنها قالت: «إذ الخلائق بالغيب مكنونة»، الأسرار الفاطمية، ص ٤٧٣.

(١) عن أبي عبد الله سلام الله عليه: «من عبد الله بالتوهم فقد كفر، ومن عبد الإسم دون المعنى فقد كفر، ومن عبد الإسم والمعنى فقد أشرك، ومن عبد المعنى بإيقاع الأسماء عليه بصفاته التي وصف بها نفسه فعقد عليه قلبه ونطق به لسانه في سرائره وعلايته فأولئك أصحاب أمير المؤمنين سلام الله عليه حقاً»، (الكافي، ج ١ ص ٨٧). وقد ورد في الدعاء: «ولا تجعلني يا إلهي ممّن يعبدُ الإسم دونَ المعنى»، بحار الأنوار، ج ٩٤ ص ٩٥ - ٩٦.

(٢) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «فإنّ الإسم الذي تتعلّق به العبادة هو عين المسمّى وليس منفصلاً عنه وإلا لتمّ الوقوع في الكفر الصريح، فإنّ انفصال الإسم عن المسمّى هو الكفر وليس التوحيد».

(٣) قال الإمام الرضا عليه السلام: «مثّل المؤمنين في قبولهم ولاء أمير المؤمنين عليه السلام في يوم غدیر خم، كمثّل الملائكة في سجودهم لآدم عليه السلام، ومثّل من أبي ولاية أمير المؤمنين عليه السلام في يوم الغدير، مثّل إبليس»، (إقبال الأعمال، ج ٢ ص ٢٦٢). إنّ إبليس لم يسجد لآدم عليه السلام من أجل حفظ التوحيد، بحسب اعتقاده، وهذا هو حال كل من لا يخضع لأهل البيت عليهم السلام ويقرّ لهم بالفضل، فهو يظنّ أنه يحفظ التوحيد بهذه الطريقة.

(٤) «لا يُعرّف من الله المسمّى الذي هو إله الآلهة إلا مرتبة اسمه الذي هو الله المودع=

ما هو الغلو^(١)؟

عند الكلام في باب أهل البيت عليهم السلام، لماذا تلجأ إلى الإنكار^(٢)؟ أيَقْدِر

=المكنون منه في كل نفس آية ومراة... وهو سرّ آل محمد عليهم السلام... فالمراد أن معرفة الله لا يمكن إلا بمعرفتكم والوصول إلى سرّكم وهو أقصى تمكّن الخلق من معرفة الله، (الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٢١٥). «نسبة إنبيات الموجودات بالنسبة إلى الإسم المستأثر كنسبة أجزاء الإنسان إليه، ونسبة أفراد الإنسان إلى الحقيقة المحمدية التي هي الإسم المستأثر كنسبة مقادير الماء إلى البحر المحيط مثل القطرة وغيرها، فالقطرة وسائر المقادير مشتركة في حكايتها عن تمام أوصاف الماء لكنّه كلّ بقدره»، الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ١٣١.

(١) راجع مطلب الغلو (تمهيد أول) ص ٥.

(٢) الناس في هذا المقام أصناف فمنهم مَنْ تُعرض عليه فضائل آل محمد عليهم السلام فيُنكرها ولا يقبلها وذلك لعدة أسباب، إذ قد ينكر البعض لخبائثة سرّه وظلمة قلبه واجترائه الذنوب، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قارف ذنباً فارقه عقلٌ لا يرجع إليه أبداً»، (ميزان الحكمة، ج ٢ ص ٩٨٧)، وعندها يصبح عقله ضعيفاً وناقصاً فلا يقوى على تقبّل الحقائق ويبقى جاهلاً بها، ولهذا يقول إن عقله لا يقبل بهكذا روايات أو مقامات لأهل البيت عليهم السلام، وقد قال الإمام زين العابدين عليه السلام: «إن دين الله عزّ وجل لا يصاب بالعقول الناقصة والآراء الباطلة والمقاييس الفاسدة...»، (كمال الدين وتمام النعمة، ص ٣٢٤). ومنهم من يُنكر لأن نطفته عُقِدَت من حرام، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله عليّ عليه السلام: «لا يبغضك إلا منافق أو ولد زنية أو حملته أمّه وهي طامث»، (علل الشرائع، ص ٥٩). والزنا نوعان، الزنا الشرعي المعلوم، وزنا من نوع آخر وهو أن يكون أحد الزوجين الشرعيين في مخيلته مع طرف ثالث، فإن عُقِدَت النطفة في تلك اللحظة، كانت نطفةً ملوثةً خبيثة. ولذا فإنّ صاحب هذا الحال يكون في الدنيا شكاكاً ومتردداً ومذبذباً بولايتهم عليهم السلام. إذاً، فالمنافق يردّ أسرار عليّ لبغضه أما وليّه فيردها لجهله، فمن وجد فؤاده عند الامتحان وورود نسمات أسرار وليّ الرحمن قد اشمأز واقشعرّ وخالجتة الشكوك، فليسأل أمّه عن أبيه! ومنهم من يُنكر بسبب العجز، فالبعض حين يعجز عن معرفة هذه المقامات العالية، يُنكرها بدل أن يعترف بعجزه، وهذا راجعٌ إلى الكبر المكنون في ذاته. ومن الناس مَنْ ينكر حسداً وبغضاً بسبب الإنية والأنانية والرغبة في أن ينافر آل محمد مقامهم الذي اختصّهم الله به، وهؤلاء ممّن قال الله تعالى عنهم: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (سورة النحل، آية ٨٣)، «وإنما دعاهم إلى الإنكار الجهل والحسد... لأن هذه النفس الإنسانية هي التي تحبّ أن تُعبَد من دون الله تعالى وأن لا =

= ترى الفخر والسؤدد إلا لها، وأن ترى الكلّ عبيداً لها، لأنها سلسلة الشيطان التي بها يتدلّى إلى هذا الحرم الرّياني، وإليه الإشارة بقوله «وأجرئته مجرى الدم مني»، ولذلك قال ﷺ: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»... ولهذا قال: ﴿فَأَقْضُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، فإنها لا تدرك مقاماتها إلا بالقهر»، (مشارك أنوار اليقين، ص ٧٣). ومنهم من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ومن أنكر حرفاً من الكتاب لم يكن مؤمناً، ومن أنكر حرفاً من أقوالهم أو ردّ حديثاً من أحاديثهم أو شكّ بشيء من أمرهم أو استعظم سراً من أسرارهم فقد أنكر الكلّ لأنهم هم كتاب الله الناطق. والإنكار من أخطر مكائد الشيطان، فعن رسول الله ﷺ أن إبليس لعنه الله جال في الأرض فرحاً يوم عاشوراء وهو يقول: «يا معاشر الشياطين، قد أدركنا من ذرية آدم الطلبة وبلغنا في هلاكهم الغاية وأورثناهم النار إلا من اعتصم بهذه العصابة، فاجعلوا شغلكم بتشكيك الناس فيهم وحملهم على عداوتهم وإغرائهم بهم وأوليائهم حتى تستحكم [وا] ضلالة الخلق وكفرهم، ولا ينجو منهم نا...»، (كامل الزيارات، باب ٨٨ ص ٢٧٣). وخلاصة القول إن العقول تنكر الحقائق لقصورها عن ارتقاء عالي قصورها، «فالقالي حجه عن نورهم العالي ظلمة الكبر والحسد، والغالي تاه في تيه أسرارهم فضل عن سبيل الرشد، والتالي قاسهم بالبشر فوقف عن أسرارهم وقعد، والعارف نظر إلى ما فُضّلوا به من المواهب الإلهية فعرف أنهم سرّ الواحد الأحد، وأن ظاهرهم باطن الخلايق وباطنهم عين الحقائق وغيب الإله الخالق»، (مشارك أنوار اليقين، ص ٣٨). ولكن، لا يتوهّم وأنهم أن المنكر لفضلهم ومقاماتهم سينجو من عقاب الله وعذابه سواء في الدنيا أو في الآخرة، فعن رسول الله ﷺ: «لا يعذب الله هذا الخلق إلا بذنوب العلماء الذين يكتمون الحق من فضل عليّ وعترته ﷺ»، ألا إنه لم يمش فوق الأرض بعد التبيين والمرسلين أفضل من شيعة عليّ بن أبي طالب ﷺ الذين يظهرون أمره وينشرون فضله، أولئك تغشاهم الرحمة وتستغفر لهم الملائكة، الويل كل الويل لمن يكتُم فضله»، (الدمعة الساكبة، ص ٨٢)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيُسْرُونَ بِهِ تَمَنَّا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة، آية ١٧٤)، فلعلّ من أسباب الكتمان هو الإنكار لهذا الفضل. وعن أمير المؤمنين ﷺ: «الويل كل الويل لمن أنكر فضلنا وخصوصيتنا، وما أعطانا الله ربّنا لأن من أنكر شيئاً مما أعطانا الله فقد أنكر قدرة الله عز وجل ومشيته فينا»، (بحار الأنوار، ج ٢٦ ص ٦ - ٧). فإذا أنكر الإنسان مقامات أهل البيت ﷺ يبتليه الله تعالى ببلاءات في أمواله وأولاده ونفسه أيضاً، ومن هذه الابتلاءات، أن يسفل هذا المنكر ليصل إلى ممارسة الشذوذ. وليس مستثنى من هذه البلاءات أيّ أحد، حتّى ولو كان من الشخصيات المرموقة التي لها وزنها اجتماعياً بل وحتى دينياً، فمن يكتُم فضائل عليّ وآل عليّ ﷺ =

العقل^(١) على قياس قدرهم؟ أم هل يقدر الفكر على وزن مقامهم؟ أو اللسان على الإحاطة بهم؟ ممّ تخاف^(٢)؟ ولمّ الإباء في هذا الشأن؟ إنهم أكبر من كل ما

=وينكرها ويكذب على الله ورسوله لا يتمتع بأية حصانة عند الله تعالى. إذاً، علينا أن لا نستعظم الأمر إذا ما عَلِمنا في يوم من الأيام أنّ شخصيات، احتلت مكانة عالية عند الناس، كانت في عداد الشاذين والمنحرفين، وما ذلك إلا نتيجة إنكارهم لمقامات أهل البيت (عليه السلام) وحتى لمظلوميّاتهم لا سيّما مظلوميّة السيدة الزهراء (عليها السلام)، وإنّ استعظمتنا الأمر فلجھلنا وقلة يقيننا وضعف ديننا و«البرمجة» التي خضعنا لها بفعل التربية التي نشأنا عليها.

(١) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «العقل هو الارتباط الباطني والتعلّق الباطني... وهو الفكر والإدراك الذي يربط الإنسان بالحقّ تعالى على قدر سعته الوجوديّة... فالعشق هو التعلّق بالمبدأ عن طريق الإحساس وأمّا العقل فهو التعلّق بالمبدأ عن طريق البرهان والاستدلال».

(٢) خوف الإنسان في هذا الموطن على مرتبتين. فإما يكون خوفاً من الله، (فلا يُظهر الحقائق الولائيّة خوفاً من عذاب الله من باب إذاعة السر)، وتشخيص هذا الأمر راجع إلى باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإما يكون خوفاً من الناس، إذ إنه يخاف إظهار الحقائق الولائيّة خوفاً على سُمعته ومقامه وسلطانه وعمامته ولوم بعض الناس أو الفضلاء له، فيلجأ إلى التقيّة لحفظ نفسه، في حين يقول إمامنا الصادق (عليه السلام): «إنما جُعِلَت التقيّة ليحقن بها الدم، فإذا بلغت التقيّة الدم فلا تقيّة، وأيم الله لو دُعيتُم لتنصرونا لقلّتم: لا نفعل إنما نتقي، ولكانت التقيّة أحبّ إليكم من آبائكم وأمّهاتكم، ولو قد قام القائم ما احتاج إلى مساءلتكم عن ذلك، ولأقام في كثير منكم من أهل النفاق حدّ الله»، (وسائل الشيعة، ج ١٦ ص ٢٣٥). فمثل هذا الإنسان فاقداً للشجاعة والعشق. وما يثير العجب أن البعض وبسبب خوفهم من الناس وجبنهم لا يلجأون إلى التقيّة فحسب، بل ويهجمون على أصحاب هذه الحقيقة ومن يعتقد بها لا لشيء إلا لحفظ مقامهم وكسب المنزلة في نفوس الناس ودرء الخطر عن أنفسهم وديارهم الخداعة الغرور فيضخّون بالحقيقة لأجل بقائهم ووجودهم. ولكنّ نداء الحسين (عليه السلام) ما زال يُسمَع منذ يوم عاشوراء، هل من موحدٍ يخاف الله فينا؟ فإن لم أصدّق وأقرّ بهذه الحقيقة، عليّ أن أحرص على أن لا أكون من محاربيها وقاتليها سواءً بيدي أو بلساني، حيث ورد في الزيارة: «قتل الله أمة قتلتكم بالأيدي والألسن»، فلا أتحدّث عن الإمام الحسين (عليه السلام) وأقتل الحسينيين، ولا أتكلّم عن الصلاة وأقتل المصلين، ولا أتكلّم عن الزهد وأمزق ثياب الزاهدين، ولا أتكلّم عن الورع في حين لا أتورّع عن التقليل من شأن محارم الله، محمد وآله الأطهار، ولا أنهي عن الغيبة وأهتك حُرُم الموالين، ولا أنهي عن البهتان وأقذف به الشيعة والموالين. نسأل الله أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

نقله^(١)، وهم أكبر من كل ما يقولونه^(٢). قد يأتي من يقول إن هذا الكلام غلو. ولكن ما الغلو أصلاً؟ قال الصادق عليه الصلاة والسلام: «الغالي في محبتنا نردّه إلينا ويثبت ويستجيب ويرجع، والمقصر ندعوه إلى اللحاق والإقرار بما

(١) عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: «إن الله عز وجل لا يوصف، وكيف يوصف وقال في كتابه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ فلا يوصف بقدر إلا كان أعظم من ذلك. وإن النبي صلى الله عليه وآله لا يوصف، وكيف يوصف عبد احتجب الله عز وجل بسبع وجعل طاعته في الأرض كطاعته في السماء فقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ ومن أطاع هذا فقد أطاعني ومن عصاه فقد عصاني، وفوض إليه. وإننا لا نوصف، وكيف يوصف قوم رفع الله عنهم الرجس وهو الشك. والمؤمن لا يوصف وإن المؤمن ليلقى أخاه فيصافحه فلا يزال الله ينظر إليهما والذنوب تتحات عن وجهيهما كما يتحات الورق عن الشجر»، (أصول الكافي، ج ٢ ح ١٦). وفي رواية مشابهة؛ عن مالك بن أعين الجهني قال: «أقبل إليّ أبو عبد الله عليه السلام، فقال: يا مالك أنتم والله شيعتنا حقاً. يا مالك، تراك قد أفرطت في القول في فضلنا، إنه ليس يقدر أحدٌ على صفة الله وكنه قدرته وعظمته، فكما لا يقدر أحد على كنه صفة الله وكنه قدرته وعظمته ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾، فكذلك لا يقدر أحدٌ على صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وفضلنا وما أعطانا الله وما أوجب من حقوقنا، وكما لا يقدر أحدٌ أن يصف فضلنا وما أعطانا الله وما أوجب الله من حقوقنا، فكذلك لا يقدر أحدٌ أن يصف حقّ المؤمن ويقوم به مما أوجب الله على أخيه المؤمن. والله يا مالك، إن المؤمنين ليلتقيان فيصافح كل واحد منهما صاحبه، فما يزال الله تبارك وتعالى ناظراً إليهما بالمحبة والمغفرة، وإن الذنوب لتحات عن وجوههما وجوارحهما حتى يفترقا، فمن يقدر على صفة الله وصفة من هو هكذا عند الله؟»، المحاسن، ج ١ ص ١٤٣.

(٢) عن كامل التمار قال: كنت عند أبي عبد الله عليه الصلاة والسلام ذات يوم، فقال لي: «يا كامل، إجعلوا لنا ربّاً نؤوب إليه وقولوا فينا ما شئتم. قال: فقلت: نجعل لكم ربّاً تؤوبون إليه ونقول فيكم ما شئنا؟ قال: فاستوى جالساً فقال: ما عسى أن تقولوا، والله ما خرج إليكم من علمنا إلا ألفاً غير معطوفة»، (مختصر بصائر الدرجات، ص ٥٩). وفي رواية أخرى: «لو زدتم في السؤال حرفاً لزدنا في الجواب حرفاً»، (كشف الحق في مسائل المعراج، ص ٣٤). كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «ما كلّم رسول الله صلى الله عليه وآله العباد بكنه عقله قطّ. قال: رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم»، (الكافي، ج ١ ص ٢٣). وهكذا كان الأئمة عليهم السلام، يكلّمون الناس على قدر عقولهم لا على قدر عقول أهل البيت عليهم السلام.

فضلنا الله به فلا يثبت ولا يستجيب ولا يرجع ولا يلحق بنا»^(١). وتكمن مشكلة الغالي في اعتباره أن المسألة وصلت إلى تمامها، في حين أن المسألة لم تنته. ومشكلة من يؤله^(٢) علماً عليه الصلاة والسلام أنه أنهى القضية في حين أنها لم

(١) الهداية الكبرى، ص ٤٣٢؛ صحيفة الأبرار، ج ٢ ص ٥١٧.

(٢) عن المفضل بن عمر في حديث له مع الإمام الصادق عليه السلام: «قلت: يا سيدي، إن الغالي عند الشيعة من ذكر أنكم أرباب من دون الله. قال عليه السلام: ويحك، يا مفضل! ما قال هذا فينا إلا عبد الله بن سبأ، والعشر النفر الذين أحرقتهم أمير المؤمنين عليه السلام بالنار بالكوفة، وموضع إحراقهم يُعرف بصحراء الأحد عشر، وكذا عذبهم أمير المؤمنين بعذاب الله وهو النار عاجلاً وهي لهم آجلاً، ويحك يا مفضل! الغالي في محبتنا نردّه إلينا فيثبت ويستجيب ويرجع، والمقصر ندعوه إلى اللحاق والإقرار بما فضلنا الله به؛ فلا يثبت ولا يستجيب ولا يرجع ولا يلحق بنا؛ لأنهم لما رأونا نفعل أفعال النبيين قبلنا ممّن ذكرهم الله في كتابه وقصّ قصصهم، وما فوّض إليهم من قدرته وسلطانه حتى خلقوا ورزقوا وأحيوا وأماتوا وأبرأوا الأكمه والأبرص، ونبأوا الناس بما يأكلون ويدّخرون في بيوتهم وبعلم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة بإذن الله، وسلّموا إلى النبيين أفعالهم وما وصفهم الله به، وأقرّوا بذلك، جحدونا بغياً علينا وحسداً لنا على ما جعل الله لنا وفينا...»، (صحيفة الأبرار، ج ٢ ص ٥١٧). وفي رواية، قال أمير المؤمنين عليه السلام لدهقان الفارس وقد حدّره من الركوب والمسير إلى الخوارج فقال له: «اعلم أن طوالع النجوم قد نحست فسعد أصحاب النحوس ونحس أصحاب السعود، وقد بدا المريخ يقطع في برج الثور وقد اختلف في برجك كوكبان وليس الحرب لك بمكان، فقال له: أنت الذي تسير الجاريات وتقضي علي بالحادثات، وتنقلها مع الدقائق والساعات، فما السراي وما الذراري؟ وما قدر شعاع المدبرات؟ فقال: سأنظر في الأسطرلاب وأخبرك، فقال له: أعالم أنت بما تم البارحة في وجه الميزان؟ وأي نجم اختلف في برج السرطان؟ وأي آفة دخلت على الزبرقان؟ فقال: لا أعلم، فقال: أعالم أنت أن الملك البارحة انتقل من بيت إلى بيت في الصين، وانقلب برج ماجين وغارت بحيرة ساوة، وفاضت بحيرة خشمة وقطعت باب البحر من سقبة، ونكس ملك الروم بالروم وولى أخوه مكانه، وسقطت شرادت الذهب من قسطنطينية الكبرى، وهبط سور كرنديب، وفقد ربان اليهود، وهاج النمل بوادي النمل، وصعد سبعون ألف عالم وولد في كل عالم سبعون ألفاً، والليلة يموت مثلهم، فقال: لا أعلم، فقال: أعالم أنت بالشهب الحرس والأنجم والشمس، وذوات الذوايب التي تطلع مع الأنوار وتغيب مع الأسحار؟ فقال: لا أعلم، فقال: أعالم أنت بطلوع النجمين اللذين ما طلعا إلا عن=

تصل إلى خواتيمها. ولهذا لا ينطبق عليه حكم الطهارة^(١) ويستوجب دخول النار. والقرآن الكريم يقول: ﴿مَا نَفَذْتُ كَلِمَتُ اللَّهِ﴾^(٢).

أين يجد الإنسان نفسه عالقاً؟ وبأي شيء يفكر؟ لقد ذهبت الروايات إلى أبعد من هذا بكثير وتحدثت عن عظم ثواب من يذكر^(٣) فضيلة من فضائل^(٤) أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام، حيث إن أحداً لن يتمكن من إحصاء الثواب

=مكيدة، ولا غابا إلا عن مصيبة، وإنهما طلعا غربا فقتل قابيل هابيل، ولا يظهران إلا بخراب الدنيا؟ فقال: لا أعلم، فقال: إذا كنت لا تعلم طرق الدنيا فإني أسألك عن قريب، أخبرني ما تحت حافر فرسي الأيمن والأيسر من المنافع والمضار؟ فقال: أنا في علم الأرض أقصر مني في علم السماء. فأمر أن يحفر تحت الحافر الأيمن فخرج كنز من ذهب، ثم أمر أن يحفر تحت الحافر الأيسر فخرج أفعى فتعلق الحكيم فصاح يا مولاي الأمان، فقال: الأمان بالإيمان، فقال: لأطيلن لك الركوع والسجود، فقال: سمعت خيراً، فقال: (فقل) خيراً أسجد لله وتضرع بي إليه، ثم قال: يا سهر سقيل سوار نحن نجوم القطب، وأعلام الفلك، وإن هذا العلم لا يعلمه إلا نحن وبيت في الهند، (بحار الأنوار، ج ٣٧ ص ٣٣٧). عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لا تتجاوزوا بنا العبودية، ثم قولوا فينا ما شئتم ولن تبلغوا، وإياكم والغلو كغلو النصارى فإني بريء من الغالين»، الإحتجاج، ج ٢ ص ٢٣.

(١) وذلك في الظاهر والباطن وإنما «طهارة الإنسان بإقامة حقيقة العبودية في تمام مراتبه بتسليم ما له إلى مولاه وصرفه في إرادته... فبمقدار غفلته عن هذا المعنى وإعمال هواه تزول طهارته، ولا بد في كل مرتبة من إعمال ما تحصل به الطهارة في تلك المرتبة»، الشمس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٣٥.

(٢) (سورة لقمان، آية ٢٧). عن محمد بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «... ونحن نور الأنوار وكلمة الجبار، ونحن راية الحق التي من تبعها نجا ومن تأخر عنها هوى...»، (مشارق أنوار اليقين، ص ٧٣ - ٧٤). كلمات الله تعالى هي أعيان الحقائق كلها وكلمات الأسماء ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾.

(٣) قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى جعل لأخي علي بن أبي طالب عليه السلام فضائل لا تُحصى كثرة فمن قرأ فضيلة من فضائله مُقِرّاً بها غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ومن كتب فضيلة من فضائله لم تزل الملائكة يستغفرون له ما بقي لتلك الكتابة رسم، ومن استمع إلى فضيلة من فضائله غفر الله له الذنوب التي اكتسبها بالسمع، ومن نظر إلى كتابة من فضائله غفر الله له الذنوب التي اكتسبها بالنظر»، بحار الأنوار، ج ٢٦ ص ٢٢٩.

(٤) قال رسول الله ﷺ: «لما كانت ليلة المعراج نظرت تحت العرش أمامي، فإذا أنا=

الذي يمنحه الله تعالى لذلك الذاكر ولو تحوّل الجن والإنس إلى كتاب وأشجار العالم إلى أقلام والبحار إلى مداد^(١)، وهذا راجع إلى

=بعلّي بن أبي طالب قائماً أمامي تحت العرش يسبح الله ويقدّسه، قلت: يا جبرائيل، سبقني عليّ بن أبي طالب؟ قال: لا، لكنّي أخبرك، أعلم يا محمّد، إن الله عزّ وجلّ يكثر من الشاء والصلاة على عليّ بن أبي طالب ﷺ فوق عرشه، فاشتاق العرش إلى عليّ بن أبي طالب ﷺ، فخلق الله تعالى هذا الملك على صورة عليّ بن أبي طالب ﷺ تحت عرشه، لينظر إليه العرش فيسكن شوقه، وجعل تسبيح هذا الملك وتقديسه وتمجيده ثواباً لشيعته أهل بيتك يا محمّد، (بحار الأنوار، ج ٣٩ ص ٩٧ ح ٩؛ مناقب آل أبي طالب، ج ٢ ص ٢٣٣). وعنه ﷺ: «لو يعلم الناس متى سُمّي علياً أمير المؤمنين ما أنكروا فضله، سُمّي أمير المؤمنين وآدم ﷺ بين الروح والجسد»، (بحار الأنوار، ج ٣٦ ص ١٧٨). وعن جابر الأنصاري، قال أبو جعفر ﷺ: «يا جابر: لو يعلم الجهال متى سُمّي أمير المؤمنين عليّ لم ينكروا حقه. قال: جعلت فداك متى سُمّي؟ فقال لي: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ إلى ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (سورة الأعراف، آية ١٧٣) وأن محمداً رسولاً، وأن علياً أمير المؤمنين. قال: ثم قال لي: يا جابر، هكذا والله جاء بها محمّد ﷺ»، (بحار الأنوار، ج ٣٧ ص ٣٣٣). كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أعطيت ثلاثاً وعليّ مشاركي فيها، وأعطيت عليّ ثلاثاً ولم أشاركه فيها، فقيل له: يا رسول الله، وما هذه الثلاث التي شاركك فيها عليّ ﷺ؟ قال: لي لواء الحمد وعليّ حامله، والكوثر لي وعليّ ساقيه، ولي الجنة والنار وعليّ قسيمهما، وأما الثلاث التي أعطيتها عليّ ولم أشاركه فيها فإنه أعطي ابن عم مثلي ولم أعط مثله، وأعطيت زوجته فاطمة ولم أعط مثلها، وأعطيت ولديه الحسن والحسين ولم أعط مثلهما»، (بحار الأنوار، ج ٣٩ ص ٩٠؛ الفضائل، ص ١١٦ - ١١٧).

(١) عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن البحر مداد، والغياض أقلام، والإنس كتاب والجن حساب ما أحصوا فضائلك يا أبا الحسن»، (بحار الأنوار، ج ٤٠ ص ٧٥). وعن جابر بن عبد الله أنه قال، قال لي رسول الله ﷺ: «يا جابر، أيّ الإخوة أفضل؟ قال، قلت: البنون من الأب والأم، فقال: إنّنا معاشر الأنبياء إخوة وأنا أفضلهم، ولأحبّ الإخوة إليّ عليّ بن أبي طالب، فهو عندي أفضل من الأنبياء. فمن زعم أن الأنبياء أفضل منه فقد جعلني أقلّهم، ومن جعلني أقلّهم فقد كفر، لأنّي لم أتخذ عليّاً خاً إلّا لما علمت من فضله»، (تأويل الآيات، ص ٥٤٨؛ البرهان في تفسير القرآن، ج ٤ ص ١٤٨). وعنه ﷺ أنه قال: «ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء بعدي أفضل من عليّ وإنه إمام أمّتي وأميرها وهو وصيّ وخليفتي عليها، من اقتدى به بعدي اهتدى ومن اقتدى =

«كلمات الله»^(١). فالعالم بأسره يعجز عن تقدير عظمة مَنْ يقوم بمدحهم ويصغر أمامه، فكيف به هو^(٢)؟! وحتى المخالفين أيضاً نقلوا هذه الرواية عن الإمام الصادق عليه الصلاة والسلام. إذًا، على الإنسان أن لا ينكر أن اسم «الله» هو نور السماوات والأرض وليس الذات. ذلك النور هو نفسه الذي ضرب موسى ﷺ. والآن سأقرأ عليكم ثلاث روايات، وكلُّ منكم سيفهمها بقدر الرشد الذي يتحلى به^(٣). الأولى، ذلك النور الذي ضرب موسى ﷺ^(٤) هو نور

- =بغيره ضلّ وغوى. إني أنا النبيّ المصطفى، ما أنطقُ بفضل عليّ عن الهوى، إن هو إلا وحيّ يوحى، إليّ نزل به الروح المجتبى، عن الذي له ما في السمّوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى»، مائة منقبة لابن شاذان، المنقبة الرابعة والثلاثون؛ بحار الأنوار، ج ٣٨ ص ١٥٢ ح ١٢٥؛ كنز الفوائد، ج ٢ ص ٥.
- (١) ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَيَقْطَعَ دَائِرَ الْكَافِرِينَ﴾، (سورة الأنفال، آية ٧). عن أمير المؤمنين ﷺ أنه قال: «أنا كلمة الله الناطقة في خلقه»، (مشارك أنوار اليقين، ص ١٦٤). «وهم سلام الله عليهم كلمة التوحيد وكلمة الله العليا... ان الكلمة تتم في أربع مراتب؛ الأولى: مقام النقطة؛ وهي مقام الحقيقة المحمّدية. والثانية: مقام الألف المنبسطة من النقطة؛ وهي مقام مولانا أمير المؤمنين ﷺ. والثالثة: مقام الحروف العاليات، وهي مقام الأئمة الأحد عشر ﷺ. والرابعة: مقام الكلمة التامة، الجامعة الحاوية للمراتب كلّها، فهي اللبّ، وهي قشرها؛ وهي مقام فاطمة الصديقة الطاهرة، صلوات الله عليها وعلى أبيها وبعليها وبنيتها، ولذا قال عزّ وجلّ: ﴿حَمْدٌ * وَالْكِتَابِ الْمُمِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ * إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ (سورة الدخان، آية ١ - ٤). ف«حم»؛ هو محمد ﷺ في كتاب هود، ﴿وَالْكِتَابِ الْمُمِينِ﴾؛ هو عليّ أمير المؤمنين ﷺ، وهو انبساط المجمل وانتشار الوحدة وظهور المفصل، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾؛ أي عليّاً ﷺ، ﴿فِي لَيْلَةٍ مُبَرَكَةٍ﴾؛ وهي فاطمة الزهراء ﷺ، ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾؛ أي يمتاز كلّ إمام حكيم بعد إمام حكيم»، دُرر الأسرار، ص ١١٥ - ١١٦.
- (٢) عن أمير المؤمنين ﷺ: «جلّ مقام آل محمد ﷺ عن وصف الواصفين، ونعت الناعتين، وأن يقاس بهم أحد من العالمين»، مشارق أنوار اليقين، ص ١١٤.
- (٣) قال أبو عبد الله الصادق ﷺ: «كل يراه بحسب معرفته، وينال على مقدار طاعته، فمنهم من يراه قريباً، ومنهم من يراه بعيداً»، الهداية الكبرى، الباب ٤ ص ٢٧٧.
- (٤) إنّ نسبة حكاية موسى ﷺ عن أمير المؤمنين ﷺ حكاية الصّدا عن الصوت. والصّدا هو عبارة عن تردّد الصوت فموسى ﷺ هو بمثابة تردّد واحد لصوت أمير المؤمنين ﷺ، أي مقامه، والحرّ تكفيه الإشارة.

المولى أمير المؤمنين^(١) عليه الصلاة والسلام. الثانية، ذلك النور الذي ضرب موسى تم اعتراضه أولاً والحدّ من قوّته وإلا لتحوّل موسى إلى رفات، فقد ضرب الجبل أولاً وحوّله إلى ما يشبه الطحين لكي يتمكن موسى من تحمّله بقدر ما، وذلك النور كان نور سلمان. الثالثة، ذلك النور كان نور أحد شيعتنا^(٢). فالإنسان يصل إلى مكانٍ يقول فيه إن مثل هذا الكلام قليلٌ بحق الأئمة عليهم السلام.

تحقق الأسماء والصفات في الولي المطلق

تتحقق عبارة «يا سريع الرضا» في الولي المطلق كما هو الحال مع كل شؤون الحق وجميع أسمائه وصفاته التي تتحقق وتتعيّن في الولي^(٣). ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا صاحب الطور يوم التجلي لموسى بن عمران أنا كاشف لما خرّ موسى صعقاً، أنا ذلك النور الظاهر أنا صاحب موسى أنا صاحب المأوى أنا ذلك البرهان الباهر وإنما كشف لموسى شقصٌ من شقص الذر من المثلقال»، مشارق أنوار اليقين، ص ١٦٦.

(٢) عن أبي عبد الله سلام الله عليه قال: «إن الكروبيين قوم من شيعتنا من الخلق الأول جعلهم الله خلف العرش ولو قُسم نور واحد منهم على أهل الأرض لكفاهم، ثم قال: إن موسى لما سأل ربه ما سأل، أمر واحداً من الكروبيين فتجلى للجبل فجعله دكاً»، بصائر الدرجات، ص ٨٩.

(٣) ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (سورة يس، آية ١٢) بما في ذلك أسماء الله وصفاته لأنها شيء، ﴿وَلَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ (سورة الحجر، آية ٢١) وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «نحن ولادة أمر الله، وخزنة علم الله وعبية وحي الله»، (الكافي، ج ١ ص ١٩٢). وعن الإمام الباقر عليه السلام عن أبيه عن جدّه عليه السلام قال: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، قام أبو بكر وعمر من مجلسهما وقالوا: يا رسول الله، هو التوراة؟ قال: لا. قالوا: فهو الإنجيل؟ قال: لا. قالوا: فهو القرآن؟ قال: لا. قال: فأقبل أمير المؤمنين عليه السلام، فقال رسول الله ﷺ: هو هذا، إنه الإمام الذي أحصى الله فيه علم كل شيء»، (معاني الأخبار، ص ٩٥ ح ١). إن الإمام محيط بكل شيء وكل شيء منطوق فيه وهو المظهر الأتم للاسم الأعظم «الله» الذي هو اسم الذات، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام في ذيل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَصْفَوْنَا أَنْقَمْنَا مِنْهُمْ﴾: «إن الله لا يأسف كآسفنا، ولكنّه خلق أولياء لنفسه يأسفون ويرضون، وهم مخلوقون مدبرون»، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٨ ص ١١٨.

وَالْأَرْضَ ﴿١﴾، إن أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام، الذي يتحقق فيه التنزل الإسمي، يرحم جميع الموجودات السماوية والأرضية بنور الهداية ^(١). وإنّما يعود إشراق الشمس من المشرق وغروبها من المغرب إلى هداية أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام ^(٢). ولا يتضمّن البحث بهذه الآية مسألة أن خلقه الشمس تعود إليه أيضاً، وإلا فإن خلقتها تعود إليه ^(٣) بالفعل، ذلك أنه الخالق ^(٤)، وليس

(١) ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ (سورة الشعراء، آية ٦٢)، هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين (سورة الأنعام، آية ٧١)، ﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَى﴾ (سورة البقرة، آية ١٢٠). «يا غَفَّارُ بِنُورِكَ اهْتَدَيْنَا»، (دعاء أبي حمزة الثمالي، مفاتيح الحنان)، الله نور السماوات والأرض. ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (سورة البقرة، آية ٢٥٧)، ﴿وَيُرِيدُونَ أَن﴾ (سورة التوبة، آية ٣٢)، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (سورة المائدة، آية ١٥)، ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾ (سورة المائدة، آية ١٦)، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ (سورة المائدة، آية ٤٤)، ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ (سورة المائدة، آية ٤٦)، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ (سورة الأنعام، آية ١)، ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَأَتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (سورة الأعراف، آية ١٥٧)، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي﴾ (سورة الرعد، آية ١٦)، ﴿الرَّ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾، سورة إبراهيم، آية ١.

(٢) ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، سورة طه، آية ٥٠.

(٣) ورد في توقيع لصاحب الزمان عليه السلام: «فعلينا الإصدار كما كان منا الإيراد»، (بحار الأنوار، ج ٥٣ ص ١٧٩). كما نقرأ في الزيارة الجامعة الكبيرة: «إياب الخلق إليكم»، مفاتيح الجنان.

(٤) عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «نور الذات وهو أول الكون ومبدأ الخلق ومكوّن لكل مخلوق»، (الهداية الكبرى، الباب ٤ ص ٢٧٨). ويقول تعالى: ﴿فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، (سورة المؤمنون، آية ١٤)، و«الخالقين» جمع خالق، وأين عيسى بن مريم الذي ترنّم قائلاً، ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ﴾، من علي عليه السلام؟! الذي قال: «أنا أخلق وأرزق وأحيي وأميت»، (إلزام الناصب في إثبات الحجة الغائب، ج ٢ ص ٢١٤)، وعنه عليه السلام أنه قال: «يا سلمان ويا جندب، أنا أحيي وأميت بإذن ربي، وأنا عالم بضمائر قلوبكم والأئمة من أولادي يعلمون ويفعلون هذا إذا أحبّوا وأرادوا، لأنّا كلّنا واحد، أولنا محمّد وآخرا محمّد وأوسطنا محمّد وكلنا محمّد، فلا تفرّقوا بيننا، ونحن إذا=

الذات^(١)، فصفة الخالقية ترجع إليه كما يفعل اسم الخالق. ويصل الإنسان إلى مكان يجد فيه أن الله هو فقط لهؤلاء الأربعة عشر معصوماً^(٢)، وليس لأحد سبيل إلى حقيقة التوحيد هذه غيرهم، فهم المختصون بها.

أعرف من الناس من كان يتحدث عن التوحيد^(٣) بأظرف العبارات وألطفها ولكنهم انحرفوا^(٤) واضطربوا كما لا يضطرب حتى الكافر

= شئنا شاء الله وإذا كرهنا كره الله. الويل كل الويل لمن أنكر فضلنا وخصوصيتنا وما أعطانا الله ربنا لأن من أنكر شيئاً مما أعطانا الله فقد أنكر قدرة الله عز وجل ومشيتة فينا»، (بحار الأنوار، ج ٢٦ ص ٦ - ٧). وقال: «فإننا صنائع ربنا والخلق بعد صنائعنا»، (نهج البلاغة، رسالة ٢٨). وعن أبي حمزة الثمالي، عن علي بن الحسين عليه السلام، قال: «قلت: الأئمة يحيون الموتى ويرثون الأكهم والأبرص ويمشون على الماء؟ قال: ما أعطى الله نبياً شيئاً قط إلا وقد أعطاه محمداً عليه السلام، وأعطاه ما لم يكن عندهم. قلت: وكل ما كان عند رسول الله عليه السلام قد أعطاه أمير المؤمنين عليه السلام؟ قال نعم، ثم الحسن والحسين عليه السلام، ثم من بعد كل إمام إماماً إلى يوم القيامة، مع الزيادة التي تحدث في كل سنة وفي كل شهر. ثم قال: إي والله في كل ساعة»، بصائر الدرجات، ص ٢٠٥.

(١) الذات لا إسم لها ولا رسم في عالم الغيب والشهود.

(٢) «أشهد أن هذا سابق لكم في ما مضى وجارٍ لكم في ما بقي»، (الزيارة الجامعة الكبيرة، مفاتيح الجنان). في كلامه عن الآية الكريمة: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (سورة غافر، آية ١٦)، قال الصادق سلام الله عليه: «نحن السائلون ونحن المجيبون»، بحار الأنوار، ج ٨٧ ص ٥٣.

(٣) من كلام لآية الله السيد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «قد يأتي شخص ويدّعي أن له معرفة بالتوحيد، ولو دققت فيه لوجدته سلك طريق نفس ذاته ووجوده الخاص المقيّد. يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْهِ الْوَحْيَ فَاتَّبَعَهُ فَأَنبَأَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْفَاوِشِ﴾ (سورة الأعراف، آية ١٧٥). بلعم بن باعورة كانت له بعض الأمور الخارقة للعادة حيث كان يشابه موسى بها، وكذا السامري كان على هذا النحو حيث صبّ الحديد فصار عجلاً جسداً له خوار».

(٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ (سورة آل عمران، آية ١٥٥)، «وإن كانت لكثرة إلا على الذين هدى الله» (سورة البقرة، آية ١٤٣). «إن السبب في ذلك يرجع لغلبة إسم على إسم عليهم، وفي هذه المرتبة قد يتجلى الله على المؤمن بصفة الواحدية فلا يرى لشيء ذاتاً ولا صفة، هذا مع بقاء أناية ما لنفسه، فيقع في ورطة الوحدة الممنوعة، ويظن أن الوجود واحد والوجود واحد، وبعد الإفاقة=

=يعتقد ذلك ويتفوّه به ويقع في الإباحة والإلحاد، هذا إذا لم يكن له شيخ أو لم يرجع إلى شيخه، ولا يعد الرسل وشرائعهم حينئذ في شيء، بل ويستهزئ بهم وبها، وقد يتجلّى بصفة الصمدية عليه، فتظهر الأنانية منه والاستغناء عن كل شيء حتى عن الله عزّ وجل. وهكذا ففي هذه المرتبة والمرتبة السابقة ورطات مهلكة وعقبات موبقة، إن لم يكن المؤمن في تربية شيخ، أو لم يرجع إليه واستغنى عنه أعاذنا الله وجميع المؤمنين منها، وفي هاتين المرتبتين، يظهر جميع ما يظهر من السلأك من الشطحات الممنوعة، وأكثر المغالين نشأ غلوهم من هاتين المرتبتين وأكثر المتشيخة المغرورين من هاتين استدرجوا وهلكوا من حيث ظنوا بأنهم وصلوا واستغنوا عن الشيخ المكمل، والحال أنهم في هذه الأحوال أشد احتياجاً منهم إلى الشيخ في غير هذه الأحوال، وبالجملة فإنّ مهالك مراتب التوحيد الفعلّي والوصفيّ إلى حين الخروج إلى التوحيد الذاتي أكثر من سائر المراتب ومن أن يحيط بها البيان، ويحصيها تحرير الأقلام»، (تفسير بيان السعادة، ص ٤٥). عن المفضل بن عمر أنه كتب إلى أبي عبد الله عليه السلام كتاباً فجاءه جواب أبي عبد الله عليه السلام بهذا: «أما بعد، فإنني أوصيك بتقوى الله وطاعته، فإن من التقوى الطاعة والورع والتواضع لله والطمأنينة، والاجتهاد له، والأخذ بأمره، والنصيحة لرسله، والمسارة في مرضاته، واجتناب ما نهى عنه فإنه من يتق الله فقد أحرز نفسه من النار بإذن الله، وأصاب الخير كله في الدنيا والآخرة، فإنه من أمر بالتقوى فقد أبلغ في الموعظة، جعلنا الله وإياكم من المتقين برحمته. جاءني كتابك فقرأته وفهمت الذي فيه، وحمدت الله على سلامتك وعافية الله إياك، ألبسنا الله وإياك عافيته في الدنيا والآخرة. كتبت تذكر أن قوماً أنا أعرفهم كان أعجبك نحوهم وشأنهم، وأنت أبلغت عنهم أموراً زائدة عليهم كرهتها لهم، ولم تر منهم هدياً ولا حسناً وورعاً وتخشعاً. وبلغك أنهم يزعمون أن الدين إنما هو معرفة الرجال، ثم من بعد ذلك إذا عرفتهم فاعمل ما شئت، وذكرت أنك قد قلت: أصل الدين معرفة الرجال وفقك الله. وذكرت أنه قد بلغك أنهم يزعمون أن الصلاة والزكاة وصوم شهر رمضان والحج والعمرة والمسجد الحرام والشهر الحرام رجال، وأن الطهر والاعتسال من الجنابة هو رجل، وكل فريضة افترضها الله عز وجل على عباده فهي رجال. وأنهم ذكروا لك بزعمهم أن من عرف ذلك الرجل فقد اكتفى بعلمه من غير عمل، وقد صلى وآتى الزكاة وصام وحج واعتمر، واغتسل من الجنابة وتطهر، وعظم حرّات الله والشهر الحرام والمسجد الحرام والبيت الحرام. وأنهم ذكروا أن من عرف هذا بعينه وبحدّه وثبت في قلبه جاز له أن يتهاون بالعمل، وليس عليه أن يجتهد في العمل، يزعمون أنه إذا عرفوا ذلك الرجل فقد قبلت منهم هذه الحدود لوقتها وإن لم يعملوا بها. وأنه بلغك أنهم يزعمون أن الفواحش التي نهى الله عنها من الخمر والميسر والميتة والدم ولحم الخنزير هم رجال، وذكروا إنما حرم الله =

= عز وجل من نكاح الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت، وما حرم الله على المؤمنين من النساء، إنما عني بذلك نساء النبي ﷺ، وما سوى ذلك فمباح. وذكرت أنه بلغك أنهم يترادفون المرأة الواحدة، ويتشاهدون بعضهم لبعض، ويزعمون أن لهذا بطناً وظهراً يعرفونه فالظاهر ما يتناهون عنه يأخذون به مدافعة عنهم، والباطن هو الذي يطلبون وبه أمروا بزعمهم. وكنت تذكر الذي عظم عليك من ذلك حين بلغك، فكتبت تسألني عن قولهم في ذلك، أحلال هو أم حرام؟ وكتبت تسألني عن تفسير ذلك، وأنا أبيّته لك حتى لا تكون من ذلك في عمى ولا شبهة تدخل عليك. وقد كتبت إليك في كتابي هذا تفسير ما سألت عنه فاحفظه الحفاظ كله وعه، كما قال الله تعالى: ﴿وَعَبَّأْ أُذُنٌ وَعِيَّةٌ﴾ وأنا أصفه لك بحله وأنفي عنك حرامه - إن شاء الله - كما وصفت لك، وأعرفكه حتى تعرفه - إن شاء الله تعالى - ولا تنكره، ولا قوة إلا بالله، والقوة والعزة لله جميعاً. أخبرك أنه من كان يؤمن ويدين بهذه الصفة التي سألتني عنها فهو مشرك بالله بين الشرك، لا يسع أحداً الشك فيه، وأخبرك أن هذا القول كان من قوم سمعوا ما لم يعقلوه عن أهله، ولم يعطوا فهم ذلك، ولم يعرفوا حدود ما سمعوا، فوضعوا حدود تلك الأشياء مقايسة برأيهم ومقتضى عقولهم، ولم يضعوها على حدود ما أمروا، كذباً وافتراء على الله وعلى رسوله ﷺ، وجراً على المعاصي، فكفى بهذا جهلاً لهم، ولو أنهم وضعوها على حدودها التي حدّت لهم وقبلوها لم يكن به بأس، ولكن حرفوها وتعدوا الحق، وكذبوا فيها وتهاونوا بأمر الله وطاعته. ولكن أخبرك أن الله عز وجل حدّها بحدودها لثلاث يتعدى حدود الله أحد، ولو كان الأمر كما ذكروا لعذر الناس بجهل ما لم يعرفوا حد ما حد لهم فيه، ولكان المقصر والمتعدي حدود الله معذوراً إذا لم يعرفها، ولكن جعلها الله حدوداً محدودة لا يتعداها إلا مشرك كافر، قال الله عز وجل: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. فأخبرك حقاً يقيناً أن الله تبارك وتعالى اختار لنفسه الإسلام ديناً ورضيه لخلقه، فلم يقبل من أحد عملاً إلا به، وبه بعث أنبياءه ورسله، ثم قال: ﴿وَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ نَزْلًا﴾ فعلية وبه بعث أنبياءه ورسله ونبيه محمداً ﷺ، فأصل الدين معرفة الرسل وولايتهم، وأن الله عز وجل أحل حلالاً وحرم حراماً فجعل حلاله حلالاً إلى يوم القيامة، وجعل حرامه حراماً إلى يوم القيامة. فمعرفة الرسل وولايتهم وطاعتهم هي الحلال، فالمحلل ما حللوا، والمحرم ما حرّموا، وهم أصله ومنهم الفروع الحلال، وحج البيت والعمرة، وتعظيمهم حرّمات الله وشعائره ومشاعره، وتعظيم البيت الحرام والمسجد الحرام والشهر الحرام، والطهر والاغتسال من الجنابة ومكارم الأخلاق ومحاسنها وجميع البر، وذكر ذلك في كتابه، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. وعدوهم هم الحرام المحرم، وأولياؤهم هم الداخلون في=

المطلق^(١). ولكِنِّي أقول لكم التالي: إذا استطاع المرء الانضمام إلى أحد محبي^(٢) أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام، فإنه بذلك يتمكن من الانضمام

=أمرهم إلى يوم القيامة، وهم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والخمر والميسر والزنا والربا والميتة والدم ولحم الخنزير هي الحرام والمحرم وأصل كل حرام، وهم الشر وأصل كل شر، ومنهم فروع الشر كله، ومن تلك الفروع استحلالهم الحرام وإتيانهم إياه، ومن فروعهم تكذيب الأنبياء وجحود الأوصياء، وركوب الفواحش من الزنا والسرقة، وشرب الخمر والمسكر، وأكل مال اليتيم وأكل الربا، والخديعة والخيانة، وركوب المحارم كلها، وانتهاك المعاصي. وإنما أمر الله بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى - يعني مودة ذي القربى واتباع طاعتهم - وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، وهم أعداء الأنبياء وأوصياء الأنبياء، وهم المنهي عنهم وعن مودتهم وطاعتهم، يعظكم بهذا لعلكم تذكرون. وأخبركم أنني لو قلت لكم: إن الفاحشة والخمر والزنا والميتة والدم ولحم الخنزير هو رجل، وأنا أعلم أن الله عز وجل قد حرم هذا الأصل وحرم فروعوه ونهى عنه، وجعل ولايته كمن عبد من دون الله وثنا وشركاء، ومن دعا إلى عبادة نفسه كفرعون إذ قال: أنا ربكم الأعلى، فهذا كله إن شئت قلت هو رجل، وهو إلى جهنم وكل من شايعه على ذلك، فإنهم مثل قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾ لصدقت، ثم أنني لو قلت: إنه فلان، وهو ذلك كله، لصدقت أن فلاناً هو المعبود من دون الله، والمتعدي لحدود الله التي نهى عنها أن تتعدى. ثم أخبرك أن أصل الدين هو رجل، وذلك الرجل هو اليقين، وهو الإيمان، وهو إمام أهل زمانه، فمن عرفه عرف الله ودينه وشرائعه، ومن أنكره أنكر الله ودينه، ومن جهله جهل الله ودينه وشرائعه، ولا يعرف الله ودينه بغير ذلك الإمام، كذلك جرى بأن معرفة الرجال دين الله...»، مختصر بصائر الدرجات، ص ٧٨.

(١) ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (سورة الكهف، آية ١٠٣ - ١٠٤)، ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ (سورة الأنعام، آية ١٠٨). يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ الكافر هو كلّ من يضع حجاباً وراء حقيقة مكشوفة وينكرها، ومن هنا كلّ إنكار لفضائل أهل البيت (عليه السلام) هو الكفر، لأنّ فضائلهم صلوات الله عليهم من الحقائق الواضحة التي لا يمكن الشكّ فيها».

(٢) ورد عن الإمام الرضا (عليه السلام) أنه قال: «كُنْ مُحِبًّا لآلِ مُحَمَّدٍ وَإِنْ كُنْتَ فَاسِقًا وَمُحِبًّا لِمُحِبِّيهِمْ وَإِنْ كَانُوا فَاسِقِينَ»، (القطرة، ج ١ ص ٢٣٥ ح ٩). قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لأصحابه ذات يوم: «يا عبد الله أحبّ في الله وأبغض في الله ووال في الله وعاد في الله فإنك لا تنال ولاية الله إلا بذلك ولا يجد رجل طعم الإيمان وإن كثرت صلواته=

إلى الحق، وعندها تصبح جميع الخاصيات المتعلقة بشؤون التوحيد متاحة له. فإذا عثر على محبٍّ لأمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام ووضع وجهه تحت قدميه وأحبّه لدرجة أن يُحيل نفسه تراباً تحت نعليه^(١)، فمن غير المعلوم مدى

=وصيامه، حتى يكون كذلك وقد صارت مؤاخاة الناس يومكم هذا أكثرها في الدنيا عليها يتواذون وعليها يتباغضون، وذلك لا يغني عنهم من الله شيئاً. فقال له: وكيف لي أن أعلم أنني قد واليت وعاديت في الله عز وجل، ومن ولي الله عز وجل حتى أواليه، ومن عدوّه حتى أعاديه؟ فأشار له رسول الله ﷺ إلى عليّ عليه السلام فقال: أترى هذا؟ فقال: بلى، فقال ﷺ: وليّ هذا وليّ الله، فواله، وعدوّ هذا عدوّ الله فعاده. قال: والي وليّ هذا ولو أنه قاتل أبيك وولدتك، وعاد عدوّ هذا ولو أنه أبوك أو ولدك، (بحار الأنوار، ج ٢٧ ص ٥٤ - ٥٥ ح ٨). وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «يا حبيش، من سرّه أن يعلم أمحبّ لنا أم مبغض، فليمتحن قلبه، فإن كان يحبّ ولياً لنا فليس بمبغض لنا. وإن كان يبغض ولياً لنا فليس بمحبّ لنا، إن الله تعالى أخذ الميثاق لمحبينا بمودتنا، وكتب في الذكر اسم مبغضنا. نحن النجباء وأفراطنا أفراط الأنبياء»، (بحار الأنوار، ج ٢٧، ص ٥٣ ح ٦).

(١) قال رسول الله ﷺ لعليّ عليه السلام: «أرضيت أن أطلب فلا أوجَد وتوجد، فلعلّه أن يبادر إليك الجهال فيقتلوك؟ قال: بلى يا رسول الله، رضيت أن تكون روحي لروحك وقاءً ونفسي لنفسك فداء، بل [قد] رضيت أن تكون روحي ونفسي فداءً لأخ لك أو قريب أو لبعض الحيوانات تمتنهنها، وهل أحبّ الحياة إلا لخدمتك، والتصرّف بين أمرك ونهيك، ولمحبّة أوليائك، ونصرة أصفياك، ومجاهدة أعدائك؟ لولا ذلك لما أحببت أن أعيش في هذه الدنيا ساعة واحدة... ثم قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: أرضيت أن تكون معي يا أبا بكر تُطلب كما أطلب، وتعرف بأنك أنت الذي تحملني على ما أدّعه، فتحمل عني أنواع العذاب؟ قال أبو بكر: يا رسول الله، أما أنا لو عشتُ عمر الدنيا أُعذب في جميعها أشدّ عذاب لا ينزل عليّ موت مريح، ولا فرج متيح، وكان ذلك في محبتك، لكان ذلك أحبّ إليّ من أن أتنعم فيها وأنا مالك لجميع ممالك ملوكها في مخالفتك، ما أهلي ومالي وولدي إلا فداؤك. فقال رسول الله ﷺ: لا جرم إن أطلع الله على قلبك ووجد ما فيه موافقاً لما جرى على لسانك، جعلك مني بمنزلة السمع والبصر والرأس من الجسد وبمنزلة الروح من البدن كعليّ الذي هو متي كذلك، وعليّ فوق ذلك لزيادة فضائله وشريف خصاله. يا أبا بكر، إن من عاهد الله ثم لم ينكث، ولم يغيّر، ولم يبدل، ولم يحسد من قد أبانه الله بالفضل فهو معنا في الرفيق الأعلى، وإذا أنت مضيت على طريقة يحبها منك ربك، ولم تتبعها بما يسخطه، ووافيته بها إذا بعثك بين يديه، كنت لولاية الله مستحقاً، ولمرافقتنا في تلك الجنان مستوجباً، أنظر أبا بكر. فنظر في آفاق=

العظمة التي سيفوز بها^(١)، الله وحده يعلم.

الهادي هو أمير المؤمنين عليه السلام

لقد حوّل رسول الله ﷺ الهداية إلى هذه الذات، ولتلتفتوا جيداً إلى هذه الآية الآن: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٢)، هنا أيضاً الكلام عن الإسم لا عن الذات. فالله نور السماوات والأرض، هو نفسه الله الذي ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ في المظهرية. أقولها بصراحة شديدة ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني «ولكن علياً يهدي من يشاء»^(٣). فحيثية النبوة^(٤) تعود

=السماء، فرأى أملاكاً من نار على أفراس من نار، بأيديهم رماح من نار، كلٌّ ينادي: يا محمد، مُرْنَا بِأَمْرِكَ فِي [أَعْدَائِكَ وَ] مَخَالْفِكَ نَطْحُطِحْهُمْ. ثم قال: تَسْمَعُ إِلَى الْأَرْضِ. فتسمع فإذا هي تنادي: يا محمد، مُرْنِي بِأَمْرِكَ فِي أَعْدَائِكَ أُمْتَثِلْ أَمْرَكَ. ثم قال: تَسْمَعُ إِلَى الْجِبَالِ. فتسمعها تنادي: يا محمد، مُرْنَا بِأَمْرِكَ فِي أَعْدَائِكَ نُهْلِكُكُمْ. ثم قال: تَسْمَعُ عَلَى الْبَحَارِ، فَأَحْضَرَتِ الْبَحَارُ بِحَضْرَتِهِ، وَصَاخَتْ أَمْوَاجُهَا تَنَادِي: يَا مُحَمَّدَ، مُرْنَا بِأَمْرِكَ فِي أَعْدَائِكَ نَمْتَلِئُ...»، مدينة المعاجز، ج ١ ص ٤٥٦ - ٤٥٧ - ٤٥٨.

(١) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «كلّ من يحبّه الإنسان من الموالين ويتعلّق قلبه به، فهي محبّتهم وهذا هو التوحيد، وهو التوحيد مع المبدأ عن طريق مظاهر وأسماء وصفات الحق تعالى».

(٢) سورة القصص، آية ٥٦.

(٣) تعيناً، عن ابن عباس قال: «ما حسدتُ علياً عليه السلام بشيءٍ ممّا سبق من سوابقه بأفضل من شيء سمعته من رسول الله ﷺ وهو يقول: يا معاشر قريش أنتم كفرتم فرأيتموني في كتيبة أضرب بها وجوهكم، فأتى جبرئيل عليه السلام فغمزه وقال: يا محمد، قل إن شاء الله أو علي بن أبي طالب، فقال محمد: إن شاء الله أو علي بن أبي طالب»، (بحار الأنوار، ج ٢٩ ص ٤٦١؛ عن كتاب الروضة، ص ١٤٠؛ أمالي المفيد، ص ١١٣). عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ فقال: «رسول الله المنذر وعليّ الهادي، أما والله ما ذهبت بنا وما زالت فينا إلى الساعة»، (بحار الأنوار، ج ٣٥ ص ٤٠١). وعن أبي عبد الله عليه السلام، قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يعني أمير المؤمنين صلوات الله عليه، (البرهان في تفسير القرآن، ج ١ ص ١١٦). ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، سورة الأنعام، آية ١٥٣.

(٤) «نبوة وإمامة، وفي الإمامة وقع الاختلاف، وإليه الإشارة بقوله: «ما اختلفوا في الله»

لرسول الله ﷺ أما الهداية فتعود لأمر المؤمنين عليه الصلاة والسلام، ولأن مشيئتهما لا تنفصلان عن بعضهما البعض، فهما عندما يشاءان تنبع هذه المشيئة من كليهما معاً^(١).

=ولا في وإنما اختلفوا فيك يا عليّ»، فالإسلام والإيمان نعمتان مشكورة ومكفورة ظاهر وباطن، فالاختلاف وقع في الإمامة، فالعدو عن ظاهر أنوارها مُعرض، والولي عن خفي أسرارها مُتقاصر، فأعداؤه بفضلُه يُكذِّبون، وأولياؤه لأسراره يُنكرون، والعارفون به لسفن النجاة راكبون، وأهل التوفيق والتحقيق لرقيق حبه ينتهلون، سكارى وهم صاحون»، مشارق أنوار اليقين، ص ٣١٣.

(١) قال أبو الحسن ﷺ: «إن الله إرادتين ومشيتين: إرادة حتم وإرادة عزم، ينهى وهو يشاء ويأمر وهو لا يشاء، أو ما رأيت أنه نهى آدم وزوجته أن يأكلا من الشجرة وشاء ذلك ولو لم يشأ أن يأكلا لما غلبت مشيئتهما مشيئة الله تعالى، وأمر إبراهيم أن يذبح إسحاق ولم يشأ أن يذبحه ولو شاء لما غلبت مشيئة إبراهيم مشيئة الله تعالى»، (الكافي، ج ١ ص ١٥١). وكذلك لم يُرد للحسين ﷺ أن يُقتل وتُسبى نساؤه ولكنه شاء ذلك: «إن الله شاء أن يراك قتيلاً... قد شاء الله أن يراهن سبايا»، (اللهوف على قتلى الطفوف، ص ٢٧). سئل أمير المؤمنين صلوات الله عليه عن مشيئة الله وإرادته، فقال ﷺ: «إن الله مشيتين: مشيئة حتم، ومشية عزم، وكذلك إن الله إرادتين: إرادة حتم، وإرادة عزم، إرادة حتم لا تخطئ، وإرادة عزم تخطئ وتصيب، وله مشيتان: مشية يشاء، ومشية لا يشاء؛ ينهى وهو يشاء، ويأمر وهو لا يشاء، معناه أراد من العباد وشاء ولم يرد المعصية وشاء، وكل شيء بقضائه وقدره، والأمور تجري ما بينهما...»، (بحار الأنوار، ج ٥ ص ١٢٣). كما قال الإمام علي بن موسى الرضا عليهما السلام: «المشيئة والإرادة من صفات الأفعال»، (الكافي، ج ١ ص ١٠٩ ح ٢). وعن أبي عبد الله ﷺ قال: «خلق الله المشيئة بنفسها ثم خلق الأشياء بالمشيئة»، (الكافي، ج ١ ص ١١٠ ح ٤). وعن الرضا ﷺ: «يا يونس، تعلم ما المشيئة؟... هي الذكر الأول»، (الكافي، ج ١ ص ١٥٨ ح ٤). وعن الإمام الصادق ﷺ: «... فلما شاء من غير فكر ولا وهم إظهار المشيئة وخلق المشيئة للشيء وهما الميم والشين... يا مفضل، وسألت عن المشيئة كيف أبدأها منشيها، فافهم ما أنا ذاكره لك يا مفضل، فقد سألت عن أمر عظيم إن مولاك القديم الأزل تعالى ذكره يبدى مشيئته لم يزل لها عالماً، وكانت تلك إرادة من غير همة ولا حدوث فكرة ولا انتقال من سكون إلى حركة ولا حركة إلى سكون؛ لأن القدرة طباعه وذلك أنه يظهر المشيئة التي هي اسمه ودلّ بها إلى ذاته لا حاجة منه إليه ولا غيب به...»، (الهداية الكبرى، الباب ٤ ص ٢٧٦). وعن القائم ﷺ في حديث يقول لكامل بن إبراهيم المدني: «وجئت تسأل=

أمير المؤمنين ﷺ هو حقيقة الاسم

من هو أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام؟ أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام هو حقيقة «اسم الله»، هو ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فتلك الذات تمضي مع ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي أنها تجري في الإسمية وفي اللانهاية. فأمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام هو المظهر التام لـ ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾^(١).

=من مقالة المفوضة، كذبوا، بل قلوبنا أوعية لمشية الله عز وجل فإذا شاء شئنا، والله يقول: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، (بحار الأنوار، ج ٩ ص ٣٢١). كما ورد في الدعاء: «وَمَضَتْ عَلَى إِرَادَتِكَ الْأَشْيَاءُ، فَهِيَ بِمَشِيَّتِكَ دُونَ قَوْلِكَ مُؤْتَمِرَةٌ، وَإِرَادَتِكَ دُونَ نَهْيِكَ مُنْزَجِرَةٌ»، (دعاء الأمن، مفاتيح الجنان). «إِلَهِي حُكْمُكَ النَّافِذُ وَمَشِيَّتُكَ الْقَاهِرَةُ لَمْ يَتْرُكَ لِي مَقَالٍ مَقَالًا وَلَا لِي حَالٍ حَالًا»، دعاء الإمام الحسين ﷺ يوم عرفة، مفاتيح الجنان.

(١) (سورة الحديد، آية ٣). عن ابن أبي يعفور قال: سألت أبا عبد الله ﷺ عن قول الله عز وجل ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ وقلت: أما الأول فقد عرفناه، وأما الآخر فبين لنا تفسيره. فقال: «إنه ليس شيء إلا يبيد أو يتغير، أو يدخله التغير والزوال، أو ينتقل من لون إلى لون، ومن هيئة إلى هيئة، ومن صفة إلى صفة، ومن زيادة إلى نقصان، ومن نقصان إلى زيادة إلا رب العالمين، فإنه لم يزل ولا يزال بحالة واحدة، هو الأول قبل كل شيء، وهو الآخر على ما لم يزل، ولا تختلف عليه الصفات والأسماء كما تختلف على غيره، مثل الإنسان الذي يكون تراباً مرة، ومرة لحماً ودماً، ومرة رفاتاً، ورميماً، وكالبُسر الذي يكون مرة بلحاً، ومرة بُسراً، ومرة رطباً، ومرة تمرأ. فتبدل عليه الأسماء والصفات والله جلّ وعزّ بخلاف ذلك»، (أصول الكافي، ص ١٦٧). وعن ميمون البان قال: سمعت أبا عبد الله ﷺ وقد سُئِلَ عن «الأول والآخر» فقال: «الأول لا عن أول قبله، ولا عن بدء سبقه، والآخر لا عن نهاية كما يعقل من صفة المخلوقين، ولكن قديم، أول، آخر، لم يزل ولا يزول، لا بدء ولا نهاية، لا يقع عليه الحدوث ولا يحول من حال إلى حال، خالق كل شيء»، (أصول الكافي، ص ١٦٧ - ١٦٨). ورد في زيارة آل ياسين: (أنتم الأول والآخر). وبالإسناد إلى الإمام الباقر في حديث طويل: «فلما صلى رسول الله ﷺ الفجر وأمير المؤمنين معه في الصلاة أقبل عليه وقال: قم يا أبا الحسن إلى ما أمرك الله به ورسوله فأت البقيع حتى تقول للشمس ما قلت لك، وأسّر إليه سرّاً كان فيه الدعوات التي علمه إياها. فخرج أمير المؤمنين ﷺ يسعى إلى البقيع حتى بزغت الشمس فهَمَّهمَ بذلك الدعاء همهمة لم يعرفوها، وقالوا هذه الهمهمة ما =

الحديث عن النور، إذ لا يمكن إيجاده هو، ولا يمكن رؤية تلك الحقيقة، ما لم يكن هناك مظهر لها. وما إن يتجلى ذلك المظهر، حتى يصبح هو نفسه مؤثراً في عالم الخلق، بل يكفي أن يرشح من وجوده أثر معين حتى يتخذ دور المخرج في هذا العالم. وهذا لا يكون أيّاً كان، إنما هو مَنْ فَنِيَّ في الذات حتى أصبح مساره واحداً مع تلك الحقيقة.

اسم الله هو ولي المؤمنين

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ أَطْلَعُوهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١). هذه الآية هي جزء من آية الكرسي.

«الله» هنا هو نفسه «الله» نور السماوات والأرض، ما يعني أن الاسم مَنْ تجلّى وليس الذات، وقد سبق وبينّا المسألة سابقاً، فذات الحق لا يمكن أن تكون نوراً، وإلا وقعنا في إشكال التجسّم. ثمّة تجلٍّ إسميٍّ في آية النور والإسم، أي صاحب الولاية الكلية والمطلقة، هو نور السماوات والأرض. وهذا المعنى نفسه موجود في آية ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾. ولو لم يكن «الله» وليّاً، لمّا كانت الذات المقدسة لأمر المؤمنين عليه الصلاة والسلام «وليّ الله» الأعظم. فذلك الإسم هو وليّ الذين آمنوا ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^(٢). هذا

=علمه محمد من سحره وقال للشمس: السلام عليك يا خلق الله الجديد، فأنطقها الله بلسان عربي مبين وقالت: السلام عليك يا أخا رسول الله ووصيه أشهد أنك الأول والآخر والظاهر والباطن وأنت عبد الله وأخو رسوله حقاً»، (بحار الأنوار، ج ٣٥ ص ٢٧٦ - ٢٨٠؛ إرشاد القلوب، ج ٢ ص ٢٦٩). من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي: «الحقّ تعالى منزّه عن حدّ الأوليّة والآخريّة، ومنزّه عن الابتداء المشار إليه (بمن)، ومنزّه عن الانتهاء المشار إليه (إلى)، فهو الأوّل من دون آخر وانتهاء، وهو الآخر بدون أوّل وابتداء»

(١) سورة البقرة، آية ٢٥٧.

(٢) يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (سورة البقرة، آية=

(٢٥٧=)، وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «ولاية علي بن أبي طالب ولاية الله وحبّه عبادة الله...»، (أمالي الصدوق، ص ٨٥)، فالله ليس ولياً إلا للذين والوا علياً وأقروا بولايته، والذين آمنوا هم من أحبّوا علياً حيث ورد في الرواية: «يا عليّ حبك تقوى وإيمان» (بحار الأنوار، ج ٣٩ ص ٢٦٣)، أي بمجرد أن يقرّ الإنسان بولاية عليّ ﷺ يكون الله وليّه فيخرجه من الظلمات إلى النور. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ (سورة البقرة، آية ٢٥٧)، والكفر هنا نقيض الإيمان المذكور آنفاً، أي أنه كفرٌ بحبّ وولاية عليّ بن أبي طالب ﷺ. فحين يتردّد الإنسان أو يشكّ أو يرتاب أو يتتبع أو يتذبذب في أيّ شأن من شؤون الولاية يصبح الجبت والطاغوت، أي الأول والثاني، وليّه والمتصرّفين به، شاء ذلك أم أبى وعلم أم لم يعلم، ويدخل مباشرة في ولايتهما، بحسب نسبة تردّده وتذبذبه وشكّه وارتياحه وتعتعه وحيصه. وبذلك، يدخل في الظلمة المتعيّنة فيهما. وبالتالي، فإن الإنسان هو الذي يوجد الظلمة ويستدعيها إلى وجوده ويجذبها إليه. وهذه الظلمة التي ظهرت في العالم تعود إليهما فهما أصلها وأولها وآخرها، وفي الإنسان كان ظهور هذه الظلمة في النفس التي صارت أمارّة بالسوء إلا ما رحم ربي، حيث يقول أهل العرفان إنّ أم الأصنام صنم النفس ومن هنا كان تشديد أهل البيت ﷺ على التخلص من هذه النفس وقتلها لأنها أعدى عدوّ الإنسان، إذ قالوا: «اقتلوا أنفسكم فإنها لا تدرك مقاماتها إلا بالقهر»، (بحار الأنوار، ج ٦٠ ص ٢٩٤). وثمّة طريقان ليتمكّن الإنسان من دحر الظلمة وطردها من باطنه وهما البكاء واللعن. فالبكاء في الحقيقة هو تعبيرٌ عن انكسار القلب وحزنه وحبّه، وبه يصل الباكي إلى أن يسكن الله في قلبه، «أنا عند المنكسرة قلوبهم»، (منية المريد، ص ١٢٣)، وبالتالي يتحقّق بالعبودية التي هي الغاية من الخلق. ومن أجل ذلك حثنا أئمّتنا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين على البكاء، ومن الروايات الواردة في هذا الشأن: «ما بكى أحدٌ رحمةً لنا ولما لقينا إلا رحمه الله قبل أن تخرج الدمعة من عينه، فإذا سالت دموعه على خدّه فلو أن قطرة من دموعه سقطت في جهنّم لأطفأت حرّها حتى لا يوجد لها حرٌّ»، (وسائل الشيعة، ص ٥٠٨)، «من بكى أو أبكى أو تباكى على الحسين وجبت له الجنة»، (أمالي الصدوق، ص ١٢٥)، «لكل شيء ثواب إلا الدمعة فينا»، (نجاة الأمة، ص ٣٨)، وغيرها الكثير من الروايات. فالبكاء يفتح القلب لمحبة العترة الطاهرة فيُحليه ليرتبط بالله عز وجل ويحلّق إليه. والبكاء يوجد في القلب الرقة واللطف والشفقة والرحمة والمجبة والعشق. ولعله من اللطائف القرآنية التي تبين أن في البكاء حياة للقلب قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ هُمْ أَهْلُ أُمَمٍ وَأَحْيَا﴾ (سورة النجم، آية ٤٣ - ٤٤)، إذ يُلاحظ أن الضحك يأتي في مقابل الموت، بينما يأتي البكاء مقابل الحياة، وقبل أن يُبكي الله الإنسان يُضحكه، فيُحييه بعد موته وذلك لا يكون إلا بجعل النور فيه، ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا

النور يهدي إلى الولاية، بل النور نفسه هو الولاية. ومعنى ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أنه يخرجهم من الفضاء المظلم لعالم الجسد والأنا والحسد والكبر^(١) والغرور والغطرسة، التي تمثل الظلمات، إلى وادي النور الذي هو الولاية ويضعهم هناك ليمضوا فيه^(٢). والنتيجة التي حصلنا عليها من هذه الآية في ما

فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ (سورة الأنعام، آية ١٢٢)، والنور هو الإمام، (الكافي، ج ١ ص ١٩٦ ح ٦)، فمن دون نور أهل البيت ﷺ يكون الإنسان ميتاً ولكن حين يُقذف فيه نورهم، يصبح حياً بحياتهم. وإذا كان البكاء، بشكل عام، يورث الرقة والرحمة واللفظ والحياة للقلب، فكيف إذا بالبكاء على السيدة فاطمة وأولادها خصوصاً سيّد الشهداء ﷺ! والذي يحطّ الذنوب العظام التي تتأتى من الجهل والظلمة، فعن الإمام الرضا ﷺ: «فعلى مثل الحسين فليبك الباكون، فإنّ البكاء يحطّ الذنوب العظام»، (أمالى الصدوق، ص ١٩٠). ومعنى ذلك أن البكاء عندما يحطّ الذنوب يرفع عن صاحبه الجهل والظلمة ويُنقيهما، فيستكمل عند ذلك الإيمان، إذ يقول الإمام الصادق ﷺ: «إن الموالى: لا يخلو من أن يكون فيه بعض هذه الجنود حتى يستكمل، ويُنقى من جنود الجهل، فعند ذلك يكون في الدرجة العليا مع الأنبياء والأوصياء» (الكافي، ج ١ ص ٢٠ - ٢٣). والبكاء لا يُنقى من الجهل فقط بل إنه أيضاً يطفى حُرّ جهنّم ويوجب الجنة، وبالتالي فإنّ البكاء على آل الله يُدخل صاحبه تلقائياً في النور، ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (سورة البقرة، آية ٢٥٧). «فديننا هو دين البكاء وذرف الدموع» (كربلاء الشهود، ملحق ص ٢٦٧). أما في ما يخصّ اللعن، فلعن أعداء الله وأهل البيت يطهر الموالى من تجلياتهم وتعيّناتهم وتشخصاتهم ويطردهم من وجوده ويدراً عنه آثار حبه الممتثلة بتغذية نفسه والإنية والأناية لديه. ويقول آية الله السيد أحمد النجفي دام ظلّه في هذا الشأن: «إن المغزى من اللعن أن تبتعد عن اللاعن كل الشرور المتأتية من الظلمة، فاللعن هو طرد الظلمة ومسببها لذا لا بدّ منه. كما أن اللعن سمة من سمات المؤمن، فكل لاعن مؤمن ولكن ليس كل مؤمن لاعن. وفي زيارة عاشوراء، يتجلى فعلاً الصلاة واللعن اللذان يؤديهما الله والمؤمنون، فالصلاة ترفع الحجب واللعن يطرد الظلمة وقد يصل بالمؤمن إلى درجة العصمة الإمكانية ويضمن عدم سيره في أيّ طريق مضادّ للولاية».

(١) من كلام لأمير المؤمنين ﷺ: «أفتدرون الاستكبار ما هو؟ هو ترك الطاعة لمن أمروا بطاعته، والترفع على من نذبوا إلى متابعتهم»، تفسير نور الثقلين، ج ٢ ص ٥٣٣.

(٢) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ مجرى التوحيد الذي يرد فيه السالك يسلب منه كلّ الإنبيات والخصوصيات الذاتية والشخصية، وكلّ ما هو مانع =

يرتبط بآيتنا السابقة هي أن مُخرج المؤمنين ومستخرجهم من عالم الظلمات والعتمة إلى عالم النور هو الله. وليس «الله» الذات، إنما «الله» في الظهور الإسمي الذي هو الولي المطلق^(١).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾، لهؤلاء ولي أيضاً. ولذا، يأتي أئمة الكفر، في القرآن، مقابل أئمة الهدى والحق^(٢). وأئمة الكفر، بحسب القرآن، هم أدلاء أيضاً، إذ يقودون مسير بعض الناس ويوجهونهم في حركتهم^(٣). وعليه، ثمة نوعان من الأولياء: أولياء الطاغوت وأولياء الله. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا

= وحجاب دون عبور هذا المجرى لا بد أن يُوضع جانباً؛ إن وضع هذا الحجاب تارة يكون باختيار الإنسان وإرادته حيث يؤمر السالك بأن يخرق هذا الحجاب، وأخرى يكون بالناية المحضة حيث تسلب النفس منه والذات.

(١) فلا تجلي ولا ظهور للذات بلا حجاب الأسماء والصفات الذي هو محمد وآل محمد، إذ أن «محمد وعليّ حجاب الحضرة الإلهية ونوابها وخزان أسرار الربوبية وبابها. أما الحجاب فلأنهم اسم الله الأعظم والكلمة التي تجلي فيها الرب لسائر العالم لأن بالكلمة تجلي الصانع للعقول، وبها احتجب عن العيون، سبحانه من تجلي لخلقه بخلقه حتى عرفوه، ودل بأفعاله على صفاته حتى وحدوه، ودل بصفاته على ذاته حتى عبدوه»، (مشارك أنوار اليقين، ص ٦٠). ومن كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ الظهور الإسمي لله تعالى متحقق فيه صلوات الله عليه وآله، ولا يوجد أيّ موجود له هذا الظهور التعيّني في مقام اسم الله إلا هؤلاء الأربعة عشر معصوماً، أي أنّ الربّ الذي نرجع إليه بالإسميّة وله ظهور إسمي هو أمير المؤمنين ﷺ وهو إمام الزمان عجل الله فرجه، وهو المقام الذي نرجع فيه إلى الرحمن الرحيم بالإسميّة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾. يقول الإمام الصادق ﷺ: «نحن والله الأسماء الحسنی» (الكافي، ج ١ ص ١٤٣)، أي أننا ظهور الاسميّة ولا يوجد أيّ ظهور إسمي لغيرنا في هذا الوجود.

(٢) ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾، سورة يونس، آية ٣٢.

(٣) عن مسمع كردين قال: قال لي أبو عبد الله ﷺ: «... وإنّ على الكوثر أمير المؤمنين ﷺ وفي يده عصا من عوسج، يحطم بها أعداءنا، فيقول الرجل منهم: إني أشهد الشهادتين! فيقول: إنطلق إلى إمامك فلان فاسأله أن يشفع لك، فيقول: يتبرأ مني إمامي الذي تذكره، فيقول: إرجع وراءك فقل للذي كنت تتولاه وتقدّمه على الخلق فاسأله إذ كان عندك خير الخلق أن يشفع لك، فإن خير الخلق حقيق أن لا يردّ إذا شفع، فيقول: إني=

أُولَئِكَ أَهْمُ الظَّالِمُونَ^(١)، إنهم قوم وضعوا غشاوة على تلك الحقيقة، وقابلوا النور بصفاتهم الرذيلة فلم يدعوه يتجلى أمامهم (هذا النور لا ينطفئ حتماً، غير أن أمثال هؤلاء يُحرمون منه).

=أهلك عطشاً. فيقول: زادك الله ظمأً، وزادك الله عطشاً. قلت: جُعِلْتُ فداك وكيف يقدر على الدنو من الحوض ولم يقدر عليه غيره؟ قال: ورع عن أشياء قبيحة، وكفَّ عن شتمنا إذا ذكرنا، وترك أشياء اجترأ عليها غيره، وليس ذلك لحبنا، ولا لهوى منه لنا، ولكن ذلك لشدة اجتهاده في عبادته وتدينه، ولما قد شغل به نفسه عن ذكر الناس، فأما قلبه فمنافق، ودينه النصب باتباع أهل النصب وولاية الماضين، وتقدمه لهما على كل أحد»، إكسير العبادات في أسرار الشهادات، ج ١ ص ٩٩؛ كامل الزيارات، ص ١٠١ ح ٦؛ بحار الأنوار، ج ٤٤ ص ٢٩١؛ العوالم، ج ١٧ ص ٥٣٠.

(١) «قال سبحانه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾»، والأخبار في آل محمد ﷺ هم العروة الوثقى، وأن النور هو آل محمد ﷺ، والظلمات أعداؤهم كثير»، (الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٤٩٧)، فالغي والجبت والطاغوت هم أعداء آل محمد ﷺ، فعن أبي جعفر ﷺ في قول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ فلان وفلان (أي الأول والثاني) ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ يقولون لأئمة الضلال والدعاة إلى النار هؤلاء أهدى من آل محمد وأوليائهم سبيلاً ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن نَّجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ يعني الإمام والخلافة ﴿فَإِذَا لَا يُؤْمِنُونَ النَّاسَ فَقِيرًا﴾ نحن الناس الذين عنى الله، (بصائر الدرجات، ص ٥٤ ح ٣ باب ١٦). وعن عبد العظيم بن عبد الله الحسيني، عن أبي جعفر الثاني ﷺ، عن أبيه، عن جدّه صلوات الله عليهم قال: قال أمير المؤمنين ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق الإسلام فجعل له عرصة وجعل له نوراً وجعل له حصناً وجعل له ناصراً، فأما عرصته فالقرآن، وأما نوره فالحكمة، وأما حصنه فالمعروف، وأما أنصاره فأنا وأهل بيتي وشيعتنا، فأحبوا أهل بيتي وشيعتهم وأنصارهم، فإنه لما أسري بي إلى السماء الدنيا فنسبني جبرئيل ﷺ لأهل السماء، استودع الله حبي وحب أهل بيتي وشيعتهم في قلوب الملائكة، فهو عندهم وديعة إلى يوم القيامة، ثم هبط بي إلى الأرض فنسبني إلى أهل الأرض فاستودع الله عز وجل حبي وحب أهل بيتي وشيعتهم في قلوب مؤمني أمتي، فمؤمنو أمتي يحفظون وديعتي في أهل بيتي إلى يوم القيامة، ألا فلو أن الرجل من أمتي عبد الله عز وجل عمره أيام الدنيا ثم لقي الله عز وجل مبغضاً لأهل بيتي وشيعتي، ما فرج الله صدره إلا عن النفاق»، الكافي، ج ٢ ص ٤٦ ح ٣.

النور يختار أولياءه

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الله، في التجلي الإسمي، نور. ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾^(١). وثمة روايات منقولة في هذا الباب تقول إن النور والكتاب المبين^(٢) هما تعبيران عن الوجود المقدس لأمر المؤمنين عليه الصلاة والسلام. ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾^(٣)، فهو الذي يخرج المؤمنين من ظلمات البدن والصفات الذميمة إلى عالم النور بإذنه. وهو النور نفسه المذكور في آية «نور السماوات والأرض».

هلمّوا لنعود، ولو بمقدار، إلى ذلك الأصل الضائع. وأقول لكم التالي: إذا أردنا إصلاح أنفسنا^(٤) وتشخيصنا وعقلنا وفكرنا وعبادتنا وعملنا، علينا أن

(١) سورة المائدة، آية ١٥.

(٢) ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (سورة النحل، آية ٨٩). عن يعقوب بن جعفر بن إبراهيم، قال: «كنت عند أبي الحسن موسى عليه السلام، إذ أتاه رجل نصراني، ونحن معه بالعريض، فقال له النصراني: أتيتك من بلد بعيد وسفر شاق وسألت ربي منذ ثلاثين سنة أن يرشدني إلى خير الأديان وإلى خير العباد وأعلمهم، وأتاني آت في النوم - [إلى أن قال]: فقال النصراني: إني أسألك، أصلحك الله. قال: سل. قال: أخبرني عن كتاب الله تعالى الذي أنزل على محمد، ونطق به، ثم وصفه بما وصفه به. فقال: ﴿حَمْدٌ * وَالْكِتَابُ الْمُبِينُ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، (سورة الدخان، آية ١ - ٤)، ما تفسيرها في الباطن؟ فقال: أما «حم» فهو محمد عليه السلام في كتاب هود، وأما «الْكِتَابُ الْمُبِينُ»؛ هو عليّ أمير المؤمنين عليه السلام، وأما الليلة ففاطمة الزهراء عليها السلام، وأما قوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾؛ يقول: يخرج منها خير كثير، فرجل حكيم، ورجل حكيم...»، (أصول الكافي، ج ١ ص ٥٤٤ ح ٤). «فمن آمن بكل الكتاب وأنكر حرفاً منه لم يكن مؤمناً لأن اللازم له في الاعتقاد تصديق الكل، أو إنكار الكل، لكن إنكار الكل كفر، وتصديق الكل إيمان»، مشارق أنوار اليقين، ص ٢٧٣.

(٣) سورة المائدة، آية ١٦.

(٤) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنَّ خطر النفس كبير وعظيم بنحو لا يمكن معالجته من ذاتها، فكلّ ما يشخصه الإنسان السالك كعلاج لما في باطن نفسه لن يرجع إليه إلّا ببعد وتقيّد أكبر». وفي موضع آخر يقول دام ظلّه الشريف: «في»

نطلب منه أن يرينا وجهه^(١) ويأخذ بأيدينا، أما إذا رُمنا إصلاح أمورنا بأنفسنا، فسيبقى الحال على ما هو عليه.

قَدَمَهَا مَوْمَى وَأَيْنَ رَاه تَفْتِيهِ خَدَا مِى دَانِد وَّآن كَس كِه رَفْتِه
وما دام الإنسان يسير بقدمه وعقله، وفكره^(٢) ورأسماله، فسيبقى على ما هو عليه من خراب الحال. وما دُمنا نحن من نسير صوب الحق فسنبقى على حالنا. أما إذا اتجه الحق صوبنا، فسيختلف الوضع^(٣) ولن يكون للأمر نهاية، كما لن يكون لدى الإنسان أي إشكال في العبادات، أو في الأحكام والمسائل التي يتبعها، شرط أن لا ينسى أصل الأصول والجهة التي توجه صوبها ووقف بإزائها. ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(٤)، تأملوا في هذه الآية وفسروا معناها وابحثوا في كلمتي الفحشاء والمنكر، وانظروا، هل ثمة أثر لهما في ذواتكم وأرواحكم أم لا؟

= معرفة النفس، كل التشخيصات الموجودة لا بد أن توضع جانباً، ولا بد أن يحل محلها إطاعة الولاية، فكل ما يقوله الولي هو الدين الصحيح، انتهى. ويقول بايزيد البسطامي: «كنت أسحب نفسي إلى بلاط الملك الحق المبين مدة طويلة وهي باكية. وحينما وصلني المدد من الله تعالى، كانت نفسي تحملني إليه وهي ضاحكة فرحة»، خمسة من العرفاء، ص ١٢٩.

(١) «خيال وجهك مصاحب لنا في كل طريق ونسيم شعرك ملازم لأرواحنا في كل سبيل وبرغم المدعين الذين يمنعون العشق ويحظرونه، أضحي جمال وجهك صُحبةً وجبهة لنا».

(٢) ﴿إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ * فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ (سورة المدثر، آية ١٨ - ١٩ - ٢٠). عن الإمام علي عليه السلام: «صيام القلب عن الفكر في الآثام، أفضل من صيام البطن عن الطعام»، عيون الحكم والمواعظ، ص ٣٠٢.

(٣) من كلام لآية الله السيد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «لو أراد أي سالك وأي مجذوب وعارف وحكيم وموحد أن يسلك إلى الحق تعالى من جهة نفسه، فإن حيثية نفسه تبقى موجودة ولا تغنى من البين؛ وهذا شاهد على الإثنية؛ وأما لو أراد بنفسه تعالى وتقدس أن يجذب شخصاً إليه، فلن تبقى له أي حيثية، كما لم يبق للأنبياء أي حيثية»، انتهى. وقد ورد في دعاء الحسين عليه السلام في يوم عرفة: «إِلَهِي مِنِّي مَا يَلِيقُ بِلُؤْمِي وَمِنْكَ مَا يَلِيقُ بِكَرَمِكَ»، مفاتيح الجنان.

(٤) (سورة العنكبوت، آية ٤٥). قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فمن أقام ولايتي فقد أقام الصلاة»، بحار الأنوار، ج ٢٦ ص ١ - ٣.

وبنفس هذا الأسلوب في تحديد معاني وحقائق الآيات القرآنية وأحاديث أهل البيت عليهم الصلاة والسلام، ينبغي أن توضّح لنا آية ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ معناها بنفسها. فإذا لم تتّجه الكلمة النورانية نحونا، لن يتجلى لنا ذلك المعنى الذي تحدثنا عنه حول الحقيقة الإسمية للفظ الجلالة، وسنبقى حيارى وتائهين، ولن تلوح لنا أية بارقة من ذلك النور. ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، لقد استحوذ هذا النور الإلهي على كل الوجود^(١)، ولكن أين نراه؟ هل نقبل بأن ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؟ نعم نقبل بذلك. إذاً، في أي مكانٍ من وجودنا ضرب هذا النور، ولو لمرة واحدة ولو بشرارة لا يتعدّى قدرها رأس الإبرة؟ أنت يا من تقبل بالله، أين وجدت ذلك النور؟ يقول الحق المتعال إن هذا النور يشعّ في السماوات والأرض. ولكن أين ومتى رأيناه أنا وأنت؟ وفي أيّ وقتٍ عرفنا هذا النور؟

لقد ابتلينا بالتحريف في اللغة^(٢) والانحراف في التشخيص. فما زلنا لا نفهم

(١) «إعلم أنّ جميع أرباب العقول وأهل العلم، وجميع أرباب الشهود وأهل الكشف، اتّفقوا على أنّ الوجود خير محض والعدم شرّ محض، واتّفقوا على أنّ الشرّ المحض ما له وجود في الخارج أصلاً، والشرّ الخارجي ليس إلا الشرّ الإضافي، يجوز رفعه وإزالته، ويجوز بقاؤه ودوامه، وعلى جميع التقادير الشرّ المحض ليس بموجود في الخارج، والموجود في الوجود الخارجي هو الخير المحض فقط، وها هنا أيضاً دقيقة، وهي أنّه قد ثبتّ بالعقل والنقل والكشف أنه ليس في الوجود الخارجي إلاّ الحقّ تعالى، أو الوجود المسمّى بالمطلق، فكيف يُتصوّر مع هذا الوجود الخارجي شيء آخر حيّ يسمّى شرّاً أو خيراً ومعلوم أنّ الوجود من حيث هو وجود خيرٍ محض فلا يكون للشرّ وجود أصلاً، ومن هنا ليس هناك شيء تعدّه أنت شرّاً إلاّ وفيه ألف خير وألف منفعة، كالحيات والعقارب مثلاً، والسّموم القاتلة، وأمثال ذلك فإنّ فيها خيراً كثيراً ومنافع كثيرة»، تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضمّ، ج ١ ص ٣٦٥.

(٢) من الأمثلة على التحريف في اللغة، فهّمنا لمفردة «الغفلة»، حيث لا يتبادر إلى ذهننا عند ذكرها سوى المعنى السلبيّ لها وهو السّهو عن أمرٍ ما، غير أنّ لهذه المفردة معنى آخر إيجابياً. فقد خاطب الله تعالى نبيّه ﷺ في كتابه قائلاً: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفِيلِ﴾ (سورة يوسف، آية ٣)، فكان ذلك مديحاً له وليس ذمّاً كما يظنّ البعض، إذ ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أشرف =

معنى ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. نبحث عن الله، فهل وجدناه؟ هل الله أموال في الجيب حتى نبحث عنه؟ هل هو سيارة أضعناها، لنقضي وقتنا في البحث عنها هنا وهناك؟ هل يتخيل الإنسان أن الله مثل هذا الأمر أو ذاك؟ إن هذه حقيقة أخرى لا تظهر إلا في الولي المطلق، فالحق لا يظهر سوى في الأولياء البالغ عددهم أربعة عشر، لا أقل من ذلك ولا أكثر. هل تخاف على التوحيد من الضرر؟ حسناً، لن تجده إذاً. لقد كنت خائفاً حتى اليوم، فهل رأيت أن نوره قد سطع على أي من زوايا وجودك^(١)؟ هذا الأمر من نصيب رسول الله ﷺ، فعندما نزلت آية ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: «يا علي، أنت نور السماوات والأرض». فتجلّى ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يتحقق في الولي المطلق، حيث أن الله لا يظهر بالذات، إنما يظهر بالإسم والإسم هو أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام وبقية المعصومين عليهم الصلاة والسلام. ويقول مولى أهل اليقين لاثنين حظيا بأذنين^(٢) جديرتين بسماع الأسرار^(٣): «يا سلمان ويا جندب أنا نور

= أخلاق الكريم تغافله عما يعلم»، (ميزان الحكمة، ج ٣ ص ٢٢٨٧). كما ورد حديثه ﷺ بنحو آخر: «من أشرف أعمال [أحوال] الكريم غفلته عما يعلم»، ميزان الحكمة، ج ٣ ص ٢٢٨٧.

(١) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ كلّ من يدعي أنّه يحتاط في اعتقاداته، خوفاً من الوقوع في الشرك والباطل، قد وقع في الشرك والباطل، ولن تجد له ولن يجد هو بنفسه لنفسه أي نوع من النورانية في أي شيء يقوم به على الإطلاق. ولو كان الأمر غير ذلك، فلماذا يقول «يا الله» إلى ما شاء الله ولا يسمع جواب لبيك؟ لماذا يصلي ما يصلي مع أنّه لم يحصل على أيّ جواب حتّى الآن؟ هل هذا إلّا الضلال؟ إنّ الله لا يقبل شيئاً من أحد إلّا أن يكون موحداً، والموحد هو الذي صار واحداً مع ذاك المبدأ «وإياب الخلق إلينا»، حيث يرجع الوجود إليهم... «فقل (يا الله) ما شئت، فلن يكون لها أي قيمة ما لم يتحقّق هذا التوحيد الخاص».

(٢) ﴿وَعِهَا أَذُنٌ وَعِيةٌ﴾ (سورة الحاقة، آية ١٢). قال النبي الأكرم ﷺ: «ما من قلبٍ إلّا وله عينان وأذنان، فإذا أراد الله بعبده خيراً، فتح عينيه اللتين للقلب ليشاهد بهما الملكوت»، تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم، ج ١ ص ٢٧٢.

(٣) «قال الصادق ﷺ: «إن أمرنا هو الحقّ وهو الظاهر وباطن الظاهر وباطن الباطن وهو السرّ وسرّ السرّ وسرّ مستسرّ وسرّ مقنّع بالسرّ»، فقوله ﷺ «أمرنا» المراد به «أمر الله»=

السماوات والأرض^(١).

شعر:

الله در آن میان کجا بود گر بود علي به پرده اندر
گفت از پی حل این معما کافي نبود هزار دفتر

ليس للجميع نصيب في إيجاد هذا الطريق وسلوكه^(٢). وينبغي أن لا تخبر^(٣) الجميع بأن هذه هي الحقيقة. فهناك مَنْ لا يفهمها ولا يدركها، لأن ذاته ليست من هناك وخلقته قاصرة عن معرفتها^(٤). فهو غير عارف بتلك الحقيقة الأولى

= وإضافة الأمر إلى أنفسهم ﷺ لكونه مقامهم...»، (شرح الأسماء أو شرح دعاء الجوشن، ص ١٢٦). وعنه ﷺ أنه قال لولده اسماعيل: «يا بني، اجتهد في تعلّم علم السرّ فإنّ بركته كثيرة، أكثر مما يُظنّ. يا بني، من تعلّم علم العلانية وترك علم السرّ يهلك ولا يسعد. يا بني، إن أردت أن يكرمك ربّك بعلم السرّ، فعليك ببغض الدنيا، واعرف خدمة الصالحين، وأحكم أمرك للموت، فإذا اجتمعت فيك هذه الخصال الثلاث، يُكرمك ربّك بعلم السرّ». عن الإمام الصادق ﷺ: «لا تضيعوا سرّنا ولا تُحدّثوا به عند غير أهلِه فإنّ المذيع سرّنا أشدّ علينا من عدوّنا»، الخرايج والجرايح، ص ٢٦٧.

(١) عن سلمان قال: «كنت جالساً عند النبي ﷺ في المسجد إذ دخل العباس بن عبدالمطلب فسلم فردّ النبي ﷺ ورّحّب به فقال: يا رسول الله بما فضّل الله علينا أهل البيت عليّ بن أبي طالب والمعادن واحدة، فقال النبي ﷺ: إذن أخبرك يا عم إن الله خلقني وخلق علياً ولا سماء ولا أرض ولا جنة ولا نار ولا لوح ولا قلم. فلما أراد الله عزّ وجلّ بدو خلقنا تكلم بكلمة فكانت نوراً ثم تكلم كلمة ثانية فكانت روحاً فمزج في ما بينهما واعتدلا فخلقني وعلياً منهما ثم فتق من نوري نور العرش فأنا أجلّ من العرش ثم فتق من نور عليّ نور السماوات فعليّ أجلّ من السماوات»، بحار الأنوار، ج ٤٣ ص ١٧.

(٢) ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ (سورة الواقعة، آية ١٣ - ١٤)، ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (سورة غافر، آية ٥٤)، إذاً، هو هدى وذكرى لأولي الألباب وليس لغيرهم.
(٣) ﴿وَلَا يَنْفَعُوكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (سورة هود، آية ٣٤)، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (سورة القصص، آية ٥٦). ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ (سورة الأنعام، آية ٢٥). ﴿إِنْ تَسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾، سورة النمل، آية ٨١.

(٤) عن الإمام الصادق ﷺ: «وما يعرف شيعتنا إلا بحسب درايتهم لنا ومعرفتهم بنا»، (الهداية الكبرى، الباب ٤ ص ٢٧٥). من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله =

التي ينبغي أن يكون قد انفصل عنها قبل المجيء إلى هذا العالم، كما أن سنخيتها مختلفة عنها، ولذا سينكرها^(١) وسيزداد إنكاره كلما حدثته بها^(٢). لأجل هذا،

=تعالى: «الرسول الأكرم ﷺ ﴿وَمَا يَطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾»، لأن أساس نطقه كان ممّا لديه من النفس الملهمة، ولا يمكن للإنسان أن يفهم معنى «وَأَلْهَمُ فَأَنْطِقُ»، ولا يمكن أن يدرك هذه الحقائق والأمور إلا أن يكون لديه من نفس هذا المتاع... إن الإنسان، ما لم يصبح بنفسه صاحب نفس ملهمة، لا يمكنه أن يفهم كلّ هذا الكلام، وقد كان تصديق الخواصّ للأنبياء ﷺ بهذا النحو حيث أنّ أصحاب النفس الملهمة كانوا يصدّقون بنبوّة النبيّ ويقرّون بنبوّة حقّاً. وأمّا أولئك الذين لم تكن لهم نفس ملهمة، فقد كانوا يدّعون تصديقهم لنبوّة النبيّ بتبليغ الآخرين لهم وتقليدهم، ولكنهم كانوا بعد ذلك يسحبون السيوف في وجه أمير المؤمنين ﷺ... ورد عن أبي ذر أنه قال: «صليتُ قبل الإسلام قبل أن ألقى رسول الله ﷺ ثلاث سنين، فقلت: لمن؟ قال: الله، فقلت: أين تتوجّه؟ قال: أتوجّه حيث يوجّهني الله»، (الغدیر، ج ٨ ص ٣٠٨). كان أبو ذرّ قرب المدينة، فقال له الناس إنّ هناك شخصاً في مكّة يتكلّم بنفس ما تتكلّم به، فقال لهم أبو ذر: فلنحمل نواقنا، فإنّ هذا نبيّ الله. أبو ذر لم ير النبيّ الأكرم ﷺ، ولم ير أيّ معجزة منه على الإطلاق، فمن أين علم هذا الأمر؟ لقد كان أبو ذر صاحب نفس ملهمة... سلمان كان كذلك ممّن ألهم فأنطق، حيث كان صاحب نفس ملهمة.

(١) عن الإمام الصادق ﷺ في حديث طويل: «عليكم بالتسليم والردّ إلينا، وانتظار أمرنا وأمركم وفرجنا وفرجكم، فلو قد قام قائمنا عجل الله فرجه وتكلّم متكلّمنا ثم استأنف بكم تعليم القرآن وشرايع الدين والأحكام والفرائض كما أنزله الله على محمد ﷺ، لأنكر أهل البصائر فيكم ذلك اليوم إنكاراً شديداً، ثم لم تستقيموا على دين الله وطريقته إلا من تحت حدّ السيف فوق رقابكم، إن الناس، بعد نبيّ الله ﷺ، ركب الله بهم سنّة من كان قبلكم فغيّروا وبدّلوا وحرفوا وزادوا في دين الله ونقصوا منه، فما من شيء عليه الناس اليوم إلا وهو مُنحرفٌ عما نزل به الوحي من عند الله»، رجال الكشي، ص ١٣٨.

(٢) من كلام للإمام الصادق ﷺ مع المفضل بن عمر الجعفي: «ظهور مولاك رحمة لمن آمن به وأقرّ، وعذاب على من جحد وأنكر، ليس وراءه غاية ولا له نهاية»، (الهداية الكبرى، الباب ٤ ص ٢٧٧). وعن أمير المؤمنين ﷺ: «وعندنا نحن والله اثنان وسبعون حرفاً، وحرف واحد عند الله عز وجل استأثر به في علم الغيب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، عَرَفْنَا مَنْ عَرَفْنَا وأنكرنا من أنكرنا»، (بحار الأنوار، ج ٢٧ ص ٣٧). وعن أبي جعفر ﷺ قال: «إن حديثكم هذا لتشمئز منه قلوب الرجال فمن أقر به فزيده ومن أنكره فذروه إنه لا بدّ من أن يكون فتنة يسقط فيها كل بطانة ووليعة حتى يسقط =

لا ينبغي التحدث عن هذه الحقيقة إلا مع أهلها^(١).

مُحَمَّدٌ

=فيها من يشق الشعر بشعرتين حتى لا يبقى إلا نحن وشيعتنا»، (الكافي، ج ١ ص ٣٧٠).
«ما أنكر فضل آل محمد ﷺ من الأمم السالفة إلا مسخ، ولا ردّ فضلهم إلا من خَبث أصله ورسخ، فمن أنعم الله عليه بحبّ عليّ والإقرار بفضله ووجد روحه بين جنبيه، ووجد صدره منشرحاً عند وصول أسرارهِ إليه، ولم يجد الشكوك تنازعه، ولا يد الإنكار تمانعه، فقد طاب مولده وعنصره وزكى محتده ومخبره... ولذلك قال أمير المؤمنين ﷺ: لو ضربتُ خيشوم المؤمن على أن يبغضني ما فعل، ولو صَبَبْتُ الدنيا على المنافق على أن يحبّني ما فعل، وبذلك أخذ الله لي العهد في الأزل ولم يزل»، مشارق أنوار اليقين، ص ٣١٠.

(١) «وليس كل ما يعلم يقال، ولا كل ما يقال تجد له رجالاً»، (مشارق أنوار اليقين، ص ٣٩). عن أبي عبد الله ﷺ أنه قال: «لا تدعوا الناس إلى ما أنتم عليه، فوالله لو كتب هذا الأمر على رجل لرأيته أسرع إليه من الطير إلى وكره، وأسبق من السَّيْلِ إلى جوف الوادي»، (مشارق أنوار اليقين، ص ٣٦٢). ﴿يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾، سورة الإنسان، آية ٣١.



الفيض الثاني

الظهور التام للتوحيد

قلنا إن الظهور التام للتوحيد، في ما يرتبط بذات^(١) الحق، منوط بمظهريّة الأسماء والصفات ومُظهريّتها. وأكرّر العبارة مرة أخرى حتى تتوجّهوا إليها بتأمل. إن الظهور التام للتوحيد منوط بمظهريّة الأسماء والصفات ومُظهريّتها.

فمن يريد أن يسلك في التوحيد إلى ذات الحق، إنما يخوض في خيالات^(٢)

(١) «إن الذات بلا حجاب الأسماء والصفات، (وبهم ﷺ احتجب الله)، لن تتجلى في مرآة من المرآي ولن تظهر في نشأة من نشأت الوجود»، الآداب المعنوية للصلاة، ص ٤٦٩.

(٢) هناك شرط أساسي ينبغي على الإنسان أن يُحرّزه حتى يستطيع تلقّي المعارف والحقائق وفهمها، إذ عليه أن يتخلّص من أحد أخطر الحُجُب التي تمنعه من المعرفة، وهو حجاب الخيال والوهم. فإذا ما نظر الإنسان عن كثب، سيرى أنّ ما يحكمه في معظم جوانب حياته وما يسيطر على جلّ علاقاته، وعلى رأسها العلاقة بالله تعالى وأهل البيت ﷺ، هو الخيال والوهم لا العقل. فعلى الإنسان أن يُطهّر خياله حتى يرى الحقيقة ويصدّقها. ومن المفيد هنا التحدّث عن حقيقة قوة الخيال وبعض العوامل الأساسية التي تُؤلّد الخيالات عند الإنسان وتشوّش ذهنه، وبالنتيجة تحول بينه وبين تلقّي الحقائق.

إننا وبشكل متواصل على ارتباط بقوة الخيال، فإذا أردنا المباشرة بأيّ فعل، كالنوم أو الدراسة أو العمل، فإنّ الباعث لذلك هو قوّة الخيال لأنّ جزئيات الأمور مرتبطة بها لا بالعقل. فالعقل هو القوّة المُدرِكة للكلّيات بينما يكون دوره غير مباشر في ما يتعلق بالجزئيات. فقوّة الخيال واسطة بين نشأة المادة وعالم العقل. ولكن للأسف، فإنّ عموم الناس، قبل أن يجعلوا قوة الخيال واسطة للإدراكات العقلية، فإنهم يستفيدون من وهميّات قوة الوهم.

= إن أول سبب لتولّد الخيالات والأوهام المضرة من جهة، وتحجيم الخيالات الحميدة من جهة أخرى، هو التربية التي نشأ عليها الإنسان حتى أصبحت بمثابة البرمجة التي ترمّج عليها، إذا صحّ التعبير. ففضلاً عن تهيئة الأرضية لخلق الخيالات السيئة، تربى الإنسان على مفاهيم خاطئة، فرسخت في خياله بنحو خاطئ. وعلى سبيل المثال، إذا دعيّت مجموعة من الناس إلى تصوّر بطل ما في خيالهم، فإنّ معظمهم، إن لم يكن كلّهم، سيتصوّنون شخصاً ذا هيكل جسديّ قوي، في حين أنّ مفهوم البطل أوسع وأعمّ من هذا بكثير، إذ قد يكون هناك من هو بطل بالكتابة أو بالرّسم أو بفهم الحقائق... ولكنّ التخيّل الذي تربّينا عليه، حثّم علينا حدّ المفاهيم والحقائق، سواء العقائدية أو المعنويّة أو غيرهما، وحضرها بإطار ضيق. وعلى سبيل المثال، هناك رواية تدعونا إلى توسيع خيالنا في ما يتعلّق بحقائق الوجود، فقد ورد عن جابر بن يزيد قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجل: ﴿أَفَعَيْنَا بِالْحَقِّ الْاَوَّلَ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فقال: «يا جابر، تأويل ذلك أنّ الله عزّ وجل إذا أفنى هذا الخلق وهذا العالم وأسكن أهل الجنّة الجنّة وأهل النار النار، جدّد الله عزّ وجلّ عالماً غير هذا العالم وجدّد عالماً من غير فحولة ولا إناث يعبدونه ويوحّدونه، وخلق لهم أرضاً غير هذه الأرض تحملهم وسماء غير هذه السماء تظّلهم، لعلك ترى أنّ الله عزّ وجل إنما خلق هذا العالم الواحد، وترى أنّ الله عزّ وجل لم يخلق بشراً غيركم، بل والله لقد خلق الله تبارك وتعالى ألف ألف عالم وألف ألف آدم أنت في آخر تلك العوالم وأولئك الأدميين»، (الخصال، ج ١ ص ٦٥٢). فالإنسان يتصوّر أنّ العالم سيفنى ويزول ولن يخلق الله خلقاً جديداً من بعده، وهذا ما يصبّ في إطار تقييد الأسماء والصفات والحدّ منها، علماً أنّها مطلقة. فكلّ إنسان يشكّل صورة للأسماء والصفات الإلهية، بحسب خياله لا عقله، كمفهوم الرّازقيّة والخالقيّة والإحياء والإماتة... وهذا الأمر يسري أيضاً على مفاهيم التوحيد والوحي والنبوة والولاية والرسالة والمبدأ والمعاد، فالاعتقاد المتخيّل أنّ الله واحد، على سبيل المثال، ليس هو التوحيد أو كمال التوحيد.

وبسبب خيالات الإنسان وأوهامه، فإنّ أيّ حدث قد يقع يكون داعياً لتصورات مبنية على مقدّمات خياليّة لا أساس لها من الصّحّة. وللخيال والوهم آثارٌ غاية في الخطورة، حيث أنّهما من أسباب تشوّش الإنسان وعدم صفاء ذهنه ونيّته، وهذا ما يحول بينه وبين استجابة دعائه، إذ تشكّل هذه العوامل مجتمعةً جداراً يمنع الدعاء من إيجاد سبيله صعوداً إلى الملاء الأعلى. ومما يُسهم في تغذية الخيال والوهم: الهوى وطول الأمل، حيث يتخيّل الإنسان الأمور بحسب هواه وتُسوّل له آماله تصوّر وقائع وحقائق غير صحيحة وبعيدة عن الواقع الحقيقي. وحين يتغلّب الخيال على عقل الإنسان، يمنعه من الاستفادة من أيّ مجلسٍ أو محفلٍ للعلم أو للذكر أو للعزاء، إذ أنّ كل الصّور التي =

=يُنْتَجِها في ذهنه لا تكون إلا صوراً شيطانية، في حين أن العقل إذا حَكَمَ، يُلقِي الله في الذهن صوراً ملكوتية وفي القلبُ نوراً يفهم من خلاله الإنسان كلامَ الله تعالى وروايات أهل البيت (عليه السلام). «الفرق بين الواردات الروحانية والملكية والجنية والشيطانية يتعلق بميزان السالك المكاشف (فبحسب مقامه، يُلقى عليه من سنخه)... وهو أن كل ما يكون سبباً للخير بحيث يكون مأمون الغائلة (من الخوف) في العاقبة ولا يكون سريع الانتقال إلى غيره ويحصل بعده توجه تام إلى الحق ولذة عظيمة مُرغَّبة في العبادة فهو ملكي أو رحماني، وبالعكس شيطاني»... أما ما يتعلق بالأمور الدنيوية، «مثل إحضار الشيء الخارجي الغائب عن المكاشف في الحال كإحضار الفواكه الصيفية في الشتاء، مثلاً، والإخبار عن قدوم زيد غداً، وأمثال ذلك مما هو غير معتبر عند أهل الله فهي جُتِي، وطَيَّ المكان والزمان والنفوذ في الجدران من غير الانثلام والانشقاق أيضاً من خواصهم وخواص الملائكة التي هي أعلى مرتبة منهم. فإن كان للكَمَل منها شيء (من طَيَّ الزمان والمكان) فمعاونة منهم ومن مقامهم (أي الملائكة). وإن لم يتعلق بها (الأمور الدنيوية) أو يتعلق بالآخرة أو كان من قبيل الاطلاع بالضمائر والخواطر فهو ملكي لأن الجن لا يقدر على ذلك. وإن كان بحيث يُعطى المكاشف قوة التصرف في الملك والملكوت كالإحياء والإماتة والإخراج لمن هو في البرازخ محبوس (من أهل العصيان) وإدخال من يريد في العوالم الملكوتية من المريدين الطالبين فهو رحماني لأن أمثال هذه التصرفات من خواص المرتبة الإلهية القائم فيها وبها الكَمَل والأقطاب»، (شرح فصوص الحكم، ص ١١١ - ١١٢).

وتعتبر أعضاء الإنسان من العوامل التي يمكن أن تكون مساعدة على إنتاج الخيالات الفاسدة، ومن أبرز الأعضاء التي تسهم في إفساد باطن الإنسان وتلويث خياله هو اللسان، إذ ما من كلمة تصدر من فم الإنسان إلا ويراها في عالم المنام على شكل أفعى أو عقرب أو وزغ أو وردة أو سماء أو بحر أو إمام أو عالم أو قرآن... وإن من الأسباب التي تغذي الخيال أيضاً التفكير والظن السيء بالله وبأهل البيت وبالناس. فبناءً على أحاسيس وهمية لا تمت إلى الواقع بصلة، تُحبُّ اليوم فلاناً أو فلانة، وغداً تكن له أو لها العداوة والبغضاء. وحين يقع خلاف بين زوجين أو أخوين أو صديقين، فمرّد ذلك إلى أن أحدهما أو كلاهما حَكَمَ وهمه ولم يحكّم عقله. ولو حَكَمَ العقل، لمّا اختلف الإنسان مع أحدٍ في حياته، إذ كما ورد أن العقل هو «ما عُبد به الرحمن واكتُسب به الجنان»، (الكافي، ج ١ ص ١١).

لذا، عليك أن تلجِم خيالك وتمنعه من أن يفتك بالناس ويهتك حرمتهم، إذ أنه في النهاية سيفتك هذا الخيال بصاحبه إذا ما خلّى لجامه. وقد يصل الخيال والوهم بالإنسان إلى أن يُبيّده عن إمام زمانه حين يظهر، حيث يجعلانه يفسّر ما يقوله الإمام ويفعله =

=بحسب أهوائه وهواجسه، ما قد يدفعه ليس إلى الرحيل عنه فحسب، بل إلى رفع سيفه عليه أيضاً.

ومن هنا، وجب على الإنسان تحقيق الطهارة الباطنية المتمثلة بطهارة الخيال من الاعتقادات الفاسدة والتخييلات الرديئة والجّولان في ميدان الآمال والأماكن، ووجب عليه تطهير خياله، خصوصاً، من سوء الظنّ بالموالين وعدم حملهم على محمل حسن. وكلما كانت قوة الخيال أكثر طهارة، كلما كانت الصور الملوكوتية والمكاشفات التي قد يحصل عليها الإنسان أكثر صفاءً، أمّا إذا كانت هذه القوة غير طاهرة، فستعكس تلك المعارف والحقائق على غير ما رأته النفس في مقام العقل والروح.

إذاً، على الإنسان أن يُحسّن الظنّ بالناس، وأن يرى محاسنهم قبل أن يرى مساوئهم في حين أن عليه أن ينظر إلى مساوئهم قبل أن ينظر إلى محاسنهم ولا يُعجب بأعماله مطلقاً بل يضعها دائماً في خانة التقصير، وبدلاً من أن يبحث عن عيوب الآخرين عليه أن يبحث عن عيوب نفسه ويتعرّف على نقائصها. ومن الدلالات على عدم تحقيق طهارة الخيال أن يطلب الإنسان مثلاً يساعده على الفهم إذا ما سمع مطلباً مرتبطاً بالتوحيد أو الحقائق الولاية، فطلبه للمثل يدلّ على أنه ما يزال يعيش إلى الآن بقوة الخيال ولم يصل إلى العقل بعد، إذ أنّ العقل يرى الوحدة والبساطة ولا يحتاج إلى المثال. وأيضاً، متى ما ظلّ الإنسان عاجزاً عن معرفة ما هو كامن في بواطن الناس، يكن معلوماً حينها أنه إلى الآن لم يُطهّر قوّة خياله، فالأولياء يعرفون أن باطن هذا خرب ولو كان ممن يصلي في جوف الليل وأنّ باطن ذاك طاهر ولو كان ممن يشرب الخمر. ويُقال إنّ المرحوم السيد مهدي بحر العلوم قد طهّر خياله بعد أربع وثلاثين سنة، وبعد ذلك صلى ركعتي شكر وقال: «إلهي، أشكرك لأنني استطعت أن أظهر قوة خيالي بهذه السرعة». ويقال إنّ المرحوم الملا حسين قلّي الهمداني طهّرها بعد أربع وعشرين سنة من المشقّة وبذل الجهد.

ومن إحدى الطرق التي تساعد على تطهير الخيال هو أن تُحوّل كل ما تسمعه وتعرفه إلى خيرٍ في باطنك وتتفائل به حتى ولو كان شراً في الأصل، وحتى إنّ صدر من أقرب المقرّبين منك، ولتكنّ مصداقاً للحديث القدسي: «أنا عند ظنّ عبدي المؤمن بي إنّ خيراً فخييراً وإنّ شراً فشراً»، (الكافي، ج ٢ ص ٧٢). ولكن هذا كلّ لا ينفع ما لم يتمّ التوسّل بالسيدة فاطمة سلام الله عليها، فحتى يتمكّن الإنسان من تطهير خياله، عليه أن يتّصل بها ﷺ، إذ أنّ ولايتها مُطهّرة من كلّ دنس، حيث ورد في زيارتها: «لنُبشّر أنفسنا بأنّا قد طهّرنا بولايتك»، (زيارة السيدة فاطمة ﷺ يوم الأحد، مفاتيح الجنان). فالحقيقة لا يمسّها إلا المطهّرون، وغير الظاهر يُطرد من المحضر مباشرة.

لا فائدة منها وظنون لم ولن تعود عليه بأية نتيجة^(١). يعني أن من يريد أن يأخذ التوحيد من الذات مباشرة، وأن يتعرّف على الحق بشكل مباشر ومستقل^(٢)، سيجد أن باب مقام معرفة الحق موصد^(٣)، وكلّ حديث في هذا الباب إنما يذهب سدى. ولأننا نريد أن نتمّ كلامنا، سنخوض أكثر في هذا البحث ونستعرض المطلوب بمقدار.

إرتباط رسول الله ﷺ بالتوحيد هو بالإسم

لا يوجد في الخلق من له الأسبقية^(٤) والرائدية على رسول الله ﷺ في التوحيد.

(١) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَكِرَابٍ بَقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوفَهُ حِسَابًا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، (سورة النور، آية ٣٩). من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «يقول أمير المؤمنين عليه السلام: يا أهل التّوحيد ويا أهل الفلسفة، كلّ ما قلتموه في التّوحيد وحاولتم أن تنسبوه إلى الله تعالى ظانين أنه للذات المقدسة، فهو مخلوق لكم مصنوع من محض خيالكم ووهمكم»، انتهى. يقول الإمام الباقر عليه السلام: «كلّ ما ميزتموه بأوهامكم في أدق معانيه مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم، ولعل النمل الصغار تتوهم أن الله تعالى زبانيّتين، فإن ذلك كمالها، ويتوهم أن عدمها نقصان لمن لا يتصف بهما، وهذا حال العقلاء في ما يصفون الله تعالى به»، بحار الأنوار، ج ٦٦ ص ٢٩٣.

(٢) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «كلّ من يريد التّوحيد من غير مجرى هؤلاء (محمّد وآل محمد ﷺ)، لن ينال سوى الإلحاد والشّرك والضلال، وكلّ ما توهمه من نتائج، فهو من فكره وخياله ووهمه».

(٣) يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «انتهى المخلوق إلى مثله، وألجأ الطلب إلى شكله، الطلب مردود، والطريق مسدود»، تفسير ستّ سور، ج ١ ص ٤٦٣.

(٤) ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾، (سورة الواقعة، آية ١٢). عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن بعض قريش قال لرسول الله ﷺ: بأيّ شيء سبقت الأنبياء وفُضِّلْتَ عليهم وأنت بعثت آخرهم وخاتمهم؟ قال: إني كنت أوّل من أقرّ بربي جلّ جلاله، وأوّل من أجاب، حيث أخذ الله ميثاق النّبيين، وأشهدهم على أنفسهم: أأست بربكم؟ قالوا: بلى، فكنت أوّل نبيّ قال بلى فسبقتهم إلى الإقرار بالله عزّ وجلّ»، (بحار الأنوار، ج ١٥ ص ١٥). وعنه عليه السلام: «لما أراد الله تعالى أن يخلقنا تكلم بكلمة خلق منها نوراً ثم تكلم بكلمة =

جمال جان فزایش شمع جمع است مقام دلگشایش جمع جمع است
ز احمد تا احد يك ميم فرق است جهاني اندر آن يك ميم غرق است

إنه صاحب لواء الحمد، وذاته المقدسة هي الرائدة والقائدة في التوحيد، بحيث لم يتمكن كل الأنبياء حتى الآن من بلوغ غبار نعاله في هذا الباب ^(١). وعندما أريد للتوحيد أن يظهر له بتمامه وكماله وأن يُحقَّق له الاتصال التام به، وُجِّه فوراً إلى الإسم ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ^(٢). وقد تحقق هذا للرسول ﷺ في سنِّ الأربعين، حيث وجد الكمال المطلق وأراد الركون إلى مقام التوحيد. فحتى تلك اللحظة، كان رسول الله ﷺ قد رأى كل شيء في سلوكه، وعند سنِّ الأربعين وصل وأُعطي مقام ذروة التوحيد ^(٣). وهذا هو معنى البعثة، حيث تفتَّح برعم وجود النبي ﷺ في التوحيد.

=فخلق منها روحاً فمزج النور بالروح فخلقني وأخي علياً وفاطمة والحسن والحسين فكتنا نسبحة حين لا تسبيح ونقدسه حين لا تقديس... ثم فتق نور ولدي الحسين فخلق منه الجنة والحدور العين فنور الجنة والحدور العين من نور ولدي الحسين ونور ولدي الحسين من نور الله وولدي الحسين أفضل من الجنة والحدور العين...، مدينة المعاجز، ج ٣ ص ٤١٩؛ تأويل الآيات، ج ١ ص ١٣٧.

(١) ورد في الرواية: «... قال الله تعالى: يا حبيبي ويا سيد رسلي، ويا أول مخلوقاتي ويا آخر رسلي أنت الشفيع يوم المحشر، فخرّ النور ساجداً، ثم قام فقطرت منه قطرات كان عددها مائة ألف وأربعة وعشرين ألف قطرة، فخلق الله تعالى من كل قطرة من نوره نبياً من الأنبياء»، بحار الأنوار، ج ١٥ ص ٢٩.

(٢) (سورة العلق، آية ١)، ذلك أن الخلق لا طاقة لهم ولا قابلية عندهم تخولهم إدراك الذات، بل فقط إسم الذات واسم الرب، لهذا قال مولانا أمير المؤمنين (عليه السلام): «إنتهى المخلوق إلى مثله»، ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ (سورة الإسراء، آية ١٤)، الذي هو ﴿فَطَرَتَ اللَّهُ أَلَى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهِ لَا بُدَّ لِلْخَلْقِ إِلَهُ﴾ (سورة الروم، آية ٣٠)، وهذه الفطرة هي التوحيد مع المبدأ، وهم سلام الله عليهم مبدأ الخلق.

(٣) هذا في الظاهر، فمن كلام آية الله السيّد أحمد النجفي دام ظلّه: «إنّ الرسول الأكرم ﷺ أُعطي مقام العبوديّة ووصل إلى مقام الرسالة قبل أن يقوم بأيّ عمل أو حركة نحو مولاه... يقول النبي الأكرم ﷺ: «كنتُ نبياً وآدم بين الماء والطين»، (بحار الأنوار، ج ١٦ ص ٤٠٢). بل قبل أن ينتقش نقش الخلق، ظهرت نبوة النبي الأكرم =

سحرگه رهروي در سرزميني چنين گفـت اين معمّا با قريني
كه اي صوفي شراب آنكه شود صاف كه در شيشه بماند اربعيني
وتعتبر «الأربعون»^(١) واحدة من أصول الطريق التي دار حولها الكثير من
البحث.

فبعدما انقضى من عمره الشريف أربعون عاماً، مُنِحَ ذلك المقام وحصل على
مرتبة النبوة والرسالة. ولكن كيف جرى ذلك؟ قيل له: ﴿أَفَرَأَيْتَ رَبَّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، أي
تعرف على اسمه. فالظهور التام للتوحيد في كمال «النبوة» هو بالتعرف على الاسم
في المظهرية. هذا في التوحيد، وفي العبادة الأمر سيان ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾^(٢).
أراد النبي الأكرم ﷺ نفسه أن يتعبد بعبادة لم يسبقه إليها أحد من الموجودات
في العالم، فقيل له ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾^(٣). ولم نتجاوز مقام الاسم لنخوض في
المضاف إليه. فلو وصل أحدٌ إلى عالم «ربك الأعلى»، سوف «يعمل في أطباق
السما»^(٤)، طبقاً لحديث الإمام الصادق عليه الصلاة والسلام، وسيكون نفسه

= لشهادة العقول «أن كلَّ صفة وموصوف مخلوق»، فوجوده ﷺ ليس في مرتبة الصفة
والموصوف بل هو فوق هذا.

(١) إن رجلاً سأل أبا جعفر ﷺ عن قول الله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾
(سورة الأعراف، آية ١٧٢)، فقال - وأبوه ﷺ يسمع: حدّثني أبي أن الله عز وجل قبض
قبضة من تراب التربة التي خلق منها آدم ﷺ، فصبَّ عليها الماء العذب الفرات ثم
تركها أربعين صباحاً ثم صبَّ عليها الماء المالح الأجاج فتركها أربعين صباحاً فلما
اختمرت الطينة أخذها فعركها عركاً شديداً، فخرجوا كالذر من يمينه وشماله، وأمرهم
جميعاً أن يقفوا في النار فدخل أصحاب اليمين فصارت عليهم برداً وسلاماً، وأبى
أصحاب الشمال أن يدخلوها، الكافي، ج ٢ ص ٧ ح ٢.

(٢) سورة الأعلى، آية ١.

(٣) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «عندما يخاطب الحقّ تعالى
الرسول الأكرم ﷺ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، فإنّ لسان حال الحقّ تعالى معه: يا نبي الله،
إذا أردت أن ترد وادي التوحيد، فسوف أقول لك حديثاً لم أقله لأحد من الأنبياء قبلك
وهو أنّ باب التوحيد أن تكون عارفاً بالاسم وهو الذي يُوصلك إلى نقطة التوحيد، ولذا
قال النبي ﷺ: «أنا وعليّ من نور واحد»، فالوحدة هي مع الاسم».

(٤) عن يونس بن ظبيان، «قال: دخلت على الصادق سلام الله عليه فقلت: يا ابن=

مخرجاً لعالم الخلق^(١). يقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(٢)، وعن

=رسول الله إني دخلت على مالك وأصحابه فسمعت بعضهم يقول: إن الله له وجهٌ كالوجه، وبعضهم يقول: له يدان، واحتجوا في ذلك بقوله تعالى: ﴿قَالَ يَبْلِسُ مَا مَنَّكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيدَيَّ اسْتَكَبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْغَالِينَ﴾ (سورة ص، آية ٧٥). وبعضهم يقول: هو كالشباب من أبناء ثلاثين سنة! فما عندك في هذا يا ابن رسول الله؟ وكان متكأً فاستوى جالساً فقال: «اللهم عفوك عفوك»، ثم قال: «يا يونس، من زعم أن الله وجهٌ كالوجه فقد أشرك، ومن زعم أن الله جوارح كجوارح المخلوقين فهو كافر بالله، فلا تقبلوا شهادته ولا تأكلوا ذبيحته، تعالى الله عما يصفه المشبهون بصفة المخلوقين، فوجه الله أنبيأؤه وأولياؤه، وقوله: ﴿خَلَقْتُ يَدَيَّ اسْتَكَبَرْتَ﴾ فاليد القدرة كقوله: ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ﴾ (سورة الأنفال، آية ٢٦). فمن زعم أن الله في شيء أو على شيء أو يحول من شيء إلى شيء أو يخلو منه شيء أو يشغل به شيء فقد وصفه بصفة المخلوقين، والله خالق كل شيء لا يقاس بالقياس ولا يُشَبَّه بالناس، لا يخلو منه مكان قريب في بعده، بعيد في قربه، ذلك الله ربنا لا إله غيره، فمن أراد الله وأحبه بهذه الصفة فهو من الموحدين، ومن أحبه بغير هذه الصفة فالله منه بريء ونحن منه براء». ثم قال سلام الله عليه: «إن أولي الألباب الذين عملوا بالفكرة حتى ورثوا منه حبَّ الله، فإن حبَّ الله إذا ورثته القلوب استضاء به وأسرع إليه اللطف، فإذا نزل منزلة اللطف صار من أهل الفوائد، فإذا صار من أهل الفوائد تكلم بالحكمة، فإذا تكلم بالحكمة صار صاحب فطنة، فإذا نزل منزلة الفطنة عمل بها في القدرة. فإذا عمل في القدرة عرف الأطباق السبعة، فإذا بلغ هذه المنزلة يتقلب في لطف وحكمة وبيان، فإذا بلغ هذه المنزلة جعل شهوته ومحبتة في خالقه، فإذا فعل ذلك نزل المنزلة الكبرى فعاين ربه في قلبه وورث الحكمة بغير ما ورثه الحكماء، وورث العلم بغير ما ورث العلماء، وورث الصدق بغير ما ورثه الصديقون...» ثم قلت: يا ابن رسول الله إنَّ عبد الله بن سعد دخل عليك بالأمس فسألك عما سألك فأجبته بخلاف هذا. فقال: يا يونس، كلَّ امرء وما يحتمله ولكلَّ وقت حديثه، وإنَّك لأهل لما سألت فاكتمه إلا عن أهله»، غاية المرام وحجة الخصام، ص ٢٠٩ - ٢١٠.

(١) ورد في الحديث: «إنَّ الله عبادة إذا أرادوا أراد»، (أضواء على السنة المحمدية، ص ١٢٥). كما ورد: «إنَّ الله عبادة أطاعوه في ما أراد فأطاعهم في ما أرادوا يقولون للشيء كن فيكون»، مشارق أنوار اليقين، ص ١٢٩.

(٢) (سورة الأعراف، آية ١٨٠). «كلَّ شيء يتصور في عالم الوجود ليس شيء منها إلا وهو من آثار الأسماء الحسنى، وهي بتمام شؤونها مظهر لاسم الله الذي هو مبدأ ظهورهم، فكلَّ شيء يدلُّ بما هو مصنوع على وجود صانع له من مراتب الوجود فهو لديكم»، الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٣٥١.

رسول الله ﷺ أنه قال: «الدعاء^(١) مخّ العبادة»^(٢). أراد رسول الله ﷺ الوصول في العبادة إلى مخّها. فكيف وصل إلى مخّ العبادة؟ وكيف اتصل بالتوحيد حتى وصل إلى ذلك المخّ؟ ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾.

ما معنى التوحيد؟

في المعراج، رُفعت «الإنثينية» المفترضة بين محمد وعلي^(٣)، ووُجدت حقيقة نورية واحدة^(٤)، وهذا هو «التوحيد». وأقولها بتعبير آخر، التوحيد معناه أن

(١) من كلام لآية الله السيد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «كلّ الأدعية وخصوصاً أدعية الصحيفة السجادية فيها تصريح بالعجز عن معرفة الذات وترغيب بمعرفة الأسماء والصفات، حتّى بالنسبة للذات المصطفاة المصطفى ﷺ، فإن الله يأمره بتسييح اسم الرب: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾».

(٢) قال رسول الله ﷺ: «الدعاء مخّ العبادة ولا يهلك مع الدعاء أحد»، وسائل الشيعة، ج ٧ ص ٢٧.

(٣) عليّ هو نفس محمد صلى الله عليهما وآلهما بدليل آية المباهلة: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ (سورة آل عمران، آية ٦١) وقد أمر النبي الأعظم ﷺ بحبّ نفسه أي بحبّ عليّ بن أبي طالب ﷺ الذي كان مرقاته للعروج إلى الله تعالى فدنا فندلى فكان قاب قوسين أو أدنى دنوّاً واقترباً من العليّ الأعلى؛ «إن موسى في الميعاد خوطب بخطاب فاخلع نعليك وقد فُسّر بمحبة الأهل، والرسول الخاتم ﷺ قد أمر في ميعاده بأن يحبّ عليّاً، وفي القلب من هذا السرّ جذوره ما أبرز منها شيء»، الآداب المعنوية للصلاة، ص ١٩٧.

(٤) قال رسول الله ﷺ: «أنا وعليّ من نور واحد»، (بحار الأنوار، ج ٣٥ ص ٣٤؛ أمالي الصدوق، ص ٢٣٦). عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: «كنا عند النبي ﷺ، إذ دخل علي بن أبي طالب ﷺ فقرّبه النبي ﷺ، فتعانقا حتى أنهما صارا شخصاً واحداً فتفقدنا أمير المؤمنين ﷺ فلم نجد له عيناً ولا أثراً، فزدنا تعجباً فقلنا: يا رسول الله، ما الذي جرى لابن عمك؟ وما نراك إلا وحدك! قال: فتبسّم النبي ﷺ وقال: يا قوم، أما سمعتم مني: أني أنا وعليّ من نور واحد؟ ولما تعانقنا اشتاق هو إلى المنزل الأول من نورنا فامتزج نوره بنوري حتى بقينا شخصاً واحداً كما ترون. قال: فلما سمعنا ما قال النبي ﷺ، رعبت قلوبنا واصفرّت وجوهنا وقد طالبت غيبة أمير المؤمنين ﷺ فقالوا: يا رسول الله، بحق من أرسلك بالحق إلا ما أخبرتنا كيف صار عليّ ﷺ فأحضره إلينا=

يتخلّص الموالى والشيعة والمحبّ لأهل البيت عليهم الصلاة والسلام من تشتّت عالم الطبيعة ويرجع إلى المنبع النوري الأصلي لخلقته وجوده. هذا هو التوحيد وغير هذا ليس توحيداً. فكلّ مَنْ هو من ذلك الأصل^(١)، أي من منبع النور^(٢)، يستطيع الرجوع إلى التوحيد. أما مَنْ ليس من هناك، فلن يتمكن من الوصول إلى التوحيد. وبالتالي، إذا لم ينفصل المرء عن منبع النور ذاك، لن يتمكن من الوصول إليه مجدداً، مهما نسج وكتب عن الله والأسماء والصفات. وما من أحد يستطيع القول: ﴿إِنَّا^(٣) لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، إلا محمداً وآل محمد ﷺ ومحبيهم.

=حتى يزول الشك من قلوبنا فقال رسول الله ﷺ: عليّ مني وأنا من عليّ، فرأينا قد جلّله العرق فظهر من جبهته مصباح من نور حتى ظننا أنه نار قد عمّت المشارق والمغارب فاشتدّ فزعنا حتى ظننا أن كلنا نحترق وأهل الأرض كلهم يحترقون من نور ذلك المصباح فلما رأى النبي ﷺ حالنا صرخ صرخة وقال: أين قيوم الأملاك؟ أين مدبر الأفلاك؟ أين مبدع الكائنات؟ أين حقيقة الموجودات؟ أين عالم الغيب والمكاشفات؟ أين الصراط المستقيم وبغضه عذاب أليم؟ أين أسد الله؟ أين الذي دمه دمي ولحمه لحمي وروحه روحي؟ أين الإمام الهمام؟ قال: فإذا بصوت عليّ ﷺ ينادي لبيك لبيك يا سيّد البشر! فلما سمعنا صوته جعلنا ننظر إليه من أين يظهر وإذا به قد ظهر من جنب النبي الأيمن وهو يقول لبيك لبيك. قال جابر: لما غاب عليّ ﷺ في النبي ﷺ وظهر منه سألته كيف دخوله وخروجه منك يا رسول الله؟ قال: فقال يا جابر: إن غيبة عليّ ﷺ كانت أمراً يعلمه الله وهو إنه لما التصق صدره بصدري امتزج لحمه بلحمي ودمه بدمي ونوره بنوري كما كنا في موطننا الأول قبل هذه الهياكل البشرية حتى صرنا هناك كذلك شخصاً واحداً بإذن الله تعالى»، صحيفة الأبرار، ج ٢ ص ١٣٣.

(١) ورد عن الإمام أبي جعفر ﷺ أنه قال: «إن الله عز وجل خلق الخلق فخلق من أحبّ مما أحب، وكان ما أحبّ أن خلقه من طينه الجنة، وخلق من أبغض مما أبغض وكان ما أبغض أن خلقه من طينه النار»، بحار الأنوار، ج ٥ ص ٢٤٤.

(٢) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «كلّ ما يكون له اعتبار في عالم الحقيقة لا بدّ أن يكون من عتبة باب بيت محمّد وآل محمّد ﷺ، ولو أنّ شخصاً قدّ هذا الأمر، فليس له أيّ اعتبار على الإطلاق مهما أُعطي من إسم ورسم وشهرة ونُسب له العلم والمعرفة».

(٣) (سورة البقرة، آية ١٥٦). قال إمامنا الصادق ﷺ: «كلّ ما كان في القرآن من جمع نحن فعلنا وإنّا صنعنا، فنحن والله أولئك الرسل الذين نكتب ونقسم بأمره تعالى وإرادته=

مجدداً، ننظر إلى المسألة عبر الدليل^(١) الفطري. نعود إلى مقام العبادة، لأنه أينما كان منشأ العبادة يكون منشأ التوحيد وأينما كان منشأ التوحيد والعبادة يكون منشأ المعرفة. فمقام ومرتبة وعنوان الثلاثة، أي التوحيد والمعرفة والعبادة، هو واحد. وعليه، يتحقق الاتصال التام بالحق في التوحيد، أثناء تأدية الإنسان لصلاته، في العبادة. ويتوجّه الإنسان إلى الله، بأي من نقاط وجوده، حين يركن إلى محبة أمير المؤمنين وبقية أهل البيت عليهم السلام، وعندها تمتلئ تلك النقطة الوجودية به. وهذا هو المعراج^(٢) والاتصال. ولا يكون الوصول إلى التوحيد في العبادة بأن يتوجّه الإنسان في زاوية منفصلة من وجوده إلى الحق فيما يخصّ زاوية أخرى للتوجّه والتوسل والاتصال^(٣) بمحمد وآل محمد عليهم الصلاة والسلام. بل هناك نقطة واحدة في وجود الإنسان يسكن فيها كلا الحق والذوات المقدسة وهذه النقطة هي «نقطة الوحدة». وبالتالي، فإن نفس

=ومشيئته، ومتى كان من أحد فرد فهو الله ربنا»، (صحيفة الأبرار، ج ٢ ص ٥٢٥ - ٥٢٦). وعبارة «إنا لله» بصيغة الجمع، ما يعني أنهم هم فقط من الله وإليه يرجعون وكلّ ما سواهم منهم عليهم السلام واليهم يرجعون، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «أنا من الله والكلّ منّي»، (الأربعين في حبّ أمير المؤمنين، ج ١ ص ١٤٥)، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنا صنائع ربنا والخلق بعد صناعنا»، (نهج البلاغة، رسالة ٢٨)، كما ورد في الزيارة الجامعة الكبيرة: «إياب الخلق إليكم»، (مفاتيح الجنان) والإياب هو الرجوع. كما ورد في الزيارة الرجبية: «لا فرق بينك وبينها إلا أنهم عبادك وخلقك فتقها ورتقها بيدك بدوها منك وعودها إليك»، (مفاتيح الجنان). ومن كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «عندما يصبح واحداً مع الأنوار الأربعة عشر، فإنّه في كلّ لحظة ومع كلّ طرفة عين يتحقق له مبدأ ومعاد».

(١) إن أدركت الشيء بذاته فلا تحتاج إلى الدليل وإذا احتجّت إليه، فليس ذلك حينئذ إلى إدراك ذاته من سبيل.

(٢) «الصلاة معراج المؤمن»، (بحار الأنوار، ج ٧٩ ص ٣٠٣). قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا صلاة المؤمن»، (فضائل ابن شاذان، ص ٨٣). كما ورد عنه عليه السلام: «فمن أقام ولايتي فقد أقام الصلاة»، (بحار الأنوار، ج ٢٦ ص ١ - ٣)، وبالتالي يتحقق معراجه إلى الله.

(٣) «الصلة والمودة إنّما تُرادفان المعرفة، فكلّما ازدادت ازدادت»، الشمس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٢٨.

النقطة الوجودية التي تنادي بها «يا الله»^(١)، تنادي أيضاً «يا محمد» و«يا علي»^(٢)، وهذا هو الرجوع إلى أصل العالم النوري.

معنى «لا إله إلا الله»

سأبيّن معنى عبارة التوحيد، «لا إله إلا الله»^(٣)، وأترجمها: «ما من شيء يُعشّق غير تلك الحقيقة التي هي نفسها خالقة للعشق». ف«الله» يعني الحقيقة الخالقة للمحبة^(٤) وهي التي يجب عبادتها. وما من أحد متعلّق بهذه المحبة سوى محمد وآل محمد عليهم الصلاة والسلام، أي أن «الله»، الذي هو الحقيقة الخالقة للعشق، لا يظهر إلا بوسيلتهم هم فقط، أي بوسيلة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام^(٥).

(١) ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (سورة الإسراء، آية ١١٠). عن الإمام الرضا عليه السلام: «إذا نزلت بكم شدة فاستعينوا بنا على الله عزّ وجلّ وهو قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾»، (عيون أخبار الرضا، ج ١ ص ١١٨ باب ١١ ح ٩)، ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾، سورة الأعراف، آية ١٨٠.

(٢) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «عندما يصل عملك وسعيك إلى سدّ يمنع من تحقّق ما تريد وتقول: «يا عليّ»، عند ذلك يتولّد أمير المؤمنين عليه السلام في وجودك، وهذه هي المعرفة».

(٣) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ قشر وظاهر «لا إله إلا الله» هو اللفظ المتداول على اللسان، وأمّا روح «لا إله إلا الله» فهو الموحّد. قد يجد السالك الغوّاص في عالم التّوحيد هذه الكلمة وحقيقتها في نفسه، ولكنّه قد يتوجه في هذا السلوك التّوحيديّ الخاص إلى شخص واحد كبير وهو الشيخ والمرشد أو المراد والأستاذ. ولذلك تجد أنّ الإنسان في كلّ حياته بتمام أدوارها كان يتوجه دائماً نحو هذا الشخص الواحد وهو المراد أو الشيخ أو المرشد، وهذا أمر فطري، ونفس هذه الفطرة هي التي تطلب الأنبياء وتريد الأولياء».

(٤) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ أوّل ما شرّع من الحقّ تعالى وظهر هو المحبة، وعندما ظهر العشق أحرق كلّ العالم».

(٥) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «كلّ ما هو غير محمد وآل محمد لا بدّ من إسقاطه لأنّ التّوحيد هو إسقاط الإضافات».

على الإنسان أن يحتاط بمقدار ولا يقول كلاماً جريئاً إلى هذا الحدّ، ولذا فلنرجع إلى كلمات المعصومين عليهم الصلاة والسلام^(١)، ولنر ما يقوله المعصوم في الدعاء الرَّجِيّ: «لا فرق بينك وبينها إلا أنهم عبادك وخلقتك»^(٢). إذاً، لنضع مقام الذات جانباً^(٣) ولننتجّه إلى مقام الأسماء والصفات. يتحقق ظهور الأسماء والصفات^(٤) فيهم ﷺ، والمعنى نفسه موجود في آية ﴿اللَّهُ نُورٌ

(١) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «محيي الدين العربي في الفصوص يرفع الفاصلة بين هذه الفصوص من الفصّ الآدمي والفصّ الإبراهيمي وغيرها من فصوص الأنبياء ﷺ، ولكن لو جُمعت كلّ كلمات محيي الدين وورائته في هذا العالم فلا يمكن أن تكون بمستوى كلمة واحدة من كلمات الإمام الجواد أو كلمة واحدة من كلمات أمير المؤمنين وكلمات الأئمة ﷺ». وفي إحدى المرات التي تشرف فيها، حفظه الله، بزيارة عمته رقية سلام الله عليها، اتفق أن سأله أحدهم عن محيي الدين ابن عربي، فقال: «إن محيي الدين ابن عربي لهو أفضل من ألف ألف عالم من العلماء، لكنّ تراب عمّي رقية أفضل من ألف ألف محيي الدين ابن عربي».

(٢) (دعاء في كل يوم من شهر رجب، إقبال الأعمال، ج ٣ ص ٢١٤). يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «(لا فرق بينك وبينها)، هنا لا فرق بينك وبين هذه المعاني (إلا أنهم)؛ ضمير الهاء (ها) يشير إلى الكلمات والمعاني، وأمّا ضمير (هم) فيشير إلى الشخص والتعین، بمعنى أنّ هذه الكلمات والمعاني تصير (هم) في الخارج والتعین». وفي موضع آخر يقول سماحته: ﴿فَقَالَ أَنِّيؤِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، حيث يوجد الشخص والتعین».

(٣) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾، فاتقوا الله هو التقوى عن منطقة الذات، وهذه أرفع مراتب التقوى، وهو منعٌ مطلق من التعرّض لمنطقة الذات».

(٤) «إذا اعتبرنا الأسماء والصفات، فإنّا لا نجد أعظم من ثلاثة أسماء: اسم الذات، واسم الصفات، واسم هو سرّ الذات وروح الصفات، وهي الكلمة الجارية في سائر الموجودات، فهي سرّ الذات وسرّ الصفات وبها تنفعل الكائنات، فاسم الذات الله «الواحد» وهو الاسم المقدس وهو علم على ذات الأحد الحق، واسم الصفات الأحد الواحد وهو «محمّد». والاسم الذي هو روح الصفات وسرّ الذات «عليّ»، وهو نور النور. وكل واحد من هذه الثلاثة اسم أعظم: فاسم الجلالة هو الاسم المقدس والمكرّم، واسم «محمّد» ﷺ هو ظاهر الاسم الأعظم، لأن الواحد صورة الوجود، ومنبع الوجود، وظاهر المعدود. واسم «عليّ» ظاهر الباطن وباطن الظاهر، فهو=

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»، فالله ليس في مرتبة الذات بل الاسم. وثمة حقيقة واحدة لا أكثر، وهي أن المقام العلوي هو نور السماوات والأرض. إنه ينير البصر^(١)

= الاسم الأعظم بالحقيقة، لأنه جامع سرّ الربوبية، وسرّ النبوة، وسرّ الولاية، وسرّ الحكم والسلطنة، وسرّ الجبروت والعظمة، وسرّ التصرف والهيبة. وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وهو عليّ عليه السلام. وبيان ذلك أنك إذا قلت: «ال ل م» تضمن بكل حرف منها محمد وعليّ عليه السلام، وإذا قلت الله فإنه علم على ذات المعبود واجب الوجود، وإذا قلت: يا الله، فإلياء ناديت، والاسم ناجيت، والمعنى عنيت، فهو اسم الذات المقدسة، أو إذا أشبعت ضمة الهاء منه برزت الذات وفي طيّ حروفه اسم علي، فهو يشير بالمعنى إلى ذات الرب المعبود، وبالحروف إلى الكلمة التي قام بها الوجود، وإذا قلت: لا إله إلا هو، وهي حروف التنزيه والنفي والإثبات وهي عشرة. وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ ومعناها أنه لا إله في الوجود واجب الوجود حي موجود لذاته قادر عالم مستحق للعبادة إلا الله، ثم إن أعداد حروفها تتضمن اسم عليّ ظاهراً وباطناً، ومعناه: الله لا إله إلا الله، علي سرّه الخفي، وأمينه الولي، ونوره المشهور في السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»، مشارق أنوار اليقين، ص ٢٩٧.

(١) عن يونس بن ظبيان، قال: «استأذنت على أبي عبد الله عليه السلام فخرج إليّ معتب فأذن لي، فدخلت ولم يدخل معي كما كان يدخل. فلما أن صرْتُ في الدَّار، نظرتُ إلى رجل على صورة أبي عبد الله عليه السلام، فسلمتُ عليه كما كنتُ أفعل، قال: من أنت يا هذا؟ لقد وردت على كفر أو إيمان. وكان بين يديه رجلان كأنَّ على رؤوسهما الطير، فقال لي: أدخل. فدخلت الدَّار الثانية، فإذا رجلٌ على صورته صلى الله عليه، وإذا بين يديه جمعٌ كثيرٌ كلهم صورهم واحدة، فقال: مَنْ تريد؟ قلت: أريد أبا عبد الله. فقال: قد وردتُ على أمرٍ عظيم، إمَّا كفر أو إيمان. ثم خرج من البيت رجلٌ قد بدا به الشيب، فأخذ بيدي، وأوقفني على الباب وغشي بصري من النور، فقلت: السلام عليك يا بيت الله ونوره وحجابه. فقال: وعليك السلام يا يونس. فدخلتُ البيت فإذا بين يديه طائران يحكيان، فكنتُ أفهم كلام أبي عبد الله عليه السلام ولا أفهم كلامهما. فلما خرجا قال: يا يونس، سل، نحن نجلي النور في الظلمات، ونحن البيت المعمور الذي من دخله كان آمناً، نحن عزة الله وكبريأؤه. قال: قلت: جُعِلْتُ فداك، رأيتُ شيئاً عجيباً، رأيتُ رجلاً على صورتك! قال: يا يونس، إنا لا نوصف، ذلك صاحب السماء الثالثة يسأل أن استأذن الله له أن يصيِّره مع أخ له في السماء الرابعة. قال: قلت: فهؤلاء الذين في الدار؟ قال: هؤلاء أصحاب القائم من الملائكة. قال: قلت: فهذان؟ قال: جبرئيل وميكائيل، نزلا إلى الأرض، فلن يصعدا حتى يكون هذا الأمر إن شاء الله (تعالى)، =

والعقل^(١) على السواء، فمقام «العقل» هو السماوات ومقام «الحس» هو الأرض. وكذلك فإن «القلب»^(٢) مقام السماوات و«العين» مقام الأرض. أما في ظاهر عالم الطبيعة، فالأرض هي التراب والسماوات هي عالم السموات والعلو الجوي.

المراتب الأربع للتوحيد

للتوحيد أربع مراتب^(٣)، ولذلك نرى اختلافاً في العبارات التي ترد في القرآن الكريم. ففي بعض المواضع، ترد عبارة «لا إله إلا الله»^(٤)، حيث يكون

=وهم خمسة آلاف. يا يونس، بنا أضاءت الأبصار، وسمعت الآذان، ووعت القلوب الإيمان»، (دلائل الإمامة، ص ٢٧٠ - ٢٧١). وأمير المؤمنين عليه السلام يقول: «وما برح الله عزت آلاؤه في البرهة بعد البرهة، وفي أزمان الفترات، عباد ناجاهم في فكرهم، وكلمهم في ذات عقولهم، فاستصبحوا بنور يقظة في الأسماع والأبصار والأفئدة»، بحار الأنوار، ج ٦٦ ص ٣٢٥.

(١) عن علي بن أبي طالب عليه السلام: «أن النبي صلى الله عليه وآله سئل ممّا خلق الله عزّ وجلّ العقل؟ قال: خلقه ملك له رؤوس بعدد الخلائق من خلق ومن يخلق إلى يوم القيامة، ولكل رأس وجه، ولكل آدمي رأس من رؤوس العقل، واسم ذلك الإنسان على وجه ذلك الرأس مكتوب، وعلى كل وجه ستر ملقى لا يكشف ذلك الستر من ذلك الوجه حتى يولد هذا المولود ويبلغ حدّ الرجال أو حدّ النساء، فإذا بلغ كُشف ذلك الستر فيقع في قلب هذا الإنسان نورٌ فيفهم الفريضة والسنة والجيد والرديّ ألا ومثل العقل في القلب كمثّل السراج في وسط البيت»، علل الشرائع، ج ١ ص ١٢١ - ١٢٢.

(٢) «إن العقل مظهر أسمائه اللطيفة، والنفس مظهر أسمائه القهرية. وكذلك كل عضو من أعضائه، فإنه مظهر اسم من أسمائه وقوة من قواه، بخلاف القلب، فإنه مظهر جميع أسمائه وصفاته»، جامع الأسرار ومنبع الأنوار، ص ٢٠٣.

(٣) وهي عبارة عن: قشر القشر، والقشر، واللّب، ولّب اللب. وأما مراتب هذه الحالات فثلاث: ١ - الثقة بالتوكّل، وهو يكون معتقداً بكمال قدرته ومنتهى هدايته وشفقته، إذ إن عدم وجدان هذا الاعتقاد من ضعيف اليقين أو مرض القلب لاستيلاء الجبن والخوف. ٢ - كثقة الصبيّ بأمّه وفزعه إليها في ما يصيبه وهو فإن في توكّله عن توكله. ٣ - أن يكون بين يدي الحق كالميت بين يدي الغسال.

(٤) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (سورة الصافات، آية ٣٥). «كما ترى في=

المُسْتَثْنَى هو الكلمة المباركة التي أتت بعد حرف الإستثناء «إلا»، أي لفظ الجلالة «الله»، بالإسم والتشخيص. وفي موضع آخر، ترد عبارة «لا إله إلا هو»، حيث يحلّ الضمير الغائب «هو» محل «الله» بعد «إلا» فيكون «هو» المستثنى وليس اسم الجلالة. إذًا، هنا استُبدِلَ إسم الجلالة «الله»، الذي هو اسم ظاهر، بضمير الغائب. وحين يتعرف العارف والسالك^(١) إلى الحقيقة بقدر ما، فإنه يرتقي إلى أبعد من هذين المقامين ليصل إلى مقام «لا إله إلا أنت»^(٢)، حيث يرد

=الكتاب التدويني، فإنّ كلمة لا إله إلا الله مع كونها ألفاظاً حادثة، مشتملة على معنى حادث، ألّفها الله سبحانه تأليفاً إذا قلتها تدلّك على توحيده تعالى، وتنزيهه من كلّ صفات المحدثات، فكذلك خلّقتك وألّفك على هيئة وصفة تدلّ بذاتك على توحيده، وتنزيهه عن كلّ صفات المحدثات، مع أنك محدث، فأنت كلمة لا إله إلا الله في التكوين، كما أن هذه الكلمة كلمة التوحيد في التدوين والتشريع، فافهم... مثاله أيضاً في الكتاب التدويني، فإنّك حين تقرأ القرآن لسان الله سبحانه، فهو يخاطبك بلسانك، ولذا إذا قرأت قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (سورة طه، آية ١٤)، لا يلزم منه كفر لأنه حينئذ قول الله تعالى بلسانك»، دُرر الأسرار، ص ٩٠ - ٩١.

(١) السالك عند سلوكه تتجلى عليه الأسماء والصفات الإلهية بالتجلي الصفاتي والتجلي الأسمائي والتجلي الذاتي فيشاهدها ويكون التجلي الصفاتي بأن يشاهد السالك في نفسه صفة الله، فيرى علمه أو قدرته أو حياته حياة وعلم وقدره الله، كأن يدرك أنّ الشيء الذي يسمعه قد سمعه الله وهو السميع، أو يدرك أنّ الشيء الذي يراه قد رآه الله وهو البصير، أو أنّ العلم في العالم منحصر بالله تبارك وتعالى. ففي التجلي الصفاتي كان يرى أنّ كلّ شيء يرجع إلى الله، أنا أسمع فالله سمع، أنا أعلم فالله هو علم أمّا التجلي الأسمائي فهو أن يشاهد في نفسه صفات الله المستندة إلى ذاته، مثل القائم، العالم، السميع، البصير، الحيّ، القدير وأمثالها، كأن يرى أنّ العليم في العالم واحد وهو الله، والسميع واحد وهو الله، والحيّ واحد هو الله. أمّا في التجلي الذاتي فيرى أن لا خالق ولا رازق ولا عليم إلا الله، أصلاً لا يرى شيئاً في هذا الوجود إلا الله ولا يرى نفسه عليمًا في قبال الله، بل كونه عليمًا هو عين كون الله عليمًا، أو أن يدرك أنّ الحيّ واحد وهو الله، وأنه ليس حيًّا أصلاً بل الحيّ هو الله فقط، وأخيراً أن يدرك أنه ليس القدير والحيّ والعليم إلا هو تقدّس وتعالى.

(٢) ﴿وَذَا التَّوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُغْلَبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَكَادَتْ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، سورة الأنبياء، آية ٨٧.

ضمير المخاطب «أنت» بعد «إلا». إذاً، في البداية، يرد اسم الجلالة بعد «إلا»، «لا إله إلا الله»، ثم يُعطى السالك^(١) مقداراً أكبر من الظرافة واللطافة في الإدراك، فيقترب أكثر، «لا إله إلا هو». بعد ذلك، يتحقق المزيد من القرب، «لا إله إلا أنت»، وهنا يكون الخطاب بشكل مباشر، فينتقل من «عالم الغيب»^(٢) المتمثل بـ«هو» إلى «عالم الشهود» المتمثل بـ«أنت».

ثم يتم الوصول، بمقدار، إلى الشهود المطلق^(٣)، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾

(١) في وادي المعرفة، «يختلف سالك الروح عن سالك الجسد، وتتفاوت المعرفة بين السالكين كل حسب مقدرته، فبعضهم يدرك المحراب والبعض يدرك الصنم. وكلما واصل السالك المسير كلما زادت معرفته بالأسرار ولا بدّ للسالك من أن يتّصف بالكمال حتى يستطيع مواصلة السير. كما يجب على السالك ألا يقنع بما يحصله من معرفة بل عليه أن يقول دائماً «هل من مزيد» حتى يصل إلى ذي العرش المجيد. وهذا الوادي طريق طويل لا تبدو له بداية ولا نهاية. وعلى السالك أن يبعد النوم من عينيه وأن يكون في سهاد وأرق دائمين»، منطق الطير، ص ١٠٣.

(٢) لا يمكن للإنسان الإطلاع على الغيب إلا إذا سما عن الماديّات والمحرمات، وسموّه هذا مرتبط بمدى مجاهدته لنفسه وتطهيرها وتزكيّتها ومنحها القوة بالتزام الطاعة وممارسة ضروب العبادات. ومتى ما سمّت عن العالم الماديّ، بدأت هذه النفس بإدراك المعاني الغيبية، وكلما سمّت أكثر كلما قوّى ارتباطها بعالم الغيب أكثر. مثلاً ذلك كمثّل الإنسان الذي ينظر من نافذة منزله، فيرى الخارج بمنظور محدود وضيق، ولكن إذا صعد إلى السطح، فإنه سيرى الخارج من خلال منظور أوسع وأكبر. وإذا سما أكثر وصعد إلى الطائرة مثلاً، فإنّ منظوره سيكون أكثر اتساعاً وشموليّة من أيّ وقت مضى. وعليه، كلما تسامى وانفصل عن حدود المكان، فستكون رؤيته أكبر وأشمل. وهكذا هو حال مُدرّكات الإنسان، فالروح ما دامت مسجونة في قفص الجسد، لن تتمكن من الرؤية إلا من منفذ العين، والسماع إلا من منفذ الأذن، بينما إذا ارتفع الإنسان بروحه وأخرجها من قفص جسده، فسيكون بمقدوره إدراك الغيبات التي لا يمكن للمُدرّكات المادية أن تدركها.

(٣) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «كلّ من يصل إلى مقام شهود التوحيد، يتحصّل له نفس الشهود التوحيديّ للحقّ تعالى، ويتدرّج في شهود مراتب التوحيد من «أشهد أن لا إله إلا الله» إلى «أشهد أن لا إله إلا هو» و«أشهد أن لا إله إلا أنت»، فكلّ من يشهد هذه الحقائق في هذه الموارد والمقامات، إنّما يشهد شهود الله لهذه الحقائق: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، ولا يمكن لأيّ شخص آخر أن يصل إلى =

فَاعْبُدُونِ»^(١). لذا، فإن نداء «لا إله إلا أنا» الذي تعالى من الشجرة الخضراء، جعل موسى يضطرب. وتقول الروايات إنه عندما تحقق الشهود العيني في الشجرة الخضراء وصدر منها نداء «لا إله إلا أنا»، اشتعلت النيران^(٢). ويقول أمير المؤمنين والإمام الصادق عليهما الصلاة والسلام: نحن كنا تلك الشجرة الخضراء^(٣) التي قالت «لا إله إلا أنا». وقد قال الإمام إنه كان هو لأنّ الشهود العيني لا يكون إلا لهم وحدهم دون سواهم.

= هذا الشهود»، وفي موضع آخر يقول سماحته: «هل تعلمون لماذا يشهد الله بهذه الشهادة ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ (سورة آل عمران، آية ١٨)؟ لأن علياً قال أشهد أن لا إله إلا الله، فشهد الله أنه لا إله إلا هو».

(١) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، سورة الأنبياء، آية ٢٥.

(٢) «سرّ آل محمد ﷺ في المؤمنين كالنار، أوجده الله تعالى في قلوبهم، فدعاهم إلى الإيمان به، كما دعا موسى بالنار فناجى معه»، الشمس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٢١١.

(٣) ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ (سورة يس، آية ٨٠). «إن الشجرة المباركة» هي شجرة الوجود المطلق ومظاهره الآفاقية والأنفسية، فاعلم أنّ الشجرة التي قال في شأنها: ﴿يَتَذَكَّرُ أَلْ أَدْلُكْ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبُلُ﴾ هي هذه الشجرة... و«الشجرة الطيبة» التي ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ هي هذه الشجرة... والشجرة التي خاطب الله تعالى بها موسى ﷺ بـ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ هي هذه الشجرة... لأنه جلّ جلاله أعظم وأجلّ من أن يرى أو يُشاهد في شجرة من شجر الدنيا المقيد المشاهد بعين الحس... والعجب كل العجب أنّ أرباب الظاهر يجوّزون تكليم الله من الشجرة بـ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ ولا يجوّزونه من الشجرة الإنسانية والتي هي أولى بذلك، لقوله تعالى: ﴿وَقِيَ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، ولقوله تعالى: «كنتُ سمعه وبصره ولسانه» الحديث، ولقول النبي ﷺ: «خلق الله آدم على صورته» حتى يفتنون بكفر العارفين بمثل هذا الكلام، وينكرون عليهم غاية الإنكار، ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾، ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾، (جامع الأسرار ومنبع الأنوار، ص ٣٠١ - ٣٠٢). ويقول الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾، (سورة يونس، آية ٣٩)، ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَنَعْنَاهُمُ الْخُرُوجَ مِنْ دَارِنَا﴾، (سورة الأحقاف، آية ١١).

«لا إله إلا أنا»، هي مرتبة «من عرفني بالنورانية فقد عرف الله»^(١). وكأنه هكذا يُمكن فهم كيف استطاعت الشجرة الخضراء أن تقول «لا إله إلا أنا»، فسقط موسى مغشياً عليه، لأنَّ الضربة والقدرة^(٢) والقوة التي صدرت من القائل وصلت إلى حدّ جعل موسى عاجزاً وخائر القوى بذلك النَّحو.

هذه هي المراتب التوحيدية التي نمضي باتّجاهها، وهي مراتب سلوكية يودّ العارف والسّالك بنتيجتها الحصول على المعرفة^(٣).

المعرفة النورانية ليست لأيّ كان

«مَن عرفني (مَن عرفنا) بالنورانية، فقد عرف الله»، نستحضر البحث حول العبارة الأولى نفسها، إذ يمكن الإستفادة من هذا الحديث الدقيق للغاية لارتباطه ارتباطاً وثيقاً بالبحث الأول، فكيف وأين يمكن إيجاد هذا النور الوارد في حديث «مَن عرفنا بالنورانية...»؟ ينبغي أن نتوجّه إلى القرآن^(٤) ونبدأ بهذا الحديث من هناك. أين لنا أن نجد في القرآن آية أقرب وأكثر مُطابقةً مع هذا الحديث من آية ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٥)؟ وهل تعني عبارة «فقد عرف الله»،

(١) قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «معرفتي بالنورانية معرفة الله عزّ وجلّ»، بحار الأنوار، ج ٢٦ ص ١.

(٢) «قوله: «واجتباكم بقدرته»، أشار (عليه السلام) إلى عالم القضاء الإلهي الذي هو عالم القدر في الخلق، وهو عالم تنزيلهم إلى عوالم الأسماء الحسنی التي هي مراتب اسم الله... فالمراد: أنّ الله جمع فيكم تمام مقدّراته وملائكم بها أعلاماً على قضائه لها...، الشُّموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ٣٠٣.

(٣) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «لا تتمّ المعرفة بأيّ شيء إلا أن يتوحدّ العارف مع المعروف بحيث يصبح واحداً معه».

(٤) سئل إمامنا الرضا (عليه السلام): ما تقول في القرآن؟ فقال (عليه السلام): «كلام الله لا تتجاوزوه ولا تطلبوا الهدى في غيره فضلّوا»، بحار الأنوار، ج ٨٩ ص ١١٧.

(٥) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «ترتبط هذه الآية، «الله نور السماوات والأرض»، برواية «من عرفني بالنورانية فقد عرف الله»، فكل من يعرف أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام في المقام النوري، يفهم كيف يكون الله نور السماوات والأرض. ولا يمكن لذلك أن يحصل بالمدارك العلمية، فهو يستلزم مدرکاً خاصاً».

أن الإنسان عندئذ يفهم من هو الله، أو ماذا يعني؟ وهل يمكن الوصول إلى الله أو فهمه بالعقل^(١) أصلاً؟ أو هل يمكن الوصول إليه بالعبادة؟ أو بالسلوك أو

(١) يتفاوت تعريف العقل وفقاً للجهة التي تعرّفه. فالمشهور عند العوام أن العقل هو محلّ تحليل الأفكار والصور التي يخزنها المرء وهو آلة (قوة) مُفكّرة يستخدمها الإنسان للوصول إلى نتائج معيّنة بناءً على مقدّمات تُعطى لها حتى يتم التفكير على أساسها، فإذا كانت تلك المقدّمات صحيحةً وسليمة، جاءت النتيجة صحيحةً وسليمة كذلك، أما إذا بُني التفكير على مقدّمات خاطئة، فستكون النتيجة خاطئة حتماً. أما عند أهل الآخرة، فالعقل هو «ما عُبد به الرحمن واكتُسب به الجنان»، (الكافي، ج ١ ص ١١). وقد سئل الإمام الحسن بن عليّ عليه السلام: ما العقل؟ فقال: «التجرّع للغصّة حتى تنال الفرصة»، (معاني الأخبار، ج ١ ص ٢٤٠). كما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «دليل العاقل التفكّر ودليل التفكّر الصمت»، (بحار الأنوار، ج ٧٥ ص ٣٠٠). وبالنسبة لأهل الله (العرفاء)، فما العقل إلا العقل الأوّل والكلّي الذي هو رسول الله ﷺ، فعنه ﷺ: «أول ما خلق الله نوري»، (بحار الأنوار، ج ٥٤ ص ١٧٠ ح ١١٧). وفي رواية أخرى: «أول ما خلق الله العقل»، (بحار الأنوار، ج ٥٥ ص ٢١٢). كما قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام حين سئل ما العقل: «جوهرٌ درّاك محيط بالأشياء من جميع جهاتها، عارف بالشيء قبل كونه، فهو علّة للموجودات ونهاية المطالب»، (شرح دعاء الصباح، ص ٤٥ - ٤٦؛ الكلمات المكنونة، ص ٧٦؛ قرّة العين في المعارف والحكم، ص ٣٦٤). وقد ورد عنه ﷺ: «وبالعقول تُعتقد معرفته»، (نهج البلاغة، الخطبة رقم ٤)، فالعقل هو محمّد والعقول هم الأئمة عليهم السلام. وإذا اتّصف المرء بالعقل يقال له «عقيل» إن كان رجلاً و«عقيلة» إن كانت امرأة، ولهذا ورد في زيارة السيدة زينب عليها السلام: «السلام عليك يا عقيلة العرب». وعلى كل حال، تتوقف معرفة كل أنواع العقول وتفكيرها على النور ومدى سطوعه عليها، فقد ورد عنهم عليهم السلام: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»، (بحار الأنوار، ج ٢٥ ص ٢١). «في قلب المؤمن ثلاثة أنوار: نور المعرفة (كالشمس) ونور العقل (كالقمر) ونور العلم (الكواكب)». وإنّ «العقل منه الكلّي ومنه الجزئي، والكلّي هو اسم الله الذي أشرق به السماوات والأرضون، وهو المذكور في سورة النور، وهو القلم الذي جرى في اللوح بما كان، وما هو كائن إلى يوم القيامة، وهو أول خلق من الروحانيين عن يمين العرش، وهو ركن العرش الأبيض... وأما العقل الجزئي: فهو رأس في العقل الكلّي، وذلك لأن الشخص له مرآة عن يمين قلبه، مركبها الدماغ، ووجهها إلى جهة العلو، فإذا اعتدلت أمزجتها صَفّت، فانطبع فيها نور وجه ذلك الرأس المختصّ بذلك الشخص، على هيئة العقل الكلّي، في مراحله المتسلسلة إلى الدماغ، لأنه ينطبع ذلك النور في مرآة المثال، =

بالذكر؟ أيمن ذلك؟ إن الله الذي يمكن الوصول إليه بالعقل أو بالذكر أو بالإدراك ليس الله، وهو خارج عن مسألة التوحيد^(١).

إذاً، ما المقصود من «الله»؟ المقصود هو الاسم. من هو الاسم؟ إنه الولي المطلق. فالتوحيد يطلّ من المقام الشامخ للولاية الكلية والمطلقة في كلّ زمان^(٢). ففي زمانٍ ما، أطلّ باسم أمير المؤمنين^(٣) عليه الصلاة والسلام أما في الوقت الحاضر، فيطلّ باسم حضرة بقية الله عجل الله فرجه. ولنُعدّ إلى الكلام السابق، إذا لم يكن أصل الإنسان من هذا النور، لن يتمكن من السفر إلى واديه ولن يكون مشمولاً بالمعرفة النورية، ما يعني أن السنخية ضرورية. وما لم يحظّ الإنسان بسنخية مع هذا النور، لن يتمكن من أن يصبح من أهل المعرفة النورية،

=والجميع في مرآة الدماغ من القلب، فتعلقه بدماغ الإنسان على هذا النحو، هذا معنى أنه متعلق بها تعلق التدبير، فحقيقته فيك أنه نور من العقل الكلي، أي ظهوره لك كظهور الشمس بنورها لك، ونور الشيء هيئته، وهو ذلك الانطباع المشار إليه. وهيئة العقل الكلي، هي مادة العقل الجزئي، انطباع تلك الهيئة في تلك الهيئة، في تلك المرايا، على حسب كبرها وصغرها وكدورتها واستقامتها واعوجاجها وجهتها وربتها ولونها، بحيث تحصل من ذلك الانطباع للمنطبع من تلك المرأة، هيئة تشبه المنطبعة، أو تقاربها في الشبه، أو تخالفها في الجهة أو الوضع، هي صورة العقل الجزئي»، (رسائل الحكمة، ص ٨٢ - ٨٣). وخلاصة القول إن العقل ليس واحداً عند كلّ الناس، فلا يظنّ أحداً أنه يمتلك عقلاً يخوّله فهم دين الله وإدراك ظواهر وبواطن كلام الله وآل الله، إذ قال مولانا زين العابدين عليه السلام: «إنّ دين الله لا يصاب بالعقول الناقصة والآراء الباطلة والمقاييس الفاسدة ولا يصاب إلاّ بالتسليم»، (كمال الدين وتمام النعمة، ص ٣٢٤)، وعن النبي الأعظم عليه السلام أنه قال: «خلق الله العقل لأداء حق العبودية، لا لإدراك الربوبية»، جامع الأسرار ومنبع الأنوار، ص ٤٨٥.

(١) بالعقل والفكر أو الذكر والعبادة يمكن الوصول إلى الجنة وليس إلى الله تعالى.
(٢) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «في معرفة الله لا بدّ من رفع الزّمان. وكذا في معرفة النبي ومعرفة الأنبياء عليهم السلام، لا بدّ من إدراك تلك الحقيقة في نفس ذاك الواقع الذي وقع فيه».

(٣) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ولو ظهرت للناس في صورة واحدة لهلك الناس، وقالوا: هو لا يزول ولا يتغيّر»، (مشارك أنوار اليقين، ص ١٦١). ويقول الله تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾، سورة الإنفطار، آية ٨.

إذ لن يشمل حديث «من عرفنا بالنورانية» ولن يكون من نصيبه. كيف يمكن الحصول على سُنخية هذا النور؟ بالصلاة أكثر؟ لا. بتلاوة القرآن أكثر؟ لا. إذاً، كيف نصبح من أهل المعرفة النورية؟ ما لم تكن خلقة الإنسان الأصلية من ذلك النور^(١)، فلن يتمكن من العودة إليه، وكذلك الأمر في التوحيد.

يعني التوحيد الرجوع من تفرقة عالم الطبيعة إلى أصل الوجود النوري. فإذا خُلِق الإنسان من هذا النور، وكانت خلقة وطينته نوريةً متوافقةً مع حديث «شيعتنا خلقوا من فاضل طينتنا»^(٢)، ستوقّر عنده السُنخية النورية وسيتمكّن، بالتالي، من السعي لتحصيل المعرفة النورية التي ستكون من نصيبه. وبخلاف ذلك لن يصل الإنسان إليها مهما سعى^(٣).

(١) روي عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ خلَقني وخلق عليّاً وفاطمة والحسن والحسين من نور واحد فعصر منه عصرة فخرج منه شيعتنا فسبّحنا فسبّحوا وقدّسنا فقدّسوا وهلّلنا فهلّلوا ومجّدنا فمجّدوا ثمَّ خلق تعالى السماوات والأرض وخلق الملائكة فمكثت الملائكة لا تعرف تسييحاً ولا تقديساً لما رأونا سبّحنا وقدّسنا وهلّلنا ومجّدنا وتبعنا شيعتنا، سبّحت الملائكة وقدّست تبعت بذلك، فنحن الموحّدون حيث لا موحّد غيرنا، فحقيق على الله عزَّ وجلَّ بما اختصنا واختص شيعتنا أن يزلّنا وشيعتنا في أعلى عِلين إنَّ الله اصطفانا واصطفى شيعتنا من قبل أن نكون أجساماً فدعانا فأجبناه فغفر لنا ولشيعتنا من قبل أن نستغفر الله عز وجل»، المحتضر، ص ١٢٧.

(٢) (شجرة طوبى، ج ١ ص ٣). وعن رسول الله ﷺ أنه قال لعليّ عليه السلام: «يا عليّ، أقرئ شيعتك السلام وأعلمهم أنَّهم إخواني، وأتّي مشتاق إليهم فليستمسكوا بحبل الله ويعتصموا به ويجتهدوا في العمل، فإنَّ الله تعالى راضٍ عنهم يباهي بهم الملائكة لأنَّهم وفوا بما عاهدوا الله تعالى وأعطوك صفو المودّة من قلوبهم واختاروك على الآباء والإخوة والأولاد، وصبروا على المكاره فينا مع الأذى وسوء القول فيهم فكن بهم رحيماً فإنَّ الله سبحانه اختارهم لنا وخلقهم من طينتنا، واستودعهم سرّاً وألزم قلوبهم معرفة حقّنا، وجعلهم متحلّين بخلّتنا لا يؤثرون علينا من خالفنا، فالناس في غمة من الضلال، قد عموا عن الحجّة وتكبّوا المحجّة، يصبحون ويمسون في سخط الله، وشيعتك على منهاج الحق لا يستأنسون إلى من خالفهم، وليست الدنيا لهم ولا همّهم منها أولئك مصاييح الدجى»، أمالي الصدوق، م ٨٣ ح ٢.

(٣) ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾، سورة الأعراف، آية ١٠١.

ولطالما ذكر أهل البيت عليهم الصلاة والسلام أنهم يعرفون عدد وأسماء وصفات وخصوصيات شيعتهم الذين هم من سنخ عالم النور ويقدرّون على الاتصال بهم بواسطته، وهؤلاء لا يزيدون واحداً ولا ينقصون^(١). فقد يتصف بعض الناس بعلامات ظاهرية، ولكن من ليس له حظ^(٢) من الخلقة النورية، ودخل في هذا الجمع، سرعان ما سيرحل حين يقع الإمتحان^(٣). فهؤلاء خلطوا أنفسهم وشكّلوا شبهةً للآخرين^(٤). كانوا يتخيّلون أن لهم نصيباً في هذه المسألة

(١) عن عبد الله بن الفضل الهاشمي قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «يا عبد الله بن الفضل، إن الله تبارك وتعالى خلقنا من نور عظمته وصنعنا برحمته وخلق أرواحكم منا فنحن نحن إليكم وأنتم تحنّون إلينا، والله لو جهد أهل المشرق والمغرب أن يزيدوا في شيعتنا رجلاً أو ينقصوا منهم رجلاً ما قدرُوا على ذلك، وإنهم لمكتوبون عندهنا بأسمائهم وأسماء آبائهم وعشائريهم وأنسابهم. يا عبد الله بن الفضل، ولو شئت لأريتُك اسمك في صحيفتنا. قال: ثم دعا بصحيفة فنشرها فوجدتها بيضاء ليس فيها أثر الكتابة، فقلت: يا ابن رسول الله ما أرى فيها أثر الكتابة، قال: فمسح يده عليها فوجدتها مكتوبة ووجدت في أسفلها اسمي فسجدت لله شكراً»، (بحار الأنوار، ج ١٦ ص ١٣٧). وروى الحسن، عن أبيه عبد الله بن محمد، (عن محمد بن عيسى) عن صفوان، عن يعقوب بن شعيب، عن حسين بن أبي العلا قال: «والذي رفع إليه العرش لقد حدثني أبوك بأصحاب الحسين لا ينقصون رجلاً ولا يزيدون رجلاً تعتدي بهم هذه الأمة كما اعتدت بنو إسرائيل وقتل يوم السبت يوم عاشوراء»، (بحار الأنوار، ج ٤٥ ص ٨٧).

(٢) ﴿وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾، سورة فصلت، آية ١٠٢.

(٣) كلما عظم المقام، عظم الإمتحان واختلف المُمتحن، فتارةً يكون إبليس هو الممتحن وتارة تكون النفس وتارة يكون الولي أو الإمام أو النبي أو الله نفسه. فإذا أردت الآخرة، سترصدك إبليس ويمتحنك ويمنعك من العبور. وإذا أردت محبة الله وأهل بيته، ستكون نفسك لك بالمرصاد. وإذا أردت التوحيد، فسترصدك أهل العلم ويحسدونك ويقطعون عليك الطريق. أما إذا أردت الولاية، فإن الله سيمتحنك، حيث ورد عن أبي جعفر عليه السلام: «إن حديثنا صعب مستصعب ذكوان أجرد لا يحتمله ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا عبد امتحن الله قلبه للإيمان»، (بحار الأنوار، ج ٢ ص ١٩٢).

(٤) إن خواص أهل الحق هم أكثر من يشكّل شبهة للآخرين، كزوجة النبي نوح عليه السلام وولده وبعض زوجات النبي عليه السلام وصحابته وبعض أولاد الأئمة عليهم السلام، كابن الإمام الكاظم عليه السلام الذي آذى أخاه الإمام الرضا وأتهمه بوضع اليد على أموال إخوته. عن أبي=

لأنهم ينادون «يا عليّ» بحرارة أكثر من الآخرين ويضربون رؤوسهم ويمزقون أنفسهم وينادون «يا حسين» بحرارة أشدّ من غيرهم. ولكن ما إن يأتي امتحانٌ ما حتى يتنحّوا جانباً بأجمعهم^(١). وحينها يتبيّن أنه لم يكن لهم حظّ وجودي من تلك الخلقة النورية الأولية، وأنّهم هم من ضمّوا أنفسهم إلى ذاك الجمع.

=عبد الله ﷺ: «إنّ أمرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلا صدور مشرقة وقلوب منيرة وأفئدة سليمة وأخلاق حسنة لأن الله قد أخذ على شيعتنا الميثاق فمَن وفى لنا وفى الله له بالجنة، ومَن أبغضنا ولم يؤدّ إلينا حقنا فهو في النار، وإنّ عندنا سراً من الله ما كلّف الله به أحداً غيرنا ثم أمرنا بتبليغه فبلّغناه فلم نجد له أهلاً ولا موضعاً ولا حَمَلة يحملونه حتى خلق الله لذلك قوماً خلّقوا من طينة محمّد وذريّته صلى الله عليهم ومن نورهم، صنّعهم الله بفضل صنع رحمته فبلّغناهم عن الله ما أمرنا، فقبلوه واحتملوا ذلك ولم تضطرب قلوبهم، ومالت أرواحهم إلى معرفتنا وسرّنا، والبحث عن أمرنا، وإنّ الله خلق أقواماً للنار وأمرنا أن نبلغهم ذلك فبلّغناه فاشمأزت قلوبهم منه ونفروا عنه وردّوه علينا ولم يحتملوه وكذبوا به وطبع الله على قلوبهم، ثم أطلق ألسنتهم ببعض الحق فهم ينطقون به لفظاً وقلوبهم منكّرة له. ثم بكى ورفع يديه وقال: اللهم إن هذه الشرذمة المطيعين لأمرك قليلون، اللهم فاجعل محياهم محياناً ومماتهم مماتناً، ولا تُسلّط عليهم عدواً فإنك إنّ سلّطت عليهم عدواً لن تُعبد»، بحار الأنوار، ج ٢ ص ٢١٠.

(١) قال الإمام الحسين ﷺ: «الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درّت معاشهم فإذا محصوا بالبلاء قلّ الديانون»، (بحار الأنوار، ج ٤٤ ص ٣٨٣). وعن أبي عبد الله ﷺ: «لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده، فإن ذلك شيء اعتاده، فلو تركه استوحش لذلك، ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء أمانته»، (الكافي، ج ٢ ص ١٠٥). قال أمير المؤمنين ﷺ في كلامه لكميل بن زياد: «... أو منقاداً لأهل الحق لا بصيرة له، ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة حتى أذاهم ذلك إلى التيه والحيرة والعمى والضلالة، ولم يبقَ منهم إلا القليل النزر الذين ثبتوا على دين الله، وتمسكوا بحبل الله، ولم يحدوا عن صراط الله المستقيم»، (كتاب الغيبة، ص ٢٨). ومن كلام للإمام الرضا ﷺ: «وإن أهل الحق إذا دخل فيهم داخل سُروا به، وإذا خرج منهم خارج لم يجزعو عليه، وذلك أنهم على يقين من أمرهم. وإن أهل الباطل إذا دخل فيهم داخل سُروا به، وإذا خرج عنهم خارج جزعوا عليه، وذلك أنهم على شك من أمرهم، إن الله يقول: فمستقر ومستودع»، (تفسير العياشي، ج ١ ص ٣٧٢). وعن أبي عبد الله ﷺ قال: «إنّ العبد يصبح مؤمناً ويُمسي كافراً ويصبح كافراً ويُمسي مؤمناً وقومٌ يُعارون الإيمان ثم يُسلّبونه ويُسمّون المُعارين ثم قال: فلان منهم»، (مرآة العقول، =

تعيّن اسم الله وأسماء أهل البيت ﷺ

«نحن أسماء الله الحسنی»، إنّ هذا مظهر. ولهذا المظهر مظهر، فمن هو مظهره؟ مظهر هذا المظهر هو سلمان^(١) وأبو ذر والمقداد. فلأثمتنا أسماء، وكما أن اسم الله «تعيّن»، فكذلك أسماء الأئمة «تعيّن» أيضاً. وباسم عليّ، (عين ولام وياء)، تستقرّ دعائم العرش^(٢). ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنه ما من نبّي أو وليّ^(٣) أو ملك يحمل نفس اسم الله، إذ ممنوعٌ على أحد أن يسمّي نفسه باسم الله. فلا يجوز أن يسمّي أحد نفسه بـ«السيد الله»، مثلاً، أو «السيد رحيم» أو «السيد رحمان»، بل ينبغي لاسمه أن يكون «عبدالله» و«عبدالرحيم» و«عبدالرحمان». وكذلك فإن اسم خاتم الأنبياء ﷺ «محمد» ليس اسم الله نفسه.

=ص(٢٤٣)، وفي تعليقٍ للعلامة المجلسي على هذه الرواية يقول: «والظاهر أن المراد بفلان أبو الخطاب وكنّى عنه بفلان لمصلحة، فإن أصحابه كانوا جماعة كثيرة كان يحتمل ترتّب مفسدة على التصريح باسمه ويحتمل أن يكون كناية عن ابن عباس فإنه قد انحرف عن أمير المؤمنين ﷺ وذهب بأموال البصرة إلى الحجاز، ووقع بينه ﷺ وبينه مكاتبات تدل على شقاوته وارتداده كما ذكرته في الكتاب الكبير، والتقية فيه أظهر»، المصدر السابق.

(١) ورد في الحديث: «سلمان باب الله في الأرض، من عرفه كان مؤمناً، ومن أنكره كان كافراً»، رجال الكشي، ص ٧٠.

(٢) عن أمير المؤمنين عليّ سلام الله عليه في حديث طويل مع طارق بن شهاب: «إن الله لم يخلق أحداً إلا وأخذ عليه الإقرار بالوحدانية والولاية للذرية الزكية والبراءة من أعدائهم، وإن العرش لم يستقرّ حتى كتب عليه بالنور: لا إله إلا الله محمد رسول الله علي وليّ الله»، (بحار الأنوار، ج ٢٥ ص ١٧٤). وقد ورد في الحديث: «قلب المؤمن عرش الرحمن»، بحار الأنوار، ج ٥٥ ص ٣٩.

(٣) النبيّ مظهر الرحمن والوليّ مظهر الرحيم والجامع للمرتبتين مظهر اسم الله. فمظهر اسم الرحمن، باعتبار تصرفه في الوجود وخلافته فيه، ومظهر اسم الرحيم باعتبار ولايته المطلقة، ومظهر اسم الله باعتبار جمعيته، والمظهر الفعليّ هو نبينا محمد ﷺ وعليّ ﷺ، وسائر الأولياء بعده على الترتيب. وقد ورد في كتاب «شرح دعاء السحر»، ص ١٨ - ١٩: «الأسباب المتصلة بين سماء الإلهية وأراضي الخلقية، الظاهر فيهم الولاية، والباطن فيهم النبوة والرسالة...».

ولكن، ثمة موجود واحد في هذا العالم يحمل نفس اسم الله وهو «علي»^(١). إنه «وتر الله الموتور»، أي لا يوجد له ثانٍ. وهذا الاسم بأحرفه «عين، لام، ياء» هو اسم لفظي، إلا أن له وجوداً تعينياً خارجياً وهو شخصية أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام في أبعادها الظاهرية والباطنية. ولهذه الشخصية «إسم»، فسلمان هو اسم أمير المؤمنين ﷺ وكذلك أبو ذر والمقداد^(٢) وشيعته أسماؤه^(٣). فمحبّو

(١) عن ابن سنان قال: «سألت أبا الحسن الرضا ﷺ: هل كان الله عز وجل عارفاً بنفسه قبل أن يخلق الخلق؟ قال: نعم، قلت: يراها ويسمعاها؟ قال: ما كان محتاجاً إلى ذلك لأنه لم يكن يسألها ولا يطلب منها، هو نفسه ونفسه هو، قدرته نافذة فليس يحتاج أن يسمي نفسه، ولكنه اختار لنفسه أسماء لغيره يدعوها بها لأنه إذا لم يدع باسمه لم يعرف، فأول ما اختار لنفسه: العليّ العظيم لأنه أعلى الأشياء كلها، فمعناه الله واسمه العليّ العظيم، هو أول أسمائه، علا على كل شيء»، (الكافي، ج ١ ص ١١٣). «ولما وُلِدَ عليّ ﷺ، أخذ أبو طالب ﷺ بيد فاطمة بنت أسد، وعليّ ﷺ على صدره وخرج إلى الأبطح ونادى: يا ربّ يا ذا الغسق الدجي... ماذا ترى في إسم ذا الصبي؟... وإذا بلوح أخضر كتب فيه: خُصِّصْتُما بالولد الزكي * والظاهر المنتجب الرضي * فاسمه من شامخ عليّ * عليّ اشتق من العليّ»، (المناقب، ج ٢ ص ١٧٤). وقد ورد عنه ﷺ: «فإسمي لا يُمحى في السماء ولا في الأرض ولا في الدنيا ولا في الآخرة»، (الهداية الكبرى، ص ١٤٣). قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْأَكْتَابِ لَذِينَ عَلَّمُوا حِكْمًا﴾، «وجدناه من أسرار علم الحروف في هذه الآيات الثلاث اسم عليّ مرموزاً مستوراً - فالأول قوله: ع ل ي ح ك ي م، فإن عدد حروفها ٧، والسبعة حرف الزاي عنها تظهر الأسرار، وأما أعدادها فهي ١٨٨، وأما قوله: ﴿أَصْرَطَ الْأُسْقِيمَ﴾ ال ص ر ا ط ا ل م س ت ق ي م، فإن عدد حروفها ١٤، وأعدادها ١٠١٣ (١٠١١)، وأما قوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ م ا ل ك ي و م ال د ي ن وهي ١٢ حرفاً، وعنها يظهر السرّ الخفيّ والأمر المخفي، من أسرار آل محمد لمن كان من أصحاب عليّ، وأما أعدادها وهي ٢٣٢ (وفي المخطوط ٢٤٢)، فمن عرف أسرار الحروف عرف أن العليّ الحكيم، والصراط المستقيم، ومالك يوم الدين، هو عليّ بن أبي طالب ﷺ بأمر ربّ العالمين»، مشارق أنوار اليقين، ص ٢٨١.

(٢) عن أبي جعفر ﷺ قال: «قال أمير المؤمنين ﷺ: خلقت الأرض لسبعة، بهم ترزقون وبهم تنصرون وبهم تمطرون منهم: سلمان الفارسي والمقداد وأبو ذر وعمار وحذيفة، وكان أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﷺ يقول: وأنا إمامهم، وهم الذين صلوا على فاطمة صلوات الله عليها»، الاختصاص، ص ٥.

(٣) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «بنفس النحو الذي يكون فيه الأئمة ﷺ أسماء الله، فإن الشيعة هم أسماء الأئمة».

أهل البيت عليهم الصلاة والسلام هم أسماؤهم. «فما أحلى أسماءكم»^(١)، أي ما أحلى محبيكم وأحسنهم.

نور النور

«أنت نفسك حجاب نفسك، فانهض يا حافظ من البين»^(٢)! يصدر هذا الكلام عن أصحاب الطريق، ولكن لا يزال ثمة عائق، فهل تستطيع بنفسك أن تنهض من البين؟ مع كل اللطافة التي تسم هذا الكلام، كان ينبغي أن يقال: إرفعني من البين^(٣).

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، لا يمكن أن تكون الذات هي نور السماوات والأرض، لحفظ جميع شؤون التوحيد، فالإسم هو ما يمكنه أن يكون نور السماوات والأرض. وإن بيان «الله» في مرتبة الإسم، باعتبارات أهل المنطق، هو على النحو الآتي: بالحمل الأولي الذاتي، «الله» نور السماوات والأرض، في مرحلة الإسم. ولهذا النور، نوراً أيضاً، وهو ما سنتكلم عنه الآن. إذًا، إن

(١) الزيارة الجامعة الكبيرة، مفاتيح الجنان.

(٢) ﴿فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِكِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (سورة البقرة، آية ٥٤). يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إن إدراك مقام النفس الأتمة من شؤون الصّديقين، ومن لم يكن صديقاً، لا يمكنه أن يدرك ماهيّة النفس الأتمة بالسوء، ومقامها في وجود الإنسان وشؤونها الخاصة... صاحب النفس الأتمة يريد دائماً أن تكون الإمرة والسلطنة له وأن يكون آمراً، ويرغب أن يكون هو العامل على الدوام، والأمر على الدوام... أينما تجد شخصاً يريد أن تظهر أمرية نفسه فهو صاحب النفس الأتمة».

(٣) «لو أراد الله بعبدي خيراً رفع الحجاب بين نفسه وبين النفس الكلّي الذي هو اللوح، فيظهر فيها أسرار المكنونات، وينتقش فيها معاني تلك المكنونات، فتعبّر النفس عنها كما تشاء إلى من يشاء من عباده، وحقيقة الحكمة تنال من العلم اللدني، وما لم تبلغ النفس هذه المرتبة لا يكون حكيماً، لأن الحكمة من مواهب الله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (سورة البقرة، آية ٢٦٩)، وأولو الأبواب هم الواصلون إلى مرتبة العلم اللدني المستغنون عن التّحصيل وتعب التعلّم، فيتعلّمون قليلاً ويعلمون كثيراً، ويتعبون قليلاً ويستريحون كثيراً»، تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم، ج ١ ص ٤٧٧.

نفس هذا النور في المرحلة الأولية هو مساوٍ، بالحمل، لتجلي الحق جلّ وعلا، حيث ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. وهذا النور عنده نور أيضاً. تقول الراوية: «الله خلق المؤمن من نور عظمته»^(١)، وهذا هو النور الثاني الذي وُجد من ذاك النور. خلق المؤمن «من نور عظمته» لا خلق المؤمن «منه». هل فهمنا جيداً النور الوارد في آية ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؟ إن المؤمن يُخلق من البرق الذي يخرج من ذاك النور، لا من النور الأولي. ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»^(٢)، ينظر بهذا البرق الثاني، أي ينظر بمددٍ من أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام. سأوضح هذه المسألة ثانية حتى تنجلي تماماً.

الشيعة هم «نور الله»

في اعتقاد الشيعة، المستند إلى الروايات الصحيحة والمُحكمة^(٣)، أن الذات المقدسة لأمر المؤمنين عليه الصلاة والسلام «يد الله»^(٤)، أي ذلك الشخص

(١) قال أبو عبد الله الصادق سلام الله عليه: «إن الله عز وجل خلق المؤمنين من نور عظمته وجلال كبريائه»، وسائل الشيعة، ج ٨ ص ٦١٢.

(٢) بحار الأنوار، ج ٢٥ ص ٢١.

(٣) «وقد حذف البعض من أرباب الحديث الروايات الصعبة مع الإقرار بصحة سندها في كتبهم! وهذا الوضع مستمر حتى اليوم أيضاً. فالظاهر أن هناك قراراً مُتخذاً في الحوزات الشيعية بعدم الاعتناء بأصول العقائد»، مقدمة كتاب مصباح الهداية، تحقيق جلال الدين الآشتياني، ص ٢٣٩.

(٤) يقول أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام: «أنا عين الله، وأنا يد الله، وأنا جنب الله، وأنا باب الله»، (الكافي، ج ١ ص ١٤٥ ح ٨). وعن الإمام الصادق عليه الصلاة والسلام: «نحن حجة الله ونحن باب الله ونحن لسان الله ونحن وجه الله ونحن عين الله في خلقه ونحن ولاية أمر الله في عباده»، (الكافي، ج ١ ص ١٤٤ ح ٧). ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾، حين دخل القوم على دار فاطمة الزهراء عليها السلام، سكت أمير المؤمنين بأمر من الله تعالى، فوصفه «اليهود» - أي يهود الأمة - بالقول إن يد الله مغلولة (علي يد الله). وكذلك يصف «اليهود» اليوم، صاحب الزمان عليه السلام في عصر الغيبة بأن يده مغلولة، ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (سورة المائدة، آية ٦٤)، و«يدها» كناية عن الجلال والجمال، فصاحب الزمان هو اسم الله الأعظم ويدها، أي أسماء =

نفسه الذي هو نور في آية ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وهذه حقيقة. إلتفتوا جيداً إلى هذه النقطة، لا يمكن القول إن أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام هو نور الله، بل إن نور الله هم الشيعة، لأن النور مساوٍ لـ «الله» في ما يرتبط بالموضوع والمحمول والمبتدأ والخبر، فالنور هو نفس اسم الله، أما نور الله فهو نور النور. ولذا ثمة إشكال في هذا الشعر الذي يصف أهل البيت عليهم الصلاة والسلام بالقول: «هم النور، نور الله جل جلاله، هم التين والزيتون والشفع والوتر، مهابط وحي الله، خُزان العلم^(١)، إلخ...». فنور الله هم الشيعة، من أين عرفنا ذلك؟ من الرواية التي تقول بأن ذلك النور الذي أتى من الله وضرب الشجرة الخضراء كان نور سلمان، أو نور أحد الشيعة. وبالعودة إلى الآية الكريمة، ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فإن اعتبار أن أهل البيت عليهم الصلاة والسلام نور الله هو بمثابة تبخيس لمقامهم، فهم ليسوا كذلك، بل إن الشيعة^(٢)

=الجلال والجمال، مبسوطتان ينفق كيفما يشاء، «ولن يشاؤوا إلا أن يشاء الله تبارك وتعالى».

(١) ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ (سورة الحجر، آية ٢١) وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «نحن ولاة أمر الله، وخزنة علم الله وعبية وحي الله»، (الكافي، ج ١ ص ١٩٢). رواه إسحاق بن عمار عن أبي الحسن موسى عليه السلام، قال: دخل عليه رجل من خراسان فكلّمه بكلام الطير فأجابه موسى عليه السلام بمثل كلامه، فلما خرج الرجل قلت: يا سيدي، ما سمعتُ مثل هذا الكلام، فقال عليه السلام: «هذا كلام قوم من أهل الصين وليس كلام أهل الصين كله هكذا، ثم قال: أتعجب من هذا؟ قلت: نعم، قال: سأريك ما هو أعجب، إن الإمام يعلم منطق الطير ومنطق كل ذي روح، لا يخفى على الإمام شيء»، الأنوار النعمانية، ج ١ ص ٣٣.

(٢) سئل الإمام الحسن بن علي عليه السلام عن الفرق بين الشيعة والموالين المحبّين فقال: «الفرق أنّ شيعتنا هم الذين يتبعون آثارنا ويطيعونا في جميع أوامرنا ونواهيها، فأولئك شيعتنا، فأما من خالفنا في كثير ممّا فرضه الله عليه فليسوا من شيعتنا»، (مدينة المعاجز، ج ٧ ص ٥٩٢). وعنه عليه السلام: «إنّ شيعة علي عليه السلام الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون»، وهم الذين آمنوا بالله، ووصفوه بصفاته، ونزّهوه عن خلاف صفاته، وصدّقوا محمّداً في أقواله، وصدّقوا في كلّ أفعاله، وقالوا إنّ عليّاً بعده سيّداً إماماً، وقرّماً هماماً، لا يعدله من أمة محمّد أحد، ولا كلّهم =

هم نور الله. وأمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام هو نفسه يد الله^(١)، لا أن يده

= إذا اجتمعوا في كفة يؤزنون بوزنه، بل يرجح عليهم كما ترجح السماء والأرض على الذرة، وشيعة علي عليه السلام هم الذين لا يبالون في سبيل الله أوقع الموت عليهم أو وقعوا على الموت، وشيعة علي عليه السلام هم الذين يؤثرون إخوانهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وهم الذين لا يراهم الله حيث نهاهم، ولا يفقدهم من حيث أمرهم، وشيعة علي عليه السلام هم الذين يقتدون بعلي في إكرام إخوانهم المؤمنين. ما عن قولي أقول لك هذا، بل أقوله عن قول محمد صلى الله عليه وآله، فذلك قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فضا الفرائض كلها بعد التوحيد واعتقاد النبوة والإمامة، وأعظمها فرضان: حقوق الإخوان في الله، واستعمال التقية من أعداء الله عز وجل، البرهان في تفسير القرآن، ج ٤ ص ٦٠٢ - ٦٠٨.

(١) «توجد في أدعيتكم أيضاً تعبيرات من أمثال «علي عين الله نور الله ويد الله» فماذا تعني هذه أليست هي من نظائر التعبيرات التي يستخدمها أولئك (أي العرفاء)؟! ونفس هذه التعبيرات واردة في الأحاديث الشريفة التي تصف الصّدقة التي تضعها في يد الفقير إنما تصل إلى يد الله وفي القرآن أيضاً ورد قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكَ إِلَهٌ إِلَّا مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ المعنى واحد وهو نفس ما تقولونه جميعاً ولكن ذلك المسكين الذي يلمس المعنى عياناً لا يستطيع أن يعبر عنه بهذه الصورة وبالكيفية التي يراه بها ولذلك فهو يستخدم مثل تلك التعبيرات وهي كثيرة في القرآن وخاصة في الأدعية فهي مليئة بهذه التعبيرات التي يستخدمها أولئك فلماذا نسي الظن بمن يستخدمها؟! إسعوا إلى فهم المراد والدافع إلى استخدامه مثل هذه التعبيرات! ما هو الألم الذي اضطره إلى استخدامها والإعراض عما يستخدمه عامة الناس؟ وهو يعلم ما سيلقاه بسبب استخدام مثل هذه التعبيرات، فلأجل أن لا يضحى بالحقيقة من أجل نفسه، ضحى بنفسه من أجل الحقيقة، ولو أننا فهمنا قوله ومراده لعبرنا عنه بنفس ما عبر به ومثلما استخدمه أيضاً القرآن والأئمة. والأمر ليس هو على نحو يكون معه المراد من تعبير «هذا هو الحق» هو أن هذا هو الله واقعاً فما من عاقل يقول ذلك، ولكنكم ترون ظهوراً لا يمكن التعبير عنه بصورة لا يكون معها انفصال، مثلما ورد في أحد الأدعية وصف الأولياء: «لا فرق بينك وبينهم إلا أنهم عبادك خلقها بيدك فتقها بيدك»، فهذا من باب ضيق التعبير، واختيار هذا التعبير من باب كونه الأقرب إلى المعنى ونفس الأمر يصدق على ما ورد في الكتاب والسنة. لا تسيئوا الظن بالذين يستخدمون هذه التعبيرات وأي أشخاص صالحين هم، لقد عاصرنا عدداً منهم وعرفناهم عن قرب ورأينا حالهم وتبحرهم ودقة نظرهم في كل تلك العلوم، ورأينا وصولهم إلى الكمال، هؤلاء كانوا يستخدمون أيضاً مثل هذه التعبيرات كالتجلي والظهور وتجليك...»، تفسير آية البسملة (محاضرات معرفية)، ص ١١٢ - ١١٣.

يد الله، وهذا الاعتبار لم يتم التحقيق فيه في محاورات أهل الولاة. لذلك، فإن مقام تلك الذات المقدسة هو أرفع مما نتفوه به. إذاً، هو نفسه يد الله، لا يده يد الله. فيدُ الشيعي المؤمن^(١) هي يد الله^(٢)؟ ولكن، كيف هي أوصاف ذلك الشيعي^(٣)؟ إياكم أن تنظروا يوماً إلى الناس^(٤) وتقولوا هذا شيعي وذاك لا!

المرائي والمجالي والمظاهر

للآية النورانية الكريمة، ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، معانٍ ومفاهيم تبيّن شؤون التوحيد والولاية في أبعاد مختلفة. وقبل الخوض في البيان المتعلق بمسألتَي

(١) قال أبو الحسن الكاظم عليه السلام: «ليس كل من قال بولايتنا مؤمناً ولكن جُعلوا أنساً للمؤمنين»، (الكافي، ج ٢ ص ٢٤٤). سأل أبو جعفر عليه السلام أحد أصحابه: «قد أفلح المؤمنون أتدري من هم؟ قلت: أنت أعلم، قال: قد أفلح المسلمون، إن المسلمين هم النجباء والمؤمن غريب، ثم قال: طوبى للغرباء»، البرهان، ج ٣ ص ١٠٧.

(٢) عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «قال الله عز وجل: ... وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وإنه ليتقرب إلي بالنافلة حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها، إن دعاني أجبتُه وإن سألتني أعطيتُه»، (الكافي، ج ٢ ص ٣٥٢)، فإذا كان هذا الكلام في المؤمنين فكيف إذا كان الكلام فيهم سلام الله عليهم!

(٣) من أوصاف الشيعي أنه يؤدّي حقوق إخوانه، سأل جابر بن يزيد الجعفي الإمام زين العابدين عليه السلام: «يا ابن رسول الله ما حق المؤمن على أخيه المؤمن؟ قال عليه السلام: يفرح لفرحه إذا فرح ويحزن لحزنه إذا حزن وينفذ أموره كلها فيحصلها ولا يغتم لشيء من حطام الدنيا الفانية إلا واساه حتى يجريان في الخير والشر في قرن واحد»، (بحار الأنوار، ج ٢٦ ص ٨). عن محمد بن مسلم قال: أتاني رجل من أهل الجبل فدخلت معه على أبي عبد الله عليه السلام فقال له عند الوداع: أوصني، فقال: «أوصيك بتقوى الله، وبرّ أخيك المسلم، وأحبّ له ما تحبّ لنفسك، واکره له ما تكره لنفسك، وإن سألك فأعطه، وإن كفّ عنك فاعرض عليه لا تملّه خيراً فإنه لا يملك، وكن له عضداً فإنه لك عضداً، وإن وجد عليك فلا تفارقه حتى تسلم سخيّمته، وإن غاب فاحفظه في غيبته، وإن شهد فاكفه واعضده ووازره وأكرمه ولاطفه فإنه منك وأنت منه»، وسائل الشيعة، ج ٨ ص ٥٤٩.

(٤) ﴿قَالُوا آمَنُومٌ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَذْلُونَ﴾، سورة الشعراء، آية ١١١.

التوحيد والولاية، ينبغي القول إن للحق «مظاهر» و«مرائي» و«مجالي» في ما يرتبط بالأسماء والصفات^(١). وتأتي «المرائي» من المرأة و«المظاهر» من الظهور

(١) نذكر ما لخصه الشيخ العارف الكامل، القاضي سعيد القمي رضي الله عنه، مما فصله بعض أهل المعرفة. قال في البوارق الملوكوتية: «إن الحقائق الخارجية في حال غيبتها تحت أستار الأسماء التي وسائط مشهوها سألت تلك الأسماء سؤال افتقار قالت: إنَّ العدم قد أعمانا عن إدراك بعضنا بعضاً، وعن معرفة ما يجب لكم من الحق علينا. فلو أنكم أظهرتم أعياننا لكنتم أنعمتم علينا، وأمكن لنا أن نقوم بحقوقكم، ولكانت سلطنتكم متحققة؛ واليوم أنتم سلاطين علينا بالقوة، من دون جنود ولا عدّة. فهذا الذي نطلبه منكم أكثر نفعاً لكم ممّا في حقنا. فلما سمعت الأسماء الإلهية مقالة الحقائق الغيبية، نظرت في ذوات أنفسها، وصدّقت الممكنات؛ وطلبت ظهور أحكامها حتى يتميّز أعيانها بآثارها. فإن «الخلّاق» و«المدير» وغيرهما نظروا في ذواتهم، فلم يروا خلافاً ولا مدبراً، ولا غير ذلك. فجاءت تلك الأسماء إلى حضرة الإسم «البارئ» فقالوا له عسى أن توجد أنت هذه الأحكام التي اقتضت حقائقها. فقال البارئ: ذلك راجع إلى الإسم «القادر» فإني تحت حيطته، فالتجأوا إليه فقال «القادر»: أنا تحت حكم «المريد» فلا أوجد عيناً منكم إلا باختصاص؛ وليس ذلك إلا بتخصّصه وأن يأتيه أمر من ربه، فحينئذ أتعلق أنا بالإيجاد. ففزعوا إلى «المريد» وذكروا له مقالة القادر فقال المريد: صدق القادر؛ ولكني أنظر إلى أنّه هل سبق العلم من الإسم «العليم» ظهور آثاركم، فأخصّص أنا ما شاء الله من أحكامكم؛ فإني تحت حكمه. فصاروا إلى الإسم «العليم». فقال العالم: قد سبق العلم بإيجادكم، ولكن الأدب أولى؛ وليس الأمر هنا بمحض الإفتقار، بل لا بدّ من الإذن مرة بعد أخرى وأن لنا كلنا حضرة مهيمنة علينا وهي اسم «الله». فاجتمعت الأسماء إلى الحضرة الإلهية فذكروا له قصتهم، وأظهروا له ما اقتضت حقائقهم، فقال: حقاً أقول أنا اسم جامع لحقائقكم مشتمل على مراتبكم، وإني دليل على ذات المقدسة وحضرة الأحدية. فمكانكم أنتم ورفقائكم حتى أعرض عليه مقاصدكم فقال: يا من هو، يا من لا هو إلا هو، قد اختصم الملاء الأعلى وقالت الأعيان هكذا. فنودي من سرّه أن: أخرج عليهم، وقل لكل واحد من الأسماء ما يتعلق بما يقتضيه حقائقها. فخرج الإسم «الله» ومعه الإسم «المتكلم» يترجم عنه الممكنات والأسماء الإلهية، وذكر لهم ما أمره المسمّى. فتعلّق «العالم» بظهور الممكن الأول؛ و«القادر» بظهور الممكن الثاني؛ و«المريد» بسائر الأعيان. فظهرت الأدبار والأكوان. وأدّى الأمر إلى المنازعة والمخالفة؛ كما هو مقتضى الأسماء الجمالية والجلالية. فقال الأعيان: إنا نخاف أن يفسد نظامنا، أو يطغى بعضنا على بعضنا، ونلحق بالعدم الذي كنّا فيه.=

و«المجالي» من التجلي^(١) والجلال، إذ تُبين المفردة نفسها من خلال هذين المعنيين.

فللحق، إذاً، بما يتعلق بأسمائه وصفاته، «مرائي»^(٢) و«مظاهر»^(٣) و«مجالي»، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾^(٤). ولأجل توضيح المطلب، يلزم استحضار أمثلة من الأمور التي نستأنس بها فكرياً وذهنياً.

=فالتجأوا، تارة أخرى، إلى الأسماء بتعليم الاسم «العليم» و«المدبر»، وقالوا: أيها الأسماء التي لكم السلطنة علينا، إن كان أمركم على ميزان وحدّ مرسوم بأن يكون فيكم إمام يخفضنا ويخفض تأثيراتكم فينا، لكان أصلح لنا ولكم. فسمعوا ذلك والتجأوا إلى الاسم «المدبر» فدخل «المدبر» إلى المسمى، وخرج بأمر الحق إلى الاسم «الرّب» فقال له: صدر الأمر بأن تفعل أنت ما تقتضيه المصلحة في بقاء الممكنات. فقال: سمعاً وطاعة. وأخذ وزيرين يعينانه على مصالحه وهما «المدبر» و«المفضل». قال الله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَكُمْ لِقَاءَ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أي ربكم الذي هو الإمام. فانظر ما أحكم كلام الله وأتقن صنع الله، مصباح الهداية، ص ١٥٤ - ١٥٥.

(١) «اللهم إني أسألك بالتجلي الأعظم»، من أدعية ليلة ويوم المبعث في كتاب البلد الأمين.
(٢) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «بينما رسول الله ﷺ في منزل فاطمة عليها السلام والحسين في حجره إذ بكى وخرّ ساجداً ثم قال: يا فاطمة، يا بنت محمد، إنّ العليّ الأعلى تراءى لي في بيتك هذا في ساعتى هذه في أحسن صورة وأهيا هيئة، وقال لي: يا محمد، أتحبّ الحسين عليه السلام؟، فقلت: نعم قرة عيني وريحانتي وثمرة فؤادي وجلدة ما بين عيني، فقال لي: يا محمد - ووضع يده على رأس الحسين عليه السلام - بورك من مولود عليه بركاتي وصلواتي ورحمتي ورضواني؛ ولعنتي وسخطي وعذابي وخزيي ونكالي على من قتله وناصبه وناواه ونازعه، أما انه سيد الشهداء من الأولين والآخرين في الدنيا والآخرة»، كامل الزيارات، ص ١٤١ ح ١٦٦ - ١٧٤.

(٣) من كلام للإمام الصادق عليه السلام مع المفضل: «واعلم أن الذات... موصوف باتصافه له، مشهور بآياته معروف بظهوراته كان قبل القبل إذ لا قبل...»، الهداية الكبرى، الباب ٤ ص ٢٧٦.

(٤) ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الأعراف، آية ١٤٣). ورد في دعاء السمات: «وينور وجهك الذي تجلّيت به للجبل فجعلته دكاً وخرّ موسى صعقاً»، وبمجدك الذي تجلّيت به لموسى كليمك عليه السلام في طور سيناء.

الأب والأم مظهران لاسم الله «الخالق» و«الرازق»

إن الله تبارك وتعالى خالق ورازق. وكلمة «رازق» تستلزم مظهراً ومرآة ومجلىً. فمجلى الرازق ومجراه ومرآته ومظهره هو والد الأسرة الذي يؤمن أسباب العيش لها بتأمين الخبز والماء واللحم والأرز والفاكهة وبقية المأكولات. وبالتالي، يستفيد، العيال الذين يعيشون في كنفه، من رازقية الحق بوسيلة المظهر والمرآة والمجلى والمجرى. ولذا، فإن والد الأسرة هو وليها أيضاً وله الولاية عليها. وكذلك الأمر في «الخالقية»، فالأب أيضاً هو المظهر والمجلى والمرآة، حيث يُظهر الحق خالقيته بوسيلة اجتماع الأب والأم وإقرار النطفة في رحمها... إن طريق معرفة التوحيد ومعرفة الله هو من خلال المظاهر والمجالي والأسماء^(١)

(١) إن لتفاعل الأسماء واختلافها في مَنْ تتجلى به أثراً وتأثيراً كبيرين، وذلك بحسب تفاعلها مع بعضها، فهي قد تتعاون في ما بينها، أو تتقابل، أو تتفاضل، أو تتناكح بحيث يتولد اسم جديد بخاصية مختلفة عن كل اسم على حدة. وينتج عن تفاعل نفس الاسم مع أسماء متعددة خاصيات مختلفة فمثلاً، تتفاوت خاصية مظهر اسمي القادر والقاهر، عن خاصية مظهر اسمي القادر والرحيم. وقد يكون هذا التفاعل بين عدة أسماء وليس بين اسمين فقط. بناءً عليه، فإن تناكح الأسماء الإلهية تظهر منه أسماء جزئية لا متناهية ولكل اسم منها تجلي في عالم الكائنات. وإن عالم الكائنات غير محدود وبالتالي فإن الأسماء الإلهية الجزئية غير محدودة أيضاً. فما يتولد من اسمي الغفور الستار مختلف عما يتولد من اسمي المظهر الستار، والحي المميت عن الحي القيوم، إلخ. يمكن أن يقع على القلب تجليات للكثير من الأسماء مع بعضها البعض، وكل اسم منها مرتبط باسم آخر أو عدة أسماء، مما ينتج عنها تجليات أخرى لا يمكن إحصاؤها نظراً لتفاعلها وارتباطها مع بعضها وما يتولد عنها، وقول أمير المؤمنين عليه السلام يؤكد هذا المعنى إذ قال: «لَمَّا حَضَرَتْ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الوفاة، دعاني... ثم أدناني فأَسْرَ إليّ بألف باب من العلم كل باب يفتح ألف باب»، (الخصال، ص ٦٥٢؛ بحار الأنوار، ج ٢٢ ص ٤٦٣). و«حالات السالك ومقاماته في سيره وسلوكه مختلفة، فإن الإنسان مظهر اسم كل يوم هو في شأن، ففي كل حال وشأن يظهر له محبوبه باسم ويتجلى عليه معشوقه ومطلوبه بتجلٍ من اللطف والنهر والجلال والجمال...» وقد قال أحد العرفاء: «إن حالات السالك مختلفة فقد يتجلى عليه بإسم بحسب حال من حالاته ثم يتجلى عليه بإسم آخر بحسب حال آخر، ثم يتجلى عليه بالإسم الأول بعود الحال الأول، فيصير السؤال في الحال الأول والثالث =

والصفات، وإلا فإن أحداً لن يستطيع أن يعرف الله^(١).

للمرحوم الصفّار، الذي يعدّ من كبار أهل الحديث، كتابٌ يحمل اسم «بصائر الدرجات». وينقل الصفّار في كتابه روايات عن مقام الولاية الإلهية لأهل البيت عليهم الصلاة والسلام، ولكن قبل الحديث عن هذه الروايات، لديّ سؤال لكم. هل قبلتم بأن الأب والأم مظهرها «الرازق» و«الخالق»؟ إن لم تقبلوا بذلك، أسألكم: كيف يمكن لله «الرازق» أن يُظهر رازقيته؟ وكيف يمكن لله «الخالق» أن يُظهر خالقيته؟ ألا ينبغي أن يكون هناك مظهر في مكانٍ ما حتى نتمكن من رؤية «الخالق» و«الرازق» ومعرفتهما؟ في كتابه، يورد المرحوم الصفّار أربع روايات من أحاديث أئمة الهدى عليهم الصلاة والسلام تشتمل على خلاصة مضامين نحو

=متحدّاً، (شرح دعاء السحر، ص ١٨٤). وتتمظهر الأسماء الإلهية وتتجلى في كافة المخلوقات، مثلاً عندما تلد المرأة تكون مظهراً لاسم الله الخالق، والرجل مظهر اسم الله الرازق والمعطي. والقاتل مظهر اسم الله القابض، وإبليس مظهر اسم الله المضلّ وهكذا... والحقيقة أنّ كلّ اسم له أول وآخر وظاهر وباطن، وتجليّ أي اسم بأيّ إنسان تحكمه هذه الأسماء الأربعة. لذا، ينبغي على الإنسان أن تتحقق فيه الأسماء والصفات الإلهية بمُجملها ليصبح خليفة الله على الأرض، واختلاف الأسماء والصفات الإلهية في الإنسان يتمّ بحسب ولايته. وينبغي التوجّه دائماً إلى إمام الزمان ﷺ الذي هو مظهر اسم الله الأعظم الجامع لكل الأسماء والمُنجّي من الاستغراق في أيّ منها وخاصة اسم الله «المضلّ». فالله يعطي كل فرد ما نوى وما أراد، فإن أراد الهداية هداة، وإن أراد الضلالة أضلّه. وإن الله تعالى ظاهراً لا يترك أفضلية لأهل الحق على أهل الباطل، فالرزق يبسطه للجميع، سواء كان مادياً أو معنوياً، وكذلك استجابة الدعاء لم يخصّ بها أهل الإيمان عن عداهم، فكل المخلوقات تختلف فيها أسماء الله سبحانه وتعالى ولكن كلّ بحسب توجهه، إلا الاسم الأعظم فهو للمؤمن الخالص المحبّ العاشق المتبرّئ العارف الوليّ ولكن بلحاظ.

(١) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ الوصول إنّما يكون إلى معرفة الله، ومعرفة الله غير الله (ذات الله)... إنّ الفاصلة بين معرفة الله والله هي الفاصلة بين العدم والوجود»، انتهى. «إنّ الله الذي هو إله الآلهة لا يُعرَف إلا بالله الذي أوْدَعَه في كل نفس، وهو اسمه وصراطه وسبيله وعروته الوثقى ونوره وخليفته وحجّته ومثله الأعلى في كلّ نفس وبه يُبدئهم ويُعيدهم»، الشُّموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ١٧٣.

سبعين إلى مئة رواية، حيث ينقلها الإمام الصادق عن لسان بقية أهل البيت عليهم الصلاة والسلام. يقول الإمام الصادق عليه الصلاة والسلام: «بنا عُرف الله»، «بنا عبد الله، بنا وُحِدَ الله، لولانا ما عُرفَ الله، لولانا ما عبدَ الله»^(١)، «لولانا ما وُحِدَ الله»، أي أن ذلك كله تحقق بوسيلتنا نحن الأربعة عشر نوراً. ومن المؤكد أن مظاهر الأسماء والصفات في العالم كثيرة^(٢)، غير أن هذه الأنوار المقدسة هي «المظاهر التامة». وإنهم الكلمات التامة، إذ يستبدل القرآن والحديث تعابير المرائي والمجالي والمظاهر بتعابير الكلمات التامة. فهذه الأسماء والصفات والأنوار هي كلمات الله وهي ذاتها المرائي والمجالي والمظاهر. يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾^(٣)، «تُكَلِّمُهُمْ»؛ «كلمات الله»^(٤) التي تقوم بهذا العمل. ويقول الإمام الصادق عليه الصلاة والسلام إنه في آخر الزمان، يكون ظهور^(٥)

(١) عن الإمام الصادق عليه السلام: «بنا عُرفَ الله، بنا عبدَ الله، نحن الأدلاء على الله، ولولانا ما عبدَ الله»، (الكافي، ج ١ ص ١٩٣). وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «بنا عبدَ الله، وبنا عُرفَ الله، وبنا وُحِدَ الله تبارك وتعالى»، (الكافي، ج ١ ص ١٤٥). كما ورد في الزيارة الرجبية: «أَسْأَلُكَ بِمَا نَطَقَ فِيهِمْ مِنْ مَّشِيئَتِكَ، فَجَعَلْتَهُمْ مَعَادِنَ لِكَلِمَاتِكَ، وَأَرْكَاناً لِّتَوْحِيدِكَ، وَآيَاتِكَ وَمَقَامَاتِكَ، الَّتِي لَا تَعْطِيلَ لَهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ، يَعْرِفُكَ بِهَا مَنْ عَرَفَكَ»، مفاتيح الجنان.

(٢) «إنَّ العالم بأسره مظهر أسماء الله تعالى وصفاته، وكما كان آدم مظهر اسمه الهادي، يكون إبليس مظهر اسمه المضلّ، وكما كان موسى مظهر اسمه النافع، يكون فرعون مظهر اسمه الضار، وكذلك جميع الموجودات غيرهم من الحيوانات والنباتات والجمادات، حتّى النملة والبقّة»، (تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم، ج ١ ص ٣٦٤). إنّ الذي يرى هذا الوجود يراه مُستنداً إلى أسماء وصفات وهي تحتاج إلى من يحكمها لذا وجب ظهور الخليفة في كل زمان من الأزمنة ليحصل للناس الاستيناس به ويتصفون بكمالاته كلّ بحسبهم، «السلام عليك يا صاحب الزمان».

(٣) سورة النمل، آية ٨٢.

(٤) ﴿وَمَنَعَ اللَّهُ الْأَبْطِلَ وَيَحْيَى الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ﴾ (سورة الشورى، آية ٢٤)، ﴿لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَتِ اللَّهِ﴾ (سورة يونس، آية ٦٤)، ﴿وَيَحْيَى اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ﴾، سورة يونس، آية ٨٢.

(٥) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنَّ آخر الزمان هو عصر الظهور»

ولاية أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام. وفي تفسير هذه الآية، يتم الكلام عن جانب «البيت» - أي عن ذلك المكان الذي لا أحد يعرف أو يتخيل عنه شيئاً، أي أنه ليس للشيعة دورٌ هناك. وقد أزالوا أحد أركان البيت^(١) الذي كان للشيعة الجعفرية الإثني عشرية^(٢)، وما يزالون كذلك حتى الآن. ويقول أمير المؤمنين

= (ظهور الولاية الكلية الإلهية) حيث يظهر النبي ﷺ، ويظهر علي المرتضى، ويظهر كل الأئمة ﷺ، وكل من كانت له نفس ملهمة تظهر له الحقائق التوحيدية والولائية، ويتجلى منه الحديث».

(١) البيت هو الكعبة، وفي التأويل هو الإمام، حيث قال أبو جعفر ﷺ لقتادة فقيه البصرة: «ما تدري أين أنت؟ أنت بين يدي ﴿يُؤْتِ أَيْنَ اللَّهُ أَنْ تُرَفَعَ﴾ ونحن أولئك»، (البرهان في تفسير القرآن، ج ٣ ص ١٣٨). ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (سورة آل عمران، آية ٩٦)، قال أمير المؤمنين ﷺ: «أنا بيت الله الذي من دخله كان آمناً فمن تمسك بولايتي ومحبتني أمن من النار»، (فضائل ابن شاذان، ص ٨٣). وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «عليّ ديان هذه الأمة والشاهد عليها والمتولي لحسابها، وهو صاحب السنام الأعظم... وصراط الله المستقيم... وبابه الذي يؤتى منه، وبيته الذي من دخله كان آمناً»، (كتاب سليم، ج ٢ ص ٨٦١). وعن سلمان الفارسي قال: «إن علياً ﷺ باب فتحه الله، من دخله كان مؤمناً ومن خرج منه كان كافراً»، (كتاب سليم، ج ٢ ص ٨٦١). كما ورد في الحديث القدسي: «ولاية علي بن أبي طالب حصني، فمن دخل حصني أمن من عذابي»، (عيون أخبار الرضا، ج ١ ص ١٤٦). ولل كلام الوارد في المتن معنى ظاهري وآخر باطني. فالظاهري هو أن النواصب أزالوا الشق الموجود في حائط البيت قرب المستجار والدال على ولادة أمير المؤمنين ﷺ فيها. أما المعنى الباطني فهو أنهم لعنهم الله أبعدوا الأئمة ﷺ من مكة والمدينة.

(٢) قال رسول الله ﷺ: «أنا واردكم على الحوض وأنت يا علي الساقى، والحسن الذائد والحسين الأمر، وعلي بن الحسين الفارض (الفارط) ومحمد بن علي الناصر، وجعفر بن محمد السائق، وموسى بن جعفر محصي المحبين والمبغضين وقامع المنافقين، وعلي بن موسى مزين (معين) المؤمنين، ومحمد بن علي منزل أهل الجنة في درجاتهم، وعلي بن محمد خطيب شيعته ومزوجهم الحور العين والحسن بن علي سراج أهل الجنة يستضيئون به، والقائم شفيعهم يوم القيامة، حيث لا يأذن الله إلا لمن يشاء ويرضى»، غاية المرام، ص ٣٥ ح ٢٢.

عليه الصلاة والسلام، في ذيل هذه الآية الكريمة: «أنا دابة الأرض»^(١) في آخر الزمان^(٢).

بين اللفظ والتعین

«فما أحلى أسماءكم»^(٣)، نعود مجدداً إلى الحديث عن «المرائي»

(١) عن أبي بصير عن أبي عبد الله سلام الله عليه قال: «انتهى رسول الله ﷺ إلى أمير المؤمنين وهو نائم في المسجد وقد جمع رملًا ووضع رأسه عليه، فحرّكه برجله ثم قال: قُمْ يا دابة الله، فقال له رجل من أصحابه: يا رسول الله أنُسِمِي بعضنا بعضاً بهذا الإسم؟ فقال: لا والله ما هو إلا له خاصّة، وهو الدابة التي ذكر الله في كتابه، ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾، ثم قال: يا عليّ، إذا كان آخر الزمان، أخرجك الله في أحسن صورة، ومعك ميسم تسم به أعداءك. فقال الرجل لأبي عبد الله سلام الله عليه: إن العامة يقولون إن هذه الآية تكلمهم؟ فقال سلام الله عليه: كلّمهم الله في نار جهنم إنما هو تكلمهم من الكلام، الدليل على أن هذا في الرجعة قوله: ﴿وَيَوْمَ تَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ أَكْذَبْتُمْ ﴿(سورة النمل، آية ٨٣ - ٨٤)، قال: الآيات أمير المؤمنين والأئمة ﷺ. فقال الرجل لأبي عبد الله ﷺ: إن العامة تزعم أن قوله: ﴿وَيَوْمَ تَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ عني في القيامة. فقال أبو عبد الله ﷺ: فيحشر الله يوم القيامة من كل أمة فوجاً ويدع الباقيين؟ لا، ولكنه في الرجعة، وأما آية القيامة: ﴿وَحْشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نَعَاذِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (سورة الكهف، آية ٤٨)، «بحار الأنوار، ج ٥٣، ص ٥٢ - ٥٣».

(٢) وهو «عصر ظهور المهدي عجل الله فرجه عصرٌ لظهور التأويل وذلك لأن زمانه يقتضي ظهور التأويل على ما هو عليه وظهور الشريعة على ما ينبغي ورفع المذاهب والملل بحيث لا يبقى إلا مذهب واحد ودين واحد وهو دين محمد ﷺ ومذهبه كما أشار إليه الحق تعالى في قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَىٰ اللَّهُ إِلَّا أَن يَتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿(سورة التوبة، آية ٣٢ - ٣٣). وأشار إليه النبي ﷺ بقوله: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد، لطوّل الله تعالى ذلك اليوم ليخرج رجل من أهل بيتي، يواطئ اسمه اسمي وكنيته كنيتي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»، (تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم، ج ١ ص ٤٥٨). قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَعَمَلٌ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، سورة الأعراف، آية ٥٣.

(٣) الزيارة الجامعة الكبيرة، مفاتيح الجنان.

و«المجالي». كما أنَّ للحق اسماً لفظياً، فإنَّ لأهل البيت عليهم الصلاة والسلام أيضاً أسماء لفظية. «الله، رحمان، رحيم»: الله: ألف، لام وهاء. رحمان: راء، حاء، ميم، ألف ونون. رحيم: راء، حاء، ياء وميم. إذاً، هذا هو اسم الحق من الجانب اللفظي، ولكنَّ له كذلك اسماً تجسيمياً (تعينياً). هل قرأتم كلامهم؟ إن كل هذا الصيام والصلاة والحج^(١) خالٍ من أية خاصية، ذلك أن هذا الأساس الاعتقادي غير صحيح حتى الآن.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(٢). كم من رواية يقول أهل البيت عليهم الصلاة والسلام فيها: «نحن أسماء الله الحسنى»^(٣)؟ هذا الاسم متعين ومُتشخص، كما أنه مظهر ومرآة. إنه ليس اسماً لفظياً، بل اسمٌ متشخص له وجودٌ في الخارج. ورد في الدعاء: «اللهم إني أسألك باسمك العظيم الأعظم الأعزَّ الأجل الأكرم الذي إذا دعيت به على مغالق أبواب السماء للفتح بالرحمة انفتحت»^(٤)، سئل الإمام الصادق عليه الصلاة والسلام عن هذا الاسم، فقال: إنه الحقيقة الإسمية لجَدِّنا أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام.

(١) قال المفضل في حديثه مع الإمام الصادق عليه السلام: «فأين كنتم يا ابن رسول الله من العرش في وقت الأظلة؟ قال: كنَّا عن يمين العرش وشيعتنا معنا وأضدادنا وأندادنا عن يسار العرش فلما نادانا ربَّنَا: أَلست بربِّكم؟ قلنا بلى أقرنا وقالت شيعتنا مثل قولنا وقالت أضدادنا بلى بأفواههم وقالوا في قلوبهم لا، فأخذ الله العهد على جميع الذراري بذلك الإقرار وأسس البيت بمكة وهو الذي قال عز وجل: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ وأنزل الحجر من الجنة أبيض ناصعاً يوري ما وراءه وما قدامه فأودع الله فيه ذلك العهد وفرض على الناس الحجَّ إلى البيت، فإذا كان يوم القيامة أتى الله بذلك الحجر سمياً بصيراً بلسان عربي مبين يشهد لمن وفد إليه بذلك الإقرار الذي في العهد ويشهد على من تخلف عنه ممن استطاع إليه سبيلاً بخلاف الوفاء ونقض العهد، صحيفة الأبرار، ج ٥؛ الهداية الكبرى، ص ٩.

(٢) سورة الأعراف، آية ١٨٠.

(٣) عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ قال: «نحن والله الأسماء الحسنى التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلا بمعرفتنا»، الكافي، ج ١ ص ١٤٣.

(٤) دعاء السمات، (مفاتيح الجنان). كما ورد في أدعية ليلة ويوم المبعث في كتاب (البلد الأمين): «وباسمك الأعظم الأعظم الأعظم الأجل الأكرم، الذي خلقتَه فاستقرَّ في ظلك فلا يخرجُ منك إلى غيرك، أن تُصليَ على مُحَمَّد وأهل بيته الطاهرين».

مظهر «الرحيم» و«الرحمن» و«الودود»

حين يمسح أحدٌ بيد العطف على رأس الآخر ووجهه، فإنه يُظهر اسم الرحيم والودود والرحمن، ويصبح مظهرًا له ^(١). وقد مدَّ الله يده وقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ^(٢)، فلا بدَّ أن تقرض الناس ما أقرضته الله، وهذا هو مظهر الآية الكريمة ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

عبارتنا شتّى وحسنك واحدٌ وكلٌّ إلى ذاك الجمال يشيرُ

نقرأ في شهر رجب، الدعاء الرجبِي وهو دعاءٌ تقشعرُّ له الأبدان: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِمَعَانِي جَمِيعِ مَا يَدْعُوكَ بِهِ وُلاَةُ أَمْرِكَ، الْمَأْمُونُونَ عَلَى سِرِّكَ، الْمُسْتَبْشِرُونَ بِأَمْرِكَ، الْوَاصِفُونَ لِقُدْرَتِكَ، الْمُعْلِنُونَ لِعَظَمَتِكَ... لَا فَرْقَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا إِلَّا أَنَّهُمْ عِبَادُكَ وَخَلْقُكَ» ^(٣). تجدر الإشارة إلى أن تعبير «المعاني» يخرج عن مفهوم «الكلمة» و«المظهرية»، فهناك كلام آخر بشأنه. وللإمام الخميني قدس سره كتابٌ جاذب يستحق القراءة ولو مئة مرة. وفيه، يتكلم عن العوالم الخمسة ^(٤) وعمّا يسمّى بـ«عالم العماء» ^(٥)، فيبين أن ليس لهذا العالم أثر في أيِّ

(١) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «لو أنّ شخصاً أراد أن يكون مظهرًا لرحمانيّة الحقّ تعالى ورحيميته فلا بدّ له أن يدرك صفتي الودّ والرحمة إدراكاً عملياً شهودياً، وهذا يتحقّق لديه عندما يكون ودوداً عطوفاً مع الخلق والبشر. كلّ من يكون أرفع وأسبق في مودّة الناس والعطف عليهم والرحمة لهم، يكون أشمخ في معرفة التّوحيد وشهوده، وكلّ من يكون أكثر عشقاً ومحبةً للناس، يكون أكثر وصولاً إلى نقطة التّوحيد ومقامه الشامخ، وهذا هو التّوحيد!». ^(٢)

(٢) سورة البقرة، آية ٢٤٥.

(٣) دعاء يُدعى به في كل يوم من أيام شهر رجب، مفاتيح الجنان.

(٤) العوالم الخمسة هي: (١) حضرة الأسماء الذاتية وعالمها هو السرّ الوجودي الغيبي (الأسماء المستأثرة). (٢) حضرة الشهادة المطلقة وعالمها عالم الأعيان في الحضرة العلمية الغيبية. (٣) حضرة الغيب المضاف المطلق وهي الأقرب إلى الغيب المطلق وهي الوجهة الغيبية الأسمائية وعالمها الوجهة الغيبية الأعيانية. (٤) حضرة الغيب المضاف المطلق الأقرب إلى الشهادة وهي الوجهة الظاهرة الأسمائية وعالمها الوجهة الظاهرة الأعيانية. (٥) أحدية جمع الأسماء الغيبية والشهادية وعالمها الكون الجامع.

(٥) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «قد أشير إلى عالم «العماء»، =

من عوالم الملك^(١) والتعقل والتجرد.

«اللهم إني أسألك بمعاني^(٢) جميع ما يدعوك به ولاية أمرك...». ذكر تعبير «معاني» وليس «كلمات». فلدينا «كلمات» وهي نفسها «مظاهر» و«مرائي» و«مجالّي» و«مجاري» ولدينا «معاني كلمات» أيضاً. وفي معاني الكلمات هذه، نفس الحدّ بين الوجود والإمكان. فهذه الذوات المقدسة ليست واجبة الوجود

= وهو عالم السّواد المطلق، بقوله ﷺ: «عليكم بالسّواد الأعظم»، فهذا السّواد الأعظم هو مرتبة عالم العماء حيث عالم العدم.

(١) قال الإمام جعفر الصادق ﷺ: «إنّ الله تعالى خلق مُلكه على مثال ملكوته، وأسّس ملكوته على مثال جبروته ليستدلّ بمُلكه على ملكوته وبملكوته على جبروته»، الإنسان الكامل، ص ٣٧٥.

(٢) عن جابر بن يزيد الجعفي، عن الإمام الباقر ﷺ في حديث طويل: «... يا جابر أتدري ما المعرفة؟ المعرفة إثبات التوحيد أولاً ثم معرفة المعاني ثانياً ثم معرفة الأبواب ثالثاً ثم معرفة الإمام رابعاً ثم معرفة الأركان خامساً ثم معرفة النقباء سادساً ثم معرفة النجباء سابعاً وهو قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَتْ﴾ وتلا أيضاً: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾. يا جابر، مالك أمركم إثبات التوحيد ومعرفة المعاني، أما إثبات التوحيد معرفة الله القديم الغائب الذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير وهو غيب باطن ستدركه كما وصف به نفسه. أما المعاني فنحن معانيه ومظاهره فيكم، اخترعنا من نور ذاته وفوض إلينا أمور عبادته، فنحن نفعل بإذنه ما نشاء ونحن إذا شئنا شاء الله وإذا أردنا أراد الله، ونحن أحلنا الله هذا المحل واصطفانا من بين عبادته وجعلنا حجة في بلاده، فمن أنكر شيئاً من ذلك وردّه فقد ردّ على الله جلّ اسمه وكفر بأنبيائه ورسله»، (إلزام الناصب في إثبات الحجّة الغائب، ج ١ ص ٤٠ - ٤١). «فالمراد بإثبات التوحيد هو معرفة أن الله تبارك وتعالى إسمياً واحداً هو مبدأ تمام العوالم... وهو الاسم المستأثر... ثم بعده عالم المعنى وهو عالم مظهر صفات الحق بنحو الإجمال والكلية... مبدأ آل محمد ﷺ منه وأسكنهم فيه... وهذا العالم عالم السرّ المقنّع بالسرّ. ثم بعده عالم الأبواب، وعالم السرّ المستسرّ الذي هو عالم الصفات، لا باعتبار تعلّقها بمتعلقاتها... ثم بعد ذلك سرّ السرّ، وهو عالم الصفات باعتبار متعلقاتها... ثم بعد ذلك عالم السرّ وباطن الباطن وعالم الأركان، وإنّما سمّي أركاناً لأنّ به قوام عالم الوجود... ثم بعد ذلك عالم باطن الظاهر وحقّ الحق... ثم بعد ذلك عالم الوجود النوري واسم الله...»، الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٦٨ - ٦٩.

ولا ممكنة الوجود^(١). وباختصار، كل من يعرف هذه الذوات المقدسة بغير هذا، لديه نقص في معرفته. إن هذه الذوات المقدسة ليست واجبة الوجود حتى يدّعي البعض الألوهية والربوبية لها، وليست ممكنة الوجود كبقية الخلق، «لا يقاس بنا أحد»^(٢). فلا يعدّ من أهل المعرفة، كل من يقيس هذه الذوات بالخلق

(١) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «لو اعتبرنا أنّهم ﷺ ممكنات، فإنّما هم كذلك في مقابل الحقّ تعالى، وأمّا في مقابل كلّ الوجود فأيّ موضع نرضه، حقيقته هي: «وإياب الخلق إلينا». وقد صدرت كلّ هذه الأشعة والظلال وظهرت من مبدئ الوجود ولا بدّ أن ترجع إليه، والرجوع إلى هذه الحقيقة يسمّى كمال الوحدة». ويقول سماحته في هذا الصدد أيضاً: «إنّ الله تعالى - لأجل حفظ مقام التوحيد - قال إنّ هذه الذوات المقدسة هي في عداد الممكنات، وجعل لها جهة إمكان حتّى يجيز للعالم النظر إلى هذا النور الوجودي لمحمّد وآل محمّد صلوات الله وسلامه عليهم، وإلاّ فهذه الذوات المقدسة أشياء ليست جزءاً من الممكنات كما أنّها ليست واجب الوجود»، انتهى. فالأسماء والصفات الإلهية لها جهتان، جهة تلي الله وجهة تلي الخلق وهي من الجهة الثانية ممكنات، أما من الجهة الأولى فهي ليست ممكنات كبقية الخلق ولا واجبة الوجود كالله تعالى، وعن الصادق ﷺ: «ولا يعلم ما هي إلا هو»، (الهداية الكبرى، الباب ٤ ص ٤٣٤). «قال الله تعالى في الشجرة المحمدية أنها: ﴿لَا شَرَفَ لَهَا وَلَا غَرَبَ﴾» (سورة النور، آية ٣٥)؛ أي لا حادثة كسائر الحوادث ولا قديمة» كقدم الله، (دُرر الأسرار، ص ١٠٧). ورد في الزيارة السادسة لأمر المؤمنين ﷺ: «السَّلامُ عَلَى قَاسِمِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، السَّلامُ عَلَى نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى الْأَبْرَارِ وَنِعْمَتِهِ عَلَى الْفُجَّارِ، السَّلامُ عَلَى سَيِّدِ الْمُتَّقِينَ الْأَخْيَارِ، السَّلامُ عَلَى الْأَصْلِ الْقَدِيمِ وَالْفَرْعِ الْكَرِيمِ»، مفاتيح الجنان.

(٢) عن أمير المؤمنين سلام الله عليه: «نحن أهل البيت لا يقاس بنا أحد فينا نزل القرآن وفينا معدن الرسالة»، (عيون أخبار الرضا، ج ٢ ص ٦٦؛ بحار الأنوار، ج ٢٦ ص ٢٦٩). وعن الإمام الباقر ﷺ: «ويحك يا جابر، لا يُقاس بنا أحد... ونحن والله دلّنا لكم على ربّكم»، (بحار الأنوار، ج ٤ ص ٢٧٨). وحول رواية أنّ أهل البيت ﷺ لا يُقاس بهم أحد، يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «يوجد في المقام مسألتان: الأولى: عندما يُقال: (لا يُقاس بنا أحد)، هنا (أحد) هو الأحد اللغوي، أي لا يمكن لأحد من الموجودات أن يقاس بنا، فخلقتنا آل محمّد هي بنحو لا يمكن لأحد أن يُقاس بنا. الثانية: عندما يُقال: (لا يقاس بنا أحد)، ف (الأحد) هنا هو الأحد في ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، أي لا تقيسوننا مع الله تعالى في مقام أحديّة ذاته». ومن كلام آخر له دام ظلّه في هذا الصدد: «فالواحد هو تلك الحقيقة الواحدة المتجلية ولا يوجد غيرها ولا يوجد =

في آية مسألة كانت، حتى ولو في أصغر تفاصيل شؤونهم^(١). فهنا، ثمة حدّ وفاصل بين الممكن والواجب، وهذا ما تقوله الزيارة الرجبية: «اللهم إني أسألك بمعاني جميع ما يدعوك به ولادة أمرك» بالمعاني لا بالكلمات.

الفرق بين «الإسم» و«المسمّى» و«المعنى»

ثمة اسم ومسمّى ومعنى^(٢). وعلى سبيل المثال، فإن كلمة «خالق» بحروفها^(٣)

= أكثر منها، نعم في المظاهر المتعدّدة والمراثي المختلفة هم إثنا عشر إماماً وأربعة عشر معصوماً، وعندما تقول أمير المؤمنين فالكلّ مندرج في وجوده المقدّس، وعندما تقول إمام الزمان فالكلّ مندرج كذلك، وعندما تقول رسول الله فالكلّ مندرج تحت حقيقة واحدة، وهذا هو معنى: «لا يُقاس بنا أحد». عندما يقال: «لا يُقاس بنا أحد»، فليس الكلام في وجودهم بل الكلام في أعمالهم وسلوكهم أيضاً، فلا مجال للقياس معهم في أيّ شأن من شؤونهم، إلا أنه لا يمكن القياس معهم في مجال عباداتهم وأعمالهم العبادية، بل لا يمكن القياس معهم حتّى في حياتهم التي قد تظهر لنا على أنها عادية.^(١) عن أهل البيت سلام الله عليهم أنهم قالوا: «نزهونا عن الربوبية وارفعوا عنا حظوظ البشرية»، بحار الأنوار، ج ٢ ص ٢٦.

(٢) الإسم في اللغة هو لفظٌ يُعرفُ به الشّيءُ أو الشّخصُ ويُستدلّ به عليه. والمسمّى هو مدلولٌ أو معنىٌ أو شيء يدلّ عليه اسم ما. والمعنى هو ما يدلّ عليه اللفظ، وهو تصوّر يرتبط باللفظ في الذّهن ارتباطاً عُرفيّاً بالمطابقة.

(٣) من كلام للإمام الرضا عليه السلام: «واعلم أن الإبداع والمشيّة والإرادة معناها واحد وأسمائها ثلاثة، وكان أوّل إبداعه وإرادته ومشيتّه الحروف التي جعلها أصلاً لكل شيء ودليلاً على كل شيء وفاصلاً لكلّ مشكل، ويتلك الحروف تفريق كل شيء، من اسمه حق وباطل أو فاعل أو مفعول أو معنى أو غير معنى، وعليها اجتمعت الأمور كلها، ولم يجعل للحروف في إبداعه لها معنى غير أنفسها تنهاى ولا وجود لها لأنها مبدعة بالإبداع والنور في هذا الموضع (أول) فعل الله الذي هو نور السّماوات والأرض والحروف هي المفعول بذلك الفعل وهي الحروف التي عليها مدار الكلام والعبادات كلّها من الله عزّ وجلّ، علّمها خلقه، وهي ثلاثة وثلاثون حرفاً، فمنها ثمانية وعشرون حرفاً تدلّ على لغات العربية، ومن الثمانية والعشرين اثنان وعشرون حرفاً تدلّ على اللغات السريانية والعبرانية، ومنها خمسة أحرف متحرّفة في سائر اللغات من العجم والأقاليم واللغات كلها، وهي خمسة أحرف تحرّفت من الثمانية والعشرين حرفاً من=

«حاء وألف ولام وقاف» هي اسم. ومسمى هذا الاسم ذاتُ الباري. وكذلك فإن لهذا الاسم معنى وهو الحدّ الوسط، «اللهم إني أسألك بمعاني جميع ما يدعوك به...». في أحد الأيام، كان أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام يسير برفقة

=اللغات، فصارت الحروف ثلاثة وثلاثين حرفاً. فأما الخمسة المختلفة (ف ي ج ح خ) لا يجوز ذكرها أكثر ممّا ذكرناه، ثم جعل الحروف بعد إحصائها وإحكام عدّتها فعلاً منه كقوله عزّ وجل: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ وكن منه صنع، (وما) يكون به المصنوع، فالخلق الأول من الله عزّ وجل الإبداع لا وزن له ولا حركة ولا سمع ولا لون ولا حسّ، والخلق الثاني الحروف لا وزن لها ولا لون، وهي مسموعة موسومة غير منظور إليها، والخلق الثالث ما كان من الأنواع كلها محسوساً ملموساً ذا ذوق منظوراً إليه، والله تبارك وتعالى سابق للإبداع لأنه ليس قبله عز وجل شيء ولا كان معه شيء، والإبداع سابق للحروف والحروف لا تدلّ على غير نفسها. قال المأمون: وكيف لا تدلّ على غير أنفسها؟ قال الرضا (عليه السلام): لأن الله تبارك وتعالى لا يجمع منها شيئاً لغير معنى أبداً، فإذا ألف منها أحرفاً أربعة أو خمسة أوستة أو أكثر من ذلك أو أقلّ لم يؤلفها بغير معنى ولم يكن إلا لمعنى حدث لم يكن قبل ذلك شيء. قال عمران: فكيف لنا بمعرفة ذلك؟ قال الرضا (عليه السلام): أما المعرفة، فوجه ذلك وبابه أنك تذكر الحروف إذا لم تُرد بها غير نفسها ذكرتْها فرداً فقلت (ا ب ت ث ج ح خ) حتى تأتي على آخرها فلم تجد لها معنى غير أنفسها، وإذا ألّفتها وجمعت منها أحرفاً وجعلتها اسماً وصفة لمعنى ما طلبت ووجه ما غيّبت كانت دليلاً على معانيها، داعية إلى الموصوف بها، أفهمته؟ قال: نعم. قال الرضا (عليه السلام): واعلم أنه لا يكون صفة لغير موصوف ولا اسم لغير معنى ولا حدّ لغير محدود، والصفات والأسماء كلها تدل على الكمال والوجود، ولا تدل على الإحاطة كما تدلّ على الحدود التي هي الترييع والتثليث والتسديس لأن الله عز وجل وتقدّس تُدرك معرفته بالصفات والأسماء، ولا تدرك بالتحديد بالطول والعرض والقلة والكثرة واللون والوزن وما أشبه ذلك، ولا يحلّ بالله جل وتقدّس شيء من ذلك حتى يعرفه خلقه بمعرفتهم أنفسهم بالضرورة التي ذكرنا، ولكن يدلّ على الله عزّ وجل بصفاته ويدرك بأسمائه ويستدل عليه بخلقه حتى لا يحتاج في ذلك الطالب المرتاد إلى رؤية عين ولا استماع أذن ولا لمس كف ولا إحاطة قلب، ولو كانت صفاته جلّ ثناؤه لا تدل عليه وأسمائه لا تدعو إليه والمعلّمة من الخلق لا تدركه لمعناه لكانت العبادة من الخلق لأسمائه وصفاته دون معناه، فلولا أن ذلك كذلك، لكان المعبود الموحد غير الله تعالى لأن صفاته وأسماء غيره، أفهمت؟ قال: نعم يا سيدي...»، توحيد الصدوق، ص ٤٣٥ - ٤٣٨.

عمار بن ياسر، وكان الإمام فارساً وصاحبه راجلاً (وثمة معنى لكونه راجلاً). فقال عمار للإمام: يا سيدي، إني مديون وماء وجهي قد هُدر، فقد آن أوان تسديد الدين ولكنني عاجز وأشعر بالخجل من حالي هذا. فقال له الإمام عليه الصلاة والسلام: إذهب إلى ذلك الحصى هناك، وادعُ عليه باسمي الذي تعرفه، (ومن المؤكد أن ذلك الاسم لم يكن اسم «علي» فالكُل كان يعرفه)، وعندها سيتحوّل الحصى إلى ذَهَب، فخذ منه ما تحتاجه، ثم ادعُ عليه باسمي من جديد ليعود حجراً تارةً أخرى^(١). وذلك الاسم... «اللهم إني أسألك بمعاني جميع ما يدعوك...».

«علي» اسم ومسمّاه الحق تعالى^(٢) وأما معناه فهو حقيقة الولاية. وينبغي

(١) عن عمار بن ياسر قال: «أتيت مولاي يوماً فرأى في وجهي كآبة، فقال: ما بك؟ فقلت: دَيْنٌ أتى مُطالب به، فأشار إلى حجر ملقى وقال: خذ هذا فاقض منه دينك، فقال عمار: إنه لحجر، فقال له أمير المؤمنين سلام الله عليه: أدعُ الله بي يحولك ذهاباً، فقال عمار: فدعوتُ باسمه فصار الحجر ذهباً، فقال لي: خذ منه حاجتك، فقلت: وكيف تلين؟ فقال: يا ضعيف اليقين أدعُ الله بي حتى تلين، فإن بإسمي ألان الله الحديد لداود سلام الله عليه، فقال عمار: فدعوتُ الله فألان فأخذت منه حاجتي، ثم قال: أدعُ الله بإسمي حتى يصير باقيه حجراً كما كان»، (مشارك أنوار اليقين، ص ٢٧٢). من المفيد الإشارة إلى أن «الفرق بين الشعبة والسحر والسيما، والكرامات والمعجزات، الأول منها قلب العين حتى يرى الإنسان شيئاً فيتخيّله ولا حقيقة له ولا يبقى، وأما المعجزات والكرامات فقلب أعيان الأشياء وتحويلها إلى حقيقة أخرى باقية لا تزول إلا إذا أراد المظهر لها زوالها»، مشارق أنوار اليقين، ص ١٧٥.

(٢) عن محمد بن أبي عبد الله رفعه إلى أبي هاشم الجعفري قال: كنت عند أبي جعفر الثاني عليه السلام فسأله رجل فقال: أخبرني عن الربّ تبارك وتعالى له أسماء وصفات في كتابه؟ وأسماءه وصفاته هي هو؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: «إن لهذا الكلام وجهين إن كنت تقول: هي هو أي أنه ذو عدد وكثرة، فتعالى الله عن ذلك. وإن كنت تقول: هذه الصفات والأسماء لم تزل، فإن «لم تزل» محتمل معنيين، فإن قلت: لم تزل عنده في علمه وهو مستحقها، فنعم، وإن كنت تقول: لم يزل تصويرها وهجاؤها وتقطيع حروفها فمعاذ الله أن يكون معه شيء غيره، بل كان الله ولا خلق، ثم خلقها وسيلة بينه وبين خلقه، يتضرعون بها إليه ويعبدونه، وهي ذكره وكان الله ولا ذكر، والمذكور بالذكر هو الله القديم الذي لم يزل. والأسماء والصفات مخلوقات، والمعاني والمعنيّ بها هو الله=

إيجاد الطريق إلى ذلك المعنى. عليّ هو اسمٌ للحق، وانظروا إلى حجم الظلم الواقع، بحيث ترى هذه الدرجة من العناد عند التلفّظ باسمه. فحين يريد أحدهم قول «صدق الله»، يتلفّظ باسم «العظيم» ولكنه يمتنع عن التلفّظ باسم «العليّ». أيها الشباب الشيعة، أصغوا جيداً بحق الله وأمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام. ألا تقولون عند التشرف بزيارة أمير المؤمنين عليه السلام: أشهد «أنك تسمع كلامي وتردّ سلامي»^(١). أتريد أن تسمع جواب سلامك، يا مَنْ أثبت على عبارة «صدق

=الذي لا يليق به الاختلاف ولا الائتلاف، وإنما يختلف ويأْتلف المتجزئ، فلا يقال: الله مؤتلف، ولا الله قليل ولا كثير، ولكنه القديم في ذاته، لأن ما سوى الواحد متجزئ، والله واحد لا متجزئ، ولا متوهم بالقلة والكثرة، وكل متجزئ أو متوهم بالقلة والكثرة فهو مخلوق دال على خالق له. فقولك: إن الله قدير، خبرت أنه لا يعجزه شيء، فنفيت بالكلمة العجز وجعلت العجز سواء؛ وكذلك قولك: عالم، إنما نفيت بالكلمة الجهل وجعلت الجهل سواء، وإذا أفنى الله الأشياء أفنى الصورة والهجاء والتقطيع ولا يزال من لم يزل عالماً. فقال الرجل: فكيف سمّينا ربنا سميعاً؟ فقال: لأنه لا يخفى عليه ما يدرك بالأسماع، ولم نصفه بالسمع المعقول في الرأس، وكذلك سمّيناه بصيراً لأنه لا يخفى عليه ما يدرك بالأبصار، من لون أو شخص أو غير ذلك، ولم نصفه ببصر لحظة العين، وكذلك سمّيناه لطيفاً لعلمه بالشيء اللطيف مثل البعوضة وأخفى من ذلك، وموضع النشوء منها، والعقل والشهوة للسّفاد والحذب على نسلها، وإقام بعضها على بعض، ونقلها الطعام والشراب إلى أولادها في الجبال والمفاوز والأودية والقفار، فعلمنا أن خالقها لطيف بلا كيف، وإنما الكيفية للمخلوق المكيف؛ وكذلك سمّيناه ربنا قوياً لا بقوة البطش المعروف من المخلوق، ولو كانت قوته قوة البطش المعروف من المخلوق لوقع التشبيه واحتمل الزيادة، وما احتمل الزيادة احتمل النقصان، وما كان ناقصاً كان غير قديم، وما كان غير قديم كان عاجزاً؛ فربّنا تبارك وتعالى لا شبه له ولا ضد ولا نذ ولا كيف ولا نهاية ولا تبصار ببصر؛ ومحرم على القلوب أن تمثله، وعلى الأوهام أن تحدّه، وعلى الضمائر أن تكونه، جلّ وعزّ عن أداة خلقه وسمات بريته وتعالى عن ذلك علواً كبيراً»، أصول الكافي، ص ١٦٩.

(١) (مصباح الزائر، ص ١٣٤). السّلام من الزائر معناه «أنه سلّم نفسه وماله ومطلق ما يتعلق به من بدء وجوده إلى الأبد إلى الإمام، بحيث لا يرغب بشيء ممّا يتعلق بعالم وجوده عنه عليه السلام»، ووطّن نفسه بإفنائها في إرادته ووقفها عليه عليه السلام... فمعنى السّلام من العبد هو تسليم جميع ما له من تمام عوالم وجوده إلى الإمام عليه السلام»، (الشموس الطالعة من=

الله العظيم» حين سمعتها؟ هناك من الشيعة من يجافي عبارة «صدق الله العليّ العظيم» التي هي متن قرآني وليست شهادة ثالثة حتى يقولوا بحذفها، والشيعة الصالحون محجوبون.

يقوم بعض شبابنا بعمل جيد حين يُحضرون شخصاً من مصر ليرفع الآذان الشيعي ويقول «أشهد أنّ علياً وليّ الله»، و«صدق الله العليّ العظيم» بعد تلاوته القرآن^(١). ولكن هذا لا يعدو كونه مرتبطاً بمسألة ظهوره هنا أو هناك. فنفس الشخص الذي يقول «صدق الله العظيم» عند قراءة القرآن في مصر، يأتي إلى هنا ويقول «صدق الله العليّ العظيم». إثبتوا على هذه المسائل، فعبارة «صدق الله العليّ العظيم» لكم، أما «صدق الله العظيم» فليست كذلك. وتشبه «صدق الله العليّ العظيم» عبارة «عليه السلام» من حيث مراعاة الأدب^(٢)، فكما أن الأدب

=مشارك الزيارة الجامعة، ص ٤٠). «اللهم أنتَ السَّلام ومنك السَّلام ولك السَّلام وإليك يعود السَّلام»، دعاء بعد تسبيح السيِّدة الزَّهراء (عليها السلام)، مفاتيح الجنان.

(١) «لقد كان الإمام في زمن حكومة الملك يعتبر الاستماع إلى برامج الأخبار للإذاعة والتلفزيون حرام وليس فقط الموسيقى. وكان يقول: إن الموسيقى التي تُبثُّ من إذاعة وتلفزيون الجمهورية الإسلامية، فإنني أعتبرها محرمة إذا بُثَّت من إذاعة وتلفزيون (آل سعود)»، (في ندوة حقوق المرأة ودورها الاجتماعي، بتاريخ ١٩٩١/٢/٤م، من كتاب آراء ومواقف سماحة السيّد أحمد الخميني (رحمته الله)، ص ٢٦٢). أيهما أخطر على قلب الموالي، سماع الموسيقى أو سماع القرآن بصوت المخالفين النواصب؟

(٢) عن الامام أمير المؤمنين علي (عليه السلام): «الأدب كمال الرجل»، (ميزان الحكمة، ج ١ ص ٥٢). وعنه (عليه السلام): «لا شرف مع سوء أدب»، (ميزان الحكمة، ج ١ ص ٥٣). وعن الإمام الجواد (عليه السلام): «ما اجتمع رجلان إلا كان أحدهما عند الله، فليل: يا ابن رسول الله، قد عرفنا فضله عند الناس، فما فضله عند الله؟ فقال: بقراءة القرآن كما أنزل، ويروي حديثنا كما قلنا، ويدعو الله مغرماً بدعائه. وحقيقة الأدب احتمال خصال الخير، وتجافي خصال الشر، وبالأدب يبلغ الرجل مكارم الأخلاق في الدنيا والآخرة، ويوصل به إلى الجنة. والأدب عند الناس النطق بالمستحسّنات لا غير، وهذا لا يعتد به ما لم يوصل بها إلى رضا الله سبحانه والجنة. والأدب هو أدب الشريعة، فتأدّبوا بها، تكونوا أدباء حقاً. ومن صاحب الملوك بغير أدب، أسلمه ذلك إلى الهلكة، فكيف بمن يصاحب ملك الملوك وسيد السادات»، (إرشاد القلوب، ج ١ ص ٣٠٦). قال=

مطلوب في هذه المسألة، كذلك تلاوة القرآن تستلزم الأدب، وبالتأدب يُمنح الفهم.

الطريق إلى المعرفة بالعجز عن المعرفة

إن العارف^(١) الحقيقي بالله والحائز على أعلى الدرجات في التوحيد هو أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام. ولكن ما نقوله نابعٌ من جهلنا^(٢)، فمجرد تعريفنا له بهذا الكلام^(٣) يعدّ جرأةً وانعداماً في المعرفة. ما دخلنا بهذه المسألة، أو هل نقدر نحن على الكلام عنه^(٤)؟

=رسول الله ﷺ: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»، (بحار الأنوار ج ١١ ص ٢١٠). وقد وصل أكثر الموالين إلى الله واتصلوا عبر الأدب والصحبة للأولياء.

(١) عن الإمام الصادق عليه السلام: «العارفُ شَخْصُهُ مَعَ الْخَلْقِ وَقَلْبُهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَوْ سَهَا قَلْبُهُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى طَرْفَةً عَيْنٍ لَمَاتَ شَوْقاً إِلَيْهِ. وَالْعَارِفُ أَمِينٌ وَدَائِعُ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَنَزُ أَسْرَارِهِ، وَمَعْدِنُ نُورِهِ، وَدَلِيلُ رَحْمَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَمَطِيَّةُ غُلُومِهِ، وَمِيزَانُ فَضْلِهِ وَعَدْلِهِ، وَقَدْ غَنِيَ عَنِ الْخَلْقِ وَالْمُرَادِ وَالْدُنْيَا فَلَا مَوْنَسَ لَهُ سِوَى اللَّهِ، وَلَا نُطْقَ وَلَا إِشَارَةَ وَلَا نَفْسَ إِلَّا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَلِلَّهِ، وَمِنْ اللَّهِ، وَمَعَ اللَّهِ، فَهُوَ فِي رِيَاضِ قُدْسِهِ مُتَرَدِّدٌ، وَمِنْ لَطَائِفِ فَضْلِهِ مُتَزَوِّدٌ، وَالْمَعْرِفَةُ أَصْلٌ فَرَعُهُ الْإِيمَانُ»، (مصباح الشريعة، ص ٥١٩). يقول بايزيد البسطامي: «العارف ذاك الذي يأكل معك ويهرب منك ويشترى منك ويبيع لك، ولكن قلبه في حظائر القدس وفي الليل على وسادة عوالم الأنس»، (خمسة من العرفاء، ص ١٣٤). العارف لا يتأثر بما يجري من حوله وتبقى دقات قلبه منتظمة حتى في أشد المنعطفات ولو أخذ منه الوجود لما قال لم وكيف ولماذا، فقط يقول: الخير في ما وقع.

(٢) قال بايزيد السطامي: «العارف بالله يعرف مدى جهله، والجاهل بالله يعيش بظن المعرفة»، (خمسة من العرفاء، ص ٨١). مولاي يا علي، لا مقام لغيرك في سويداء القلب فأنت غاية آمال أهل العرفان ولكني إلى الآن لا أدري من أنت.

(٣) يقول بايزيد البسطامي: «كل اللغو والنقاش من المتفلسف لأنه عاشق نفسه، وغائب عن حضور المولى، أما إذا حصل الحضور فلا لغو ولا نقاش»، خمسة من العرفاء، ص ١١٦.

(٤) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا المعنى الذي لا يقع عليه إسم ولا شبه»، (بحار الأنوار، ج ٣٩ ص ٣٤٧ ح ٢٠). وقال رجل للصادق عليه السلام: «أخبرني لماذا رفع النبي علياً على كتفه؟ قال: ليعرف الناس مقامه ورفعته. فقال: زدني يا ابن رسول الله. فقال: ليعلم =

ولكن في عالم المحبة، الذي هو عالم جواز هذا الكلام، يُغفَرُ لنا. وإلا فإن أحداً لا يمكنه القول إن أمير المؤمنين (عليه السلام) هو عارفٌ بالله، لأنَّ على من يُعرِّف به أن يكون صاحب مرتبة رفيعة تخوِّله الكلام والحديث عنه، فمن ذا الحائز على تلك المرتبة؟ ومع ذلك، فإن أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام يسامحنا على كلامنا عنه. يقول (عليه السلام): «وكمال التوحيد نفي الصفات عنه». فما عَرَفَ الله كل من يقول إنه «خالق» و«رازق» و«رحمان» و«رحيم». وليخجل كل المعرِّفين بالله (١) من أنفسهم، فذلك الموحَّد عليه الصلاة والسلام عرف الله بالقول: «وكمال التوحيد نفي الصفات عنه».

وهكذا، فليستغفر (٢) ربَّه كلُّ من يعرِّف بمقام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في قوله: «لي مع الله حالات» (٣). فما كان ذاك المقام؟ لا أحد سواه يعلم. فعلى المرء أن يكون في ذلك الموقع حتى يفهم، إذ إنَّ هذا مقام لا يُعرِّف بالعلم (٤) والعرفان والفلسفة بل بالتذوق والوصول.

=الناس أنه أحق بمقام رسول الله. فقال: زدني. فقال: ليعلم الناس أنه إمام بعده والعلم المرفوع. فقال: زدني. فقال: هيهات والله لو أخبرتك بكنه ذلك لقمّت عني وأنت تقول إن جعفر بن محمد كاذب في قوله أو مجنون»، (مشارق أنوار اليقين، ص ٣٩). إنَّ نسبة حكاية الأنبياء والأولياء والملائكة عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، حكاية الصدا عن الصوت!

(١) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «يا عليّ، ما عرف الله إلا أنا وأنت وما عرفني إلا الله وأنت وما عرفك إلا الله وأنا»، مختصر بصائر الدرجات، ص ١٢٥.

(٢) قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «في الأرض أمانان من عذاب الله سبحانه، وقد رُفِعَ أحدهما فدوكم الآخر فتمسكوا به: أمّا الذي رفع فهو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمّا الأمان الباقي فهو الاستغفار، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذَابِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّمُعَذِّبِهِمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (سورة الأنفال، آية ٣٣)»، مكارم الأخلاق، ص ٣١٤.

(٣) عن الإمام الباقر (عليه السلام): «لنا مع الله حالات: هو نحن ونحن هو، وهو هو، ونحن نحن»، (اللمعة البيضاء في شرح خطبة الزهراء (عليها السلام)، ص ٦٢). ويقول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «لي مع الله وقت لا يسعه ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان»، بحار الأنوار، ج ١٨ ص ٣٦٠.

(٤) العلم «... هو الذي ينبغي أن يرشد الإنسان إلى الطريق وإلى الهداية فإذا به يصده عن

وحتى يتمكن الإنسان من الوصول إلى مقام «لي مع الله حالات»، يلزمه الفناء^(١) والاستغراق التام في الولي، بحيث يطل برأسه من هناك ويقول: «لي مع الله حالات».

برون آی از سرای ام هانی بگو مطلق حدیث من رآنی

رؤية الحق بالروح والقلب

قال خاتم الأنبياء ﷺ حين عاد من المعراج: «من رآني فقد رأى الحق»^(٢)، يعدّ هذا من المجالي، وقد سبق لنا الحديث عن المظاهر والمرائي والمجالي والمجاري. إذًا، «من رآني فقد رأى الحق»، يتمحور الحديث هنا عن الرؤية التي تختلف عن النظر، حيث أنها تظهر من عالم الباطن، أي من القلب^(٣) والروح. وقد خاطب إبراهيم عليه السلام ربه قائلاً: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾^(٤). ولا تعني كلمة

=الطريق ويمنعه الهداية وهذا هو حال العلوم الرسمية جميعاً فهي تحجب الإنسان عما ينبغي أن يصل إليه وتؤكد لديه العجب فعندما يدخل العلم قلباً غير مهذب يجزّ صاحبه إلى الخلف وكلما زاد خزينته زادت مصائبه. مهما نثرت من بذور في الأرض الملحية فلن تحصل على ثمرة وهذا هو حال القلب المحجوب غير المهذب، القلب الذي يخاف من اسم الله، البعض ومثلما يخافون من الأفعى يخشون المسائل الفلسفية رغم أن الفلسفة هي أيضاً من العلوم الرسمية، الفيلسوف أيضاً يخاف - بنفس الصورة - من العرفان وهكذا حال العارف لما فوقه، والجميع هي علوم رسمية وكلها (قيل وقال)، (تفسير آية البسملة (محاضرات معرفية)، ص ٦٧). ولهذا قيل إنّ العلم هو الحجاب الأكبر.

(١) «... العبودية التي هي إفناء العبد جميع ما آتاه الله في جنب معبوده وموته بتمام شراشره (أي جملة الجسم) في قبضة المولى»، الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ١٢٩.

(٢) بحار الأنوار، ج ٦١ ص ٢٣٥.

(٣) قال الإمام الصادق عليه السلام: «الله تبارك وتعالى جعل القلب مُدَبِّراً للجسد، به يسمع وبه يبصر وهو القاضي والأمير عليه لا يتقدّم الجسد إنّ هو تأخر، ولا يتأخر إنّ هو تقدّم، وبه سمعت الحواس وأبصرت، إنّ أمرها ائتمرت، وإنّ نهاها انتهت، وبه ينزل الفرح والحزن، وبه ينزل الألم، إنّ قُسد شيء من الحواس بقي على حاله، وإن قُسد القلب ذهب جميعها حتى لا يسمع ولا يبصر»، بحار الأنوار، ج ٥٨ ص ٦٢.

(٤) سورة البقرة، آية ٢٦٠.

«أرني»^(١): أر عيني، بل معناها: أر روعي^(٢). وكذلك موسى سلام الله عليه قال: ﴿أَرِنِي﴾ فأجابه الحق: ﴿كُنْ تَرِنِي﴾، فحدّك لا يخوّلك رؤيتي، يا موسى، حتى ولو كنت نبياً وحتى لو كنت موسى! أظننت أنه حين كلمتنا وكلمناك بضعة أيام، بات بإمكانك أن ترتقي وتحدث عن الرؤية؟ إلزم حدّك. ولكن أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام يقول: «لم أعبد ربّاً لم أره»^(٣) وكذلك يقول ولده الحسين عليه الصلاة والسلام: «عميت عين لا تراك»^(٤) ثم يقول: يراك عظمي وصيوان أذني وأظافري وكل شعرة في بدني وكل رمش في عيني ولحمي وجلدي ودمائي الجارية في عروقي. إي والله، لك حق أن تكون «ثار الله»^(٥) و«وتر الله الموتور»^(٦)، ولكن ما معنى «وتر الله الموتور»؟ كما يُقال في مجال التوحيد، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٧)، «الأحد»^(٨) في مرتبة الذات و«الواحدية» في مرتبة الصفات، يقال للولي «وتر الله الموتور»، أي لا ثانٍ لعلّي ولا ثانٍ للحسين.

(١) الفرق بين النظر والرؤية أنّ النظر يكون بالعين أمّا الرؤية فبالقلب. «المراد برؤيته: رؤيته باسمه تعالى عن وصف الواصفين»، الشمس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ١٧٥.

(٢) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَثَلُ رُوحِ الْمُؤْمِنِ وَبَدَنِهِ كَجَوْهَرَةٍ فِي صَنْدُوقٍ إِذَا أُخْرِجَتْ الْجَوْهَرَةُ مِنْهُ، طُرِحَ الصَنْدُوقُ وَلَمْ يُعَبَأْ بِهِ وَقَالَ: إِنَّ الْأَرْوَاحَ تَمَازِجَ الْبَدَنِ وَلَا تَوَاكُلُهُ وَإِنَّمَا هِيَ كَلَّلٌ لِلْبَدَنِ مُحِيطَةٌ بِهِ»، مختصر بصائر الدرجات، ص ٣.

(٣) عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «ما كنت أعبد ربّاً لم أره»، (الكافي، ج ١ ص ٩٨). وعنه عليه السلام قال: «مَا شَكَّكْتُ فِي الْحَقِّ مُذْ أُرِيتُهُ»، (نهج البلاغة، الحكمة ١٨١). كما نُقِلَت الرواية بشكل آخر: «ما شككت في الحق منذ رأيت»، بحار الأنوار، ج ٣٢ ص ٢٣٧.

(٤) دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة، مفاتيح الجنان.

(٥) ورد في الزيارة السابعة للإمام الحسين عليه السلام: «السلام عليك يا ثار الله وابن ثاره»، مفاتيح الجنان.

(٦) في زيارة للإمام الحسين عليه السلام: «أشهد أنك وتر الله الموتور...»، كامل الزيارات، ص ٣٦٥.

(٧) سورة الإخلاص، آية ١.

(٨) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إن الواحد معنى وصفّي، وأمّا =

حَقَائِقُ

=الأحد فليس معنى وصفياً، بل هو اسم لذات الباري تعالى». كما يقول سماحته في موضع آخر: «إنَّ الحقَّ تعالى أحدٌ في مرتبة الذات، وواحدٌ في مرتبة الصفة؛ الواحد معنى وصفياً أي جاعل الواحد، فالأحد هو الواحد في مقام ذاته، وأمَّا الواحد فهو جاعل الواحد... لا بدَّ أن تفهم الواحد حتَّى يُشار لك على الأحد، ولا يمكن فهم وإدراك الأحد من دون فهم وإدراك الواحد»، انتهى. «إنَّ الأحدية مرتبة الذات باعتبار انتفاء تعدد الصفات والأسماء والنسب والتعينات عنه ويقال لهذه المرتبة العماء لأنه لا يعرفها أحد غيره فهو في حجاب الجلال... وهذه المرتبة هي حقيقة الحقائق وغيب الغيوب والتجلي الذاتي أعني تجلي الذات للذات. والواحدية اعتبار الذات من حيث نشوء الأسماء والصفات منها ويقال لهذه المرتبة البرزخ الجامع وأصل البرازخ والتعين الأول والأفق الأعلى وعين الجمع ومقام أو أدنى والطامة الكبرى ومجلى الذات الأحدية»، (شرح الأسماء الحسنى، ج ١ ص ١٣١). كما قال عليّ ؑ: «الحقيقة جذب الأحدية لصفة التوحيد»، روضة المتقين، ج ٢ ص ٨١.

الفيض الثالث

الصفات الإلهية

تُنسب كل الصفات الكمالية، الجلالية والجمالية^(١) للحق تعالى، إلى تلك الذات^(٢) على وجه الخصوص ولا يمكن لأحد أن يشاركها فيها. لكنه مع ذلك، يُستفاد من الآيات القرآنية الكريمة أن هذه الصفات تُنسب إلى غير الحق تعالى.

قال الحق المتعال عن نفسه إنه ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(٣)، وقد أثبتت هذه الصفات لبعض الأفراد، حيث استُخدم في حقهم تعبير «الخالقين»^(٤) أيضاً. هو الخالق، ولكنه قال: أنا أحسن من كل الخالقين في العالم.

(١) «إن الجلال مقام القهر والغلبة والاستيلاء والتمنع والجمال مقام الأنس والمشاهدة والمحبة... ولما جعل في الجلال حرف من اسم عليّ ﷺ، دلّ على القهر والغلبة. ولما جعل في الجمال حرف من اسم محمد ﷺ، دلّ على الأنس والاتلاف»، دُرر الأسرار، ص ١٠٢.

(٢) تارة يُقصد بالذات «الذات الربوبية» وتارة أخرى يُقصد بها «إسم الذات». والمقصود هنا هو اسم الذات.

(٣) سورة المؤمنون، آية ١٤؛ سورة الصافات، آية ١٢٥.

(٤) ﴿أَنَّى خَلَقُ لَكُمْ مِنْ أَلْبَانٍ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (سورة آل عمران، آية ٤٩). قال أمير المؤمنين ﷺ: «إنا صنائع ربنا والخلق بعد صناعنا»، (نهج البلاغة، رسالة ٢٨). وفي رسالة للإمام الحجة ﷺ: «نحن صنائع ربنا والخلق بعد صناعنا»، كتاب الغيبة، ص ١٧٣ ح ٧.

وكذلك قال تعالى: ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(١). فالحق راحم ولكن ذاته^(٢) المقدسة تقول: أنا أرحم من كل الراحمين في العالم.

وفي ما يتعلق بفعل الحق، فإن أحداً في العالم لا يمكنه أن يعدّ نفسه شريكاً في فعله تعالى^(٣). ولكن الحق المتعال يقول في محكم كتابه الكريم: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾^(٤). فهو ليس مجرد شريك في الفعل، بل أكثر

(١) سورة الأعراف، آية ١٥١؛ سورة يوسف، آية ٦٤ - ٩٢؛ سورة الأنبياء، آية ٨٣.

(٢) إسم الذات هو المقصود هنا.

(٣) من كلام للسيد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إن المعجزة دلالة على أنّ فاعل المعجزة صار واحداً مع المبدأ، فكل ما يصدر عن المبدأ يصدر عن المتوحد معه، وهذا هو نداء التوحيد. إنّ الله وحده يمكنه أن يقوم بهذه الأفعال، ولا يوجد متصرف غيره في عالم الوجود، ولكن عندما نسمع أنّ عيسى بن مريم يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى، فهذا لا يعني وجود إلهين بل هو يعني أنّ عيسى بن مريم سلام الله عليه صار واحداً مع المبدأ. لو لم يدقق الإنسان في فهم الحقائق، فسوف يخرج الشرك من قلب التوحيد، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (سورة يوسف، آية ١٠٦). لا، هو واحد وليس اثنين ولكن التوحيد ظهر في هذه الموارد. عيسى بن مريم كان يحيى الموتى، ولكنه لم يدّع ما ادّعاه أمير المؤمنين سلام الله عليه، حيث يقول سلام الله عليه: «أُحْيِي وَأُمِيتُ». فعندما كان عيسى بن مريم يحيى الموتى كان يقول إنّّه يحيى الموتى بإذن الله، وهذا الإذن هو نفس الولاية. يقول تعالى ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾، وإنّ الرحمن هنا هو الولاية، انتهى. والحاكم على كل الأسماء والصفات الإلهية هو الإسم الأعظم والمظهر الأتم، والإسم الأعظم هو أمير المؤمنين سلام الله عليه، فتحصل أنّ إذن الله تعييناً هو أمير المؤمنين سلام الله عليه. وقد يشكّل جاهل، قد أظلم الله على قلبه، ويقول إنّ هذا الكلام كفر ومستلزم للشرك، فنقول له إنّ أساس التوحيد لا يُحفظ إلا بنسبة هذه الصفات والكمالات الوجودية للولي المطلق وإلا فعدم نسبة هذه الحقائق الوجودية والصفات الكمالية لهم صلوات الله عليهم مستلزم للكفر والشرك بالله العظيم. وقد ورد عن أمير المؤمنين سلام الله عليه أنّ عيسى بن مريم سلام الله عليه إنّما صار يحيى الموتى لمعرفته بإسمي، وإنّما وصل إلى ذلك لأنه صار واحداً مع الإسم. ورد في الخطبة التطنجية أن أمير المؤمنين ﷺ تكلم بكلمات، فسأله ابن قدامة: «ما هذه اللغة يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه الصلاة والسلام: أسماء الأئمة بالسريانية واليونانية التي نطق بها عيسى وأحيى بها الموتى والروح وأبرأ الأكمه والأبرص»، مشارق أنوار اليقين، ص ١٦٦ - ١٧٠.

(٤) سورة الأنفال، آية ١٧.

من ذلك، إذ يقول تعالى: حينما رميت السهم، كان الله من رماه^(١). إذاً، هناك راحمون وخالقون غير الحق المتعال^(٢).

(١) عمرو بن أبي المقدام، عن علي بن الحسين عليه السلام، قال: «ناول رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب عليه السلام قبضة من تراب التي رمى بها في وجوه المشركين، فقال الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (الأنفال، آية ١٧)»، (تفسير العياشي، ج ٢ ص ٥٢ ح ٣٤). وفي تفسير الآية، ذكر جماعة من المفسرين، كابن عباس وغيره، أن جبرائيل عليه السلام قال للنبي ﷺ يوم بدر: «خذ قبضة من تراب، فارمهم بها، فقال رسول الله ﷺ لما التقى الجمعان لعلي: أعطني قبضة من حصي الوادي. فناوله كفاً من حصي عليه تراب، فرمى به في وجوه القوم، وقال: شأهت الوجوه! فلم يبق مشرك إلا دخل في عينه وفمه ومنخره منها شيء، ثم ردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم. وكانت تلك الرمية سبب هزيمة القوم»، تفسير مجمع البيان، ج ٤ ص ٤٤٥.

(٢) كما بات معلوماً، يُمكن للأسماء الإلهية أن تتجلى بأي كان، فعلى سبيل المثال، يتجلى اسم الحيّ بإبليس والسامريّ، إذ إن إبليس لا يزال حيّاً منذ أن رفض السجود لآدم، فطرده الله وأنظره إلى يوم الوقت المعلوم، ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (سورة الحجر آية ٣٧ - ٣٨). وكذلك الحال بالنسبة إلى السامريّ، حيث تُرك حيّاً جزاءً على صنعه العجل ودفعه الناس إلى عبادته، حيث يذكر القرآن الكريم: ﴿كَأَلْهَبٍ فَادَّهَبَ فَأَنكَرَ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ (سورة طه، آية ٩٧). وكان اسم الخالق قد تجلّى بالسامريّ أيضاً حين صنع العجل، فالأسماء تتجلى بالإنسان سواء كان من المؤمنين أو الكافرين، وكذلك فاسم الشافي من الممكن أن يتجلى في الطبيب الكافر أو المؤمن عبر علاج أمراض الناس وشفائها، وهكذا بالنسبة إلى بقية الأسماء. أما الاسم الوحيد الذي لا يتجلى إلا بالموالي العاشق المتبرئ فهو الاسم الأعظم حصراً. وحين يتجلى اسم الله الأعظم بأحد ما يُصيّره صورةً لصورة الاسم الأعظم، التي هي الإمام. وفي الواقع، كل الأسماء تختلف في العرفاء، غير أنّ العارف عموماً يكون صورة لاسم واحد فقط، وقلة هم العرفاء الذين يكونون صورة لصورة الاسم الأعظم. وعليه، على الإنسان أن يبحث عن صورة الصورة هذه حتى يجدها ويتبعها لأنها الأقرب إلى الاسم الأعظم الحقيقي.

التوحيد في الصفات

كيف يمكن حلّ هذه المسألة من منظور التوحيد؟ وكيف لنا أن نقبلها؟ إن الحق هو المُميت والمُحيي، فهل هناك غيره مَنْ يستطيع أن يُحيي ويميت؟ إذا حصل وتمّ نسبُ صفة واحدة من صفات الحق إلى غيره، سيُمكن تطبيق ذلك على كل صفاته. فلو فرضنا أنكم وجدتم خالقاً غير الله، عندها سيكون بالإمكان نسب جميع صفات الحق إليه، وبالتالي يمكن لغير الحق أن يكون رحيماً وكراماً وعليماً وبصيراً^(١)...

إننا نأخذ المدد من ذات الحق. أنتم قلتم: الله ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ و﴿أَرْحَمُ

(١) عن رسول الله ﷺ قوله: «تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ»، (بحار الأنوار، ج ٥٨ ص ١٢٩). «كما أننا العباد الضعاف قادرون على الأعمال البسيطة مثل الحركة والسكون وأفعال أخرى صغيرة، فإنّ العباد المخلصين لله سبحانه والملائكة المجرّدين، قادرون على أعمال عظيمة من الإحياء والإماتة والرزق والإيجاد والإعدام. وكما أن ملك الموت يقوم بالإماتة، وعمله هذا لا يكون من قبيل استجابة الدعاء، وإن إسرافيل موكل بالإحياء، وإحياءه لا يكون من قبيل استجابة الدعاء أو التفويض الباطل فكذلك الولي الكامل، والنفوس الزكية القوية، مثل نفوس الأنبياء والأولياء، قادرة على الإعدام والإيجاد والإماتة والإحياء، بقدرة الحق المتعال، وليس هذا من التفويض المحال، ويجب أن لا نعتبره باطلاً. ولا مانع من تفويض أمر العباد، إلى روحانية كاملة، تكون مشيئته فانية في مشيئة الحق، وإرادته ظلال لإرادة الحق، ولا يروم إلا ما يريده الحق، ولا يتحرك إلا إذا كان موافقاً للنظام الأصلح، سواء كان في الخلق والتكوين أو التشريع والتربية... أعلم أن لأهل بيت العصمة والطهارة ﷺ مقاماً روحانياً شامخاً، في السّير المعنوي إلى الله، يفوق قدرة استيعاب الإنسان حتى من الناحية العلمية، وأسمى من عقول ذوي العقول وأعظم من شهود أصحاب العرفان... إن الأحاديث المأثورة في طينة أبدانهم، وخلق أرواحهم ونفوسهم، وفي ما مُنحوا من الاسم الأعظم، والعلوم الغيبية الإلهية من علوم الأنبياء والملائكة، ومما هو أعظم مما لا يخطر على بال أحد، وهكذا الأخبار المنقولة في فضائلهم في مختلف الأبواب من الكتب المعتمدة وخاصة كتاب أصول الكافي، إن مثل هذه الأخبار كثيرة بقدر تبعث على تحيّر العقول، ولم يقف أحد على حقائقهم وأسرارهم عليهم الصلوات إلا أنفسهم»، الأربعون حديثاً، ٥٧٧ - ٥٧٨ - ٥٧٩.

الرَّحِيمِ ﴿١﴾ . وإن أحداً في العالم لم يتمكن من الإدعاء بأنه موصوف بصفات ينسبها الحق إلى نفسه. ونحن لم نر في العالم من ينسب صفات الحق إلى نفسه إلا بعض الذوات المقدسة^(١) ، بقدرتها. وقد أقرّ لهم بتلك الصفات بعض المقرّبين منهم.

(١) عن أبي حمزة الثمالي، عن علي بن الحسين عليه السلام، قال: «قلت: الأئمة يحيون الموتى ويرثون الأكمة والأبرص ويمشون على الماء؟ قال: ما أعطى الله نبياً شيئاً قط إلا وقد أعطاه محمداً عليه السلام، وأعطاه ما لم يكن عندهم. قلت: وكل ما كان عند رسول الله عليه السلام قد أعطاه أمير المؤمنين عليه السلام؟ قال نعم، ثم الحسن والحسين عليهما السلام، ثم من بعد كل إمام إماماً إلى يوم القيامة، مع الزيادة التي تحدث في كل سنة وفي كل شهر. ثم قال: إي والله في كل ساعة»، (بصائر الدرجات، ص ٢٠٥). وعن عيون المعجزات على ما يظهر من بعض المواضع، عن أبي علي محمد بن همام، عن جعفر بن محمد بن مالك الفزاري، عن محمد بن صدقة، عن محمد بن سنان، عن المفضل بن عمر، عن جابر بن يزيد الجعفي، عن أبي خالد الكابلي قال: قال الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليهما الصلاة والسلام لما سأله عن هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾. قال: إن قبراً مولى علي عليه الصلاة والسلام أتى منزله يسأل عنه وخرجت إليه جارية يقال لها فضة. قال قبر: فقلت لها: أين علي بن أبي طالب؟ وكانت جاريته فقالت: في البروج. قال قبر - وأنا لا أعرف لأمر المؤمنين عليه الصلاة والسلام بروجاً - فقلت: وما يصنع في البروج؟ قالت: هو في البروج الأعلى يقسم الأرزاق، ويعين الآجال، ويخلق الخلق، ويميت ويحيي، ويعزّ ويذل، قال قبر: فقلت: والله لأخبرنّ مولاي أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام بما سمعت من هذه الكافرة، فيينا نحن كذلك إذ طلع أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام، وأنا متعجب من مقالته فقال لي: يا قبر ما هذا الكلام الذي جرى بينك وبين فضة؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، إن فضة ذكرت كذا وكذا، وقد بقيت متعجباً من قولها. فقال عليه الصلاة والسلام: يا قبر، وأنكرت ذلك؟ قلت: يا مولاي أشدّ الإنكار، قال: يا قبر ادن مني، فدنوت منه فتكلم بشيء لم أفهمه، ثم مسح يده على عيني، فإذا السماوات وما فيهن بين يدي أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام كأنها فلكة أو جوزة، يلعب بها كيف ما شاء وقال: والله إني قد رأيت خلقاً كثيراً يقبلون ويدبرون ما علمت أن الله خلق ذلك الخلق كلهم، فقال لي: يا قبر، قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قال: هذه لأولنا وهو يجري لآخرنا، ونحن خلقناهم، وخلقنا ما فيهما وما بينهما وما تحتها، ثم مسح يده العليا على عيني، فغاب عني جميع ما كنت أراه حتى لم أر منه شيئاً، وعدت على ما كنت عليه من رأي البصر، (صحيفة الأبرار، =

نفي الصفات عن الذات

سنشير إلى إحدى المسائل التوحيدية ونمضي:

لا تظهر ذات الحق بأية نسبة، ما يعني أنها لا يمكن أن تكون هي «الرحيم» أو «الكريم» أو... لأنه إذا قبلت الذات هذه الصفات، ينتفي الإطلاق الذاتي فيها، أي أنها تنزل بالصفات. وإذا تنزلت بالصفات، لا تعود هذه الذات مطلقة، إذ يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وكمال توحيد الإخلاص له وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه؛ لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة»^(١).

تحقق الأسماء الإلهية في أهل البيت عليهم السلام

لا يُنسب إلى ذات الله المتعال حتى الاسم^(٢). وبناءً عليه، فإن المراد من قوله

ج=٢ ص ٨١). وروي أن أمير المؤمنين عليه السلام كان قاعداً في المسجد وعنده جماعة من أصحابه... فقال: أنا الذي علوت فقهرت، أنا الذي أحبي وأميت، أنا الأول والآخر والظاهر والباطن...، (بحار الأنوار، ج ٤٢ ص ١٨٩). وفي رواية أخرى: «... وسئل (أمير المؤمنين عليه السلام) كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت وأنا الصديق الأول، والفاروق الأعظم، وأنا وصي خير البشر، وأنا الأول، وأنا الآخر، وأنا الباطن، وأنا الظاهر، وأنا بكل شيء عليم، وأنا عين الله، وأنا جنب الله، وأنا أمين الله على المرسلين، بنا عبد الله، ونحن خزان الله في أرضه وسمائه، وأنا أحبي وأميت، وأنا حي لا أموت...»، مناقب آل أبي طالب، ج ٢ ص ٣٨٥.

(١) نهج البلاغة، خطبة ١.

(٢) بإسناده عن الحسن بن سعيد الخزاز عن رجاله عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال الله غاية من غياه فالمعنى غير الغاية توحد بالربوبية ووصف نفسه بغير محدودية فالذاكر الله غير الله، والله غير أسمائه، وكل شيء وقع عليه اسم شيء سواه فهو مخلوق ألا ترى إلى قوله «العزة لله» و«العظمة لله» وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ فالأسماء مضافة، وهو التوحيد الخالص»، (الاحتجاج، ج ٢ ص ٧٢؛ الكافي، ج ١ ص ٨٧). وعن أبي جعفر الثاني عليه السلام: «... وكان الله ولا ذكر، والمذكور بالذكر هو الله القديم الذي لم يزل، والأسماء=

تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾^(١) ليس الله الذات بل الله الاسم. فالله الإسم هو الذي عنده أسماء أخرى.

لا يمكن لهذا الكلام أن يكون مُحْكَمًا إلا من خلال مجرى التشيع كما لا يمكن تفسيره إلا بالمنطق الشيعي. فما هو معناه؟

لتفسير معنى هذا الموضوع، نستحضر إحدى الدلالات الفطرية، علماً أن حديثنا مع الشيعي حصرًا. حين يلجأ الشيعي إلى صفة الشافي^(٢)، ينسب التحقق

=والصفات مخلوقات، والمعاني والمعني بها هو الله الذي لا يليق به الاختلاف ولا الائتلاف...» (الكافي، ج ١ ص ١١٦). وعن الصادق عليه السلام: «اسم الله غير الله، وكل شيء وقع عليه اسم شيء فهو مخلوق ما خلا الله»، (الكافي، ج ١ ص ١٩٢). وعن هشام بن الحكم، أنه سأل أبا عبد الله عليه السلام عن أسماء الله واشتقاقها: الله ممّ هو مشتق؟ فقال: «يا هشام، الله مشتق من إله، وإله يقتضي مألوهًا، والاسم غير المسمى، فمن عبد الإسم دون المعنى فقد كفر ولم يعبد شيئاً، ومن عبد الاسم والمعنى فقد أشرك وعبد اثنين، ومن عبد المعنى دون الإسم فذاك التوحيد، أفهمت يا هشام؟ قال: قلت: زدني قال: الله تسعة وتسعون اسماً، فلو كان الاسم هو المسمى لكان كل اسم منها إلهًا، ولكن الله معنى يُدَلُّ عليه بهذه الأسماء، وكلها غيره، يا هشام، الخبز اسم للمأكل، والماء اسم للمشروب، والثوب اسم للملبوس، والنار اسم للمحرق، أفهمت يا هشام فهمًا تدفع به وتناضل به أعداءنا المتخذين مع الله عز وجل غيره؟ قلت: نعم، فقال: نفعلك الله به وثبتك يا هشام. قال: فوالله ما قهرني أحد في التوحيد حتى قمت مقامي هذا»، توحيد الصدوق، ص ٢٢٠ ح ١٢.

(١) سورة الأعراف، آية ١٨٠. عن الصادق عليه السلام في حديث طويل: «وله الأسماء الحسنى التي لا يسمى بها غيره، وهي التي وصفها في الكتاب فقال: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ جهلاً بغير علم، فالذي يلحد في أسمائه بغير علم يشرك وهو لا يعلم، ويكفر به وهو يظن أنه يُحسن، ولذلك قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ فهم الذين يلحدون في أسمائه بغير علم فيضعونها غير مواضعها، سيجزون ما كانوا يعملون»، تفسير الصافي، ج ٢ ص ٢٥٥.

(٢) «أنا سائلكم وأملككم في ما إليكم التفويض وعليكم التعويض، فبكم يجبر المهيض ويشفي المريض وما تزداد الأرحام وما تغيض»، مصباح المتعبد، ص ٨٢١.

التام لهذه الصفة إلى أهل البيت عليهم السلام. ولكن الشافي هو الحق، فكيف تنسبون التحقق التام إلى أهل البيت عليهم السلام ^(١)؟

ترتبط هذه المسألة بالفطرة، فعندما يتصل الشيعي بنور الولاية، يعرف أن الشافي هو الحق، ولكن تحقق هذه الصفة هو في أهل البيت عليهم السلام ^(٢). فإذا قال أحدهم: «أنا لا أعتقد بالإمام، وأنت يا إلهي الشافي»، لن يكون لكلامه أية قيمة. وكذلك، إذا قال بلسانه: «أنا أعتقد بالحق الشافي وأقبل بطاعة الإمام»، لن يحصل على أية نتيجة، ذلك أنه ليس للاعتقاد صورة لفظية، وإنما يدل ذلك على وجود خلل ما في اعتقاد هذا الإنسان. فإما أنه لا يعرف الله أو لا يعرف أهل البيت عليهم السلام أو لا يعرف الإثنين معاً ^(٣).

(١) إن الشفاء ومقابله من الأوصاف الفعلية لله سبحانه يُنتزع من مقام فعله لا من الذات، لتعالیه عن ذلك.

(٢) ورد في زيارة سيّد الشهداء سلام الله عليه: «إرادة الربّ في مقادير أموره تهبط إليكم وتصدر من بيوتكم والصادر عما فُصل من أحكام العباد»، (الكافي، ج ٤ ص ٥٧٧). وعن الإمام الباقر عليه السلام: «بنا تنزل الرحمة وبنا تسقون الغيث، ونحن الذين بنا يصرف الله عزّ وجل عنكم العذاب من أبصرنا وعرفنا وعرف حقنا وأخذ بأمرنا فهو من أوليائنا»، (أمالی الطوسي، ص ٦٥٤ ح ١٣٥٤). «وإن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاماً لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث فإن الرسول الأكرم عليه السلام والأئمة عليهم السلام كانوا قبل هذا العالم أنواراً فجعلهم بعرضه محدقين وجعل لهم من المنزلة والزلفى ما لا يعلمه إلا الله، وقد قال جبرائيل عليه السلام كما ورد في روايات المعراج: «لو دنوت أئمة لا احترقت»، وقد ورد عنهم عليهم السلام: «إن لنا مع الله حالات لا يسعها ملك مقرب ولا نبي مرسل»، الحكومة الإسلامية، ص ٥٢.

(٣) من كلام للإمام الصادق عليه السلام مع المفضل بن عمر: «قال: يا مفضل تلك بيوت النور، وقمص الظهور، وألسن العبارة، ومعدن الإشارة، حجبك بها عنه وذلك منها إليه، لا هي هو ولا هو غيرها»، (الهداية الكبرى، باب ٤ ص ٢٧٧). وقد سئل الإمام الصادق عليه السلام: «ما لنا ندعو فلا يستجاب لنا؟ فقال: لأنكم تدعون من لا تعرفون، وتسالون ما لا تفهمون»، كتاب التوحيد، ص ٢٠٩.

حقيقة تراب كربلاء

إذا تحلى أحدهم بالجرأة وقال إن الشفاء في تراب كربلاء^(١)، سيكون كلامه موازياً لحقيقة القرآن^(٢) برمتها. ووحده من يتجرأ على التفوّه بهذا الكلام، سيحصل على الشفاء من تراب كربلاء، أما من لا يعتقد بهذا الاعتقاد، فلن يتمكن من الاستشفاء بتربة سيّد الشهداء عليه السلام^(٣).

والقرآن الكريم هو كلام الله والوحي المُنزّل^(٤). وهو كتاب يُرشد الموجودات إلى الهداية التامة، أنزل على رسول الله صلى الله عليه وآله ومن غير الجائز لمسه من قبل غير

(١) ورد في الرواية: «إن الله عوّض الحسين عليه السلام من قتله أن الإمامة في ذريته والشفاء في تربته وإجابة الدعاء عند قبره»، (وسائل الشيعة، ج ١٠ ص ٣٢٩). «السلام على من جعل الله الشفاء في تربته»، زيارة الناحية المقدّسة، ضياء الصالحين.

(٢) «إنّ مرّكبات القرآن ثلاثة، سورة وآية وكلمة، إمّا إسم أو فعل أو حرف، فكذلك مرّكبات الآفاق فإنّها أيضاً ثلاثة، معدن ونبات وحيوان أو ملك وإنس وجنّ، وحركات القرآن أيضاً ثلاثة، ضمّة وفتحة وكسرة، فكذلك حركات الآفاق فإنّها أيضاً ثلاثة، مستقيمة وأفقيّة ومنكوسة، والمستقيمة مخصوصة بالإنسان، والأفقيّة بالحيوان والمنكوسة بالنبات، أو نصب ورفع وجرّ، فإنّها أيضاً ثلاثة مقابلة للثلاثة الأفاقية حركات مبتدائية وحركات وسطية وحركات منتهائية، هذا بالنسبة إلى مطلق التطابق بين الكتابين، وأما بالنسبة إلى بعض التطابق فقد عرفت من تطابق حروف «بسم الله الرحمن الرحيم» التي هي تسعة عشرة حرفاً بمراتب العالم من حيث الكليات التي هي تسعة عشرة مرتبة وهذا من حيث اعتبار حروفها المكتوبة، فأما من حيث اعتبار حروفها الملفوظة الذي هو اثنين وعشرين حرفاً فبإزاء اثنين وعشرين عالماً أما التسعة عشرة فقد عرفت، وأما الإثنين والعشرين فبانضمام العوالم الإلهية إليها التي هي الثلاثة من عالم الذات وعالم الصفات وعالم الأفعال والملك والملكوت والجبروت بإزائها»، تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم، ص ٤٣٤ - ٤٣٥.

(٣) عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لو أن مريضاً من المؤمنين يعرف حق أبي عبد الله عليه السلام وحرّمته أخذ له من طين قبر الحسين عليه السلام مثل رأس الأنملة كان له دواء وشفاء»، مصباح المتهجد، ص ٧٣٣.

(٤) ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْفَىٰ * إِلَّا نَذْكُرَكَ لِمَن يَخْشَىٰ﴾، (سورة طه، آية ٢ - ٣)، ﴿أَفَنُوعَلَا أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾، (سورة الرعد، آية ١٩). ورد في الزيارة الجامعة الكبيرة: «وعندكم ما نزلت به رسله وهبطت به ملائكته»، مفاتيح الجنان.

المتوضئ^(١). والله تعالى يقول: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).
﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشَعًا مُّتَصِدِّعًا مِّنْ حَشِيَّةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَفْكُرُونَ﴾^(٣).

ويقول الله تعالى، إن هذا إلا مثل^(٤)، أما الحقيقة^(٥) فهي أمر آخر. إني
أضرب هذا المثل^(٦) حتى تدركوا حقيقة، وحقيقته هي تراب كربلاء.

الحسين حقيقة لا تُدرَك

هل الإمام الحسين عليه السلام مساوٍ للقرآن؟ لا^(٧)، إياكم أن تقولوا هذا الكلام

(١) ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾، سورة الواقعة، آية ٧٩.

(٢) سورة الإسراء، آية ٨٢.

(٣) سورة الحشر، آية ٢١.

(٤) قال أبو عبد الله عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا عَرَجَ بِنَبِيِّهِ ﷺ إِلَىٰ سَمَاوَاتِهِ السَّبْعِ... ثُمَّ قِيلَ لِي: إِرْفَعْ رَأْسَكَ يَا مُحَمَّدٌ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَطْبَاقُ السَّمَاءِ قَدْ خُرِقَتْ وَالْحَجَبُ قَدْ رُفِعَتْ، ثُمَّ قَالَ لِي: طَاطَىٰ رَأْسَكَ، أَنْظِرْ مَا تَرَىٰ؟ فَطَاطَأْتُ رَأْسِي فَظُفِرَتْ إِلَىٰ بَيْتٍ مِّثْلَ بَيْتِكُمْ هَذَا وَحَرَمٌ مِّثْلَ حَرَمِ هَذَا الْبَيْتِ لَوْ أَلْقَيْتُ شَيْئًا مِنْ يَدِي لَمْ يَقَعْ إِلَّا عَلَيْهِ، فَقِيلَ لِي: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ هَذَا الْحَرَمَ وَأَنْتَ الْحَرَامُ وَلِكُلِّ مَثَلٍ مَّثَالٌ...»، الكافي، ج ٣ ص ٤٨٥.

(٥) ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْيُتُّ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، سورة العنكبوت، آية ٤٩.

(٦) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾، وعلامة الفاسقين: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، سورة البقرة، آية ٢٦ - ٢٧.

(٧) إنه القرآن العيني والوجود الواقعي. وقد قال رسول الله ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي تَارِكُ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ: الثَّقَلَ الْأَكْبَرُ وَالثَّقَلَ الْأَصْغَرُ، إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَا تَضِلُّوا وَلَا تُبَدِّلُوا، وَإِنِّي سَأَلْتُ اللَّطِيفَ الْخَبِيرَ أَنْ لَا يَتَفَرَّقَا حَتَّىٰ يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ فَأُعْطِيَتْ ذَلِكَ، قَالُوا: وَمَا الثَّقَلُ الْأَكْبَرُ؟ وَمَا الثَّقَلُ الْأَصْغَرُ؟ قَالَ: الثَّقَلُ الْأَكْبَرُ كِتَابُ اللَّهِ سَبَبُ طَرَفِهِ بِيَدِ اللَّهِ، وَسَبَبُ طَرَفِهِ بِأَيْدِيكُمْ وَالثَّقَلُ الْأَصْغَرُ عِزَّتِي وَأَهْلُ بَيْتِي»، (بحار الأنوار، ج ٢٣ ص ١٤٠). إن المصحف هو أنزل درجات كتاب الله، كونه القرآن المنتزَل، أمَّا أعلى درجاته فهي حقيقة القرآن، وهي عين ذوات أهل البيت عليه السلام، التي صنَّفها الرسول الأكرم ﷺ بحديثه على أنها الثقل الأكبر. وإلا، فكيف للوجود المُنتزَل المتمثل بالمصحف أن يكون أكبر من «أم الكتاب» و«الكتاب المبين» و«اللوح المحفوظ»=

وإلا فأنتم لم تعرفوا الإمام الحسين عليه السلام. إن الحسين عليه السلام صاحب علو تام،

=«الكتاب المكنون»! فهذه الحقائق الغيبية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بأرواح الأئمة عليهم السلام، وبالتالي فإن الثقل الأكبر الذي خلفه النبي صلى الله عليه وآله هو الإمام حتماً أما الأصغر فهو المصحف. ومن المعلوم، بحسب الروايات المتواترة، أن الإمام هو القرآن الناطق والمصحف هو القرآن الصامت، ومن البديهي أن يكون القرآن الناطق هو الثقل الأكبر لأنه أعظم من الصامت، إذ ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق لكم. أخبركم عنه أن فيه علم ما مضى وعلم ما يأتي إلى يوم القيامة وحكم ما بينكم وبين ما أصبحتم فيه تختلفون فلو سألتموني عنه لعلمتكم»، (الكافي، ج ١ ص ٦٠). كما خاطب رسول الله صلى الله عليه وآله الناس قائلاً: «ألا وإني قد خلّفت فيكم كتاب الله فيه النور والهدى والبيان لما فرض الله تبارك وتعالى من شيء حجة الله عليكم وحقّي وحجة وليي، وخلّفت فيكم العلم الأكبر علم الدين ونور الهدى وضياءه وهو علي بن أبي طالب، ألا وهو حبل الله ﷻ وأعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا وأذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون»، (غاية المرام وحجة الخصام في تعيين الإمام، ج ٣ ص ٣٥). وعن أبي جعفر الثاني عليه السلام قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: بينا أبي عليه السلام يطوف بالكعبة إذ رجل معتجر قد قيص له»، فسأله الرجل مسائل عديدة إلى أن قال الإمام عليه السلام: «أبى الله عز وجلّ بعد محمد صلى الله عليه وآله أن يُترك العباد ولا حجة عليهم، قال أبو عبد الله عليه السلام: ثم وقف فقال: ها هنا يا ابن رسول الله باب غامض، أريت إن قالوا: حجة الله القرآن؟ أي المصحف، قال: إذن أقول لهم إن القرآن ليس بناطق يأمر وينهي، ولكن للقرآن أهل يأمرهم وينهون، وأقول: قد عرضت لبعض أهل الأرض مصيبة ما هي في السنة والحكم الذي ليس فيه اختلاف وليست في القرآن - أي المصحف - أبى الله لعلمه بتلك الفتنة أن تظهر في الأرض وليس في حكمه راد لها ومفرج عن أهلها، فقال: ها هنا تفلجون يا ابن رسول الله الفتنة أن تظهر في الأرض... فقال: أبى الله أن يصيب عبداً بمصيبة في دينه أو في نفسه أو في ماله ليس في أرضه من حكمه قاضٍ بالصواب في تلك المصيبة...»، (الكافي، ج ١ ص ٢٤٦). فبيّن عليه السلام أن حجة المعصوم أعظم من حجة المصحف، إذ أيّ أبلغ أثراً عند الناس: مفهوم الصدق النظري أم نفس الشخص الصادق؟ من الطبيعي أن يكون الشخص الصادق أبلغ أثراً. وكذلك، أيّ أرفع لفظ القرآن وكتابته ومفهومه أم من تعيّن فيه هذا القرآن وظهر؟

(١) عن أمير المؤمنين عليه السلام: «جلّ مقام آل محمد عليهم السلام عن وصف الواصفين، ونعت الناعين، وأن يقاس بهم أحد من العالمين»، مشارق أنوار اليقين، ص ١١٤.

بحيث إنه نفسه الإسم. هل الإمام الحسين عليه السلام هو جسم؟ لا، إننا لا نعرف جسم الحسين ^(١) عليه السلام، ولا أحد على الإطلاق يعرفه ^(٢).

قالت السيدة شهربانو مخاطبةً أبي عبد الله الحسين عليه السلام: سيدي، لي حق في عنقك وهو حق الزوجية. لقد قلت إن هذا الوجه والجسم الظاهري الذي نراكم به ليس هو الأصل، بل إن وراءه الكثير من الحجب التي تحول بيننا وبين رؤيتكم، حتى أنّ أحداً منّا لم يسبق له أن رأى صورتكم الجسمية ^(٣)، فهل هذا

(١) ورد عن الإمام زين العابدين قوله: «لو أنا ظهرنا على الصورة التي خلقنا الله عليها لما رأنا أحد إلاّ وقد مات». وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «كان في رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاثة لم تكن في أحد غيره: لم يكن له فَيء (أي ظلّ) وكان لا يمرّ في طريق فيُمرّ فيه بعد يومين أو ثلاثة إلاّ عُرِف أنّه قد مرّ فيه لطيب عُرْفه، وكان لا يمرّ بحجرٍ ولا شجرٍ إلاّ سجّد له»، (الكافي، ج ١ ص ٤٤٢؛ بحار الأنوار، ج ١٧ ص ٣٤٦ ح ١٧). وكل الصفات التي تنطبق عليه، تنطبق على عترته عليهم السلام لأنهم من نور واحد، والنور ليس له ظل. وكذلك من صفات الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه: «كان يرى من خلفه كما يرى من بين يديه إذا نظر، ولا ينام قلبه لنوم عينيه، ولا يؤثر في الرمل وطء قدميه ويؤثر في الحجر... الجوهر الشفاف الذي ليس له ظلّ كظلّ البشر... وكان أمير المؤمنين عليه السلام مشاركاً له في ما غاب وحضر، فهو السرّ الذي لا ينكره إلا من أبى وكفر... فهم في الأجساد أشباح وفي الأشباح أرواح وفي الأرواح أنوار وفي الأنوار أسرار فهم الصفوة والصفات والأصفياء... والشبح هو الذي يُرى شخصه ولا يُعرف معناه»، مشارق أنوار اليقين، ص ١٣١.

(٢) عن طارق بن شهاب عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «يا طارق الإمام كلمة الله وحجة الله ووجه الله ونور الله وحجاب الله وآية الله... ظاهره أمر لا يملك وباطنه غيب لا يدرك واحد دهره وخليفة الله في نهيه وأمره لا يوجد له مثل ولا يقوم له بديل فمن ذا ينال معرفتنا أو يعرف درجتنا أو يشهد كرامتنا أو يدرك منزلتنا حارت الأبواب والعقول وتاهت الأفهام في ما أقول تصاغرت العظماء وتقاصرت العلماء وكلت الشعراء وخرست البلغاء ولكنت الخطباء وعجزت الفصحاء وتواضعت الأرض والسماء عن وصف شأن الأولياء... والإمام يا طارق بشر ملكيّ وجسد سماويّ وأمر إلهي وروح قدسي ومقام عليّ ونور جلّي وسرّ خفيّ، فهو ملكيّ الذات إلهي الصفات...»، بحار الأنوار، ج ٢٥ ص ١٦٩ - ١٧٤ ب ٤؛ مشارق أنوار اليقين، ص ١١٤ - ١١٧.

(٣) روى ابن عباس عن قول أبي طالب لأخيه: «يا عباس أخبرك عن محمد أني ضمّته =

صحيح؟ أجاب ﷺ: نعم، هذا صحيح. ما من أحد يطيق رؤيتنا حتى في عالم الجسم. وهنا، تتحقق آية ﴿كَذَلِكَ الشُّوْرُ﴾^(١)، أي أن الإمام تنزل^(٢) بنحو تام واتخذ شكل البشريين^(٣) حتى يتمكنوا من النظر إليه.

قالت السيّدة شهربانو: سيدي، أودّ رؤية ذلك الوجه. فقال ﷺ: لا تقدرين على ذلك، فهذا الجسم^(٤) لا يملك أحد القدرة على رؤيته، ولا يمكن لروح

= فلم أفارقه ساعة من ليل أو نهار فلم أأتمن أحداً حتى نومت في فراشي فأمرته أن يخلع ثيابه وينام معي فأريت في وجهه الكراهية، قال: يا عمّاه إصرف وجهك عني حتى أخلع ثيابي وأدخل فراشي. قلت: ولم ذلك؟ قال لا ينبغي لأحد أن ينظر إلى جسدي، فتعجّبت من قوله وصرفت بصري عنه حتى دخل فراشه، فإذا دخلت أنا الفراش إذا بيني وبينه ثوب، [يعني كان واضعاً ثياباً عليه]، والله ما أدخلته في فراشي فأمرته فإذا هو ألبس ثوب ثم شمّمته كأنه غمس في مسك»، (مناقب آل أبي طالب، ج ١ ص ٣٥). وعند تغسيل أمير المؤمنين ﷺ لرسول الله ﷺ، روي: «فكان العباس وأسامة يناولان الماء من وراء الستر وهما معصوبا العين»، سبل الهدى والرشاد، ج ١٢ ص ٣٢٢.

(١) سورة فاطر، آية ٩.

(٢) ﴿يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة الطلاق، آية ١٢)، وأمر الله هو الإمام. «إن حقيقة الأمر هو اسم الله الذي هو مبدأ الأسماء الحسنی كلّها والتي هي تمام عوالم الوجود... وهو سرّ آل محمد ﷺ، فهم أولو الأمر باطناً وسراً، ويتبعه أن تكون أزمّة الأمور بأيديهم في الظاهر والعلانية؛ لعدم قابليّة غيرهم لولاية الأمر»، (الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٢٥٥). ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، سورة يس، آية ٨٢.

(٣) عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم ﷺ: «... فلما أراد أن يخلق محمداً ﷺ منه قسم ذلك النور شطرين: فخلق من الشطر الأول محمداً ﷺ، ومن الشطر الآخر عليّ بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام، ولم يخلق من ذلك النور غيرهما... ظاهرهما بشرية وباطنهما لاهوتية، ظهروا للخلق على هياكل الناسوتية حتى يطبقوا رؤيتهما، وهو قوله تعالى ﴿وَلَبَّسْنَا عَلَيْهِمْ مَكَا يَلْبِسُونَ﴾، فهما مقاما رب العالمين وحجابا خالق الخلائق أجمعين بهما فتح الله بدء الخلق، وبهما يختم الملك والمقادير»، (تأويل الآيات الظاهرة، ج ١ ص ٣٩٨). وورد عنهم ﷺ: «... فإنّا نحن الأسرار الإلهية المودعة في الهياكل البشرية، والكلمة الربّانية الناطقة في الأجساد الترابية...»، مشارق أنوار اليقين، ص ١٠١.

(٤) «ألا ترى الأفلاك هي أجسام حقيقية، ولا كثافة فيها، وهذا جسم النبي ﷺ جسم =

هذا الوجود بأسره، بما في ذلك الروح المتصلة بالروح القدس، أن تحقق الارتباط النظري به.

وبعد إصرار السيدة شهربانو، وافق الإمام عليه السلام على طلبها، فوضع يديه على عينيها ليهيئهما ويمنحهما القدرة والاستطاعة للرؤية ^(١)، ثم رفع يديه عنهما. فلمع من جبهته الشريفة برقٌ صُعِقَتْ ^(٢) على إثره السيدة شهربانو. وبعدما استفاقت، قالت: سيدي، لم أقدر على النظر. فقال أبو عبد الله الحسين عليه السلام: ما رفعتُ إلا الحجاب الأول، وذلك بعد أن منحتك القدرة على النظر.

ولاية ومحبة علي بن أبي طالب عليه السلام

لم يكن ذلك النور الذي أبصره موسى كليم ^(٣) الله، على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام، في جبل طور وخرّ صعقاً على إثره، نور أهل البيت عليهم السلام، إنما كان نور أحد شيعتهم ضربَ بالجبل وانعكس منه. ومع ذلك، صُعِقَ موسى على ذلك النحو، ﴿وَحَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ ^(٤).

=حقيقي، ولكنه ألطف من الأفلاك، فلا يكون له ظل إذا استشرقت به الشمس. وأما رؤية الخلق لذلك الجسم المطهر، فهي إنما كانت بإرادة منه عليه السلام، إما بأن يرقى الخلق، ويقوي أبصارهم حتى يتمكنوا من النظر إليه، أو بأن يتنزل إلى مقامهم، بحكم ﴿وَلَلْبَسَنَّا عَلَيْهِمْ مَاءً يَلَسُونَ﴾ (سورة الأنعام، آية ٩)، «دُرر الأسرار، ص ١٦٥.

(١) «في الحديث: (ما من قلب إلا وله عينان فإذا أراد الله بعبده خيراً فتح عينيه اللتين هما للقلب ليشاهد بهما الملكوت)؛ وإفاضة النور عليها فإنه كما أن إبصار العين التي لمشاهدة عالم الملك لا يتيسر إلا برفع الموانع وتحقق الشرائط ومن جملتها مصادفة نور العين لنور آخر كنور الشمس والقمر أو النار، كذلك بصيرة القلب لشهود عالم الملكوت لايتأتى إلا برفع العلائق والعوائق وتحقق المقرّبات والشرائط؛ ومن جملتها إشراق نور آخر عليه من نور الحق أو بعض مقرّبيه كنور العقل الفعّال»، شرح الأسماء أو شرح دعاء الجوشن الكبير، ص ٢١٤ - ٢١٥.

(٢) ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِيْ اَنْظُرْ اِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِيْ وَلَكِنْ اَنْظُرْ اِلَى الْجَبَلِ فَاِنْ اَسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِيْ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَحَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾، سورة الأعراف، آية ١٤٣.

(٣) قال الإمام العسكري عليه السلام: «... فالكليم ألبس حلة الإصطفاء لما عهدنا منه الوفاء...»، بحار الأنوار، ج ٧٨ ص ٣٧٨.

(٤) سورة الأعراف، آية ١٤٣.

وفي يوم القيامة، يرغب الجميع برؤية حضرته. فيسطع نور يصعق الناس ألف سنة، ثم يستفيقون بعد ذلك. ويحصل هذا الأمر ألف مرة. وفي كل مرة، يغيبون عن الوعي ألف سنة ثم يستعيدون وعيهم. فيسألون: إلهنا، هل كان ذلك نورك؟ فيقول: لا، بل كان نور أحد محبي أمير المؤمنين، علي بن أبي طالب عليه السلام.
في هذا المكان ليس ثمة طريق للارتباط بذلك النور، أي أن هذا البدن وهذا الجسم وهذه الصفات لا تخولنا رؤية ذاك النور.

أثر قدمي المحب

تتطلب معرفة تراب كربلاء قدرةً بحجم قدرة ذلك التراب. فالقرآن يشفي، وتراب كربلاء يشفي ^(١) أيضاً. من أين استمد ذلك التراب مثل هذه القدرة؟ لا يعود ذلك إلى وجود جسد أبي عبد الله الحسين عليه السلام هناك، بل وأقولها خجلاً: يعود ذلك إلى أن قدم غلامه الأسود قد وطأت ذاك التراب. فهذا إحياء للأرض، وهو نفس ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ ^(٢).

نگارا، جسمت از جان آفریدند ز کفر زلفت ایمان آفریدند
الآن، أنظروا إليه في عالم الطبيعة:
غباری کز سرکوی تو برخاست از آن خاک آب حیوان آفریدند ^(٣)

أشد سطوعاً من البياض

إذا أراد المرء أن يشعر بالسرور في عالم الطبيعة، فليقم بإضاءة المصابيح في كل مكان، لأن نور عالم الطبيعة موجبٌ للأنس والنشاط.
ولكن سواد القماش يسطع منه نورٌ ينير القلوب أكثر من كل مصابيح العالم.

(١) لأنه من القرآن العيني.

(٢) ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِ سَحَابًا فَسَقَنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾، سورة فاطر، آية ٩.

(٣) فخر الدين العراقي.

فأيّ نور هو ذلك السواد العارم حتى يكون له هذا القدر من التجلي؟ في تلك النقطة السوداء المتضادة تماماً مع مجرى سيّد الشهداء (عليه السلام)، أحرز ذلك القدر من الكمال بحيث لا يمكن لأيّ شيء أن يقدّم هذه الحقيقة^(١) مثلما قدّمها هذه النقطة النورانية. ولكن لماذا اختير السواد وليس البياض؟

لقد أنزل الله هذا الرّسم من أعلى حتى يُفهم الوجود أن هذه النقطة السوداء^(٢)

(١) سأل كميل بن زياد أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام) : ما الحقيقة؟... فقال الإمام (عليه السلام) : «نورٌ يُشرق من صبح الأزل فيلوح على هياكل التوحيد آثاره»، (روضة المتقين، ج ٢ ص ٨١). فقال كميل: زدني بياناً... من هو صبح الأزل؟ إنّ صبح الأزل والفجر واحد. وإذا لم يُطفئ الإنسان سراجَه (السراج هو أداة النور المصنوعة بيد البشر) ويتخلى عن عصاه التي يعتمد عليها، ويُريق كل ما عنده أمام قدّمي مولاه، فسيكون أعمى حتى ولو طلع الصبح.

إن هياكل التوحيد هي الأماكن التي يجتمع فيها الناس للتعبّد (بيوت الله، وبالباطن هي بيوت النور)، فآثار نور صبح الأزل تسطع وتلوح وتضرب على تلك الأماكن التي يُذكر فيها اسم الله: قلوب الرّائين، قلوب العاشقين، البكّائون، الحسينيات ومحافل العزاء ومحافل الذكر والأنس... فتلوح آثار الحقيقة على هياكل التوحيد، والتوحيد هو التوحيد مع المبدأ، والهيكل يمكن أن يكون البدن أو المادة مثل الكعبة التي لاح فيها أثر النور حين وُلد أمير المؤمنين (عليه السلام). فالذي لاح هو أثره وليس هو. صدر الشعاع من النور ووصل للغلاف الجوي ثم للسماء ثم للجبال وصولاً إلى الأرض. فشعاعه ضرب وسطع ولاح ويقال تنزل أيضاً... وعندما يلوح أثر النور على هذا الهيكل التوحيدي، يصبح مكاناً للتعبّد والذكر مباشرة فتختلف فيه الملائكة والمؤمنون من أهل الولاية. وحين يلوح أثر النور على المادة ليس كما يلوح في الباطن، ولهذا قال تعالى: ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾. وعندما قال أمير المؤمنين (عليه السلام) لكميل: «أطفئ السراج فقد طلع الصبح»، يُعتقد أنّ الإمام الحسين (عليه السلام) كان قد جاء نحوهما، ومن أجل هذا قال تلك العبارة، فالإمام الحسين (عليه السلام) هو الرحمة، وقد فهم كميل هذا الأمر ولهذا سكت، وإلا لقال له مرة أخرى: زدني بياناً...

(٢) التي هي كربلاء في أحزانها وآلامها ومصائبها، ومن كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «عندما يقول (رسول الله ﷺ): عليكم بالسّواد الأعظم، فهو بمعنى أنّ طأ تلك الأرض واسأل عن حالها وخبرها، فالسواد الأعظم هو الظلام المطلق وهو العدم. ولهذا يطلب العارف مرتبة الفناء لأنّ له نسبة إلى العدم، وهو معنى قوله ﷺ =»

في طبيعة الألوان هي أكثر ضياءً وأشدّ نوراً من كل الألوان البيضاء والمنيرة في العالم.

بغبار الطريق

مجدداً، يكون إدراك تلك الحقيقة على النحو الآتي: مثلاً، إذا أراد الإنسان أن يقصد الحرم الإلهي ويؤدي الصلاة هناك، عليه أن يكون على طهارة ووضوء^(١)، إذ لا يمكن للإنسان غير الطاهر أن يذهب إلى المسجد. وبالتالي، إذا أراد ذلك، عليه أن يكون مُحَقِّقاً لشروط الطهارة. وكذلك، تُشترط الطهارة في لمس القرآن. ومن شروط أداء مناسك الحج والطواف أن يكون الإنسان على طهارة ووضوء. ولكن هذا الإنسان نفسه يذهب لزيارة^(٢) أبي عبد الله

=عليكم بالسواد الأعظم. وقد فُتِحَ باب هذه المعرفة في كربلاء، فإنَّ الإمام الحسين عليه السلام هو عنوان الفناء المطلق، أي أنَّ السواد الأعظم هو آذان الحسين عليه السلام. إنَّ كربلاء هي حقيقة وباطن السواد الأعظم، وأمّا ظاهره فهو المدن وأماكن تجمع الناس.

(١) عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «إنما أُمِرَ بالوضوء وبُدِيَ به لأن يكون العبد طاهراً إذا قام بين يدي الجبار عند مناجاته إياه، مطيعاً له في ما أمره نقياً من الأدناس والنجاسة...»، وسائل الشيعة، ج ١ ص ٢٥٧.

(٢) ورد في الأحاديث الشريفة أنَّ الغاية من زيارة السادة المعصومين عليهم السلام تجديد البيعة لهم عليهم السلام، فالزائر يجدد العهد والميثاق في زيارتهم عليهم السلام، حيث أنه بعد الفراغ من التهيؤ والزيارة يقول: «جِئْتُكَ يَا مَوْلَايَ زَائِراً لَكَ وَمُسَلِّماً عَلَيْكَ وَلَائِذَا بِكَ وَقاصِداً إِلَيْكَ أَجَدُّ مَا أَخَذَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَكُمْ فِي رَقَبَتِي مِنَ الْعَهْدِ وَالْبَيْعَةِ وَالْمِيثَاقِ بِالْوِلَايَةِ لَكُمْ وَبِالْبَرَاءَةِ مِنْ أَعْدَائِكُمْ مُعْتَرِفاً بِالْمَفْرُوضِ مِنْ طَاعَتِكُمْ».

ثمَّ إذا تيسَّر له الوصول إلى المقام الأنور، مع حفظ التوجُّه وأدب الحضور ومراعاة الوقار والهدوء والطمأنينة، يضع يده اليمنى على الصَّريح الأقدس بقصد البيعة وتجديدها، وإلا يكفي بالإشارة إليه بذلك القصد، (من دون مزاحمة الآخرين وأذيتهم للوصول) ويقول عند ذلك: «هَذِهِ يَدِي مُصَافِقَةٌ لَكَ عَلَى الْبَيْعَةِ الْوَاجِبَةِ عَلَيْنَا فَأَقْبَلْ ذَلِكَ مِنِّي يَا إِمَامِي فَقَدْ زُرْتُكَ وَأَنَا مُعْتَرِفٌ بِحَقِّكَ مَعَ مَا أَلَزَمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ نَصْرَتِكَ وَهَذِهِ يَدِي مُصَافِقَةٌ عَلَى مَا أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ مِنْ مَوَالِيَتِكُمْ وَالْإِفْرَارِ بِالْمُقْتَرَضِ مِنْ طَاعَتِكُمْ وَبِالْبَرَاءَةِ مِنْ أَعْدَائِكُمْ وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ».

الحسين عليه السلام فور وصوله وبالغبار الذي يكتسيه ويلبّسه، ذلك أن كماله يتحقق في ذلك الجانب. فمهما كان ملوثاً^(١)، كان قدر كماله أكبر^(٢). ولكن هذا مختص

(١) مهما بلغت ذنوبك، فرحمة الله واسعة، تَسْعُكُ وتَسْعُ العالمين جميعاً. ورحمة الله الواسعة منشؤها اسم الله الرحمان المتعين بالإمام الحسين عليه السلام. واسم الرحمان هذا إنما يصل إلى أعلى مراتب التجلي والظهور في مَنْ كان أكثر تلوثاً مِنَ الناس. وقد ورد في الدعاء: «سبحان من اتسعت رحمته لأوليائه في شدة نعمته»، «اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء»، «يا رحمة الله الواسعة ويا باب نجاة الأمة». وبالكلام عن الرحمة، من اللطيف الإشارة إلى أنه من معاني دفن الشيخين بالقرب من قبر رسول الله صلى الله عليه وآله، أنه حتى لو نزلت في قعر جهنم وفي قلب الظلمة، فستجد رسول الله صلى الله عليه وآله هناك لأنه «رحمة للعالمين» ولكن رسول الله نفسه يقول إنه من حسين! «حسين مني وأنا من حسين»، (كامل الزيارات، ص ٥٣).

إن جراح التجميل الحاذق هو الذي يُجمل الجرح بحيث لا يُبقي له أي أثر يمكن للعين أن تراه، مهما كان ذلك الجرح عميقاً ومستعصياً، وإلا ما وُصف بالحاذق. وكذلك، فإن رحمة الحسين عليه السلام واسعة، بحيث أنها تمحو كلّ الذنوب مهما كانت عظيمة وكثيرة ولا تترك لها أثراً، وهذا مختصّ بالحسين وحده دون غيره. إن رحمته عليه السلام واسعة إلى درجة أن حتى إبليس يمدّ عنقه يوم القيامة طمعاً فيها، فعن الصادق عليه السلام قال: «إذا كان يوم القيامة، نشر الله تبارك وتعالى رحمته، حتى يطعم إبليس في رحمته»، (أمالى الصدوق، ص ١٢٣). والذي قد يشكّل صدمة لقلب العاشق، أن من بين الذين يطمعون برحمة الحسين عليه السلام وشفاعته في يوم القيامة هو شمر بن ذي الجوشن عليه اللعنة. وقد كان العلامة الدربندي رحمة الله عليه، مع فضله ذاك، عندما يدخل إلى الحرم المُطَهَّر «يصيح في الموضع المُحاذي للرأس في حرم سيّد الشهداء عليه السلام: يا حسين، بحق أمك الزهراء عليها السلام، لا تشفع للشمر! كان يقول ذلك ثلاث مرات بصوت عالٍ فكانوا يقولون له: هل الشفاعة ممكنة للشمر؟ فكان يقول: لم تكون غير ممكنة؟! لم هي محالة؟! إنهم مظهر رحمة الله الواسعة. نحن ماذا نعلم؟ نحن نقسم عليه أن لا يفعل هذا الأمر»، (الرحمة الواسعة، ص ١٦٧). ويقال إنه في يوم المحشر، يقف الحسين عليه السلام وهو يوشك على أن يُنيل الشمرَ شفاعته، إلا أن البكاء والويل والصراخ يتعالى في صفوف شيعته الذين يبدؤون بضرب الهامات وإتلاف الأبدان، ويخاطبونه بالقول: إن كنت ستغفر لمن عصاك وقتلك، أفهل تغفر لمن لطم وجه الزكية زينب وكسّر ظهرها وسبهاها مع بناتك وأطفالك وحطّم قلب الرقية؟ عندها، يلتزم الحسين عليه السلام الصمت ولا يجيب لا بالنفي ولا بالإثبات... فإذا كانت رحمته واسعة إلى هذا الحدّ، هل لا زلنا نشكّ في أنها تسع كل المذنبين مهما كُبر ذنبهم؟

(٢) (بالتوبة والمحبة الصادقتين). إن لدين الله أصولاً وفروعاً، والإنسان مأمور بالعبادة=

= والطاعة بالأصول والفروع معاً. وقد قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «أول عبادة الله معرفته»، (نهج البلاغة، الخطبة رقم ٤). ومعرفة الله، التي هي أوّل العبادة، تكون بكمال الأصول والفروع. فأما معرفته بالأصول، فقد ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام): «ليس العبادة هي السجود والركوع، إنما هي طاعة الرجال، من أطاع المخلوق في معصية الخالق فقد عبده»، (بحار الأنوار، ج ٧٢ ص ٩٤). والرجال المقصودون في الرواية هم الأئمة (عليهم السلام). أما عبادته في الفروع، فهي الصلاة والصوم والحج وما إلى ذلك من أعمال عبادية. وكل من المعرفتين أو العبادتين يستوجب الدخول إما إلى جنة الأفعال أو إلى جنة الصفات. أما جنة الذات فلا يمكن دخولها بالصلاة والصوم، وما إلى ذلك، بل إنّ طريق الدخول إليها هو بطاعة الرجال، في حين يكفي في جنة الصفات القيام بالأعمال العبادية المعروفة لدخولها.

وعليه، تتفاوت الذنوب التي يرتكبها الإنسان بين ذنوب تتعلق بالأصول وأخرى تتعلق بالفروع. فعندما يقلل الإنسان من شؤون الولاية والإمامة ويخالف الإمام ويعانده ويمتنع عن طاعته ويشكك فيه، فهو بذلك يقلل من شأن النبي ويخالفه ويعانده ويمتنع عن طاعته ويشكك فيه، وبالنتيجة، هو يقلل من شأن الله ويعصيه ويخالفه ويعانده ويمتنع عن طاعته ويشكك فيه. وهنا ينشأ الخبث في قلب هذا الإنسان ويصدق عليه قول الله عز وجل: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (سورة المطففين، آية ١٤). ولا بدّ لهذا الرين الذي حصل على القلب أن يكون له ظهور، إذ يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَقِبَهُ الَّذِينَ اسْتَوُوا سُوءَاتِي أَنْ كَذَبُوا بِعَايَتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (سورة الروم، آية ١٠)، فالسوء أو الذنب الذي يصدر من الإنسان على مستوى الأصول، سواء أضره في قلبه أو بان في فعله، يظهر في الخارج على شكل تكذيب لآيات الله الكبيرة والصغيرة واستهزاء بها، وقد ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام): «ما لله آية أكبر مني»، (تفسير القمي، ج ٢ ص ٤٠١). والخلل الذي يصدر على مستوى الأصول، ينعكس على القلب ويفسده وهذا ما يتعدّر إصلاحه، إلا ما رحم ربي، ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، (سورة يوسف، آية ٥٣)، (ورحمة الله الواسعة هي الحسين بن علي (عليه السلام)).

أما عندما يكون الأصل صحيحاً وطاعة الرجال حاصلة، ولكن يطرأ خلل على فروع الدين، من صلاة وصوم وحج... فإن هذا الخلل ينعكس على العقل والنفس والجسد، وهذه الحالة هي موضوع كلامنا، مع الإشارة إلى أن من أسباب ارتكاب الإنسان الموالى للذنوب هو عشرة النواصب، حيث ورد في الحديث عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام): «فما رأيت من أخيك من شرّ لفظ أو زنا، أو شيء مما ذكرت من شرب مسكر أو غيره، فليس من جوهريته ولا من إيمانه، إنما هو بمسحة الناصب اجترح هذه السيئات التي ذكرت...»، (بحار الأنوار، ج ٥ ص ٢٤٧)، وقد عرّف الإمام الصادق (عليه السلام) الناصب =

=بالقول: «ليس الناصب من نصب لنا أهل البيت لأنك لا تجد أحداً يقول: أنا أبغض محمداً وآل محمد، ولكن الناصب من نصب لكم وهو يعلم أنكم تتولون أو تبرؤون من أعدائنا»، (معاني الأخبار، ج ١ ص ٣٦٥). إذاً، لكي يتخلص الإنسان من ذنوبه التي ارتكبها في الفروع والتي اكتسبها من عشرة النواصب، عليه أن يحقق التوبة، ومن أجل هذه الغاية، أمامه طريقان: العبادة والذكر. ولكن إذا لم يتوفر شرط الإخلاص في هذين الطريقين، لن تُقبل التوبة. وفي هذه المرحلة، تخرج المعصية وتظهر في الخارج، فعلى مستوى العقل، يصبح عقله ناقصاً ويصعب عليه تقبل مقامات أهل البيت ﷺ وفهمها، فعن رسول الله ﷺ: «من قارف ذنباً فارقه عقلٌ لا يرجع إليه أبداً»، (ميزان الحكمة، ج ٢ ص ٩٨٧)، وعلى مستوى النفس، تظهر فيها الفحشاء والمنكر، وعلى مستوى الجسد، يلجأ إلى المحرمات من خمر وزنا وما إلى ذلك. ولكن ما يغفل عنه الكثيرون أن خروج المعصية، في بعض الأحيان، من داخل الإنسان وظهورها في الخارج وافتضاحه بها هو رحمة من الله تعالى، إذ لو بقيت في الباطن لسرى تأثيرها على القلب، وهو ما لا يرجى عقباه. فعندما تصدر من الإنسان المعاصي ويصبح ملوثاً بها، سينقاد جبراً إلى الانكسار، فيعترف بذنبه وضعفه وفقره إلى الله، ويتوجه إليه ويخاطبه بتمام الذل والعبودية. بيد أن هذا الانكسار والخضوع والخشوع غير ناشئ عن الولاية والحب والعشق، بل إن منشأه نفساني، إذ عندما تنقطع السبل بالإنسان، لا يجد له ملجأ سوى الله تعالى، وتلك هي عبادة العبيد أو التجار، حيث ورد عن أمير المؤمنين ﷺ: «إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار وهي أفضل العبادة»، (ميزان الحكمة، ج ٦ ص ١٧). وكما ذكرنا، ينبغي توفر شرط الإخلاص في التوبة، وعلامة قبول التوبة أن لا يعود الإنسان إلى ذنبه السابق وهو ما يسمى بالتوبة النصوح، غير أنه ليس أياً كان يقدر على إحراز شرط الإخلاص هذا، وبالتالي تحقيق التوبة النصوح، ولذا ورد في الدعاء: «كم أتوب وكم أعود». ومن هنا، ثمة طريق ثالث، هو طريق عشق ومحبة سيد الشهداء ﷺ. فالبكاء على الحسين ﷺ وزيارته يوجبان غفران الذنوب والدخول إلى الجنة بحسب الكثير من الروايات: فعن الإمام الصادق ﷺ: «من بكى أو أبكى أو تباكى على الحسين وجبت له الجنة»، (أمالى الصدوق، ص ١٢٥). «أيها الناس اعلموا أن الحسين حي عند ربه يرزق من حيث يشاء وهو دائماً ينظر إلى موضع عسكره ومصرعه ومن حل من الشهداء وينظر إلى زواره والباكين عليه والمقيمين العزاء عليه وهو أعرف بهم وبأسمائهم وأسماء آبائهم وبدرجاتهم ومنازلهم في الجنة وإنه ليرى من يبكي عليه فيستغفر له ويسأل جده وأباه وأمه وأخاه أن يستغفروا للباكين على مصابه والمقيمين عزاءه ويقول لو يعلم زائري والباكي عليّ ما له من أجر عند الله تعالى لكان فرحه أكثر من جزعه وأن زائري=

=والباكي عليّ لينقلب إلى أهله مسروراً وما يقوم من مجلسه إلا وما عليه ذنب وصار كيوم ولدته أمه»، (المنتخب، ص ٣٩). فكيف يبقى عليه ذنبٌ وقد استغفر له الخمسة من أصحاب الكساء؟! «ما بكى أحدٌ رحمَةً لنا ولِما لقينا إلا رحمه الله قبل أن تخرج الدمعة من عينه، فإذا سالت دموعه على خدّه فلو أن قطرة من دموعه سقطت في جهنّم لأطفأت حرّها حتى لا يوجد لها حرّ»، (وسائل الشيعة، ص ٥٠٨). «مَنْ زارَه - والله - عارفاً بحقّه غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر»، (كامل الزيارات، ص ١٤٩). «من زار قبر الحسين سلام الله عليه جُعِلَ ذنبه جسراً على باب داره، ثم عبّرها كما يُخلف أحدكم الجسر وراءه إذا عبّره»، (من لا يحضره الفقيه، ج ٢ ص ٥٨١). إذاً، فالسبيل المضمون لغفران الذنوب والتطهّر وإحراز التوبة النصوح حقيقةً هو عبر زيارة الحسين ﷺ وعزائه والبكاء عليه. والكلام عن أنه مهما كان الإنسان ملوثاً، كان أشدّ قبولاً من الإمام الحسين ﷺ راجعٌ إلى أنه رحمة الله الواسعة، فهذه بشارة للعاصين بأنّ لهم باباً للنجاة والتوبة والرجوع إلى الله مهما كُبر ذنبهم لأن الله أكبر ورحمته أكبر وأوسع من كل شيء ومن كل ذنب، «اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء». إنّ الحسين ﷺ باب التوبة إلى الله ورحمته الواسعة التي وسعت كل شيء وهو مظهر اسم الله التوّاب والغفور والرحمن وملجأ العاصين. ومن كلام لآية الله السيد أحمد النجفي حفظه الله تعالى في هذا الصدد: «يا رحمة الله الواسعة! ولهذا تجدون أنّ الروايات الموجودة في باب زيارة الإمام الحسين والبكاء عليه والارتباط به ﷺ تبين أنّ كلّ ما لديك من القبح والسوء ينقطع وينعدم لو طويّت هذا الطريق؛ ولكن لماذا؟ لأنّه رحمة الله الواسعة، وهذه الرحمة الواسعة تُصرف على نحو الكليّة على الملوثين والعاصين»، انتهى.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ: «التائب حبيب الله»، (جامع السعادات، ج ٣ ص ٥١)، ومحبة الله هي الكمال. ولهذا فإنّه من الملاحظ أنّ القنوط يسيطر على من لا يعتقد بهذا الأصل في حين أن المعتقدين به لا يقتنون من رحمة الله تعالى ويجدون طريقهم إلى التوبة في عشق الحسين ﷺ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾، (سورة البقرة، آية ٢٢٢). كما ورد عنه ﷺ: «الفاجر الراجي لرحمة الله تعالى أقرب منها من العابد المقنط»، (ميزان الحكمة، ج ٣ ص ٢٦٣٢). وكذلك ورد في الدعاء: «يا مَنْ لا يزداد على كثرة السؤال إلّا كرمًا وجوداً، وعلى كثرة الذنوب إلّا عفواً وصفحاً»، (مصباح المتهجد، ص ٢١٠). ولكن، كما يقول أمير المؤمنين ﷺ: «كُنْ مِنَ الْكَرِيمِ عَلَى حَذَرٍ إِنَّ أَهْنَتَهُ»، (ميزان الحكمة، ج ٣ ص ٢٦٨٨). ويقول الشاعر: «إذا أنت أكرمت الكريم ملكته، وإن أنت أكرمت اللئيم تمردت»، فهناك صنفان من الناس، صنفٌ يخجل حين يرى كرم الله ورحمته فيشكر الله تعالى على ذلك ويقف عند حدّه ويرتدع ويمتنع عن ارتكاب المعاصي. وصنفٌ آخر ينطبق عليه وصف اللئيم، إذ يتمرّد ويتناول على الله تعالى ويتمادى بارتكاب الذنوب حين يرى رحمة الواسعة.

بسيّد الشهداء ﷺ وحده، إذ ينبغي الغسل والطهارة وارتداء الملابس النظيفة لدى زيارة بقية أهل البيت ^(١) ﷺ. أما في محضر أبي عبد الله ﷺ، فيزداد القبول مهما ازداد التلوّث ^(٢).

إنّ صفات الحقّ تعالى ظاهرة في هذا العالم على نحو البسط التام، بنحو لا يشدّ عن حيطتها شيء في هذا العالم، فكما أنّ الطاعات الصادرة من المؤمنين لها ظهور وكشف ^(٣) عن بعض الأسرار الإلهيّة والصفّات الربّانية، كذلك المعاصي في هذا العالم الصادرة عن العاصين - ونحن هنا لسنا بصدد تجويز المعاصي في هذا العالم - هي كشفٌ ورفع قناع عن بعض الأسرار الإلهية، فكلّ أهل المعصيّة في العالم وأهل الشرك وعبدّة الأصنام إنّما يكشفون عن صفات

(١) ﴿سَلِّمْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾، سورة الصافات، آية ١٣٠.

(٢) بالمحبة والتوبة، والتوبة هي الرجوع إلى الله تعالى، والرجوع إلى أهل البيت ﷺ هو رجوع إلى الله تعالى، حيث ورد في الزيارة الجامعة الكبيرة: «وإياب الخلق إليكم»، فتحصل أن بالرجوع إليهم تتحقق التوبة. عن أبي عبد الله ﷺ أنه قال: «... وإنه لينظر إلى زوّاره فهو أعرف بهم وبأسمائهم وأسماء آبائهم وما في رحالهم من أحدهم بولده، وإنه لينظر إلى من يبكيه فيستغفر له ويسأل جدّه وأباه وأمه وأخاه الاستغفار له ويقول: أيها الباكي لو علمت ما أعدّ الله لك لفِرَحْتَ أكثر ممّا حزنت وإنه ليستغفر له من كل ذنب وخطيئة»، (كامل الزيارات، ص ١٠٣)، واستغفار الإمام ودعاؤه مستجابان حتماً، فالتوبة مضمونة عن طريق الإمام الحسين ﷺ. وكلما تمرّدنا وعصينا الكريم، كان كرمه علينا أكبر وأكثر لهذا ورد عنهم ﷺ: «نحن أهل بيت لا نزداد على المذنب إلينا إلا كرمًا وعفوًا، والرحمة والشفقة من شيمتنا لا من شيمته»، (بحار الأنوار، ج ٤٢ ص ٢٨٨)، فكيف إذا كان هذا المذنب مُحِبًّا لهم؟ «وفدّت على الكريم بغير زادٍ من الحسنات والقلب السليم، وحمل الزاد أقبح كل شيء إذا كان الوفود على الكريم». ومع هذا، علينا أن نخجل من أنفسنا وننتقي الله ونردّ لهم الجميل بالطاعة والولاية.

(٣) إن النّاس أنواع في رؤاهم وكشوفاتهم: «الكشف الصّوري إما أن تتعلّق بالحوادث الدنيوية أو لا. فإن كانت متعلقة بها، كمجيء زيد من السفر وإعطائه عمراً ألفاً من الدنانير، سُمّيَتْ «رهبانية» لا طلاعهم أي أصحابها على المغيّبات الدنيويّة بحسب رياضتهم ومجاهدتهم. وأهل السلوك لعدم توقّف همهم العالية في الأمور الدنيوية، لا يلتفتون إلى هذا القسم من الكشف لصرفها في الأمور الأخرويّة وأحوالها، ويعدّونه من قبيل الاستدراج والمكر بالعبد؛ بل كثير منهم لا يلتفتون إلى القسم الأخرويّ أيضاً وهم الذين جعلوا مقاصدهم الفناء في الله والبقاء به»، جامع الأسرار ومنبع الأنوار، ص ٤٣٨.

الحقّ تعالى، فلو لم يكن هناك أهل معصية ما كان لك أن تعرف ما هي الرحمة الإلهية الرافعة للذنوب، ولو لم يكن هناك أهل ذنب، ما أمكن معرفة ماهية المغفرة الإلهية. إن رحمة الله ليست مقيدة بنحو تختص فقط بأهل الطاعة، بل هي مطلقة وشاملة لكل أصناف الناس في هذا الوجود المنبسط.

أثر غبار حوافر خيول زوّار الحسين عليه السلام

ينقل العلامة الأميني قائلاً: كان هناك في منطقة الموصل في العراق رجلاً وامرأة ناصبيان^(١) لم يُرزقا بأولاد. فنذرا نذراً وعاهدا الله على أنه إذا رزقهما بولد، سيرسلانه ليقطع الطريق على زوّار الإمام الحسين عليه السلام ويتعدى على أموالهم وأرواحهم، وكل ذلك ابتغاء لمرضاته تعالى. وفعلًا، بعد مدة من الزمن، رُزقا بولدٍ اشتدّ عضده، مع مرور الوقت، ليصبح شاباً قوياً ومعروفاً لكل أهل المحلة التي عاش فيها. وفي يوم من الأيام، تحدّث إليه أبواه قائلين: لقد نذرنا لله نذراً حتى رزقنا بك وقد حان الوقت لتفي بذلك النذر وإلا فستموت شاباً. سأل الشاب والديه: ماذا نذرتما؟ فأجاباه: لقد نذرنا لله بأن تذهب وتقطع الطريق على زوّار كربلاء وتغيّر على أموالهم وتسلب أرواحهم، ابتغاء لمرضاته حين تبلغ سنّ الرشد وتصبح شاباً شجاعاً. فأجاب الابن قائلاً: أخاف أن أموت ولا زلتُ في ريعان شبابي، ولذا سأفي بهذا النذر^(٢).

(١) عن ابن أبي عمير عن ابن أذينة عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال: المغضوب عليهم النصاب، والضالين الشكّاك الذين لا يعرفون الإمام، (تفسير القمي، ص ٢٦). عن معاوية بن عمار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام عن قول الله ﴿فَإِنْ لَكُمْ مَعِيشَةٌ صَنَعْنَا﴾ قال: «هي والله النصاب، قال: جعلت فداك قد رأيناهم دهرهم الأطول في كفاية حتى ماتوا، قال ذلك والله في الرجعة يأكلون العذرة»، (تفسير القمي، ج ٢ ص ٦٥). وقد تمنى كبيرهم من قبل أن يكون عذرة ولا يكون بشراً، (كنز العمال، ج ٦ ص ٣٤٥). قال الصادق عليه السلام: «إن الناصب لنا أهل البيت لا يبالي صام أم صلى، زنى أم سرق، إنه في النار إنه في النار»، بحار الأنوار، ج ٢٧ ص ٢٣٥ ح ٥١.

(٢) ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آيَةً نَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ لَا تَأْمُرُوا بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، سورة الأعراف، آية ٢٨.

دخلت قافلة الزوّار إلى كربلاء عن طريق المسيب. فجمع الشاب رفاقه وانتشروا في واحة النخيل وهم يحملون أسلحتهم ويتربعون الليل حتى تصل القافلة ليُغيروا على مَنْ فيها. ولكن حين كمنوا بين أشجار النخيل، غلب عليهم النعاس وناموا لشدة تعبهم. وصلت القافلة وعبرت الطريق ثم غادرت. فرأى الشاب في منامه ^(١) أن يوم القيامة قد حلّ واصطُحِب كل محبّي أهل البيت عليه السلام إلى الجنة ^(٢) في حين اقتيد أعداؤهم إلى جهنم زمراً وكان هو في مقدّمهم.

وهنا، ثمة كلام غاية في الدقة: لم يكن ذلك مناماً ^(٣) وهذا يُعلم من دقة أداء الحساب ^(٤) والكتاب وصولاً إلى سَوْق المجرمين إلى جهنم. عاين الشاب واقعاً الفزع والجزع والعويل وهو يُساق إلى جهنم ^(٥). وفجأة، نادى منادٍ قائلاً: أعيّدوا هذا الشاب، فهو ليس من أهل جهنم، إنما هو من أهل الجنة ومن أصحاب المقامات التي يغبطه الآخرون عليها، أعيّدوه مع رفاقه.

توجّه الشاب إلى ذلك المأمور بإرجاعه سائلاً: ولكن بحسب الأصول، ينبغي أن أدخل جهنم لأنني ناصبيّ، فكيف تصطحبني إلى الجنة؟ أجاب قائلاً: لا

(١) قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «إذا كان العبد على معصية الله عزّ وجلّ وأراد الله به خيراً، أراه في منامه رؤيا ترّوعه فينزع بها عن تلك المعصية»، دار السلام، ج ١ ص ١٧.

(٢) ﴿وَنَادَىٰ أَحَبُّ الْأَحِبَّةِ النَّارَ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، سورة الأعراف، آية ٤٤.

(٣) قال رسول الله ﷺ: «لَتَمُوتُنَّ كَمَا تَنَامُونَ، وَلَتُبْعَثُنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ»، (دار السلام، ج ١ ص ٤٧). وقال الإمام الباقر عليه السلام: «حين سُئِلَ عن الموت: «هو النوم الذي يأتيكم كل ليلة إلا أنه طويل مدته لا ينتبه منه إلا يوم القيامة»، (معاني الأخبار، ص ٢٨٩). قال لقمان عليه السلام لولده: «يا بني، إن تكّ في شكّ من الموت، فادفع عن نفسك النوم»، ميزان الحكمة، ج ٤ ص ٣١٢٦.

(٤) قال النبيّ محمد ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ الْعَبْدُ، حُبُّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ»، (تفسير نور الثقلين، ج ٤ ص ٤٠٢ ح ١٨). «لقد رأيتُ الإمام في الرؤيا، قال لي: قل للأصدقاء: لقد عبرتُ من الصراط، ولكنه صعبٌ جداً، إنه ليس مزاحاً»، في لقاء مع مسؤولي المدن، بتاريخ ١٤/٣/١٩٩١م، من كتاب آراء ومواقف سماحة السيّد أحمد الخميني رحمته الله، ص ٢٦٢.

(٥) ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَظْفِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْدِرُونَ﴾، سورة المرسلات، آية ٣٥ - ٣٦.

أدري، عليك أن تسأل مَنْ أصدر الأمر بذلك. أتى والتقى سيّد نوره ساطعٌ على كل من في القيامة، فسأله السؤال نفسه. وما كان جواب ذلك السيّد إلا أن قال: ذلك لأنّ غبار حوافر الخيول والنياق التي تحمل زوّار الحسين (عليه السلام) قد اعتلت وجهك. ولهذا، فإن جهنّم لن تحرقك وهي محرّمة عليك. فسأله الشاب: من أنت حتى تبشّرني بهذه البشارة؟ فقال: أنا رسول الله، جدّ أبي عبد الله الحسين (عليه السلام).

استيقظ الشاب فزعاً وسمع الجلبة الصادرة عن القافلة تقترب من كربلاء. فترك رفاقه وراح يعدو خلفها. وحينما وصل إلى كربلاء، دخل مباشرة إلى الصحن الشريف لأبي عبد الله الحسين (عليه السلام) واقترب من الضريح بخشوع كبير. ومن كان لا يعرف التّكلم، أصبح في تلك اللحظات شاعراً، حيث بدأ كلامه بالشعر وقال:

إذا شئت النجاة فزر حسينا لكي تلقى الإله قرير العين
فإن النار ليس تمسّ جسماً عليه غبار زوّار الحسين
لا يمكن للنار أن تحرق جسداً عليه غبار نعال أقدام زوّار (١) الحسين (عليه السلام).
وما زال أمامنا الكثير لنصل إلى تراب كربلاء. فهل تراب كربلاء يشفي (٢)؟ وهل

(١) «كان يذكر الشيخ بهجت حكاية عن الشيخ الأنصاري ويقول: لقد قال المرحوم الدربندي له: شيخنا، إنّ عملكم حجة للناس. فعندما تذهب إلى الحرم قبل ضريح حرم أبي الفضل (عليه السلام)، فقال الشيخ في الجواب: إني أقبل عتبة الباب التي عليها غبار وتراب أقدام الزوّار»، الرحمة الواسعة، ص ٤٣.

(٢) عن الصادق (عليه السلام): «... وإنّ أرض كربلاء وماء الفُرات أوّل أرض وأوّل ماء قدّس الله تبارك وتعالى، فبارك الله عليهما فقال لها: تكلمي بما فضلك الله تعالى فقد تفاخرت الأرضون والمياه بعضها على بعض؟ قالت: أنا أرض الله المقدّسة المباركة؛ الشفاء في تربتي ومائي، ولا فخر، بل خاضعة ذليلة لمن فعل بي ذلك، ولا فخر على من دوني، بل شكراً لله. فأكرمها وزاد في تواضعها وشكرها الله بالحسين (عليه السلام) وأصحابه»، (كامل الزيارات، ص ٢٧٩). ويقول أبو حمزة الثمالي للإمام الصادق (عليه السلام): «جعلت فداك إني رأيت أصحابنا يأخذون من طين الحائر ليستشفوا به؛ هل في ذلك شيء ممّا يقولون من الشفاء؟ قال: يُستشفى بما بينه وبين القبر على رأس أربعة أميال، وكذلك قبر جدّي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وكذلك طين قبر الحسن وعليّ ومحمّد، فخذ منها فإنّها شفاء من كلّ

أمير المؤمنين عليه السلام يشفع ^(١) يوم القيامة ^(٢)؟ وهل يمكن للشيعة أن يشفع ^(٣) أيضاً؟ كلا، بل هناك كلام أرفع من هذا، إذ أن الكلام هو عن تراب نعال أقدام زوار الحسين عليه السلام!

=سُقْم، وَجُنَّةٌ مِمَّا يَخَافُ وَلَا يَعْدِلُهَا شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَسْتَشْفَى بِهَا إِلَّا الدُّعَاءُ، وَإِنَّمَا يَفْسِدُهَا مَا يَخَالُطُهَا مِنْ أَوْعِيَّتِهَا وَقَلَّةُ الْيَقِينِ لِمَنْ يُعَالِجُ بِهَا...»، (مصباح المتهجد، ج ١ ص ٦٧٧، الوسائل، ج ٢٤ ص ٢٢٩). روى الشيخ الأجلّ بن قولويه عن محمد بن مسلم قال: «خرجت إلى المدينة وأنا وَجَعٌ فَقِيلَ لَهُ عليه السلام محمد بن مسلم وَجَعٌ، فَأَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو جَعْفَرٍ الْإِمَامُ الْبَاقِرُ عليه السلام شَرَاباً مَعَ غَلَامٍ مَغْطًى بِمَنْدِيلٍ فَنَاولَنِيهِ الْغَلَامُ وَقَالَ لِي إِشْرِبْهُ فَإِنَّهُ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ لَا أَبْرَحَ حَتَّى تَشْرِبَهُ فَتَنَاولْتَهُ فَإِذَا رَائِحَةُ الْمَسْكِ مِنْهُ، وَإِذَا شَرَابٌ طِيبُ الطَّعْمِ بَارِدٌ، فَلَمَّا شَرِبْتَهُ قَالَ لِي الْغَلَامُ: يَقُولُ لَكَ مُوَلَايَ إِذَا شَرِبْتَهُ فَتَعَالَ: فَفَكَّرْتُ فِي مَا قَالَ لِي وَمَا أَقْدَرُ عَلَى النَّهْوِضِ قَبْلَ ذَلِكَ عَلَى رَجُلِي، فَلَمَّا اسْتَقَرَّ الشَّرَابُ فِي جَوْفِي فَكُنَّا نَمَّا نَشْطُتْ مِنْ عَقَالٍ، فَأَتَيْتُ بَابَهُ فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ فَصَوْتُ بِي: صَحَّ الْجِسْمُ أَدْخَلَ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ وَأَنَا بِالْكِ... فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ الشَّرَابَ الَّذِي شَرِبْتَهُ فِيهِ مِنْ طِينِ قَبْرِ الْحُسَيْنِ عليه السلام وَهُوَ أَفْضَلُ مَا اسْتَشْفَى بِهِ فَلَا تَعْدِلْ بِهِ فَإِنَّا نَسْقِيهِ صَبِيَانَا وَنَسَاءَنَا فَتَرَى فِيهِ كُلَّ خَيْرٍ...»، الذنوب الكبيرة، ص ٤٠٢ - ٤٠٤.

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إِنِّي أَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَشْفَعُ فَيُشْفَعُ عَلَيَّ عليه السلام فَيُشْفَعُ، وَإِنْ أَدْنَى الْمُؤْمِنِينَ شَفَاعَةً يَشْفَعُ فِي أَرْبَعِينَ مِنْ إِخْوَانِهِ»، (أوائل المقالات، ص ٧٩ - ٨٠). وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «إِنَّ لِلْجَنَّةِ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ بَابٌ يَدْخُلُ مِنْهُ النَّبِيُّونَ وَالصَّدِيقُونَ، وَبَابٌ يَدْخُلُ مِنْهُ الشُّهَدَاءُ وَالصَّالِحُونَ، وَخَمْسَةُ أَبْوَابٍ يَدْخُلُ مِنْهَا شِيعَتُنَا وَمَحْبُونَا فَلَمْ أَزَلْ وَاقِفاً عَلَى الصِّرَاطِ أَدْعُو وَأَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ شِيعَتِي وَمَحْبِي وَأَنْصَارِي وَمَنْ تَوَلَّانِي فِي دَارِ الدُّنْيَا، فَإِذَا النَّدَاءُ مِنْ بَطْنَانِ الْعَرْشِ قَدْ أَجِيبَتْ دَعْوَتُكَ وَشَفَّعَتْ فِي شِيعَتِكَ...»، (أمالي الصدوق، ص ٣٩). وعن فاطمة الزهراء عليها السلام أنها قالت: «إِذَا حُشِرَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَشْفَعُ عَصَا أُمَّةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله»، (إحقاق الحق، ج ١٩ ص ١٢٩).

(٢) روى المفضل بن عمر قال: «قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: إِذَا كَانَ عَلَيَّ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مُحِبِّهِ وَالنَّارَ عَدُوِّهِ، فَأَيْنَ مَالِكَ وَرِضْوَانٍ إِذَا؟ فَقَالَ: يَا مَفْضُلُ، أَلَيْسَ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَمْرِ مُحَمَّدٍ؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: فَعَلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَسِيمُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ بِأَمْرِ مُحَمَّدٍ وَمَالِكُ وَرِضْوَانُ أَمْرُهُمَا إِلَيْهِ، خُذْهَا يَا مَفْضُلُ مِنْ مَكُونِ الْعِلْمِ وَمَخْزُونِهِ»، (بحار الأنوار، ج ٢٧ ص ٣١٣ ح ٩).

(٣) عن الإمام علي عليه السلام: «... وَيُشْفَعُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْ شِيعَتِي وَمَنْ تَوَلَّانِي وَنَصَرَنِي وَحَارَبَ مِنْ حَارِبِي بِفَعْلٍ أَوْ قَوْلٍ فِي سَبْعِينَ أَلْفًا مِنْ جِيرَانِهِ وَأَقْرَبَائِهِ، وَبَابٌ يَدْخُلُ مِنْهُ سَائِرُ الْمُسْلِمِينَ مِمَّنْ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ فِي قَلْبِهِ مَقْدَارُ ذَرَّةٍ مِنْ بَغْضَانَا أَهْلَ الْبَيْتِ»، (أمالي الصدوق، ص ٣٩).

أي سندٍ نبغي أكثر تأكيداً من القرآن الكريم الذي يقول: ﴿وَالْعَدِيدَتِ ضَبْحًا﴾^(١)،
فالله تعالى يقسم بذلك الوميض الناشئ عن حوافر الخيل. أمانا طريق طويل
للوصول إلى هناك، فحتى موسى عليه السلام لم يوصلوه إلى ذلك المكان، وقد صُعب
من نور واحدٍ من شيعه أمير المؤمنين عليه السلام.

خلعتي أخذتها من لطف ذلك المحبوب

ما إن تلا ذلك الشاب شعره بتلك الحرقة والمسكنة، حتى رأى الجميع قطعة
القماش الثمينة الموضوعة على القبر المطهر لأبي عبد الله الحسين عليه السلام تسقط
وتستقر على كتفيه. ومنذ تلك اللحظة، لقبه الناس بلقب «الخليعي»، أي الآخذ
خلعته من الإمام الحسين عليه السلام.

وبعد ذلك مباشرة، قصد النجف لزيارة أمير المؤمنين عليه السلام. وكان كل الشعراء
هناك من المحبين القدامى الذين سمعوا أن هناك ناصبياً وصل إلى هذا المقام
عن طريق الإمام الحسين عليه السلام، فأتوا جميعاً لرؤيته. وكان من بين هؤلاء
الشعراء، شاعرٌ قد أمضى أربعين سنة وهو يتلو القصائد الشعرية للمولى عليه السلام.

خاطب هذا الشاعرُ الخليعيّ مستنكراً: أجنّت لتأخذ منصبنا^(٢)؟ واقترح عليه
أن ينظما قصيدتين من الشعر ويرميا بهما في الضريح الشريف ليَرَيَا أيهما سيقبلُ
أمير المؤمنين عليه السلام. فكتب الشاعر القديم قصيدة وكذلك فعل الخليعي ثم رمى
كل واحدٍ منهما قصيدته في ضريح الإمام. قديم كلاهما في الصباح والتقطا
القصيدتين من داخل الضريح. وإذا بهما يريان أن قصيدة الخليعي مُذِلَّةٌ بعبارة
كُتِبَتْ بماء الذهب تقول: «أحسنّت، أنت وليّنا» في حين ذُيِّلَت قصيدة الشاعر
القديم بكلمة كُتِبَتْ بماء الفضة تقول: «أحسنّت».

إغتمّ الشاعر القديم وقال: يا عليّ، لم أعهدك تُكْرِم عبيدك بهذا الشكل ولم
أدر أنك لا تحفظ حقهم^(٣). لقد أمضيت أربعين سنة عند أعتابك، ولكنك تفضل

(١) سورة العاديات، آية ١.

(٢) ورد في الرواية: «آخر ما يخرج من قلوب الصديقين حبّ الجاه»، مصباح الأنس،
ص ٦٩٧.

(٣) «عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «حقوق شيعتنا علينا أوجب من حقوقنا عليهم، قيل له: =

عليّ من وصل لتوّه. ثم خرج من عند الإمام مقهوراً^(١).

إن هذا القهر مفيد لمن يتجرأ عليه، لأنه ليس قهراً، بل هو عبارة عن اتصالٍ شديدٍ يظهر بهذه الصورة، إذ يحمل هذا القهر معنى الصلح والتصالح في لغة العشق التي تختلف عن غيرها من اللغات.

وبعد ذلك، رأى الشاعر أمير المؤمنين عليه السلام في منامه، فقال له عليه السلام: أتعاتبنا؟ هل تريد أن نبوح لك بسرّه؟ لقد جاء عن طريق الحسين عليه السلام. أفلا تعلم أنّ هذا الطريق هو أقصر الطرق؟^(٢) وفيه لا اعتبار للكفر أو الشرك أو الناصبة^(٣).

الاستغناء التام للإمام الحسين عليه السلام

أن تكون ملوثاً أكثر^(٤)

= وكيف ذلك يا بن رسول الله؟ قال: لأنّهم يُصابون فينا ولا نصاب فيهم»، أمالي الطوسي، ج ١ ص ٣١٠.

- (١) لا تكن عنيداً، فإن الحبيب يحرق كالشمع بسبب غيرتك.
- (٢) (الغدِير، ج ٦ ص ١٢). عن الإمام الصادق عليه السلام: «كلنا سفن النجاة ولكن سفينة جدي الحسين أوسع وفي لجج البحار أسرع»، بحار الأنوار، ج ٢٦ ص ٣٢٢.
- (٣) هذا طريق عشق الإمام الحسين عليه السلام، وإنّ «كل من سار فيه فهو في نار وحرقة، ولا يعرف الكفر من الإيمان كما يتساوى أمامه الخير والشر»، منطق الطير، ص ١٠٢.
- (٤) كم من عبدٍ لا يرى حقيقة نفسه إلا عند ظهور المعصية، وحينها يرى حقيقة تلك النفس بعد تلوّثها، فيزداد انكساره وفقره إلى الله تعالى. وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «لولا أنكم تذنّبون فتستغفرون الله، لخلق الله خلقاً حتى يذنّبوا ثم يستغفروا الله فيغفر لهم»، (بحار الأنوار، ج ٦ ص ٤٢). وفي روايةٍ أخرى عنه ﷺ وهو يُحدّث أصحابه: «... كلا إن هذه خطوات الشيطان فيُرغّبكم في الدنيا والله لو تدومون على الحالة التي وصفتم أنفسكم بها لصافحتكم الملائكة ومشيتم على الماء، ولولا أنكم تذنّبون فتستغفرون الله، لخلق الله خلقاً حتى يذنّبوا، ثم يستغفروا الله فيغفر [الله] لهم، إن المؤمن مفتنٌ تَوَّابٌ، أما سمعت قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ وقال: ﴿أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾»، (الكافي، ج ٢ ص ٤٢٤). وقد ورد في أدعية شهر رمضان المبارك: «إلهي إن كنت لا ترحم إلا المطيعين فمن للعاصين»، (مفاتيح الجنان). وفي رواية طويلة: «قال المفضل: يا مولاي، أيّ ذنب كان لرسول الله ﷺ؟ فقال الصادق عليه السلام: يا مفضل، إن =

هو شرط الوصول إلى كمالٍ أكبر^(١)،

=رسول الله ﷺ قال: اللهم حمّلني ذنوب شيعة أخي وأولادي الأوصياء ما تقدّم منها وما تأخّر إلى يوم القيامة، ولا تفضحني بين النبيين والمرسلين من شيعتنا، فحمّله الله إياها وغفر جميعها. قال المفضل: فبكيت بكاءً طويلاً وقلت: يا سيدي، هذا بفضل الله علينا فيكم. قال الصادق عليه السلام: يا مفضل، ما هو إلا أنت وأمّالك، بلى يا مفضل، لا تحدّث بهذا الحديث أصحاب الرُخص من شيعتنا فيتكلّون على هذا الفضل ويتركون العمل فلا يُغني عنهم من الله شيئاً لأنّنا كما قال الله تبارك وتعالى فينا: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِن خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾، (بحار الأنوار، ج ٥٣ ص ٣٣). وعن مولانا فاطمة الزهراء عليها السلام أنها قالت: «إن الله يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي»، تفسير البيان، ج ٩ ص ٣٧ ح ١٦.

(١) (بالتوبة والمحبة اللتين لا تتحققان إلا بالحسين عليه السلام)، وأيّ رحمةٍ أوسع من هذه! علماً أن هذا الأمر هو من جهة الله وأسمائه وصفاته (رحمته) لا من جهة استحقاق العبد، «إلهي مِنِّي ما يليقُ بلُؤمي وَمِنْكَ ما يليقُ بِكَرَمِكَ»، (دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة، مفاتيح الجنان).

لتقريب الفكرة وإيضاحها أكثر فلننظر إلى علاقة الأبوين بأولادهما. فإذا كان عندهما ولدٌ طائع وآخر عاصٍ، نجدهما يُوليّان اهتمامهما وحرصهما على ابنهما العاصي أكثر من ابنهما الطائع، وذلك لأنهما مطمئنان إلى وضع الولد الصالح، في حين أنهما قلقان وخائفان على مصير الولد العاصي ويَريان أنه في خطرٍ محقق. ومن هنا، نجد أنه كلما عصى هذا الابن أكثر، كلما ازداد اهتمام والدَيْه به أكثر. وكلما عَثَر وزلّ وسقط أكثر، كلما رَقَّ قلبهما وازداد انكسارهما عليه أكثر. وكلما تلوّث أكثر، كان حرصهما أكبر على تطهيره وسوّقه إلى جادة الصواب بالعطف والمحبة. فحتى وإن كان ظاهرهما أحياناً يطغى عليه القسوة والسخط، إلا أن باطنهما مليء بالحبّ والخوف والحرص على ذلك الولد، علماً أن الأبوين لا يُظهريان هذا الأمر لولدهما كي لا يؤدي إلى فسادِه وبطوره وتمردِه، رغم أنهما يحبّان أن يعرفه في الواقع. ولكن لا بدّ من الالتفات جيّداً إلى أن هذا الحال ينطبق على الأبوين اللذين يتمتعان بفطرة سليمة، أما إذا خُدِشت فطرتهما أو مُسِحت، فهما سيعاملان ولدهما المخطئ بقسوة وغلظة سواء في الظاهر أو الباطن، بمقدار ذلك الخدش أو المسخ.

وعليه، فإن كان ذلك حال الأبوين الطبيعيين، من أصحاب الفطرة السليمة، فكيف إذا بأهل البيت عليه السلام مع عيالهم الموالين؟ إذ ورد عن النبي ﷺ: «أنا وعليّ أبوا هذه الأمة»، (بحار الأنوار، ج ٣٦ ص ١١). كما ورد: «المؤمن أخو المؤمن لأبيه وأمه، أبوه النور وأمّه الرحمة»، (بصائر الدرجات، ج ١ ص ١٠٠). فمن البديهي أن يكون أهل البيت عليه السلام أحرص الناس وأعطفهم وأرحمهم على عيالهم العاصين المذنبين، وقد قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء، آية ١٠٧)، =

ونحن ملوثون مهما فعلنا، فالتلوث من سماتنا^(١).

لا شيء مثل الحسين عليه السلام ولا تشبه شروطه أية شروط أخرى. ويرتبط هذا الأمر بالاستغناء، أي أن تلك الذات المقدسة مستغنية إلى درجة أن أي عمل يُعرض عليها يعتبر صغيراً. فعلى سبيل المثال، أيمن لا أحد أن يقول: يا

= فأهل البيت عليهم السلام هم رحمة الله الواسعة، والله تعالى يقول في الحديث القدسي: «يا داود، لو يعلم المديرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقاً إليّ، وتقطعت أوصالهم من محبتي. يا داود، هذه إرادتي في المديرين عني، فكيف إرادتي في المقبلين عليّ؟ يا داود، أحوج ما يكون العبد إليّ إذا استغنى عني، وأرحم ما أكون بعبدٍ إذا أدبر عني، وأجل ما يكون عبدي إذا رجع إليّ»، (المحجة البيضاء، ج ٨ ص ٦٢).

إذاً، هناك علاقة أبوة وبنوة بين أهل البيت عليهم السلام ومواليهم كما هي علاقة الآباء الطبيعيين بأبنائهم، لا بل أشد وثاقة. ويقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ (سورة البقرة، آية ١٤٦) والكتاب هو الإمام بدليل الكثير من الروايات، فهذه الآية الكريمة تدل على أن بين الكتاب ومن أوتوه، أي بين الإمام ومواليه، علاقة وارتباطاً تكوينيين مثل العلاقة والارتباط التكويني بين القائمين بين الآباء والأبناء. ولأن رسول الله وأمير المؤمنين عليهما السلام أبوا الموالي، فمن الطبيعي أن تكون رحمتها عليه أكثر حين يُذنب ويعصي، ففي اللحظة التي يتعثر فيها ذاك الموالي، يقف أمير المؤمنين وأهل البيت عليهم السلام إلى جانبه ويكونون معه ويواظبون عليه أكثر من أي وقت مضى. وعلى الموالي العاصي أن يعلم بأن حالة الغضب والسخط وعدم الرضا التي يشعر بأن أهل البيت عليهم السلام يقابلونه بها، هي في حقيقة الأمر حالة من الحزن عليه والاهتمام لأمره والحرص على أن لا يتمادى في ذنبه، فلو حُكِم بالإعدام على رجل قاتل، على سبيل المثال، ألن تشعر أمه بالحزن عليه حتى وإن كان قاتلاً بالفعل؟ وإضافة إلى ذلك، مثلما أن الأبوين لا يرضيان بأن يتكلم أحد بالسوء عن ابنهما في حال ارتكب الذنوب والأخطاء، ف كذلك هم أهل البيت عليهم السلام، لا يرضون بأن يأتي أحدهم ويتكلم بالسوء عن واحدٍ من شيعتهم.

(١) «إلهي مني ما يُلِقُ بلؤمي ومنك ما يُلِقُ بكرمك... إلهي من كنت محاسنهُ مساوي، فكيف لا تكون مساويه مساوي، ومن كنت حقايقهُ دعاوي، فكيف لا تكون دعاويه دعاوي»، دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة، مفاتيح الجنان.

سيدي، هاك وجودي؟ لا يمكن ذلك، لأن الحسين عليه السلام قد توجه إلى حرم الحق بلا وجود، حيث ترك كل وجوده.

إنه كل وجودنا^(١)، فكل العالم والوجود يمدّ اليد إليه^(٢). وكل الأنبياء والأولياء والملائكة يمسون بطرف قماط صغيره ذي الستة أشهر حتى يحصلوا على رخصة الدخول إلى ساحته. ولكن حتى هذا الذي يتعلق كل الوجود بقماطه، تخلى عنه الإمام قائلاً له: إرحل أنت أيضاً. ذلك أن لدى الإمام استغناء تاماً^(٣)، فهو كل شيء في الوجود.

إذاً، ينبغي مساواة تربته بالقرآن^(٤). فمن أيّ تراب نال الخليعيّ الشفاعة؟ لم

(١) قال رسول الله ﷺ: «... وأنا من حسين»، (بحار الأنوار، ج ٤٣ ص ٢٦١؛ كامل الزيارات، ص ٥٣)، والنبّي ﷺ هو الوجود، فالكلّ من حسين عليه السلام.

(٢) قال الإمام الصادق عليه السلام: «بنا أثمرت الأشجار وأينعت الثمار وجرت الأنهار وبنا ينزل غيث السماء وينبت عشب الأرض»، (الكافي، ج ١ ص ١٤٤ ح ٥). وعن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: «أما على الإمام زكاة؟ فقال: أحلت يا أبا محمد، أما علمت أن الدنيا والآخرة للإمام يضعها حيث يشاء ويدفعها إلى من يشاء؟ جائز له ذلك من الله، إن الإمام يا أبا محمد لا يبيت ليلة أبداً ولله في عنقه حق يسأله عنه»، (الكافي، ج ١ ص ٤٠٨). كما ورد في كتاب «الأداب المعنوية للصلاة»، ص ١٩٠: «إن معنى الآية الشريفة: ﴿يَتَأْتِيهَا الذِّبَرُ ءَامِنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ (سورة المائدة، آية ١)، بحسب الباطن أن حلية بهيمة الأنعام موقوفة على الوفاء بعهد الولاية. وقد روي في الأحاديث أن جميع الأرض للإمام وغير الشيعة غاصبة لها. وأهل المعرفة يرون وليّ الأمر مالكا لجميع ممالك الوجود ومدارج الغيب والشهود، ولا يجوزون تصرف أحد فيها بدون إذن الإمام». وعلى هذا الأساس، فإن كل من لا يفي بعهد الولاية، لا يأكل في بطنه إلا الحرام.

(٣) قال خليل بن أحمد الفراهيدي صاحب علم العروض: «إحتياج الكل إليه واستغناؤه عن الكل دليل على أنه إمام الكل»، عبقرية الإمام، ص ١٣٨.

(٤) لأن هذه التربة من الحسين عليه السلام، ﴿فَمَنْ يَعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ (سورة إبراهيم، آية ٣٦)، وهو منها، إذ أنه منها خلّق، حيث سئل أبو جعفر عليه السلام: «لأيّ علة يولد الإنسان هاهنا ويموت في موضع آخر؟ قال: لأن الله تبارك وتعالى لما خلق خلقه خلقهم من أديم الأرض، فمرجع كل إنسان إلى تربته»، (علل الشرائع، ج ٢ ص ٢٩٠ - ٢٩١)، =

يكن قد وصل إلى حقيقة التراب، إنما رآه في المنام فحسب، وقد رأيتم ما الذي حصل عندها. فهذا التراب هو خالق الحياة. يأخذ الكل حياته من الماء: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾^(١)، إذ إن باطن الماء هو الولاية^(٢). ولكن تراب

= وكلهم ﷺ مشتركون في ذلك، فقد ورد في الزيارة الجامعة: «وَأَنْ أُرَاحَكُم وَنُورَكُم وَطِبْنَتِكُمْ وَاحِدَةً طَابَتْ وَطَهَرَتْ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ». والتربة تنزل منه ﷺ، فهو القرآن العيني الناطق. وكما أن القرآن الصامت له آيات وسُور، فكذلك هو القرآن العيني الناطق، «فالإنسان الكامل [جامع لـ] جميع سلسلة الوجود وبه يتم الدائرة، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو الكتاب الكلي الإلهي. والإعتبارات الثلاثة تأتي فيه أيضاً، فإن اعتبر كتاباً واحداً، كان سرّه وروحه وعقله ونفسه وخياله وطبعه أبواباً وسوراً ومراتب، كل واحد منها آيات وكلمات إلهية؛ وإن اعتبر كُتُباً متعدّدة، كان كل واحد منها كتاباً مستقلاً له أبواب وفصول؛ وإن جُمع بين الاعتبارين، كان كتاباً ذا مجلدات وقرآنًا ذا سُور وآيات. فهو بالوجود التفريقي وباعتبار التكثّر (فرقان)، كما ورد أنّ علياً ﷺ فيصل بين الحق والباطل، وباعتبار الوجود الجمعي (قرآن)»، (شرح دعاء السّحر، ص ٥٥ - ٦٥). فتربة كربلاء هي آية من آيات القرآن الناطق، «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ آيَاتِكَ بِأَكْرَمِهَا وَكُلِّ آيَاتِكَ كَرِيمَةً، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِآيَاتِكَ كُلِّهَا»، (دعاء البهاء، مفاتيح الجنان)، فأَيُّ آية أو سورة في القرآن هي أكرم أو أفضل من الأخرى؟

(١) سورة الأنبياء، آية ٣٠.

(٢) عن أبي جعفر ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ (سورة الجن، آية ١٦)، قال: «يعني لو استقاموا على ولاية علي بن أبي طالب أمير المؤمنين والأوصياء من ولده ﷺ وقبلوا طاعتهم في أمرهم ونهيهم لأسقيناهم ماء غدقاً، يقول: لأشربنا قلوبهم الإيمان، والطريقة هي الإيمان بولاية علي والأوصياء ﷺ»، (الكافي، ج ١ ص ٢٢٠ ح ١). دخلت حَبَابَة الوالدية على أبي جعفر ﷺ فقالت: أخبرني يا بن رسول الله ﷺ أي شيء كنتم في الأظلة؟ فقال ﷺ: «كنا نوراً بين يدي الله قبل خلق خلقه، فلما خلق الخلق سبّحنا فسبحوا وهللنا فهللوا، وكبرنا فكبروا، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾، الطريقة: حبّ عليّ صلوات الله عليه، والماء الغدق: الماء الفرات، وهو ولاية آل محمد ﷺ»، (بحار الأنوار، ج ٢٥ ص ٢٤ ح ٤٠). وعنه ﷺ: في قوله: ﴿وَيُنَزَّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ (سورة الأنفال، آية ١١) قال: أما قوله: ﴿وَيُنَزَّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ فإن السماء في البطن رسول الله ﷺ والماء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ جعل علياً من رسول الله ﷺ. فذلك قوله: ﴿وَيُنَزَّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ

قدمي الإمام الحسين عليه السلام مساوٍ لباطن الماء أيضاً. فليس هناك أي نوع من التعطيل يمكن أن يطرأ على شمولية الرحمة^(١) الآتية من مجرى سيد الشهداء عليه السلام لأي شخص كان.

السَّمَاءُ مَاءٌ ﴿﴾ وأما قوله: ﴿يُطَهِّرُكُمْ بِهِ﴾ فذلك علي بن أبي طالب عليه السلام يطهر الله به قلب من والاه فذلك قوله ﴿يُطَهِّرُكُمْ بِهِ﴾ وأما قوله ﴿وَيَذْهَبَ عَنْكُمُ رِجْزُ الشَّيْطَانِ﴾ فإنه يعني من وإلى علياً أذهب الله عنه الرجس وتاب عليه، (تفسير فرائد الكوفي، ج ١ ص ١٥٣). عن أبي جعفر عليه السلام قال في قول الله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ (سورة الملك، آية ٣٠) فقال: «هذه نزلت في القائم يقول: إن أصبح إمامكم غائباً عنكم لا تدرون أين هو فمن يأتيكم بإمام ظاهر يأتيكم بأخبار السماء والأرض وحلال الله عز وجل وحرامه ثم قال: والله ما جاء تأويل الآية ولا بد أن يجيء تأويلها»، (بحار الأنوار، ج ٥١ ص ٥٢). وعن الإمام الرضا عليه السلام: «الإمام الماء العذب على الظُّمَاءِ والدال على الهدى، والمُنْجِي من الردى»، الكافي، ج ١ ص ٢٠٠ ح ١.

(١) من وصية أمير المؤمنين عليه السلام لابنه الحسين عليه السلام: «أي بني، لا تؤيس مذنباً، فكم من عاكف على ذنبه ختم له بخير، وكم من مقبل على عمله مفسد في آخر عمره، صائر إلى النار، نعوذ بالله منها»، (تحف العقول، ص ٩١).

إن الحسين عليه السلام هو رحمة الله الواسعة. وقد ورد في زيارة آل يس لصاحب الزمان عليه السلام: «السلام عليك أيها العلم المنسوب... والرحمة الواسعة»، (بحار الأنوار، ج ٥٣ ص ١٧١). كما نقرأ في دعاء كميل: «اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء»، فتعین وظهور هذه الرحمة يتحققان في الإمام الحسين عليه السلام، طبقاً للكثير من الروايات الواردة عن المعصومين عليه السلام. ولكن ثمة من يُشكل على مسألة الرحمة الواسعة ويقول إنه لا يمكن لهذا المفهوم أن يكون صحيحاً ولو كان كذلك لاختل قانون الثواب والعقاب الذي سته الله تعالى. من الحتمي أن القانون الإلهي المرتبط بالثواب والعقاب محفوظ والكلام عن الرحمة الواسعة لا يخل به ولا يُبطله، حيث ورد في دعاء الافتتاح: «وَأَيَقُنْتُ أَنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فِي مَوْضِعِ الْعَفْوِ وَالرَّحْمَةِ»، ما يعني أن الله تعالى ينشر رحمته بشكل مطلق في مواضع معينة ومحددة، أما في المواضع الأخرى، فيبقى قانون الثواب والعقاب سارياً. ولكن، ما هي مواضع العفو والرحمة هذه وأين تظهر؟ هنالك مواضع أجرى الله تعالى فيها رحمته بشكل واسع كما في جبل عرفات على سبيل المثال، ولكن المصداق الأتم والأكمل لهذه المواضع هي كربلاء المقدسة، إذ أن الرحمة فيها تفوق باتساعها تلك الرحمة التي تشمل الحجاج في جبل عرفات، إذ قال الإمام الصادق عليه السلام رداً على سائله: «إن الله يبدأ بالنظر إلى زوار الحسين عليه السلام عشية =

=عرفة قبل نظره إلى أهل الموقف؟ فقال ﷺ: نعم، قلت: وكيف ذلك؟ قال: لأنّ في أولئك أولاد زنا وليس في هؤلاء أولاد زنا»، (وسائل الشيعة، ج ١٤ ص ٤٦٢). في الواقع، إن الكلام عن الرحمة الواسعة وشموليتها لأيّ ذنب كان صغيراً أو كبيراً أو حتى عظيماً هو محصورٌ بالحسين وكربلاء الحسين ﷺ بدليل الكثير من الروايات التي تتحدث عن أجر البكاء والتباكى على مصابه والزيارة له، حيث تُمحي كل سيئات الإنسان وتغفر جميع ذنوبه ويرجع طاهراً كما ولدته أمّه، فقد سُئل الإمام الصادق عن فضل إتيان قبر الحسين ﷺ، فقال: «حدّثني أبي عن جدّي إنّّه كان يقول: من زاره يريد به وجه الله أخرجه من ذنوبه كمولود ولدته أمّه»، (بحار الأنوار، ج ١٠١، ص ١٩)، وعن الإمام الرضا ﷺ: «فعلى مثل الحسين فليبك الباكون، فإنّ البكاء يحطّ الذنوب العظام»، (أمالى الصدوق، ص ١٩٠). وعنه ﷺ: «يا ابن شبيب! إن بكيت على الحسين ﷺ حتّى تصير دموعك على خديك غفر الله لك كلّ ذنب أذنبته؛ صغيراً كان أو كبيراً، قليلاً كان أو كثيراً»، (عيون أخبار الرضا، ج ١ ص ٢٩٩). كما ورد: «من بكى أو أبكى أو تباكى على الحسين وجبت له الجنة»، (أمالى الصدوق، ص ١٢٥)، و«من زار قبر الحسين سلام الله عليه جعلَ ذنوبه جسراً على باب داره، ثمّ عبّرها كما يُخلف أحدكم الجسرَ وراءه إذا عبّره»، (من لا يحضره الفقيه، ج ٢ ص ٥٨١). ولم تبيّن روايات أهل البيت تحقّق مثل هذا الأثر عند زيارة أيّ إمام آخر غير الحسين ﷺ. فالدمعة والحزن والغمّ لمصاب الحسين وزيارته تمثّل مظاهر العفو والرحمة. والذي يأتي من باب الحسين ﷺ وكربلائه يدرك موضع العفو والرحمة التامّ. أما من لا يأتي من هذا الباب، فيضّيع عليه هذا الموضع ويبقى خارج نطاقه. ونفس الرجوع إلى الحسين ﷺ هو رجوع إلى الله والرجوع إلى الله تعالى يعني التوبة إليه. وفي هذا الصّدّد، ورد في القرآن الكريم آيات تُبيّن أن هناك نوعين من التوبة والرجوع، النوع الأوّل يسبق فيه الله تعالى عبده إلى التوبة، فيتوب عليه ليتوب هو بعد ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة التوبة، آية ١١٨). أما النوع الثاني فيدعو الله عبده إلى أن يُقدّم بنفسه على التوبة، كما في قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾ (سورة النور، آية ٣١). ففي كربلاء يتحقّق النوع الأوّل من التوبة، حيث تقضي الرحمة الإلهية الواسعة أن تُؤمّن التوبة للعبد ويتحصّل له الرجوع الحقيقي إلى الله بمبادرة منه عزّ وجلّ ومن غير استحقاق العبد لذلك، ومن أجل هذا وُصِفَت هذه الرحمة بالواسعة، فتنتقل توبة العبد بذلك من القوة إلى الفعل. كما ورد عن الحسين بن ثوير بن أبي فاختة قال: قال أبو عبد الله ﷺ: «يا حسين، من خرج من منزله يريد زيارة قبر الحسين بن عليّ ﷺ إن كان ماشياً كتب الله له بكلّ خطوة حسنة ومحي عنه سيئة»، (كامل الزيارات، ص ١٤٣). وعن رسول الله ﷺ قال: «حبّ عليّ حسنة»، (بحار الأنوار، ج ٣٩ ص ٢٤٨)، =

=وبالتالي فإنَّ من آثار رحمة الله الواسعة المتعيّنة بالإمام الحسين عليه السلام أن زائرَه لا تُغفَر ذنوبه فحسب، بل أيضاً يزداد ولايةً وحبّاً لأُمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام. غير أنّ الجدير ذكره أنه ليس كل من أتى إلى كربلاء ودخل إليها في الظاهر هو من المشمولين بالرحمة الواسعة، فالشّمر وعمر بن سعد وكل الأعداء لعنهم الله قد دخلوها إلا أنّهم فعلوا ذلك بقصد القتل وسفك الدماء، فأنتى للرحمة الواسعة أن تدركهم؟! (وإنَّ تكادُ الرّحمة الواسعة لتُدرِكهم يوم القيامة لولا حؤول الشيعة دون ذلك، [راجع الهامش ١ ص ١٩٢]). وكذلك من مواضع العفو والرحمة شهر رجب، حيث يَرُدُّ في الدعاء الذي يوصينا الإمام بالإكثار من قراءته في هذا الشهر: «يا مَنْ أرجوه لكلّ خير وآمَنْ سخطه عند كل شرٍّ»، فقلّناون الثواب والعقاب هنا يطرأ عليه تعديل استثنائي خاصّ بشهر رجب الموصوف بأنّ الرحمة فيه تُصَبُّ على العباد صبّاً، ولكن يبقى موضع الرّحمة هذا غير تامّ لأنه محدود ومقيّد بأيّام هذا الشهر الذي لا بدّ أن تنتهي، بخلاف كربلاء الحسين عليه السلام التي هي باقية ما بقي الدّهر. ومن المحسوم أنه لا يمكن للرحمة أن تنال الإنسان في أيّ وقتٍ من الأوقات، سواء في شهر رجب أو غيره، إلا عبر باب أهل البيت عليهم السلام، فهم الوسطة لنا في كلّ خير، حيث ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «التوبة حبلُ الله ومَدَدُ عنايته ولا بدّ للعبد من مداومة التوبة على كلّ حال، وكلُّ فرقة من العباد لهم توبة، فتوبة الأنبياء من اضطراب السرّ، وتوبة الأصفياء من النفس، وتوبة الأولياء من تلوين الخطرات، وتوبة الخاصّ من الإشتغال بغير ذكر الله، وتوبة العامّ من الذنوب»، (مصباح الشريعة، منسوب للإمام الصادق عليه السلام ص ٩٧). وحبل الله هو أهل البيت عليهم السلام، فقد قال الإمام جعفر بن محمد عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾: «نحن حبل الله»، (بحار الأنوار، ج ٣٦ ص ١٩). إذّا، التوبة تكون بالعودة إليهم والعودة إليهم هي العودة إلى الله. وفي الختام، يتبيّن لنا ممّا سبق أن أهل البيت عليهم السلام هم تعيّن ومظهر الرحمة الإلهية ولكنّ الروايات الصادرة عنهم تُظهر أن الحسين، على وجه الخصوص، هو رحمة الله الواسعة بأنّ تعيّناتها وظهوراتها، إلى درجة أنّ نيران جهنّم قد أُخمدت في يوم ميلاده المبارك، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «فلَمّا وُلِدَ الحسين بن عليّ عليه السلام، وكان مولده عشية الخميس، ليلة الجمعة، أوحى الله جلّ جلاله إلى مالِك خازن النيران أنْ أخمِد النيران على أهلها لكرامة مولود وُلِدَ لمحمّد صلى الله عليه وآله»، (كمال الدين، ص ٢٦٨؛ مدينة المعاجز، ج ٢ ص ٨٨)، غير أنّ العقل البشري لا يمكن له أن يدرك هذه الرحمة ولو من الناحية العلميّة، ولذلك نجد أنّه في كلّ فترة، ثمة مَنْ يأتي من هنا أو هناك ليطرَح الإشكالات حولها ويضعّف اعتقاد النّاس بها.

المحبيب الأوّل لأهل البيت عليه السلام

أتى رجل إلى الإمام الرضا عليه السلام فسأله الإمام: ما بالك، لماذا أنت قلقٌ ومغموم ^(١)؟ فقال له الرجل: يا سيّدي، إنّي أواجه مشكلة اعتقادية تنغص عليّ عيشي. هذا، وقدمي على حافة قبري وأخاف أن أغادر الدنيا وأنا معتقد بهذا الاعتقاد فأرحل مسلوب الإيمان. سأله الإمام: أيّ اعتقاد هو هذا؟ فقال: إنّي أحبّكم ^(٢) جميعاً أهل البيت ولكنني أحبّ جدكم الحسين عليه السلام أكثر من الكل ^(٣) وهذا الأمر يُقلقني.

ومما ورد في جواب الإمام عليه السلام رداً على ذلك الرجل: «أنت إذاً مثلنا أهل البيت» وتسلك سبيلنا، فنحن أيضاً نحبّ الحسين عليه السلام أكثر من الكل ^(٤).

(١) «وبكم ينفسّ الهم ويكشف الضر»، الزيارة الجامعة الكبيرة، مفاتيح الجنان.

(٢) قال رسول الله ﷺ: «من أراد التوكّل على الله فليحبّ أهل بيتي، ومن أراد أن ينجو من عذاب القبر فليحبّ أهل بيتي، ومن أراد الحكمة فليحبّ أهل بيتي، ومن أراد دخول الجنة بغير حساب فليحبّ أهل بيتي، فوالله ما أحبّهم أحدٌ إلا ربح الدنيا والآخرة»، (بحار الأنوار، ج ٢٧ ص ١١٦ ح ٩٢؛ غاية المرام، ص ٥٨٦ ح ٨٣). وعنه ﷺ: «إلزموا مودتنا أهل البيت، فإنه من لقي الله وهو يودّنا دخل الجنة بشفاعتنا، والذي نفسي بيده لا ينفع عبداً عمله إلا بمعرفة حقنا»، المراجعات، ص ٢٢.

(٣) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ تعدّد التوجهات القلبيّة نحو الأئمة عليهم السلام لا يكشف عن التعدد في المحبّة، فإنّ محبّة أي واحد منهم صلوات الله عليهم تعني محبّة الكلّ، ومن هنا قد تجد من يتوجّه في محبّته إلى رسول الله ﷺ، وتجد من يتوجّه إلى أمير المؤمنين عليه السلام أو إلى الإمام الحسين عليه السلام أو الإمام الرضا عليه السلام، أو إمام الزمان عليه السلام. نعم، يُلاحظ في بادئ الأمر أن المحبّة غالباً ما تتعلّق بمحبّة الذات المقدسة لأمر المؤمنين عليهم السلام حيث أنّه مشعل فتيلة الحبّ في وجود السالك الموالي، ويبقى على هذه الحالة نحواً من الزمن، ومن ثمّ يرتقي هذا التوجّه نحو الإمام الحسين عليه السلام».

(٤) عن رسول الله ﷺ: «أحبّ أهل بيتي إليّ الحسن والحسين»، (الصواعق المحرقة، ص ١٩٢ ح ٢٤). وعن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال: «قال رسول الله ﷺ: من أحبّ أن ينظر إلى أحبّ أهل الأرض إلى أهل السماء فليُنظر إلى الحسين»، مناقب آل أبي طالب، ج ٣ ص ٢٢٨.

فهنا، تبرز عبارة ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، بما تتضمنه من كلمة «أحسن»^(١)، عبر
المجرى الوجودي لسيد الشهداء عليه السلام، حيث يُخلَقُ الخلقُ الجميل. فمن خلال
مجرى سيد الشهداء عليه السلام يمكن إدراك زخرفات الوجود الجميلة.

(١) الحُسْنُ هو فاطمة سلام الله عليها، إذ قال رسول الله ﷺ: «لو كان الحُسْنُ شخصاً لكان فاطمة، بل هي أعظم، فإن فاطمة ابنتي خير أهل الأرض عنصراً وشرفاً وكرماً»، (فرائد السمطين، ج ٢ ص ٦٨). فالحُسْنُ هو فاطمة، منها يؤخذ وإليها يعود، وهو منوط بمعرفتها سلام الله عليها، والإمام الباقر عليه السلام يقول: «وعلى معرفتها دارت القرون الأولى»، (بحار الأنوار، ج ٤٢ ص ١٠٥). ومحبتها وعشقها يحكيان ويكشفان عن مدى المعرفة بها، وبالتالي، عن الحُسْنِ الموجود في كل فرد. ولهذا، كان الحَسَنُ والحُسَيْنُ والمُحَسَّنُ مِن فاطمة بل كانوا هم هي سلام الله عليها. فكلُّ من سُمِّيَ حَسَنٌ لا تصافه بالحُسْنِ، وكلُّ من سُمِّيَ حَسَناء لحملها تلك الصفة، وكلُّ من سُمِّيَ بالحسين لشدة حُسْنِهِ، مصدره فاطمة سلام الله عليها. وبالنتيجة، فإنه ينبغي على راوي أحاديث أهل البيت عليهم السلام أن يكون فاطمياً، «إعرفوا منازل شيعتنا بقدر ما يُحسنون من رواياتهم عنا»، (وسائل الشيعة، ج ١٨ ص ١٠٧). ومن كلام لآية الله السيد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «ينطوي اسم الحُسَيْنِ على معنى مُتَضَمِّنٍ للعاطفة. فالحسين اسم مصغّر، والتصغير يُستخدم، عادةً، في اللغة العربية وأدبياتها للدلالة على الحجم الصغير أحياناً وعلى الحنان والمحبة والموّدة أحياناً أخرى. ويدلّ اسم الحُسَيْنِ، المصغّر من اسم الحَسَنِ، على أن الحُسْنَ معه وفيه وهو المالك له. فالحسين هو الذات المستحوّذة على كل كمالات الحُسْنِ أي على الحُسْنِ الكامل... إن الحُسْنَ هو باعث المحبة وخالق العشق، إذ إن كل المحبة والعشق الموجودين في العالم يعودان إلى ظهور الحُسْنِ، والحسين هو صاحب الحُسْنِ... خالق العشق، أي الحسين، هو مُظهر كل طالب لله وباحث عن الله في العالم، وكذلك كل طالب لرسول الله ﷺ «إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ»، الكلام حول الحبّ ومرّد الحبّ إلى ظهور الحُسْنِ. وعندما يتحقق الحبّ يصل الحُسْنُ إلى الكمال. ولكن من ذا الذي يمتلك الحُسْنَ التامّ الكامل؟ وحده الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام هو من وصل إلى الكمال، وأخوه الحَسَنُ عليه الصلاة والسلام قد أخذ منه. يا مُحَسَّنِ بحق الحسن ولكن يا قديم الإحسان بحق الحسين. وحتى الحق أوصى بالحُسْنِ، فلو لم يكن الحُسْنُ موجوداً، من أين كان للعشق أن يظهر؟ فالحسين، إذًا، هو خالق العشق».

أخذت بيدي، فلم أسقط

كان المرحوم الحاج أكبر ناظم يقول: توقفت مجالس العزاء^(١)، فمضت فترة من الزمن لم نكن نقرأ فيها عزاء سيّد الشهداء^(٢) ﷺ. ثم تحرّرتنا ثانية. فكنا نذهب إلى المنازل الكبيرة لإقامة المجالس. كنتُ أفتح الباب صباحاً، وأعدّ السّماور ريشما يحضر الجميع. وفي إحدى المرات، كنتُ أفف أمام المنزل وأترقب جيداً. وفي تلك اللحظة، رأيتُ شاباً أنيقاً ونظيفاً يروح ويجيء. فتقدّمتُ نحوه وقلت له: تفضل أيها السيّد إلى العزاء^(٣). رأيتُه يأتي لا إرادياً ويدخل من دون حصول أيّ تعارف بيننا.

(١) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾، سورة البقرة، آية ١١٤.
 (٢) إنّ العزاء هو أفضل ورد وذكر. ورد في دعاء كميل: «حتى تكون أعمالي وأورادي كلها ورداً واحداً»، والسؤال: ما هو الورد الواحد لصاحب الزمان ﷺ؟ من خلال الروايات يظهر أن ورده هو: «لأنديتك صباحاً ومساءً ولأبيكينّ عليك بدل الدموع دماً». لا ندرى كيفية النّدب ولا ماهية البكاء، لا ندرى أيّ قرح هذا الذي لا يتوقف مدى الأيام. لا ندرى ماذا يرى صاحب الزمان كل يوم حتى تجريّ دموعه بدل الدموع دماً، وحتى يموت بلوعة المصاب. ولا ندرى عندما يموت كيف يحيا وما هو هذا الموت وماهيته... وإياك أن تظنّ أن هذا الكلام هو تعبير مجازي، فتحرّم نفسك من فيضه وسره، بل تدبّر...
 كما ورد في الدعاء: «... وحالي في خدمتك سرمداً... وهب لي الجّد في خشيتك والدوام في الاتصال بخدمتك»، إن دوام الوصال بخدمة الله، مصداقه خدمة الإمام ﷺ. خدمة زوّار الحسين ﷺ والخدمة في المجالس الحسينية والبكاء على الإمام الحسين سلام الله عليه، كل هذه الأمور هي تطهير للقلب والروح والمداومة على هذا الورد تجعل من الإنسان عاشقاً سرمدياً.

(٣) «إنّ المشاركة في مجالس سيّد الشهداء ﷺ هي محبة لذوي قربي النبي ﷺ؛ نفس ذوي القربي الذين أوصى القرآن الكريم بمودّتهم وجعل مودّتهم أجراً للرسالة. فالمشاركة في هذه المراسم هي أجر رسالة النبي ﷺ. فأنتم اذهبوا بهذه النية وقولوا لله جلّ وعلا: أنت أمرت وأنا أتيت. فأنا أؤدي تلك المحبة التي تريدها أنت. فإني أقوم بإظهار المحبة للأشخاص الذين تحبهم»، (الرحمة الواسعة، ص ٤٢). عن أبي عبد الله ﷺ في قول الله عزّ ذكره ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سِيلَتْ﴾: «يعني مودّتنا، ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ قال: ذلك حقنا الواجب على الناس، وحبنا الواجب على الخلق قتلوا مودّتنا»، تفسير فرات، ص ٢٠٤؛ بحار الأنوار، ج ٢٣ ص ٢٥٧.

في وسط الفناء، كان هناك غرفة يحتسي الناس فيها الشاي ثم يدخلون إلى العزاء. دلّته عليها وقلتُ له: تفضل واشرب الشاي هنا. وعندما أتيتُ لآخذ الكوب، إلتفتُ إلى أنه سكران وفمه ملوّث. فشعرتُ بالانزعاج الشديد لكوني دعوتُ إلى مجلس الحسين عليه السلام رجلاً سكراناً وغير طاهر^(١). ولكي يقوم ويرحل

(١) بسنده إلى زيد ابن يونس الشّحام قال: قلت لأبي الحسن موسى عليه السلام: «الرجل من مواليكم عاصٍ يشرب الخمر ويرتكب الموبق من الذنب نتبراً منه؟ قال: تبرّؤوا من فعله ولا تتبرّؤوا من خيره، وأبغضوا عمله. فقلت: يسع لنا أن نقول: فاسق فاجر؟ فقال: لا، الفاسق الفاجر، الكافر الجاحد لنا ولأوليائنا، أباي الله أن يكون وليّنا فاسقاً فاجراً وإن عمل ما عمل، ولكنكم قولوا: فاسق العمل، فاجر العمل، مؤمن النفس، خبيث الفعل، طيّب الروح والبدن. لا والله لا يخرج وليّنا من الدنيا إلاّ والله ورسوله ونحن عنه راضون، يحشره الله على ما فيه من الذنوب، مبيّضاً وجهه، مستورة عورته، آمنة روعته، لا خوف عليه ولا حزن، وذلك أنّه لا يخرج من الدنيا حتى يصفى من الذنوب إمّا بمعصيته في مال أو نفس أو ولد أو مرض. وأدنى ما يصنع بوليّنا أن يريه الله رؤيا مهولة، فيصبح حزينا لما رآه، فيكون ذلك كفارة له، أو خوفاً يرد عليه من أهل دولة الباطل، أو يشدّد عليه عند الموت، فيلقى الله عزّ وجل طاهراً من الذنوب، آمنة روعته بمحمّد وعليّ أمير المؤمنين عليهما السلام. ثمّ يكون أمامه أحد الأمرين: رحمة الله الواسعة، التي هي أوسع من أهل الأرض جميعاً، أو شفاعة محمّد عليه السلام وعليّ أمير المؤمنين عليهما السلام، فعندها لقيه رحمة الله الواسعة التي كان أحقّ بها وأهلها وله إحسانها وفضلها»، (تأويل الآيات، ج ٢ ص ٥٩٤ ح ١٠). بإسناده إلى عبد الله بن أبي يعفور، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «إني أخالط الناس فيكثر عجبني من أقوام لا يتولّونكم ويتولّون فلاناً وفلاناً، لهم أمانة وصدق ووفاء، وأقوام يتولّونكم، ليس لهم تلك الأمانة ولا الوفاء والصدق. فاستوى أبو عبد الله عليه السلام جالساً فأقبل عليّ كالغضبان ثمّ قال: لا دين لمن دان الله بولاية إمام جائر ليس من الله، ولا عتب على من دان الله بولاية إمام عادل من الله، فقلت: لا دين لأولئك ولا عتب على هؤلاء؟ قال: نعم، لا دين لأولئك ولا عتب على هؤلاء. ثمّ قال: ألا تسمع لقول الله عزّ وجل: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يعني من ظلمات الذنوب إلى نور التوبة والمغفرة، لولايتهم كلّ إمام عادل من الله. وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ إنّما عنى بهذا أنّهم كانوا على نور الإسلام فلمّا أن تولّوا كلّ إمام جائر ليس من الله، خرجوا بولايتهم إيّاه من نور الإسلام إلى ظلمات الكفر، فأوجب الله لهم النار مع الكفار ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، الكافي، ج ١ ص ٣٧٥ ح ٣.

سألتُهُ: هل أسكب لك كوبَ شايٍ آخر؟ فقال: لا، إني مغادر. ولكن حتى لا يختلط كوبه مع الأكواب الأخرى، أحضرتُ له الشاي وجلستُ قربَه بنفسِي حتى لا يلتفت أحد إلى وضعه.

صعد الحاج حسن دولابي إلى المنبر ومن دون أية مقدمة أو بسملة حتى، تلا الشعر الآتي:

محتسب، گر شاد از این هستی که شب مستم گرفتی

من از این شادم که می افتادم و دستم گرفتی

(أيها المحاسب، إن كنتَ مسروراً بأنك أمسكتَ بي سكرانَ تلك الليلة، فأنا مسرور لأنك أخذتَ بيدي حين كنتُ أسقط).

وفجأة، رأيتُ ذلك الشاب السَّكران يصرخ ويُغشى عليه. فأتيتُ ورميتُ الماء على وجهه، وما إن استعاد وعيه، حتى نهض وغادر مطأطئاً رأسه، واضعاً حذاءه تحت إبطه.

قلتُ: يا إلهي، ما كانت هذه الحادثة؟ في اليوم التالي، عندما قدِمْتُ في وقت الأذان حتى أفتح الباب، رأيتُ الشاب نفسه قد أتى وتوجَّه إلى بيت الإمام الحسين (عليه السلام) وهو يبكي^(١) ويقول: حبيبي يا حسين، الحمد لله أنك أخذتَ بيدي وطهرتني.

سيدي، نحن لم نأتِ إليك هكذا، بل أنت الذي أحضرتنا. لو لم تحبنا ولم تردنا، ما كنتَ لتدلنا على طريقك، نحن ملوثون مهما فعلنا^(٢)، فالتلوث من

(١) حدَّثنا علي بن عقبة عن أبيه قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): «إن لنا خادمة لا تعرف ما نحن عليه، وإذا أذنب ذنباً وأرادت أن تحلف بيمين. قالت: لا، وحق الذي إذا ذكرتموه بكيتم، فقال: رحمكم الله من أهل البيت»، الكشي، ص ٢٢٠.

(٢) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»، (ميزان الحكمة، ج ١ ص ٣٣٨). يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إعترف بالعجز واعترف بالقبح والسوء في وجودك، وأمّا الكبرياء فهو مختصّ بالله تعالى، والحسن لمن هو واحد معه تعالى وتقدّس»، انتهى. ومن أشعار حسين بن منصور حلاج: «وَجُودُكَ ذَنْبٌ لَا يُقَاسُ بِهِ ذَنْبٌ»، فالإنسان مخلوقٌ من عين النجاسة، ويحمل النجاسة معه دائماً في=

سيماتنا^(١).

رهرو منزل عشقيم ز سرحد عدم تا به اقليم وجود اين همه راه آمده ايم

تراب كربلاء بين الإحياء والإماتة

إن تراب كربلاء مُحيي، فهو يحيي الموتى. أليكم شك في كون الإمام الحسين عليه السلام مُحيي؟ وتراب كربلاء مميّت أيضاً، فهو يميّت كل الصفات الرذيلة في وجودك^(٢).

لقد أخذ عيسى النبي عليه السلام التراب من أربع جهات وصنع منه طيراً وقال له طر فطار^(٣). فقد أظهر الله تعالى الخالقية فيه عليه السلام. وكل من يسطع عليه

=أحشائه. وعن النبي عيسى عليه السلام أنه قال: «ما يخرج من الإنسان هو الذي ينجس الإنسان، لأنه من باطن الناس، من قلوبهم، تنبعث المقاصد السيئة والفحش والسرقة والقتل والزنى والطمع والخبث والمكر والفجور والحسد والشتم والكبرياء والغباوة، جميع هذه المنكرات تخرج من باطن الإنسان فتنجسه»، إنجيل مرقس.

(١) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ الإقرار بالمعصية ينقش التوحيد في وجود الإنسان المُقرّ ويرفع الإنيّة من البين، حيث أنّ هذه الإنيّة هي المانع من تحقّق التوحيد، كما أنّ الإقرار بالذنب والمعصية يؤدّي بفرض الوجود إلى الإضمحلال. فلو أنّ شخصاً أراد أن يصبح واحداً مع شخص آخر، فإنّ الباب الوحيد أمامه لتحصيل هذا المقام والشأن، هو الاعتراف له بالعجز والفقر والإقرار بالذنوب والقبايح التي ارتكبها، والنتيجة الطبيعية لهذا الإقرار هو أن يجذبه الآخر إلى محضره ويعطيه ما يريد حتى يصبح واحداً معه».

(٢) عن أبي عبد الله عليه السلام: «إن عند رأس الحسين بن علي عليه السلام لثربة حمراء فيها شفاء من كل داء إلا السّام»، الكافي، ج ٤ ص ٥٨٨.

(٣) ﴿إِنِّي أَنفَلْتُ لَكُم مِّنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، (سورة آل عمران، آية ٤٩). من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ عيسى بن مريم لم يقم بالمعجزات لأجل أن يجمع المريدين حوله، بل أظهر ما أظهر لأجل أن يطمئن قلبه، فإنّ الأفعال الخارقة التي كان يؤدّيها كانت لأجل أن يتيقن أنّه وصل إلى التوحيد مع المبدأ... ولكن عندما يصل الموحد إلى مقام الإطمئنان ومقام اليقين، ﴿لَيُطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، ترتفع كلّ الحاجة للقيام بالمعجزات، فعيسى بن مريم عليه السلام لا يحتاج بعد أن=

(٢) ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الإسراء، آية ٨٢)، والقرآن صامت وناطق، وتراب كربلاء من آيات القرآن العيني (الناطق). وعن الإمام الباقر عليه السلام عن أبيه عن جدّه عليه السلام قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكل شيء أحصيناه في امام مبین، قام أبو بكر وعمر من مجلسهما وقالوا: يا رسول الله، هو التوراة؟ قال: لا. قالوا: فهو الإنجيل؟ قال: لا. قالوا: فهو القرآن؟ قال: لا. قال: فأقبل أمير المؤمنين عليه السلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هو هذا، إنه الإمام الذي أحصى الله فيه علم كل شيء، (معاني الأخبار، ص ٩٥ ح ١). وسئل الإمام الصادق عليه السلام عن تفسير آية ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رَّوْقٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا رَءَىٰهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا فَاِيسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾: «قلت: في كتاب مبین؟ قال: في إمام مبین»، (تفسير نور الثقلين، سورة الأنعام، آية ٥٦). وأرفع من ذلك، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾، (سورة الواقعة، آية ٧٧ - ٧٨)، ما يعني أن القرآن هو جزء من الكتاب المكنون الذي هو أعلى مقاماً ورتبة من القرآن. وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «الكتاب علي لا شك فيه»، (تفسير القمي، ج ١ ص ٣٠)، يعني أنّ الحسين كتاب مكنون لا شك فيه، وكذا سائر الأئمة عليهم السلام. وبالتالي فإن كل ما هو مرتبط بالكتاب هو جزء منه سواء كان القرآن أو التراب.

ذو الجناح عاشقٌ عارف

ألا أدلكم على أحد العارفين بكربلاء؟ «ذو الجناح»^(١)، جواد الإمام الحسين عليه السلام، عارفٌ بكربلاء وقد رفعه العشق وسما به فوق الإنسانية. فثقلُ

(١) ورد في كتب المقاتل أنه: «بيننا هم يسرون إذ وقف جواد الحسين ولم يتحرك، كما أوقف الله ناقة النبي صلى الله عليه وآله عند الحديبية فعندها سأل الحسين عن الأرض»، (سير أعلام النبلاء، ج ٣ ص ٢٠٩). كما ورد: «قتل الحسين عليه السلام باتفاق الروايات يوم عاشوراء عاشر المحرم، سنة إحدى وستين، وهو ابن أربع وخمسين سنة وستة أشهر ونصف... وأقبل فرس الحسين عليه السلام وقد عدا من بين أيديهم أن لا يؤخذ، فوضع ناصيته في دم الحسين عليه السلام ثم أقبل يركض نحو خيمة النساء، وهو يصهل ويضرب برأسه الأرض عند الخيمة حتى مات»، (بحار الأنوار، ج ٤ ص ٦٠). ويصف لنا التاريخ حال هذا الفرس بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام: «بعد سقوط الإمام الحسين عليه السلام على الأرض صار هذا الفرس يذب عنه ويهجم على فرسان العدو وقتل جماعة منهم»، (مناقب ابن شهر آشوب، ج ٤ ص ٥٨). كما نقل أنه: «لما قتل الحسين عليه السلام، جعل جواده يصهل ويحجم ويتخطى القتلى في المعركة واحداً بعد واحد، فنظر إليه عمر بن سعد لعنه الله، فصاح بالرجال: خذوه وأتوني به، وكان من جياذ خيل رسول الله صلى الله عليه وآله. قال: فتراكضت الفرسان، فجعل يرفس برجليه ويمانع عن نفسه ويكدم بضمه حتى قتل جماعة من الناس ونكس فرساناً عن خيولهم، فلم يقدرُوا عليه، فصاح ابن سعد: ويلكم، تباعدوا عنه ودعوه لننظر ما يصنع، فتباعدوا عنه، فلما أمن الطلب، جعل يتخطى القتلى ويطلب الحسين عليه السلام، حتى إذا وصل إليه جعل يشم رائحته ويقبله ويمرغ ناصيته عليه، وهو مع ذلك يصهل ويبكي بكاء الشكلى، حتى أعجب كل من حضر»، (معالي السبطين، ج ٢ ص ٥١)، وورد أيضاً: «لما صُرع الحسين عليه السلام، جعل فرسه يحامي عنه، فيثب على الفارس فيخبطه عن سرجه ويدوسه، حتى قتل الفرس أربعين رجلاً، ثم تمرغ في دم الحسين وقصد الخيمة وله صهيل عالٍ ويضرب بيده الأرض»، (مناقب ابن شهر آشوب، ج ٤ ص ٥٨). وقال بعض الرواة: «وأقبل الفرس... نحو الحسين عليه السلام يمرغ ناصيته بدمه ويشمه ويصهل صهيلاً عالياً، قال أبو جعفر الباقر عليه السلام كان يقول: الظليمة، الظليمة، من أمة قتلت ابن بنت نبيها، وتوجه نحو المخيم بذلك الصهيل وجاء في بعض الأخبار أن فرس الإمام هأم على وجهه بعد استشهاد الإمام وابتعد عن النساء وألقى بنفسه في نهر الفرات واختفى»، (تذكرة الشهداء، ص ٣٥٣). وقال عبد الله بن قيس: «فنظرت إلى الجواد، وقد رجع من الخيمة وقصد الفرات، ورمى بنفسه فيه، وذكر أنه يظهر عند صاحب الزمان عليه السلام»، مقتل أبي مخنف، ص ٩٦ - ٩٤.

الولاية والمحبة في ذلك الجواد جعل برق حيوانيته يضيء لعالم الملائكة. وعلى الرغم من أن هذا الجواد حيوان إلا أنه عارف بكر بلاء^(١) ويعلم أن هذه الأرض هي مهد العشق والمحبة والاتصال.

وصلت قافلة الحسين عليه السلام إلى تلك الأرض، فرأوا أن «ذو الجناح» توقف فجأة وما عاد يتحرك. ومهما حاولوا نهروه وزجره، لم يحرك ساكناً. فسأل الإمام عليه السلام: ما اسم هذه الأرض؟ قيل له: شطّ الفرات ونيوى والغاضرية.

لم يسأل عن الأسماء؟ لأنها كلها تحمل أسراراً. فقبل نزول الإمام الحسين عليه السلام إجلالاً لهذه الأرض، كان الناس الذين يعانون من الآلام والأوجاع يأتون إليها من كل حذب وصوب حتى يمسخوا أبدانهم بؤحولها وتُرابها فيحصلوا على الشفاء. والغاضرية تعني الأرض الشافية^(٢).

ولا يكون الاتصال ونيل النتائج والنور على نحو الفعل والانفعال الظاهريين. فهذا التراب كان شافياً لأنه كان من المقرر أن يأتي الحسين عليه السلام إلى هذه الأرض^(٣) ويطأ بقدمه عليها^(٤).

(١) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «العارف الكامل الذي وصل إلى نقطة شامخة في التوحيد لا يعتبر نفسه أرفع من أوضاع الحيوانات، بل يجعل نفسه أسفل حتى من الحيوانات، ولكنّ هذا مختصّ بالعارف الكامل الذي وصل إلى نقطة شامخة في التوحيد، وحصل له الإستغراق والفناء التام».

(٢) «فلما أصبح نزل فصلّى الغداة، ثمّ عمل الركوب وأخذ يتياسر بأصحابه يريد أن يفرّقهم، فيأتيه الحرّ بن يزيد فيردّه وأصحابه... وأخذهم الحرّ بالنزول في ذلك المكان على غير ماء ولا في قرية، فقال له الحسين عليه السلام: دَعْنَا وَيَحَكْ، نَنْزِلُ فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، أَوْ هَذِهِ - يعني نينوى والغاضرية - أَوْ هَذِهِ يعني شَفِيَّة...»، الإرشاد، ص ٢٢٦.

(٣) ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾، سورة الأنفال، آية ٤٤.

(٤) أيها الحبيب، أتصدّق أن السامريّ قبض قبضة واحدة من أثر الرسول (جبرائيل)، فصنع لهم عجلاً له خوارٍ يتكلم، وتستكثر أن يكون لأثر الحسين بن عليّ، أي ترابه، كل هذه الرفعة والمقام (من الشفاء والإحياء...) وأن تُصنّع منه الكرامات؟!

وفي الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: إن الحق تعالى لم يعط أحداً من الأنبياء ^(١) منصب النبوة إلا بعد عبوره أولاً على تراب كربلاء.

(١) قال رسول الله ﷺ: «ما تكاملت النبوة لنبي في الأظلة حتى عُرِضَتْ عليه ولايتي وولاية أهل بيتي ومثلوا له فأَمَرُوا بطاعتهم وولايتهم»، (بصائر الدرجات، ج ٢ ص ١٠٦). ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِئَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي اللَّهِ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة القصص، آية ٣٠). وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: «شاطئ الوادي الأيمن الذي ذكره الله تعالى في القرآن هو الفراءث، والبقعة المباركة هي كربلاء»، (التهذيب للطوسي، ج ٦ ص ٣٨). وسُئِلَ الإمام الباقر عليه السلام عن خصوصية أرض كربلاء، فقال عليه السلام: «الغاضرية هي البقعة التي كلم الله فيها موسى بن عمران، وناجى نوحاً فيها، وهي أكرم أرض الله عليه، ولولا ذلك ما استودع الله فيها أوليائه وأبناء نبيه، فزوروا قبورها بالغاضرية»، (بشارة الزائرين، ص ٢٦). حدثنا ابن عبدوس عن ابن قتيبة عن الفضل قال سمعت الرضا عليه السلام يقول: «لما أمر الله عز وجل إبراهيم عليه السلام أن يذبح مكان ابنه إسماعيل الكبش الذي أنزله عليه تمنى إبراهيم عليه السلام أن يكون قد ذبح ابنه إسماعيل وأنه لم يؤمر بذبح ذلك الكبش مكانه ليرجع إلى قلبه ما يرجع إلى قلب الوالد الذي يذبح أعزّ ولده بيده عليه فيستحق بذلك أرفع درجات أهل الثواب على المصائب. فأوحى الله عز وجل إليه، يا إبراهيم من أحب خلقي إليك؟ قال: يا رب، ما خلقت خلقاً هو أحب إلي من حبيبك محمد ﷺ. فأوحى الله إليه، فهو أحب إليك أم نفسك؟ قال بل هو أحب إلي من نفسي. قال فولده أحب إليك أم ولدك؟ قال بل ولده. قال فذبح ولده ظلماً على أيدي أعدائه أوجع لقلبك أم ذبح ولدك بيدك في طاعتي؟ قال يا رب بل ذبحه على أيدي أعدائه أوجع لقلبي. قال يا إبراهيم فإن طائفة تزعم أنها من شيعة محمد ستقتل الحسين من بعده ظلماً وعدواناً كما يذبح الكبش ويستوجبون بذلك سخطي. فجزع إبراهيم عليه السلام لذلك وتوجع قلبه وأقبل يبكي فأوحى الله عز وجل إلى إبراهيم عليه السلام، قد فديت جزعك على ابنك إسماعيل لو ذبحته بيدك بجزعك على الحسين وقتله وأوجبت لك أرفع درجات أهل الثواب على المصائب وذلك قول الله عز وجل ﴿وَفَدَيْنَهُ بِذَنبِ عَظِيمٍ﴾، (الخصال، ص ٥٨). وعن بريد بن معاوية العجلي قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: يا ابن رسول الله، أخبرني عن إسماعيل الذي ذكره الله في كتابه حيث يقول: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾، أكان إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام؟ فإن الناس يزعمون أنه إسماعيل بن إبراهيم. فقال عليه السلام: إن إسماعيل مات قبل إبراهيم، وإن إبراهيم كان حجة لله... قائماً صاحب شريعة، فإلى من أرسل إسماعيل إذن؟ فقلت: جعلت فداك، فمن كان؟ قال عليه السلام: ذاك إسماعيل بن حزقيل النبي عليه السلام، =

كربلاء تدفع الكرب والبلاء

أعاد الإمام الحسين عليه السلام سؤاله: هل لهذه الأرض اسم آخر؟ فقالوا: نعم، يقال لها كربلاء. كانت روح الحسين عليه السلام تألف هذا الاسم ^(١). ولذلك قال:

=بعثه الله إلى قومه فكذبوه، فقتلوه وسلخوا وجهه، فغضب الله له عليهم، فوجّه إليه اسطاطائل ملك العذاب، فقال له: يا إسماعيل، أنا اسطاطائل ملك العذاب، وجّهني إليك ربّ العزّة لأعذب قومك بأنواع العذاب إن شئت. فقال له إسماعيل: لا حاجة لي في ذلك. فأوحى الله إليه: فما حاجتك يا إسماعيل؟ فقال: يا ربّ، إنك أخذت الميثاق لنفسك بالربوبية، ولمحمدٍ بالنبوة، ولأوصيائه بالولاية، وأخبرت خير خلقك بما تفعل أمّته بالحسين بن عليّ عليهما السلام من بعد نبيّهما، وإنك وعدت الحسين عليه السلام أن تكرّر (تكرّره) إلى الدنيا حتى ينتقم بنفسه ممّن فعل ذلك به، فحاجتي إليك يا ربّ أن تكرّرني إلى الدنيا حتى أنتقم ممّن فعل ذلك بي، كما تكرّر الحسين عليه السلام. فوعد الله إسماعيل بن حزقيل ذلك، فهو يكرّر مع الحسين عليه السلام»، (كامل الزيارات، ص ١٣٨). سأل سعد بن عبد الله القائم عليه السلام عن تأويل كهيعص، فقال عليه السلام: «هذه الحروف من أنباء الغيب، أطلع الله عليها عبده زكريّا ثم قصّها على محمد عليه السلام. وذاك أنّ زكريّا سأل ربّه أن يُعلّمه أسماء الخمسة، فأهبط عليه جبرائيل، فعلمه إياها، فكان زكريّا عليه السلام إذا ذكر محمداً وعلياً وفاطمة والحسن سلام الله عليهم سرى عنه همّه، وانجلى كربّه، وإذا ذكر اسم الحسين عليه السلام خفّته العبرة ووقّعت عليه البهرة. فقال ذات يوم: إلهي، ما بالي إذا ذكرت أربعاً منهم تسليّت بأسمائهم من همومي، فإذا ذكرت الحسين، تدمّع عيني، وتثور زفرتي؟ فأنبأه الله تبارك وتعالى عن قصته، فقال: ﴿كهيعص﴾ فالكاف اسم كربلاء، والهاء هلاك العترة، والياء يزيد، وهو ظالم الحسين عليه السلام والعين عطشه، والصّاد صبره. فلما سمع بذلك زكريّا لم يفارق مسجده ثلاثة أيام ومنع فيهن الناس من الدّخول عليه، وأقبل على البكاء والنحيب، وكان يرثيه: إلهي أنفجّع خير جميع خلقك بولده! إلهي أتُنزل بلوى هذه الرزية بفنائهم! إلهي أتلّبس علياً وفاطمة ثياب هذه المصيبة! إلهي أتحلّ كربة هذه المصيبة بساحتهم! ثم كان يقول: إلهي ارزقني ولداً تقرّ به عيني على الكبر فإذا رزقنيّه، فافتنّي بحبه، ثم افجعني به كما تفجع محمداً حبيبك بولده فرزقه الله تعالى يحيى، وفجعه به»، مكيال المكارم، ج ١ ص ٢٥ - ٢٦.

(١) «لما عزم (الحسين عليه السلام) على الخروج من المدينة، أتته أمّ سلمة رضي الله عنها فقالت: يا بنيّ، لا تُحزّنّي بخروجك إلى العراق، فإني سمعتُ جدّك يقول: يُقتل ولديّ الحسين بأرض العراق في أرض يقال لها كربلاء. فقال لها: يا أمّاه! وأنا والله أعلم بذلك، وإني مقتول لا محالة، وليس لي من هذا بدّ، وإني والله لأعرف اليوم الذي أقتل فيه وأعرف=

«اللهم إني أعوذ بك من الكرب والبلاء»^(١).

إلتجأ إلى الله، الذي هو الظهور التام للمحبة، من الكرب والبلاء. ما يعني أن هذه الأرض، بنفسها واسمها والتوجه إليها، تدفع عن الإنسان الكرب والبلاء، إذ كان ذلك من خصائص هذه الأرض، ولهذا قال الإمام الحسين عليه السلام عند سماعه باسمها: «أعوذ بالله من الكرب والبلاء»^(٢).

كربلاء محط رحال الموالين

عند ذلك، قال عليه السلام: «إنزلوا، ها هنا والله محط ركابنا»^(٣)، أي أني سأُنزل كل الركبان ها هنا. فلا يعني هذا الكلام أن الإمام عليه السلام خاطب ركاب القافلة فقط وأمرهم بالنزول، بل إن الخطاب موجه إلى كل من يركب أي نوع من الركاب، سواء كان ركاب الغرور أو حتى ركاب التوحيد في قمته، أو أي منصب آخر، حيث يقول الحسين عليه السلام إني سأجعله يحط في هذه الأرض. فينبغي على كل راكب مهما علت درجته أن يحط ها هنا^(٤).

=من يقتلني وأعرف البقعة التي أُدفن فيها، وإنني أعرف من يُقتل من أهل بيتي وقرابتي وشيعتي، وإن أردت يا أمّاه أريك حفرتي ومضجعي. ثم أشار عليه السلام إلى جهة كربلاء، فانخفضت الأرض حتى أراها مضجعه ومدفنه وموضع عسكره وموقفه ومشهده. فعند ذلك بكّت أم سلمة بكاءً شديداً، وسلّمت أمره إلى الله. فقال لها: يا أمّاه، قد شاء الله عزّ وجل أن يراني مقتولاً مذبوحاً ظلماً وعدواناً وقد شاء أن يرى حرمي ورهطي ونسائي مُشرّدين وأطفالاً مذبوحين»، بحار الأنوار، ج ٤٤ ص ٣٣١.

(١) بحار الأنوار، ج ٤٤ ص ٣٨١؛ مقتل الحسين، ص ١٩٨.

(٢) كل من يفنى ويتوحد بالحسين عليه السلام بمقدار، يُعاذ بذلك المقدار من الكرب والبلاء.

(٣) (الملهوف، ص ٤٩)، أي أنّ ها هنا منتهى المقصد.

(٤) كلّ من يظنّ أن هناك سبيلاً آخر غير ما خطّه سيّد الشهداء عليه السلام ورسمه في كربلاء للوصول بكل الحقائق التوحيدية والولائية هو إمّا غافل أو جاهل، وعليه أن يلتفت إلى كلامه عليه السلام حين قال: «كلّ سالك سبيلي»، ما يعني أن لا سبيل لكم غيري، فلا طريق لكم للوصول إلى الله والتحقيق بأسمائه وصفاته ومعرفته والعبودية له إلا إذا سلكتم مسلكي وسبيلي. وقد اختصر لنا سيّد الشهداء الطريق بكربلاء التي هي أسرع الطرق إلى الله وأقربها منه.

ثم تكلم بذلك الكلام^(١) الذي كانت السيدة زينب عليها السلام أوّل من بكى^(٢) واغتمّ بسببه، فقال: والله هاهنا «مسفك دمائنا»^(٣). بكت السيدة زينب عليها السلام وقالت: إذاً، لم تنصب الخيام في هذا المكان^(٤)؟ فقال الإمام عليه السلام: مضت مشيئة الحق وإرادته على أن تسفك دماؤنا هاهنا. ولكن، يا أختاه، أوصيك بوصية: إذا رأيت أخاك مخضّباً بدمه لا تشقي عليه جيباً^(٥). عليك، يا أختاه، من بعدي أن تصلي بهذه القافلة إلى أقصى مقاصد المحبة.

-
- (١) «كلامكم نورٌ وأمركم رشدٌ»، الزيارة الجامعة الكبيرة، مفاتيح الجنان.
- (٢) في خبر الحسين بن ثوير عن الصادق عليه السلام قال في حديث: «إن أبا عبد الله الحسين عليه السلام لما قضى بكت عليه السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن ومن يتقلّب في الجنة والنار من خلق ربّنا وما يرى وما لا يرى بكى على أبي عبد الله الحسين عليه السلام إلا ثلاثة أشياء لم تبك عليه، قلت: جعلت فداك وما هذه الثلاثة أشياء؟ قال: لم تبك عليه البصرة ولا دمشق ولا آل عثمان»، بحار الأنوار، ج ٤٥ ص ٢٠٦ ح ١٢.
- (٣) (الملهوف، ص ٤٩). يُروى أنه: «حين يقول الناس عن إمام زماننا عليه السلام: إنه يقتل ولا يرحم، يرتقي المنبر صلوات الله عليه، ويُخرج نعلًا هي لسيد الشهداء صلوات الله عليه، ويقول: «لو أني قتلت جميع الأعداء، ما وفوا بهذا الدم الذي تلتخ به سير هذه النعل»، وفي خبر آخر أنه يقول صلوات الله عليه: «لو أني قتلت أهل العالم أجمعهم ما كانوا عوضاً لسير هذه النعل»، علائم الظهور، ص ١٩٧.
- (٤) تقول الرواية إنه وبينما كان سيد الشهداء عليه السلام يسير، وإذا به يجد زينب عليها السلام واقفة على باب الخيمة وظهرها إلى عامودها وهي تبكي. وما إن رآته قالت: أخي أبا عبدالله، ما هذه الأرض التي حزن فيها قلبي؟ فقال: نور عيني زينب، هذه الأرض حدّثني عنها جدي رسول الله ﷺ وفيها ألقاه وألقى أُمّي وأبي وأخي الحسن فأجهشت زينب بالبكاء...
- (٥) قال الإمام الحسين لزينب عليها السلام: «لا تشقي عليّ جيباً ولا تخمشي عليّ وجهاً»، (الإرشاد، ج ٢ ص ٩٤). ولكنّ كلام الإمام الحيّ ينسخ كلام الإمام الذي سبقه وقد تركها الإمام زين العابدين عليه السلام تفعل ما تشاء وسكوته إقرار وحجّة.

الفيض الرابع

حركة الممكنات من الفعل والصفة إلى الذات

تتجه حركة جميع الممكنات من دون استثناء من الفعل إلى الصفة ومن الصفة إلى الذات. بمعنى أنه إذا أراد أحد أن يصبح عبداً، عليه أن ينطلق من الفعل باتجاه الصفة، بحيث أن عليه الإتيان بالعبادة^(١) إلى درجة يتحقق فيها بهذا الفعل الصادر عنه ليصبح عبداً^(٢) بعد ذلك.

سأضرب لكم مثلاً لتوضيح هذا المطلوب: إذا أراد أحدهم أن يتحقق بصفة «الكاتب»، عليه أن يقوم بالكتابة أولاً إلى أن يصبح هذا الفعل ناجماً عنه وبعد ذلك يُمنَح صفة الكاتب. فهو لا يكون كاتباً في البداية، بل يصبح كذلك بعد أن يكتب. وعليه، فإن الكتابة فعل والكاتب صفة.

وكذلك فإن العامل صفة والعمل فعل. فمن لا يعمل لا يقال له عامل. ينبغي أن يصدر عنه فعل العمل أولاً حتى يصل إلى صفة العامل.

(١) عن الرضا عليه السلام أنه قال: «العبادة على سبعين وجهاً فتسعة وستون منها في الرضا والتسليم لله عزّ وجلّ ولرسوله ولأولي الأمر صلى الله عليهم»، بحار الأنوار، ج ٢ ص ٢١٢.

(٢) «إن العرفاء ثلثوا القسمة وقالوا: العبادة للعامة، وهو التذلل لله تعالى. والعبودية للخاصة الذين صحّحوا النسبة إليه تعالى بصدق القصد إليه في سلوك طريقه، والعبودية لخاصة الخاصة الذين شهدوا نفوسهم قائمة بالحق في عبودتهم فهم يعبدونه في مقام أحدية الجمع والفرق»، شرح الأسماء أو شرح دعاء الجوشن الكبير، ص ٥٣٩.

الحاجّ صفة، أما الفعل الخاص بها فهو أداء مناسك الحج. فلا يقال للحاج حاجّ حتى يؤدي أعمال الحج. وما إن يؤديها، حتى يتحقق بصفة الحاج. إذًا، ينبغي أولاً صدور الفعل، وبعد ذلك يكون الاتصاف بالصفة.

كما تُنسبُ صفة القاتل لذلك الذي يوصل أحدهم إلى الموت. فقد صدر عنه فعل القتل أولاً، وبعد ذلك حصل على صفة القاتل.

وكذلك الأمر، إذا أراد الإنسان أن يصبح مصلياً، إذ عليه أولاً أن يصلي حتى تُطلق عليه صفة المصلي. فالصلاة فعل والمصلي صفة. وبالتالي، على المرء أولاً أن يمارس العبادة^(١) حتى يتصف بالعبودية^(٢) بعد ذلك. وعندما تتحقق الصفة في شخص ما، تسري حينئذ إلى الذات. فعلى سبيل المثال، يُسمّى أحدهم مؤمناً لأنه اتصف بالإيمان^(٣) ووصلت هذه الصفة إلى ذاته، فتعبير «المؤمن»^(٤) بحد ذاته صفة.

(١) عن الصادق عليه السلام: «ليس العبادة هي السجود والركوع، إنما هي طاعة الرجال، من أطاع المخلوق في معصية الخالق فقد عبده»، بحار الأنوار، ج ٧٢ ص ٩٤.

(٢) ورد عن إمامنا الصادق عليه السلام حين سئل عن حقيقة العبودية أنه قال: «ثلاثة أشياء: أن لا يرى العبد لنفسه في ما حوّله الله إليه ملكاً، لأن العبيد لا يكون لهم ملك، يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله تعالى به، ولا يدبر العبد لنفسه تدبيراً، وجملة اشتغاله في ما أمره الله تعالى به ونهاه عنه... فهذا أول درجة المتقين»، ميزان الحكمة، ج ٣ ص ١٧٩٧.

(٣) عن سماعة قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أخبرني عن الإسلام والإيمان أهما مختلفان؟ فقال: إنّ الإيمان يشارك الإسلام والإسلام لا يشارك الإيمان. فقلت: فصفهما لي. فقال: الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله والتصديق برسول الله ﷺ، به حقنت الدماء وعليه جرت المناكح والمواريث وعلى ظاهره جماعة الناس. والإيمان الهدى وما يثبت في القلوب من صفة الإسلام وما ظهر من العمل به. والإيمان أرفع من الإسلام بدرجة، إنّ الإيمان يشارك الإسلام في الظاهر والإسلام لا يشارك الإيمان في الباطن وإن اجتمعا في القول والصفة»، (الكافي، ج ٢ ص ٢٥). ويقول الرسول الأكرم ﷺ: «إنّ لكلّ شيء حقيقة وما بلغ عبداً حقيقة الإيمان حتى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه»، وسائل الشيعة، ج ١٥ ص ٢٠١ ح ١.

(٤) قال أبو جعفر عليه السلام: «وإنما سُمّي المؤمن مؤمناً لأنه يؤمن على الله فيؤمن أمانه»، =

حركة الذوات المقدسة إلى الصفة والفعل

ولكن وعلى نحو خاص، هناك في عالم الوجود مَنْ ينتقل مِنَ الذوات إلى الصفة ومن الصفة إلى الفعل^(١)، أي أنهم لا يصلّون أولاً حتى ينالوا صفة المصلين، بل هم مصلّون ولذلك يؤدون الصلاة. كما أنهم مؤمنون من البداية^(٢)، ثم يصدر عنهم، بعد ذلك، فعل الإيمان.

فالذوات المقدسة لرسول الله ﷺ لا يسري عليها الشّكل الذي ذُكر أولاً، إذ لم تصدر عنه ﷺ الأفعال العبادية في البداية لتظهر فيه بعد ذلك الصفات الإنسانية ويصبح عبداً لله، بل إنه تحلّى أولاً بصفة الإيمان وبعد ذلك صدر منه فعل الإيمان^(٣).

لم يصل رسول الله ﷺ بـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى كمال التوحيد، إنما كان موحّداً بنفسه. ورسول الله ﷺ كان مدركاً بذاته لحقيقة التوحيد وبعد ذلك كان موحّداً بالصفة ثم قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ * ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. كان عارفاً^(٤) بالله أولاً وبعد ذلك صدر منه هذا الكلام. ولكن الآخرين ليسوا على هذه الشاكلة، إذ إنهم لا يصيرون موحّدين إلا إذا تمكّنوا من إيجاد طريق التوحيد بواسطة هذه الآية الكريمة. وهنا يتضح الفرق الأساسي بين هذه الذوات النورانية وبقية الممكنات في عالم الوجود^(٥).

= (المحاسن، ج ١ ص ١٨٥ ح ١٩٣)، إذأ، المؤمن يؤمن الأمان فكيف لو كان هذا المؤمن المولى صاحب الزمان عجل الله فرجه والذي بحدّ ذاته هو الأمن والأمان ومن دخل ولايته كان آمناً؟

(١) هذا هو مقام العبد بخلاف العابد الذي ينتقل من الفعل إلى الصفة ومنها إلى الذات.

(٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، سورة الأنبياء، آية ١.

(٣) ورد عن رسول الله ﷺ: «كنتُ نبياً وأدم بين الماء والطين»، بحار الأنوار، ج ١٨ ص ٢٧٨.

(٤) العارف هو العارف بالله وأسمائه وصفاته، أي آل الله، ولكنّه عند الناس هو مَنْ يعرف شؤونهم وعيوبهم.

(٥) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «كلّ موحّدي العالم من=

ولكن، إلى أي حدّ يمكن للإنسان أن يصل إذا تمكن من تحقيق الفعلية التامة ثم اتّصل بالصفة؟ لا يمكنه أن يصل إلا إلى أدنى مرتبة من المراتب الوجودية لهذه الذوات المقدسة ﷺ. ومع ذلك، يبقى هناك حدّ، إذ ليس بمقدور ذلك الإنسان تحقيق الانضمام إلى تلك المرتبة. فعلى سبيل المثال، إن سلمان الفارسي، عليه رحمة الله، هو أول مؤمن وهو يحوز على الدرجة العاشرة من الإيمان^(١). ولكن، مهما كان المقام الذي يصل إليه سلمان، فهو يبقى ما دون عالم التنزّل الفعليّ الخاص بأهل البيت ﷺ، إذ تصطدم روحه، في أقصى علوّها ورقيّها، بأدنى مرتبة من المراتب التنزيّلية^(٢) لوجود تلك الذوات المقدسة،

=الأصحاب والموالين والأنبياء والأولياء يبدأون المسير من ذواتهم إلى النقطة التي يتصلون فيها معهم ﷺ، وأمّا هم ﷺ فيتنزّلون من مقامهم الشامخ حتّى يحققوا لمواليهم ولشيعتهم هذا الإتصال وليندرجوا تحت ذواتهم». وفي موضع آخر يقول دام ظلّه: «إنّ الله موجودات قد تعلّق حبّه وإرادته بها، فشاء على إثر هذه الإرادة أن يوصلهم إلى تمام المعرفة وكمالها فخلطهم معنا، وأمّا نحن فإنّما ننال ما ننال من النعم والفضل ببركة وجودهم، فكلّ الفيض الذي نناله هو من رشحات وجودهم في هذا العالم».

(١) قال أبو عبد الله ﷺ: «الإيمان عشر درجات، فالمقداد في الثامنة، وأبو ذر في التاسعة، وسلمان في العاشرة»، (بحار الأنوار، ج ٢٢ ص ٣٤١). «حقيقة الإيمان عبارة عن تسليم العبد جميع ما أنعمه الله إلى من يجب الإيمان به... ولو قتله أو أخذ جميع أمواله أو أمر بقتل أولاده أو فرق بينه وبين عياله»، الشمس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ١٦٧ - ١٦٨.

(٢) من خطبة لأمير المؤمنين ﷺ تُعرف بالشفقية: «يَنَحْدِرُ عَنِّي السَّيْلُ»، (شرح نهج البلاغة، ج ١ ص ١٥١)، أي أنّ الوجود وسَيْلَه بكلّ ما فيه صدر منه وانحدر عنه. «إعلم إنّ الله جلّ جلاله لم يزل متفرداً، ولم يكن مخلوق ولا زمان ولا مكان، فلما ابتداءً بخلق أفضل المخلوقات واشتق من نوره نور عليّ وفاطمة والحسن والحسين ﷺ، جعل لهم محالاً متعددة وعوالم مختلفة، كما يظهر من مجموع الروايات المعتمدة. فمنها: قبل خلق العرش ومنها: قبل خلق آدم ومنها: بعده ﷺ. أنواراً تارة، وأشباح نور تارة، وظلالاً تارة وأنواراً في الجنة تارة، وعمود نور أُقْذِف في ظهر آدم ﷺ تارة، وفي أصابع يده أخرى وفي جبينه تارة، وفي جبين كل جدّ من الأجداد من آدم ﷺ إلى والد النبي ﷺ عبد الله بن عبد المطلب، وفي جبين كل جدة عند الحمل ممن هو في ترائبها من حواء إلى أم النبي آمنة بنت وهب ﷺ. ثم إن لنورهم محالاً متعددة قدام العرش، وفوق=

فتصبح جارتها^(١) وقرينتها. وإن أحداً من موحدَي العالم لم يتمكّن من أن يصل إلى غبار نعالهم، حتى يكون بإمكانه الوصول إليهم^(٢) ﷺ.

هذا هو معنى المضيي من الفعل إلى الصفة ومن الصفة إلى الذات. والكل كذلك إلا هم. إننا نُمَنَح الصفة بعدما نأتي بالفعل، في حين أن الفعل يصدر عنهم بعد الصفة. عليك أن تنفق من جيبك مرة ومرتين ومئة مرة، حتى يُقال فيك بعد ذلك إنك كريم وسخي^(٣). ولكن الإمام ليس هكذا، فهو كريم وسخي^(٤) ولأنه كذلك، يصدر عنه فعل السخاء. ولذا، فإن كل من ينتقل من الصفة إلى الفعل، تكون صفته، ومن دون شك، متنزلة من الذوات المقدسة ﷺ. ويقول ابن فارض:

شربنا على ذكر الحبيب مُدَامَةً سكرنا بها قبل أن يُخلق الكرم

=العرش وتحت العرش وحول العرش، وفي كل حجاب من الحجب الإثني عشر، وفي البحار وفي السراقات. ولبقائهم في كل محل مدة مخصوصة، فمدة وجودهم قبل خلق العرش أربعمئة وعشرون ألف سنة، وزمان كونهم حول العرش خمسة عشر ألف سنة قبل آدم، وزمان كونهم تحت العرش اثنا عشر ألف سنة قبل آدم ﷺ، (الخصائص الحسينية، ص ٣٣ و٣٤). فقد تنزّل ﷺ من عالم الغيب الأول إلى الغيب الثاني إلى عالم الشهادة. ولضيق فضائه، (أي عالم الشهادة) تنزل فيه من غيبه إلى شهادته كالنهر الجاري وليس دفعة واحدة لعدم تحمّل هذا العالم، وكان الرابط في تلك التنزلات الملائكة التي كانت تأخذ من غيبه إلى شهادته.

(١) «وَشِيعَتُكَ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ مُبَيَّضَةٍ وَجُوهُهُمْ حَوْلِي فِي الْجَنَّةِ وَهُمْ جِيرَانِي»، دعاء التّذبة، مفاتيح الجنان.

(٢) قال النبي ﷺ: «نحن أهل البيت لا يقاس بنا أحد»، (ذخائر العقبى، ص ١٧؛ فردوس الأخبار، ص ٣٧٣). وقال أمير المؤمنين ﷺ: «وَلَا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ»، (شرح نهج البلاغة، ج ١ ص ١٥١)، أي أنه لا يمكن لأيّ طير (ملك، نبي، مؤمن...) مهما ارتقى أن يرقى إليه ويصل إلى مقامه.

(٣) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «ما لم يكن الإنسان بنفسه كريماً لا طريق له إلى الكرم، وما لم يكن بنفسه عفواً لا طريق له إلى العفو، وما لم يكن بنفسه عليمّاً وعلاماً وودوداً لا طريق له إلى العلم والودّ».

(٤) بذاته، وقد ورد في الزيارة الجامعة: «وسجيتكم الكرم»، مفاتيح الجنان.

وهناك شعر لحافظ، يعدّ ترجمة حرفية لهذا الشعر:
 بودم آن روز من از طایفه دُرْدکشان که نه از تَاک نشان بود، نه از تَاک نشان

فتات سفرة أهل البيت عليه السلام

تقول الرواية: «سَبَّحْنَا فَسَبَّحَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَقَدَّسْنَا فَقَدَّسَتِ الْمَلَائِكَةُ»^(١).
 لقد سَبَّحْنَا لأننا نحن حقيقة هذا الكلام ولأننا متصلون بآية ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾^(٢). أما الملائكة، فتعلّمت التسييح منّا. وحين قمنا بتقديس الحق، تعلمت منّا الملائكة التقديس^(٣).

قالت الملائكة للحق المتعال: ﴿أَجْعَلْ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ سُيِّحٌ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنْ أَعْلَمْتُ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾^(٤)، أي إنني أخبر ما لا تخبرونه، والعلم^(٥) عين الذات.

(١) عيون أخبار الرضا، ج ١ ص ٢٦٣.

(٢) سورة الأعلى، آية ١.

(٣) عن الإمام الصادق عليه السلام: «بنا عرف الله، بنا عبد الله، نحن الأدلاء على الله، ولولانا ما عبد الله»، (الكافي، ج ١ ص ١٩٣). كل ما تراه من تسييح وتقديس وعبادة في هذا العالم من الملائكة والأنبياء والأولياء ما هو إلا تسييحهم وتقديسهم وعبادتهم. ولكن ما دام السالك في حجاب، فإنه يرى أن غيرهم الذي يسبح ويقدّس ويهلّل ويعبد. وما كل ذلك إلا ظل وانعكاس تسييحهم وتقديسهم وعبادتهم في الموجودات. فهم ظل الله وما سواهم هو ظلهم (أي ظل الظل)، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾، سورة الفرقان، آية ٤٥.

(٤) سورة البقرة، آية ٣٠.

(٥) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إِنَّ اللَّهَ عِلْمَيْنِ: علم مكنون مخزون لا يعلمه إلا هو، ومن ذلك يكون البداء، وعلم علمه ملائكته ورسله وأنبياءه فنحن نعلمه»، (الكافي، ج ١ ص ١٤٧ ح ٨). وسئل العالم عليه السلام: كيف علم الله؟ قال: «... فبالعلم عِلِمَ الأشياء قبل كونها، وبالمشيئة عَرَفَ صفاتها وحدودها وأنشأها قبل إظهارها، وبالإرادة مَيَّزَ أنفسها في ألوانها وصفاتها، وبالتقدير قَدَّرَ أقواتها وعرف أولها وآخرها، وبالقضاء أَبَانَ للناس أماكنها ودلّهم عليها، وبالامضاء شرح عللها وأبان أمرها وذلك تقدير العزيز العليم»، (الكافي، ج ١ ص ١٤٨ - ١٤٩).

وفي مجال الإتصال بالحقائق، يأتي الروح القدس^(١) في مقدّمة كل الملائكة. ويختلف الروح القدس عن الروح الأمين^(٢). فالروح الأمين هو جبرائيل الذي يتنزل إلى عالم التراب والمادة ويكون أنيساً للأنبياء ومؤسّساً لهم. أما الروح القدس، فليس له تنزل في عالم المادة، بل إنه يكون مع الأنبياء والأولياء في عالم الروح والمعنى. وبالتالي، فإن مقام الروح القدس هو أعلى من مقام الروح الأمين، إذ إن الروح القدس عالمٌ بالأسرار وواصلٌ إلى جميع الحقائق.

ويقول الإمام الحسن العسكري عليه السلام عن الروح القدس المتفرّد بارتباطه بالحقائق: «والروح القدس في جنان الصاقورة ذاق من حدائقنا الباكورة»^(٣).

(١) قال الإمام العسكري عليه السلام: «وروح القدس في جنان الصاقورة ذاق من حدائقنا الباكورة»، (بحار الأنوار، ج ٧٨ ص ٣٧٨). وعن الصادق عليه السلام قال: «إن الله تبارك وتعالى خلق روح القدس فلم يخلق خلقاً أقرب إليه منها وليست بأكرم خلقه إليه فإذا أراد أمراً ألقاه إليه...»، (تفسير الصافي، ج ٤ ص ٢٧٣). وعن علي بن أبي طالب عليه السلام في قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ قال: «هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه لكل وجه منها سبعون ألف لسان لكل لسان منها سبعون ألف لغة يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها يخلق الله تعالى من كل تسبيحة ملكاً يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة»، تفسير الميزان، ج ١٣ ص ٢١٣.

(٢) يقول الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَٰى قَلْبِكَ﴾ (سورة الشعراء، آية ١٩٣). وقد ورد في أدعية الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام، على ما في الصحيفة السجادية، عند صلواته على كل ملك مقرب: «وجبرائيل الأمين على وحيك المطاع في أهل سماواتك، المكين لديك المقرب عندك...».

(٣) (بحار الأنوار، ج ٧٨ ص ٣٣٨). «الطهور الكافوري يعني الطهور (في النسخة الظهور) الدرّة البيضاء في ساحل بحر الرحمة، تلك الدرّة هو عقل الكل موضع القاب رجوعاً في شاطئ نهر الجنة التي هي جنة الله، المختصّة بمكانة الحقيقة المحمدية المعلقة ولها القائمين بمقامه، وهي حديقتهم التي ذاق روح القدس الأعلى في جنان الصاغورة منها الباكورة، وذلك النهر هو النفس الرحماني، ونهر الرحمة الواسعة، وقد يعبر عنه بالآدمية الأولى، لأن النفس بفتح الفاء يظهر ناطقة الإنسان ونطقه... إن تلك الجنة التي هي الحديقة المحمدية، فيها عين يشرب منها عباد الله يفجّرونها تفجيراً، وفي الخبر، أن تلك العين في دار النبي عليه السلام، ومنها يفجر إلى دور الأنبياء والمؤمنين، كل واحد منهم بقدر مكانته ومنزلته من الحضرة المحمدية، فهي عين العيون ومنبع المنابع ومنبع ماء=

فالروح القدس الذي وضعه الله في مقام يفوق مقام جبرائيل، لجهة إدراك الحقائق، والذي هو معلم جبرائيل مذ تعلّم منه الأخير تغريدة الوحي، قد ذاق من ثمار أشجارنا غير الناضجة.

وقد قال رسول الله ﷺ لأmir المؤمنين (عليه السلام): «أنت صاحب شجرة طوبى في الجنة أصلها في دارك وأغصانها في دور شيعتك ومحبيك»^(١).

وتتمتع الملائكة بمنصب لا يتمتع به حتى الروح القدس: «إن الملائكة خدام المؤمنين»^(٢). وقد قال الإمام الصادق (عليه السلام): إن الملائكة لتفرش أجنحتها^(٣) تحت قدمي كل من يجلس لسماع فضائل جدنا أمير المؤمنين (عليه السلام).

الأدب سبيل الإتصال بعالم النور

لا يمكننا إدراك^(٤) هذا الكلام فوراً لأننا لا نعطي المسائل قدرها، ولكن لم

=الحياة الذي يسمّى بالعنصر الأعظم، فافهم»، مقدمة وتعليقات مفاتيح الغيب، ص ٨٨٠ - ٨٨١.

- (١) عيون أخبار الرضا، ج ٢ ص ٣٣ ح ٢.
- (٢) (الكافي، ج ٢ ص ٣٣ ح ٢). وعن رسول الله ﷺ: «فإن الملائكة لخدامنا، وخدام محبين، يا علي...»، إكمال الدين، ج ١ ص ٢٥٤.
- (٣) «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطلبة العلم من شيعتنا»، (الإختصاص، ص ٢٣٤). وإن أفضل العلم وأشرفه، العلم بأسماء الله وصفاته، وعليّ (عليه السلام) هو الاسم الأعظم والأكبر، «اللهم إني أسألك بكتابك المُنزّل وما فيه وفيه اسمك الأكبر وأسمائك الحسنی»، (من أدعية ليالي القدر). فالملائكة تفرش أجنحتها لكل من يجلس في مجالسهم لتطير بهم إلى محفل الأنس. ولكن حذارٍ من تضييع هذا العلم أمام حبّ الدنيا والشهوات، حيث قيل: «دُبِحَ العلمُ في فُرُوجِ النساء».

- (٤) «لقد ذُكِرَتْ سبيلٌ متعدّدة لإدراك الحقائق، وما يرتبط بها، ومنها السبيل الحسّي. فأشار البعض إلى ضرورة توفّر الرؤية لبلوغ الحقيقة والوصول إلى مقامات معنوية وإلهية وربانية عالية، لأنّ الإنسان يُطعّم بالحقيقة عن طريق رؤية الآيات والإشارات والمعالم الإلهية... وقطعاً، ليس المقصود بهذه الرؤية مجرد النظر بواسطة العينين، بل إنّ العين تُستخدم هنا لإعمال القلب الذي هو مرآة صافية ولكن يكسوها الغبار... هناك طريق آخر لإدراك الحقائق وهو السمع. فقد تعرّف الأنبياء على الحقائق عن طريق سماع الوحي. ومن=

لا نقدر على ذلك؟ لأننا عديمو الأدب. أمّا من يتحلّى بالأدب^(١)، فيتمكن من تقدير تلك المسائل. وعندما يفعل ذلك، يعطونه^(٢) المعرفة. وحين يعطونه المعرفة، يصلونه بعالم النور^(٣) فينال التوفيق^(٤) لإدراك هذه الأحاديث.

=خلاله، إرتبطوا بذلك الوحي. ذلك أنّه خلف السماع حقيقة أخرى فليس هو الغاية بحدّ ذاته. ويعدّ اللمس أحد الطرق التي يدرك الإنسان من خلالها الحقائق... وعندما يتشرف الإنسان بزيارة الحرم المطهر للإمام الرضا عليه السلام، تمتدّ يده إلى قفص الضريح لكي تلامسه. فمن خلال ملامسة المادّيات، كالأحجار والحديد، يُدرك الإنسان بعض الحقائق ويرتبط بها... وهناك الكثير من الروايات التي تحتّ المؤمنين على مصافحة بعضهم البعض... وتعدّ حاسة الذوق إحدى الطرائق الحسيّة لإدراك الحقيقة... ويتّسم أهل الذوق بخصائص مميزة، حيث إنهم يُعملون حاسة الذوق لديهم، عن طريق الطعام والشراب، فيجدون سبيلهم نحو الحقيقة... قال الإمام الحسين عليه السلام: «أمّا، إنني أشمّ عندك رائحة طيبة كرائحة جدي». فقد تجاوزَ العينَ والأذنَ وحاسة اللمس، وانتقل إلى حاسة الشمّ التي هي الطريق الأسمى لإدراك الحقيقة والارتباط بها، ذلك لأنّ الشمّ يتحقق من مجرى السيّدة فاطمة عليها السلام. وقد شملت رحمة الله كل شيء في هذا العالم بمحبّة محمد وآل محمد عليهم السلام والارتباط بهم. ويتحقق هذا الارتباط عن طريق الشمّ... تجدر الإشارة إلى أنّ كل ما ذكرناه، من سمع وشمّ ونظر ولمس، يرجع إلى الفطرة الحيّة الطاهرة والنقية، من كتاب «رائحة الوصال»، لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله، بتصرّف.

(١) من كلام للإمام الصادق عليه السلام: «لا يزال المؤمن يورث أهل بيته العلم والأدب الصالح

حتى يدخلهم الجنّة جميعاً»، مستدرك الوسائل، ج ١٢ ص ٢٠١.

(٢) محض تفضيل. ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾، سورة البقرة، آية ٦٣.

(٣) من دعاء لأمير المؤمنين عليه السلام: «إلهي تناهت أبصار الناظرين إليك بسرائر القلوب،

وطالعت أصغى السامعين لك نجيات الصدور، فلم يلق أبصارهم رد دون ما يريدون،

هتكت بينك وبينهم حجب الغفلة، فسكنوا في نورك، وتنفسوا بروحك، فصارت قلوبهم

مغارساً لهيبتك، وأبصارهم ماكِفاً لقدرتك، وقربت أرواحهم من قُدسِكَ، فَجَالَسُوا

اسمَكَ بِوَقَارِ الْمُجَالَسَةِ، وَخُضُوعِ الْمُخَاطَبَةِ»، بحار الأنوار، ج ٩٤ ص ٩٥ - ٩٦.

(٤) عن أبي جعفر الثاني عليه السلام قال: «المؤمن يحتاج إلى ثلاث خصال: توفيق من الله عزّ

وجلّ، وواعظ من نفسه، وقبول ممّن ينصحه»، (مستدرك الوسائل، ج ٨ ص ٣٢٩). وقال

الإمام الصادق عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾، وقوله: ﴿إِنْ يَضُرُّكُمْ اللَّهُ فَلَا

غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾: «إذا فعل العبد ما أمره الله عزّ وجلّ=

ينبغي على الإنسان أن يواظب جيداً على هذه المسألة. فحتى عندما ينظر إلى العلم الأسود الخاص بالإمام الحسين (عليه السلام)، عليه أن يطهر نظره^(١) ويكون غايةً في الأدب. وكذلك، عند استحضار ذكرهم المبارك، يتعين عليه أن يكون طاهراً^(٢). وللطهارة مفهوم خاص هنا، حيث لا يكفي فيها الغسل والوضوء. يقول حافظ:

غسل در اشك زدم، كه اهل طريقت گویند پاك اول وپس ديده بر آن پاك انداز

أعلى درجة للأنبياء

قالوا إن الروح القدس أكل من ثمارهم غير الناضجة، فهو لم يصل إلى ثمرات العنب الناضجة بل أكل من الحصرم فحسب. ومع ذلك، حاز على تلك

=به من الطاعة كان فعله وفقاً لأمر الله عز وجلّ وسمي العبد به موقفاً، وإذا أراد العبد أن يدخل في شيء من معاصي الله فحال الله تبارك وتعالى بينه وبين تلك المعصية فتركها، كان تركه لها بتوفيق الله تعالى ذكره، ومتى خلى بينه وبين تلك المعصية فلم يحل بينه وبينها حتى يرتكبها فقد خذله ولم ينصره ولم يوفقه، بحار الأنوار، ج ٥ ص ١٩٩ - ٢٠٠.

(١) قال رسول الله ﷺ في أمير المؤمنين (عليه السلام): «... ومن نظر إلى كتابة في فضائله غفر الله له الذنوب التي اكتسبها بالنظر». ثم قال رسول الله ﷺ: «النظر إلى علي بن أبي طالب عبادة، وذكره عبادة، ولا يُقبل إيمان عبد إلا بولايته والبراءة من أعدائه»، (أمالي الصدوق، ج ١ ص ٢٠١؛ كشف الغمة، ج ١ ص ١١٢). تطهر أولاً ثم ألقِ بنظرك إلى الحبيب الطاهر.

(٢) بظاهره وباطنه، فيطهر ظاهره بالشرعية وباطنه بالطريقة وذاته بالحقيقة. وقد ورد عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ تَفَكُّرَ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَبْعِينَ سَنَةً»، (نور البراهين، ج ١ ص ٧٩)، فتطهير العقل يكون بالتفكير بالله وأسمائه وصفاته، أي بأهل البيت (عليهم السلام)، لأنهم هم الأسماء الحسنى والصفات العليا. وأما تطهير القلب، فيكون بمحبة وولاية فاطمة الزكية وأولادها المعصومين سلام الله عليهم، إذ ورد في زيارة السيدة الزهراء (عليها السلام) يوم الأحد: «لنبشّر أنفسنا بأننا قد طهرنا بولايتك»، (مفاتيح الجنان)، وولايتها ولاية الله ومحبتها محبة الله.

الأهمية في العالم. إذاً، يجب أن يُطعم الإنسان مادةَ حياةٍ ^(١) معنوية وأن يُنفخ ^(٢) فيه نفخة عيسوية حتى يصبح حياً في عالم الطبيعة، وإلا فالإنسان ميّت ^(٣) في هذا العالم.

لقد قضت مشيئة الله المتعال وإرادته بأن يكون أقصى ما يصل إليه الأنبياء هو مقام معرفتهم بأسماء تلك الذوات المقدسة ﷺ ^(٤). وتلك هي الدرجة الأخيرة

(١) إن خلاصة أسماء الله العلم والقدرة وكلما اشتدّت الحياة (السلام عليك يا عين الحياة) في كائن، اشتدّ علمه وقدرته وبمقدار ما يتخلّص من إنّيته وأنانيته، تتجلى فيه خلاصة أسماء الله، فيظهر علم الله في معارفه وتظهر قدرة الله في صراعه ومعاركه وتبلور فيه الحياة المطلقة لله وتستغرق كل وجوده. ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُنْجَىٰ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة الروم، آية ٥٠)، ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾، سورة الأنعام، آية ١٢٢.

(٢) ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمُ سَجِدِينَ﴾ (سورة ص، آية ٧٢)، من كلام لآية الله السيد أحمد النجفي دام ظله: «لقد خلّق آدم من نفخة واحدة، إلا أنّ «نفخت» هذه لم تدم في آدم، إنما كان وجودها عنائياً فحسب. وحالها كحال الزجاجة عندما توضع في الفرن ثم ينفخ فيها صانع الزجاج فتتخذ شكلاً معيّناً، أي أن تلك النفخة هي التي تمنح الزجاجة قالباً وشكلاً. ولكن حين يتحقق الوجود الخارجي للزجاجة، لا تبقى النفخة دائمة فيها، وبالتالي فإن دور النفخة مقتصر على أن تمنح الزجاجة وجودها ليس إلا».

(٣) من دعاء لأمير المؤمنين ﷺ: «إلهي إنه من لم يشغله الولوع بذكرك، ولم يزوه السفر بقربك، كانت حياته عليه مية وميته عليه حسرة»، (بحار الأنوار، ج ٩٤ ص ٩٥). ﴿أَمُوتُ عِزُّ أَيْخَانٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾، سورة النحل، آية ٢١.

(٤) ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ (سورة البقرة، آية ١٢٤)، من كلام لأمير المؤمنين ﷺ: «وفيكم من يعلم أنني الكلمة التامة، والآية الباقية، والحجة البالغة»، (مدينة المعاجز، ج ١ ص ٥٤٧). وعن أبي عبد الله ﷺ أنه قال: «نحن والله الأسماء الحسنی التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلا بمعرفتنا»، (الكافي، ج ١ ص ١٤٤)، ومن كلام لآية الله السيد أحمد النجفي دام ظله: «قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، (كلّها) هي مثل «لا فرق بينك وبينها»، فهاء الضمير لا ترجع إلى الأشخاص والأعيان بل ترجع إلى الحقائق والمعاني. وأمّا عندما يأتي مقام التشخيص والتعيين فيقول: ﴿فَقَالَ أَنُؤْمِنُ بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، حيث يوجد التشخيص والتعيين»، فالمقصود بالأسماء هم أهل البيت ﷺ.

التي يمكن لأي نبي الوصول إليها، حتى إبراهيم الخليل على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام، الذي يعدّ النبيّ الأشدّ ارتباطاً بمسألة التوحيد، ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾^(١).

ظهور التوحيد في كربلاء

لقد ظهرت حقيقة التوحيد في كربلاء بواسطة الذات المقدسة لسيد الشهداء عليه السلام. وينبغي الالتفات جيداً إلى النقطة الآتية: لم يكن ظهور التوحيد لجميع الأنبياء والأولياء^(٢)، من دون استثناء، ظهوراً تاماً مثلما كان للحسين عليه السلام.

فوالد الحسين العظيم، المولى أمير المؤمنين عليه السلام، هو ثار الله في غيبه، ولكنه لم يظهر بهذا الظهور لأن حقيقة اتصاله الإسمية بالذات هي على شكل لا يسمح له بهكذا ظهور. إلا أن تلك الحقيقة ظهرت عند سيد الشهداء عليه السلام^(٣).

(١) سورة البقرة، آية ١٢٤.

(٢) «اختلاف الأولياء في هذا المقام والمقامات الأخر حسب اختلاف الأسماء المتجلية عليهم، فالوليّ المطلق من ظهر عن حضرة الذات بحسب المقام الجمعيّ والإسم الجامع الأعظم ربّ الأسماء والأعيان، فالولاية الأحمدية الأحديّة الجمعيّة مظهر الإسم الأحديّ الجمعيّ، وسائر الأولياء مظاهر ولايته ومحالّ تجلياته، كما أنّ النبوات كلّها مظاهر نبوته، وكلّ دعوة دعوة إليه، بل دعوته، فكما أنّ لا تجليّ أزلاً وأبداً إلاّ التجليّ بالإسم الأعظم وهو المحيط المطلق الأزليّ الأبديّ كذلك النبوات كلّها مظاهر نبوته لا نبوة ولا ولاية ولا إمامة إلاّ نبوته وولايته وإمامته، وسائر الأسماء رشحات الإسم الأعظم وتجليّاته الجماليّة والجلاليّة وسائر الأعيان رشحات العين الأحديّ وتجليّات نوره الجماليّ والجلاليّ واللطفيّ والقهريّ، فالله تعالى هو الهو المطلق وهو الوليّ المطلق»، تعليقات على شرح فصوص الحكم، ص ٤٠ - ٤١.

(٣) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «الإمام الحسين عليه السلام أوجد التوحيد لشيعته أكثر من كلّ الأئمة عليهم السلام أي أنّ منشأ التوحيد في الإمام الحسين أرفع، ولذلك تجدون حتّى شاربي الخمر من الشيعة محزونين لاطمين على صدورهم يوم عاشوراء، وكذلك أهل المعصيّة من الدرجة الأولى، وهو ناشئ من التوحيد، وهذا يعني أنّ التوحيد الموجود عند الإمام الحسين عليه السلام أرفع ممّا هو عند الأئمة عليهم السلام في مقام الظهور».

وحتى ميثم التمار الذي غرق في عشق أمير المؤمنين عليه السلام وأراد الوصول إلى الطريق اللا محدود، لم يجد سبيلاً إلى غايته سوى سبيل ^(١) الحسين عليه السلام، كما وعده مولاه. وقد كان ميثم يعشق علياً عليه السلام إلى درجة أنه لم يكن قادراً على البقاء من دونه ^(٢)، إلا أن مولاه وعده بأنه سيتصل بالطريق اللا محدود من خلال حسينه عليه السلام.

عبور ميثم والأصحاب عبر طريق الحسين عليه السلام

لقد فدى ميثم الإمام الحسين عليه السلام، فعندما أراد عبيد الله بن زياد لعنه الله أن يأتي إلى الكوفة، علم أنه لن يتمكن من ذلك بوجود ميثم ^(٣) ورشيد ^(٤)

(١) عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام، قال: سألتُه عن هذه الآية في قول الله عز وجل: ﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ (سورة التوبة، آية ٤١)، قال: فقال: «أتدري ما سبيل الله؟ قال: قلت: لا والله، إلا أن أسمع منك. قال: سبيل الله هو علي عليه السلام وذريته. مَنْ قُتِلَ فِي ولايته قُتِلَ فِي سبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْ مَاتَ فِي ولايته مَاتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، معاني الأخبار، ص ١٦٧ ح ١.

(٢) يا قلبي لا تحزن لو حطّم طوفان الفناء صرَحَ وجودك لأن علياً عليه السلام هو ربّان سفيتك.

(٣) قيل: «كان مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يخرج من الجامع بالكوفة فيجلس عند ميثم التمار رضي الله عنه فيحادثه، فيقال: إنه قال له ذات يوم: ألا أبشرك يا ميثم؟ فقال: بماذا يا أمير المؤمنين؟ قال: بأنك تموت مصلوباً، فقال: يا مولاي وأنا على فطرة الإسلام؟ قال: نعم...»، (بحار الأنوار، ج ٤٢ ص ١٢٨). وقد سئل الإمام عليه السلام يوماً عن ميثم فقال: «أين يوجد مثل ميثم، لو كان في الناس أمثال ميثم لكانت السعادة قد غمرت الدنيا جميعاً»، (سلسلة الأعلام، ج ٦ ص ٨٣). كما ورد في سلسلة الأعلام، ج ٦ ص ٨٧: «كان الإمام عليه السلام لا يأنس إلا بهم ولا يستريح إلا عندهم، وخاصة عندما يمر بالسوق ويجلس عند دكان ميثم التمار يحدثه، ويرشده، ويعلمه، ويعظه، وربما يرسله لبعض شأنه فيجلس الإمام عليه السلام مكانه يبيع التمر».

(٤) عن فضيل بن الزبير، قال: «خرج أمير المؤمنين عليه السلام يوماً إلى بستان البرني، ومعه أصحابه، فجلس تحت نخلة ثم أمر بنخلة، فلقطت فأنزل منها رطب فوضع بين أيديهم، قالوا: فقال رشيد الهجري: يا أمير المؤمنين، ما أطيب هذا الرطب! فقال: يا رشيد، أما أنك تصلب على جذعها. فقال رشيد: فكنت أختلف إليها طرفي النهار أسقيها... فجئت يوماً وقد قطع سعفها، قلت: اقترب أجلي، ثم جئت يوماً فجاء العريف فقال: =

وحجر (١).

أخذوا بيد ميثم وأوصلوه إلى طريق الإمام الحسين عليه السلام بعد أن عيل صبره (٢)

=أجب الأمير. فأتيته... فلما دخلت القصر إذا الخشب ملقى، فإذا فيه الزرنوق، فجئت حتى ضربت الزرنوق برجلي ثم قلت: لك غذيت ولي أنبت، ثم أدخلت على عبيد الله بن زياد، فقال: هات من كذب صاحبك. فقلت: والله ما أنا بكذاب ولا هو، ولقد أخبرني أنك تقطع يدي ورجلي ولساني. قال: إذاً والله نكذبه، إقطعوا يده ورجله وأخرجوه. فلما حمل إلى أهله أقبل يحدث الناس بالعظام، وهو يقول: أيها الناس سلوني فإنّ للقوم عندي طلبه لم يقضوها، فدخل رجل على ابن زياد فقال له: ما صنعت؟ قطعت يده ورجله وهو يحدث الناس بالعظام. قال: ردّوه. وقد انتهى إلى بابه، فردّوه فأمر بقطع يديه ورجليه ولسانه وأمر بصلبه»، رجال الكشي، ج ١ ص ٢٩٢ ح ١٣٢.

(١) «لما قَدِمَ حجر عذراء قال: ما هذه القرية؟ فقيل: عذراء. فقال: الحمد لله، أما والله إني لأول مسلم ذكر الله فيها وسجد، وأول مسلم نبج عليه كلابها في سبيل الله، ثم أنا اليوم أحمل إليها مصفداً في الحديد! ثم قال حجر للذي أُمِرَ بقتلهم: دعني أصلي ركعتين خفيفتين، فلما سلم انفتل إلى الناس فقال: لولا أن يقولوا جزع من الموت لأحببت أن يكونا أنفُس مما كانتا وأيم الله لئن لم تكن صلاتي في ما مضى تنفعني ما هاتان بنافعتي شيئاً، ثم أخذ ثوبه فتحزّم به، ثم قال لمن حوله من أصحابه: لا تحلوا قيودي فإني أجمع ومعاوية على هذه المحجة! ثم مشى إليه هدية الأعور بالسيف، فشخص إليه حجر فقال: ألم تقل إنك لم تجزع من الموت؟ فقال: أرى كفناً منشوراً، وقبراً محفوراً، وسيفاً مشهوراً، فما لي لا أجزع! أما والله لئن جزعت لا أقول ما يسخط الرب! فقال له: فابراً من علي وقد أعدّ لك معاوية جميع ما تريد إن فعلت! فقال: ألم أقل إني لا أقول ما يسخط الرب! والله لقد أخبرني حبيبي رسول الله ﷺ بيومي هذا! ثم قال: إن كنت أمرت بقتل ولدي فقدمه، فقدمه فضربت عنقه، فقيل له: تعجلت الثكل! فقال: خفت أن يرى هؤل السيف على عنقي فيرجع عن ولاية علي عليه السلام فلا نجتمع في دار المقامة التي وعدها الله الصابرين!... ثم التفت إلى بقية أصحابه فرأى منهم جزعاً، فقال: قال لي حبيبي رسول الله ﷺ: يا حجر تقتل في محبة علي صبراً، فإذا وصل رأسك إلى الأرض مادت وأنبت عين ماء فتغسل الرأس! فإذا شاهدتم ذلك فكونوا على بصائرکم، وقدم فضربت عنقه فلما وصل رأسه إلى الأرض مادت من تحته وأنبت عين ماء فغسلت الرأس! قال: فجعل أصحابه يتهافتون إلى القتل فقال لهم أصحاب معاوية: يا أصحاب علي، ما أسرعكم إلى القتل! فقالوا: من عرف مستقره سارع إليه»، مختصر أخبار الشعراء، ص ٤٩.

(٢) الإنسان عامّة مأمور بالصبر ولكن في بعض الأحيان، يفقد المرء القدرة على الصبر=

ولم يستطع أن ينتظر^(١) حتى يحين موعد وصوله إلى تلك الحقيقة، ولذلك توجه من الكوفة إلى المدينة. وعندما وصل إلى المدينة، وقبل أن يزور رسول الله ﷺ، ذهب^(٢) لزيارة الحسين عليه السلام^(٣) بالحال التي وصل عليها من

=والانتظار، وهذا هو حال العاشق لإمام زمانه والتائب إلى الاتصال به، ومن أرقى نماذج العشق وما نتج عنه من نفاذ للصبر على فقدان المعشوق وتعرضه للأذى، ما ورد عن مولاتنا السيدة فاطمة عليها السلام حين خاطبت سلمان المحمدي، بعدما خرجت من الدار خلف أمير المؤمنين عليه السلام الذي سَجِب بالقوة من داره، بالقول: «يريدون قتل عليّ ما على عليّ صبر يا سلمان»، (الاختصاص، ص ١٨١؛ تفسير العياشي، ج ٢ ص ٦٦ ح ٧٦). كما قال أمير المؤمنين عليه السلام عند فقده فاطمة سلام الله عليها: «يا عمّار لا تُلْمَنِي فَإِن الصبر عَمَّنْ فَقَدْتُهُ لِعَزِيز»، سلسلة مجمع مصائب أهل البيت عليه السلام، ص ٩٣.

(١) عن رسول الله ﷺ: «أفضل جهاد أُمّتي انتظار الفرج»، (بحار الأنوار، ج ٧٧ ص ١٤٣). وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «انتظروا الفرج ولا تيأسوا من روح الله، فإن أحب الأعمال إلى الله عزّ وجل انتظار الفرج»، (بحار الأنوار، ج ٥٢ ص ١٢٣). وعن الباقر عليه السلام عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل العبادة انتظار الفرج»، (بحار الأنوار، ج ٥٢ ص ١٢٥). وعن محمد بن الفضيل عن الرضا عليه السلام قال: «سألته عن شي من الفرج، فقال: أليس انتظار الفرج من الفرج؟ إن الله عزّ وجل يقول: ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾»، (بحار الأنوار، ج ٥٢ ص ١٢٨). وعن البيهقي قال: قال الرضا عليه السلام: «ما أحسن الصبر وانتظار الفرج! أما سمعت قول الله تعالى: ﴿وَأَرْقَبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ وقوله عزّ وجل: ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾؟ فعليكم بالصبر فإنه إنما يجيء الفرج على اليأس، فقد كان الذين من قبلكم أصبر منكم»، (بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ١٢٩).

(٢) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «حذار أن يكون ذهابك وسيرك نحو نفسك، فقد يذهب شخص من هنا حتّى جمكران للقائه في الظاهر، ولكنه في واقع أمره لم يخرج عن دائرة نفسه». كما يقول دام ظلّه: «إنّ الهجرة نحو الحق لا تكون إلا بوضع النفس جانباً، ومبدأ الشروع في الحركة نحوه يكون من نقطة معينة إلى نقطة أخرى، ولكن لا تنس أن تخرب السّلم الذي عبرت منه إلى تلك النقطة... حتّى لا ترجع مرة أخرى من حيث أتيت، وهذا هو معنى (إياب الخلق إلينا وحسابهم علينا)».

(٣) في رواية عن ابنه حمزة بن ميثم قال: «خرج أبي إلى العمرة فحدثني قال: استأذنت على أم سلمة رحمة الله عليها فضربت بيني وبينها خدراً فقالت لي: أنت ميثم؟ فقلت: أنا ميثم، فقالت: كثيراً ما رأيت الحسين بن علي بن فاطمة يذكرك، قلت: فأين هو؟ قالت: خرج في غنم له أنفأ، قلت: أنا - والله - أكثر ذكره، فأقرئيه السلام فإني مبادر»، (بحار الأنوار، ج ٤٢ ص ١٢٨).

السفر. وفي الماضي، كان يقال إنه لدى وصول الزائر إلى كربلاء، ليس عليه أن يزيل عنه غبار السفر أو أن يغتسل ويتهياً، بل عليه الذهاب للزيارة بالحال التي وصل عليها.

عندما وصل ميثم، دخل إلى منزل أم سلمة وعرفها بنفسه. فتعجبت قائلة: أنت ميثم؟ كان رسول الله ﷺ يختلي أحياناً مع عليّ ﷺ في جوف الليل. وفي بعض الأوقات، كان عليّ يبكي ويئنّ لغربته ووحدته. فكان رسول الله ﷺ يقول: يا علي! تزول غربتك ووحدتك عندما تنظر إلى ميثم ^(١). فمجرد نظرة إليه، تذهب عنك كل الغم الذي يعتري قلبك. ولأنه كان متصلاً بالمحبة التامة، استطاع ميثم أن يؤمن الأنس لمولاه ^(٢) أمير المؤمنين ﷺ.

(١) «... وحج في السنة (التي) قتل فيها فدخل على أم سلمة رضي الله عنها، فقالت: من أنت؟ قال: أنا ميثم، قالت: والله لربما سمعت رسول الله ﷺ يذكرك ويوصي بك علياً في جوف الليل، فسألها عن الحسين ﷺ فقالت: هو في حائط له، قال: أخبريه أنني قد أحببت السلام عليه، ونحن ملتقون عند رب العالمين إن شاء الله، فدعت بطيب وطيب لحيته، وقالت: أما إنها ستخضب بدم فقدم الكوفة فأخذه عبيد الله ابن زياد فأدخل عليه، فقيل له: هذا كان من أثر الناس عند عليّ ﷺ قال: ويحكم هذا الأعجمي؟ قيل له: نعم، قال له عبيد الله: أين ربك؟ قال: بالمرصاد لكل ظالم وأنت أحد الظلمة، قال: إنك على عجمتك لتبلغ الذي تريد. قال: أخبرني ما أخبرك صاحبك أنني فاعل بك، قال: أخبرني أنك تصلبني عاشر عشرة أنا أقصرهم خشبة وأقربهم إلى المطهرة، قال: لنخالفه، قال: كيف تخالفه فوالله ما أخبر إلا عن النبي ﷺ عن جبرائيل عن الله تعالى، فكيف تخالف هؤلاء؟ ولقد عرفت الموضع الذي أصلب فيه وأين هو من الكوفة، وأنا أول خلق الله ألجم في الإسلام. فحبسه وحبس معه المختار بن أبي عبيدة، قال له ميثم: إنك تفلت وتخرج ثائراً بدم الحسين ﷺ فتقتل هذا الذي يقتلنا، فلما دعا عبيد الله بالمختار ليقتله طلع بريد بكتاب يزيد إلى عبيد الله يأمره بتخليفة سبيله، فخلّاه وأمر بميثم أن يُصلب...»، الإرشاد، ص ١٥٢.

(٢) تأتي عدة من شيعة جبل عامل إلى الإمام الصادق ﷺ فيقول لهم: «والله إنني لأحبّ ربحكم ورائحتكم وأرواحكم ورؤيتكم وزيارتكم وإنني لعلّى دين الله ودين ملائكته، فأعينوا على ذلك بورع، أنا في المدينة بمنزلة الشعييرة أتقلقل حتى أرى الرجل منكم فأستريح إليه»، بحار الأنوار، ج ٦١ ص ٢٩.

سأل ميثم أم سلمة عن الحسين عليه السلام، فدلته على مكانه. وعندما التقاه، سأل الحسين عليه السلام: لم العجلة؟ فأجاب ميثم: لم أعد أطيق الانتظار، فعالم المادة والطبيعة صغير وضيق علي^(١). فخاطبه سيد الشهداء عليه السلام قائلاً: إرجع حتى تحظى بذلك الفوز العظيم^(٢). فعاد وكان ذلك البلاء^(٣).

- (١) وضاعت علي الدنيا بما رحبت... عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن القلب إذا صفا، ضاقت به الأرض حتى يسمو»، (أصول الكافي، ج ٢ ص ١٣٠). وقد قال رسول الله ﷺ في وصيته لعلي عليه السلام: «يا علي، إن الدنيا سجن المؤمن»، وسائل الشيعة، ج ١١ ص ٣١٦.
- (٢) ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، (سورة الرعد، آية ٢٢). «إصبر على الداء، فإني مُرسلٌ إليك بالدواء»، حافظ الشيرازي.
- (٣) يقول الله عز وجل في مُحكم كتابه الكريم: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عِبَادًا وَهُوَ الْغَنِيُّ الْغَفُورُ﴾، ﴿وَلِيَبْلُوَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾، ﴿لَتَبْلُوكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾، ﴿وَتَبْلُوكُم بِالنَّارِ وَالْخَيْرِ فَتَنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾، ﴿أَحْسَبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾.

تجري البلاءات على كل إنسان موجود في العالم سواء كان مسلماً أو غير مسلم وموالياً أو غير موالي، حتى أنها تجري على الملحد أيضاً. فالبلاءات عديدة وهي على أنواع ومراتب وتختلف باختلاف مقامات الناس ومنازلهم، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إن البلاء للظالم أدب وللمؤمن امتحان وللأنبياء درجة وللأولياء كرامة»، (بحار الأنوار، ج ٦٤ ص ٢٣٥). فالله يبتلي عباده إما لإخراج التكبر من قلوبهم أو لدفعهم إلى التذلل والاستكانة أو للحصول على عفوه وفضله، إذ يقول مولى الموحدين علي بن أبي طالب عليه السلام: «... ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبد بهم بأنواع المجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره، إخراجاً للتكبر من قلوبهم، وإسكاناً للتذلل في نفوسهم، وليجعل ذلك أبواباً فتحة إلى فضله، وأسباباً دُللاً إلى عفوه»، (نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢). وهناك مقولة عند أهل المعرفة مفادها: البلاء للولاء.

وقد يكون البلاء مادياً أو معنوياً. فهناك بلاء الدنيا وهو بلاء قصير مدته، وبلاء الآخرة وهو بلاء تطول مدته. ويمتحن الإنسان بما حوله من أناسٍ وممتلكات وزملاء وأصدقاء فيخسر ويفقد البعض ويؤذى من قبل البعض ويُهجر من قبل البعض الآخر. كما يمتحن الإنسان بجسده فيصاب بالأمراض والعِلل ويمتحن بنفسه وبالشياطين والجن الذين يُسلطون عليه. وكذلك يمتحن بالمؤمنين والموالين حين يكشف لهم عيوبهم فلا يقبلون منه وينقلبون عليه، ﴿وَلَتَبْلُوكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾. ومن الصعب أن يمتحن الإنسان بوليّه وأستاذه وصولاً لإمام زمانه عليه السلام، =

=ولكنّ الأصعب في ذلك كلّهُ أن يُمتَحَن العبدُ من الله تعالى مباشرةً، لا عبر أيّ واسطة. ورد في الروايات عن أهل البيت عليهم السلام أنهم قالوا: «إن حديثنا أهل البيت صعب مستصعب لا يحتمله إلا ملك مُقَرَّب أو نبيّ مرسل أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان»، (بحار الأنوار، ج ٢ ص ٢١٠). وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أما انه ليس عبد من عباد الله ممن امتحن الله قلبه بالإيمان إلا وهو يجدُ مودّتنا على قلبه فهو يُحبّنا»، (القطرة، ج ١ ص ٨١ ح ٢٦).

سبق وأشرنا أن البلاءات تنزل على كل البشر، ولكن وحده العبد الموالى هو الذي يتعرّض لامتحان الله عزّ وجلّ، حيث أن الله نفسه هو الذي يتصدّى له ويتولّى امتحانه. والامتحان من «المحنة»، لذا يشعر الموالى بأن قلبه في محنة وابتلاء. وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «يا الله يا رحمن يا رحيم، يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك»، (كمال الدين وتمام النعمة، ص ٣٣٣). كما ورد في دعاء يوم الجمعة: «إلهي، ثبتني على دينك ما أحبيتي، ولا تُزغ قلبي بعد إذ هديتني».

وحين يبدأ امتحان الله، يتنحّى كلّ من يحول بين الله وبين عبده الممتحن، من ملائكة وأولياء وغيرهما من الحُجُب التي تفصل بين الله والعبد، حتى لا يبقى إلا ذلك العبد في مواجهة الله عزّ وجلّ، وكأنّما يقول تعالى: خلّوا بيني وبين عبادي وأنا أمتحنه. ومُذ كان كلّ شيء في هذا الوجود مُنصاعاً وخاضعاً ومؤثراً بأمر الله تعالى، بما في ذلك إبليس والجنّ، يُجنّد الله كل شيء لمحاربة ذلك العبد، بحيث يشعر أنه وحيدٌ فريدٌ لا ناصر له ولا مُعين حتى من أمّه وأبيه وأولاده وإخوانه وقرباته، فيكون مصداقاً لقول الإمام عليه السلام في دعاء الحزين: «قد تبرأ جميع الخلق مني نعم وأبي وأمي ومن كان له كدّي وسعيي». وعادةً ما يقف الإنسان في هذا الدعاء عند تبرؤ الأب والأم ولكنه يغفل عن كلمة «الخلق» الواردة في هذه العبارة، وهي التي تشير إلى أن جميع الموجودات من دون استثناء تبرأ منه وتمتنع عن إعانته. فإنّما أن يُسلّم (طوعاً) أو أن يستسلم (مكرهاً)، إذ إن المقاومة تزيد الإمتحان سوءاً. وهنا يفهم قول الإمام الصادق عليه السلام: «... أما في القيامة فكلّكم في الجنة بشفاعَةِ النبي المطاع أو وصي النبي ولكني والله أتخوّف عليكم في البرزخ...»، (الكافي، ج ٣ ص ٢٤٢).

ولكن، ما الذي يجري حتى يتصدّى الله تعالى نفسه لامتحان الموالى؟ حين يجد الله تعالى أنّ هناك عبداً يتقرّب من آل الله ويطلب محبتهم وعشقهم والولاية لهم، يأمر كل الخلق والملائكة الموكّلين بهذا العبد بأن يتنحّوا جانباً، بما فيهم الملائكة التي ترفع أعماله وتسيّحه، فيباشر الله تعالى بنفسه امتحان ذلك الموالى. ومرّد هذا إلى أن الله غيورٌ عليهم ولا يسمح لأيّ كان بالاقتراب والوصول إليهم عليهم السلام. وهذه المرحلة من أصعب ما يمكن للموالى أن يختبره في حياته، إذ إنّّه إلى جانب تبرؤ جميع الخلق =

=منه، سلب الله عقله وقلبه معاً، فأَيّ سلاح يبقى له بعد ذلك لمواجهة الامتحان؟ لقد كان يستخدم عقله لكي يفكر ويفهم ويعقل ما يجري عليه ومن حوله، ويستخدم قلبه لكي يحبّ إمام الزمان ﷺ ويشعر به ويناجيه ويتوسّل به وإليه. ولكن بعد سلب عقله وقلبه، يصبح عاجزاً عن التفكير والفهم، ويفقد القدرة على حبّ أهل البيت وإمام زمانه، علماً أنه مأمور بحبّهم ﷺ، فأَيّ حيلة تبقى لديه؟ وقد ورد في زيارة السيدة فاطمة المعصومة ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تَخْتِمَ لِي بِالسَّعَادَةِ فَلَا تَسْلُبْ مِنِّي مَا أَنَا فِيهِ» (من نعمائك)، (بحار الأنوار، ج ٩٩ ص ٢٦٥ - ٢٦٦).

إن الله تعالى غيور على أهل البيت ﷺ ممّن هو غيرهم وليس منهم. فإذا كان هذا المُمتحن من غيرهم، سيهرب ولن يثبت. أمّا إذا كان منهم، فيبقى ويثبت. فالله لا يرضى الاقتراب من أهل البيت إلا لمن كان من طينتهم، فتكون المواجهة، ليمتحن الله قلب الموالي ويظهر حقيقته. فإن كان منهم، لن يروم عنهم بدلاً، وإن كان من غيرهم وليس من طينتهم، لن يستطيع صبراً وسرعان ما سيلتجئ إلى ذلك الغير ويتركهم هارباً. وفي الحقيقة، يكشف العبد المُمتحن، في نهاية المطاف، أن الله تعالى إنّما سلب عقله وقلبه ليمنحه عقله وقلبه هو، فيعقل ويحبّ أهل البيت عليهم كما ينبغي له ذلك، إذ يصبح مُبصراً بعين الله، كقول الشاعر: «أعزني مقلتيك أنظر بهما...»، وسامعاً بأذن الله وناطقاً بلسان الله، فيصل إلى خلاصة التوحيد، «... فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها»، (الكافي، ج ٢ ص ٣٥٢).

وبالتالي، إن الله تعالى إذا سلّبنا شيئاً، فهو إنّما يريد أن يمنحنا الأفضل والأعلى رتبةً منه، كمثّل الطفل الرضيع عندما يحين موعد فطامه. فهو يُفطم لمصلحة وفائدة تعود إليه، ولكنه لا يرى في الفطام إلا الحرمان والسلب فيقاومه ويرفضه بكل الوسائل. وهذا هو حال السالك عندما يُفطم عن أمرٍ ما في عالم الولاية، إذ يسخط على الله ظناً منه أنه يسلبه ويحرمه نعمه، ولا يرى أن فائدة ما قد تكون غابت أو غيّبت عنه.

ولذا، على الموالي أن يضع في اعتباره أنه لعلّ الله، في يوم من الأيام، سيُسلبه كلّ ما يملك ويُبعد عنه كلّ من يحبّ، حتى يتحقّق التوجّه المطلق وكمال الإنقطاع إليه عزّ وجلّ، وهذا ما لا يحصل إلا بجفاء جميع المخلوقين، حيث ورد في الحديث القدسي: «أخفيتُ رضاي في جفاء المخلوق، فمن كان يريد رضاي فليتحمل من الآخرين جفاءهم»، (مستدرک الوسائل، ج ١١ ص ٢٨٩). ولا شك أنّ من أشدّ اللحظات صعوبة أن تجد نفسك في مواجهة الله مع عدم إيجاد من تستعين أو تستغيث به، فكما قال السيّد أحمد النجفي - حفظه العليّ الأعلى - يوماً لأحد العبيد الموالين: إذا كان البلاء من الله، لا يخرجك منه إلا الله.

=وقد قال سيّد الشهداء ﷺ: «وكلّ حيّ سالك سبيلي»، فعلى كلّ موالٍ حسينيّ متصلٍ بالحسين حقيقةً، الاستغناء عن الكل. فالإمام الحسين ﷺ استغنى عن كل شيءٍ وأحدٍ حتى عن أبي الفضل ﷺ نفسه. وأبو الفضل بدوره استغنى وتخلّى عن عينيّه ويديه ورجليه... فلا بدّ من الإستغناء ليتحقّق كمال الانقطاع إليه ويحصل الموالي على الحياة الحقيقية، حيث يروى أنّه جاء قومٌ إلى أحد الأولياء ليقتلوه، فقال لهم: «أقتلوني أقتلوني، فإن في قتلي حياة»، ولن تحصل الحياة إلا بعد التزّيّل.

يقول الله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، وكلمة تزَيَّلُوا في اللغة تعني: تميّزوا، وكما قال جلّ وعلا في كتابه العزيز الكريم: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾. ف«تزَيَّلُوا» تعني أن يخرج المؤمنون من أصلاب الكافرين بشكل كامل، والكافرون من أصلاب المؤمنين، بحيث لا يخرج بعد ذلك مؤمن من صلب كافر ولا كافر من صلب مؤمن، فعندها تكون قد طهرت الطينة وتزَيَّلَت ولم يعد هناك اختلاط فيها، وعندها يظهر الإمام ويخرج. والظهور كما هو معلوم ظهوران: ظهور عام وظهور خاص، لزم بالتالي أن يكون هناك تزَيِّلٌ خاص كما يوجد تزَيِّلٌ عام، وهذا التزَيِّل المقصود هو الباطني، أي التزَيِّل في مراتب وجود الإنسان كلها، فالقلب والعقل والنفس والحواس كلها يجب أن تُصدّق بالحقيقة، إذ ربما يكون القلب مُصدّقاً بالحقيقة أمّا العقل فغير مُصدّق بها وكذا النفس، فمن الممكن أن تعمل الحواس بخلاف ما يريده القلب، وهذا يكون بسبب اختلاط طينة الإنسان. وعلى سبيل المثال، عندما يرى أحدنا أنّه تارةً يحبّ الوليّ وتارةً أخرى لا، فهذا منشؤه أنّه لم يَظْهَر بعد، ولم يحصل التزَيِّل في وجوده إلى الآن ولذلك يكون هناك صراع داخلة.

وهذا من الأسباب التي تجعل الموالي ممتحناً من الله عزّ وجلّ حتى يميز الخبيث من الطيّب في باطنه ويثبت قلبه ولا يكون فيه مرض ولا يتزلزل عند أيّ طارئ، حيث يقول الله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾. وكما أن كلام الله جلّ جلاله فيه مُحكم ومُتشابه، فكذلك هو كلام المعصوم والعارف الكامل. فقد يتحدّث المعصوم أو الوليّ بكلام، ليُخرج به المرض من قلوب الذين في قلوبهم مرض، ويُظهر الطهارة في قلوب الطاهرين، وأمّا مَنْ ليس في قلبه مرض، فكأنّه لم يرَ ولم يسمع شيئاً، فلا يتزلزل مقدار شعرة واحدة ممّا يراه أو يسمعه، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ (سورة البقرة، آية ٢٦). وهناك الكثير من الروايات التي لا يمكن لأيّ كان تحمّلها عن ظهور الإمام ﷺ، كالروايات التي تتحدّث عمّا يقوم به من هدم للمسجد الحرام وقتل للعرب وتحويل القبلة إلى كربلاء وتوريث الأخ في الولاية لا في التّسب وما إلى ذلك. وكذلك ثمة روايات متباينة ظاهراً يرويها نفس الإمام المعصوم كما فعل=

عشقبازی وسلامت طلبی عین خطاست عاشقی شیوه ی زندان بلاکش باشد

كل من يدعو الناس لاتباعه في المسائل المعنوية الخالصة، يلجأ إلى قطع الوعود لهم، إلا سيّد الشهداء (عليه السلام). فهو الوحيد في العالم الذي قال لأصحابه: «من كان فينا باذلاً مهجته وموطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا»^(١).

هنا تُقطع الرؤوس وتُسفك الدماء، لن يبقى أحد منكم حتى يحصل على أيّ مكسب. فمن هو حاضر لبذل دماء قلبه، فليأت معنا وإلا لن نستطيع مرافقتنا. لم يتكلم الحسين (عليه السلام) عن الدماء فحسب، بل تكلم عن المهجة التي هي دماء

=الإمام الصادق (عليه السلام) حين كان يُسأل عن الإمام من بعده، حيث كان يقول إن الإمام بعده هو ولده إسماعيل، وهي رواياتٌ صحيحة، ولكنه في آخر حياته كان يجيب مَنْ يسأله بأن موسى الكاظم (عليه السلام) هو الإمام الذي سيّليه. وفي ما يلي بعض الأمثلة على هذه المسألة:

قال محمد بن مسلم: «قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): ما بال أقوام يروّون عن فلان وفلان عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) لا يهتمون بالكذب فيجيبني منكم خلافة؟ فقال (عليه السلام): إنّ الحديث يُنسخ كما يُنسخ القرآن»، (وسائل الشيعة، ج ٢٧ ص ١٠٨).

قال منصور بن حازم قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): «ما بالي أسألك عن مسألة فتجيبني فيها بالجواب ثم يجيئك غيري فتجيبه فيها بجواب آخر؟ فقال: إنا نجيب الناس على الزيادة والنقصان. قال: قلت، فأخبرني عن أصحاب رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله) صدقوا على محمد (صلى الله عليه وآله) أم كذبوا؟ قال: بل صدقوا. قلت: فما بالهم اختلفوا؟ قال: أما تعلم أنّ الرجل كان يأتي رسول الله (صلى الله عليه وآله) فيسأله عن المسألة فيجيبه فيها بالجواب ثم يجيبه بعد ذلك ما ينسخ ذلك الجواب، فنسخت الأحاديث بعضها بعضاً»، (الكافي، ج ١ ص ٦٥).

عن محمد بن اسحاق بن عمار عمّن حدّثه من أصحابنا، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: جاء رجل فلمّا نظر إليه أبو عبد الله (عليه السلام) قال: «أما والله لأضلّنه أما والله لأوهمّنه فجلس الرجل، فسأله مسألة فأفتاه، فلمّا خرج قال أبو عبد الله (عليه السلام): لقد أفتيته بالضلالة التي لا هداية فيها، ثم إنّ الرجل جاء إلى أبي الحسن (عليه السلام) فلمّا نظر إليه أبو الحسن (عليه السلام) قال: أما والله لأضلّنه بحق فسأله الرجل عن تلك المسألة بعينها، فأفتاه فقال الرجل: هيهاث هيهاث لقد سألت عنها أباك فأفتاني بغير هذا وما يجب عليّ أن أدع قوله أبداً. فلمّا خرج، قال أبو الحسن (عليه السلام): أما والله لقد أفتيته بالهداية التي لا ضلالة فيها»، (مختصر البصائر، ص ٢٧١).

(١) الملهوف، ص ١٢٦.

القلب، فهو قد ربط الدماء بالقلب. وبذل دماء القلب خاص بأصحاب الإمام الحسين^(١) عليه السلام.

علي صاحب لواء الحمد والشفاعة المطلقة

يقول رسول الله ﷺ عن صاحب مقام الانتقال من الذات إلى الصفة ومن الصفة إلى الفعل: لا تسبوا علياً فإنه «ممسوس في ذات الله»^(٢)، ذلك لأن تكونه وتشخصه وتعيينه ووجوده ليس على شكل ينتقل فيه من الفعل إلى الصفة ومن الصفة إلى الذات. بل هو مستقر في المقام الشامخ للذات.

مقام دلگشايش جمع جمع است جمال جانفزایش شمع جمع است
ولذلك، فهو صاحب لواء الحمد^(٣) والشفاعة

(١) كل من يريد الوصل والوصال (التوحيد) والولاية، عليه أن يسلك سبيله ﷺ ويذل مهجته فيهم، «وكل سالك سبيلي»، «من كان فينا باذلاً مهجته وموطئاً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا». ولكن سالكى هذا السبيل قلة، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أيها الناس، لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلة من يسلكه»، مستدرك الوسائل، ج ١٢ ص ١٩٤.

(٢) حلية الأولياء، ج ١ ص ٦٨.

(٣) قال رسول الله ﷺ: «... علي بن أبي طالب حامل لواء الحمد يوم القيامة...»، (بحار الأنوار، ج ٣٩ ص ٢١٤). كما نُقل في إحدى الروايات أنه: «بيننا النبي ﷺ عنده نفر من أصحابه [وقد مسهم الجوع] فأرسل إلى نسائه فلم يجد عند امرأة منهم شيئاً، فبينما هو كذلك إذ هم بعلي قد أقبل أشعث مغبراً حاملاً على عاتقه قريباً من صاع من تمر قد عمل بيده [فوضعه بين يدي النبي]»، فقال النبي ﷺ: مرحباً بالحامل والمحمول. ثم أجلسه فنفض عن رأسه من التراب ثم قال: مرحباً بأبي تراب...»، (مناقب أمير المؤمنين، ج ٢ ص ٥). ولنعرج قليلاً على مسألة الحمد، إن كل حامد يتوجه في حمده إلى المحمود، والمحمود هو الرسول الخاتم محمد ﷺ، فالتوجه إليه من كلمة «الحمد لله» هو الله الاسم وليس الذات، فالله الاسم هو المحمود. ونذكر على سبيل الإشارة لا التفصيل أن الحمد يقتضي في مراتبه: الحامد والمحمّد والمحمود والمحمّد فضلاً عن الأحمد الذي يمتاز بخصوصية منفردة. ولقد ابتدأ النبي الأكرم ﷺ الوجود بنوره، حيث ورد عنه ﷺ أنه قال: «أول ما خلق الله نوري»، (بحار الأنوار، ج ٥٤ ص ١٧٠ ح ١١٧)، «أول ما خلق الله روعي»، (شرح أصول الكافي، ج ١٢ ص ١١)، «أول ما خلق الله العقل»، (بحار الأنوار، ج ٥٥ ص ٢١٢)، وهو العقل الكلي. فقد أُعطيت =

=الأولى في التكوين والتشريع للخاتم ﷺ ومنه امتدّ الوجود، ولذلك تعلّق الحمد به. وربطاً بالروایتين الأنف ذكرهما، فقد ذكر رسول الله ﷺ في الرواية الأولى أن أمير المؤمنين ﷺ هو حامل لواء الحمد، وفي الثانية خاطبه قائلاً: مرحباً بأبي تراب وبالحامل والمحمول، فمن المسلم به أن الصفتين الأوليين، أي أبي تراب والحامل، ترجعان إلى أمير المؤمنين ﷺ، ولذلك يُستنتج أنّ الصفة الثالثة، وهي المحمول، ترجع إليه أيضاً، وإن كان يبدو بحسب ظاهر الرواية أنها ترجع إلى الثمر، وحتى لو كانت ترجع إلى الثمر فهي ترجع إليه ﷺ لأن الثمر من الثمر وقد ورد في الزيارة السادسة لأمر المؤمنين ﷺ: «السلام على الثمر الجني». وعليه، وطالما يُستفاد من هاتين الروایتين أنّ أمير المؤمنين ﷺ هو الحامل والمحمول، فهذا يعني أنه هو حامل لواء الحمد وهو نفسه لواء الحمد هذا، إذ إنه أعرف الناس بالحمد ومعناه ومبدئه ومنتهاه، بل ما من أحد في الوجود استطاع أن يحمد غيره، وهو نفس رسول الله ﷺ وكلاهما من نور واحد. وبالتالي، فهو الحامل والمحمول، أي الحامد والمحمود. ولا عجب في ذلك، فمثلما كان يتلفظ بآية ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ في سورة الفاتحة، وهو بنفسه الصراط المستقيم، فكذلك هو الحامد والمحمود الذي يتوجّه إليه الحمد. ومن أسماء سورة الفاتحة، الحمد. ومن المعلوم أن الفاتحة متضمنة بالبسملة والبسملة متضمنة بالباء والباء متضمنة في النقطة، وأمير المؤمنين ﷺ هو النقطة تحت الباء، فقد ورد عنه ﷺ: «إعلم أنّ جميع أسرار الكتب السماوية في القرآن، وجميع ما في القرآن في الفاتحة، وجميع ما في الفاتحة في البسملة، وجميع ما في البسملة في باء البسملة، وجميع ما في باء البسملة في النقطة التي تحت الباء»، وقال: «أنا النقطة التي تحت الباء»، (شرح إحقاق الحق، ج ٧ ص ٦٠٨). فإذا كان المقصود بلواء الحمد، لواء سورة الحمد، بوجه من الوجوه، فكذلك أمير المؤمنين هو الحامل والمحمول لأن جميع ما في سورة الحمد فيه هو صلوات الله وسلامه عليه، وهو مظهرها الأتم. ولا بدّ من الإشارة إلى أن الحمد ليس واحداً عندنا وعند تلك الذوات المقدسة، فحمدهم ﷺ يرجع إلى الذات، في حين أن كل الوجود يرجع إلى محمّد وآل محمّد صلوات الله وسلامه عليهم، وبالتالي، يرجع حمّد الموجودات إلى حقيقة تلك الذوات المقدسة. وكذلك الأمر في ما يتعلق بـ«الصراط المستقيم»، فبالنسبة لهم الصراط هو تلك الحقيقة، أما بالنسبة لنا، فالصراط هو أمير المؤمنين ﷺ. وواقع الحال أننا توحدنا في مقام الصفة، أما هم فتوحدوا في مقام الذات. وكلّ يدرك ويفهم وينهل بحسب ولايته ومحبته وبراءته، فقد قال مولانا ومقتدانا زين العابدين ﷺ:

فَرُبَّ جَوْهَرٍ عِلْمٌ لَوْ أَبُوحَ بِهِ لَقِيلَ لِي أَنْتَ مِمَّنْ يَعْبُدُ الْوُثْنَا
وَلَا اسْتَحَلَّ رِجَالٌ مُسْلِمُونَ دَمِي يَرُونَ أَقْبَحَ مَا يَأْتُونَهُ حَسَنًا

المطلقة^(١)، إذ إنه شفيعٌ بتحقيق الاسم والصفة. وهو يمنح إذن^(٢) حقيقة الشفاعة لمن يشاء. وحين يُراد تبيان مسألة التحليق إلى الملكوت والوصول إلى الحق في غير عالم الدنيا، يجري الكلام عمّا يُسمّى بالشفاعة. فالشفيع^(٣) هو من يتصل بالحقيقة في غير عالم الدنيا، أما من يتصل بها في عالم الدنيا فيُسمّى ولياً. إذّا، فهاتان حيثيتان لمعنى واحد وحقيقة واحدة، إحداهما تظهر في الدنيا تحت مُسمّى «الولي» والثانية تظهر في الآخرة تحت مسمّى «الشفيع». والوليّ هو من يستطيع إيصالك إلى الله: «من كنت مولاه، فهذا عليّ مولاه»^(٤). أما ذاك الخارج عن هاتين الحثيتين، أي ليس بوليّ يوصل الآخرين إلى مراتب الإيمان^(٥) أو

(١) عن الرضا عليه السلام: «ولقد سمعت أبي يحدث عن آبائه عن علي عليه السلام أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: يا علي، أنت قسيم الجنة والنار يوم القيامة تقول للنار: هذا لي وهذا لك»، عيون الأخبار، ص ٢٣٩.

(٢) ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (سورة البقرة، آية ٢٥٥)، فهو المظهر الأتم لهذه الآية.

(٣) «الشفيع هو نور اسم الله المكنون في كل نفس من سرّ آل محمد عليه السلام، وإذا سلك العبد إلى ربّ العالمين من طريقه، فلازم ذلك التماس العفو والمغفرة من مظاهره الذين هم آل محمد عليه السلام الذين وكلهم الله لشفاعة الخلق الأولين والآخرين، حتى الأنبياء والمرسلين وغيرهم في القيامة ممّن سلك هذا الطريق في الدنيا، ولذا قال تبارك وتعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾. وفي الكافي عن الصادق عليه السلام قال: «إلا من دان الله بولاية أمير المؤمنين والأئمة عليه السلام من بعده، فهو العهد عند الله»، الشمس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٥٠٣.

(٤) الكافي، ج ١ ص ٢٨٦.

(٥) للإيمان مراتب أَدناها الإقرار باللسان، «وأعلاها تنوّر في القلب ينكشف به حقيقة الأشياء على ما هي عليه فيرى أن الكل من الله وإلى الله واقتدار في الباطن يوصل به إلى مقام «كُن» فيتخطّون في المقامات ويعاينون في أنفسهم الكرامات فيصدّقون، على أتم وجه بالنبوّات والولايات، من دون إثبات المعجزات بالأسانيد والروايات؛ كما قيل: «أخذتم علمكم ميتاً عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت» وهؤلاء هم المؤمنون حقاً. وفيهم: «إنّ المؤمن أعزّ من الكبريت الأحمر» وهم أيضاً على أصناف: فمنهم السابقون المقربون؛ ومنهم، من دونهم بحسب تفاوت سيرهم وسلوكهم فإن السير في الله لا نهاية له وإن كان السير إلى الله متناهياً ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾»، شرح الأسماء أو شرح دعاء الجوشن الكبير، ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

بشفيع يُدخلهم إلى الجنة، وذاك الذي يأخذ كل موجود نبع حياته منه ثم يرجع إليه، فهو «الله»، ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١).

(١) «الإنسان مخلوق لأجل الله ومصنوع لذاته المقدسة وهو المصطفى والمختار من بين الموجودات، وغاية سيره الوصول إلى باب الله والفناء في ذات الله والعكوف على فناء الله ومعاده إلى الله ومن الله وفي الله وبالله كما يقول سبحانه في القرآن: «إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ» وسائر الموجودات بواسطة الإنسان ترجع إلى الحق تعالى بل مرجعها ومعادها إلى الإنسان كما يقول في الزيارة الجامعة المظهرة لنبذة من مقامات الولاية «إياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم». ويقول: «بكم فتح الله وبكم يختم» وفي قول الله تعالى: ﴿إِنَّا إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿ وقوله ﴿إِنَّا إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ في الزيارة الجامعة: «إياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم» سر من أسرار التوحيد وإشارة إلى أن الرجوع إلى الإنسان الكامل هو الرجوع إلى الله لأن الإنسان الكامل فاني مطلق وباقي بقاء الله وليس له من عند نفسه تعيين وإنية وأنانية بل هو نفسه من الأسماء الحسنى وهو الإسم الأعظم»، (الآداب المعنوية للصلاة، ص ٤١٧ - ٤١٨). «إعلم أن الآخذ بالناصية، وهو القائد الذي يقود الدابة المأخوذة بناصيتها على صراط الاستقامة، هو نفس الكل المسماة... بالعلوية العليا... حسب ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أَذُنٍ أَلَكْتَبِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾، وتلك النفس الكلية الإلهية هي القائمة بأنفس الأمم بوجه العام وبأمر الجبل والقل والكل في الكل، ومن خليفة الله تعالى في الآخذ بناصية كل نفس من العالم على صراط مستقيم لاستقامته على صراط الحق والعدل، كما ورد في الحديث العلوي في تفسير هذه الكريمة، وها هنا صار علي المرتضى سيد الأولياء، قسيم الجنة والنار، وهو الوجود الحَقَّاني... يقوم بتقويم كل شيء ويأمر برجوع كل شيء وكل ظل وفيء، وإبرجاع كل أمر إليه سبحانه، فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون، وهو ﴿يَدُ اللَّهِ الْعَلِيَا الْبَاسُطُ﴾، كما ورد في النصوص المعتبرة المصححة المحققة بالبراهين الباهرة، فهو ﴿يَدُ اللَّهِ الْعَلِيَا الْبَاسُطُ﴾ هو النفس الكلية الإلهية القائمة بأخذ ناصية كل شيء من الأنفس العلوية والسفلية الجمادية والنباتية والحيوانية والإنسانية، وهو إمامهم وقائدهم في السير والسلوك والرجوع إلى الله الرحمن، والله تعالى هو الآخذ بناصية تلك النفس الكلية الإلهية الحاكمة القائمة بأمر الجنة بلطفه وقهره، وهما بعينها لطف الله وقهره سبحانه وتعالى من الأشباه والأنداد، وهو ﴿يَدُ اللَّهِ الْعَلِيَا الْبَاسُطُ﴾ نفس صراط العدل والاستقامة بالوجه العام، فافهم وتفهم بفهم نور، لا بوهيم وظلمة وزور»، مقدمة وتعليقات مفاتيح الغيب، ص ٨٣٠ - ٨٣١.

ظهور الله في صحراء نينوى

للإثنية وجود دائم في عالم الدنيا. فعلى سبيل المثال، هنالك إمام ومأموم وولي ومولى عليه. ولكن ثمة ما ظهر في عاشوراء^(١)، فقط لا غير، وهو ظهور الله، الله بمعنى العشق التام^(٢) الذي يجتث الإثنية من جذورها^(٣).

قطره چون متصل به دریا شد تو دگر قطره اش مخوان دریاست
لقد أرجع سيّد الشهداء ﷺ أصحابه إليه فأصبحوا كلهم حقيقة واحدة^(٤)
ومضوا إلى مكان ليس فيه كلام ولا حديث ولا أيّ اسم أو رسم، إذ عاد هؤلاء
الإثنان والسبعون رجلاً إلى تلك الحقيقة^(٥). في البداية، فتح ﷺ أعينهم على
الشفاعة وقال لهم: أنظروا إلى مقاماتكم وأماكنكم في الجنة. فقالوا: أتريد أن
تبعدنا عنك وترسلنا إلى الجنة، يا مولانا؟ لن نرحل عنك إلى أي مكان أبداً.

أما عابس، فوصل حاله إلى حدّ أنه رَقَص رَقَصَ المجانين^(٦) وتوجّه إلى

(١) بها تحقق ظهور لا إله إلا الله، فعلاً وصفةً وذاتاً.

(٢) العشق مُساوٍ للوجود وحقيقته حقيقة الحق الأول وهو الذي مُلئت به السماوات والأرض حتى ظهر «لا إله إلا الله» وملاً أركان كل شيء ولولاه لما كان أرض ولا سماء ولا ملك ولا ملكوت وهو بإطلاقه غيبٌ مطلق لا إسم له ولا رسم ولا خبر عنه ولا أثر. العشق كالوجود لا يُكَنّنه ولا يُحاط فهو منزّه عن إدراك الحسّ والخيال والعقل.

(٣) وهو مقام الوحدة، ويقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «في مقام الوحدة، الأمر على نحو أنّ الواله يجد الله، فتسقط الصفة عنه وتسقط كلّ إضافة ولا تبقى عند ذلك إلا الذات الربوبية وهو الله، ولا يبقى للواله أيّ نقش أو رسم وجودي».

(٤) عن أمير المؤمنين ﷺ: «إنّ الله تعالى شراباً لأوليائه، إذا شربوا سَكروا، وإذا سَكروا طربوا، وإذا طربوا طابوا، وإذا طابوا ذابوا، وإذا ذابوا خلصوا، وإذا خلصوا طلبوا، وإذا طلبوا وجدوا، وإذا وجدوا وصلوا، وإذا وصلوا اتّصلوا، وإذا اتّصلوا لا فرق بينهم وبين حبيهم»، التحفة السنية، ص ٨٦.

(٥) ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۖ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۖ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ۖ﴾ (سورة الفجر، آية ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٠). «السلام عليك يا أبا عبد الله وعلى الأرواح التي حلّت بفنائك»، زيارة عاشوراء، مفاتيح الجنان.

(٦) لطيفة ولائية: لقد أصيب أصحاب الإمام الحسين ﷺ بالجنون وسَكروا بالعشق، =

الميدان، نازعاً عنه لامته وخوذته وحتى قميصه^(١).

=ولكنّ السؤال الذي يطرح نفسه: ماذا رأوا حتى صاروا هكذا وما عادوا يكثرثون إن قتلهم الأعداء أو هم قتلوا؟ أيّ حقيقة تلك التي عرفوها؟ إن الله يحب أن يرى الإمام الحسين ويسمعه ويتكلم معه. وحين عرف الأصحاب ذلك، طلبوا من الإمام الحسين أن يروه ويتكلموا معه ويسمعه مثلما يراه الله ويكلمه ويسمعه. وكما هو معلوم فإنّ الله منزّه عن الأكل والشرب وليس له صاحبة ولا ولد، وهذا كان الشرط لأن يرى بهم ويسمع بهم، أي كان ينبغي أن يتخلّوا عن كل شيء حتى يصبح عين الله وأذن الله ولسان الله. ولهذا، رضي أبو الفضل لعينه أن تُفَقَّ حتى تصبح عين الله، وليدّيه أن تُقَطَّع حتى تصبحا يدي الله وكذلك خلع عابس كل ما يملك وتخلّى عنه. ولكن أين تكمن العظّمة؟ عندما نظر أبو الفضل وكذا بقية الأصحاب بعين الله ورأوا كيف يرى الله الإمام الحسين ﷺ، عرفوا الحسين حقيقةً فجنّوا وسكروا وطاشوا ووردوا في حياض بحر العشق الحسيني. إن الله يحب أن يرى أمير المؤمنين وفاطمة والنبي الأعظم ﷺ ويبكي عليهم من خلال المواليين، وهكذا يتجلى ويظهر الله فيهم، ما يعني أن العين التي تبكي الحسين هي عين الله واليد التي تلمطم عليه هي يد الله، فالله تعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾، وما بكيت إذ بكيت ولكنّ الله بكى، وما لطمت إذ لطمت ولكنّ الله لطم. فيدا أبي الفضل صارتا يدي الله. وهذا هو معنى أنّ الله وملائكته يصلون على النبي، وإلا فإن الذات منزّهة عن كل فعل. وقد ورد في إحدى الروايات أن الله يزور الحسين ﷺ ويجلس على سريره، فيقول الإمام: هذه والله الرّفعة التي ليس فوقها شيء! (صحيفة الأبرار، ح ٩٢)، فماذا يعني هذا الكلام؟

وفي الرواية أنّ الرسول ﷺ كان أوّل من أجاب الله قائلاً «بلى» ولهذا كان هو أفضل الأنبياء وخاتمهم، ولكنّ علام كانت تلك البلى التي أجاب بها؟ كانت لموافقة على كل ما سيجري على الإمام الحسين ﷺ ولم تكن إجابته على الولاية لأنها حاصلة لديه. فالبلى الخاصة بالرسول ﷺ تختلف عن البلى التي أجاب بها بقية الخلائق حيث كانت على الولاية، علماً أنّ إجابة معظم الناس كانت «بلى» في الظاهر، في حين أنهم أسروا في أنفسهم «لا» والإنكار والنفور.

(١) قال الربيع بن تميم الهمداني: «لما رأيت عابساً مقبلاً عرفته، وكنت قد شاهدته في المغازي والحروب، وكان أشجع الناس، فصحت: أيّها الناس، هذا أسد الأسود، هذا ابن شبيب. لا يخرجن إليه أحد منكم. فأخذ عابس ينادي: ألا رجل ألا رجل. فلم يتقدّم إليه أحد. فنادى عمر بن سعد: ويلكم! أرضخوه بالحجارة. فرمي بالحجارة من كلّ جانب، فلما رأى ذلك ألقي درعه ومغفره خلفه، فصيح به: عابس، جنتت؟! قال: =

زير شمشير غمش رقص كنان بايد رفت آن كه شد كشته او نيك سرانجام افتاد

وطالما أن سيّد الشهداء (عليه السلام) هو «قتيل الله»^(١)، فكيف لا يكون كل واحد من أولئك الإثنين والسبعين رجلاً، الفانين كلهم في تلك الحقيقة التي لا حدود لها، «قتلى الله» أيضاً؟ بل إن الواقع كذلك، لأن هذه الحقائق المتكاثرة في الاثنين والسبعين نفرًا قد انفنت في تلك الحقيقة الوجدانية. وإمام العصر (عليه السلام) يقول في زيارة شهداء كربلاء: «بأبي أنتم وأمي»، فلم يقول إمام الزمان (عليه السلام) لبُيرير وحيب بن مظاهر ومسلم بن عوسجة وعابس وبقية شهداء كربلاء: «بأبي أنتم وأمي»^(٢)؟ ذلك لأنه لم تبقَ لهم أية حيثة^(٣). فقد انضموا إلى حقيقة وحدانية، هي الحسين بن علي (عليه السلام)، وقد قادهم (عليه السلام)، في العشق، إلى الفناء^(٤). ولهذا السبب، يقول حضرة

=نعم، حبّ الحسين أجّني. ثم شدّ على الناس، فوالله لقد رأيته يطرد أكثر من مئتين من الناس، ثم إنّهم تعطفوا عليه من حوالبه فقتلوه واحتزوا رأسه، فرأيت رأسه في أيدي الرجال ذوي عدّة هذا يقول: أنا قتلته، وهذا يقول: أنا قتلته. فأتوا عمر بن سعد، فقال: لا تختصموا هذا لم يقتله إنسان واحد، كلّكم قتله. ففرقهم بهذا القول، إِبصار العين، ص ٧٤.

(١) «السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا قَتِيلَ اللَّهِ وَابْنَ قَتِيلِهِ»، الزيارة المطلقة الأولى للإمام الحسين (عليه السلام)، مفاتيح الجنان.

(٢) يقول الإمام الصادق (عليه السلام) في الزيارة التي علّمها لصفوان الجمال: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أولياء الله وأحبّاءه، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَصْفِيَاءَ اللَّهِ وَأَوْدَاءَهُ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَنْصَارَ دِينِ اللَّهِ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَنْصَارَ رَسُولِ اللَّهِ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَنْصَارَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَنْصَارَ فَاطِمَةَ سَيِّدَةِ نَسَاءِ الْعَالَمِينَ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَنْصَارَ أَبِي مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ الزَّكِيِّ النَّاصِحِ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَنْصَارَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ، بِأَبِي أَنْتُمْ وَأُمِّي طَبْتُمْ وَطَابَتِ الْأَرْضُ الَّتِي فِيهَا دُفِنْتُمْ، وَفَزْتُمْ فَوْزاً عَظِيماً، فَيَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَكُمْ فَافُوزَ مَعَكُمْ»، مفاتيح الجنان، زيارة الحسين في يوم عرفة.

(٣) أراقوا كل ما لديهم تحت رجلي الوليّ، فافنوا وجودهم ودخلوا في السّلم كافّة. «السالك في ذلك الوادي (وادي العشق) يجب أن يتخلّى عن كلّ ما يملك... والعاشق يقدّم روحه طواعية تلبيةً لأمر المعشوق»، منطق الطير، ص ١٠٣.

(٤) «إن أردت الوصول للفناء، فعليك أن تخرج من نفسك أولاً وأن تصبح لا شيء في=

بقية الله ﷺ^(١) للإمام الحسين عليه السلام: «بأبي أنتم وأمي» ويشمل الأصحاب أيضاً في هذا الباب. لا وجود للعدد هناك، فالعدد له علاقة بنا فحسب، حيث تحقق الفناء المطلق في أصحاب سيّد الشهداء عليه السلام، فانتقلوا من الذات إلى الصفة ومن الصفة إلى الفعل.

حقيقة الجذبة

لا يمكن لأيّ شيء أن يحقق لنا الجذبة والتوفيق في هذا الباب لأن المسألة متعلقة بالاستغناء التام. فليس الأمر على نحوٍ يدأب فيه الإنسان على الصلاة^(٢) حتى ينظر إليه الإمام أو يعكف على تلاوة القرآن لينال تلك النظرة^(٣). أولم يكن

=ذات الله، وكُنْ ظلاً يضيّع في الشمس، كُنْ لا شيء والله هو العالم بكل شيء»، حافظ الشيرازي.

(١) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «كلّ من وصل ويصل إلى إمام الزمان عَجَلَّ الله تعالى فرجه، فهو قطعاً من مجرى سيد الشهداء عليه السلام، ولا يوجد عندنا غير هذا الطريق».

(٢) قال رسول الله ﷺ: «لا تنظروا إلى كثرة صلاتهم وصومهم وكثرة الحج والمعروف وطنظنتهم بالليل، ولكن انظروا إلى صدق الحديث وأداء الأمانة»، (بحار الأنوار، ج ٧١ ص ٩). وعن أبي عبد الله عليه السلام: «لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده، فإن ذلك شيء اعتاده، فلو تركه استوحش لذلك، ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء أمانته»، (الكافي، ج ٢ ص ١٠٥). فالمناط هو الإخلاص وليس الكثرة. ويقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «وليست حقيقة الولاية ورسمها بالعمل».

(٣) من دعاءٍ لأمير المؤمنين عليه السلام: «والحظني بلحظة من لحظاتك تنور بها قلبي بمعرفتك خاصّة ومعرفة أوليائك إنك على كلّ شيء قدير»، (بحار الأنوار، ج ٩١ ص ٩٦). ويقال إنه عندما سأل أحد الطيور الهدهد: لِمَ فضّلك الله من بيننا وذكرك في محكم كتابه ولم يذكرنا؟ دُلّنا على العمل الذي قمتَ به؟ فقال الهدهد: «أيها الطائر، لقد كان سليمان النبي يديم النظر إلَيَّ في كل أوان، وما حصلت على ذلك بذهب أو فضة، وإنما تتأتى هذه المكانة من نظرة واحدة، وإنّ تتحقق لشخص هذه الطاعة، فكم يحاول إبليس عرقلة تلك الطاعة وإن يقل شخص إن الطاعة غير واجبة، فستحلّ اللعنة عليه كل ساعة، فلا تتخلّ عن الطاعة لحظة واحدة ولا تقم وزناً لما تأمرُك به نفسك من طاعة، فاقضِ العمر كله في طاعة، حتى تحظى من سليمان النبي بنظرة، فإذا أصبحت مقبولاً لدى سليمان، فقد تحظى بأكثر مما أقول»، منطق الطير، ص ٢٤٦.

قَتْلَةُ (١) أمير المؤمنين ﷺ تالين للقرآن (٢)؟

في إحدى المرات، كان يمرّ ميثم برفقة أمير المؤمنين ﷺ في أحد أزقة الكوفة، فلفت انتباهه صوت يرتل القرآن، وقال: مولاي، هنيئاً لصاحب هذا

(١) والقتل باليد واللسان، «قَتَلَ اللَّهُ أُمَّةً قَتَلَتْكُمْ بِالْأَيْدِي وَالْأَلْسُنِ»، ومن مصاديق القتل باللسان كتمّ مقاماتهم ﷺ وتطميسها وتضعيفها.

(٢) عن أبي عبد الله ﷺ أنه قال لأبي حنيفة: «أنت فقيه أهل العراق؟ قال: نعم. قال ﷺ: فبأي شيء تُفتيهم؟ قال: بكتاب الله وسنة نبيه. قال ﷺ: يا أبا حنيفة تعرف كتاب الله حق معرفته، وتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: نعم. قال ﷺ: يا أبا حنيفة لقد ادّعت علماً - ويليكَ - ما جعل الله ذلك إلا عند أهل الكتاب الذين أنزل عليهم، ويليكَ ما هو إلا عند الخاص من ذرية نبينا ﷺ وما ورثك الله تعالى من كتابه حرفاً»، (الوسائل، ج ٢٧ ص ٤٧ ح ٣٣١٧٧). وعن ميسر بَيَّاع الزُّطِّي قال: دخلت على أبي عبد الله ﷺ فقلت له: جُعِلْتُ فداك إن لي جاراً لست أنتبه إلا بصوته إما تالياً كتابه يكرّره ويبكي ويتضرع وإما داعياً فسألت عنه في السر والعلانية فقليل لي إنه مجتنب لجميع المحارم. قال: فقال: يا ميسر، يعرف شيئاً مما أنت عليه؟ قال: قلت: الله أعلم. قال: فحججْتُ من قابل، فسألت عن الرجل فوجده لا يعرف شيئاً من هذا الأمر. فدخلت على أبي عبد الله ﷺ فأخبرته بخبر الرجل. فقال لي مثل ما قال في العام الماضي: يعرف شيئاً مما أنت عليه؟ قلت: لا. قال: يا ميسر، أيّ البقاع أعظم حرمة؟ قال: قلت: الله ورسوله وابن رسوله أعلم. قال: يا ميسر، ما بين الركن والمقام روضة من رياض الجنة وما بين القبر والمنبر روضة من رياض الجنة ولو أن عبداً عمّره الله في ما بين الركن والمقام وفي ما بين القبر والمنبر يعبد ألف عام ثم ذبح على فراشه مظلوماً كما يذبح الكبش الأملح ثم لَقِيَ الله عزّ وجلّ بغير ولايتنا لكان حقيقاً على الله عزّ وجلّ أن يكبه على منخريه في نار جهنم»، (ثواب الأعمال، ص ٢١٠). وما رواه ميسر عن أبي عبد الله ﷺ أنه قال له: «ما تقول يا ميسر فيمن لم يعص الله طرفة عين في أمره ونهيه لكنه ليس منّا ويجعل هذا الأمر في غيرنا؟ قال ميسرة: فقلتُ: وما أقول وأنا بحضرتك يا سيدي؟ فقال: هو بالنار، ثم قال: وما تقول فيمن يدين الله بما تدين وبيراً من أعدائنا لكن به من الذنوب ما بالناس إلا أنه يجتنب الكبائر؟ قال: قلت: وما أقول يا سيدي وأنا في حضرتك؟ فقال: إنه في الجنة وإن الله قد ذكر ذلك في آية من كتابه، فقال: ﴿إِنْ جَعَلْتُمْ كِبَإِ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾، وهو حبّ فرعون وهامان، ﴿نُكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾، وهو حبّ عليّ ﷺ»، (مشارق أنوار اليقين، ص ٢٣٩).

الصوت الذي يرتل القرآن. فأجاب حضرته قائلاً: تعساً له. تعجب ميثم وسأل مولاه: لم ذلك؟ فأجابه الإمام (عليه السلام): صاحب هذا الصوت هو قاتلي^(١).

لا تُحقق حساباتنا تلك الجذبة والاتصال والقابلية التي نصبو إليها. فهناك حقيقة واحدة في العالم تنتقل من الذات إلى الصفة ومن الصفة إلى الفعل. وقد وصل هذا المظهر والمشهد والتحقيق والحقيقة إلى الظهور التام في عاشوراء^(٢). أما بنظرنا نحن، فالقاعدة هي كالاتي: ينبغي أولاً أن يصبح الإنسان مسلماً وشيعياً ثم يؤدي الأعمال العبادية بالفعل ليحصل بعد ذلك على جذبة الإمام فيناديه قائلاً: تعال إلينا! هكذا هي حساباتنا^(٣).

(١) «خرج (أمير المؤمنين (عليه السلام)) ذات ليلة من مسجد الكوفة متوجّهاً إلى داره قد مضى هزيع من الليل ومعه كميل بن زياد - وكان من خيار شيعته ومحبيه - فوصل في الطريق إلى باب رجل يتلو القرآن في ذلك الوقت، ويقرأ قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَتِيلٌ أَأَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ بصوت شجيّ حزين. فاستحسن كميل ذلك في باطنه، وأعجبه حال الرجل من غير أن يقول شيئاً، فالتفت إليه صلوات الله عليه وقال: يا كميل، لا يعجبك طنطنة الرجل إنه من أهل النار، سأنبئك في ما بعد. فتحرّر كميل لمكاشفته له على ما في باطنه، ولشهادته لدخول النار مع كونه في هذا الأمر وتلك الحالة الحسنة ظاهراً في ذلك الوقت، فسكت كميل متعجباً متفكراً في هذا الأمر، ومضى مدة متطاولة إلى أن آل حال الخوارج إلى ما آل، وقاتلهم أمير المؤمنين (عليه السلام)، وكانوا يحفظون القرآن كما أنزل. فالتفت أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى كميل بن زياد وهو واقف بين يديه والسيوف في يده يقطر دماً، ورؤوس أولئك الكفرة الفجرة محلقة على الأرض، فوضع رأس السيوف على رأس من تلك الرؤوس وقال: يا كميل ﴿أَمَّنْ هُوَ قَتِيلٌ أَأَنَاءَ اللَّيْلِ﴾ أي هو ذلك الشخص الذي كان يقرأ في تلك الليلة فأعجبك حاله. فقبل كميل قدميه واستغفر الله»، إرشاد القلوب، ج ٢ ص ٣٦ - ٣٧، وعنه بحار الأنوار، ج ٣٣ ص ٣٣٩ ح ٦٢٠.

(٢) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «يا حسين! أنت المصوّر في هذا العالم ولا مصوّر سواك، وقد صوّرت وجمعت كلّ حقائق التوحيد في يوم عاشوراء: ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾».

(٣) حساباتنا التي جاءت بناءً على تصوّراتنا واعتقاداتنا الخاطئة، إذ يقول الإمام الباقر (عليه السلام): «كلّ ما ميزتموه بأوهامكم في أدق معانيه مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم، ولعل النمل الصغار تتوهم أن الله تعالى زبانيّتين، فإن ذلك كمالها، ويتوهم أن عدمها نقصان=

وصلت قافلة سيّد الشهداء (عليه السلام) إلى إحدى واحات النخيل وكان (عليه السلام) على صهوة جواده. وحينما لم يكن يمتطي جواده، كان يتواجد مع السيدة زينب (عليها السلام) في الهودج نفسه. وهو لم يبتعد عن هودجها أبداً حتى أثناء امتطائه الجواد، إذ كان يدري أن قلبها لا يحتمل الابتعاد عنه. لدى وصوله إلى واحة النخل، وقف (عليه السلام) في مقدمة القافلة التي توقفت خلفه. وكان هناك شاب يعمل في الأرض. فوقف ذلك الشاب حينما وقف الإمام الحسين (عليه السلام). توجه الحسين نحو النخيل فتوجه ذلك الشاب نحو الحسين. ترجل الحسين (عليه السلام) عن جواده، فتقدم الشاب إليه. نظر^(١) الإمام (عليه السلام) إلى عينيه فتبسّم الشاب. «چشم ساقی کار جام وباده کرد».

بعد ذلك، توجه الإمام (عليه السلام) نحو راحلته، أما الشاب فتوجه إلى زوجته وقال لها: وداعاً. سألته: إلى أين؟ فقال لها: لا أدري مَنْ هو ذلك الفارس الذي لم يُبقَ مني شيئاً. فقالت والدته: يا وهب، إنه أول يوم لك في حياتك الجديدة، إلى أين أنت ذاهب؟ فقال: أماء، إني راحل. عندها، قالت له والدته وزوجته: إننا آتيتان معك أيضاً. كان هذا الرجل نصرانياً، فأين الإسلام وأين الصلاة وأين العبادة^(٢)، إذا؟

لقد انتقل من الذات إلى الصفة ومن الصفة إلى الفعل لأنه انفنى في تلك

=لمن لا يتصف بهما، وهذا حال العقلاء في ما يصفون الله تعالى به». (بحار الأنوار، ج ٦٦ ص ٢٩٣). وعن عليّ بن الحسين (عليه السلام): «إنّ دين الله لا يصاب بالعقول الناقصة والآراء الباطلة»، (كمال الدين وتمام النعمة، ص ٣٢٤). وقد ورد في دعاء أبي حمزة الثمالي: «يا منعم يا مفضل، لسنا نتكل في النجاة من عقابك على أعمالنا، بل بفضلك علينا»، مفاتيح الجنان.

(١) «حبيبي بغمزات عينه يضرب قلبي بسهام خفية فيُرديني قتيلاً ولكنّ ابتسامة صغيرة من شفّتيه تحيي قلبي وروحي الميتة وبها أتلافى المئات من البلاءات»، شعر لحافظ لشيرازي.

(٢) «في حضوره، لا وجود لإيمانٍ أو كفر، فعن أيّ جنة وأيّ جهنم وأيّ طاعة وأيّ معصية يتحدّثون؟ إن الحسين (عليه السلام) يضرب قواعد العالم والوجود بعضها ببعض، وطريقه طريق جمع لا طريق تفرقة»، كربلاء الشهود، ص ٧٨.

الحقيقة. وهذه المسألة محصورة بكربلاء وعاشوراء فحسب^(١)، ولا يمكن إيجادها في أي مكان آخر، فهي لا تتطلب أية مقدمات وليس فيها أي وقت أو فواصل زمنية أصلاً.

بهشت عدن اگر خواهی بیا با ما به میخانه
که از پای خمت یکسر به حوض کوثر اندازیم

برق محبة الحسين ﷺ

إن من يسعى إلى أن يحصل على حيثة «يا مميت» وأن يصنع من نفسه قاتلاً، ليس إلا أحد المدّعين الغاصبين لمقام الولي. فالوليّ المقتول هو نفسه قاتل قاتله. وليس الحال أن الإمام الحسين ﷺ قد قتل قتلة كربلاء فحسب، بل إنه قتل العالم بأسره، فبرق محبته الذي سطع قتل الوجود كله، وأصبح الوجود قتيل الحسين ﷺ^(٢).

محَبّ الحسين ﷺ تحت نظر رسول الله ﷺ

قال رسول الله ﷺ: «والله إني أحبّ من أحبّ حسيناً»^(٣). ويقول ﷺ في موضع آخر إنه يحبّ من يحبّ الحسين ﷺ كما يحبّ الحسين نفسه، وهذا مختصّ بسيد الشهداء ﷺ لأن الوحدة التامة^(٤) تتحقق في حبه ﷺ.

وفي يوم من الأيام، كان رسول الله ﷺ ماراً في أحد الأزقة. وفي الأثناء، كان بعض الأولاد يلعبون هناك. توقف ﷺ وتوقف خلفه أصحابه. نظر نظرة طويلة وحدّق جيداً في شيء ما. وفي هذا الوقت، توقف الأولاد عن اللعب

(١) لأنّ بها يُختصر الطريق.

(٢) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾، سورة مريم، آية ٤٠.

(٣) قال رسول الله ﷺ بحق الحسن والحسين ﷺ: «هذان ابناي وابنا ابنتي، اللهم إني أحبهما وأحبّ من يحبّهما»، بحار الأنوار، ج ٤٣ ص ٢٨٠.

(٤) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «ما يُسكن القلب هو الوحدة والتّوحيد وهو أرفع من كلّ ما يُذكر ويُقال».

أيضاً. كان الرسول ﷺ ينظر إلى ولدٍ حافي القدمين ويرتدي لباساً ممزقاً والفقير بادٍ على مظهره. تقدّم الرسول ﷺ إليه بخطوات بطيئة - إفعّلوا الأمر نفسه عندما تذهبون للزيارة وسيروا بخطوات بطيئة - حتى وصل إلى ذلك الولد الذي كان ينظر إليه بدوره، وجلس على التراب. فتعجّب الأصحاب وسألوه عن فعله هذا. فقال لهم: إني في مكان لا ينبغي أن أجلس فيه إلا على التراب.

احتضن الطفل وبدأ يقبله ويبكي. فقال الأصحاب: إنا لم نره يقبل أحداً هكذا إلا الحسن والحسين ﷺ، فمن هو هذا الطفل؟ قال ﷺ: إنكم لا تعلمون أنه في أحد الأيام، كان هذا الطفل يلعب مع الحسين ﷺ، فحلّ الغروب وأراد الحسين أن يرجع إلى البيت. إلا أن هذا الطفل تمسّك به وقال له: لا تذهب، إبقَ قليلاً بعد حتى نلعب معاً. فهذا الطفل عاشق لولدي الحسين ^(١) ﷺ.

وليس الحسين وحده من حفظ رسول الله ﷺ، بل إن محبّ الحسين حفظ الرسول كذلك.

أقول: يا رسول الله، إن كان الكل لا يدري فأنت تدري أن أرواحنا ^(٢) لا تعرف إلا الحسين. من عسانا نريد سواه ^(٣)؟

(١) «إن رسول الله ﷺ كان يوماً مع جماعة من أصحابه في بعض الطريق وإذا هم بصبيان يلعبون في ذلك الطريق. فجلس النبي ﷺ عند صبيّ منهم وجعل يقبل بين عينيه ويلاحظه ثم أقعده في حجره وكان يكثر تقبيله فسُئل عن علة ذلك. فقال النبي الأقدس: إني رأيت هذا الصبي يوماً يلعب مع الحسين ﷺ ورأيت يرفع التراب من تحته ويمسح به وجهه وعينيه فأنا أحبه لحبه لولدي الحسين ﷺ ولقد أخبرني جبرائيل أنه يكون من أنصاره في وقعة كربلاء. وذكر بعض الثقة أن ذلك الطفل كان حبيباً بن مظاهر الذي فدى الحسين ﷺ بنفسه ومهجته»، وسيلة الدارين، ص ١١٩.

(٢) عن رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجتدة فتشام كما تشام الخيل، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف. فلو أنّ مؤمناً جاء إلى مجلس فيه مائة منافق ليس فيهم إلا مؤمن واحد لجاء حتى يجلس إليه»، بحار الأنوار، ج ٥٨ ص ٦٤.

(٣) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «من العجيب أن يذهب المرء إلى بيته ﷺ ويفكر في غيره، فهل هذا إلّا دليل على عدم المروءة وعدم الإنصاف حيث ينظر الإنسان إلى الآخرين على الدوام ولا ينظر إليه ولو لحظة واحدة ولو أناً واحداً؟».

آمالنا^(١) ليست معلقة إلا على أعتابه^(٢). إنك، يا مولانا، تعلم الحقيقة، وإذا لم تقبل محبتنا للحسين، فأَيّ محبة ستقبل إذا؟ أَيّ عشق عساك تقبل غير عشق الحسين ﷺ؟

لقد انتقل ذلك الطفل من الذات إلى الصفة ومن الصفة إلى الفعل^(٣). أمّا نحن، فنعتقد بأنّ على الإنسان أن يعمل بتكليفه وبأن يكون عمله جيداً حتى يُقبل منه^(٤).

صد نكته غير حُسن بيايد كه تا كسى مقبول طبع مردم صاحب نظر شود
سُئل الإمام الصادق ﷺ: ماذا يفعل الإنسان إذا ذهب إلى كربلاء ولم تشمله المغفرة؟ فقال ﷺ: لا يمكن لأحد أن يذهب إلى كربلاء ولا يكون مشمولاً بالمغفرة^(٥).

(١) «إلهي، وإنّ قلبي قد بسط أمله فيك، فأذقه من حلاوة بسطك إياه البلوغ لما أمل، إنك على كلّ شيء قدير»، بحار الأنوار، ج ٩٤ ص ٩٥ - ٩٦.

(٢) «لئن تفرّق الجميع وذهب الكلّ من حولي، سأبقى ملازماً عند أعتاب باب بيتك طيلة أيام حياتي... «إن تراب أعتابك يا أبا عبد الله هو الكحل لعيني، فكيف أمضي إلى جنابك، مولاي أصدير أمرك!»، حافظ الشيرازي.

(٣) لانصهاره ووحدته التامة في سيّد الشهداء ﷺ، صار سيره به ومنه وإليه. وهذا هو مقام المجذوب السالك لا السالك المجذوب.

(٤) ليست حقيقة الولاية ورسمها بالعمل بخلاف الجنة.

(٥) عن الحسن بن موسى الخشاب عن بعض رجاله عن أبي عبد الله سلام الله عليه قال: «من زار قبر الحسين سلام الله عليه جُعِلَتْ ذنوبه جسراً على باب داره، ثم عبّرها كما يُخلف أحدكم الجسر وراءه إذا عبّره»، (من لا يحضره الفقيه، ج ٢ ص ٥٨١ ح ٣١٧٢). وعن معاوية بن وهب، عن أبي عبد الله الإمام جعفر الصادق ﷺ قال: قال لي: «يا معاوية، لا تدع زيارة قبر الحسين ﷺ، فإن من تركه رأى من الحسرة ما يتمنى أن قبره كان عنده. أمّا تحب أن يرى الله شخصك وسوادك في من يدعو له رسول الله ﷺ وعليّ وفاطمة والأئمة ﷺ؟ أمّا تحب أن تكون ممن ينقلب بالمغفرة لما مضى ويغفر له ذنوب سبعين سنة؟ أمّا تحب أن تكون غداً ممن يخرج وليس عليه ذنب يتبع به؟ أمّا تحب أن تكون غداً ممن يصافحه رسول الله ﷺ»، (تهذيب الأحكام، ج ٦ ص ٤٧). كما ورد عن الإمام موسى الكاظم ﷺ: «أدنى ما يُثاب به زائر الحسين ﷺ بشطّ الفُرات إذا عَرَفَ بحقه وحُرّمته وولايته أن يُغفر له ما تقدّم من ذنّبه وما تأخّر»، كامل الزيارات، ص ١٤٩.

الإتصال بعليّ علوّ

لدينا في القرآن نموذج عن الحركة من الذات إلى الصفة ومن الصفة إلى الفعل. فقد كان عيسى النبي ﷺ نائماً في مهده حين تحدّث وقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾^(١) ما الذي صدر عنه؟ وأين بدّر الاتصال منه؟ ومن أين ظهرت الحركة من قبله؟ كان لا يزال في المهد إذ قال ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾، ولم يكن قد صلّى بعد ولا حتى ركعة واحدة في حين أن هناك شروطاً وأفعالاً مطلوبة كي يصبح الإنسان عبداً لله. ولكنّ عيسى النبي ﷺ قال: ﴿ءَاتَنِي الْكِتَابَ﴾ وهذا يدلّ على الاتصال بالذات. فعن أيّ كتاب تحدّث؟

ورد في القرآن الكريم: ﴿يَسْمِ اللَّهَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ * أَلَمْ * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾^(٢) فالكتاب الذي لا ريب فيه هو أمير المؤمنين ﷺ^(٣)، الذي قال: «أنا ذلك الكتاب لا ريب فيه»^(٤).

(١) سورة مريم، آية ٣٠.

(٢) سورة البقرة، آية ١ - ٢.

(٣) قال الإمام الصادق ﷺ: «الكتاب عليّ لا شكّ فيه»، (تفسير القمّي، ج ١ ص ٣٠). «حقيقة الكتاب... عبارة عن الإسم الأعظم فله ثلاثة وسبعون حرفاً، واستأثر الله تعالى بحرف واحد في علم الغيب عنده، لا يعلمه ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل»، (الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٢٢٥). «إنّ الإسم المستأثر أيضاً له أثر في العين إلا أنّ أثره أيضاً مُستأثر، فإنّ للأحديّة الذاتيّة وجهة خاصّة مع كل شيء هو سرّه الوجودي لا يعرفها أحد إلا الله، كما قال تعالى: ﴿مَا مِنْ دَآئَةٍ إِلَّا هُوَ أَخَذُ بِنَاصِيَتِهَا﴾ ﴿وَلِكُلِّ وَجْهٍ هُوَ مُوَلِّهَا﴾ فالوجهة الغيبية لها أثر مُستأثر غيبيّ، تدبّر تعرّف، مصباح الأنس بين المعقول والمشهود، ص ٤٦.

(٤) تفسير أبي محمد الحسن العسكري ﷺ: «لما ناظرت اليهود عليّاً ﷺ في النبوة نادى جمال اليهود: أيتها الجمال اشهدي لمحمد ووصيه، فنطقت جمالهم وثيابهم كلها: «صدقت يا عليّ، إن محمداً رسول الله وإنك يا عليّ حقاً وصيه»، فأمن بعضهم وخزي آخرون فنزل: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (سورة البقرة، آية ١)، الكتاب أمير المؤمنين والمتّقين شيعة»، بحار الأنوار، ج ٤١ ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

يريد عيسى عليه السلام أن يقول: إني عارف^(١) بعلي بن أبي طالب عليه السلام. ولا يقترب أحد مني، فأنا أمتلك قدرة عظيمة لأنني متصل بعلي عليه السلام. ﴿ءَاتَيْنَا الْكِتَابَ﴾، أي إني عارف بالكتاب، فقد أُعْطِيَتْهُ. وذلك الكتاب^(٢) ليس الإنجيل إنما هو علي عليه السلام.

ثم قال: ﴿وَجَعَلْنِي نَبِيًّا﴾، لأن الله أعطاني الكتاب والكتاب هو حقيقة النبأ^(٣).

(١) «العالم هو الذي أطلعه الله تعالى على معرفته، علماً وبياناً وحيّة وبرهاناً بطريق العقل والدلائل العقلية. والعارف هو من أشهد الله تعالى ذاته وصفاته وأفعاله بطريق الكشف، وأطلعه على معرفته بالذوق والوجدان. وفرق كثير بين العالم والعارف بهذا المعنى. وقد عبّر عن (الفرق بين) العلم والمعرفة و(بين) العالم والعارف بعض العارفين بعبارة لطيفة وهي قوله: المعرفة أخص من العلم لأنها تُطلق على معنيين كل منهما نوع من العلم. أحدهما، العلم بأمر باطن يستدلّ عليه بأثر ظاهر، كما توسمت شخصاً فعلمت باطن أمره بعلامة ظاهرة منه. ومن ذلك ما خوطب به رسول الثقلين ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَلَعَرَفْنَاهُمْ بِسِمَتِهِمْ﴾، ولتعرفنهم بلحن القول. وثانيهما، العلم بمشهود سبق به عهد كما رأيت شخصاً (كنت) رأيته قبل ذلك بمدة، فعلمت أنه ذلك المعهود فقلت: عرفته بعد كذا سنة عهدته. فالمعروف على (المعنى) الأول، غائب؛ و(المعروف) على (المعنى) الثاني، شاهد»، المقدمات من كتاب نص النصوص، ص ٣٦٩.

(٢) «لعلّ ألف الفاتحة كناية عن الألف المطلقة المعبر عنها بالنفس الرحماني، وهو ربح الرحمن والعنصر الأعظم الذي يتطور أولاً بأطوار بسائط الحروف، المعبر عنها بالسحاب المرضي في وجه، ثم بأطوار الكلمات التامات المعبر عنها في وجه بالسحاب الثقال، وبالجمله أن تلك الألف المطلقة المسماة في وجه بالحقيقة المحمدية وهي حقيقة حقائق الأشياء ومادة موادها، إنما هي فاتحة الكتاب الكلي الإلهي الذي منها نزل وبها تنزل وإليها ترجع كل آية من آياته وكل حرف من حروفه وكل كلمة من كلماته، وذلك الكتاب الذي هو الكتاب المبين والإمام المبين، المسمّى بالعلوية العليا، المكتوب بالقلم الأعلى، وهو المحمدية البيضاء بشارش أجزائه، وهو شرح تلك الألف المطلقة، ولا يعزب عن حيطه ذلك الكتاب مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وذلك الكتاب هو روحانية قبله العارفين علي أمير المؤمنين عليه السلام»، مقدمة وتعليقات مفاتيح الغيب، ص ٨١٣.

(٣) النبيّ هو الذي يُنبئ بالنبأ ويُنبئ عن أسماء الله وصفاته، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ما لله نبأ أعظم منّي، وما لله آية أكبر منّي، وقد عرض فضلي على=

وبالتالي، فإن عيسى عليه السلام عارفٌ بالنبأ^(١). يقول الله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبِئِ الْعَظِيمِ﴾^(٢)، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «والله أنا النبأ العظيم»^(٣). فالنبي صفة من الذات التي هي النبأ^(٤)، والصفات والأفعال تتحقق دائماً من مصدر الإشتقاق. ولأن عيسى متصل بالنبأ، يقول: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.

بودم آن روز من از طایفه دُرْدكشان كه نه از تاك نشان بود، نه از تاك نشان ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «كنت ولياً وآدم بين الماء والطين»^(٥). كما ورد عنه: «أنا نفخت في آدم»^(٦) حتى صار آدم. وبالمناسبة، يقول السيد ميرزا حبيب الخراساني شعراً جميلاً:

=الأمم الماضية على اختلاف ألسنتها فلم تُقرّ بفضلي»، (تفسير القمي، ج ٢ ص ٤٠١). وعنه عليه السلام أنه قال: «والله إني أنا النبأ العظيم الذي فيّ اختلفتم وعلى ولايتي تنازعتم»، (مناقب ابن شهر آشوب، ج ٣ ص ٧٩)، فكلّ الأنبياء أتوا لِيُنْبِئُوا بولاية علي عليه السلام لأنه الاسم الأعظم الممسوس بالذات. وعن أبي عبد الله عليه السلام: «ما نبئ نبياً قط إلا بمعرفة حقنا وبفضلنا عمّن سوانا»، (بصائر الدرجات، ص ٧٤؛ الكافي، ج ١ ص ٤٣٧). عن الصادق عليه السلام أنه قال: «النبأ العظيم: الولاية»، الكافي ج ١ ص ٤١٨ ح ٣٤.

(١) ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾، سورة مريم، آية ٣٤.

(٢) سورة النبأ، آية ١ - ٢.

(٣) بحار الأنوار، ج ٣٦ ص ٣.

(٤) يقول آية الله السيد أحمد النجفي حفظه الله تعالى شارحاً عبارة «شجرة النبوة» الواردة في الصلوات الشَّعبانيَّة: «النبوة هنا هي بمعنى الإنباء والإخبار عن الحقائق، فهذه الشجرة تُخبر وتُنبي عن كلّ حقائق التوحيد، ولا توجد أيّ شجرة ثمرتها ثمرة التوحيد غير هذه الشجرة. هذه الشجرة مملوءة بالأنباء عن التوحيد، والنبأ هنا هو الوجود المقدس لصاحب الولاية الكلية والمطلقة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب».

(٥) بحر المعارف، ص ٤٥٧.

(٦) ذلك في مقام التعيين والظهور لأن الذات الإلهية منزّهة عن الفعل، كالنفخ وما شاكل، وهي لا يمكن أن تظهر إلا في مجلى الأسماء والصفات ومجراها. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (سورة الحجر، آية ٢٩)، ومن خطبة لأمرير المؤمنين عليه السلام: «أنا أمر الله والروح كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (سورة الإسراء، آية ٨٥)»، مشارق أنوار اليقين، ص ١٧٠ - ١٧٢.

دم مزنی دل که همه دم علی است روح خدا در تن آدم علی است

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ﴾^(۱).

مُحَمَّدٌ



الفيض الخامس

كمال التوحيد

يصل الموحد إلى كمال التوحيد عندما يحقق الاستغراق التام في الاسم والصفة^(١). وما لم يحصل هذا الاستغراق، لا يصل الإنسان إلى كمال التوحيد. وقد ذُكر الكثير من الأمثلة والشواهد في هذا الصدد. وبشكل عام، جرى الحديث عن عدة أصول وطرق تؤدي إلى التوحيد وهي العبادة^(٢)

(١) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «ما لم يقطع الإنسان الطريق إلى التوحيد عن طريق الاسم والصفة، لا يمكنه أن يدرك التوحيد ويطلع عليه، وكذا لو أنّ الموحد لم يلقِ الاسم والصفة فلن يجد طريقاً إلى الوحدة»، فكمال توحيده نفي الصفات عنه.

(٢) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «العبادة هي الحركة من الخلق إلى الخالق، وهي السفر الأوّل من الأسفار الأربعة». والأسفار هي: من الخلق إلى الحق ومن الحق إلى الحق ومن الحق إلى الحق بالحق ومن الحق إلى الحق بالحق إلى الحق أي الرجعة التكوينية. «إنّ السفر الأول من الخلق إلى الحق، المقيد برفع الحجب... ورؤية جمال الحق بظهوره الفعلي الذي هو الحقيقة ظهور الذات في المراتب الأكوان... وبعبارة أخرى، بانكشاف وجه الحق لديه. وأخيرة هذا السفر رؤية جميع الخلق ظهور الحق وآياته. فينتهي السفر الأول، ويأخذ في السفر الثاني. وهو من الحق المقيد إلى الحق المطلق. فيضمحلّ الهويات الوجودية عنده؛ ويستهلك التعيّنات الخلقية بالكلية لديه؛ ويقوم قيامته الكبرى بظهور الوحدة التامة؛ ويتجلّى الحق له بمقام وحدانيته. وعند ذلك لا يرى الأشياء أصلاً، ويفني عن ذاته وصفاته وأفعاله. وفي هذين السفرين لو بقي=

والذكر^(١) وأداء الأعمال الحسنة. ولكن على رأس هذه الطرق، يأتي الطريق الأقل خطورة والأقرب إلى التوحيد وهو طريق المحبة^(٢). وسنبحث في هذه الطرق:

=من الأنانية شيء، يظهر له شيطانه الذي بين جنبيه بالربوبية ويصدر منه «الشطح». والشطحيات كلها من نقصان السالك والسلوك وبقاء الإنية والإنانية. ولذلك بعقيدة أهل السلوك لا بدّ للسالك من معلّم، يرشده إلى طريق السلوك عارفاً كيفياته غير معوج عن طريق الرياضيات الشرعيّة. فإن طرق السلوك الباطني غير محصور وبعده أنفاس الخلائق. ثم إن شملته العناية الإلهية... أرجعته إلى نفسه، فبأخذ في السفر الثالث. وهو في الحق إلى الخلق الحقيقي بالحق. أي من حضرة الأحدية الجمعية إلى حضرة الأعيان الثابتة. وعند ذلك ينكشف له حقائق الأشياء وكمالاتها، وكيفية تدرّجها إلى المقام الأول ووصولها إلى وطنها الأصلي. ولم يكن في هذا السفر نبياً مشرعاً؛ فإنه لم يرجع إلى الخلق في النشأة العينية. ثم، يأخذ في السلوك في السفر الرابع، وهو من الخلق الذي هو الحق. أي من حضرة الأعيان الثابتة إلى الخلق، أي الأعيان الخارجية، بالحق أي بوجوده الحقاني. مشاهداً جمال الحق في الكلّ، عارفاً بمقاماتها التي لها في النشأة العلمية، عالماً بطريقة سلوكها إلى حضرة الأعيان فما فوقها وكيفية وصولها إلى موطنها الأصلي. وفي هذا السفر يشرع ويجعل الأحكام الظاهرة القلبية والباطنية القلبية، ويخبر وينبئ عن الله وصفاته وأسمائه والمعارف الحقّة، على قدر استعداد المستعدين، مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية، آية ١٦٠ - ١٦١.

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا أَوْلِيَاءَ أَمْوَالِكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (سورة التغابن، آية ١٥ - ١٦)، ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (سورة طه، آية ١٤)، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (سورة يس، آية ٦٩). ومن مناجاة لأمير المؤمنين عليه السلام: «وأنقلني من ذكري إلى ذكرك»، (بحار الأنوار، ج ٩٤ ص ٩٤). وعنه عليه السلام: «الذكر نور العقول وحياة النفوس وجلاء الصدور»، (ميزان الحكمة، ج ٣ ص ٤١٧). وعن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير هذه الآية ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (سورة العنكبوت، آية ٤٥) قال: «نحن ذكر الله ونحن أكبر»، الكافي، ج ٢ ص ٥٩٨ ح ١.

(٢) إن حبّ الله متجلّ بالحضرة الحسينية لأنها إسمه ومرآته، وقد جاء في كتاب الله العزيز الحكيم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (سورة البقرة، آية ١٦٥). فعشق الله وحبّه يكونان بعشق أسمائه وصفاته إذ أن المقصود بحبّ الله الإسم لا الذات لأن ذات الحق غير=

=قابلة للمحبة، مثلما أنها غير قابلة للإدراك، وعشق الشيء هو عشق تجلياته. وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حسینٌ مني وأنا من حسين، أحبَّ الله من أحبِّ حسيناً، وأبغض الله من أبغض حسيناً، حسين سبط من الأسباط»، (كامل الزيارات، ص ٣٢؛ إرشاد المفيد، ج ٢ ص ٣٢)، كما قال أبو عبد الله ﷺ: «من أراد الله به الخير قذف في قلبه حبَّ الحسين ﷺ وحبَّ زيارته، ومن أراد الله به السوء قذف الله في قلبه بغض الحسين ﷺ وبغض زيارته»، (وسائل الشيعة، ج ١٤ باب ١٦٤ ص ٤٩٦)، إذاً، فالعلامة الأساسية لمن هم «أشدَّ حباً لله» هي أن يكونوا أشدَّ حباً للحسين بن علي ﷺ. والسؤال الذي يطرح نفسه، ما السبب في أنَّ عشقَ الحسين ﷺ، على وجه الخصوص، هو عشق الله؟ من المعلوم أن الاسم الأعظم هو الاسم الجامع لكل الأسماء والصفات الإلهية و«أول ما ظهر من مظاهر الاسم الأعظم مقام الرحمانية والرحيمية الذاتيتين، وهما من الأسماء الجمالية الشاملة على كل الأسماء؛ ولهذا سبقت رحمته غضبه»، (مصباح الهداية، ص ٢٦)، والمظهر الأتم للرحمانية والرحيمية هو سيّد الشهداء ولهذا تعلّق عشق الله به ﷺ، وبات محبّه محباً لله ومحبوياً من قبل الله تعالى. ولا يظهر الله باسم «الرحمن الرحيم» إلا لخاصّة أوليائه والعباد الخلّص، الذين يسلكون الطريق الثالث الذي هو طريق المحبة والعشق، فليس أيّاً كان بإمكانه أن يسلك هذا المسلك أو أن يعشق الحسين بن علي ﷺ، ﴿إِلَّا مَا رَجَمَ رَجٌّ﴾. ومن اللطيف الإشارة إلى أن «بسم الله الرحمن الرحيم... عدد حروفها تسعة عشر وهو عدد حروف «واحد» وذلك الواحد هو الحسين ﷺ لأنه اسم الله «الرحمن الرحيم».... وإنه اسم الله الدالّ عليه بشهادته وإنه الذي أظهر آثار الربوبية ونشر أعلام الهداية وقد ذكره الله تعالى بعد الحمد (فاتحة الكتاب) لأن ذلك في بيان البيعة الأولى والنداء الأول والخطاب الأول (أي عندما أخذ الله من بني آدم الميثاق وأشهدهم على أنفسهم). يجتمع في حكم تلك السورة (أي الحمد) كل الأئمة. وأما السورة الثانية شرحٌ وبيانٌ وتفصيلٌ للنداء الثاني والخطاب الثاني في أرض كربلاء يوم الجمعة يوم عاشوراء، ولذا كانت سورة البقرة التي دُبّحت لإحياء الميت والبقرة خلّقت من زعفران الجنة، وهي حاملة أحد أركان العرش... والحروف المقطعة فيها إشارة إلى عدد أصحاب الحسين ﷺ المستشهدين بين يديه يوم عاشوراء... (آل)، فالألف واحد، واللام ثلاثون والميم أربعون وذلك واحد وسبعون، فيكون معه ﷺ اثنان وسبعون وهو عدد الاسم الأعظم الذي عند الأئمة ﷺ. وكل واحد من هؤلاء الأكابر يحكمون اسماً من تلك الأسماء والحسين هو أعظم الأسماء العظام»، (أسرار الشهادة، ص ٩٤ - ٩٧). من جهة أخرى، «إن الله سبحانه وتعالى لما أقام الخلق في عالم الذر (عالم الأظلة والأشباح) وسألهم أأست بربكم؟ كان أول من أجاب رسول الله ﷺ، فظهر من نور إجابته نور شعشاني، أضاء أهل العالم كلاً، كالصبح =

=الطالع المشرق بنور الشمس على كل الذرات، بحيث انمحقت الظلمات ثم أنكر المنكر الأول في مقابلة تلك الأنوار، في كمال العناد، فظهرت من إنكار اللعين الظلمة، أظلمت ذلك العالم، بحيث سرت تلك الظلمة في كل الذرات، في كل المقامات، كالليل الذي يغشى النهار. ولما كان إبقاء هذه الظلمة يُفسد البنية ويخلّ بالنظام ويورث عدم إيصال التكليف، وكان رفعها بالمرّة ومحوها بالكلية مورثاً للأمر الثاني أي: الإلجاء في (إلى) التكليف، لعدم الداعي للشرّ وعدم تمكن العبد منه، لأن الشرّ له أصل وينبوع، إذا انعدم بالمرّة انعدم وإذا انفصل انفصل. فلم يتم النضج التام لأهل العالم، كما أن النهار لو كان مستمراً دون الليل لفسدت الأشياء، ولو كان الليل كذلك، كان كذلك. فوجب إثبات الأمرين، ولا يكون ذلك إلا بتمكين الظلمة من تأثيرها وإظهار النور لإثبات بيان اجتثاثها وانقطاعها، ليظهر من هذا المزج لون كلون الفجر الصادق الأول، الظاهر بالشفق، ليعقب ذلك ظهور الشمس المضئية الماحية لكل تلك الظلمات الكاشفة لكل تلك الغشاوات. ولما كان الله سبحانه وتعالى أجرى فعله وخلقه على مقتضى الأسباب وكان هذا الأمر الكلي للعالم الكلي لا يتم إلا بالأصل الكلي، كان لا يصلح لهذا الأمر إلا محمّد وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام. فنادى منادي الحق سبحانه بلسان الكينونة فيهم عليهم السلام: من الذي يرفع هذه الظلمة، ويردّ هذه الليلة الظلماء والطغياء العمياء إلى الفجر الصادق، على وجه لا يكون فيه إلجاء واضطرار للمكلفين، بل على وجه الخضوع والخشوع والصبر على الشدّة وعَضّ النواجذ على عظيم المحنة؟ فلبّى الحسين عليه السلام دونهم ذلك النداء، وقبل تلك الدعوة فسمّاه الوحي الإلهي للعناية الأزلية سيّد الشهداء. وإنما لبّى الحسين عليه السلام دون غيره، لأنه مبدأ التفصيل الثاني للفيض الكلي الإجمالي الأولي، فيجب أن يكون ظهوره بالاستيلاء وبغيره مقدماً ولذا كان أول من يرجع في الرجعة، فافهم»، (رؤى حول الأسرار الحسينية، ص ٧٥). إذًا، فالحسين عليه السلام فدى كلّ العالم ليزيح عنه الظلمة ويُعيد إليه النور، ومن هنا، فهو قد دخل في وجودنا ووجود كل الأشياء من بشرٍ وحجر، فصار عشقه أقرب إلينا من أيّ عشق آخر. ولقد بكى كل الوجود على الحسين عليه السلام، فأقيمت له المآتم في عليين ولطمت عليه الحور العين وبكت السماء وسكانها وكل شيء دخل في الوجود وأقرّ بالمعبود، حيث ورد في زيارة سيد الشهداء عليه السلام: «أشهد أنّ دمك سكن في الخلد واقشعرت له أظلة العرش»، أي أنّ دماؤه تركت أثرها على العالم العلوي والسفلي. فقد تأثرت الأشياء كلها وتألمت وبكت واضطربت. والإمام الحسين عليه السلام فتح لنا الطريق في كربلاء لنيل رضا الله، حيث خطّ بدمه منهاجاً وصراطاً لشيعته، بدأ منذ ما قبل يوم عاشوراء ويمتدّ أثره ليصل إلى يوم القيامة. فرسم لأهل التوحيد توحيدهم ولأهل العشق عشقهم ولأهل العبادة عبوديتهم ولسان حاله يخاطبهم قائلاً: إن أردتم الوصال «فها هنا محطّ رحالنا وها هنا مناخ=

العبادة

تُعتبر الصلاة^(١) أبرز العبادات^(٢). فحين يقف المصلي في مقامه العبادي، عليه أن يُحقق الاستغراق حتى يدرك التوحيد. أما إذا تَمَّت الصلاة على نحو لم توقّر فيه للمصلي التوجّه الكامل ولم يتحصّل له الاستغراق، عندها لا يصل إلى مقام إدراك التوحيد. ولذلك قالوا: «الصلاة معراج المؤمن»^(٣).

=ركابنا»، و«كلّ سالك سبيلي»، فلا طريق لكم للوصول إلى الله والتحقّق بأسمائه وصفاته ومعرفته والعبودية له إلا إذا سلكتُم مسلّكي وسبيلي. وبالتالي، اختصر لنا سيّد الشهداء الطريق بركبلاء التي هي أسرع الطرق إلى الله وأقربها منه، فهي أرض العشق والحبّ.

(١) إن الصلاة هي صورة الإسم الأعظم فالقيام لتجلي أسماء الأفعال والركوع لتجلي أسماء الصفات والسجود لتجلي أسماء الذات، ولذلك إذا قُبِلت قُبِل ما سواها، وإذا رُدّت رُدّ ما سواها، فالوقوف والركوع والسجود، مظاهر لأسماء الفعلية، والصفائية، والذاتية. والصلاة هي معراج المؤمن لِتُحَقِّق السالك بالإسم الأعظم، إذ قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «أنا صلاة المؤمن»، (فضائل ابن شاذان، ص ٨٣). وهذا يعني أن أحداً لا يصلي سوى المؤمنين والمرتبطين بالإسم الأعظم، وغير المؤمن لا صلاة له. فعندما نبدأ بالصلاة نتوجّه نحو القبلة في الظاهر أما في الباطن فعلينا التوجّه إلى الإسم الأعظم ليتحقّق لنا الوصال بالله، حيث قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ (سورة قريش، آية ٣) ولذا، فالتوجه الباطني للرّب وليس للبيت، وهذا الرّب هو الإسم الأعظم. وعندها يتحقّق اتصالنا بالله تعالى في باطن الباطن، «من أراد الله بدأ بكم ومن قصده توجّه إليكم»، فهم الفانون في الله تعالى، الذين ليس لهم إسم ولا رسم ولا إنية ولا أناية في قبال وجوده تبارك وتعالى.

(٢) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ تمام العبادات هي رمز التوحيد، وأمّا المعصية فهي مانعة عن التوحيد، فعندما لا يطيع الإنسان مولاه وأمره، يكون منفصلاً عنه في حالة المعصية».

(٣) (مستدرك سفينة البحار، ج ٦ ص ٣١٧)، فعليّ (عليه السلام) هو معراج المؤمن الذي به يعرج إلى الله. وقد عرج الله بنبيّه الأعظم (عليه السلام) لبريّه من آياته الكبرى، وأمير المؤمنين يقول: «ما الله آية أكبر منّي»، تفسير القمي، ج ٢ ص ٤٠١.

خاصية الصلاة

لقد ذُكرت في القرآن صفة وخاصية هذه الصلاة: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(١)، فحين يتصل أحدهم بهذه العبادة الخاصة التي هي الصلاة، تترك فيه أثرها المتمثل بالانتهاء عن كل أشكال الفحشاء والمنكر. فكيف إذا نصلي^(٢) لعشرين وأربعين وخمسين سنة ومع ذلك لا نزال نكذب ونغتاب؟ ألم يبين القرآن أن الصلاة تنهى الإنسان العامل عن الفحشاء والمنكر؟

لا شك مطلقاً في قدرة الصلاة على النهي^(٣) عن الفحشاء والمنكر، إذ لا يمكن الخدش في هذا المطلب أبداً، بل علينا أن نبحث عن العيب في أنفسنا. نحن لم نصل، أي إننا لم نوذ تلك الصلاة التي تحدث عنها القرآن ولم تتوفر في صلواتنا الخاصة التي ذكرها القرآن الكريم عن الصلاة^(٤). وقد تكلم الحق

(١) سورة العنكبوت، آية ٤٥.

(٢) ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾، سورة الأنفال، آية ٣٥.

(٣) «حقيقة النهي هي الظلمة التي سرّ أعدائهم الذي مظاهره في عالم الملكات والأفعال الفحشاء والمنكر وغيرها من المعاصي»، الشמוש الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٢٤٣.

(٤) ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (سورة البقرة، آية ٢٣٨)، «... والصلاة الوسطى هي صلاة المغرب ظاهراً، وفي وقت أدائها تفتح أبواب السماء، ويجب التعجيل بها لقوله ﷺ: «عجلوا بالمغرب». وأما في الباطن والرمز، فهي فاطمة الزهراء ﷺ، لأن الصلوات الخمس بالحقيقة هم السادة الخمسة الذين إذا لم يُعرفوا ولم يُذكرُوا، فلا صلاة، فالظهر: رسول الله ﷺ، ومن ثم بدا النور، «أول ما خلق الله نوره»، «أول ما خلق الله اللوح»، «أول ما خلق الله القلم»، فالعقل نور محمد ﷺ، واللوح والقلم علي وفاطمة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلَ الْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾. وفريضة العصر: أمير المؤمنين ﷺ. والمغرب: الزهراء، أمرهم الله تعالى بالمحافظة على حبها وحب عترتها، فصغروا قدرها، وحقروا عظيم أمرها، لما غربت عنها شمس النبوة، وحبها الفرض وتمازى الفرض وقبول الفرض، لأن النبي ﷺ حصر رضاه في رضاها فقال: «والله يا فاطمة لا يرضى الله حتى ترضي، ولا أرضى حتى ترضي»، (شواهد التنزيل، ج ١ ص ١٧٠). ومعنى هذا الرمز أن فاطمة ﷺ ينبوع الأسرار وشمس العصمة، ومقر الحكمة، لأنها بضعة النبي ﷺ وحبوبة الولي، ومعدن السرّ الإلهي، فمن غضبت =

المتعال عن تلك الخاصية على نحو مُحكم في كتابه العزيز إذ قال: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾. وبالتالي، تُبعد الصلاة عن مؤدّيها والمتصل بها كل الرذائل. إذاً، فصلاتنا ليست بصلاة. لم ذلك؟ لأنها تفتقد الخاصية المذكورة وكذلك فإن الاستغراق لا يتحقق فيها. أما إذا تحقق الاستغراق والتوجّه التام إلى المعبود، فلا بدّ للصلاة أن تترك أثراً. وخلاصة القول إننا لم نصلّ على هذا النحو ولا حتى مرة واحدة، فلو صلّينا هكذا، لكانت صلاتنا قد تركت ذلك الأثر علينا^(١).

لماذا لم نصلّ بهذا الشكل؟ لأن أساس توحيدنا معوجّ ولا نعرف من أين أتى أمر الصلاة ولا من أمرنا^(٢) بتأديتها. لم نفهم ذلك الأمر الكامن في عبارة «صلّ» أو «صلّوا» أو «أقيموا الصلاة» وإلا لكُنّا حصلنا على الأثر. فالعبادة تحقق الاستغراق التام وتمنح المصلي التوحيد الكامل، وهذا المعنى نفسه لحديث «الصلاة معراج المؤمن».

معراج النبي الأكرم ﷺ

ما هو المعراج؟ لتتعلّم من رسول الله ﷺ:

لقد أوصل الحق المتعال الذات المقدسة لرسول الله ﷺ، ذلك الموجود الملكوتي المختار والمصطفى، إلى كمال التوحيد. فذات رسول الله ﷺ هي^(٣)

=عليه أم الأبرار، فقد غضب عليه نبيه ووليه، ومن غضب عليه النبي والولي، فهو الشقي كل الشقي. وصلاة العشاء: الحسن ﷺ، حيث احتجب عنه نور النبي والولي، والصبح: الحسين ﷺ لأنه بذل نفسه في مرضاة الله تعالى، حتى أخرج نور الحق في دجنة الباطل، ولولاه لعمّ الظلام إلى يوم القيامة»، مشارق أنوار اليقين، ص ٣٢ - ٣٣.

(١) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «عندما تصلّي صلاتك، فهي لأجل أن تدرك أنك لست شيئاً، فعندما تقول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فهو لأجل أن لا تلجأ إلى نفسك ولا تعتمد عليها».

(٢) «إنّ الطاعة للإمام ﷺ ليس مجرد موافقة العمل لقوله ﷺ، وإلا كان كل فاعل مطيعاً لمن رضي بفعله، وهو خلاف الضرورة، بل الطاعة عبارة عن العمل بأوامره، بعنوان أنّه ﷺ أمر به»، الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٥٥٠.

(٣) «وَصَلَّ اللَّهُمَّ عَلَى مَبْدَأِ الظُّهُورِ وَغَايَتِهِ، وَصُورَةِ أَصْلِ النُّورِ وَمَادَّتِهِ الْهَيُولَى الْأُولَى=

ذاتٌ باحثة عن الله تعالى وطالبةٌ له ومتصلة بجميع الصفات الربوبية والإلهية، فكل الصفات مخفية في وجوده المقدس^(١). ولكن المُرَاد الآن هو ظهور هذا، أي تحقق رسم التوحيد في عالم الصورة^(٢) أيضاً.

لم يتحقق المعراج لأحد من الأنبياء قبل رسول الله ﷺ، وقد بين القرآن هذا المعراج بقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْإِنشَاءِ﴾^(٣) وكذلك بآية: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ﴾^(٤)

=والبرزخ الكبير [كذا]، الذي دنا فرفض التعيّنات فتدلى فكان قَاب قَوْسِي الوجود، وتَمَام دائرة الغيب والشهود، أو أدنى الذي هو مقامُ العَمَاء، بل لا مقامَ هنا على الرّأي الأسنى، وعلى آله مفاتيح الظهور ومصابيح النور، بل نورٌ على نور، غصن الشجرة المباركة الزيتونة، والسدرة المنتهى، وأصلهما، وجنس الكون الجامع والحقيقة الكلية، وفصلهما، لا سيما خاتم الولاية المحمدية، ومقبض فيوضات الأحمديّة (إشارة إلى مولانا صاحب الأمر أرواحنا لتراب مقدمه الفداء)، الذي يظهر بالربوبية بعد ما ظهر أبائهم ﷺ بالعبودية، فإن العبودية جوهرة كُنْهها الربوبية، خليفة الله في الملك والملكوت، وإمام أئمة قُطان الجبروت، جامع أحديّة الأسماء الإلهية، ومظهر تجليات الأوليّة والآخريّة، الحجة الغائب المنتظر، ونتيجة من سلف وعبر، أرواحنا له الفداء وجعلنا الله من أنصاره»، من إجازة السيّد روح الله الخميني الفلسفيّة للميرزا جواد الهمدانيّ عام ١٣٥٤ هجريّ قمريّ، صحيفة نور، ج ١ ص ٤ - ٥ - ٦، والنص في الأصل بالعربية.

- (١) مولاي يا أبا الزهراء، إنّ هذا الوجود بكل ما فيه ليس سوى أعتاب جلالك وجمالك.
- (٢) عن الإمام الصادق عليه السلام: «وإن غاب المولى عن أبصار خلقه فهم المحجوبون بالغيبة الممتحنون بالصورة»، الهداية الكبرى، الباب ٤ ص ٢٧٧.
- (٣) سورة الإسراء، آية ١.

- (٤) «مرتبة القاب هي التجلي الثاني للحقيقة المحمدية، ومرتبة أو أدنى هي التجلي الأول للحقيقة المحمدية، وعالم سدره المنتهى هو نفس تلك الحقيقة. وعالم الحيرة الذي هو أول تجلي الحق وآخر عوالم الممكن الذي قال محمد صلى الله عليه وآله وسلم عند وصوله ذلك العالم: ربّ زدني فيك تحييراً»، (الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٤٣). «مرتبة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم فوق تمام المراتب وليس فوقها مرتبة إلا مرتبة الربوبية فهذه المرتبة هي إنّيته وحقيقته، وكتابه، وبيته الذي أسكنه الله تعالى فيه»، الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٤٦.

قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿١﴾ ، وهو معراج ﴿٢﴾ اختصَّ به الحق تعالى خاتم أنبيائه محمد المصطفى ﷺ. ولا شك في أن رواية المعراج متقنة ولا غبار عليها أبداً كما أنها مُحكمة ومتمينة للغاية من حيث علم الحديث والدراية بالروايات.

في مشهد المعراج، أوصل رسول الله ﷺ إلى مقام ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ ﴿٣﴾ ، حيث التقى بعلي بن أبي طالب ﴿٤﴾ ﷺ.

(١) سورة النجم، آية ٨ - ٩.

(٢) ورد عن الإمام الصادق ﷺ في مقام حديثه عن معراج رسول الله ﷺ : «ثم أوحى الله عز وجل: اقرأ يا محمد نسبة ربك تبارك وتعالى: الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد... ثم أوحى الله إليه: اقرأ: إنا أنزلناه، فإنها نسبتك، ونسبة أهل بيتك إلى يوم القيامة»، (جامع أحاديث الشيعة، ج ٥ ص ١٠ - ١١). وإن القاسم المشترك بين سورة التوحيد والقدر هو ال(هو): ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ «أنزلنا (هو)» فالليلة فاطمة ﷺ ، ومقام «الهو» أنزل في ليلة القدر وأول تنزل له «الله» وثاني تنزل «الأحد» ثم «الصمد» ثم.... «إنا أنزلنا (هو)»، وال(هو) إشارة الى الحقيقة الغيبية النازلة في البنية المحمدية التي هي حقيقة ليلة القدر. وليلة القدر هي الخلافة، «هذه الخلافة هي روح الخلافة المحمدية وربها وأصلها ومبدؤها، منها بدأ اصل الخلافة في العوالم كلها»، (مصباح الهداية، مصباح ٢٧ ص ٤٥) وهذه الخلافة هي من أعظم الشؤون الإلهية وأكرم مقامات الربوبية، وهي حقيقة الولاية ورب الولاية العلوية التي هي متحدة مع حقيقة الخلافة المحمدية.

(٣) «قد أخبر الحق تعالى عن مقام صاحب شريعتنا بقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَدَلَّى﴾ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿١﴾ وأخبر هو ﷺ عن مقامه بقوله: «لي مع الله»، الحديث. بل الثابت بالبرهان العقلي والدليل النقلي أن مقامه أعلى المقامات ومرتبته بعد الحق في أقصى النهايات. كما قال: «بُعِثْتُ لأتمم مكارم الأخلاق»، بل هو المعطي لكل ذي مقام مقامه بأمر الله، والموصل إلى كل ذي حق حقه بإذن الحق المطلق كما قال ﷺ: آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة»، شرح الأسماء أو شرح دعاء الجوشن الكبير، ص ١٨٩.

(٤) العلي الأعلى تعيناً هو الاسم الأعظم وظهوراً هو المولى علي ﷺ. عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي إلى السماء دنوت من ربي عز وجل حتى كان بيني وبينه قاب قوسين أو أدنى فقال: يا محمد، من تحب من الخلق؟ قلت: يا رب علياً، قال: إلتفت يا محمد، فالتفت عن يساري فإذا علي بن أبي طالب»، (بحار الأنوار، ج ١٨ ص ٤٠٦). وله في كل مقام ظهور وتجلي وتعين، وذلك الذي نزل إلى عالم الدنيا هو علي وليس العلي الأعلى، ولا يعلم أحد كيف هو وما هو في ذاك المقام الشامخ إلا =

الله در آن میان کجا بود، گر بود علی به پرده اندر
گفت از پی حلّ این معما، کافی نبود هزار دفتر
لیکن کنمت ز بیتی آگاه، زین سر نفهته مسر
در مذهب عارفان آگاه، الله علی، علی است الله
فالكلام؛ كلام^(١) أمير المؤمنين عليه السلام، والتجلي؛ تجلّي أمير المؤمنين عليه السلام،

=هو. وعن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله وقد سُئِلَ بأيّ لغة خاطبك ربّك ليلة المعراج؟ فقال: «خاطبني بلغة عليّ بن أبي طالب عليه السلام وألهمني أن قلت: ياربّ، أخاطبتي أنت أم عليّ؟ فقال: يا محمّد، أنا شيء لا كالأشياء، ولا أقالس بالناس، ولا أوصف بالشبهات. خلقتك من نوري، وخلقْتُ عليّاً من نورك، واطّلت على سرائر قلبك، فلم أجد في قلبك أحبّ إليك من عليّ بن أبي طالب، فخاطبتك بلسانه، كيما يطمئنّ قلبك»، المناقب المرتضوية، ص ١٠٤؛ بحار الأنوار، ج ١٨ ص ٣٨٦؛ كشف الغمة، ج ١ ص ١٠٣.

(١) «إن الكلام عبارة عن تعيّن الهواء الخارج من باطن الإنسان بالسير في منازل المخارج والعبور على مراحل السرّ إلى الخارج والظهور من عالم الغيب إلى الشهادة، الكاشف عما في ضمير المتكلم وسره وعن بطون مقصده وأمره. فإنشاء المتكلم للكلام وإيجاده له وإنزاله من عالم الغيب إلى الشهادة ومن سماء السرّ إلى العلن لتعلق الحبّ الذاتي بإبراز كمالاته الباطنة وإظهار ملكاته الكامنة. فقبل التكلم والإنشاء كانت كمالاته في مرتبة الخفاء، فأحبّ إظهارها وعشق إعلانها، فأوجد وأنشأ لكي يُعرَف قدره وشأنه. وأنت إذا كنتَ ذا قلبٍ منورٍ بالأنوار الإلهية وذا روح مستضيء بالأشعة الروحانية، وأضاء زيت قلبك ولو لم تمسسه نار التعاليم الخارجية، وكنتَ مستكفياً بالنور الباطني الذي يسعى بين يديك لانكشاف لك سرّ الكتاب الإلهي، بشرط الطهارة اللازمة في مسّ الكتاب الإلهي، ولعرفتَ في مرآة المثل الأعلى والآية الكبرى حقيقة الكلام الإلهي وغاية تكلمه تعالى، وإن مراتب الوجود وعوالم الغيب والشهود كلام إلهي خارج بالهواء الذي هو المرتبة العمائية من مرتبة الهوية الغيبية، نازل من سماء الإلهية للحبّ الذاتي لإظهار كماله والتجلي بأسمائه وصفاته لكي يُعرَف شأنه. كما في الحديث القدسي: «كنتُ كنزاً مخفياً فأحببتُ أن أُعرَف، فخلقتُ الخلق لكي أُعرَف». وعن عليّ عليه الصلاة والسلام: «لقد تجلّى الله لعباده في كلامه ولكن لا يبصرون». وعنه عليه السلام: «إنّما يقول لما أراد كونه: كن فيكون، لا بصوت يُقرع ولا بنداء يُسمع وإنّما كلامه سبحانه فعله». وقال أهل المعرفة: تكلمه عبارة عن تجلي الحق الحاصل من تعلّق الإرادة والقدرة بإظهار ما في الغيب وإيجاده»، شرح دعاء السحر، ص ٥٥ - ٥٦.

والعلامة؛ علامة أمير المؤمنين عليه السلام. ولكن بالنسبة لرسول الله ﷺ، فالكلام هو عن كمال التوحيد^(١).

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «يا سلمان ويا جندب، أنا صلاة المؤمنين»^(٢). الحديث موجّه لهذين الفردين، ما يعني أن على الروح أن تصل إلى الارتقاء التام لتصبح سلمانية وأبا ذرية فتتلقى الخطاب حينذاك^(٣).

إذاً، الصلاة هي معراج آخر، لأن معراج رسول الله ﷺ تحقق بارتباطه بهذا الرجل المملوكوتي والغيبّي. وقد كان مسير رسول الله ﷺ في المعراج هو نفس مسيره في التوحيد، حيث قال ﷺ: في كل سماء كنت أصل إليها، كانت أفواج الملائكة تستقبلني وقبل أن تسلّم عليّ، كانت تسأل عن عليّ عليه السلام، «فعلمت أنه في السماوات أشهر من الأرضين»^(٤)، إذ إن أهل الأرض ظلموه^(٥)، وذلك

(١) فهو كان يرى الله بعليّ عليه السلام، إذ قال عليّ عليه السلام: «ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله وبعده ومعه وفيه»، (تفسير مواهب الوهاب، ج ٢ ص ٣٦) وعليّ هو الآية الكبرى، فقد ورد عنه عليه السلام: «ما لله آية أكبر منّي»، تفسير القمي، ج ٢ ص ٤٠١.

(٢) (أنوار العارفين، ج ٢ ص ٥٣٤). قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا صلاة المؤمن»، (فضائل ابن شاذان، ص ٨٣). «قال الصادق: ﴿عَسَقَ﴾ فيها سرّ عليّ فجعل اسمه الأعظم مرموزاً في فواتح القرآن وتحفه، وإليه الإشارة بقوله: لا صلاة إلّا بفاتحة الكتاب، ومعناه لا صلاة للعبد ولا صلة له بالرّب، إلّا بحبّ عليّ ومعرفته»، مشارق أنوار اليقين، ص ٢٢١.

(٣) ما لم يتمّ التوحد بحقيقتيهما، لا يمكن الوصول لما قد وصل إليه والذي هو منوط بهما.

(٤) عن أبي ذر الغفاري عن رسول الله ﷺ: «... فلما قضيت الصلاة أقبل إليّ شزيمة من الملائكة يسلمون عليّ ويقولون: لنا إليك حاجة، فظننت أنهم يسألوني الشفاعة لأن الله عز وجل فضّلني بالحوض والشفاعة على جميع الأنبياء، فقلت: ما حاجتكم ملائكة ربي؟ قالوا: إذا رجعت إلى الأرض فاقراً عليّاً منّا السلام وأعلّمه بأنّا قد طال شوقنا إليه، فقلت: ملائكة ربي! تعرفوننا حق معرفتنا؟ فقالوا: يا رسول الله لم لا نعرفكم وأنتم أول خلق خلقه الله، خلقكم الله أشباح نور في نور من نور الله...»، بحار الأنوار، ج ٤٠ ص ٥٨.

(٥) قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «مازلت مظلوماً منذ ولدتني أمي، حتى أنّ عقيلاً كان يصيبه رمدٌ فقال: لا تذرّوني حتى تذرّوا عليّاً، فيذرّوني وما بي رمد»، (إعتقادات الصدوق، ص ١١١). وروى إبراهيم بإسناده عن المسيب بن نجية قال: «بينما عليّ =

الظلم^(١) هو الذي يُبقي الوجود مظلماً وغير مُنير حتى الآن.

حقيقة المعراج

بناءً على هذا، فإنه في عبادة الصلاة، يحصل الإستغراق في التوحيد، كما يتحقق الأثر المتمثل بكونها ﴿تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾. إذاً، لماذا إلى الآن لم تنهني صلاتي عن الفحشاء والمنكر؟ لماذا إلى الآن تتلاطم في داخلي صفات كالكذب والكبر^(٢) والحسد والغضب^(٣) والشهوة، وما إلى ذلك، كالموج العاتي؟ لماذا إلى الآن، لم أتخلص من الرذائل^(٤)؟ لأننا إلى الآن لم نُصلِّ،

=يخطب وأعرابي يقول: وامظلمتاه، فقال ﴿﴾: أَدُنُّ، فدنا فقال: لقد ظلمت عدد المدر والمطر والوبر»، (مناقب آل أبي طالب، ج ١ ص ٣٨٢). في حديث المنهال بن عمرو أنه لقي الامام السجاد ﴿﴾ فقال له: كيف أصبحت يا بن رسول الله؟ قال: «ويحك، أما آن لك أن تعلم كيف أصبحت؟ أصبحنا في قومنا مثل بني إسرائيل في آل فرعون؛ يذبّحون أبناءنا ويستحيون نساءنا. وأصبح خير البرية بعد محمد ﴿﴾ يلعن على المنابر، وأصبح عدونا يُعطى المال والشرف. وأصبح من يحبنا محقوداً منقوصاً حقّه، وكذلك لم يزل المؤمنون...»، تفسير القمي، ج ٢ ص ١٣٤؛ بحار الأنوار، ج ٤٥ ص ٨٤.

(١) ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾، سورة الأنعام، آية ٨٢.
(٢) «ذمّ الله تعالى الكبر في مواضع من كتابه، وذمّ كلّ جبار عنيد، وقال: ﴿سَاصْرِفْ عَنْ عَائِنِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾. وقال: ﴿وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ﴾. وقال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾. وقال: ﴿فَيْسَ مَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾. وقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾. وقال: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾»، إرشاد القلوب، ج ١ ص ٣٥٣.

(٣) ورد في الحديث الشريف: «ليس الشهيد (الشديد) بالصرعة، إنّما الشهيد (الشديد) الذي يملك نفسه عند الغضب، فإنّ الغضب مفتاح كلّ شرّ»، إرشاد القلوب، ج ١ ص ٣٥٣.

(٤) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ صاحب الرذائل من الظلم والفساد لا يمكنه أن يكون قريباً من عليّ ﴿﴾، ولو بقي يقول (يا عليّ)، فلن يجلب له إلاّ زيادة البعد والمحروميّة؛ ولكن لا سبيل لك أيّها الطالب غير الإعراف بالعجز لعلّ الرحمة تشملك».

فالصلاة معراج والمعراج هو الاتصال بحقيقة أمير المؤمنين (عليه السلام) من أين نأتي بهذا الكلام؟ انطلاقاً من أنّ معراج رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان على هذه الشاكلة (٢).

إن المعراج هو دعوة (٣) إلى الحق وإلى الجلوس على سفرته. ولكن لهذا ظهور، «أشهد أنك قد أقمّت الصلاة» (٤). ألا أدلّكم على أحد المصلّين وكيفية اتصاله؟ ليس معنى عبارة «أشهد أنك قد أقمّت الصلاة» أن نقول: مولاي يا حسين، إنك مصلّ!

(١) «بالشهادة برسالة الخاتم - في الغيب والشهادة - يتّخذ الوسيلة إلى المقام المقدّس للشفيع المطلق، ليختم هذا السلوك الإلهي ويرتقي إلى معراج الوصول بمصاحبة تلك الذات المقدّسة وهي مقام الولاية المطلقة. وكان شيخنا العارف الكامل - رُوحِي فداه - يقول: «إن الشهادة بالولاية لوليّ الله مضمّنة في الشهادة بالرسالة لأنّ الولاية هي باطن الرسالة». وعليه، فإنّ المقام المقدّس للوليّ يصاحب (السالك) في هذا السلوك أيضاً. وفي الحديث: بعليّ قامت الصلاة، وفي الحديث: أنا صلاة المؤمنين وصيامهم». ويقول أيضاً: «والطريق الأسلم والأقرب للنجاة هو أن يُسلّم المصلّي نفسه في جميع أقواله وأفعاله لروحية رسول الله (صلى الله عليه وآله) أو مقام مرجع الولاية أو إمام العصر سلام الله عليهما؛ فيطلب الثناء على الحقّ بلسانهم؛ وأن يتمسّك في الأفعال أيضاً بأفعالهم؛ ويصبح - وهو أمام الملائكة والجنود الإلهية - مأموماً لمقام الرسالة والولاية، فيطوي هذا السلوك الروحيّ والعروج بالمعراج الإلهيّ بهداية أولئك العظام بحيث يكون تابعاً بصورة محضة لهم، ومسلماً لهم بصرف التسليم، فعليّ (عليه السلام) هو الصراط المستقيم وصلاة المؤمنين وهو «خضر» طريق السلوك، فلا تطوّر هذه المرحلة دون قيادة الخضر»، سرّ الصلاة، ص ١٤٨ - ١٥٠.

(٢) ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، سورة الأحزاب، آية ٢١.

(٣) ﴿يَقُومَنَّ أَجْيَبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمَنُوا بِهِ﴾، (سورة الأحقاف، آية ٣١). «السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا دَاعِيَ اللَّهِ وَرَبَّانِي آيَاتِهِ»، زيارة آل يس، بحار الأنوار، ج ٥٣ ص ١٧١.

(٤) (زيارة وارث، مفاتيح الجنان). «إشارة إلى إقامة الولاية الكلية النورية، لأنّ حقيقة الصلاة الدعاء، وهو صعود الداعي إلى مرتبة المدعو، أعني محو تمام الحدود، والتخلية عن جميع القيود، ورفع تمام الحجب، والوقوف في مرتبة الفناء، والموت في قبضة ربّ العالمين، والقيام بالله المسمّى، فهي مرتبة اسم الله الذي مظهره في الإنسان آل محمّد (صلى الله عليه وآله)، وفي الملكات الفضائل، وفي الأعمال الصلاة وغيرها من العبادات»، الشمس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٣٣٨.

بل معناها: أشهد أنك أنت، يا حسين، مقيم الصلاة^(١) في الوجود.

حقيقة إقامة الصلاة

«أشهد أنك قد أقمّت الصلاة»، ما معنى ذلك؟ يفسّر أولئك الذين لا خبر لهم عن كربلاء ولا علم لهم بسرّها ورمزها، هذه العبارة كما يحلو لهم. لقد استشهد الحسين عليه السلام حتى تُقيم الصلاة، وتُقيمها يعني تُنهضها، ولكن ما هي الصلاة في القرآن؟ ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(٢)، إن الصلاة هي أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام. ولا يتنافى ذلك مع الرّكعات القليلة التي تؤديها، فهذه فريضة لها مكانتها التي لا تتغيّر، وكل من لا يعتني بها لن يكون إلا في عداد أولئك غير المرضي عنهم من قبل الله تعالى. لا يمكن المساس بحرمة هذه الفريضة، وإنما نخاطب من يمتلك الفهم والولاية^(٣)، ويكنّ المحبّة لعليّ والحسين عليهما السلام وعنده معرفة بهما. لقد جاءت الصلاة في القرآن بمعنى أمير المؤمنين عليه السلام، في كل التفاصيل والروايات المختلفة. ففي تفسير الآية الكريمة: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾، ورد عن الإمام عليّ عليه السلام أن الصبر هو رسول الله والصلاة هي أمير المؤمنين صلى الله عليهما وآلهما^(٤). و﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾، فالصلاة

(١) عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنّ عمود الدين الصّلاة وهي أوّل ما يُنظر فيه من عمل ابن آدم، فإن صحت نُظِرَ في عمله وإن لم تصحّ لم يُنظر في بقية عمله»، (وسائل الشيعة، ج ٤ ص ٣٤). وقد ورد في زيارة الإمام الحسين عليه السلام يوم الأوّل من رجب: «السّلامُ عَلَيْكَ يَا عُمُودَ الدِّينِ».

(٢) سورة البقرة، آية ٤٥.

(٣) قال الله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾، وعن الإمام الكاظم عليه السلام: «يعني ولاية عليّ عليه السلام، ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾ * وَالْبَلِّ إِذَا أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرَ * إِنَّهَا لِحَدَى الْكَبِيرِ﴾... قال: الولاية ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾... قال: «من تقدّم إلى ولايتنا أخر عن سقر، ومن تأخّر عنها تقدّم إلى سقر ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾ * إِلَّا آخِبَ إِلَيْنِ﴾... هم والله شيعتنا»، (الكافي، ج ١ ص ٤٣٤ ح ٩١)، والقمّي قال: «اليمين: أمير المؤمنين عليه السلام، وأصحابه: شيعته»، تفسير القمّي، ج ٢ ص ٣٩٥.

(٤) من كلام لأمر المؤمنين عليه السلام في خطبته النورانية: «فالصبر رسول الله ﷺ والصلاة إقامة ولايتي فمنها قال الله تعالى ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ ولم يقل وإنهما لكبيرة لأن الولاية كبيرة حملها إلا على الخاشعين والخاشعون هم الشيعة المستبصرون»، بحار الأنوار، ج ٢٦ ص ٧ - ١٥ ح ٢؛ مستدرک سفينة البحار، ج ٦ ص ١٥٧.

كبيرة للغاية وليس ثمة مَنْ يمتلك القدرة على تحمّلها. حين يصرّح الإمام بأن الصبر هو رسول الله، لا يجد الناس حرجاً في قبول ذلك. ولكن حين يقول إن أمير المؤمنين عليّاً هو الصلاة، تُكشف بواطنهم، فإنّما يخرج المكنون على ألسنتهم فيسألون عن كيفة ذلك - حينها يُعلم بغياب رابط المحبة بينهم وبين عليّ عليه السلام - أو أنهم ينكرون الأمر في وجودهم. ولتَضَع نفسك بنفسك تحت الاختبار لترى إن كان لديك ارتباط بعليّ أم لا.

الصلاة هي عليّ، سواء هبطت إلى الأرض، أو صعدت إلى السماء، أو عُصَت في قلب القرآن. لقد قالوا: «نحن الصلاة»^(١)، كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «يا سلمان ويا جندب، أنا صلاة المؤمنين»^(٢). «أشهد أنك

(١) من كلام لأبي عبد الله عليه السلام: «يا داود، نحن الصلاة في كتاب الله عز وجل ونحن الزكاة ونحن الصيام ونحن الحج ونحن الشهر الحرام ونحن البلد الحرام ونحن كعبة الله ونحن قبلة الله ونحن وجهه الله، قال الله تعالى: ﴿فَأَيُّكُمْ تَوَلَّوْا فَنَمُ وَجْهَ اللَّهِ﴾ ونحن الآيات ونحن البيّنات، وعدونا في كتاب الله عز وجل: الفحشاء والمنكر والبغي والخرم والميسر والأنصاب والأزلام والأصنام والأوثان والجبت والطاغوت والميتة والدم ولحم الخنزير. يا داود إن الله خلقنا فأكرم خلقنا وفضلنا وجعلنا أمة وحَفَظَته وخزّانه على ما في السماوات وما في الأرض، وجعل لنا أصدقاء وأعداء، فسَمَّانا في كتابه وكَتَبَ عن أسمائنا بأحسن الأسماء وأحبّها إليه وسَمَّى أصدقاءنا وأعداءنا في كتابه وكَتَبَ عن أسمائهم وضرب لهم الأمثال في كتابه في أبغض الأسماء إليه وإلى عباده المتقين»، (بحار الأنوار، ج ٢٤ ص ٣٠٣). وعنه عليه السلام قال: «نحن أصل كل خير ومن فروعنا كل برٍّ، ومن البرّ التوحيد والصلاة والصيام وكظم الغيظ والعفو عن المسيء ورحمة الفقير وتعاهد الجار والإقرار بالفضل لأهله وعدونا أصل كل شرٍّ ومن فروعهم كلّ قبيح وفاحشة، فمنهم الكذب والنميمة والبخل والقطيعة وأكل الربا وأكل مال اليتيم بغير حقّه وتعدّي الحدود التي أمر الله عز وجل وركوب الفواحش ما ظهر منها ما بطن من الزنا والسرقة وكل ما وافق ذلك من القبيح، وكذب من قال إنه معنا وهو متعلق بفروع غيرنا»، (بحار الأنوار، ج ٢٤ ص ٣٠٣ ح ١٥).

(٢) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا صلاة المؤمن»، (فضائل ابن شاذان، ص ٨٣). قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي الْأَنْهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِنَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّكْرِينَ﴾ (سورة هود، آية ١١٤)، وقد ورد عنه عليه السلام: «الحسنة معرفة الولاية وحبنا أهل البيت، والسيئة إنكار الولاية وبغضنا أهل البيت»، (الكافي، ج ١ ص ١٨٥ ح ١٤). وعن الإمام =

قد أقمت الصلاة»^(١)، مولاي يا حسين، إني أشهد... ولكن من ذا الذي هو أهل لهذه الشهادة؟ فليرفع يده كل من هو أهلٌ للشهادة وصادقٌ مع نفسه ووصل إلى مقام الشهود. لقد أقام الحسين عليه السلام ولاية أبيه كما أقام محبته. «أشهد أنك قد أقمت الصلاة»، إني أشهد، أي وصلتُ إلى مقام الشهود، أنك قدمت من المدينة إلى مكة ومن مكة إلى الكوفة وكربلاء، من أجل الصلاة، أي من أجل عليّ، وليس لأجل أي شيء آخر، وهنيئاً لكل من كان من أهل هذه الشهادة وهذا الشهود.

ولكن، ما الأثر الذي تركه هذا الأمر في ذات سيّد الشهداء عليه السلام؟ قال الحسين عليه السلام: مهما منحني الله من أبناء، لن أسمّيهم إلا باسم «عليّ»^(٢). فما أصل هذه المسألة؟ نحن في عالم الطبيعة، عندما نعجب بشخص ما، نسّمّي أولادنا باسمه، ولكن الأمر ليس كما نفعل نحن. فكما أن الذات المقدسة لسيّد الشهداء عليه السلام هي مقيمة الصلاة: «أشهد أنك قد أقمت الصلاة»، فهي عارفة بتلك الحقيقة وليس بمقدورها الانفصال عن اسمها. ولذلك، فقد قام سيّد الشهداء عليه السلام بتسمية أعزّ الناس إلى قلبه، وهم أبناؤه، باسم «عليّ»، ومنشأ ذلك أنه وصل إلى تلك الحقيقة وأدركها. ومفاد القول إنّ الصلاة التي هي أبرز العبادات، تستلزم المعراج.

حياة الإسلام بنشر مناقب أمير المؤمنين عليه السلام

وفي يوم عرفة، صدر عن المقام الجلالي والجمالي لسيّد الشهداء عليه الصلاة والسلام ذلك الدعاء المعروف بـ«دعاء عرفة». ولكن قبل أن يقرأ هذا الدعاء، طلب من جميع أهله وأقاربه وأبناء عمه والمهاجرين والأنصار أن

=الباقر عليه السلام أنه قال: «الحسنة ولاية علي عليه السلام وحبه، والسيئة عداوته وبغضه، ولا يرفع معها عمل»، بحار الأنوار، ج ٣٦ ص ١٠٢.

- (١) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «والصلاة إقامة ولايتي»، بحار الأنوار، ج ٢٦ ص ١.
- (٢) كان الإمام الحسين عليه السلام يقول: «لو ولد لي مئة لأحببت أن لا أسمّي أحداً منهم إلا عليّاً»، الكافي، ج ٦ ص ١٩.

يحضروا عنده. وكان ما يقارب أربعمائة وبضعة أفراد حاضرين في الحجّ ذلك العام، فحضروا عنده جميعاً. عندها، قال سيّد الشهداء (عليه السلام) مخاطباً ذلك الجمع: يا مَنْ تريدون لاسم رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن يبقى، وللقرآن أن يحيا، ويا مَنْ ترجون حياة الإسلام، إن الطريق إلى هذه الغاية محصورٌ بما سأقوله، وبغيره لن يكون هناك ذكرٌ لا للقرآن ولا للإسلام ولا لجدي رسول الله (صلى الله عليه وآله). أنصت الكلّ لما سيقوله أبو عبد الله الحسين (عليه السلام). فتحدّث سيّد الشهداء بتسعة عشر حديثاً عن فضائل ومناقب أبيه أمير المؤمنين (عليه السلام)^(١). وقال: يا أيها الناس، إن تحدّثتم بهذه الأحاديث التي تحكي فضائل ومناقب^(٢) أبي، ففي ذلك حياة الإسلام^(٣) وحياة اسم جدي رسول الله (صلى الله عليه وآله). ثمّ بعد ذلك، قرأ دعاء عرفة. وكان من بين تلك الأحاديث: «عليّ مع الحقّ والحقّ مع عليّ»^(٤).

(١) عن يونس بن رباط قال: دخلت أنا وكامل التمار على أبي عبد الله (عليه السلام) فقال له كامل: «جُعِلْتُ فداك حديث رواه فلان؟ فقال: أذكره، فقال: حدّثني أن النبي (صلى الله عليه وآله) حدّث عليّاً (عليه السلام) بألف باب يوم توفي رسول الله (صلى الله عليه وآله)، كل باب يفتح ألف باب، فذلك ألف ألف باب، فقال: لقد كان ذلك، قلت: جُعِلْتُ فداك فظهر ذلك لشيعةكم ومواليكم؟ فقال: يا كامل، باب أو بابان فقلت [له]: جُعِلْتُ فداك فما يروى من فضلكم من ألف ألف باب إلا باب أو بابان؟ قال: وما عسيتم أن ترووا من فضلنا، ما تروون من فضلنا إلا ألفاً غير معطوفة»، الكافي، ج ١ ص ٢٩٧.

(٢) قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لحذيفة بن اليمان: «يا حذيفة إن عليّاً حجة الله، الإيمان به إيمان بالله، والكفر به كفر بالله والشرك به شرك بالله؛ والشكّ فيه شكّ في الله والإلحاد فيه إلحاد في الله والإنكار له إنكار لله، والإيمان به إيمان بالله، يهلك فيه رجلان ولا ذنب له: محبّ غال، ومبغض قال»، بحار الأنوار، ج ٢٣ ص ١٢٩.

(٣) قال الإمام الباقر (عليه السلام) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَىٰ بِكَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾: «التّسليم لعليّ بن أبي طالب بالولاية»، (مناقب آشوب، ج ٢ ص ٢٩٠؛ بحار الأنوار، ج ٣٥ ص ٣٤١؛ البرهان، ج ١ ص ٦٠٥). «حقيقة الإسلام هي تسليم العبد نفسه بما لها من الإضافات إلى الله تعالى، وهو لا يمكن إلا بالوصول إلى ذلك النور الفرقانيّ الذي هو نور الولاية في عالم العبد، وسرّ أمير المؤمنين والأئمة الطاهرين من ولده (عليه السلام)، ويلزم تسليم ظاهره إلى وليّ زمانه من النبيّ والوصيّ بالائتمار بأوامرهما، والانتهاة عمّا نهيا عنه»، الشّمس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ١٥١.

(٤) (بحار الأنوار، ج ٣٨ ص ٢٩). عن صاحب الزمان (عليه السلام): «وليعلموا أنّ الحقّ معنا وفينا، =

الوصية تكشف عصارة باطن الإنسان

في آخر لحظات الحياة عند الاتصال بالموت^(١)، تظهر خلاصة وجود كل إنسان. ومن أجل ذلك، يوصي المرء. فالوصية تُبين مقام كل فرد، إذ يُظهر الإنسان نفسه بكل وجوده في حال الموت^(٢). فيقول مثلاً: أنفقوا ثلث مالي على مجالس العزاء أو أطعموا الطعام في ليلة الواحد والعشرين من شهر رمضان أو أعطوا مالاً لأحد يودّ الذهاب إلى كربلاء. ومن هنا، يُعلم كيف هو اتصال هذا الإنسان بسيد الشهداء عليه السلام، إذ يُظهر نفسه في آخر لحظاته. فالوصية^(٣)، إذاً، هي خلاصة الوجود وبيان لكل ما هو موجود داخل الإنسان.

طلب الإمام الصادق عليه السلام في آخر لحظات عمره الظاهري حضور جميع أقربائه وأصحابه، وعند ذلك قال: «لا ينال شفاعتنا من استخفّ بالصلاة»^(٤).

= لا يقول ذلك سوانا إلا كذاب مفتر، ولا يدّعيه غيرنا إلا ضال غويّ، (بحار الأنوار، ج ٥٣ ص ١٩١). وقال رسول الله ﷺ: «ستكون بعدي فتنة مظلمة لا ينجو منها إلا من تمسك بالعروة الوثقى، قيل: ومن هي يا رسول الله؟ قال: عليّ بن أبي طالب»، (بحار الأنوار، ج ١١ ص ٦٠).

(١) ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾، (سورة الواقعة، آية ٦٠). سئل الإمام العسكري عليه السلام عن الموت ما هو؟ قال: «التصديق بما لا يكون»، معاني الأخبار، ص ٢٩٠ ح ١٠.
(٢) ﴿يَوْمَ تَبْلُ الْوَرَارِ﴾ (سورة الطارق، آية ٩)، أي تظهر السرائر وعندها، إمّا يثبت الإنسان على الحق أو يعدل وهذه هي العديلة عند الموت. قال النبي ﷺ: «لَقِنَا مَوْتَاكُم لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِنَّ مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ...»، (بحار الأنوار، ج ٧٨ ص ٢٤١). ولم يكن آخر كلام نطق به أصحاب الإمام الحسين عليه السلام سوى «يا حسين» لأنه تعيّن كلمة «لا إله إلا الله» وهنيئاً لهم الجنة.

(٣) ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (سورة البقرة، آية ١٨٠). عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما ينبغي لامرئ مسلم أن يبيت ليلة إلا ووصيته تحت رأسه»، (ميزان الحكمة، ج ٤ ص ٣٥٥٠). وعنه ﷺ: «من مات على وصية مات على سبيل وسنة، ومات على تقى وشهادة، ومات مغفوراً له»، (ميزان الحكمة، ج ٤ ص ٣٥٥٠). وكانت آخر وصايا رسول الله ﷺ لأُمته التمسك بالقرآن والعتره: «واني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا»، (بحار الأنوار، ج ٣٦ ص ٣٣١).

(٤) (الكافي، ج ٣ ص ٢٧٠؛ بحار الأنوار، ج ٤٧ ص ٧)، مع العلم أن كل من اجتمع حول=

الصلاة المطلوبة

أي صلاة يقصد الإمام ﷺ حين يقول: «لا ينال شفاعتنا من استخفّت بالصلاة»؟ هل إذا توقفنا عن صلاتنا هذه، نُحرم من الشفاعة؟ لا يقصد الإمام ﷺ هذه الصلاة^(١) بل يقصد تلك التي تحدّث عنها القرآن. تلك الصلاة التي هي معراج المؤمن. وتلك الصلاة التي تحقق الاتصال بالولاية. إنه يقصد الصلاة^(٢) التي تؤمّن الاتصال بالوليّ وصاحب الولاية والتي علامتها أنها ﴿تَنْهَى

=الإمام (من أولاده ونسائه وأقاربه...) هم من المصلين الذين لا يتركون فريضة صلاة،
فإلى أي صلاة كان يشير وأي صلاة كان يقصد؟

(١) ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، سورة الماعون، آية ٤ - ٥.

(٢) «إعلم أنّ حقيقة الصلاة الدعاء، وهو عبارة عن فعل أو قول يوجب توجّه المدعو إلى الداعي، كاشتعال النار للكليم ﷺ في طور سيناء، وهو يحصل بنزول الداعي إلى مرتبة مناسبة للمدعو، إن كان الدعاء من العالي وصعود الداعي إلى مرتبة مناسبة للمدعو إن كان من السافل... معنى النبوة أنّ النور المحمديّ أول نور اخترعه الله تعالى من نور ذاته تبارك وتعالى، وأنّه الصّادر الأوّل وأنّه قاب قوسين في عالم الوجود الذي لا يمكن تنزّل ذلك النور الذاتي إلى عالم الخلق إلّا بعد تنزّله إلى نور محمّد، ولا يمكن صعود الخلق إلى ذلك النور إلّا بعد صعودهم إلى نور محمّد ﷺ، وبعدما آتاه الله تعالى هذه المرتبة فكيف يحتاج إلى صلاة الخلق له ﷺ...؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾... إنّ الصلاة من الله هي إبراز مرتبة الوجود المطلق الكلّي، وتكوينه في عالم النبي ﷺ وإدامته وشرح مراتبه وإظهارها وتنزيلها إلى شؤونها.... وأمّا تزكية الملائكة له ﷺ، فالمراد أنّهم لمّا كانوا مجالي إمّا لاسم واحد، أو أسماء متعددة من الأسماء الحسنى، وعرفهم الله تعالى من أسمائه الحسنى ما هو مبدأ ظهورهم. وأنّ محمّداً ﷺ مجلى لتمام الأسماء الحسنى، إلّا ما استأثر به الله عزّ ذكره فهم يزكّونه وينزّهونه عن التحدّد بحدودهم، ومعترفون بقصورهم عن إدراك مرتبته ﷺ، فأقروا بفضلله ﷺ عليهم وآمنوا بأنهم خدامه، ويجب عليهم السجود له ﷺ، كما أسجدهم الله تعالى لآدم ﷺ، بواسطة احتماله شيئاً من نوره ﷺ، فانقادوا له واستعظموا شأنه، وافتخروا بأنهم خدامه وخدّام ذريته وأمّته... وأمّا دعاء الناس فهو تخلّيتهم عن تمام عوالمهم من عالم الجسم إلى سائر عوالمهم، حتى يصلوا إلى ما آتاهم الله من مراتبهم، من حقيقة النبوة وسرّ محمّد ﷺ، حتى يستحقّوا بذلك نزول الرحمة عليهم، وانبعث ما آتاهم الله من نصيبهم من حقيقة النبوة فيهم... فحقيقة الصلاة على=

عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ. فإذا لم يتصل الإنسان بهذه الصلاة، لن ينال الشفاعة^(١). فهذه الصلاة هي معادلة رياضية مئة في المئة^(٢).

حقيقة الشفاعة

تعني كلمة «شَفَعَ» أن يصبح الواحد اثنين^(٣) في حين تعني كلمة «وتر» أن يصبح الإثنين واحداً^(٤). وتشتق كلمة «شفيع» و«شافع» من كلمة «شفع». والشافع هو من يضم إليه شخصاً متحيراً ووحيداً وتائهاً، فيصبح بذلك شفيعه ويقربه إلى جواره. وهذا هو معنى الشفاعة^(٥).

=النبي هي التماس تلك المرتبة من الله تعالى، وسؤال تكوين حقيقة النبوة وإظهارها في عوالمهم ليصلوا بذلك الى منتهى الكرامة على الله»، الشמוש الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٥٩٣ - ٥٩٤ - ٥٩٥.

(١) عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «ولو أن رجلاً عمّر ما عمّر نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يصوم النهار ويقوم الليل في ذلك المكان ثم لقي الله عز وجل بغير ولايتنا لم ينفعه ذلك شيئاً»، جامع أحاديث الشيعة، ج ١ ص ٤٢٦ ح ٩٥٣؛ الكافي، ج ١ ص ١٩.

(٢) ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «فمن أقام ولايتي فقد أقام الصلاة»، (بحار الأنوار، ج ٢٦ ص ١ - ٣)، فالصلاة لها ظاهر وباطن؛ ظاهرها القيام والركوع والسجود وباطنها الولاية.

(٣) مقام التوحيد.

(٤) مقام الوحدة.

(٥) عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «قال إذا كان يوم القيامة جمع الله الناس في صعيد واحد وهم حفاة عراة، فيوقفون في المحشر حتى يعرقوا عرقاً شديداً وتشتد أنفاسهم، فيمكثون في ذلك خمسين عاماً، وهو قول الله: ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّعْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾، قال: ثم ينادي مناد من تلقاء العرش: أين النبي الأمي؟ فيقول الناس: قد أسمعتم فسم باسمه، فينادي: أين نبي الرحمة؟ أين محمد بن عبد الله الأمي؟ فيتقدم رسول الله صلى الله عليه وآله أمام الناس كلهم حتى ينتهي إلى حوض طوله ما بين إيلة وصنعاء، فيقف عليه، فينادي بصاحبكم، فيتقدم أمير المؤمنين عليه السلام أمام الناس فيقف معه. ثم يؤذن للناس فيمرون، فبين وارد الحوض يومئذ وبين مصروف عنه، فإذا رأى رسول الله صلى الله عليه وآله من يصرف من محبينا يبكي ويقول: يارب شيعة علي، قال: فيبعث الله إليه ملكاً، فيقول له: ما يبكيك يا محمد؟ فيقول: ابكي لأناس من شيعة علي، أراهم قد صُرفوا لتلقاء أصحاب النار=

إن من يستخفّ بالصلاة، لا تشملته الشفاعة في ذلك العالم لأنه غير متصل بالولاية. فبسبب أنه لم ينضمّ إلى صاحب الولاية هنا، لن تشملته الشفاعة هناك. ولكن إذا التحق الإنسان بالصلاة وانضمّ إلى صاحب الولاية هنا، فستشمله الشفاعة هناك^(١).

تا شد سبکش از خم عشق آرزوی ما بر دوش ما می کشند ملاک سبوی ما
بر قبله ای برای نماز آروریم روی کانجا بود ز خون سر ما وضوی ما

=ومُنَعُوا ورود حوضي، قال: فيقول له الملك: إن الله يقول: إِنَّ شِيعَةَ عَلِيٍّ قَدْ وَهَبْتُهُمْ لَكَ يَا مُحَمَّدَ وَصَفَحْتُ لَهُمْ عَنْ ذُنُوبِهِمْ بِحَبِّهِمْ لَكَ وَلَعَرَّتْكَ وَأَلْحَقْتُهُمْ بِكَ وَبِمَنْ كَانُوا يَقُولُونَ بِهِ وَجَعَلْنَاهُمْ فِي زِمْرَتِكَ، فَأَوْرَدَهُمْ حَوْضَكَ، فقال أبو جعفر عليه السلام: فكم من بائٍ يومئذ وباكية ينادون: يا محمداه إذا رأوا ذلك ولا يبقى أحدٌ يومئذ يتولانا ويحبنا ويتبرأ من عدونا ويبغضهم إلا كانوا في حزبنا ومعنا ويردوا حوضنا»، (تفسير القمي، ج ٢ ص ٦٤). وفي تفسير الإمام الصادق عليه السلام لقوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمَ لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (سورة البقرة، آية ٤٨) قال: «هذا يوم الموت فإن الشفاعة والفداء لا يغني عنه فأما في القيامة فإننا وأهلنا نجزي عن شيعتنا كل جزاء: لنكوننَّ على الأعراف بين الجنة والنار محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين والطيبون من آلهم عليهم السلام فنرى بعض شيعتنا في تلك العرصات فمن كان منهم مقصراً وفي بعض شدائدها، فنبعث عليهم خيار شيعتنا كسلمان والمقداد وأبي ذر وعمار ونظرائهم في العصر الذي يليهم ثم في كل عصر إلى يوم القيامة فينقضون عليهم كالْبِرْاة والصقور ويتناولونهم كما يتناول البراة والصقور صيدها فيزفونهم إلى الجنة زفاً وإنا لنبعث على آخرين من محبيننا خيار شيعتنا كالحمّام فيلتقطونهم من العرصات كما يلتقط الطير الحب وينقلونهم إلى الجنان بحضرتنا وسيؤتى بالواحد من مقصري شيعتنا في أعماله بعد أن حاز الولاية والتقية وحقوق إخوانه ويوقف بإزائه ما بين مائة وأكثر من ذلك إلى مائة ألف من النصاب فيقال له هؤلاء فداؤك من النار فيدخل هؤلاء المؤمنون الجنة وأولئك النصاب النار وذلك ما قال الله عز وجل ﴿رَبِّمَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني بالولاية لو كانوا مسلمين في الدنيا منقادين للإمامة ليجعل مخالفوهم من النار فداؤهم»، تفسير الصافي، ج ١ ص ١٢٧ - ١٢٨.

(١) الإلتحاق والانضمام هما بمثابة التوحيد لأن التوحيد عبارة عن التوحد مع المبدأ. يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «ما لم يُحفظ التّوحيد في عالم الملك (الدنيا) لا يمكن أن يُحفظ في عالم الملكوت، وهذا هو معنى «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ المَخْلُوقَ لَمْ يَشْكُرِ الخَالِقَ»، (ميزان الحكمة، ج ٢ ص ١٤٩٣)».

ما هي الصلاة ومن هم المصلون؟

في ظهر عاشوراء، قال أحد الأصحاب: مولاي حسين، أحب أن أصلي معك هذه الصلاة، وقد حان وقتها^(١). لم يقل لمولاه عليه السلام: إسمح لي بأن أذهب لأصلي. ولو قال كذلك، لَمَا كان واحداً من أولئك الإثنين والسبعين رجلاً. ولأنه حَقَّق الاتصال بالولي، أراد أن يعرج وأراد لعروجه أن يبدأ في يوم عاشوراء. ولذلك قال: أرغب بالصلاة معك، وهذه هي الصلاة الحقيقية. ولأنه اتصل بالولي بتمام التوجّه، كان مشمولاً بتلك الشفاعة.

استجاب سيّد الشهداء عليه السلام لطلبه وقال: «جعلك الله من المصلين». قال له: ذكّرتني بحقيقة ذاتك التي تريد العروج، فجعلك الله من زمرة المصلين. وكان هذا الدعاء مجاباً حتى قبل أن يدعى به.

قالوا عليهم السلام: «نحن الصلاة^(٢) وشيعتنا المصلون^(٣)»، وشيعتنا هم الذين يتوجّهون إلينا^(٤).

(١) «فالتفت أبو ثمامة الصائدي إلى الشمس قد زالت، فقال للحسين عليه السلام: نفسي لك الفداء، إني أرى هؤلاء قد اقتربوا منك، لا والله لا تقتل حتى أقتل دونك إن شاء الله، وأخضبت بدمي، وأجبت أن ألقى ربي وقد صليت معك هذه الصلاة التي دنا وقتها. فرفع الحسين عليه السلام رأسه إلى السماء، وقال: «ذكرت الصلاة، جعلك الله من المصلين الذاكرين، نعم هذا أول وقتها، سلوا القوم أن يكفوا عنا حتى نصلي»، المصيبة الراتبية، ص ٣٥.

(٢) بحار الأنوار، ج ٢٤ ص ٣٠٣.

(٣) عن الإمام الصادق عليه السلام: «... إنما شيعتنا يعرفون بعبادتهم وشعّتهم، قد قرحت العبادة منهم الاناف، ودرثت الجباه والمساجد خمص البطون، ذبل الشفاه، قد هيجت العبادة وجوههم، وأخلق سهر الليالي وقطع الهواجر جثثهم، المسبحون إذا سكّت الناس، والمصلون إذا نام الناس...» (بحار الأنوار، ج ٦٥ ص ١٦٩). وعن أبي جعفر عليه السلام: «ثم شيعتنا أهل البيت ﴿فِي جَنَّةٍ يَسَاءَلُونَ﴾ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَ فِي سَفَرٍ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ» يعني لم يكونوا من شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام، بحار الأنوار، ج ٥١ ص ٦١.

(٤) ورد في الزيارة الجامعة الكبيرة: «من أراد الله بدأ بكم ومن قصده توجه إليكم»، وجاء في دعاء الندية: «أين وجه الله الذي إليه يتوجّه الأولياء»، مفاتيح الجنان.

وقد أراد الإمام الحسين عليه السلام أن يؤدي صلاة الخوف. وصلاة الخوف تُؤدَّى على نحوٍ مختصر. إلا أن صلاة الخوف تلك افتقرت إلى الجانب الشرعي الذي يسمح باختصارها. ولكن الإمام عليه السلام يقطع الزمان حتى يتيح للآخرين ولكل موجود الوصول بشكل أسرع. فكان اقتطاع الزمان ذاك حتى يوصل هذا الإنسان المُستعجل والتائق للوصال بأسرع ما يكون إلى عين الحياة^(١).

لبسوا القلوب على الدروع

كان الأصحاب يريدون أن يقفوا أمام الحسين عليه السلام وهو يصلي حتى لا تصيبه السهام^(٢)، وكانوا يتنافسون على ذلك. فصار ينحّي أحدهم الآخر ويقول: أنا أقف هدفاً للسهام. أخيراً، قام الإمام عليه السلام باختيار شخصين ليقفا أمامه. وما إن بدأ عليه السلام بالصلاة حتى انهالت السهام. عندئذ، صار كل واحد من هذين الصحابيَّين يزيح الآخر حتى يتلقى السهام بنفسه، فكلاهما كان يرغب بتلقّيها^(٣).

(١) «السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا عَيْنَ الْحَيَاةِ»، زيارة صاحب الأمر عليه السلام كل يوم جمعة، مفاتيح الجنان.

(٢) لطيفة ولائية: عندما وقف سيّد الشهداء عليه السلام لأداء الصلاة يوم عاشوراء، وقف خلفه أصحابه، ولكن هناك من بين الأصحاب من أحاط بالإمام من كل جانب لمنع السهام المُصوّبة عليه من الوصول إليه، ويتمكّن من إقامة الصلاة. وقد قطعت تلك الصلاة، بحماية من الأصحاب، الأزمنة كلها. فأقام الحسين عليه السلام الصلاة في كل العصور، بل أقامها في كل العوالم ولم يستطع أحدٌ قبله أن يقيمها بهذا الشكل، فأقامها هو وحده. وهنيئاً لمن يشهد هذه الحقيقة فيترنّم قائلاً: «أشهد أنك قد أقمت الصلاة وآتيت الزكاة وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر»، وذلك في كل زمان ومكان إلى يوم القيامة، فتبصّر راشداً.

(٣) «روي أنّ سعيد بن عبد الله الحنفيّ تقدّم أمام الحسين، فاستهدف لهم يرمونه بالنبل كلّما أخذ الحسين عليه السلام يميناً وشمالاً، قام بين يديه، فما زال يرمي به حتّى سقط إلى الأرض وهو يقول: اللهمّ العنهم لعن عاد وشمود، اللهمّ أبلغ نبيّك السلام عني وأبلغه ما لقيت من ألم الجراح، فإني أردت بذلك نصرة ذرّيّة نبيّك ثمّ مات رضوان الله عليه، فوجد به ثلاثة عشر سهماً سوى ما به من ضرب السيوف وطعن الرماح»، بحار الأنوار، ج ٤٥ ص ٢١.

ومن ضروريات الحرب أن يلبس المقاتل درعاً يغطي به قلبه، حتى لا تصدمه الضربات. أما أصحاب سيّد الشهداء عليه السلام، فقليل بحقهم: «لبسوا القلوب على الدروع»^(١). ويعلمنا هذان الإثنان الصلاة، فهما لم يؤدياها إلا أنهما كانا من المصلين.

نظر واحدٌ من هذين الإثنين إلى السهام النابتة في جسده ولكي يزيد من ثباته، فكّر في إخراج تلك السهام من بدنه. ولكن فجأة، شعر بالخجل: أتسعى إلى التدبير في طريق العشق؟

التدبير في طريق العشق

يقول العطار النيشابوري شعراً مضمونه كالآتي: عزم المجنون على الذهاب للقاء ليلي. فراح يركض في الصحراء على الأشواك حافي القدمين حتى وصل إليها. وعندما وصل، سأله ليلي: ما الهدية التي أحضرتها لي؟ فقال المجنون: هل أبقيت لي شيئاً حتى أحضره لك؟ قالت ليلي: في الخارج كلاب تهجم على الغرباء، فلم لم تهجم عليك؟

يگفتا چيستت بهر سگ دوست؟ بگفتا استخوان در كيسه ی پوست
أجابها المجنون: فررتُ منها. فقالت ليلي: ألم تحضر لي شيئاً؟ وكانت دائماً تقوم بتفتيش مجنونها. إنها حكاية غير صحيحة ولكنني أرويها لأكمل حديثي انطلاقاً منها.

قال المجنون: من كل أموال الدنيا لا أملك إلا هذا الملقط. إستخرج الملقط من شعره وأعطاه ليلي. فسألته: لم أحضرته معك؟ أجاب المجنون: عندما

(١) (الملهوف، ص ١٦٦). وكما كان أصحاب الحسين عليه السلام شجعان، ثمة روايات تصف شجاعة أصحاب إمام الزمان عليه السلام: قال أبو جعفر عليه السلام: «... فإذا وقع أمرنا وخرج مهدينا كان أحدهم أجرى من الليث، وأمضى من السنان، يطأ عدونا بقدميه ويقتله بكفيه»، (بحار الأنوار، ج ٥٢ ص ٣٧٢). وقال أبو عبد الله عليه السلام: «إن الله نزع الخوف من قلوب شيعتنا وأسكنه قلوب أعدائنا، فواحدهم أمضى من سنان وأجرى من ليث يطعن عدوه برمح ويضربه بسيفه ويدوسه بقدمه»، (بحار الأنوار، ج ٥٢ ص ٣٣٦).

أردتُ الانطلاق لرؤيتك، قلتُ في نفسي، إن في الطريق أشواكاً ستدخل في قدمي. فأخذت هذا الملقط معي وطوال طريقي إلى هنا كنت أُخرج الأشواك^(١) من قدمي بواسطته.

عندها، قالت ليلي: إن كنتُ أفتشك دائماً، فذلك لأنني كنتُ أراك غير مخلص حين تأتي إليّ. فأردتُ أن أعرف ما قصّتك. قمتَ بالتدبير حتى تستخرج الأشواك من قدميك ولكن في طريق العشق لا مكان للتدبير^(٢). وعندما أتى ذلك الصحابيُّ أمام الإمام لينزع السّهام من جسده، سقط من الخجل فجأة والتفت إلى أنه ليس في طريق العشق تدبير.

هكذا، ينفي الاستغراق في المعبود الإثنية والشرك^(٣).

حقيقة الشرك

لقد ذمَّ اللهُ الشركَ^(٤) في القرآن إلى حدٍّ بعيد، ولكنَّ الشرك ليس معناه القول

(١) «من الخير للعاشق أن يتحمّل أذى المعشوق من أن يحوز الرضا من غيره... وحتى لو كان المعشوق يؤذي العاشق، فيجب على العاشق ألا يغمض له جفن، فالآلام العشق يجب أن تؤرّقه دائماً... والعاشق الذي يتخلى عن معشوقه طواعية يستحقّ البلاء والمتاعب... والعاشق سرعان ما يشعر بالندم والحسرة إذا أصاب المعشوق أيّ ضرر»، منطق الطير، ص ٩٥.

(٢) سئل أبو عبد الله الصادق عليه السلام عن حقيقة العبودية فقال: «ثلاثة أشياء: أن لا يرى العبد لنفسه في ما خوله الله ملكاً، لأن العبيد لا يكون لهم ملك، يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله به، ولا يدبّر العبد لنفسه تدبيراً، وجملة اشتغاله في ما أمره تعالى به ونهاه عنه»، (بحار الأنوار، ج ١ ص ٢٢٤)، فمن شرائط العبودية أن لا يدبّر العبد لنفسه. «حصل أبو الفضل عليه السلام على الإذن وانطلق باتجاه المشرعة بسرعة شديدة ولكن فجأة أبطأ في وسط الطريق وأخذ يفكر: يا عباس، أتريد أن تفدي الحسين أو أن تستخدم نفسك القوة الدفاعية الكامنة بالعين واليد؟ فليس هذا إلا نقص في طريق العشق. ولذا، عليك قبل كل شيء أن تعالج مسألة عينيك ويديك»، كربلاء الشهود، ص ٢٠١.

(٣) الشرك نوعان: خفيّ وجليّ.

(٤) لأنه يوقظ الأنا - الإنية والأنانية - التي تحبّ أن تُعبّد من دون الله وتمنع التوحيد وبالتالي، توجد الشرك القائل بوجود إلهين.

بوجود إلهين اثنين. فمنذ بدء الخليقة إلى اليوم، لم يقل أحد بوجود أكثر من إله واحد إلا النصارى. وحتى النصارى الذين يعتقدون بـ «ثالث ثلاثة»، لا يقولون بوجود إلهين متعارضين، بل يقولون: الأب والإبن والروح القدس.

فمنذ أول الخليقة حتى زماننا الحاضر، لم يقل أحد بأن هناك إلهين، بل إنهم مارسوا الإثنيّة على المظاهر فقالوا: إله النور وإله الظلمة، على سبيل المثال، ولكنهم لم يطبقوا ذلك على الإله الأصلي. إذًا، ما الذي يحاربه الله؟ الشّرك أن تكون أنت^(١) وهو. «بيني وبينك إنّي ينازعني»^(٢)، «تو خود حجاب خودی حافظ از میان برخیز» أي «أنت نفسك حجاب نفسك، فقم من البين يا حافظ»^(٣)، إلهي، إن الحجاب الوحيد المضروب بيني وبينك هو نفسي^(٤). وهذا هو معنى الشّرك الذي يبيّنه الله في القرآن الكريم.

- (١) ما لم تنثر غبار إيتك في ريح الفناء، فلن تشاهد جماله الأحديّ .
- (٢) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «لا تظنّ ولا تتوهّم أنّ شيئاً يمكنه أن يحقق هذا الرفع للإنّيّة غير الولاية»، انتهى. ويُنقل عن بايزيد البسطامي: «إلهي، إلى متى يكون بيني وبينك أنا وأنت؟ أزل عني الآن حتى أعيش بك وأكون أنا شيئاً منسياً»، خمسة من العرفاء، ص ١٧٩.
- (٣) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ وضع الحيثيات الماديّة من الثروة والمال والمقام جانباً في وجود الإنسان هو القدم الأولى في عالم السلوك، وإلّا فما ينبغي أن يوضع جانباً هو نفس وجودك، فوجودك ذنب لا يُفاس به ذنب»، انتهى. حينما سألو بايزيد البسطامي: كيف نصل إلى الله؟ أجاب: «إن اختفت نفسك عن الطريق وصلت إلى الله»، خمسة من العرفاء، ص ١٣٧.
- (٤) روي عن رسول الله ﷺ قوله: «إِنَّ الشَّدِيدَ لَيْسَ مَنْ غَلَبَ النَّاسَ وَلَكِنَّ الشَّدِيدَ مَنْ غَلَبَ نَفْسَهُ»، (مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ج ١١ ص ١٣٩). وعنه ﷺ: «أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه»، (معاني الأخبار، ص ١٦٠). ويقول الإمام عليّ ﷺ: «من لم يهذب نفسه لم ينتفع بالعقل»، (ميزان الحكمة، ج ١٠ ص ١٤٥). «إلهي ما أقربك مِنِّي وَأَبْعَدَنِي عَنْكَ، وَمَا أَرَأَاكَ بِي فَمَا الَّذِي يَحْجُبُنِي عَنْكَ»، (دعاء الإمام الحسين ﷺ يوم عرفة، مفاتيح الجنان). يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «أيتها السالك، ما دمت تحسّ أنّ لك وجوداً وأساساً ما، وما دمت تحسّ أنّ لك علماً وقدرةً، وما دمت تعتقد أنّ لك عبادة يمكن أن تقربك من الله، فلم يصلك خبرٌ حتّى الآن عن العبوديّة والتوحيد، فلا بدّ أنّ تُريق كلّ ما عندك على قدمك، وعندما =

الشرك هو ظهور ذات الإنسان، ما يحول دون تحقق الاستغراق في العبادات ^(١) التوحيدية. وقد قال لقمان عليه السلام لابنه: ﴿يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ^(٢). ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ^(٣).

الاستغراق في التوحيد

من بين الأدلة التي يمكن الاستفادة منها في مجال اتحاد الشاهد والمشهود والذاكر والمذكور هو هذا: ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. ولعل هذا التعبير قد ورد في القرآن ما يقارب العشرين مرة.

هنا، الظالم والمظلوم واحد، فهو نفسه يظلم نفسه ^(٤)، أي أن الفاعل

=يصير الإناء خالياً، عندها يأتي قول الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ (سورة الإنسان، آية ١).

(١) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنَّ كلَّ العبادات هي لأجل التخلص من العداوة في وجودك حتّى تجد الطريق نحو الحقّ تعالى». وفي موضع آخر يقول سماحته: «لا بدّ من التنبّه أنّ كلّ هذه الأحكام الشرعيّة الصادرة من الله ليست مجرد تكاليف ظاهرية، بل لها حقائق كامنة وراءها. إنّ الأحكام المبيّنة من جانب النبي الأكرم والأئمة الهداة من المعصومين عليهم السلام، قد صدرت كلّها من المبدأ لإيجاد التوحيد ونفي الشرك. من هنا لا بدّ أن تتخلّص من كلّ أنواع الشرك حتّى تتصل بالمبدأ، وعندها يمكنك أن تصل إلى الخضوع التام والتوحيد الخالص».

(٢) سورة لقمان، آية ١٣.

(٣) (سورة العنكبوت، آية ٤٠). عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل: «وأما قوله ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فهو تبارك اسمه أجلّ وأعظم من أن يظلم ولكن قرن أمناه على خلقه بنفسه وعرف الخليفة جلالة قدرهم عنده وأن ظلمهم ظلمه بقوله ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ ببغضهم أوليائنا ومعونة أعدائهم عليهم عليهم السلام ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ إذ حرموها الجنة وأوجبوا عليها خلود النار»، (الاحتجاج، ج ١ ص ٢٥٤). ولما سئل أبو جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، قال: «إن الله تعالى أعظم وأعزّ وأجلّ وأمنع من أن يظلم ولكنه خلطنا بنفسه، فجعل ظلمنا ظلمه، وولايتنا ولايته، حيث يقول: ﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني الأئمة منا»، الكافي، ج ١ ص ١٤٦.

(٤) ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ (سورة فاطر، آية ٣٢)، فالظلم مساوقٌ للشرك بالله.

والمفعول يظهران في حقيقة واحدة ولكن بحيثيتين اثنتين. وشغلنا هو في مثل هذه الأدلة، لأنها أدلة مُحكمة من شأنها أن تُرشدنا إلى التوحيد.

الاستغراق في التوحيد يعني أن ينسى العبد نفسه^(١). وحين ينسى العبد نفسه^(٢) لا تتجلى عبادته أمام ناظره ولا يصل إلى العُجب العبادي. وعندئذ، لا يبقى هناك وجود للعبد، بل للمعبود فحسب.

دخل في قدم المولى المباركة سهم، فارتأى الجميع أن ينزعه منها أثناء تأديته الصلاة، ذلك أن علياً عليه السلام يكون في حالة من الاستغراق التام أثناء صلاته^(٣). فالاستغراق هو إما نفس التوحيد أو أساسه.

(١) إن من صفات العبد أن يجعل نفسه بين يدي مولاه كالميت بين يدي الغسال، وأن يكون أصمّ وأعمى وأبكم بمعنى التسليم، فلا يسمع إلا عندما يتكلم محبوبه ولا يرى إلا محبوبه أو ما يوصله إليه ولا يتكلم إلا مع محبوبه. «لا يمكن صيرورة الإنسان عبداً مطيعاً إلا بسرهم ومعرفتهم بالنورانية ولا يمكن صيرورة العبد مطيعاً إلا بطاعتهم بعد المعرفة... إن العبودية لها ثلاث مراتب: الأولى: العبودية المطلقة، وهي إلقاء العبد تمام مراتبه وخلع نفسه عن عالم الطبع وعالم الخيال وعالم الوهم وعالم النفس وعالم العقل... يعني: أشعر قلبك بأن ما لك من عالم الجسم إلى ما كان لك من العوالم بأنه مملوك رب العالمين حتى تصل إلى عالم اليقين الذي هو الموت بقول مطلق، كما فُسر به وهو إنما يحصل بمعرفة اسم الله ووجدانه في عالمك؛ لأنّ به يموت العبد عن تمام مراتب وجوده، ويَله ويتحرّر في ربّه... والثانية: هي العبودية الإضافية، وهي العبودية بالإضافة إلى من عرفه الله تعالى ذلك الاسم المبارك... فيجب على عباد الله الذين ماتوا في قبضة رب العالمين الموت في جنبه، ووقف أنفسهم وأموالهم في رضاه وترك مخالفتهم له... والثالثة: العبودية بالإضافة إلى من نصّبه الرسول ﷺ لخلافته»، الشמוש الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ١٥١ - ١٥٢ - ١٥٣ - ١٥٤.

(٢) يقول بايزيد البسطامي: «ذكر الله نسيان النفس والحي من عرف الله بالله والميت من عرف الله بنفسه»، خمسة من العرفاء، ص ٢٦٩.

(٣) ورد أنّ علياً عليه السلام كان في صلاته يستغرق في الله إلى حدّ استُخرج السهم من رجله في حال الصلاة فلم يلتفت، (أنوار المواهب، ص ١٦٠). كما رُوِيَ أنّ مولانا أمير المؤمنين عليه السلام وقع في رجله نصل، فلم يمكن من إخراجه، فقالت فاطمة عليها السلام: «أخرجوه في حال صلاته، فإنه لا يحسّ بما يجري عليه، فأخرج وهو عليه السلام في صلاته»، المحجة البيضاء، ج ١ ص ٣٩٧ - ٣٩٨.

ما الذي كان يجعل أصحاب سيّد الشهداء ﷺ ثابتي الجأش غير خائفين من السّهام والسيوف والخناجر؟^(١)

ثمة نوعان من السالّكين: الأوّل هو المجذوب السالّك، والثاني هو السالّك المجذوب^(٢). وقد كان عابس بن شبيب مجذوباً سالّكاً، حيث وصل إلى حالة من الاستغراق دفعته إلى نزع درعه والذهاب لمواجهة الأعداء.

(١) عن أبي جعفر ﷺ قال: «قال الحسين ﷺ لأصحابه قبل أن يقتل: إنّ رسول الله ﷺ قال لي: يا بنيّ إنّك ستساق إلى العراق، وهي أرض قد التقى بها النبيّون وأوصياء النبيّين، وهي أرض تدعى عمورا، وإنّك تستشهد بها ويستشهد معك جماعة من أصحابك لا يجدون ألم مسّ الحديد، وتلا: ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ يكون الحرب برداً وسلاماً عليك وعليهم. فأبشروا فوالله لئن قتلونا فإنّا نرد على نبيّنا»، (بحار الأنوار، ج ٤٥ ص ٨٠)، وذلك لاستغراقهم في الله.

(٢) من كلام لسماحة السيّد أحمد النجفي دام ظله: «الأنبياء ﷺ بدون إستثناء والأئمة ﷺ قاموا بالعبادة على أساس العبوديّة، وقد صار لهم اللياقة، بمقتضى العبوديّة، أن يكونوا من الموحّدين بالله، وهؤلاء يطلق عليهم باصطلاح العرفان المجذوب السالّك، وأمّا الآخرون فيصلون من العبادة إلى العبوديّة ويطلق عليهم بالاصطلاح السالّك المجذوب. فالسالّك المجذوب هو الذي يطوي طريق التّوحيد بالعبادة، والمجذوب السالّك هو الذي قد تحقّق التّوحيد في وجوده، ولكنّه يقوم بالعبادة حتّى يصل إلى الحقّ تعالى في مقام الظهور والفعليّة»، انتهى. «المجذوب هو من اصطنعه الحقّ تعالى لنفسه، واصطفاه لحضرة أنسه وطهره بماء قدسه فحاز من المنح والمواهب ما فاز به بجميع المقامات والمراتب، بلا كلفة المكاسب والمتاعب. ويدلّ عليه قوله ﷺ: «جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين». وأصحاب الجذبات على ثلاثة أقسام: مجذوب غير سالّك، سالّك غير مجذوب، ومجذوب سالّك. أمّا الأول: فهو الذي أشرنا إليه لأنّه مجذوب غير محتاج إلى السلوك. وأمّا الثاني: فهو الذي يسلك الطريق، ثم تحصل له في أثناءه جذبة ويكون بحكمها (أي بحكم الجذبة) وذلك مستحسن. وأمّا الثالث: فهو الذي تحصل له الجذبة ثم يسلك الطريق ويصل إلى المقصود بهما (أي الجذبة والسلوك) وهذا أحسن من الكلّ وأعظم. والواصل هو الذي يصل إلى الله تعالى بالفناء فيه والبقاء به في مقام المحبّة التامّة وهو صيرورة المحبّ والمحبوب شيئاً واحداً كما قال في الحديث القدسي: كنت سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله»، المقدمات من كتاب نص النصوص، ص ٢٦٨ - ٢٦٩.

وقبل أن يقطعوا لسان^(١) ميثم، سألته ابنته قائلة: ألم تشعر بالألم حين قطعوا قدميك ورجليك؟ فقال: لم أشعر بالألم قط. أقسم بمولاي ومحبي عليّ بأنّي لم أشعر بالألم^(٢) أبداً. ولكن انتابني إحساسٌ من يتواجد في زحام شديد وهو

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إتقوا ظنون المؤمنين فإنّ الله تعالى جعل الحقّ على ألسنتهم»، بحار الأنوار، ج ٧٥ ص ١٩٨.

(٢) إن الذي يمنعنا من أداء حق العبودية أو إدراك الحقائق الولاية هو انشغالنا بالألم. فالذي يمنعنا من أداء الصلاة هو انشغالنا بالدنيا وآلامها والذي يمنعنا من أداء الصيام انشغالنا بألم الجوع والعطش وما يحول بيننا وبين أداء مناسك الحج هو الألم أيضاً، وكذلك ما يمنعنا من التوجّه إلى الله هو انشغالنا بألم الحياة وألم المعيشة، ألم الحب والفراق، ألم النفس والشهوة، آلام الجسد، وآلام الأولاد والأهل والمجتمع... فالألم، إذًا، هو الذي يمنعنا من رؤية الله ومن عشق آل الله. نعم، إنه الألم الذي يمنعنا من أداء أصول الدين وفروعه. وهو الذي يمنعنا من سماع صوت الحقيقة وفهمها وإدراكها والتحقق بها... إننا لا نشعر في هذه الدنيا إلا بالألم ولا نحسّ إلا بأوجاعنا... فنحن نعيش للألم والوجع ولا نعيش للآخرة مع أنه لا عيش إلا عيش الآخرة ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾، ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾، والآخرة هي العقبي والمنتهى، «السَّلامُ عَلَى شَجَرَةِ طُوبَى وَسِدْرَةِ الْمُنتَهَى»، كما ورد في زيارة مولانا أمير المؤمنين سلام الله عليه. وعندما سيأتي ملك الموت ليقبض أرواحنا ستهجم علينا الآلام دفعة واحدة حتى تشغلنا عن لقاء الله ورسوله وآله. لقد أصبحنا كلنا قرح من كثرة توجعنا للألم، حتى زرعه في قلوبنا وصار قبلتنا، وقد قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾، فهل سنستجيب لله ورسوله أم ستبقى آلامنا وجراحاتنا وقروحنا هي معبودنا، «اللهم إني أسألك بما تجيبني به (بمحمد وآله) حين أسألك، فأجبنني يا الله» وأخرجني من الظلمات إلى النور.

وفي الحقيقة، إن كان للألم أو للفرح وجود فهو لكي نتصل بالله تعالى ونتوجه إليه ونلوذ به، ولكن المشكلة هي أن الألم نفسه يصبح شغلنا الشاغل ويمنعنا من الاتصال والوصال برّبنا، في حين أن الألم هو الذي جعل المقداد يتصل بالحقيقة عندما ضربه اللعين الثاني فقال له: «إضربني كما كنت تضرب مولاتي فاطمة!». ولشدة اتصالهم بمحبوبهم، وُصِف أصحاب الإمام الحسين عليه السلام بأنهم لا يجدون ألم مسّ الحديد. أما نحن، فلا يمنعنا الألم والوجع من الاتصال والوصال فحسب، لا بل أحياناً يجعلنا نتوجه لغير الله، تماماً كمسألة الإنكسار الذي هو على نوعين: إنكسار للمخلوق وإنكسار للمخلوق. فحينما يتعرّض المؤمن للأذى والقتل والذل وتتكاثر عليه الدنيا وأهلها، =

يعبر من باب ضيق، ويشعر بالضَّغَط من كلا الطرفين^(١). ومردّ ذلك الإحساس إلى أنه خرج من عالم الطبيعة ودخل في الاستغراق. يقول حافظ:

گرتیغ بارد، در کوی آن ماه گردن نهادیم، الحکم لله
وكذلك يقول هاتف أصفهاني:

=يتوجّه إلى الله وحده ويزداد فقره وانكساره له، فيتجلى الله به، وقد قال أحدهم عن الحسين عليه السلام: «فوالله ما رأيت مكسوراً قط، قد قتل ولده، وأهل بيته وأصحابه، أربط جأشاً ولا أمضى جناحاً منه، ولا أجراً مقدماً، والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله...»، وأما الإنكسار للمخلوق، فهو عندما تنصبّ البلاءات والمصائب على الإنسان ويتعرض للقتل والأذى فيستسلم وينكسر لمن يتسبب له بهذا الأذى والبلاء، ويصبح ذليلاً وعبداً له... إن المؤمن لا يشغله ألم عتاب الناس له وتصغيرهم إياه واجتماعهم عليه، لأن المؤمن لا تأخذه في الله لومة لائم، فالمهم عنده فقط أن تربطه آلامه بآلام معشوقه حتى يتوحد معه بكل شيء؛ بالفقر والغنى والعز والذل والفرح والحزن... وحينها تتحقق استجابته لله ورسوله من بعد ما أصابه القرح، فيُصيرَه الله عبداً حقيقياً يجمعه بخدمة توصله إليه.

(١) عن أبي حسان العجلي قال: «لقيت أمة الله بنت راشد الهجري فقلت لها: أخبريني بما سمعت من أبيك، قالت: سمعته يقول: قال لي حبيبي أمير المؤمنين عليه السلام: يا راشد كيف صبرك إذا أرسل إليك دعي بني أمية فقطع يديك ورجليك ولسانك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين أكون آخر ذلك إلى الجنة؟ قال: نعم يا راشد وأنت معي في الدنيا والآخرة، قالت: فوالله ما ذهبت الأيام حتى أرسل إليه الدعي عبيد الله بن زياد فدعاه إلى البراءة منه، فقال له ابن زياد: فبأيّ مية قال لك صاحبك تموت؟ قال: خبرني خليلي صلوات الله عليه أنك تدعوني إلى البراءة منه فلا أتبرأ، فتقدمني فتقطع يدي ورجلي ولساني، فقال: والله لأكذبنّ صاحبك، قدموه واقطعوا يده ورجله واركعوا لسانه، فقطعوه ثم حملوه إلى منزلنا، فقلت له: يا أبت جعلت فداك هل تجد لما أصابك ألماً؟ قال: لا والله يا بنية إلا كالزحام بين الناس، ثم دخل عليه جيرانه ومعارفه يتوجعون له فقال: آتوني بصحيفة ودواة أذكر لكم ما يكون مما أعلمنيه مولاي أمير المؤمنين عليه السلام فأتوه بصحيفة ودواة، فجعل يذكر ويملي عليهم أخبار الملاحم والكائنات ويسندها إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فبلغ ذلك ابن زياد، فأرسل إليه الحجام حتى قطع لسانه فمات من ليلته تلك، وكان أمير المؤمنين عليه السلام يسميه راشد المبتلى، وكان قد ألقى إليه علم البلايا والمنايا، فكان يلقي الرجل ويقول له: يا فلان بن فلان تموت مية كذا، وأنت يا فلان تقتل قتلة كذا، فيكون الأمر كما قاله راشد عليه السلام»، أمالي الشيخ، ص ١٠٣ - ١٠٤.

از توای دوست، نگسلم پیوند گربه تیغم بُرند بند از بند
الحق ارزان بود ز ما صد جان وز دهان تو نیم شکر خند

نكران الذات، الطريق إلى الحقيقة

بناءً على ذلك، يمكن، في مكان ما، أن يصبح الشاهد والمشهود والذاكر والمذكور واحداً. ويمكن للمصلي أن ينسى نفسه وأن لا يأخذه العُجب بعبادته، فلا يبقى إلا «هو»^(١).

ومن هنا، ليس الإمام الحسين عليه السلام «ثار الله» جزافاً. ولا هو «قتيل الله» بلا سبب، كما أنه ليس «وتر الله الموتور»^(٢) سدىً. بل ذلك لأنه نسي نفسه فحظي باستغراق توحيدي تام ولم تعد نفسه موجودة وبات كل شيء «هو». ويستحبّ عندما يموت الشيعي أن توضع في كفنه حفنة من التراب^(٣)، فهذا من بيت مال كربلاء، حيث يقول حافظ:

(١) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، سورة البقرة، آية ٢٥٥.

(٢) «السلام عليك يا ثار الله وابن ثاره والوتر الموتور»، (زيارة وارث، مفاتيح الجنان). «السلام عليك يا قَيلَ الله وابن قَيله»، الزيارة المطلقة الأولى للإمام الحسين عليه السلام، مفاتيح الجنان.

(٣) ما ورد عن محمد بن عبد الله بن جعفر الحميري قال: كتبت إلى الفقيه صاحب العصر والزمان عليه السلام أسأله عن طين القبر يوضع مع الميت في قبره، هل يجوز ذلك أم لا؟ فأجاب: «توضع مع الميت في قبره، ويخلط بحنوطه إن شاء الله»، (وسائل الشيعة، ج ٣ ص ٢٩). وهذا غيضٌ من فيض كربلاء، فهذه التربة هي رحمة للمؤمنين وهي تعين ما ورد في دعاء أبي حمزة الثمالي: «إِرْحَمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا غُرْبَتِي وَعِنْدَ الْمَوْتِ كُرْبَتِي وَفِي الْقَبْرِ وَحْدَتِي وَفِي اللَّحْدِ وَحْشَتِي وَإِذَا نُشِرْتُ لِلْحِسَابِ بَيِّنْ يَدِيكَ ذُلَّ مَوْفِي، وَاعْفُ لِي مَا خَفِيَ عَلَى الْأَدْمِيِّينَ مِنْ عَمَلِي وَأَدِّمْ لِي مَا بِهِ سَتَرْتَنِي وَارْحَمْنِي صَرِيحاً عَلَى الْفِرَاشِ تُقَلِّبُنِي أَيْدِي أَجْبَتِي، وَتَفْضُلْ عَلَيَّ مَمْدُوداً عَلَى الْمُغْتَسَلِ يُقَلِّبُنِي صَالِحُ جِيرَتِي، وَتَحَنَّنْ عَلَيَّ مَحْمُولاً قَدْ تَنَاوَلَ الْأَقْرَبَاءُ أَطْرَافَ جَنَازَتِي، وَجُدْ عَلَيَّ مَنُقُولاً قَدْ نَزَلَتْ بِكَ وَجِيداً فِي حُفْرَتِي، وَارْحَمْ فِي ذَلِكَ الْبَيْتِ الْجَدِيدِ غُرْبَتِي حَتَّى لَا أَسْتَأْنِسَ بِغَيْرِكَ»، (مفاتيح الجنان). فالإمام الحسين عليه السلام، وكل ما يرتبط به، هو رحمة الله الواسعة بل هو تعين وظهور وتجلي ومراة الرحمان الرحيم.

پياله بر كفنم بند تا سحرگه حشر به می، ز دل ببرم هول روز رستاخیز
فقیرو خسته به درگاهت آمدم، رحمی که جز ولای تو آم نیست هیچ دست آویز
ويقول في مكان آخر:

در بیابان طلب گر چه زهر سو خطر است می رود حافظ بی دل، به تولای تو خوش

الحبّ موصلٌ للوحدة

إن الظلم، بحدود ارتباطه بعالم الجسم والدنيا وظهوره في جميع مراتب العالم السفلي، هو موجب للوحدة، إذ إنه يجعل الظالم والمظلوم واحداً، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(١). فكيف، إذاً، لا تكون المحبة موجدة للوحدة؟
باده دُرد آلودتان مجنون کند گر بود صافی ندانم چون کند
ما تراه يحصل إن أصبح المحبّ والمحبوب واحداً! كيف يظهر هذا الأمر؟
لقد قال الجميع، ومن دون استثناء، إن المحبّ نفسه لا يعلم بظهور الحبّ. ولكنّ المسألة تختلف في ما يتعلق بالظلم، حيث يعلم الظالم أنه يظلم نفسه^(٢).

محبة الإمام الحسين عليه السلام المكنونة

ورد في الكتب: «كان زهير عثمانياً»^(٣). وزهير بن القين كان فرداً شجاعاً وقديراً كما كان زعيم قبيلة سخي.

لم يعلم هذا العظيم بتجلي الحبّ في نفسه، وكان ظهوره في الدنيا قد تمّ عبر الظلم. أما في باطنه فكان ثمة شيء آخر. في أحد الأيام، فاجأ رفاقه بالقول:

(١) سورة العنكبوت، آية ٤٠.

(٢) الظلم نوعان: تارة يكون المقصود بظلم النفس، ظلم أهل البيت عليه السلام لأنّ «أنفسهم في النفوس» كما ورد في الزيارة الجامعة الكبيرة، و«مَنْ عرف نفسه عرف ربّه»، (غرر الحكم ودرر الكلم، ج ٥ ص ١٩٤ ح ٧٩٤٦)، إذ يعلم أن أنفسهم في نفسه، فيعرف ربّه بذلك، وتارة يكون المقصود بظلم النفس عين نفس الإنسان.

(٣) حياة الإمام الحسين عليه السلام، ج ٣ ص ٦٦.

أريد الذهاب إلى مكة وسأتكفل بنفقات كل من يريد الذهاب معي. كان زهيرٌ لا مبالٍ إلى حدٍ ما في هذا المجال، ولذلك فرح رفاقه لأنه تغيّر وأظهر رغبة في الذهاب إلى مكة. في اليوم الثامن من ذي الحجة، قال زهير لرفاقه: إبقوا أنتم، وسأرحل أنا. فلا أشعر برغبة في البقاء بمكة، ولا بميلٍ نحو الكعبة ومنى، ولستُ راغباً بالذهاب إلى عرفات.

قال له رفاقه: إن هذا خلاف الشرع يا زهير، لا يصحّ لأحدٍ الخروج من مكة «يوم التروية».

فقال لهم: أنا غريق، فما خوفي من البلل. ورغم كل جهودهم، لم يتمكنوا من إقناعه بالبقاء.

إنطلق زهير في اليوم الثامن من ذي الحجة. وبقي رفاقه في مكة كي لا يخسروا دينهم! «أينما ذهبَت الشمس، تصحب معها شعاع نورها». ثم قرّر واحد أو اثنان من رفاقه الذهاب معه. وبعد أن خرجوا وقطعوا مسافةً بضعة فراسخ، وصل إليهم خبر خروج الإمام الحسين عليه السلام من مكة أيضاً. فكان كل همّ زهير أن لا يلتقي بالإمام الحسين عليه السلام في أيّ مكان. وكان يقول لرفاقه: أرجو أن لا يراني ويسبّب لي المتاعب في الكوفة. كان يبتعد^(١)، ولكنه في الحقيقة قريب.

إقتربوا من الكوفة ووصل الخبر بأن زهيراً على بعد بضعة فراسخ فقط. كانت زوجته هناك. أُعِدَّ الغداء ووضِع على المائدة. وما إن امتدّت يده نحو الطعام، حتى وصل فارس من البعيد وترجّل عن فرسه سائلاً: من هو زهير؟ قال: أنا هو، ماذا لديك؟ فقال الفارس: أجِبَ الحسين، أنا آتٍ من طرفه وهو يريدك. ولكنّ زهير أجاب بحدّة قائلاً: إذهب وقل له إنّي لن آتي ولا شغل لي معك، ما لي وما للحسين، أنا لا أعرفه أصلاً.

(١) روى أبو مخنف عن بعض الفزاريين أنّه قال: «كنا مع زهير بن القين حين أقبلنا من مكّة نسائر الحسين عليه السلام، فلم يكن شيء أبغض إلينا من أن نسائره في منزل، فإذا سار الحسين عليه السلام تخلّف زهير، وإذا نزل الحسين تقدّم زهير»، (بحار الأنوار، ج ٣٣ ص ٣٧٢؛ تاريخ الطبري، ج ٥ ص ٣٩٦). مولاي، أنت أقرب إليّ مني لكنني بعيدٌ عنك.

رحل الرسول. ولكن زهير لم يتمكن من تناول الطعام وقال إن الغم أصابه. ألحّت عليه امرأته بأن يتناول غداءه. ولكن بعد مرور دقائق، وما إن مدّ زهير يده مرة أخرى إلى الطعام، حتى سمع صوتاً يناديه من خارج الخيمة: يا زهير! قالت له زوجته: قم وانظر ما يريد ابن فاطمة عليها السلام. لم يعد بإمكانه أن يقول إنه لا يريد المجيء. قام لا إرادياً وخرج من خيمته لرؤية الإمام الحسين عليه السلام. همس الإمام بشيء في أذن زهير ولم يزد عليه كلمة واحدة، ولا يعلم أحد بما حدث الحسين زهيراً حتى دخل خيمته وقال لزوجته: كل أملاكي وأموالي باتت لك، «قد طلقتك»^(١). فقالت له زوجته: أأتركك؟ أنا أول من قال لك بأن تذهب لتُصغي إلى ما يريده ابن فاطمة عليها السلام. قسماً بالله لا أتركك، ما لم تكن شفيعاً لي عند أمّه الزهراء عليها السلام. فقال لها زهير وهو على عجلة من أمره: قبلت. إنطلق في طريقه حتى وصل إلى الإمام عليه السلام فقال له: نحن نضمن لك الوفاء بما وعدت به زوجتك أمّا فاطمة عليها السلام.

ألا تريد أن تأتي! إن أراد هو، يأتي بك^(٢). إن ارتباط المحبة هذا يكون

(١) في حديث جرى بين عليّ الأكبر عليه السلام وحبيب بن مظاهر: «يا عم حبيب، إن أهل الكوفة قد تألبوا لقتال أبي الحسين واستلوا سيوفهم عليه ونحن أسرة قليلة لا تنهض بالدفاع عنه ولا عن سلامته، فلو أن أبي يسلم ونحن نُقتل ما بالينا بالموت فالله في هذه النسوة والأطفال إذا جنّ عليهم الليل وهم من غير محام ولا كفيل ولا حمى ولا وليّ. فأطرق حبيب رأسه إلى الأرض هنيئة ثم رفع رأسه وقال: ما الذي تريد يا ابن سيّدنا؟ قال: أريد منك أن تشير على والدي بالرجوع إلى المدينة. فقال حبيب: هيهات يا ابن سيّدنا قد جرى في علم الله ما تحاذر ولأجل أبيك طلقنا حلائلنا وفارقنا أهاليّنا وأعرضنا عن زهرة دنيانا، أما عمك حبيب فشيخ كبير قد أعرض عنه النعيم الفاني أفلا تحبّ أن يرحل إلى النعيم الباقي؟ وما أشوقني أن أكون أول قتيّل بين أيديكم ولا أسمع واعيتكم ولا أرى هاشمية تُسبى. فقال علي بن الحسين عليه السلام: أما أنت يا عم فقطب رحاها وليث وغاها وأنا إنما استعملت خبرك بكلامي معك لأواجه به عمتي زينب...»، ثمرات الأعواد، ج ١ ص ٢١٢.

(٢) ﴿إِنَّ مَا تَكُونُوا يَأْتِي بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ (سورة البقرة، آية ١٤٨). وهل يمكن أن يقاوم الرسم الرسّام؟

كامناً^(١) في ذات الإنسان، بحيث إنه في بعض الأحيان يُحجَّبُ خلف الأستار فلا يدري الإنسان نفسه بهذه المحبة.

لقد خرج زهير من مكة في الثامن من ذي الحجة، فمن هو ذلك الذي تحرّك ودفعه هو الآخر إلى التحرك؟ ألم يخرج الإمام الحسين عليه السلام أيضاً من مكة في الثامن من ذي الحجة؟ قالوا: «شيعتنا منا، خلقوا من فاضل طينتنا»^(٢).

(١) ورد في الحديث: «إن للحسين محبة مكتومة في قلوب المؤمنين»، الخرائج والجرائح، ج ٢ ص ٨٤١ - ٨٤٢.

(٢) (بحار الأنوار، ج ٥٣ ص ٣٠٢). دخل أبوحنيفة على أبي عبد الله عليه السلام فقال له: «إني رأيت ابنك موسى يصلي والناس يمرّون بين يديه فلا ينهّاهم، وفيه ما فيه، فقال أبو عبد الله عليه السلام: ادع لي موسى، فلما جاءه قال: يا بني، إن أبا حنيفة يذكر أنك تصلي والناس يمرّون بين يديك فلا تنهّاهم، قال: نعم يا أبة، إن الذي كنت أصلي له كان أقرب إليّ منهم، يقول الله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ قال: فضمّه أبو عبد الله عليه السلام إلى نفسه وقال: بأبي أنت وأمي يا مودع الأسرار. فقال أبو عبد الله عليه السلام: يا أبا حنيفة القتل عندكم أشدّ أم الزنا؟ فقال: بل القتل، قال: فكيف أمر الله في القتل بشاهدين وفي الزنا بأربعة؟ كيف يدرك هذا بالقياس؟ يا أبا حنيفة، ترك الصلاة أشدّ أم ترك الصيام؟ قال: بل ترك الصلاة، قال: فكيف تقضي المرأة صيامها ولا تقضي صلاتها، كيف يدرك هذا بالقياس؟ ويحك يا أبا حنيفة، النساء أضعف على المكاسب أم الرجال؟ قال: بل النساء، قال: فكيف جعل الله للمرأة سهماً وللرجل سهمين؟ كيف يدرك هذا بالقياس؟ يا أبا حنيفة الغائط أقدر أم المنى؟ قال: بل الغائط، قال: فكيف يُستنجى من الغائط ويُغتسل من المنى؟ كيف يدرك هذا بالقياس؟ ويحك يا أبا حنيفة تقول سأنزل مثل ما أنزل الله؟ قال: أعوذ بالله أن أقوله، قال: بلى تقوله أنت وأصحابك من حيث لا تعلمون. قال أبوحنيفة: جُعِلْتُ فداك حدثني بحديث نحدّث به عنك، قال: حدثني أبي محمد بن عليّ، عن أبيه عليّ بن الحسين عليه السلام، عن أبيه الحسين بن عليّ عليه السلام، عن أبيه علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم أجمعين قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله أخذ ميثاق أهل البيت من أعلى عليين وأخذ طينة شيعتنا منا ولو جهد أهل السماء وأهل الأرض أن يغيّروا من ذلك شيئاً ما استطاعوه، قال: فبكى أبوحنيفة بكاءً (شديداً) وبكى أصحابه ثم خرج وخرجوا»، (الاختصاص، ص ١٨٩ - ١٩٠). «إنّ محبّتهم وشيعتهم... خلقهم الله تعالى من تلك الطينة، إلّا أنّهم عليهم السلام خلقوا من أعلاها وشيعتهم من أسفلها، وتلك الطينة طينة عليّين التي هو مرتبة اسم الله، =

اسم وذكر السيِّدة فاطمة ؑ

في ما نقلناه عن زهير، أدركنا سرّاً وهو أن تلك الأسماء الطيبة والطاهرة قد كُتبت منذ الأزل، حيث لا ينقص من هؤلاء، الإثنين والسبعين، واحداً ولا يزيد عليهم واحد^(١).

ولكن، كيف حصل زهير على القبول من الإمام ؑ؟ أي، ما كان منشأ ذلك؟ كان منشأ ذلك كلام زوجته الذي صدر من ناحية السيِّدة فاطمة ؑ، حيث قالت: إذهب إلى ابن فاطمة ؑ.

قسماً بالإمام الحسين ؑ نفسه أن الاسم المبارك والمعظم للسيدة فاطمة ؑ له مؤثرية كبيرة عند أهل البيت ؑ^(٢). ولذلك قال الإمام

=وعالم النور، وسرّ آل محمّد ؑ الذي في كل نفس له آية ومرآة»، الشمس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٢٩٠.

(١) جاء في الأحاديث الشريفة أن أصحاب الحسين ؑ معروفون بأسمائهم من قبل واقعة الطف، حيث روى ابن شهر آشوب قال: «عُتِفَ ابن عباس على تركه الحسين ؑ فقال: إن أصحاب الحسين ؑ لم ينقصوا رجلاً ولم يزيدوا رجلاً، نعرفهم بأسمائهم من قبل شهودهم، وقال محمد بن الحنفية وإن أصحابه ؑ عندنا لمكتوبون بأسمائهم وأسماء آبائهم»، (مناقب آل أبي طالب، ج ٤ ص ٥٣؛ بحار الأنوار، ج ٤٤ ص ١٨٥). وروى بن قولويه قال: حدثني الحسن عن أبيه عن محمد بن عيسى عن صفوان بن يحيى عن يعقوب بن شعيب عن حسين بن أبي العلاء قال: «والذي رفع إليه العرش لقد حدثني أبوك بأصحاب الحسين ؑ لا ينقصون رجلاً ولا يزيدون رجلاً، تعتدي بهم هذه الأئمة كما اعتدت بنو إسرائيل يوم السبت...»، كامل الزيارات، ص ٧٣؛ وعنه بحار الأنوار، ج ٤٥ ص ٨٧.

(٢) قال أمير المؤمنين ؑ: «... إنَّ الحسن والحسين سبطا هذه الأئمة، وهما من محمّد كَمَكَانَ العينين من الرأس، وأمّا أنا فكَمَكَانَ اليد من البدن، وأمّا فاطمة فكَمَكَانَ القلب من الجسد، مثُلْنَا مثُلُ سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق»، (كتاب سليم بن قيس، ص ١٥٣ - ١٥٤). من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنَّ رضا الأئمة ؑ يتحقّق بمجرد ذكرك فاطمة سلام الله عليها، حيث يتوجّه نحوك كلّ الأئمة بالميل والرغبة عند سلامك عليها».

الصادق عليه السلام : عندما نواجه مشكلة، نحن أهل البيت، نقسم على الله بأمنا فاطمة ^(١) عليها السلام.

وثمة رجل آخر في كربلاء نال مقامه من هذا الطريق نفسه، وهو الحرّ الرياحي ^(٢). فعندما قطع الطريق على الحسين عليه السلام، سأله الإمام: لم تقطع

(١) روى الكليني بسنده عن علي بن أبي حمزة، أنه استأذن من الإمام الكاظم أن ينقل عنه حديثاً عن جدّه الإمام الباقر عليه السلام فقال: «إنه إذا كان وعك (أي أصابه الحمى) استعان بالماء البارد، فيكون له ثوبان: ثوب في الماء البارد، وثوب على جسده، يراوح بينهما، ثم ينادي حتى يسمع صوته على باب الدار: يا فاطمة بنت محمد، فقال الإمام الكاظم عليه السلام : صدقت»، (الكافي، ج ٨ ص ١٠٩ ح ٨٧). كما روى المفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام : «قال إذا كانت لك حاجة إلى الله وضقت بها ذرعاً فصلّ ركعتين فإذا سلمت كبر الله ثلاثاً وسبّح تسبيح فاطمة عليها السلام ثم اسجد وقل مائة مرة «يا مولاتي فاطمة أغثيني» ثم ضع خدك الأيمن على الأرض وقل مثل ذلك ثم عدّ إلى السجود وقل ذلك مائة مرة وعشر مرات واذكر حاجتك فإن الله يقضيها»، (بحار الأنوار، ج ٩١ ص ٣٠). من كلام للسيد محمد الشيرازي رحمته الله : «إن الصديقة الطاهرة عليها السلام كسائر المعصومين عليهم السلام لها الولاية التكوينية والتشريعية، وهي صلوات الله عليها وكذلك سائر أهل البيت عليهم السلام قد جعلهم الله الوسائط في خلق العالم والعلّة الغائية له. كما أنّها وإنهم عليهم السلام سبب لطف الله تعالى وإفاضته على العالم، واستمرار قيام العالم بها وبهم عليهم السلام... لولاها لساخت الأرض وانهدم العالم».

(٢) يرتكب الإنسان الكثير من الذنوب ولكنه يتخلّص منها حين يوفّق للتوبة الحقيقية، إذ أنّ «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»، كما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام، (مصباح الشريعة، ص ٩٨). غير أن هناك بعض الذنوب لا تزول آثارها التكوينية حتى وإن تاب مرتكبها ونجا من آثارها الشرعية. وقد ورد كلامٌ عن الإمام الصادق عليه السلام يوصي فيه شيعته بعدم ارتكاب الذنوب لأن لها آثاراً سيئة على روح المؤمن. فحتى إنّ وفق المذنب للتوبة وقبل الله تعالى توبته وغفر ذنبه، يبقى أثر الذنب موجوداً في روح الإنسان. فهل من سبيلٍ لمحو هذه الآثار كلياً؟

في الواقع لم يرد في الروايات وفي كلام العرفاء سبيلٌ لمحو الذنوب وآثارها على نحو تامٍّ إلا سبيل زيارة الحسين عليه السلام والبكاء على مصابه. فقد سئل الإمام الصادق عليه السلام عن فضل إتيان قبر الحسين عليه السلام، فقال: «حدّثني أبي عن جدّي أنّه كان يقول: من زاره يريد به وجه الله أخرجه من ذنوبه كمولود ولدته أمّه»، (بحار الأنوار، ج ١٠١، ص ١٩)، فهل رأيتم يوماً مولوداً ملوثاً بالذنوب أو آثارها؟ وعن الإمام الرضا عليه السلام : «فعلى مثل =

=الحسين فليبك الباكون، فإنَّ البكاء عليه يحطّ الذنوب العظام»، (أمالى الصدوق، ص ١٩٠). ويقارن آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى بين التوبة الاعتيادية والتوبة من باب الحسين عليه السلام من خلال تشبيه لطيف، حيث يقول: «أثر الذنب يبقى في روح الإنسان مثل الجراحة التي تترك آثارها في الوجه أو اليد أو الرقبة أو القدم، ومثل الحوادث التي تخلف علامات على جسد الإنسان حتى آخر عمره. فصحيح أن الجرح يلتئم ويشفى إلا أن أثره يبقى موجوداً ليدلّ على ما حدث سابقاً»، أما البكاء (الذي يستبطن المعرفة) على مصيبة الحسين عليه السلام فلا يُبقي أثراً للذنوب، «كما تفعل الجراحة التجميلية مع الجروح». وإذا كان هذا حال الباكي على الحسين وزائره، فما حال من تاب بين يديه وقَدّم روحه ونفسه وكل مراتب وجوده فداءً له؟

هناك من يرى أن ما صدر عن الحرّ الرياحي رضوان الله عليه من جمعجة بالحسين وأولاده ونسائه وأصحابه عليهم السلام بقي له آثارٌ ارتدّت على الحرّ حتى بعد قبول توبته. فعلى سبيل المثال، لم يُدفن الحرّ مع بقيّة الأصحاب عند قدَمي الإمام الحسين عليه السلام، وبالتالي لا يُزار الحرّ كلّما تمّت زيارة الإمام عليه السلام، وقد جُعِل مكان دفنه على بُعد مسافة من كربلاء. وكذلك يقال إن الحرّ لم يُقَطع رأسه كسائر الأصحاب بسبب تدخّل قومه وحؤولهم دون ذلك.

في الواقع، لم يُدفن جميع الأصحاب عند قدَمي الإمام سلام الله عليه، فمثلاً حبيب بن مظاهر دُفن منفرداً وإن كان على مقربة منه عليه السلام. وكذلك دُفن مسلم بن عقيل وهاني بن عروة في الكوفة بعيداً عن كربلاء. وعلى رأس من ذكرنا، يأتي المولى أبو الفضل سلام الله عليه، الذي دُفن بعيداً عن الإمام الحسين عليه السلام عند نهر العلقمي. فهل إن حبيب أو مسلم أو هاني أو أبا الفضل قد ارتكبوا ذنباً حالكاً دون دفنهم عند رجلي الحسين عليه السلام كما يُقال عن الحرّ؟ وإن كان الدفن في مكانٍ منفصل عن مرقد الحسين عليه السلام يُعدّ نقصاناً بالفضيلة، فماذا عن مولاتنا زينب عليها السلام التي دُفنت في مكانٍ بعيدٍ عن أخيها الحسين عليه السلام؟ وماذا عن مولاتنا رقية عليها السلام التي قضت المشيئة الإلهية بأن تُدفن على بعد آلاف الأميال من موضع دفن أبيها الحسين عليه السلام؟

ولم لا تُرى المسألة من زاوية أكثر إشراقاً؟ فلعلّ انتشار مراقد الأصحاب وأهل البيت عليهم السلام في بلدان متنوعة هدفه، من جهة، ظهور النور في كل أرض، حتى الخبيثة والملعونة منها، ومن جهة أخرى نشر مظاهر الرّحمة التي يلوذ بها الناس للتوبة والمغفرة وقضاء الحوائج، وعدم حصرها ببقعة واحدة. فلم لا تعتبر مسألة دفن الحرّ رضوان الله عليه في مكان منفصل عن بقيّة الشهداء نوعاً من الامتياز الذي خصّه الله تعالى به دون غيره من الشهداء؟ حيث جعل الله تعالى له مقاماً مخصوصاً ومرقداً مستقلاً ومشهداً منفرداً، يتوجّه إليه الأولياء وعموم الناس من أقصى البلدان، ويخصّونه بالزيارة للدعاء=

=وتحصيل المعنويات وطلب الحوائج.

أما بالنسبة لزيارة الأصحاب، فإنه من المعلوم أنَّ زيارة الأصحاب بمفهومها العام تشمل جميع الأصحاب دون استثناء أينما كانوا. ومع ذلك، فإن هناك زيارتين، إحداهما تسمّى الرجبية للإمام الصادق (عليه السلام)، والأخرى منسوبة إلى زيارة الناحية المقدسة، تذكّران الأصحاب بأسمائهم ومن ضمنهم اسم الحرّ بن الرياحي، «السلام على الحرّ بن الرياحي»، (الزيارة المنسوبة إلى الناحية المقدسة، كتاب الإقبال، ص ٥٧٣ - ٥٧٧)، «السلام على الحرّ بن يزيد الرياحي»، (بحار الأنوار، ج ١٠١ ص ٣٤٠) وبالتالي هو غير مستثنى من زيارة الأصحاب وإن كان غير مدفون معهم. كما أن الإمام الحسين (عليه السلام) قد شمل أصحابه جميعاً بالمديح حين قال: «فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي»، (الإرشاد، ج ٢ ص ٩١)، فلا يمكن استثناء الحرّ الرياحي من الأصحاب، بأي شكل من الأشكال.

أما في ما يتعلق بمسألة قطع الرؤوس، فلم يُنقل أن جميع رؤوس الأصحاب قد قُطعت، وهناك اختلاف «في عدد الرؤوس بين الروايات: ٦١ أو ٧٠ أو ٧٢ أو ٧٥ أو ٧٨»، (أنصار الحسين، ص ٦٠). كما أنَّ واقع عدم قطع رأس الحرّ ترافق مع خاصية امتاز بها وحده رضوان الله عليه وهي شدّ رأسه بعصابة كانت قد نسجتها السيدة الزهراء (عليها السلام)، حيث «عصّب الحسين رأس الحرّ بمنديل»، (الحسين في طريقه إلى الشهادة، ص ٩٧). وممّا يُنقل أنَّ الشاه إسماعيل الصفوي حفر قبر الحرّ ووجد جسده سالمًا، ولما أراد فتح العصابة التي على رأسه سال دمه، فأعادوها كما كانت، (سفينة البحار، ج ١ ص ٢٤٢، نقلًا عن الأنوار النعمانية للسيد نعمة الله الجزائري). وهنا نتقلنا هذه الحادثة إلى فضيلة أخرى اختصّ بها الحرّ الرياحي، حيث بقيّ جسده سالمًا بعد مرور زمن طويل على استشهاد، ما يعني أنه ما زال للحرّ وجودٌ في عالم الأبدان إضافة إلى وجوده في عالم الأرواح، وهو ما لا نعرفه عن باقي الشهداء، إذ كما هو معلوم فقد حُفِرَ حول قبر أبي عبد الله الحسين (عليه السلام) مراراً ولكن لم يرَ أي أثرٍ لأجساد الأصحاب رضوان الله عليهم.

علاوة على ذلك، فقد أشاد الحسين (عليه السلام) بالحرّ وأثنى عليه قبيل استشهاد وقال فيه شعراً بدايته: «لنعم الحرّ حرّ بني رياح...». وليس هذا فحسب، بل إن الإمام (عليه السلام) اعتبر عليه فكيف يمكن لمن اعتبر عليه سيّد الشهداء (عليه السلام) أن يُعاقب على ذنب قد تاب منه؟! «سقط (الحرّ) على الأرض وبه رمق، فكّر عليه أصحاب الحسين (عليه السلام) واحتملوه حتّى ألّقوه بين يدي الحسين (عليه السلام)، فجعل يمسح الدم والتراب عن وجهه ويقول له: ما أخطأت أمك إذ سمّتك حرّاً، أنت الحرّ في الدنيا والحرّ في الآخرة. ثم اعتبر (عليه السلام)، (مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمي، ج ٢ ص ١١).

كما أن الحرّ كان أوّل من استشهد بين يدي الإمام الحسين (عليه السلام)، إذ طلب الحرّ من=

=مولاه بعد توبته أن يكون أول المدافعين عنه والمستشهادين بين يديه، حيث قال: «يا بن رسول الله، كنت أول خارج عليك فأذن لي لأكون أول قتيل بين يديك»، (مقتل الحسين عليه السلام لابن نما، ص ٤٤). والسؤال هنا: هل المقصود بـ«الأول»، الأول بالعدد أم الأول بالتويع والاتصال بالحقيقة؟ في الواقع، ليس كل أصحاب الحسين عليه السلام فتحوا أبواباً للناس للعبور إلى الله، أما الحرّ الرياحي فقد كان أول من فتح للناس باباً ليعبروا منه إلى الحقيقة وهو باب التوبة النصوح، ولعلّه من أجل ذلك ارتكب الحرّ ذلك الذنب من البداية، لأنّه بحسب ما يُروى فقد بُشّر الحرّ خيراً لحظة خروجه إلى كربلاء وحتى قبل إعلان التوبة، إذ قال أهل المقاتل: إنّ الحرّ لمّا انحاز إلى الحسين عليه السلام يوم عاشوراء قال له: «لَمَّا وَجَّهَنِي عبيدالله بن زياد إليك، خَرَجْتُ من القصر فتُودِيتُ من خلفي: أبشُر بخير! فالتَفْتُ فلم أرَ أحداً. فقلتُ: والله ما هذه بشارَةٌ وأنا أسير إلى الحسين، وما أحدث نفسي باتِّباعك. فقال له الإمام الحسين عليه السلام: أصبَتْ أجراً وخيراً»، (الإرشاد ج ٢ ص ١٠٢؛ مثير الأحرار، ص ٦٠). ولذلك يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «فعلى كل من يريد لتوبته أن تُقبل وتنال موافقة الله والملائكة والأنبياء والرسول والحسين عليه السلام، أن يُعلن توبته عن طريق الحرّ، وليقل: بعزة الحرّ يا الله، إقبل توبتي»، (كربلاء الشهود، ص ١٥٤).

إن الله تعالى يحبّ التوابين ويحبّ المتطهرين. ويمثّل الحرّ الرياحي رضوان الله عليه تعيّن التوبة في كربلاء، فقد كان مصداقاً لأولئك الذين ذكرهم الله عزّ وجلّ في كتابه بالقول: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾، (سورة الفرقان، آية ٧٠). وإن من شروط التوبة الندم على الذنب، وقد أحرز الحرّ هذا الشرط على أحسن وجه، حيث احترقت نفسه ندماً وروحه عشقاً، والعشق نار تحرق كل ما سوى المعشوق، فوصل إلى الشهادة بعد أن انتفت أنانيته وإنيته على نحو تامّ واندكّ وجوده بالكامل في معشوقه. فهل نعلم بعد ذلك إلى وضع أفكارنا وقواعدنا مقابل قول المعصوم، الذي قبل الحرّ وتوبته، ونأتي بأحكام ما أنزل الله بها من سلطان؟ فما لكم كيف تحكمون! ﴿وَلَا تَبْخُسُوا الْكَاسَ أَسْيَاءَهُمْ﴾ (سورة الأعراف، آية ٨٥).

وهنا، ثمة ما ينبغي إيضاحه عن التوبة ومعناها وأنواعها. فالتوبة تعني العزم على ترك الذنب والعودة إلى الله سبحانه وتعالى، وهي على نوعين: التوبة العادية التي يمكن للإنسان بعدها أن يعود إلى الذنب ثانيةً والتوبة النصوح التي لا يمكن للمذنب بعد إحرارها أن يرجع إلى ذنبه مطلقاً. وأغلب الناس تكون توبتهم عادية لأنها تفتقر إلى الإخلاص، ومن أجل ذلك ورد في الدعاء: «كم أتوب وكم أعود». غير أن الطريق الأسهل لتحقيق التوبة النصوح هو طريق الحسين عليه السلام، لأن القلب ينكسر في عزائه، وعندما ينكسر القلب يحضر الله عند صاحبه، إذ يقول عزّ وجلّ: «أنا عند المنكسرة=

=قلوبهم»، (منية المريد، ص ١٢٣)، وحينها يُوفَّق المذنب للتوبة النصوح. وقد تاب الحرّ من باب الحسين بن عليّ ؑ حيث قدّم الإمام بين يدي توبته وقال له: «أنا تائب إلى الله تعالى فهل ترى لي من توبة؟ فقال له الحسين ؑ: نعم، يتوب الله عليك»، وحين قُبِلَ الحسين ؑ توبة الحرّ، تاب الله عليه. ومثلما أن الماء الكثير والمطلق يطهر كافة النجاسات حتى عين النجاسة كالبول والغائط والدم... فكذاك للولاية القدرة على أن تطهر كل النجاسات حتى العينية منها كالرجس والخبث والكفر والشرك والنفاق وما إلى ذلك. وإنما يستعظم أو ينكر أو يشك في ذلك من لا يعرف الله ولا يقدره حق قدره بسبب جهله، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (سورة الزمر، آية ٦٧)، كما ورد عنهم ؑ: «الويل كل الويل لمن أنكر فضلنا وخصوصيتنا، وما أعطانا الله ربنا لأن من أنكر شيئاً مما أعطانا الله فقد أنكر قدرة الله عزّ وجلّ ومشيتّه فينا»، (بحار الأنوار، ج ٢٦ ص ٦ - ٧). فمن يقول إن الحسين ؑ لا يقدر على تطهير أحدٍ من ذنبه طهارة كليّة، إنما يقلّل من قدرة الحسين ؑ وعظمته، وبالتالي، من قدرة الله عزّ وجلّ وعظمته، حيث تجلّت بأهل البيت ؑ تمام القدرة الإلهية.

ولنضع كل ما تقدّم في شأن الحرّ بكفّة وما سيأتي بكفّة أخرى. إنّ من يطالع سيرة الحرّ الرياحي في كربلاء، يجد أن للصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء ؑ دوراً فيها أقلّه في موقفين. الأوّل حين دار بين الحرّ والحسين ؑ حديثٌ قال فيه الإمام للحرّ: ثكلتك أمّك ما تريد؟ فقال له الحرّ: «يا أبا عبد الله، لو أنّ غيرك من العرب يقولها لي لأجبتّه وما تركت ذكر أمّه بالثكل كائناً من كان، ولكن والله ما لي إلى ذكر أمّك من سبيل إلّا بأحسن ما أقدر عليه»، (معالم المدرستين، ج ٣ ص ٧١). والموقف الثاني، حين عصّب الحسين ؑ رأس الحرّ بمنديل كان من صنع الزهراء ؑ. ومن هنا، نخلص إلى أن الحرّ الرياحي قد حظي بعناية مولاتنا فاطمة واختيارها واصطفائها من البداية. ويذكر العرفاء أن العوالم الكلية خمسة: الأوّل: حضرة الغيب المطلق وعالمها عالم الأعيان الثابتة في الحضرة العلمية، ويسمى بالغيب، وعالمها عالم الأمر والربوبية والعقل. والثاني: حضرة الشهادة وعالمها عالم الحضرات الأعيان الثابتة العينية، وعالم الشهادة، وهو عالم الملك والشهادة المطلقة، إلى آخر العوالم... ويذكر أهل المعرفة أن السيدة فاطمة سلام الله عليها هي حضرة الغيب المطلق وهي الحضرة العلمية المسماة بالغيب، وأول صفة للمتقين هي ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (سورة البقرة، آية ٣)، وقد قال رسول الله ﷺ: «فاطمة بضعة منّي وهي قلبي وهي روعي التي بين جنبي»، (أمالي الصدوق، ص ١٧٥). وقد نزل الروح الأمين بالقرآن الكريم نزولاً إجمالياً على قلب رسول الله ﷺ أي على فاطمة ؑ، ولهذا كانت هي الحضرة العلمية. كما قال أمير المؤمنين ؑ: «ظاهري ولاية ووصاية، وباطني غيب لا يدرك»، (مشارك أنوار=

=اليقين، ص ٧٠)، ولهذا تسمى سلام الله عليها بالغيب، إذ إنها باطن الأئمة (عليه السلام). وكذلك، يعين أهل المعرفة قلب الله بفاطمة (عليها السلام) والعقل الكلّي برسول الله (صلى الله عليه وآله) والنفس الكلية بأمير المؤمنين (عليه السلام)، ولذلك فإنهم يشيرون على كلّ من يعاني من خللٍ في القابلية والسعة الوجودية المرتبطة بالقلب بأن يتوسّل بالسيدة الزهراء (عليها السلام) لأنها الوحيدة القادرة على قلب الأعيان - والأعيان مفردها العين أي ذات الشيء وحقيقته - وذلك لأنها سلام الله عليها، كما ذكرنا آنفاً، الحضرة العلميّة والغيب وقلب الله. وبناءً على ذلك، بات يمكن فهم انقلاب الحال الذي طرأ على الحرّ الرياحي وتحوّله من مُجعّجٍ بالحسين ونسائه وأطفاله إلى ناصرٍ لهم وشهيدٍ بين أيديهم. وتقول الرواية إن رجلاً جاء إلى النبي (صلى الله عليه وآله) وقال: «يا رسول الله إني أحبّ الله. فقال النبي (صلى الله عليه وآله): استعدّ للبلاء. فقال: إني أحبك. فقال: استعدّ للفقير. فقال: إني أحبّ أمير المؤمنين (عليه السلام). فقال: استعدّ للأعداء»، (الخصائص الفاطميّة، ج ٢ ص ٤٥٣). ولكن ماذا عمّن يحبّ فاطمة (عليها السلام)؟ لعلّ من يحبّ فاطمة سلام الله عليها ويرتبط بالحضرة العلمية وغيب الأئمة يُعفى من كل تلك الآثار ويسلم من البلاءات، وفي الوقت نفسه يحصل على أعظم المنازل والمقامات، ولهذا لم يُقطّع رأس الحرّ الذي حمل عصابة من نسيج الزهراء وبقي جسده سالماً، وخُصّص له مرقدٌ منفردٌ، فليس مردّ ذلك إلى الآثار التكوينية المتأثّية من ذنبه، إذ كيف لمن حصل على عناية السيدة فاطمة الزهراء في باب الحسين (عليه السلام) أن يبقى لذنبه أثر تكوينيّ كان أم وضعيّ، مهما كان حجم ذلك الذنب؟

وبالكلام عن الحرّ الرياحي، ثمة ما يجدر ذكره من باب اللطائف الولايتيّة: حين أتى الحرّ الرياحي ليعلّن توبته للإمام الحسين (عليه السلام)، كان قادماً إلى معسكر سيّد الشهداء وكلّه ندمٌ وانكسار. وقد كان حاضراً في ذلك الموقف كلّ من العبّاس وعليّ الأكبر والسيدة زينب والإمام الحسين (عليه السلام). وحين رآه آل الله على تلك الحال من الخجل وذللّ الموقف، طأطأ العبّاس وعليّ الأكبر رأسيهما إلى الأرض كي لا يزيدا من خجل الحرّ، واستقبلته زينب (عليها السلام) قائلةً له: مرحباً بناصرنا، وقبل الحسين (عليه السلام) توبته، وذلك رغم أن الذنب الذي ارتكبه الحرّ لم يكن بسيطاً. غير أن الأمور عند أهل البيت (عليهم السلام) لا تقاس بمقاييس البشر أمثالنا، فهم مظهر الرحمة والكرم، حيث قالوا (عليهم السلام): «نحن أهل بيت لا نزداد على المذنب إلينا إلا كرمًا وعفوًا، والرحمة والشفقة من شيمتنا لا من شيمته»، (بحار الأنوار، ج ٤٢ ص ٢٨٨). أما نحن، فإذا أخطأ بحقنا أحد - علماً أنه مهما يكون خطؤه فلن يصل إلى حجم ذلك الخطأ الذي ارتكب بحق أهل البيت (عليهم السلام) - فإن أدنى ما نقابله به حين يأتي تائباً أن نرمقه بنظرات حادة ولاذعة فضلاً عن العتاب الذي نوجّهه إليه والآثار التي نُقيها له في قلوبنا، ولعلّ من يقول بأنّ لذنب الحرّ آثاراً باقية بعد توبته، يقيس الأمر على نفسه لا على أهل البيت (عليهم السلام) ومن بينهم الحسين (عليه السلام) بالخصوص، الذي هو رحمة الله الواسعة.

الطريق علي؟ فقال: إنه أمر الأمير. قال له الإمام (عليه السلام): دعني أنصرف. أجابه الحرّ: لا يمكن ذلك^(١). فقال الحسين (عليه السلام): إني ماضٍ. قال له الحرّ: سأجعلك تترجّل عن جوادك. لم يكن هناك مَنْ يقول للحرّ: مَنْ الذي تريد أن تنزله عن جواده؟ لقد جاء إلى هنا بنفسه حتى ينزل على قدميه.

عندها، قال له الإمام (عليه السلام) بلهجة حادة: ثكلتك أمّك. حتى تلك اللحظة، كان الحرّ ينظر إلى وجه الإمام (عليه السلام)، ولكن ما إن وقع ذلك الكلام على

(١) «فلما أصبح نزل فصلّى الغداة، ثمّ عمل الركوب وأخذ يتياسر بأصحابه يريد أن يفرّقهم، فيأتيه الحرّ بن يزيد فيردّه وأصحابه، فجعل إذا ردّهم نحو الكوفة ردّاً شديداً امتنعوا عليه فارتفعوا، فلم يزلوا يتسايرون كذلك حتّى انتهوا إلى نينوى، المكان الذي نزل به الحسين (عليه السلام)، فإذا راكب على نجيب له عليه السلاح متنكبّ قوساً مقبلاً من الكوفة، فوقفوا جميعاً ينتظرون، فلما انتهى إليهم سلّم على الحرّ وأصحابه ولم يسلم على الحسين (عليه السلام) وأصحابه، ودفع إلى الحرّ كتاباً من عبيد الله بن زياد لعنه الله فإذا فيه: «أما بعد، فجمع بالحسين حين يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولي، ولا تنزله إلا بالعراء في غير خضر وعلى غير ماء، وقد أمرت رسولي أن يلزمك ولا يفارقك حتّى يأتيني بإنفاذك أمري، والسلام». فلما قرأ الكتاب قال لهم الحرّ: هذا كتاب الأمير عبيد الله، يأمرني أن أجمع بكم في المكان الذي يأتي كتابه، وهذا رسوله وقد أمره أن لا يفارقي حتّى أنفذ أمره فيكم. فنظر يزيد بن المهاجر الكندي - وكان مع الحسين (عليه السلام) - إلى رسول ابن زياد فعرفه، فقال له يزيد: ثكلتك أمّك ماذا جئت فيه؟ قال: أطعت إمامي، ووفيت ببيعتي. فقال له ابن المهاجر: بل عصيت ربّك وأطعت إمامك في هلاك نفسك، وكسبت العار والنار، وبئس الإمام إمامك، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَوْمَ﴾ فإمامك منهم. وأخذهم الحرّ بالنزول في ذلك المكان على غير ماء ولا في قرية، فقال له الحسين (عليه السلام): دَعْنَا وَيَحْكُ، نَنْزِلُ فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، أَوْ هَذِهِ - يعني نينوى والغاصرية - أَوْ هَذِهِ يعني شفيّة، قال: والله! ما أستطيع ذلك، هذا رجل قد بعث إليّ عيناً عليّ. فقال زهير بن القين: إنّي والله! ما أراه يكون بعد الذي ترون إلا أشدّ ممّا ترون يا ابن رسول الله! إنّ قتال هؤلاء القوم الساعة أهون علينا من قتال من يأتينا من بعدهم، فلعمري ليأتينا بعدهم ما لا قبل لنا به! فقال الحسين (عليه السلام): ما كُنْتُ لأبدأهم بِالْقِتَالِ. ثمّ نزل وذلك يوم الخميس وهو اليوم الثاني من المحرم سنة إحدى وستين، الإرشاد، ص ٢٢٦؛ المناقب، ج ٤ ص ٩٦.

مسامعه، حتى طأطأ برأسه إلى الأرض وقال: لو أن يزيداً أتى على ذكر اسم أمي، لكنّ أحبته، ولكن أمك هي فاطمة الزهراء (١) ﷺ.

إلتحق الحرّ بهذا المسير عن طريق الصديقة الطاهرة ﷺ. ولو وضعتم شرك وكفر وذنوب العالم في كفة ميزان، وعمل الحرّ ذاك في كفته الأخرى، لرجحت كفة (٢) الحرّ في المنطق الشيعي، لأن عمله يعدّ أثقل من كلّ ما عده من أعمال. باسم فاطمة، باسم هذه القديسة وهذه المظلومة (٣)، أمسك الحسين ﷺ بيد الحرّ وأوصله إلى القمة حيث تغبطه الملائكة والشهداء على مقامه. حبيبنا يا حسين، بأمرك فاطمة ﷺ، أمسك بأيدينا نحن أيضاً.

ترجّل الإمام ﷺ عن جواده وقال: حان وقت الصلاة. صلّ أنت مع أصحابك وأنا أصلي مع أصحابي. ويعتبر هذا اتصال بالصلاة، وانظروا الآن

(١) «فقال الحر: فإننا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك وقد أمرنا إذا نحن لقيناك ألا نفارقك حتى نقدمك على عبيد الله ابن زياد فقال له الحسين: الموت أدنى إليك من ذلك ثم قال لأصحابه قوموا فاركبوا فركبوا وانتظروا حتى ركبت نساؤهم فقال لأصحابه انصرفوا بنا فلما ذهبوا لينصرفوا حال القوم بينهم وبين الانصراف فقال الحسين للحر: ثكلتك أمك، ما تريد؟ قال: أما والله لو غيرك من العرب يقولها لي وهو على مثل الحال التي أنت عليها ما تركت ذكر أمه بالكل أن أقوله كائناً من كان ولكن والله ما لي إلى ذكر أمك من سبيل إلا بأحسن ما يقدر عليه، فقال له الحسين: فما تريد؟ قال الحر: أريد والله أن أنطلق بك إلى عبيد الله بن زياد، قال له الحسين: إذن والله لا أتبعك، فقال له الحر: إذن والله لا أدعك فترادّ القول ثلاث مرات ولما كثر الكلام بينهما قال له الحر: إني لم أؤمر بقتلك وإنما أمرت أن لا أفارقك حتى أقدمك الكوفة...»، (معالم المدرستين، ج ٣ ص ٧١). ومما ورد في سيرة الحرّ: «... ثمّ ضرب فرسه قاصداً إلى الحسين ويده على رأسه وهو يقول: اللهم إليك أنبتُ فُتُبَ عليّ، فقد أرعبتُ قلوب أوليائك وأولاد بني نبيك»، اللهوف في قتلى الطفوف، ج ١ ص ٦٢.

(٢) ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾، سورة القارعة، آية ٦ - ٧.

(٣) كل من يرتبط بهذه النقطة اللامتناهية ينجو - لأنها أم الكتاب - حتى ولو كان قد كُتِب في اللوح المحفوظ شقيماً... ورد عن عليّ ﷺ عن فاطمة الزهراء ﷺ قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «يا فاطمة، من صلّى عليك غفر الله له وألحقه بي حيث كنتُ في الجنة»، كشف الغمة، ج ١ ص ٤٧٢؛ بحار الأنوار، ج ٤٣ ص ٥٥.

كيف أتى الاتصال بالشفاعة. قال الحرّ: سيدي، ليست الصلاة من دونك بصلاة^(١). «نحن الصلاة»^(٢) وشيعتنا المصلون.

قالوا إنه بعدما شكّلت الصفوف يوم عاشوراء، كان حبيب بن مظاهر يطلب من الإمام عليه السلام إرسال الأصحاب إلى الميدان، ولكن في كل مرة، كان يرفض الحسين عليه السلام وينظر إلى البعيد. فأتت السيدة زينب مع أبي الفضل العباس عليه السلام إلى محضر أبي عبد الله عليه السلام وقالت له: يا أخي، إن كان لا بدّ من وقوع أحداث عاشوراء، فائذن للأمر بأن ينتهي. فقال عليه السلام: لم تكتمل سفرتنا بعد، وحفلتنا تفتقر إلى زينتها. لا يزال هناك فرد ناقص لم يأت.

قالت السيدة زينب عليها السلام: ولكن من هو ذلك الفرد؟ أجابها عليه السلام: إنه الحرّ. فسألت: هل هو نفسه الذي قطع علينا الطريق وروّع أطفالنا؟ قال: نعم، هو نفسه، إنه منّا، وإلى أن يأتي لن يكتمل العدد. نظر فرأى غباراً يتصاعد من بعيد، وعند ذلك، ترّجل عليه السلام على قدميه وذهب لاستقبال الحرّ.

محبّات

(١) «قالوا للمؤذن أقم، فأقام الصلاة فقال الحسين عليه السلام للحرّ: أتريد أن تصلي بأصحابك قال: لا، بل تصلي أنت ونصلي بصلاتك قال فصلّى بهم الحسين»، معالم المدرستين، ج ٣ ص ٧٠.

(٢) بحار الأنوار، ج ٢٤ ص ٣٠٣.

الفيض السادس

العشق إكسير العبادة

ما لم يتحقق الإستغراق والفناء^(١) في الإنسان، لن يتحقق التوحيد فيه. وكما قلت سابقاً، فإن الطرق الموصلة إلى الإستغراق والفناء هي العبادة^(٢) والذكر^(٣) والعشق^(٤). ومن المسلم به أنه في طريقي العبادة

(١) فناء الأنا (الإنية والأنانية)، فناء العبد فعلاً وصفةً وذاتاً بالله... فناء العاقل بالمعقول، فناء العاشق بالمعشوق.

(٢) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنَّ الله خلق البشر للعبودية لا للعبادة، ولو كان للعبادة أي قيمة، فهي لأجل أن يصل الإنسان إلى العبودية».

(٣) عن رسول الله ﷺ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «إِذَا كَانَ الْغَالِبُ عَلَى عَبْدِي الْإِسْتِغَالُ بِي جَعَلْتُ نَعِيمَهُ وَلَذَّتُهُ فِي ذِكْرِي، فَإِذَا جَعَلْتُ نَعِيمَهُ وَلَذَّتُهُ فِي ذِكْرِي عَشِقْنِي وَعَشِقْتُهُ، فَإِذَا عَشِقْنِي وَعَشِقْتُهُ رَفَعْتُ الْحِجَابَ فِي مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَصِرْتُ مَعَالِمَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، لَا يَسْهَوُ إِذَا سَهَا النَّاسُ، أُولَئِكَ كَلَامُهُمُ الْآنَبِيَاءُ، أُولَئِكَ الْأَبْطَالُ حَقًّا، أُولَئِكَ الَّذِينَ إِذَا أَرَدْتُ بِأَهْلِ الْأَرْضِ عُقُوبَةً وَعَذَابًا ذَكَرْتُهُمْ فَصَرَفْتُ ذَلِكَ عَنْهُمْ»، حلية الأولياء، ج ٦ ص ١٦٥؛ كنز العمال، ج ١ ص ٤٣٣ ح ١٨٧٢.

(٤) لأن من ثماره الإخلاص الذي هو شرط للعبودية. عن بريد بن معاوية العجلي قال: «كنت عند أبي جعفر ﷺ إذ دخل عليه قادم من خراسان ماشياً فأخرج رجله وقد تفلقتا (تشققتا) وقال: أما والله ما جاءني من حيث جئت إلا حبكم أهل البيت فقال أبو جعفر ﷺ: «والله لو أحببنا حجرٌ حشره الله معنا وهل الدين إلا الحب؟ إنَّ الله يقول: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (سورة آل عمران، آية ٣١) وقال: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ (سورة الحشر، آية ٩) وهل الدين إلا الحب!»، (مستدرک الوسائل، ج ١٢ ص ٢١٩). وعن ربعي بن عبد الله قال: قيل لأبي عبد الله ﷺ: =

والذكر^(١)، ينبغي توقّر المحبة والعشق حتى تتحقق العبادة بمعناها الصحيح والذكر بمعناه الواقعي^(٢). فإنّ خلّت العبادة والذكر من المحبة والعشق، لن

=إِنَّا نَسْمِي بِأَسْمَائِكُمْ وَأَسْمَاء آبَائِكُمْ فَيَنْفَعُنَا ذَلِكَ؟ فقال ﷺ: «إي والله وهل الدين إلّا الحب؟ قال الله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾»، (مستدرك الوسائل، ج ١ ص ٤٣٣ ح ١٨٧٢). ويقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿حَبَبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَنَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، (سورة الحجرات، آية ٧). وعن الإمام الباقر ﷺ: «الدين هو الحب والحب هو الدين»، (وسائل الشيعة، ج ١١ ص ٤٣٥). وعن النبي ﷺ أنه قال: «ألا ومن أحبّ علياً فقد أحبني، ومن أحبني فقد رضي الله عنه، ومن رضي عنه كافأه الجنة، ألا ومن أحبّ علياً لا يخرج من الدنيا حتى يشرب من الكوثر...»، (بحار الأنوار، ج ٧ ص ٢٢١). وقال رسول الله ﷺ: «حُبّ عليّ عبادة وأفضل العبادة»، (تاريخ بغداد، ص ٣٥١). وفي الحديث القدسي: «يا محمد، آليت على نفسي وأقسمت عليّ أني لا ألهم حبّ عليّ بن أبي طالب إلّا من أحببته، فمن أحببته أنا ألهمته حبّ عليّ ومن أبغضته ألهمته بغض عليّ...»، (بحار الأنوار، ج ٤٠ ص ٤٧). وعن أبي ذر الغفاريّ أنّه قال: «رأيت رسول الله ﷺ يقبل الحسن والحسين ﷺ وهو يقول: من أحبّ الحسن والحسين وذريتهما مخلصاً لم تُلحق النار وجهه ولو كانت ذنوبه بَعْدَ رَمَلِي عَالِجٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَنْبُهُ ذَنْباً يَخْرُجُهُ مِنَ الْإِيمَانِ»، (كامل الزيارات، ص ٥١). وعنه ﷺ: «من أحبّ الحسن والحسين أحببته، ومن أحببته أحبه الله، ومن أحبه الله أدخله الجنة»، (بحار الأنوار، ج ٤٣ ص ٢٧٥ ح ٤٢).

(١) «وحقيقة الذكر عبارة عن صعود الذاكر إلى مرتبة المذكور، أو نزوله إلى مرتبة المذكور، وهو بحقيقته محال في حقّه تعالى مطلقاً. فمعنى قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ﴾ وأمثالها أنه تعالى قد جعل في كل نفس آية تدلّ عليه وعلى تمام صفاته بجمالها وجلالها... وهي اسم الله الذي مظهره التام آل محمد ﷺ ومظاهره الجزئية مبادئ كلّ نفس، ثم اكتفى بذكرها عن ذكره وقال: ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾، وقال: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾. وكذلك في مقام تسبيحه، فقال: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ﴾. فإدما ذكره تعالى من الخلق عبارة عن التثبّت في مقام اسم الله... وذكره تعالى لهم عبارة عن تكوين ذلك الاسم فيهم»، (الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٣٢٤ - ٣٢٥).

(٢) للذكر أربع مراتب: ذكرٌ كُتِبِي، وذكرٌ لَفْظِي، وذكرٌ ذَهْنِي، وذكرٌ وَاقِعِي وحَقِيقِي وعَيْنِي. فالذكر الكُتِبِي يتحقق حين يتم كتابة الأذكار لاسيما أسماء الله تعالى كالودود والرحمن والقيوم والقدوس وما إلى ذلك. والذكر اللفظي هو ما يُتْلَفُظ به من هذه الأسماء. أمّا =

=الذكر الذهني، فهو عندما يتدبر الذاكر بأسماء الله تعالى. وهذا الذكر، بمراتبه الثلاث، هو الشائع بين الناس، وينقسم، عند البعض، إلى ذكر جلي، أي ما يظهر إلى الخارج من لفظ وقول، وآخر خفي، أي ما يُضمَر في القلوب وتنطوي عليه الضمائر مما لا تُحرِّك به الألسنة والجوارح. ولكن يبقى الذكر الواقعي والحقيقي والعيني، فما هو؟ وهل هو ذاته الشائع لدى الناس أم لا؟ يقول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِإِسْمِ الصَّلَاةِ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (سورة العنكبوت، آية ٤٥) وفي بيان ما جاء في الآية الشريفة، يقول الإمام الباقر (عليه السلام): «نحن ذكر الله ونحن أكبر»، (الكافي، ج ٢ ص ٥٩٨ ح ١). وقد «فُسِّر وطبّق الذكر بالرسول الأكرم وعليّ بن أبي طالب صلوات الله عليهما وألهما... ومقام الذكر من المقامات العالية الجليلة»، (الآداب المعنوية للصلاة، ص ٣٦٥). وعن أبي جعفر (عليه السلام) في قول الله عزّ وجل، ﴿فَتَسْلُوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة النحل، آية ٤٣)، «قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): الذكر أنا والأئمة أهل الذكر»، (الكافي، ج ١ ص ٢١٠). وقوله عزّ وجل: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْلُكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (سورة الزخرف، آية ٤٤)، قال أبو جعفر (عليه السلام): «نحن قومه ونحن المسؤولون»، (الكافي، ج ١، ص ٢١٠). يتبين من هذه الآيات وتفسيراتها على لسان رسول الله والأئمة الأطهار (عليهم السلام) أن ليس الذكر إلا هم صلوات الله عليهم. فهم الذكر الواقعي والحقيقي والعيني (وهو ما يُسمّيه آية الله السيّد أحمد النجفي بالعشق الذي هو الطريق الثالث) غير أن أغلب الناس يغفلون عن ذلك ويكتفون بالذكر الشائع الذي لا يعدو كونه ظهوراً من ظهورات ذلك الذكر الواقعي، إذ عادة ما يستغرق أكثر الذاكرين بذكر اسم أو اسمين أو صفة أو صفتين من أسماء وصفات الله تعالى، وقليل منهم من يصل إلى ذكر الاسم الأعظم المُتَعَيِّن بأهل البيت (عليهم السلام)، ﴿بَلْ أَلَبَّيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ (سورة المؤمنون، آية ٧١)، ﴿وَمَنْ يَعْشَ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾، (سورة الزخرف، آية ٣٦). وقد ورد في دعاء النَّدْبَةِ: «فَقَبِلْتَهُمْ وَقَرَّبْتَهُمْ، وَقَدَّمْتُ لَهُمُ الذِّكْرَ الْعَلِيِّ وَالثَّنَاءَ الْجَلِيَّ»، فما هو هذا الذكر العليّ؟ أيكون غير ذكر الله الذي بينه الإمام (عليه السلام)؟ لا، بل إن الذكر العليّ هو عليّ وآل عليّ (عليهم السلام) حتماً، فهم أعلى ذكر يُمكن للذاكر أن يصل إليه. ومن كلام لأبي عبد الله (عليه السلام): «وما اجتمع اثنان على ذكرنا إلا باهى الله تعالى بهما الملائكة، فإذا اجتمعتم فاشتغلوا بالذكر؛ فإنّ في اجتماعكم ومذاكرتكم إحياءنا، وخير الناس من بعدنا من ذاكر بأمرنا ودعا إلى ذكرنا»، (أمالى الطوسي، ص ٢٢٤). إذاً، يتحقق الذكر الواقعي حين يُذكر أهل البيت (عليهم السلام)، وأي ذكر غيره ليس إلا ذكراً لفظياً أو كتيبياً، وهو ما يقصده آية الله السيّد أحمد النجفي، حفظه الله، عند كلامه عن طريق الذكر المحفوف بالأخطار المشهور عند الناس. أما الذكر الحقيقي فطريقه آمن، ذلك أنّه لا بدّ أن يكون مشتملاً على الحبّ والعشق، فلا يمكن للذاكر الموالي أن يذكرهم بلسانه =

ينجح هذان الطريقان في إيصالنا إلى الإستغراق والفناء. ومتى غاب الاستغراق والفناء، فلن يصل الموحد إلى التوحيد.

وبالالتفات إلى المعنى الذي تمّ ذكره في ما خصّ العبادة والذكر، يمكن للعشق أن يكون قائماً بنفسه من دون أن يكون مرتبطاً بأيّ من هاتين الصورتين^(١)، بل على نحوٍ منفصلٍ عنهما. فالمحبة والعشق يمكن أن يتحققا في وجود إنسان ما خارج إطار العبادة والذكر^(٢). ويعتبر طريق المحبة والعشق هذا

=دون قلبه، وقد ورد في الزيارة الجامعة: «ذكركم في الذاكرين»، «إن ذكر الخير كنتم أوّله وأصله وفرعه ومعدنه ومأواه ومنتهاه»، وبالتالي فهم الذكر وهم المذكورون. ومن مصاديق ذكرهم الحقيقي، خدمتهم ﷺ، حيث ورد في دعاء الإمام الحسين ﷺ يوم عرفة: «إلهي ترددي في الآثار يوجبُ بعدَ المزار، فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك»، (مفاتيح الجنان)، ولا يمكن أن يكون هناك خدمة توصل إلى الله تعالى أفضل من خدمتهم بذكر فضائلهم ومناقبهم ومقاماتهم ومصائبهم لا سيّما مصاب سيد الشهداء. ولعلّ خدمته ﷺ هي الخدمة السرمديّة التي يطلبها الموالي في دعاء كميل حين يقول: «حتى تكون أعمالي وأورادي كلها ورداً واحداً وحالي في خدمتك سرمداً»، دعاء كميل، مفاتيح الجنان.

(١) يقول الإمام علي بن الحسين ﷺ: «إلهي إنك تعلم أنني وإن لم تدم الطاعة منّي فعلاً جزماً، فقد دامت محبةً وعزماً»، بحار الأنوار، ج ٩٥ ص ٢٢٥.

(٢) مثل وهب الذي لم يؤدّ فرعاً من فروع الدين. وفي الرواية، قال ثوبان مولى رسول الله ﷺ: «أبني أنت وأمي يا رسول الله متى قيام الساعة؟ فقال رسول الله ﷺ: ماذا أعددت لها إذ تسأل عنها؟ فقال ثوبان: يا رسول الله، ما أعددت لها كثير عمل إلا أنني أحبّ الله ورسوله. فقال رسول الله ﷺ: وإلى ماذا بلغ حبك لرسول الله؟ قال: والذي بعثك بالحق نبياً إن في قلبي من محبتك ما لو قُطعتُ بالسيوف ونُشرتُ بالمناشير، وقُرِضتُ بالمقاريض، وأحرقتُ بالنيران، وطحنتُ بأرحاء الحجارة، كان أحبّ إليّ وأسهل عليّ من أن أجدّ لك في قلبي غشاً أو دغلاً أو بغضاً لأحد من أهل بيتك وأصحابك. وأحبّ الخلق إليّ بعدك أحبهم لك، وأبغضهم إليّ من لا يحبك ويُبغضك ويُبغض أحداً ممن تحبّه. يا رسول الله، هذا ما عندي من حبك وحب من يحبك، وبغض من يبغضك أو يبغض أحداً ممن تحبّه، فإن قبل هذا مني فقد سعدت، وإن أريد مني عمل غيره، فما أعلم لي عملاً أعتمده وأعتدّ به غير هذا، وأحبكم جميعاً أنت وأصحابك، وإن كنت لا أطيعهم في أعمالهم. فقال رسول الله ﷺ: أبشر فإن المرء =

أقل الطرق خطورة وأكثرها قدرة على الوصول بسالكه إلى الغاية المنشودة. وقد ورد الكثير من الأحاديث والقصص في هذا المجال عن أشخاص كانوا من أهل هذا الطريق.

لا يكون العشق بالتعلم والتعليم

لا يمكن للكلمات والأحاديث مطلقاً أن تحقق معنى العشق والمحبة في الخارج. فمن غير الممكن الجلوس مع شخصٍ ما والعكوف على الكلام معه حتى يتحقق في داخله العشق والمحبة بواسطة ذلك الكلام. إن هذا محال.

والدليل على ذلك عشق الأب والأم لولدهما. فهذا العشق لم يتحقق بواسطة التعلم والتعليم، أي أن الأب والأم لم يعيشا ولدهما لأن هناك من أتى إليهما وتحدث معهما واعتمد أسلوب الاستدلال ليقنعهما بوجوب أن يحبّا ولدهما، بل إن عشق الأم لولدها حاصل من دون تدخل أيٍّ من الأحكام الشرعية أو الأنبياء الذين هم أطهر المرّبين في العالم.

وإن الأم الغارقة في الكفر المطلق والمعصية التامة تحبّ ولدها بالطريقة نفسها التي تحبّ بها الأمّ المؤمنة الصالحة والمعتقدة بأسس الشرع والشرعية، ولدها أيضاً. وهذا هو امتياز طريق العشق والمحبة عن بقية الطرق جميعها. فطريقا العبادة والذكر ليسا هكذا، إذ من لوازمهما التعلم^(١) والتعليم وتوقّف

= يُحشَر يوم القيامة مع من أحبّ. يا ثوبان، لو أن عليك من الذنوبِ ملء ما بين الثرى إلى العرش لانحسرت وزالت عنك بهذه الموالاة أسرع من انحدار الظل عن الصخرة المَلْسَاء المستوية إذا طلعت عليها الشمس، ومن انحسار الشمس إذا ما غابت عنها الشمس»، (تفسير الإمام العسكري عليه السلام، ص ٣٧٠ ح ٢٥٩). وعن الإمام الجواد عليه السلام أنه قال: «القصْد إلى الله تعالى بالقلوب أبلغ من إتّباع الجوارح بالأعمال»، بحار الأنوار، ج ٧٨ ص ٣٦٤.

(١) عن الإمام الصادق عليه السلام: «لَيْسَ الْعِلْمُ بِكَشْرَةِ التَّعَلُّمِ، إِنَّمَا هُوَ نُورٌ يَقَعُ فِي قَلْبٍ مَن يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ»، (منية المريد، ص ١٤٩ - ١٦٧). وقال أمير المؤمنين عليه السلام في كلامه لكميل بن زياد في صفة طالبي العلم وحملته: «... أو منقاداً لأهل الحق لا بصيرة له، =

المربّي^(١)، وغير ذلك من الشروط.

وكذلك فإن عشق سيّد الشهداء ﷺ ليس منوطاً لا بالإيمان ولا بالكفر ولا بالطاعة ولا بالمعصية^(٢)، إذ كما يمكن للمؤمن المتعبّد، بكل ما يعنيه ذلك من معنى، أن يدّعي عشقه ومحبّته للساحة القدسية لحضرة أبي عبد الله ﷺ، يمكن لإنسان لا مبالٍ ومنغمس في المعاصي والذنوب^(٣) أن يدّعي عشقه أيضاً. وليس الأدّعاء فحسب، بل إنه يستطيع أن يكون حاوياً لذلك العشق فعلاً.

=ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة حتى أذاهم ذلك إلى التيه والحيرة والعمى والضلالة، ولم يبقَ منهم إلا القليل النزر الذين ثبتوا على دين الله، وتمسكوا بحبل الله، ولم يحدوا عن صراط الله المستقيم»، كتاب الغيبة، ص ٢٨.

(١) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ حقّ الأستاذ على تلميذه، سواء في العلوم الظاهريّة أو الباطنيّة، من أهمّ المقدّسات، وعلى التلميذ أن يحفظ حقّ أستاذه عليه بأن لا يؤذيه، وإلا فإنّ عمل التلميذ ينقلب بلا بركة، وهذا مشهود بنحو واضح حيث تجد أنّ التلميذ العاق قد يضع يده على الذهب فيصبح تراباً لأنّه أضاع الولاية التي جعلها الله للأستاذ على تلميذه».

(٢) «كل من كانت له قدم في طريق العشق راسخة، فقد تخطى الكفر والإسلام معاً»، منطق الطير، ص ٩٠.

(٣) هناك فرق بين الذنوب والمعاصي الخاصّة بفروع الدين وتلك الخاصّة بأصول الدين. فأما المتعلّقة بالفروع فهي الذنوب المتعارف عليها كالكذب والسّرقه والقتل والزنا وما إلى ذلك، وقد أظهر أهل البيت ﷺ أنّ الموالى يتطهّر من هذه الذنوب بالبلاءات والمحن وسكرات الموت والبرزخ وحتى في أهوال القيامة حتى يصل إلى الجنّة نقيّاً من أيّ ذنب، حيث يقول رسول الله ﷺ: «اتّقوا الله معاشر الشيعة، فإنّ الجنّة لن تفوتكم وإنّ أبطأت بكم عنها قبائح أعمالكم، فتنافسوا في درجاتها. قيل: فهل يدخل جهنّم أحدٌ من محبّيك، ومحبّي عليّ ﷺ؟ قال: من قدر نفسه بمخالفة محمّد وعليّ، وواقع المحرّمات، وظلم المؤمنين والمؤمنات، وخالف ما رسّما له من الشريعات، جاء يوم القيامة قدراً طغيّاً، يقول له محمّد وعليّ: يا فلان أنت قدّر طغيّاً، لا تصلح لمرافقة مواليك الأخيار، ولا لمعانقة الحور الحسان، ولا لملائكة الله المُقربين، ولا تصل إلى ما هناك إلّا بأن يطهّر عنك ما ههنا - يعني ما عليه من الذنوب، فيدخل إلى الطبق الأعلى من جهنّم، فيُعذّب ببعض ذنوبه. ومنهم من تُصيبه الشدائد في المحشر ببعض ذنوبه، ثمّ يلقطه من هنا ومن هنا من يبعثهم إليه مواليه من خيار شيعتهم، كما يلقط =

=الطير الحب. ومنهم من تكون ذنوبه أقل وأخف، فيُطَهَّر منها بالشدائد والنوائب من السلاطين وغيرهم، ومن الآفات في الأبدان في الدنيا ليدلّي في قبره وهو طاهر من ذنوبه. ومنهم من يقرب موته، وقد بقيت عليه - ذنوب - فيشتد نزعها، ويكفر به عنه، فإن بقي شيء وقويت عليه - تلك الذنوب - يكون له بطن أو اضطراب في يوم موته، فيقل من يحضره، فيلحقه به الذل فيكفر عنه، فإن بقي شيء أتى به ولما يلحد ويوضع، فيتفرقون عنه فيطهر. فإن كانت ذنوبه أعظم وأكثر، طهر منها بشدائد عرصات يوم القيامة، فإن كانت أكثر وأعظم طهر منها في الطبّق الأعلى من جهنم، وهؤلاء أشدّ مُحبينَا عذاباً وأعظمهم ذنباً. ليس هؤلاء يُسمّون بشيعتنا، ولكنهم يُسمّون بمُحبينا والمُوالين لأوليائنا والمُعادين لأعدائنا، إن شيعتنا من شيعنا، واتّبع آثارنا، واقتدى بأعمالنا، (تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام، ص ٣٠٦ - ٣٠٧ - ٣٠٨). هذا فيما يتعلق بالذنوب الخاصة بالفروع أما الذنوب المتعلقة بالأصول فهي التي ترتبط بالتوحيد والنبوة والولاية لأهل البيت عليه السلام، فأَيّ إنكار أو استخفاف أو تهاون بشأن من شؤونات هذه الأصول، يعدّ من الكبائر. ومن مصاديق الاستخفاف بالتوحيد أن الناس يتفوّهون بالكثير من العبارات التي هي في الحقيقة كفر بالله أو شرك به، كالمثل المتداول على الألسنة: «الله يعطي الحلاوة للذين لا أسنان لهم»، فهذا كفر بالعدل الإلهي الذي هو أصل من أصول الدين وإنكار لاسم الله «العدل». بالإضافة إلى سوء الظن الذي يصدر من الإنسان ويكون دلالة على عدم الرضا بقضاء الله وقدره والسخط على الله والشكّ بعدله تعالى واتهامه بالظلم. كما أنّ التماس الرزق أو الحب أو الشفاء أو... من أيّ مخلوق باستقلالية عن الله تعالى هو عين الشرك. وعلى سبيل المثال، من الناحية العملية، عندما يذهب أكثر الناس إلى الطبيب أو يتناولون حبة الدواء، لا يتوجّهون إلى الله تعالى ولا يعتمدون عليه وحده بل يقولون للطبيب: «اعتمادنا على الله وعليك» وهذا عين الشرك الخفي! أما فيما يتعلق بالاستخفاف بالولاية وشؤوناتها، فهناك الكثير من الروايات التي تبين أنّ أهل البيت عليه السلام هم أصل من أصول الدين، بل هم أصول الدين نفسها، حيث قال الإمام الباقر عليه السلام: «نحن المنهاج، ونحن معدن النبوة، ونحن موضع الرسالة ونحن أصول الدين»، (مكيال المكارم، ج ٢ ص ٧؛ أمالي الطوسي، ص ٦٥٤). وإنّ ولاية علي بن أبي طالب ولاية الله، (أمالي الصدوق، ص ٨٥)، والشكّ والإنكار فيها هو شك في الله وإنكار له، حيث قال رسول الله ﷺ: «إن علياً حجة الله، الإيمان به إيمان بالله، والكفر به كفر بالله والشرك به شرك بالله؛ والشكّ فيه شك في الله والإلحاد فيه إلحاد في الله والإنكار له إنكار لله، والإيمان به إيمان بالله، يهلك فيه رجلان ولا ذنب له: محبّ غال، ومبغض قال»، (بحار الأنوار، ج ٢٣ ص ١٢٩)، وعن الإمام زين العابدين عليه السلام قال: «ومن وجد في نفسه شيئاً مما نقوله أو نقضي به حرجاً، كفر بالذي أنزل السبع =

=المثاني والقرآن العظيم وهو لا يعلم»، (كمال الدين، ص ٣٢٤). ومما لا يلتفت إليه البعض أن عدم البراءة من أعداء آل محمد هو أمر خطير للغاية، ففي بعض الروايات توصف محبة أعداء أهل البيت عليهم السلام بالكبائر، فعن ميسر عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال له: «ما تقول يا ميسر فيمن لم يعص الله طرفة عين في أمره ونهيه لكنه ليس منا ويجعل هذا الأمر في غيرنا؟ قال ميسرة: فقلت: وما أقول وأنا بحضرتك يا سيدي؟ فقال: هو بالنار، ثم قال: وما تقول فيمن يدين الله بما تدين ويبرأ من أعدائنا لكن به من الذنوب ما بالناس إلا أنه يجتنب الكبائر؟ قال: قلت: وما أقول يا سيدي وأنا في حضرتك؟ فقال: إنه في الجنة وإن الله قد ذكر ذلك في آية من كتابه، فقال: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾، وهو حبّ فرعون وهامان، ﴿نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمٍ﴾، وهو حبّ علي عليه السلام، (مشارق أنوار اليقين، ص ٢٣٩). وعن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «حقيق على الله أن لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من جهما»، (تفسير العياشي، ج ١ ص ١٥٦). ويقول خاتم الأنبياء عليه السلام: «يا عباد الله.. فاحذروا الانهماك في المعاصي والتهاون بها فإنّ المعاصي يستولي بها الخذلان على صاحبها حتّى يُوقِعَهُ فيما هو أعظم منها، فلا يزال يعصي ويتهاون ويخذل ويقع فيما هو أعظم ممّا جنى، حتّى يُوقِعَهُ - الخذلان - في ردّ ولاية وصيّ رسول الله صلى الله عليه وآله ودفع نبوة نبيّ الله، ولا يزال أيضاً بذلك حتّى يُوقِعَهُ في دفع توحيد الله، والإلحاد في دين الله»، (مستدرک الوسائل، ج ٢ ص ٣١٣ ح ٦)، فمن الواضح أن المقصود بهذه الذنوب التي توصل إلى ردّ الولاية والإلحاد في دين الله هي المتعلقة بالأصول أي بموالاة أعداء آل محمد عليهم السلام. وهنا يفهم الحديث عن الإيمان المستقرّ والمستودع الذي تحدّث عنه روايات أهل البيت عليهم السلام، فعن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «المستقرّ ما استقرّ الإيمان في قلبه فلا يُنزع منه أبداً، والمستودع الذي يستودع الإيمان زماناً ثمّ يُسلّبه»، (بحار الأنوار، ج ٦٦ ص ٢٢٢). ولا يكون سلب الإيمان إلا عند البلاء والتمحيص الشديدين، حيث يموت القلب فيزال ما فيه من الإيمان والولاية، ولكن ثمة ما يمكن للإنسان أن يتمسك به ويلجأ إليه حتى ينجو من موت القلب وسلب الإيمان، فعن الرضا عليه السلام أنه قال: «من تذكّر مصابنا وبكى لما ارتكب منا كان معنا في درجتنا يوم القيامة، ومن ذكر بمصابنا فبكى وأبكى لم تبك عينه يوم تبكي العيون، ومن جلس مجلساً يحيى فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب»، (أمالي الصدوق، ص ١٣١). ومجالس الإمام الحسين عليه السلام هي أكثر المجالس التي تُذكر فيها مصائبهم ويحيى فيها أمرهم. كما يروى عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «مَنْ زارني على بعد داري أتيت يوم القيامة في ثلاثِ مواطنٍ حتّى أخلّصه من أهوالها: إذا تطايرت الكتب يميناً وشمالاً، وعند الصراط، وعند الميزان»، (بحار الأنوار، ج ٩٩ ص ٣٤). فعند البلاء يتطاير كتاب الإنسان وكتابه هو قلبه، بمعنّى من المعاني، فيأتي الإمام الرضا عليه السلام عند زائره ليأخذ بيده ويستنقذه من كلّ مكروه.

ولذلك، إن كانت المحبة هي أساس الاستغراق والمقدّمة له، فإن النتيجة ستكون مضمونة مئة في المئة. أما في طريقي العبادة والذكر، فإن النتيجة لا تكون مضمونة بهذه النسبة.

حفظ المحبة وثبات المُحِبِّ

في حال مضى الإنسان في هذا الوادي بواسطة الحب والعشق، وانتقل من الفعل إلى الصفة، فلجأ إلى الذكر والعبادة، يكون ذلك الذكر وتلك العبادة، تامين وحافظين لحالات المُحِبِّ.

وحين تنبع العبادة والذكر من العشق والمحبة، تلعب تلك الأحكام والمسائل دور الحافظ لحالة الحب كما تحفظ ثبات المحب. ذلك أن واحداً من الآثار الذاتية للمحبة هو المرور بحالات من التذبذب والزيادة والنقصان^(١). وإن المحبة تبقى ثابتة في ظهورها لا بل تكون أكثر غنى وقوة من ذي قبل، إذا لجأ المحب إلى العبادة والذكر بعد إيجاده للمحبة، حيث يمنحه هذا الكثير من الخاصيات ويكون سبباً في استقرار المحبة في وجوده^(٢).

المحبة تُحقّق الوحدة التامة

الاستغراق والفناء يعني اتحاد الذاكر والمذكور. وما لم يصل الإنسان إلى هذه النقطة، لا يكون موحدًا. وإن لم يكن موحدًا، ستبقى عبادته وذكره بلا فائدة. ومن جديد، نستفيد من أحد الدلائل الفطرية:

(١) إن مكان الحب القلب وقد سُمّي القلب قلباً لأنه يتقلب، فقد ورد في الدعاء: «يا الله، يا رحمن يا رحيم، يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، (كمال الدين وتمام النعمة، ص ٣٥٢). كما ورد: «قلب المؤمن بين إصبعي الرحمن يقلبه كيف يشاء»، بحار الأنوار، ج ٥٥ ص ٣٩.

(٢) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «ما لم نقم بهذا الجهد والسعي ولم نؤدّ الرياضات النفسية والعبادات الشرعية على النحو المطلوب من الحقّ تعالى، فقد يخرج نور الولاية من قلوبنا».

إلام يتوجّه الإنسان في عبادته؟ في حال كان يتوجّه إلى نقطة خارج وجوده، يكون قد وقع في الشرك والله لا يقبل عمل المشركين.

أما في حال توجّه في عبادته وذكره إلى نقطة مبهمّة وغامضة ومخفّية في وجوده^(١)، فذلك هو التوحيد بعينه^(٢). ولكن، ما هي هذه النقطة وعمّ تُخبر؟ يمكن لبیت الشعر هذا أن يبيّن مقداراً من لطافة هذا المعنى: «من تو ام، تو منى، پس من كى ام؟» أي «أنا أنت، وأنت أنا، إذاً، من أنا؟»^(٣).

على كل حال، فإنّ إدراك مقام التوحيد لا يكون بالطرق التي لا زلنا نستأنس بها ونعمل بموجبها حتى الآن، هذا لأنّ الموحّد هو نفسه ذلك الذي يتكلم عنه الحقّ المتعال في حديثه القدسيّ ويقول: «عبدی أطعني حتى أجعلك مثلي (أو مثلي) فإني أقول كن فيكون، فأنت تقول كن فيكون»^(٤).

وفي حديثٍ قدسيّ آخر: «لا يزال عبدی^(٥) يتقرّب إليّ بالنوافل مخلصاً لي

(١) «إنّ وجوب طاعة النبي ﷺ وأولي الأمر إنما هو لإيصال الخلق إلى مرتبة اسم الله المكنون في ذواتهم بتلاوة آيات الله عليهم وتركيتهم»، (الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ١٥٥). ﴿سَرُّهُمْ ءَايَتَنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ (سورة فصلت، آية ٥٣)، إنّ رؤية الآفاق هي للعوام ورؤية الأنفس للعارفين. ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ (الأعراف، آية ١٧٢)، فحقيقة النفس هي الرّب، ومن عرفها، عرف ربّه. وإذا علّمناه بنا ومنا (بوجودنا وحقائقنا) نسبنا إليه كل ما نسبناه إلينا من الكمالات لا النقائص. وإذا شهدناه (بصفاته أي بمحمد وآل محمد) شهدنا نفوسنا (لأنّ نفوسنا عين تلك الصفات، وقد ورد في الزيارة الجامعة: «وأنفسكم في النفوس») وإذا شهدنا، شهد نفسه.

(٢) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «سرّ عدم قبول الصلاة والصوم وكافة العبادات هو عدم وجود التّوحيد مع المبدأ، وليس هو التّوحيد مع الذات المقدسة، بل هو مع ذاك المقام الخاص الذي لا بدّ من حصول التّوحيد معه».

(٣) «يقول الرّبّ الجليل في الإنجيل: إعرف نفسك أيّها الإنسان تعرف ربّك، ظاهره للفناء وباطنك أنا»، مشارق أنوار اليقين، ص ٣٠٠.

(٤) قصص الأنبياء، ص ٨٠١.

(٥) «إعلم أنّ العبد السّالك إلى الله بقَدَمِ العبوديّة إذا خرج من بيت الطّبيعة مهاجراً إلى الله =

حتى أحبه، فإذا أحبته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، إن سألني أعطيتُه وإن استعاذني أعذتُه»^(١).

ولا يتحقق هذا المعنى في الوحدة التامة إلا عن طريق المحبة المحققة للاستغراق والفناء.

الله هو حقيقة المحبة

يقول الإمام الصادق عليه السلام في رواية لافته ولطيفة جداً: «إنَّ أولي الألباب الذين عملوا بالفكرة حتى ورثوا منه حبَّ الله، فإن حبَّ الله إذا ورثه القلب واستضاء به أسرع إليه اللطف، فإذا نزل اللطف صار من أهل الفوائد، فإذا صار من أهل الفوائد تكلم بالحكمة (وإذا تكلم بالحكمة) صار صاحب فطنة، فإذا نزل منزلة الفطنة عمل في القدرة، فإذا عمل في القدرة عرف الأطباق^(٢) السبعة... وورث الحكمة بغير ما ورثه الحكماء وورث العلم بغير ما ورثه العلماء^(٣)، وورث الصدق بغير ما ورثه الصديقون. إن الحكماء ورثوا الحكمة

= وجذبه الجذبات الحبيبة السرية الأزلية، وأحرق تعينات نفسيته بقبسات نار الله من ناحية شجرة الأسماء الإلهية، فقد يتجلَّى عليه الحق بالتجلي الفعلي التوري أو الناري أو البرزخي الجمعي حسب مقامه في الحضرة الفيض الأقدس، ففي هذا التجلي يرى بعين المشاهدة من منتهى نهاية عرش الشهود إلى غاية قصوى غيب الوجود، تحت أستار تجلياته الفعلية فيفنى عين العالم في التجلي الظهوري عنده، فإذا تمكَّن في المقام واستقام وذهب عنه التلويح، يصير الشهود تحقُّقاً في حقه، فيصير الله سمعه وبصره ويده كما في الحديث، وهذا حقيقة قرب التوافل فيصير العبد مخلعاً بخلة الولاية، فيكون حقاً في صورة الخلق فيظهر فيه باطن الربوبية التي هي كُنْه العبودية وتصير العبودية باطنه، وهذا أوَّل منازل الولاية»، تعليقات على شرح فصوص الحكم، ص ٣٩ - ٤٠.

(١) إرشاد القلوب، ج ١ ص ٩١.

(٢) الأطباق جمع طَبَق والطَّبَق في المعجم يعني: حالة ومنزلة.

(٣) قوله عز وجل: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانٍ وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَطُؤُونَ * فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْرَوْا بِهِ نَعْمًا فَلَيْسَ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (سورة البقرة، آية ٧٨ - ٧٩): قال الإمام العسكري عليه السلام: (ثم) قال الله عز وجل: يا محمد ومن هؤلاء اليهود (أميون) لا يقرؤون (الكتاب) ولا =

= يكتبون، كالأمي منسوب إلى أمه أي هو كما خرج من بطن أمه لا يقرأ ولا يكتب (لا يعلمون الكتاب) المنزل من السماء ولا المكذب به، ولا يميزون بينهما (إلا أمانى) أي إلا أن يُقرأ عليهم ويقال لهم: (إن) هذا كتاب الله وكلامه، لا يعرفون إن قرئ من الكتاب خلاف ما فيه (وإن هم إلا يظنون)، أي ما يقول لهم رؤسائهم من تكذيب محمد ﷺ في نبوته، وإمامة عليّ ﷺ سيّد عترته، وهم يقلّدونهم مع أنه محرم عليهم تقليدهم. قال: فقال رجل للصادق ﷺ: فإذا كان هؤلاء العوام من اليهود لا يعرفون الكتاب إلا بما يسمعون من علمائهم لا سبيل لهم إلى غيره، فكيف ذمّهم بتقليدهم والقبول من علمائهم؟ وهل عوام اليهود إلا كعوامنا يقلّدون علماءهم؟ فإن لم يجز لأولئك القبول من علمائهم، لم يجز لهؤلاء القبول من علمائهم. فقال ﷺ: بين عوامنا وعلمائنا وبين عوام اليهود وعلمائهم فرق من جهة وتسوية من جهة، أما من حيث أنهم استوا، فإن الله قد ذمّ عوامنا بتقليدهم علماءهم كما (قد) ذم عوامهم. وأما من حيث أنهم اختلفوا فلا. قال: بيّن لي ذلك يا ابن رسول الله ﷺ. قال ﷺ: إن عوام اليهود كانوا قد عرفوا علماءهم بالكذب الصراح، وبأكل الحرام وبالرشاء، وبتغيير الأحكام عن واجبها بالشفاعات والعنايات والمصانعات. وعرفوهم بالتعصّب الشديد الذي يفارقون به أديانهم، وأنهم إذا تعصبوا أزالوا حقوق من تعصبوا عليه، وأعطوا ما لا يستحقه من تعصبوا له من أموال غيرهم وظلموهم من أجلهم. وعرفوهم بأنهم يقارفون المحرمات، واضطروا بمعارف قلوبهم إلى أن من فعل ما يفعلونه فهو فاسق، لا يجوز أن يصدق على الله، ولا على الوسائط بين الخلق وبين الله، فلذلك ذمهم (الله) لما قلّدوا من قد عرفوا، ومن قد علموا أنه لا يجوز قبول خبره، ولا تصديقه في حكايته، ولا العمل بما يؤديه إليهم عن لم يشاهدوه، ووجب عليهم النظر بأنفسهم في أمر رسول الله ﷺ، إذ كانت دلائله أوضح من أن تخفى، وأشهر من أن لا تظهر لهم. وكذلك عوام أمتنا إذا عرفوا من فقهاءهم الفسق الظاهر، والعصية الشديدة والتكالب على حطام الدنيا وحرامها، وإهلاك من يتعصبون عليه إن كان لإصلاح أمره مستحقاً، وبالترفق بالبرّ والإحسان على من تعصبوا له، وإن كان للإذلال والإهانة مستحقاً. فمن قلّد من عوامنا (من) مثل هؤلاء الفقهاء فهم مثل اليهود الذين ذمّهم الله تعالى بالتقليد لفسقة فقهاءهم. فأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلّدوه. وذلك لا يكون إلا (في) بعض فقهاء الشيعة لا جميعهم، فإن من ركب من القبائح والفواحش مراكب فسقة فقهاء العامة فلا تقبلوا منهم عنا شيئاً، ولا كرامة لهم، وإنما كثر التخليط في ما يتحمل عنا أهل البيت لذلك، لأن الفسقة يتحملون عنا، فهم يحرفونه بأسره لجعلهم، ويضعون الأشياء على غير (مواضعها و) وجوها لقلّة معرفتهم وآخرين يتعمدون الكذب علينا ليجروا من عرض الدنيا ما هو زادهم إلى نار جهنم. ومنهم قوم =

بالصمت، وإن العلماء ورثوا العلم بالطلب، وإن الصديقين ورثوا الصدق بالخشوع وطول العبادة، فمن أخذ بهذه المسيرة إما أن يسفل وإما أن يرفع وأكثرهم الذي يسفل ولا يرفع، إذا لم يرع حق الله ولم يعمل بما أمر به، فهذه صفة من لم يعرف الله حق معرفته^(١) ولم يحبه حق محبته، فلا يغرنك صلاتهم وصيامهم ورواياتهم وعلومهم فإنهم حمر مستنفرة^(٢).

ومن خلال متابعة الرواية، نجد أن هنالك قسمين من الناس: فبعضهم يسقط ويهبط إلى الأسفل^(٣)، والبعض الآخر يسمو ويرتفع إلى الأعلى. إذاً، لا يظن

=نصاب لا يقدر على القدر فينا، فيتعلمون بعض علومنا الصحيحة فيتوجهون به عند شيعتنا، وينتقصون بنا عند نصابنا، ثم يضيفون إليه أضعافه وأضعاف أضعافه من الأكاذيب علينا التي نحن براء منها، فيتقبله المستسلمون من شيعتنا على أنه من علومنا، فضلوا وأضلّوهم وهم أضّرّ على ضعفاء شيعتنا من جيش يزيد عليه اللعنة على الحسين بن علي عليه السلام وأصحابه، فإنهم يسلبونهم الأرواح والأموال، وللمسلوبين عند الله أفضل الأحوال لما لحقهم من أعدائهم. وهؤلاء علماء السوء الناصبون المتشبهون بأنهم لنا موالون ولأعدائنا معادون، يُدخلون الشك والشبهة على ضعفاء شيعتنا، فيضلّونهم ويمنعونهم عن قصد الحق المصيب. لا جرم أن من علم الله من قلبه من هؤلاء العوام، أنه لا يريد إلا صيانة دينه وتعظيم وليّه، لم يتركه في يد هذا المتلبّس الكافر، ولكنه يقيّض له مؤمناً يقف به على الصواب ثم يوفّقه الله تعالى للقبول منه، فيجمع الله له بذلك خير الدنيا والآخرة، ويجمع على من أضله لعن الدنيا وعذاب الآخرة. ثم قال: (قال) رسول الله ﷺ: شرار علماء أمتنا المضلون عنا، القاطعون للطرق إلينا، المسمّون أضدادنا بأسمائنا، الملقّبون أضدادنا بألقابنا، يُصلّون عليهم وهم للّعن مُستحقّون، ويلعنوننا ونحن بكرامات الله مغمورون، وبصلوات الله وصلوات ملائكته المقربين علينا - عن صلواتهم علينا - مستغنون»، تفسير الإمام العسكري، ص ٣٠١.

(١) عن إمامنا الصادق عليه السلام: «يقول الله عز وجل: إذا عصاني من عرّفتي سلطت عليه من لا

يعرفني»، الكافي، ج ٢ ص ٢٧٦ ح ٣١.

(٢) غاية المرام وحبّة الخصام، ص ٢٠٩ - ٢١٠.

(٣) إن من أهم الأسباب التي تؤدي بالإنسان إلى الوقوع في مهالك الفتن: عدم التبرؤ حقيقة بكل مراتب الوجود من أعداء آل محمد عليه السلام، وعدم الجلوس في عزاء سيّد الشهداء عليه السلام والبكاء عليه، وعدم تربية النفس على التسليم والخضوع التامّين للإمام عليه السلام، حتى ولو كانت أفعاله لا تنسجم مع ما اعتاد عليه الإنسان وتربّى عليه، وغياب المحبة الخالصة لإمام الزمان عليه السلام وعدم المداومة على خدمته عليه السلام.

أحد، إذا وصل إلى هذا المقام، أن عمله قد انتهى، إذ هناك مَنْ ينزل إلى أسفل سافلين. فمن هم هؤلاء؟ قال الإمام (عليه السلام): أولئك الذين لم يرعوا حق الله (١).

في الظهور التام، عندما لا يبقى هناك أية حيثية لا من المحب ولا من المحبوب ويتحقق الحب الكامل، يظهر «الله» (٢) حينذاك، والله هو حقيقة المحبة. أما أولئك الذين لم يرعوا حق الله، فيسقطون إلى أسفل سافلين.

صد نكته غير حسن بيايد كه تا كسى مقبول طبع مردم صاحب نظر شود

جرعة من محبة الحسين (عليه السلام)

إنَّ مُؤمِّن هذا المعنى في عالم الوجود هو الذات المقدسة لسيد الشهداء (عليه السلام) (٣) على وجه الخصوص. فالقبول عنده لا يحتاج إلى أي شرط (٤). ويتباعد عن هذا الوادي كلٌّ من يضع الشروط، أيّاً يكن هو وأيّاً تكن شروطه. فشرارة (٥) واحدة من محبته كفيلة بأن ترفع أيّ موجود من أسفل مراتب عالم الطبيعة والدنيا وأحطها إلى قمة المحبة، وبأن تُحقّق الاستغراق التام والفناء.

عالم آرا خودنمایى می کند این حسین است و خدایى می کند

(١) قال إمام الزمان (عليه السلام): «وَأَسْأَلُكُمْ بِحَقِّ اللَّهِ وَحَقِّ رَسُولِهِ وَحَقِّي، فَإِنْ لِي عَلَيْكُمْ حَقُّ الْقُرْبَى بِرَسُولِ اللَّهِ لِمَا (إِلَّا) أَعْتَمُونَا وَمَنْعَتُمُونَا مِمَّنْ يَظْلِمُنَا، فَقَدْ أَخْفَنَّا وَظَلَمْنَا وَطَرَدْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا وَبَغْيِ عَلَيْنَا وَدَفَعْنَا عَنْ حَقِّنَا وَآثَرِ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَاطِلِ»، (الغيبة، ص ١٥٠). ومن كلام لأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ (عليه السلام): «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَكُمْ بِدِينِهِ وَخَلَقَكُمْ لِعِبَادَتِهِ فَانصَبُوا أَنْفُسَكُمْ فِي أَدَاءِ حَقِّهِ»، شرح نهج البلاغة، ج ٣ ص ١٨٥.

(٢) «فَبِهِمْ مَلَأْتُ سَمَاءَكَ وَأَرْضَكَ حَتَّى ظَهَرَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»، الزيارة الرجبية، مفاتيح الجنان.

(٣) فهو العشق وهو العاشق وهو المعشوق.

(٤) يا رحمة الله الواسعة التي يطمع حتى إبليس نفسه في أن تطاله يوم القيامة، وقد ورد في دعاء كميل: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِرَحْمَتِكَ الَّتِي وَسَّعَتْ كُلَّ شَيْءٍ»، مفاتيح الجنان.

(٥) «إِنَّ الْعَشْقَ إِذَا وَقَعَتْ ذَرَّةٌ مِنْهُ عَلَى رَجُلٍ سَالِكٍ، فَإِنَّهُ تَوَلَّدَ مِنْهُ امْرَأَةٌ، وَإِذَا سَقَطَتْ ذَرَّةٌ عَشْقٍ عَلَى امْرَأَةٍ سَالِكَةٍ، فَإِنَّهَا تَوَلَّدَ مِنْهَا رَجُلًا. إِنْ آدَمُ بِذَرَّةٍ عَشْقٍ أَنْجَبَتْ حَوَاءَ، وَمَرِيَمَ أَنْجَبَتْ عِيسَى»، حافظ الشيرازي.

نسيم كربلاء يوجِدُ العشق

لم يتحقق الاتصال بالحسين عليه السلام لأحدٍ في العالم، فالاتصال بتربته ونسيمها موجدُ العشق.

نسیمی کز بن آن کاکل آيو مرا خوش تر ز بوی سنبل آيو
چو شوگیرم خیالش را در آغوش سحر از بستم بوی گل آيو

قال الإمام الرضا عليه السلام: «من زار قبر أبي عبد الله عليه السلام بشطّ الفرات، كان كمن زار الله فوق عرشه»^(١). لم يقل: من زار الحسين أو شيعة الحسين أو محبّ الحسين، فهذا صاحب روح، بل قال: زائر قبر^(٢) الحسين عليه السلام هو زائر الله فوق عرشه^(٣).

إن قبره وتربته من الجمادات المتصلة بتلك الحقيقة. ولكن ليس حقيقته النورية أو الروحية أو الجسمية، فجسمه ليس موجوداً في تلك التربة كما نتخيّل^(٤).

(١) كامل الزيارات، ص ٢٧٩ باب ٥٩ ح ٢؛ ثواب الأعمال، ص ١١٢ ح ١.

(٢) «لائذْ عائدٌ بقبوركم»، الزيارة الجامعة، مفاتيح الجنان.

(٣) «يا مَنْ اسْتَوَى بِرَحْمَانِيَّتِهِ فَصَارَ الْعَرْشُ غَيْباً فِي ذَاتِهِ»، «يا مَنْ احْتَجَبَ فِي سُرَادِقَاتِ عَرْشِهِ عَنْ أَنْ تُدْرِكَهُ الْأَبْصَارُ»، دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة، مفاتيح الجنان.

(٤) عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «ما من نبي ولا وصي نبي يبقى في الأرض بعد موته أكثر من ثلاثة أيام حتى ترفع روحه وعظمه ولحمه إلى السماء، وإنما تؤتى مواضع آثارهم ويبلغهم السلام من بعيد ويسمعونه في مواضع آثارهم من قريب»، (الكافي، ج ٤ ص ٥٦٧). ولهذا الأمر تفسير، فالأئمة عليهم السلام «لما ظهروا في الدنيا، ما ظهروا بالصورة التي خلقهم الله عليها، لأن الرعيّة لا يمكنهم النظر إليهم، وهم عليهم السلام إنما أتوا لانتفاع الخلق منهم. فتلبّسوا بلباس الرعيّة، وتصوروا بالصورة اللائقة لمشاعرهم وعقولهم، حتى يتمكن الرعيّة من الاستفادة بنورهم، فهم عليهم السلام ما داموا في هذه الدنيا، متلبسين ذلك اللباس ومتصورين بتلك الصورة العرضية المناسبة لأهل الأرض. فلما ارتحلوا وانتقلوا من هذه الدار، فلا فائدة لتلك الصورة، والتلبس بذلك اللباس، لأنها أمر عَرَضِيٍّ للغير، فلما صاروا في القبر، خلَعُوا ذلك اللباس عنهم، وارتفعوا عمّا كانوا ظاهرين به للناس. وذلك الارتفاع - بنزع ذلك اللباس - هو السماء، التي ورد أنهم يصعدون إليها، وإلا فهم في قبورهم وحفرهم، لكنهم لا تشاهددهم أبصار أهل الدنيا، =

قبره في قلوب من والاه

لَمْ قَالَ الإمام (عليه السلام) : من زار قبر أبي عبد الله (عليه السلام) بشطّ الفرات؟ ذلك لأنه لا يريد لأحد أن يصل إلى قلبك، فهذا كثيرٌ على الناس. إذاً، ما سرّ هذا القلب حتى لا يرغبوا بأن يصل أحدٌ إليه؟ لقد قالوا هم أنفسهم (عليه السلام) : «قبره في قلوب من والاه»^(١)، أي أن قبر الحسين (عليه السلام) في «قلوب من والاه» وهذه القلوب هي مزار أهل اليقين. فالأئمة (عليهم السلام) أنفسهم يتوجّهون إلى ذلك القلب^(٢) الذي هو مزارهم. ولذلك، قالوا إن العنوان هو شطّ الفرات، ولم يدعوا أحداً يتعرّف على ذلك القلب^(٣). فلا أحد في العالم يعرف القلب الذي يسكن فيه الإمام الحسين (عليه السلام).

= لارتفاعهم عن مداركهم وأبصارهم، إلا في بعض المقامات، لإظهارهم المعجزات والكرامات، فإنهم يظهرون لهم، إما بتقوية أبصار الناظرين، أو بتصوّرهم (عليهم السلام) بصورهم»، روى حول الأسرار الحسينية، ص ١٤٨ - ١٤٩.

(١) «قبورنا قلوب شيعتنا وموالينا»، (بحار الأنوار، ج ٣٢ ص ٣٧٧). وقد ورد في الزيارة السابعة للإمام الحسين (عليه السلام) : «السَّلامُ عَلَيْكُمْ يَا مَلَائِكَةَ رَبِّي الْمُحَدِّثِينَ بِقَبْرِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلام»، أي محدّثين بقلب من والاه، ولكلمة محدّثين معنّيان: ناظرين ومحيطين.

(٢) «أولئك الذين يسمّون علوّاً بقدم المعرفة حتى يصلوا إلى حيث تتجلى الذات بتمام التجليات، وبالطبع ليس الذات بل على نحو التجلي في قلوبهم، وقلوبهم ليست من هذه القلوب، بل القلب الذي يدخله القرآن، القلب الذي فيه مبدأ الوحي، القلب الذي يتّخذ جبرائيل منزلاً. في هذا القلب، تتجلى الذات بذاك التجلي الجامع لكافة التجليات وهو نفسه الاسم الأعظم والمُتجلى بتجلي الاسم الأعظم، والاسم الأعظم هو نفسه «نحن الأسماء الحسنی». الاسم الأعظم هو نفس رسول الله، وهو أعظم الأسماء في مقام التجلي»، تفسير آية البسملة (محاضرات معرفية)، ص ٩٤.

(٣) من كلام للإمام الصادق (عليه السلام) : «... فَأَمَرْنَا بِالْكَفِّ عَنْهُمْ وَالسُّتْرِ وَالْكَتْمَانِ، فَاکْتُمُوا عَمَّنْ أَمَرَ اللَّهُ بِالْكَفِّ عَنْهُ وَاسْتُرُوا عَمَّنْ أَمَرَ اللَّهُ بِالسُّتْرِ وَالْكَتْمَانِ عَنْهُ»، (الكافي، ج ١ ص ٤٠٢). قال بايزيد البسطامي: «يا ربّ، بلاطك بهذه العظمة وليس به أحد؟ وجنتك بهذه الروعة وبهذا الخفاء؟ فسمعتُ هاتفاً يقول: بلاطنا خالٍ لا لأن أحداً لا يأتينا، بل لأننا لا نقبل إلا القليل، فليس كل من دبّ وهبّ يستحق هذا المقام»، خمسة من العرفاء، ص ٣٩.

حتى الآن، ماذا فعلنا لذلك الذي ينبض قلبه حباً للحسين (عليه السلام)؟ متى جعلناه مسجوداً لنا؟ علماً أنه كذلك بالفعل. متى حاولنا الاستدلال على واحدٍ من هؤلاء؟ بلى، تمكّنا من الاستدلال على أحدهم ولكننا ذهبنا إليه لنكيل له التهم ونريق ماء وجهه وننكّل به^(١). نحن فعلنا هذه الأفاعيل، ولا أقول إن الغرباء هم من فعلوا ذلك، بل نحن فعلنا^(٢). متى استطعنا معرفة

(١) من كلام لرسول الله ﷺ: «ولا يزال محبنا منفيّاً مؤذياً منفرداً مضروباً مطروداً مكذوباً محزوناً باكي العين حزين القلب حتى يموت، وذلك في الله قليل»، (تفسير فرات، ص ٩٤). وعن عليّ (عليه السلام) أنه قال: «أخذ الله ميثاق المؤمن أن لا يصدّق في مقالته، ولا ينتصف من عدوّه، وعلى أن لا يشفي غيظه إلا بفضيحة نفسه، لأن كل مؤمن ملجم، وذلك لغاية قصيرة، وراحة طويلة، وأخذ الله ميثاق المؤمن على أشياء أيسرها عليه مؤمن مثله يقول بمقالته يغيه ويحسده، والشيطان يغيه ويضله، والسلطان يقفو أثره ويتبع عثراته، وكافر بالله الذي هو مؤمن به يرى سفك دمه ديناً وإباحة حريمه غنماً، فما بقاء المؤمن بعد هذا، (وسائل الشيعة، ص ٢١٠). وعن رسول الله ﷺ: قال الله عزّ وجلّ: «مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيّاً، فَقَدْ أَرْصَدَ لِمَحَارِبَتِي...»، (الكافي، ج ٢ ص ٣٥٢ ح ٧). وعن عبد العظيم عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) قال: «يا عبد العظيم، أبلغ عني أوليائي السلام وقل لهم: أن لا يجعلوا للشيطان على أنفسهم سبيلاً ومُرُّهم بالصدق في الحديث وأداء الأمانة ومُرُّهم بالسكوت وترك الجدل في ما لا يعينهم وإقبال بعضهم على بعض والمزاورة فإن ذلك قرينة إليّ، ولا يشتغلوا أنفسهم بتمزيق بعضهم بعضاً فإنّي آليتُ على نفسي إنه من فعل ذلك وأسخط ولياً من أوليائي دعوتُ الله ليعذّبه في الدنيا أشدّ العذاب وكان ﴿فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَيْرِينَ﴾ وعرفهم أن الله قد غفر لمحسنهم وتجاوز عن مسيئهم إلا من أشرك به أو أذى ولياً من أوليائي أو أضمر له سوءاً فإن الله لا يغفر له حتى يرجع عنه فإن رجع وإلا نزع روح الإيمان عن قلبه وخرج عن ولايتي ولم يكن له نصيباً في ولايتنا وأعوذ بالله من ذلك»، (الإختصاص، ص ٢٤٧). ويقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «الأصحاب والأصدقاء هم كلّ الخلق، ولأنهم لم يصلوا إلى التوحيد فهم يكفّرون الموحّدين وينتقصون منهم ويحاربونهم لأنهم سبقوهم، وكلّ من لم يصل إلى التوحيد يتكلّم بنفس هذا الكلام ويفعل نفس هذا الفعل، فإنهم لا يعلمون؛ وهو معنى ما ورد عن النبي الأكرم ﷺ: اللهم اهْدِ قومي فإنهم لا يعلمون».

(٢) أيها الموالي، لماذا لم تقرر حتى الآن أن تُخرج نفسك من هذه الرمال الموحلة؟ فإمام زمانك ينتظرك، لا تتعبه وتجعله ينتظرك طويلاً. إنه يحبّك وأنت تدري كم ستر عليك ودعا لك وغفر لك وما زال. فإن أكرمك، لا تكن لثيماً ولا تتمرّد عليه بالتمرّد على=

قدر أنفسنا^(١)! ﴿فَيْنَهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾^(٢)، ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٣).

نقول إن فلاناً ليس من أصحاب القلوب^(٤)، أهو كذلك فعلاً أم أننا لا نمتلك العين لكي نراه ونسجد له^(٥)؟ لا نستطيع أن نقوم بذلك، فالسجود لعشاق الإمام

= أوليائه، ولا تتكل على كرمه ورحمته، فتكون بذلك عبداً أبقاً أنانياً. ألم يجدك يتيماً فآواك وأجلسك في عزاء جدّه الحسين عليه سلام الله، ومنّ عليك بزيارته، ووجدك ضالاً، فهداك إلى ولاية عليّ بن أبي طالب عليه السلام ووجدك عائلاً، فأغناك بحبّ محمد وآل محمد عليهم السلام؟! فلا تقابل هذا المنّ والجود والكرم باللؤم والأذية والتنكيل بمحبّي الإمام وخواصه.

(١) «من عرف نفسه عرف ربّه»، غرر الحكم ودرر الكلم، ج ٥ ص ١٩٤ ح ٧٩٤٦.

(٢) سورة فاطر، آية ٣٢.

(٣) سورة العنكبوت، آية ٤٠.

(٤) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ الأبله يُعظّم المسجد، ولكنه يجد في جفاء أهل القلوب»، انتهى... وقبول أهل القلوب هو مفتاح السعادة وإياك والشكّ والريبة بذلك. ولكن كما يقول الله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ﴾ (سورة الإسراء، آية ٨٤)، ويقال أيضاً: «كلّ إناءٍ بالذي فيه ينضح»، ولذا «لما كان العالم أكثرهم أهل انقطاع عن الله واشتغال بالدنيا، مالت قلوبهم إلى أهل الكشف الصوّري والأخبار عمّا غاب من أحوال المخلوقات. فعظّموهم واعتقدوا أنّهم هم أهل الله وخاصّته، وأعرضوا عن أهل الكشف الحقيقي، واتهموهم في ما يُخبرون به عن الله وقالوا: لو كان هؤلاء أهل الحقّ، كما يزعمون، لأخبرونا عن أحوالنا وأحوال المخلوقات. وإذا كانوا لا يقدرّون على كشف أحوال المخلوقات، فكيف يقدرّون على كشف أمور أعلى من هذه؟ فكذبوهم بهذا القياس الفاسد، وعميت عليهم الأنباء الصحيحة. ولم يعلموا أنّ الله تعالى قد حمى هؤلاء عن ملاحظة أهل الخلق وخصّهم به، وشغلهم عمّا سواه، حمايةً لهم وغيره عليهم. ولو كانوا ممّن يتعرّضون إلى أحوال الخلق، لما صلحوا للحقّ؛ فأهل الحقّ لا يصلحون للخلق، كما أنّ أهل الخلق لا يصلحون للحقّ»، جامع الأسرار ومنبع الأنوار، ص ٤٤٠.

(٥) أي الخضوع، فعن الإمام العسكري عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «... ولا ينبغي لأحدٍ أن يسجد لأحدٍ من دون الله، ويخضع له كخضوعه لله، ويُعظّمه بالسجود له كتعظيمه لله، ولو أمرتُ أحداً أن يسجد هكذا لغير الله لأمرتُ ضعفاءً شيعتنا وسائر المُكلّفين من شيعتنا أن يسجدوا لمن توسّط في علوم عليّ وصيّ رسول الله، ومَحض وداد خير خلق=

الحسين عليه السلام ليس من عملنا ^(١)، ولا من عمل أي أحد آخر، ذلك لأن القلب المأخوذ بعشق الحسين عليه السلام هو قلبٌ يتوجّه إليه رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام وكل الذوات المقدسة. وأودّ القول بأن الأنبياء أيضاً لا سبيل لهم إلى ذلك القلب.

مسجد الملائكة

لقد اتصل آدم صفّي الله ﷻ بتربته ولذلك سجدت له الملائكة. فذلك السجود ^(٢) كان لأن عطر أمير المؤمنين ورسول الله والإمام الحسين عليهم الصلاة والسلام فاح من آدم، إذ كان التراب الذي خلق منه مفعماً بتلك الرائحة.

=الله عليّ بعد محمّد رسول الله، واحتمل المكاره والبلايا في التصريح بإظهار حقوق الله، ولم يُنكر عليّ حقّاً أرقبُه عليه قد كان جهله أو أغفله»، وسائل الشيعة، ج ٦ ص ٣٨٨ ح ٨٢٥٦.

(١) لم نُؤمّر بذلك لأننا لا نقوى على ذلك ولسنا أهلاً له، «الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معاشهم فإذا محصوا بالبلاء قلّ الديانون»، بحار الأنوار، ج ٤٤ ص ٣٨٣.

(٢) ينقسم السجود بشكلٍ عام إلى قسمين: تكويني جبليّ (مفطورٌ عليه الإنسان) وتشريعي. فأما السجود التكويني فسيأتي الحديث عنه في ما يلي الكلام عن السجود التشريعي الذي ينقسم بدوره إلى تعظيمي وتشريفي. السجود التعظيمي هو كالسجود الذي تحقّق لآدم ويوسف عليهما السلام ولا يكون هذا السجود إلا بتضمّن نفحة محمّدية علويّة في المسجود له، حيث سُئل رسول الله ﷺ: يا رسول الله، أخبرني عن قول الله عزّ وجلّ لإبليس: ﴿اسْتَكَبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾، من هم يا رسول الله الذين هم أعلى من الملائكة المُقرّبين؟ فقال رسول الله ﷺ: «أنا وعليّ وفاطمة والحسن والحسين، كنّا في سُرادق العرش نُسبح الله، فسبّحت الملائكة بتسبيحنا قبل أن يخلق الله آدم بألفي عام. فلما خلق الله عزّ وجلّ آدم، أمر الملائكة أن يسجدوا له، ولم يُؤمروا بالسجود إلا لأجلنا، فسجدت الملائكة كلّهم أجمعون إلا إبليس فإنه أبى أن يسجد. فقال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِيَّ اسْتَكَبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ قال: من هؤلاء الخمسة المكتوبة أسماؤهم في سُرادق العرش، ثم قال رسول الله: فنحن باب الله الذي يؤتى منه، بنا يهتدي المهتدون، فمن أحبنا أحبه الله وأسكنه جنته، ومن أبغضنا أبغضه الله وأسكنه ناره ولا يُحبنا إلّا من طاب مولده»، (تأويل الآيات، ج ٢ ص ٥٠٩). وعن رسول الله ﷺ أنه =

= قال: «ثم إن الله تبارك وتعالى خلق آدم ﷺ فأودعنا صلبه وأمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لنا وإكراماً، وكان سجودهم لله عز وجل عبودية ولآدم إكراماً وطاعة لكوننا في صلبه»، (مصباح الهداية، ص ١٢٤ - ١٢٦). وعن الإمام الحسن العسكري عن جده الحسين بن عليّ ﷺ أنه قال: «... إن الله تعالى لما خلق آدم، وسوّاه وعلمه أسماء كلّ شيء وعرضهم على الملائكة، جعل محمداً وعلياً وفاطمة والحسن والحسين ﷺ أشباحاً خمسة في ظهر آدم، وكانت أنوارهم تُضيء في الآفاق من السماوات والحُجب والجنان والكرسي والعرش، فأمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم تعظيماً له إنّه قد فضّله بأن جعله وعاءً لتلك الأشباح التي قد عمّ أنوارها في الآفاق، فسجدوا إلا إبليس أبى أن يتواضع لجلال عظمة الله وأن يتواضع لأنوارنا أهل البيت، وقد تواضعت لها الملائكة كلها واستكبر وترفع، وكان بلبائه ذلك وتكبره من الكافرين»، (تفسير الإمام العسكري ﷺ، ص ٢١٨ - ٢١٩). فالروايات تبين أن السجود كان لأجل آل محمد صلى الله عليهم، فآدم كان قبلةً للملائكة، أما أهل البيت ﷺ فكانوا جوهر تلك القبلة.

وكذلك الأمر بالنسبة للنبي يوسف ﷺ وسجود أبيه وإخوته له، ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ (سورة يوسف، آية ١٠٠)، وعن الإمام الصادق ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ أنه قال: «كان سجودهم ذلك عبادة لله»، (تفسير العياشي، ج ٢ ص ١٩٧). فكما كان آدم قبلة، كان يوسف قبلة كذلك وجوهر القبليتين هو الإيمان والولاء لمحمد وعليّ وآلهما، وهكذا فقد كان ذلك السجود، سجوداً لله تعالى. وفي الرواية أنه أتى زنديقٌ عند الإمام الصادق ﷺ وسأله: «أَيَصْلُحُ السجود لغير الله؟ قال الإمام ﷺ: لا. قال: فكيف أمر الله الملائكة بالسجود لآدم ﷺ؟ فقال الإمام ﷺ: «إِنَّ مَنْ سَجَدَ بِأَمْرِ اللَّهِ فَقَدْ سَجَدَ لِلَّهِ، فَكَانَ سَجُودَهُ لِلَّهِ إِذَا كَانَ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ»، (الإحتجاج، ج ٢ ص ٢١٨ - ٢٢٣). وعن الإمام العسكري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «... ولو أمرتُ أحداً أن يسجد هكذا لغير الله لأمرتُ ضُعفاءً شيعتنا وسائر المُكَلِّفِينَ مِنْ شِيعَتِنَا أَنْ يَسْجُدُوا لِمَنْ تَوَسَّطَ فِي عِلْمِ عَلِيِّ وَصِيِّ رَسُولِ اللَّهِ...»، (وسائل الشيعة، ج ٦ ص ٣٨٨ ح ٨٢٥٦). وفي صلواتنا، نتوجه إلى قبلة أكثر قرباً وهي تربة الحسين ﷺ، حيث تقول الروايات إنه يُستحبّ النظر إلى موضع السجود أثناء الصلاة، وكذلك يُستحبّ للمُصَلِّي أن يمرّغ أنفه بتربة الحسين ﷺ.

وفي ما يخصّ السجود التشريفي فهو كسجود المرأة لزوجها، فعن رسول الله ﷺ: «لو كنتُ أمر أحداً أن يسجد لأحد لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها»، (مكارم الأخلاق، ص ٢١٥).

وأما بالنسبة للسجود التكويني الجليلي فهو السجود لله الذي لا يتمّ إلا بالسجود لآل محمد ﷺ، فالسجود وكل أشكال العبادات إنّما تتمّ للذات بتوسط اسم الله الأعظم =

=لأنّ الذات منزّهة عن كل شيء حتى عن العبادة ولأنّ الإنسان بجلبته وتكوينه لا قدرة لديه بالفطرة على السّجود للذات الربوبية بشكل مباشر، واسم الله كما بات معلوماً هو حقيقة الولاية لمحمد وآل محمد صلوات الله عليهم أجمعين. وإنّا حين نتكلم عن مقام الاسم وشأنه ورفعته، فإنه لا ينبغي فصله عن الذات، إذ بالنتيجة كل ما هو حاصلٌ للاسم يعود إلى الذات وليس باستقلالية عنها. فاسم الله موصولٌ به والفصل بينهما هو الشرك بعينه، ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَائِرُونَ﴾ (سورة البقرة، آية ٢٧). يقول أمير المؤمنين عليه السلام في حديثٍ طويل: «وخلق - الله - من نور اللّوح القلم، وقال له: اكتب توحيدِي، فبقِيَ القلم ألف عام سكران من كلام الله تعالى، فلما أفاق، قال: اكتب، قال: يا ربّ وما أكتب؟ قال: اكتب: «لا إله إلاّ الله، مُحمّد رسول الله»، فلما سمع القلم اسمَ مُحمّد عليه السلام خرّ ساجداً، وقال: سبحان الواحد القهار، سبحان العظيم الأعظم، ثمّ رفع رأسه من السجود وكتب: «لا إله إلاّ الله، مُحمّد رسول الله» ثمّ قال: يا ربّ، ومن مُحمّد الذي قرئتَ اسمه باسمِك وذِكْرُه بذكرك؟ قال الله تعالى له: يا قلم، فلولاه ما خلقتك، ولا خلقتُ خلقي إلاّ لأجله، فهو بشيرٌ ونذيرٌ وسراجٌ منيرٌ، وشفيعٌ وحبیبٌ، فعند ذلك انشقّ القلم من حلاوة ذكْر مُحمّد عليه السلام، ثمّ قال القلم: السلامُ عليك يا رسول الله، فقال الله تعالى: وعليك السلام منّي ورحمةُ الله وبركاته، فلأجل هذا صار السلام سنّة والردّ فريضة...» (بحار الأنوار، ج ١٥ ص ٢٩ - ٣٠)، ولما كان في القلم مداد ومن المداد تتصوّر الأشياء وتُكتبُ كلُّ الكلمات، كان سجوده سجود الكون كلّهُ. وفي حديثٍ طويل، قال الإمام الصادق عليه السلام: «... ثمّ عرج به - أي رسول الله - إلى السماء الدنيا، فنفرت الملائكةُ إلى أطراف السماء ثم خرت سُجّداً فقالت: سُبّوح قدّوس ربّنا وربّ الملائكة والروح، ما أشبه هذا النور بنور ربّنا. فقال جبرئيل عليه السلام: الله أكبر الله أكبر. فسكت الملائكة، وفُتحت أبواب السماء... ثمّ عرج به إلى السماء الثانية، فلما قَرُب من باب السماء، تنافرت الملائكة إلى أطراف السماء وخرّت سُجّداً وقالت: سُبّوح قدّوس ربّ الملائكة والروح، ما أشبه هذا النور بنور ربّنا، فقال جبرئيل عليه السلام: أشهد أن لا إله إلاّ الله أشهد أن لا إله إلاّ الله، فاجتمعت الملائكة، وفُتحت أبواب السماء... ثمّ عرج بي إلى السماء الثالثة، فنفرت الملائكة إلى أطراف السماء، وخرّت سُجّداً وقالت: سُبّوح قدّوس ربّ الملائكة والروح، ما هذا النور الذي يشبه نور ربّنا؟ فقال جبرئيل عليه السلام: أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله...»، (علل الشرائع، ج ٢ ص ٢٦)، والحرّ تكفيه الإشارة ليفهم حقيقة العبارة.

وفي السياق، نورد هذه الفقرة من زيارة سيّد الشهداء مرويةً عن إمامنا الصادق عليه السلام: «ثم استلم القبر، ثم ضع خدك الأيمن على القبر، وقل: وارحم خشوعي وخضوعي=

=وانقطاعي إليك سيدي، وأسفي على ما كان مني، وتمرغي وتغفيري في تراب قبر ابن نبّك بين يديك»، فكلّ هذا المشهد هو عبارة عن سجود تشريفي وتعظيمي وتكويني معاً، إذ لن يحصل خشوع وخضوع وانقطاع لله تعالى ما لم يكن هناك خشوع وخضوع وانقطاع للحسين (عليه السلام)، فقد ورد في الزيارة الجامعة: «مَنْ أطاعكم فقد أطاع الله». كما ورد في (مقدمة كتاب مصباح الهداية، تحقيق جلال الدين الآشتياني، ص ١٠٨) هذا المقطع: «فقد سبق فيما قلنا إن الحق إذا تجلّى على عبده وأفناه عن نفسه، قام فيه لطيفة إلهية. فتلك اللطيفة قد تكون ذاتية، وقد تكون وصفية. فإذا كانت ذاتية، كان ذلك الهيكل الإنسان هو الفرد الكامل والغوث الجامع؛ عليه يدور أمر الوجود، وله يكون الركوع والسجود، وبه يحفظ الله العالم. وهو المُعبّر عنه بـ«المهدي» و«الخاتم» (عليه السلام) وهو الخليفة... تنجذب الحقائق، أي الموجودات، إلى امتثال أمره انجذاب الحديد إلى المغناطيس. ويقهر الكون بعظمته ويفعل ما يشاء بقدرته... غير مقيد برتبة، لا حقبة إلهية ولا خلقية عادية».

وفي الرواية عن محمد ابن علي الحلبي، عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ (سورة القلم، آية ٤٢) قال: تبارك الجبار، ثم أشار إلى ساقه فكشف عنها الإزار، قال: ﴿وَيَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ قال: «أفحم القوم ودخلتهم الهيبة وشخصت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر شاخصة أبصارهم ترهقهم الذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون»، (بحار الأنوار ج ٤ ص ٧). وقال علي بن إبراهيم، في قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ﴾، قال: يوم يكشف عن الأمور التي خفيت وما غصبوا آل محمد حقهم ﴿وَيَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ﴾، قال: يكشف لأمر المؤمنين (عليهم السلام)، فتصير أعناقهم مثل صياصي البقر - يعني قرونها - ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أن يسجدوا، وهي عقوبة لأنهم لم يطيعوا الله في الدنيا في أمره، وهو قوله: ﴿وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾ قال: إلى ولايته في الدنيا وهم يستطيعون»، (تفسير القمي، ج ٢ ص ٣٨٢ - ٣٨٣). وعن الحسين بن موسى، عن عبيد بن زرارة، عن أبي عبد الله (عليه السلام)، قال: سألت عن قول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾، قال: كشف إزاره عن ساق، ويده الأخرى على رأسه فقال: «سبحان ربي الأعلى»، (توحيد الصدوق، ج ١ ص ١٥٥).

وفي الختام، نورد هذه اللطيفة الولائية: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (سورة القلم، آية ٤٢)، ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (سورة الإنسان، آية ٢١). لعل أحد معاني كلمة «ساق» الواردة في الآية الكريمة هو «الساق». ففي يوم القيامة عندما يكشف عن ذلك الساق، أي عن أبي الفضل (عليه السلام)، يُدعى مَنْ يُنكر ولايته التكوينية ويُشكل عليها، من العوام، إلى السجود أي الخضوع والتسليم لمقامه فلا يستطيعون. فهم لم يسجدوا في الدنيا ولذا لن يستطيعوا السجود في الآخرة، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا

ولكنّ أحداً لم يجد الطريق إلى ذلك القلب الذي فيه قبره، «وقبره في قلوب من والاه»، ولذا، لم يصبح مزاراً لأيّ زائر في عالم الطبيعة.

ماذا قدّمتم لعشاق الإمام الحسين (عليه السلام) إلى الآن؟ هل استطعتم أن تقعوا على تراب أقدامهم ساجدين؟ إن هذا العمل لعظيم بالنسبة للعالم.

زيارة الله فوق عرشه

ما الذي يحصل إذا زار أحدهم قبر الحسين (عليه السلام) بشطّ الفرات؟ هل تُغفر ذنوبه؟ لا، فهذا قليل. هل يزيد رزقه؟ لا، فهذا قليل أيضاً. إذاً، ما الذي يحصل، وماذا يوجد أكثر من ذلك؟ ثمّة ما هو أسمى من كل هذا: كان «كمن زار الله فوق عرشه»^(١). إذاً، من أين يظهر التوحيد؟

موضع سجود أهل القلوب

إن ذلك التراب ليس موضع سجود^(٢) أيّ كان، إنما هو موضع سجود أهل القلوب.

وَمَا الرَّحْمَنُ أَتَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ (سورة الفرقان، آية ٦٠)، فالسلام عليك مولانا يا أبا الفضل العباس ورحمة الله وبركاته... وكما ورد: «... العبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء»، ميزان الحكمة، ج ٣ ص ٢٥٣١.

(١) كامل الزيارات ص ١٤٧؛ التهذيب، ج ٦ ص ٤٦.

(٢) «كربلاء هي حقيقة هاجر الحسين (عليه السلام) إلى الله من خلالها، وقد صدحت بهتاف الوحدة حين زارت قائلة: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾، فأتى ظهور الألوهية منها، ولهذا السبب ينبغي السجود على تربتها»، (كربلاء الشهود، ص ٩٦). إنّ كلّ سجود، في الأصل، هو لله تعالى، ولكنّ الجدير بالذكر أنّ السجود الأتمّ له عزّ وجلّ لا يتحقّق إلاّ بالسجود على تربة الحسين (عليه السلام)، إذ ورد في الرواية: «السجود على تربة الحسين سلام الله عليه يخرق السماوات السبع»، (وسائل الشيعة، ج ٥ ص ٣٦٦)، أي أنّ السجود على تربته يوصل إلى الله تعالى وهذا هو الهدف الأوّل من السجود. فالسجود لآدم ويوسف (عليهما السلام) كان سجوداً لله ولكنه لم يكن تامّاً لأنه لم يتحقّق عبر تربة الحسين (عليه السلام). ومن المسلمّ به أنّ كلّ الموجودات تكويناً خاضعة لله تعالى ساجدة له ولكن بتوسّط الاسم الأعظم، «إن=

سال ها سجده گاه اهل نظر خواهد بود هر زمینی که نشان از کف پای تو بود^(١)

إلى الآن، من الذي وقع على تربته؟ هل ينبغي السجود على تربة الإمام الحسين عليه السلام أثناء الصلاة فقط لأن في ذلك ثواب؟ لا، بل إن نفس التراب يجب أن يكون مسجوداً له^(٢)، كما ينبغي لحقيقة السجود أن تتحقق فيه. ولا

=الذات بلا حجاب الأسماء والصفات، لن تتجلى في مرآة من المرآي ولن تظهر في نشأة من نشأت الوجود»، (الآداب المعنوية للصلاة، ص ٤٦٩) وتربة الإمام الحسين عليه السلام هي من شؤون الإسم الأعظم ولذلك فإن السجود التام لله لا يكون إلا عبرها. (١) همام الدين تبريزي.

(٢) نتطرق إلى مسألة السجود من الناحيتين العلمية والعملية. فأما من الناحية العلمية، فقد ورد عن أبي عبد الله سلام الله عليه قوله: «من عبد الله بالتوهم فقد كفر، ومن عبد الإسم دون المعنى فقد كفر، ومن عبد الإسم والمعنى فقد أشرك، ومن عبد المعنى بإيقاع الأسماء عليه بصفاته التي وصف بها نفسه فعقد عليه قلبه ونطق به لسانه في سرائره وعلايته فأولئك أصحاب أمير المؤمنين سلام الله عليه حقاً»، (الكافي، ج ١ ص ٨٧). إذاً، فعبادة الإسم أو اسم الاسم بإيقاع المعنى ومن غير استقلالية، لا إشكال فيها. ولقد ذكر موضوع السجود في القرآن الكريم في موارد عدة، فتارة يصدر الأمر بالسجود لله بشكل مباشر: ﴿فَأَسْجُدُوا لِلَّهِ وَعَبُدُوا﴾ (سورة النجم، آية ٦٢). وتارة يصدر بالسجود لآدم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ (سورة البقرة، آية ٤٣) وتارة بالسجود لاسم الرحمن ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ (سورة الفرقان، آية ٦٠)، ﴿وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ (سورة مريم، آية ٥٨)، كما يذكر القرآن سجود إخوة يوسف وأبويه له حيث يقول: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ (سورة يوسف، آية ١٠٠). والسجود بمعناه اللغوي هو الخضوع، وهو إما يكون باستقلالية عن الله، فلا يعد سجوداً له عز وجل بل شركاً به تعالى، وإما يكون من غير استقلالية عنه جلّ جلاله حين يكون هو المقصود من وراء السجود لآياته وأسمائه بإيقاع المعنى عليها، وهذا السجود يكون لله نفسه، فالمعرفة ضرورية في هذه المسألة. ثم، في سجدتي السهو، اللتين تؤديهما بحال الخطأ في الصلاة، لمن نتوجه ومن نخاطب، وبالنتيجة، لمن نسجد؟ أليس لرسول الله ﷺ؟ وهذا السجود يُرمم الخطأ والخلل والنقص الذي حصل في الصلاة. ولماذا لا نجد أحداً يرفض أو يتحفظ على الحديث الذي يقول فيه رسول الله ﷺ: «لو كنتُ أمر أحداً أن يسجد لأحد لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها»، (مكارم الأخلاق، ص ٢١٥)، بل على العكس تماماً، نرى الناس يقبلونه ويرحبون به، وليس ذلك لأنهم يخضعون وينصاعون لكل ما يقوله النبي الأعظم ﷺ بل لأنهم وجدوا أن الحديث يُرضي أنفسهم ويُشبع أنايتهم. =

=إذاً، فالسجود لآدم، إذا لم يكن باستقلالية ولا بمنأى عن الله لا يكون إلا له تبارك وتعالى. وانطلاقاً من هذا الأساس، سجدت الملائكة لآدم وسجد أبونا يوسف وإخوته له. واستناداً إلى الأساس نفسه، أمرنا الله عز وجل بالسجود لاسمه الرحمن، وكله بالحقيقة سجوداً لله عز وجل وتنفيذاً لأمره تبارك وتعالى. وهذا هو المبدأ عينه في القضية موضع البحث، وهي السجود للتربة. أليس في اعتقادنا أن القرآن صامتٌ وناطق؟ فالمصحف المكتبي هو القرآن الصامت والإمام المعصوم هو القرآن الناطق، ولا بد لكل ما يتضمنه القرآن الصامت أن يكون متضمناً في الناطق كذلك. ومن هنا، فقد ورد في القرآن الكريم: ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الإسراء، آية ٨٢)، فيتنزل من القرآن الصامت آيات هي شفاء ورحمة للمؤمنين. وفي المقابل، يتنزل من القرآن الناطق ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين أيضاً، وهو تربة أبي عبد الله الحسين عليه السلام التي هي إسم الاسم، والتي لا يصح السجود لها إلا بليقاع المعنى عليها. ولكن واقع الحال أن أغلب الناس يعبدون الإسم دون المعنى ويكفرون بالتعيين والتجلي والظهور، في حين أنهم لو كشف عن أبصارهم لوجدوا أنفسهم يعبدون أصناماً وخنازير وكلاب، إذ يقول الشيخ البهائي عليه السلام في الأربعين: «والعجب منك أنك تنكر على عبّاد الأصنام عبادتهم لها! ولو كشف الغطاء عنك وكوشفت بحقيقة حالك ومثل لك ما يُمثل للمكاشفين إما في النوم أو اليقظة، لرأيت نفسك قائماً بين يدي خنزير مشمراً ذيلك في خدمته، ساجداً له مرة وراكعاً أخرى، منتظراً لإشارته وأمره، فمهما طلب الخنزير شيئاً من شهواته توجهت على الفور إلى تحصيل مطلوبه وإحضار مشتهياته ولأبصرت نفسك جاثياً بين يدي كلب عقور عابداً له مطيعاً لما يلتمسه، مدققاً للفكر في الحيل الموصلة إلى طاعته، وأنت بذلك ساعٍ في ما يرضي الشيطان ويسره فإنه هو الذي يهيج الخنزير والكلب ويبعثهما على استخدامك؛ فأنت عن هذا الوجه عابد للشيطان وجنوده ومندرج في المخاطبين المعتابين يوم القيامة بقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (سورة يس، آية ٦٠)». وثمة ما يجدر الإشارة إليه في هذا الصدد؛ لقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز أن السامريّ قبض قبضةً من أثر الرسول وتمكّن بواسطتها من صنع عجل له خوار، ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمَرِيُّ﴾ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ (سورة طه، آية ٩٥ - ٩٦). لقد صدّق السامريّ بأثر الرسول، الذي هو جبرائيل كما يقال، وآمن وأقرّ وأيقن به، فاستطاع بذلك صنع العجل، وجعل الناس يسجدون له ويعبدونه. إلا أننا نفتقر إلى التصديق والإيمان واليقين بأثر الحسين بن علي عليها، رغم أن الحسين أعظم وأجلّ من ذلك الرسول الذي صدّق بآثره السامريّ. فإذا كان أثر جبرائيل قدير على الخلق، فكيف، إذاً، بأثر سيّد الشهداء المُتمثل بالتربة؟ هل هو قاصرٌ عن الخلق والإحياء؟ لقد عبّد القوم الذين كانوا =

=في زمن السامريّ العجلَ وسجدوا له بملء إرادتهم، لأنّ السامريّ أوهمهم بأن منشأ هذا الأمر منه هو. أما قومُ هذا الزمان فلا يخضعون لتربة سيّد الشهداء ﷺ لأنهم جاهلون بقدرة هذه التربة المقدّسة ومنكرون لها، ولكن إذا انكشف لهم عظم أثر الإمام الحسين ﷺ، لَسَارِعُوا إلى السجود له. والجدير ذكره أن أثر تربة سيّد الشهداء يحتاج إلى أن يُدرَك بالقلب أولاً ثم بعد ذلك يتجلّى للعين فتراه، بعكس العجل الذي صدّق به قوم موسى لأنه ماديّ تمكنوا من رؤيته بأعينهم وسماع خواره بأذانهم من دون الحاجة إلى أن يدركوه بقلوبهم.

وقد أظهر لنا أهل البيت ﷺ في رواياتهم بعضاً من عظّمة هذه التربة وآثارها فقد ورد عنهم ﷺ: «السجود على تربة الحسين سلام الله عليه يخرق السماوات السبع»، (وسائل الشيعة، ج ٥ ص ٣٦٦). كما ورد أن «الشفاء في تربته» (وسائل الشيعة، ج ١٤ ص ٤٢٣). وتقول إحدى الروايات: عن هرثمة بن سليم قال: «غزونا مع عليّ بن أبي طالب ﷺ غزوة صفين، فلما نزلنا بكربلاء صلّى بنا صلاة، فلما سلّم رفع إليه من تربتها فشمّها»، (صفين لابن مزاحم، ص ١٤٠ - ١٤١). وعن الإمام الباقر ﷺ: «خلق الله تبارك وتعالى أرض كربلاء قبل أن يخلق الكعبة بأربعة وعشرين ألف عام، وقدّسها وبارك عليها، فما زالت قبل خلق الله الخلق مقدّسة مباركة ولا تزال كذلك حتّى يجعلها الله أفضل أرض في الجنّة، وأفضل منزل ومسكن يسكن الله فيه أوليائه في الجنّة»، (بشارة الزائرين، ص ٢٨). ومن كلام لعليّ بن الحسين ﷺ: «اتّخذ الله أرض كربلاء حرماً آمناً مباركاً قبل أن يخلق الله أرض الكعبة ويتّخذها حرماً بأربعة وعشرين ألف عام، وإنه إذا زلزل الله تبارك وتعالى الأرض وسيّرها، رفعت كما هي بتربتها نورانية صافية، فجعلت في أفضل روضة من رياض الجنّة، وأفضل مسكن في الجنّة»، (كامل الزيارات، ص ٤٥١ ح ٥). كما سئل الإمام أبو عبد الله الصادق ﷺ: أيُّهما أفضل، أرض مكة أم أرض كربلاء؟ فقال ﷺ: «إنّ أرض الكعبة قالت: مَنْ مثلي، وقد بُني بيت الله على ظهري، ويأتيني الناس من كلّ فجّ عميق، وجعلتُ حرم الله وأمنه؟ فأوحى الله إليها أن كفيّ وفريّ، ما فضل ما فضّلت به في ما أعطيت أرض كربلاء إلّا بمنزلة الإبرة غمست في البحر فحملت من ماء البحر، ولولا تربة كربلاء ما فضّلتك، ولولا من تضمّنت أرض كربلاء ما خلقتك، ولا خلقت البيت الذي به افتخرت، وفريّ واستقرّي وكوني ذنباً متواضعاً ذليلاً مهيناً غير مستنكف ولا مستكبر لأرض كربلاء، وإلّا سخّ بك وهويت بك في نار جهنّم»، (بشارة الزائرين، ص ٢٨). وعن أمير المؤمنين ﷺ أنه قال حين مرّ بأرض كربلاء: «طوبى لك من تربة عليك تهرق دماء الأحيّة»، (كامل الزيارات، ص ٢٦٩). ومن آثار تربة كربلاء أيضاً أنها شفيعة وهادية، فقد ورد عن أمير المؤمنين ﷺ قوله: «واهاً لك أيتها التربة، ليحشرنّ منك قوم يدخلون الجنة بغير حساب...»، (صفين لابن=

=مزاحم، ص ١٤٠ - ١٤١)، فهم يدخلون بغير حساب لأنّ هذه التربة شفعت لهم في غفران ذنوبهم. كما يُروى أنّ «موسى بن عيسى العباسي لما مرض مرضاً شديداً، وسمع ممن يدخل عليه للعبادة حديث شرف التربة الحسينية، والحثّ على الاستشفاء بها، قال له: هل عندك منها شيء قال: نعم، فأتى بها إليه فعمد إليها فوضعها في إسته، استهانة لها؛ لما سمع حديث الاستشفاء، والاستهزاء (استهزاء) ممن يتداوى بها، وإرغاماً لأنوف الشيعة، واستصغاراً واحتقاراً لصاحبها الحسين عليه السلام. فما هو إلا أن استدخلها دبّره حتى صاح: النار النار!! الطشت الطشت!! فنظر فإذا طحاله وكبدته وريته وفؤاده خرجت منه في الطشت. فعرض حاله على بعض الأطباء - وكان من أئمة النصارى - وقال: كيف علاجي؟ فمدّ نظر إلى ما في الطشت قال: لو أن المسيح عيسى بن مريم حضر لم يقدر على علاجك. ثم هلك من وقته وساعته - هذا ملخّص القصة»، (روى الحادثة مفصلاً صاحب كتاب بشارة المصطفى، ص ٢٢٣ - ٢٢٤، عن محمد بن موسى الربيعي الكاتب، وقال الكاتب في نهايتها ما نصّه: فكان يوحنا بن سراقبون - وهو الطبيب النصراني الذي استدعاه موسى بن عيسى - يزور قبر الحسين عليه السلام وهو على دينه ثم أسلم بعد هذا فحسّن إسلامه»، فقد اهتدى ذلك النصراني بفضل تربة الحسين عليه السلام. ثم إنه ورد عن مولانا الرضا عليه السلام: «من زار قبر أبي عبد الله بشطّ الفرات كان كمن زار الله فوق عرشه»، (التهذيب، ج ٦ ص ٤٥ ح ٩٨)، فنحن عندما نذهب للزيارة، لا نزور جسد الإمام بل نزور قبره، وزيارة القبر الذي تتضمّن التربة هي زيارة الله، والسجود للتربة هو عين السجود لله. ومع كثرة الروايات الدالة على علو شأن تربة كربلاء إلا أن أهل البيت عليهم السلام لم يصرّحوا بأنها قادرة على إحياء الموتى، وهذا راجع إلى ضعف القابليات لدى الناس، فهم بالكاد يقبلون بما صرّح به من فضائل للتربة في الروايات المذكورة، وإلا فهي قادرة على التغيير وقلب الأحوال والهويّات وصنع الكرامات! وقد قال النبي صلى الله عليه وآله: «يا عليّ، لولا أن أخاف أن تقول فيك طائفة من أمّتي ما قالته النصارى في عيسى بن مريم لقلتُ فيك كلمة لا تمرّ بها على ملاً إلا وأخذوا من تراب نعليك ومن طهورك ما يستشفون به ولكن حسبك أنك مني وأنا منك وأنت أخي وصاحبي»، (أعيان الشيعة، ج ٢ ص ٢٠٦؛ بحار الأنوار، ج ٢٥ ص ٢٨٤). فالنبي صلى الله عليه وآله خاف أن يعبد الناس عليّاً من دون الله إذا ما عرفهم مقامه وجلالته وما يتركه على التربة من أثر وقدره عظيمين! وهكذا، لم يأمرنا الله تعالى بتصريحاً بالسجود لتربة الإمام الحسين عليه السلام لأنه يعرف أننا لا نقوى على ذلك ولسنا اهلاً له بسبب ضعف إيماننا ووهن قلوبنا ومرضها. فهو عزّ وجلّ قد سبق له أن أمر إبليس لعنه الله بالسجود لآدم عليه السلام ولكنه رفض ذلك بسبب كبره وضعف إيمانه، فأبعده الله بعدما كان قريباً وطرده من الجنّة قائلاً له: ﴿فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (سورة ص، آية ٧٧ - ٧٨)، =

= وكلّ من لا يقبل بالخضوع لهذه التربة، يصبح حاله كحال إبليس، حيث يصيرّه الله عبداً لدنياه وشهواته وأهوائه.

ولكن لسائل أن يسأل، لماذا اختيرت تربة الحسين ﷺ للسجود دون تربة بقية الأئمة ﷺ؟ ذلك أن كل الأئمة ﷺ قد خُلِقوا منها، وقد ورد عن أبي عبد الله القزويني أنه سأل أبا جعفر ﷺ: «لأيّ علة يولد الإنسان هاهنا ويموت في موضع آخر؟ قال: لأن الله تبارك وتعالى لما خلق خلقه خلقهم من أديم الأرض، فمرّج كل إنسان إلى تربته»، (علل الشرائع، ج ٢ ص ٢٩٠ - ٢٩١). وقد قال الإمام الحسين ﷺ حين وصل إلى كربلاء: «ههنا محشرنا ومنشرنا»، (إثبات الهداة، ج ٥ ص ٢٠٢). كما ورد عنه ﷺ أنه قال: «لأن أدفن بشاطئ الفرات أحبّ إليّ من أن أدفن بفناء الكعبة»، (كامل الزيارات، ب ٢٣؛ بحار الأنوار، ج ٤١ ص ٨٦). كما جاء في الرواية عن محمد بن أحمد بن يعقوب عن عليّ بن الحسن بن فضال عن أبيه عن بعض أصحابه عن أحدهما ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى خلق آدم من الطين فحرّم الطين على ولده. قال: فقلت: ما تقول في طين قبر الحسين ﷺ؟ فقال: يحرم على الناس أكل لحومهم ويحلّ لهم أكل لحومنا ولكن الشيء اليسير منه مثل الحمصة»، (كامل الزيارات ص ٤٧٨ الباب ٩٥). ولهذا حرّم الله تعالى تربة باقي الأئمة وحلّل تربة الإمام الحسين ﷺ، فعن الإمام موسى بن جعفر الكاظم ﷺ: «كل تربة لنا محرّمة، إلا تربة جدي الحسين بن عليّ ﷺ، فإن الله جعلها شفاءً لشيئتنا وأوليائنا»، (بحار الأنوار، ج ٩٨ ص ١١٨؛ الوسائل، ج ١٠ ص ٤١٥)، ذلك أنّ التربة التي دُفن فيها باقي الأئمة ﷺ ظاهراً هي ليست التربة التي خلقوا منها، فماذا تتوقع، أيها الموالي، من تربة خُلقت منها أبدان أهل البيت ﷺ، ألا تكون جديرةً بالسجود لها؟

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن خلقة الإنسان متنوعة في الأصل، بحسب ما تُطْلَعنا عليه الآيات المختلفة في القرآن الكريم. فمن الناس من خُلِق من طين، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (سورة المؤمنین، آية ١٢)، ومنهم من خُلِق من صلصال، ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (سورة الرحمن، آية ١٤)، والصلصال هو طين مضاف إليه تربة، فما هي هذه التربة المضافة؟ ربما تكون تلك التربة من كربلاء أو من النجف أو من البقيع أو ربما من وادي حضرموت الذي يُحشر إليه الكفّار، وعلى هذا الأساس تكون ولاية الإنسان وشدّتها وميلها ونفْسها أو حتى انعدامها. ومن هنا، لا يُلام من لا يقدر على الخضوع والسجود لهذه الحقيقة لأنّه لم يُخلق منها، إذ ورد عن أبي جعفر ﷺ: «لو علم الناس كيف كان ابتداء الخلق لما اختلف اثنان...»، (بحار الأنوار، ج ٥ ص ٢٥٢)، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ (سورة فاطر، آية ٨). ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ﴾ (سورة القصص، آية ٥٦). ﴿فَأَصْدَقَ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (سورة الحجر، آية =

تفكروا خارج هذا الإطار. أنسجد للتراب؟^(١) بلى، اسجدوا لتراب الإمام الحسين عليه السلام^(٢). لأي سبب؟ لنفس السبب الذي يجعلكم تقتفون أثره في تحقق التوحيد التام. «وقبره في قلوب من والاه»؟ متى استطعت أن تستدلّ على ذلك القبر أصلاً؟ لو عُثر على محبّ للحسين عليه السلام يمتلك قلباً ممتلئاً بعشق تلك الذات المقدسة وكان مورد توجّه جميع أهل العالم، لصلّحت كل أعمالهم.

لم يكن بالإمكان السجود لذلك التراب، فمُنح القوة. ولكنّ هذا الأمر لا يظهر منه، إذ إنّ إيجاد الطريق إلى هذا المعنى يتطلب بصيرة^(٣) وتجرّداً، وعلى

= (٩٤). ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (سورة النجم، آية ٢٩).

وفي ختام الكلام عن الناحية العلميّة من مسألة السجود لتربة الحسين عليه السلام، نشير إلى أننا نتناول أصل المسألة من الجهة العقائدية، ولا نقول بوجوب السجود لتلك التربة من الجهة الفقهيّة التشريعيّة، فعلى كل فرد أن يتبع مرجع التقليد الخاصّ به من هذه الناحية. ولكن، هل كثيرٌ على هذه التربة التي تؤمّن لك الوصال (التوحيد والولاية) والشفاء والغفران والهداية والإحياء للباطن والزيارة لله فوق عرشه، أن تخضع لها وتسجد؟ وأما من الناحية العمليّة، فإنّك حين تقصد الطبيب وتشرح له حالك وترجو منه الدواء والشفاء، ويغيب عن قلبك وعقلك أن الله هو الشافي، ألا تكون واقعاً بالشرك الخفيّ؟ والدليل على ذلك تعليق أملك على حبة الدواء وانقطاعك إلى الطبيب وتضرّعك إليه واستكانتك وبكاؤك حين يعجز عن تحقيق أملك بالشفاء. هذا، في حين أن التوجّه إلى التربة، بالشروط الآنفة ذكرها، ليس فيه أيّ إشكال توحيديّ، وبعيدٌ كل البعد عن أيّ شركٍ خفيّ أو جليّ.

(١) ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾، سورة الأعراف آية ١٢.

(٢) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «ألا ترى أنّك تسجد على تربة كربلاء بوضع رأسك عليها، ولا بدّ أن تسجد عليها بقصد أنّها تربة الإمام الحسين عليه السلام، فإنّها مسجد الملائكة ومسجد الحوريّات، فلا بدّ أن تسجد للتربة في الصلاة».

(٣) روي أنه قيل للإمام الصادق عليه السلام: «سيدي جعلت فداك، إن الميت يجلسون له بالنيابة بعد موته أو قتله، وأراكم تجلسون أنتم وشيعتكم من أول الشهر بالمأتم والعزاء على الحسين عليه السلام فقال عليه السلام: يا هذا، إذا هلّ هلال محرم نشرت الملائكة ثوب الحسين عليه السلام وهو مُخرّق من ضرب السيوف، ومُلطّخ بالدماء فراه نحن وشيعتنا بالبصرة لا بالبصر، فتنفجر دموعنا»، (ثمرات الأعواد، ص ٣٦ و ٣٧). كما ورد في الرواية: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بعين الله»، الكافي، ج ١ ص ٢١٥.

الإنسان أن يصل إلى ذروة التوحيد وكماله حتى يتمكن من الوصول إلى المعنى المنشود.

الملائكة لا تعرف العشق

لم يكن بالإمكان الوصول إلى ذلك التراب، وعليه، مُنح قوة وقدرة كبيرتان. وزيد نوره ومن ثم أضيف إليه الماء، فكان الطين^(١) الذي خُلق منه آدم. وبعد ذلك، أمرت الملائكة بالسجود^(٢) له. ترددت الملائكة أيضاً ولم تستطع السجود، وهنا اعترضوا^(٣) وطرحوا الأسئلة.

(١) «إن النشأة الإنسانية تعطي التؤدة في الأمور والأناة والفكر والتدبير لغلبة العنصرين: الماء والتراب، على مزاجه فيكون وافر العقل لأنّ التراب يثبّطه ويمسكه والماء يلبّنه ويسهّله، والجآن ليس كذلك فإنه ليس لعقله ما يمسكه عليه ذلك الإمساك الذي للإنسان ولهذا يقال: فلان خفيف العقل، وسخيف العقل إذا كان ضعيف الرأي في الأمور، وهذا هو نعت الجآن وبه ضلّ طريق الهدى لخفة عقله وعدم تثبته في نظره، فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ (سورة الأعراف، آية ١٢)، فجمع بين الجهل وسوء الأدب لخفته»، تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم، ص ١١٢ - ١١٣.

(٢) «لا يكون هناك اسم ولا صفة ولا فعل ولا وجود ولا حول ولا قوة تجوز نسبته إلى غيره تعالى، لأنّ غيره عدم صرف ولا شيء محض... وبالجملّة ليس الفرق بين اسم الرحمن واسم الله إلا في الاعتبار، وإلا في الحقيقة فهو هو، واسمه اسمه، ولا يمكن فرض المغايرة بينهما. ولهذا أمر الله تعالى عباده بالسجود له، ومعلوم أنه لو لم يكن هو هو، لما أمر بالسجود له أصلاً، لأن السجود لله فقط لا لغيره. وإن قيل: إن السجود له (هو) سجود تحية وتعظيم، والسجود لله تعالى (هو) سجود عبودية وألوهية، كما قيل في آدم والسجود له من طرف الملائكة، أجيب عنه بأنه ليس السجود للرحمن إلا سجود العبودية حيث ثبت أنه هو، لأنه لو ثبتت الغيرية، لاحتاج السجود إلى تعريف وتقسيم. ولعدم علم بعض العباد بذلك، أنكروا السجود له حين أمرهم وصاروا كافرين بتركه، كإبليس بالنسبة لآدم. وبالحقيقة، كلاهما واحد، أعني كل من ترك السجود له فهو إبليس لأنه كآدم حقيقة وتاركة كإبليس»، (جامع الأسرار ومنبع الأنوار، ص ٤٩٩). ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾، سورة الفرقان، آية ٦٠.

(٣) سأل رجل أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «حدّثني عن الملائكة حين ردّوا على الربّ حيث غضب عليهم كيف رضي عنهم؟ فقال عليه السلام: إنّ الملائكة طافوا بالعرش سبع سنين =

طُرد ذلك الذي عاند، واسمه الشيطان أو إبليس^(١). وأما الذين لم يعاندوا، قبلوا الهداية وسجدوا. إن الطريق الموصل للاستغراق والفناء هو طريق العشق^(٢) ولكن الملائكة لا تعرف العشق ولذا اعترضت: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣). فرشته عشق نداند كه چیست قصه مخوان بیا جام شرابی به خاک آدم ریز^(٤)

عشق الحسين عليه السلام لا قيود فيه

إن تحقق المحبة والعشق، بمعناهما الحقيقي والباطني، غير منوط بالسلب والإيجاب حتى في الشرع والشرعية. وثمة دليل فطري ذكرناه سابقاً كمثال في

=يدعونه ويستغفرونه ويسألونه أن يرضى عنهم فرضي عنهم بعد سبع سنين»، (بحار الأنوار، ج ١١ ص ١٧٠). ورُوي أن الملائكة، لما قالوا لله تبارك وتعالى: ﴿أَجْعَلْ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ (سورة البقرة، آية ٣٠)، طافوا حول العرش أربعة آلاف عام يعتذرون إلى الله عز وجل عن اعتراضهم.

(١) ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (سورة ص، آية ٧٧)، ﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا﴾، (سورة الأعراف، آية ١٨). علي بن إبراهيم في قوله تعالى: ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ قال: قال الصادق عليه السلام: «أَوَّلُ مَنْ قَاسَ إِبْلِيسَ وَاسْتَكْبَرَ، وَالاستكبار هو أول معصية عُصِيَ الله بها، قال: فقال إبليس: يا رب، اعفني من السجود لآدم وأنا أعبدك عبادة لم يعبدكها ملك مقرب ولا نبي مرسل، قال الله تبارك وتعالى: لا حاجة لي إلى عبادتك، إنما أريد أن أعبد من حيث أريد لا من حيث تريد فأبى أن يسجد»، تفسير القمي، ج ١ ص ٤٢.

(٢) «العشق نار أما العقل فدخلان... والعشق يسمو بالعاشق حتى يجعله يفنى في ذات المعشوق... عليك بإفناء نفسك في العشق تماماً حتى تصبح في الضعف كالشعرة دوماً، وما أن تصبح كالشعرة ضعيفة، فأليق مكان بك حيث طرة المعشوق، وكل من يصبح شعرة في محرابه، فإنه يكون شعرة من شعره بلا ريب... والعشق نوعان: عشق دائم وهو عشق المعرفة، وعشق زائل وهو عشق الصورة الذي يزول بزوال الصورة، وعشق المعرفة هو عشق الله، ذلك الحبيب الأبدي الدائم، أما عشق الصورة فهو عشق الماديات الفانية البالية»، منطق الطير، ص ٩٠ - ٩١.

(٣) سورة البقرة، آية ٣٠.

(٤) حافظ.

هذا السياق: تحب كل من الأم الكافرة والأم المؤمنة ولدها بالطريقة نفسها. ومن الممكن لإنسان غير مسلم غارق في المعصية أن يحب الإمام الحسين (عليه السلام) بنفس القدر الذي يحبه به مسلم متعبّد. ذلك أن محبة سيّد الشهداء (عليه السلام) غير مشروطة ولا مقيدة بأي شكل من الأشكال. ومن يجعلها كذلك، يُثبت أنه لا يعرف الحسين (عليه السلام). ولكن القصد إلى الله منوط بشروط معينة، إذ يتطلب التحلي بالإيمان والإسلام. وعليه، ينبغي عدم الذهاب إلى المسجد إلا في حال الطهارة. وحده طريق الارتباط بالإمام الحسين (عليه السلام) لا يتطلب شروطاً.

كان هناك مَنْ ينكر هذه المعاني ويقول إنّ على الإنسان أن يكون طاهراً ومنزهاً حتى يصل إلى عتبه. فرأى ذات يوم في منامه أن الإمام الحسين يقول لأبي الفضل العباس (عليه السلام): سجّل أسماء الزوّار. فسجّلها وسلّمها إلى أخيه (عليه السلام). نظر الإمام وقال: لم لم تكتب اسم فلان؟ وفي تلك اللحظة، تهاوت الجدران وانكشفت بوابة المدينة على مشهد رجل يشرب الخمر في أحد المقاهي. فقال أبو الفضل (عليه السلام): مولاي، إنه يشرب الخمر. ولكن الإمام (عليه السلام) أجابه قائلاً: أكتب اسمه، فهو قد خرج من بيته بقصد زيارتي^(١).

كنون كه صاحب مژگان شوخ وچشم سیاهی
نگاه دار دلی را که برده ای به نگاهی
چو در حضور تو ایمان و کفر راه ندارد
چه دوزخی، چه بهشتی، چه طاعتی، چه گناهی؟^(٢)

(١) عن الرسول الأكرم (ﷺ): «إنما الأعمال بالنيات»، (بحار الأنوار، ج ٧٠ ص ٢١٠). كما ورد عنهم (عليهم السلام): «لكل امرئ ما نوى»، (بحار الأنوار، ج ٧٠ ص ٢١٠)، «يحشر الناس على نياتهم يوم القيامة»، وسائل الشيعة، ج ١ ص ٣٤.

(٢) فروغي بسطامي.

الوجود المطلق لسيّد الشهداء ﷺ

لم يخلق الحق المتعال، تحت قبة عالم الوجود هذا، أحداً مطلق الوجود كالإمام الحسين ﷺ، فمن يرّده رسول الله ﷺ، يتلقفه الإمام الحسين ^(١) ﷺ. وللمرحوم الشيخ جعفر التستري ^(٢) كلام لافت جداً، إذ يقول إنه فقد رجاء بكل شيء حتى أدرك ذلك المكان الذي استطاع فيه أن يشحن نفسه بالأمل وهو عتبة الإمام الحسين ﷺ. وهكذا، وصل إلى ذلك المقام وصار ما صار عليه. أتظنّ أنك تطهّر إذا أمسكتَ بذيل عباءة سيّد الشهداء ﷺ؟ لا، إن المسألة أرفع من ذلك. أتظنّ أنك تطهّر إذا تمسّكتَ بأحد محبّيه الذين قيل فيهم «وقبره في قلوب من والاه»؟ لا، فالمسألة أرفع من ذلك أيضاً، حيث إنك تطهر إذا وصلتَ إلى تراب قدميه.

السجود للتربة نفسها

هل ينبغي السجود للتربة من أجل الثواب؟ لا، إنما التربة نفسها ينبغي أن يُسجّد لها. ألم تقبلوا برواية «من زار قبر الحسين ﷺ بشطّ الفرات كان كمن زار الله فوق عرشه»؟ فهذا التراب هو هكذا. وإذا كنتم تتحلون بالجرأة وقبّلتُم بهذا الكلام، فلتسجدوا لهذا التراب، إذ إن السجدة لتربة سيّد الشهداء ﷺ تحتاج إلى رجال ^(٣).

(١) لأنّ الحسين ﷺ الرحمة الواسعة فهو الرحمان، وقد خاطبه أمير المؤمنين ﷺ في وصيّته قائلاً: «اي بني، لا تؤيس مذنباً، فكم من عاكف على ذنبه خُتم له بخير، وكم من مقبل على عمله مفسد في آخر عمره، صائر إلى النّار، نعوذ بالله منها»، (تحف العقول، ص ٩١). وعن أبي عبد الله ﷺ قال: «إن الذي يلي حساب الناس قبل يوم القيامة الحسين بن علي ﷺ»، فأما يوم القيامة فإنما هو بعثٌ إلى الجنة وبعثٌ إلى النار، بحار الأنوار، ج ٥٣ ص ٤٣.

(٢) آية الله الشيخ جعفر التستري هو عالمٌ إيرانيّ من مدينة «تُسْتَر» وصل إلى مرحلة الإجتهد في الفقه وكان مرجعاً للناس في الإفتاء وفي ما يهتمهم من القضايا في مسقط رأسه. عُرف بحبّه الشديد للإمام الحسين ﷺ وقراءة عزائه، ومن أشهر كتبه «الخصائص الحسينية».

(٣) «من الأمور المهمة التي يلزم التنبيه عليها، وينبغي للإخوان المؤمنين، ولا سيّما أهل =

إذاً، ماذا عن تلك القواعد التي قيل إن علينا الصلاة على أساسها؟ إلى أين وصلتكم حتى الآن بصلاتكم وفقاً لتلك القواعد؟ ما النور الذي منحتكم إياه هذه الصلاة؟ فلتأخذوا كامل احتياطكم بالصلاة ولا تكونوا من اللامبالين^(١)، فوحدهم أولئك المتغاضون عن كل من الدنيا والآخرة يستطيعون أن يتكلموا هكذا.

=العلم - كثر الله أمثالهم - أن يجعلوها نصب أعينهم، هي أنهم إذا سمعوا أو قرأوا حديثاً لبعض علماء النفس وأهل المعرفة عليهم ألا يرموه بالفساد والبطلان بلا حجة شرعية ولمجرد أن أذانبهم لم تألفه أو لكونه يعتمد مصطلحاً لا حظ لهم منه، ولا يهينوا أصحابه ويحتقروهم ولا يتصوّروا أن كل من تحدّث بذكر لمراتب النفس ومقامات الأولياء والعرفاء وتجليات الحق والعشق والحبّ ونظائر ذلك مما هو شائع في مصطلحات أهل المعرفة إنما هو صوفيّ أو مروجّ لادّعاءات الصوفية أو مُبتدع للأقوال من نسيج أفكاره، دون أن يكون له برهان عقليّ أو حجة شرعية. إنني أقسم بروح الحبيب أن كلماتهم - نوعياً - هي شرح لما بيّنه القرآن والحديث... وعموماً، فالشواهد أكثر من أن يُمكن أن تضمّنها هذه المُختصرات. ومُرادنا... هو أن نقرب إخواننا الإيمانيين - قليلاً - إلى المعارف، ونزيل عن قلوبهم ذلك الظنّ السيّء الذي تمّ إيقاعه فيهم تجاه علماء الإسلام العظام والذي جعلهم يرمونهم بالتصوّف. إن مرادنا الأساسي (من هذا الإطناب) ليس فقط تبرئة الساحة المقدّسة (لأولئك العظام) من هذه الألوات، فيإهانة الخلق واحتقارهم لا تُذلل عبداً عند الله إذا كان زكياً بل إنها تزيد حسناتهم»، (سر الصلاة، ١٠٣ - ١٠٤ - ١٠٥).

(١) عبد الله بن سنان قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام إني لأرى بعض أصحابنا يعتربه النزف والحدّة والطيش، فأغتمّ لذلك غمّاً شديداً، وأرى من خالفنا فأراه حسن السمت، قال: لا تُقلّ حسن السمت، فإنّ السمت سمت الطريق، ولكن قل: حسن السيماء، فإن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ قال: قلت: فأراه حسن السيماء له وقار فأغتمّ لذلك، قال: لا تغتمّ لما رأيت من نزق أصحابك ولما رأيت من حسن سيماء من خالفك، إن الله تبارك وتعالى لما أراد أن يخلق آدم خلق تلك الطينتين، ثم فرقهما فرقتين، فقال لأصحاب اليمين: كونوا خلقاً بإذني، فكانوا خلقاً بمنزلة الذرّ يسعى، وقال لأهل الشمال: كونوا خلقاً بإذني، فكانوا خلقاً بمنزلة الذرّ، يدرج، ثم رفع لهم ناراً فقال: ادخلوها بإذني، فكان أوّل من دخلها محمد عليه السلام ثم اتّبعه أولو العزم من الرّسل وأوصيائهم وأتباعهم. ثم قال لأصحاب الشمال: أدخلوها بإذني، فقالوا: ربّنا خلقتنا لتُحرقنا؟ فعصوا. فقال لأصحاب اليمين: أخرجوا من النار بإذني، فخرجوا لم=

إن النظر إلى مشهد كربلاء وواقعة الطف والاعتراف بكل المسائل المعنوية التي ينطوي عليها هذا الطريق يحتاج إلى من هو لامبال^(١). إعملوا على تطهير أنفسكم أكثر والالتفات إليها، وانظروا، أي صلاة هي التي تنقادون خلفها!

عظمة الحسين عليه السلام مطلقة

ورد في كتب المقاتل أن سيّد الشهداء عليه السلام وفي ظرف خاص، قال هذه العبارات: «هل من ناصرٍ ينصرنا»^(٢)؟ هل من معينٍ يعيننا؟ هل من ذابٍّ يذبُّ عن حرم رسول الله ﷺ؟^(٣) . كما أتت هذه العبارات بصيغة المفرد: «هل من ناصرٍ ينصرني؟ هل من معينٍ يعينني؟ حين استشهد الأ أصحاب وأهل البيت، توجه سيّد

=تكلّم النار منهم كلّماً، ولم تؤثر فيهم أثراً، فلما رآهم أصحاب الشمال، قالوا: ربّنا نرى أصحابنا قد سلّموا، فأقلّنا ومُرنا بالدّخول، قال: قد أقلّتكم فادخلوها، فلما دَنَوْا وأصابهم الوهج، رجعوا فقالوا: يا ربّنا، لاصبر لنا على الاحتراق فعصوا، فأمرهم بالدخول ثلاثاً، كلّ ذلك يعصون ويرجعون وأمر أولئك ثلاثاً، كلّ ذلك يطيعون ويخرجون، فقال لهم: كونوا طيناً بإذني فخلق منه آدم، قال: فمن كان من هؤلاء لا يكون من هؤلاء ومن كان من هؤلاء لا يكون من هؤلاء وما رأيت من نزق أصحابك وخلقههم فمما أصابهم من لطح أصحاب الشمال وما رأيت من حسن سيماء من خالفكم ووقارهم فمما أصابهم من لطح أصحاب اليمين»، (الكافي، ج ٢ ص ١١). «أُسْعِرَت النيران وهي نار الفناء في جنب الله الذي هو مالك كلّ شيء... فمن بادر بالدخول في تلك النار بتسليم جميع ما له من المراتب إلى مالكة الحقيقي صار من أصحاب اليمين»، الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٢٣٨.

(١) لا يخاف في الله لومة لائم بل هو مُسَلَّمٌ تسليماً مطلقاً، وقد ورد في القرآن الكريم: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أُدْخِلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ (سورة البقرة، آية ٢٠٨). وعن عليّ بن الحسين عليه السلام: «إنّ دين الله لا يصاب... إلّا بالتسليم»، (كمال الدين وتمام النعمة، ص ٣٢٤)، كما قال عليّ الأكبر بن الحسين عليه السلام: «لا نبالي بالموت أَوْقَعْنَا عَلَى الْمَوْتِ أَوْ وَقَعَ الْمَوْتُ عَلَيْنَا»، بحار الأنوار، ج ٤٤ ص ٣٦٧.

(٢) قال الحسين عليه السلام: «فإن لم تنصرونا وتنصفونا قوي الظلمة عليكم وعملوا في إطفاء نور نبيكم، وحسبنا الله وعليه توكلنا وإليه أنبنا وإليه المصير»، تحف العقول، ص ٢٣٩.

(٣) حياة الإمام الحسين عليه السلام، ج ٣ ص ٢٧٤.

الشهداء عليه السلام إلى الميدان ثم عاد. فعل ذلك عدّة مرات، فكان يذهب إلى الميدان ثم يعود إلى الخيام.

في المرة الثانية والثالثة التي نزل فيها إلى الميدان، وقف في وسطه ونظر إلى اليمين وإلى اليسار ^(١). ولذلك يقولون: عند زيارته عليه السلام عن بُعد، ينبغي الالتفات إلى الجهة اليمنى والجهة اليسرى ثم القول: «صلى الله عليك يا أبا عبدالله» ^(٢). بعد أن نظر عليه السلام إلى اليمين واليسار، دخل تماماً في حالة الاستغراق والفناء الحسينيين وقال: هل من ناصرٍ ينصرني؟ هل من معينٍ يعينني؟

إن عظمة الحسين عليه السلام لا تُحدّ أبداً، لا في الفكر ولا في الكلام ولا في البيان. فكما تنظرون إلى عظمة الحق، عليكم أن تنظروا إلى عظمة الحسين عليه السلام، إذ إن عظمته مطلقة ^(٣).

إذاً، انطلاقاً من اعتقادنا بعظمة ذات الحق جلّ وعلا واعتقادنا بعظمة ذات سيّد الشهداء عليه السلام، هل يُعقل أن يكون عليه السلام قد توجّه في كربلاء إلى الناس وقال: «هل من ناصرٍ ينصرني؟» كل من استطاع الاتصال بالحسين عليه السلام، ولو بمقدار شعرة واحدة، ما عاد يكثرث للخلق كله وما عاد يهّمه لا دنيا ولا آخرة ولا جنة. فهل نظر الحسين عليه السلام في ذلك الوقت إلى ذاك الجيش وأولئك القوم وطلب العون منهم؟ هل يعرف الحسين عليه السلام من يقول بهذا الكلام؟

إنه مظلوم ونحن، الذين نبكي عليه، الظالمون. يقول الناس ما يحلو لهم؛ يقولون إن الإمام الحسين عليه السلام جاء ومدّ يد الحاجة إلى القوم. ثم برّروا ذلك نظراً إلى أنه إمام، فقالوا إنه كان يريد النجاة لهم. كلا، ليس الأمر كذلك.

(١) «وقف أمامهم ينظر يميناّ وشمالاً فلا يرى من أنصاره إلا من صافح التراب»، السيرة الحسينية، ص ٣٤.

(٢) «... فقلت: جعلت فداك إنّي كَثِيرٌ ما أذكر الحسين عليه السلام فأبى شيء أقول؟ قال: تقول وتعيد ذلك ثلاثاً: صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ يَا أبا عَبْدِ اللهِ، فَإِنَّ السَّلامَ يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ قَرِيبٍ وَبَعِيدٍ»، الكافي، ج ٤ ص ٥٧٥.

(٣) ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (سورة النور، آية ١٥)، فهو ظل الله، وظل المطلق مطلق.

ناصر الحسين ﷺ ومُعيْنُه

في تلك اللحظات الأخيرة، وصل الإمام الحسين ﷺ إلى الإطلاق التام واتصل بالحق بكل وجوده، بحيث أنّ شيئاً منه لم يبقَ^(١)، فهل نظر حينذاك إلى الناس وقال: «هل من ناصرٍ ينصرني وهل من معينٍ يعينني؟» ليس الحال كذلك، فقد صدر كلامه هذا من نفس النقطة الكامنة في ذاته المقدسة التي صدر منها قوله ﷺ: «إلهي رضاً بقضائك»^(٢). فهو يطلب النصر والعون من نفس تلك الجهة اللانهائية التي هو متصل بها.

يقول: أعني. ويجب أن يكون لهذا الأمر تعين، بمعنى أنه لا بدّ لنداء «يا ناصر» و«يا معين» الذي أطلقه الحسين ﷺ أن يجد تعيناً وتشخصاً في الخارج، فيأتي في هيئة الناصر والمعين.

ولكن من ذا الذي يمكن أن يأتي بهذه الهيئة؟ أهو جبرائيل أم ميكائيل أم الملك الموكل بالرياح؟ كلهم ليسوا أهلاً لذلك^(٣). إنه الإمام الحسين ﷺ والله

(١) «لما احترقوا يومئذٍ بنار العبودية حتى لم يبقَ منهم شيء، وصاروا كالمحممة من الحديد، فصاروا باقين ببقاء الله، فاعلين بمشيئة الله، متقلّبين في قدرة الله، غارقين في بحر لا حول ولا قوة إلا بالله، فهو سمعهم وبصرهم ويدهم ولسانهم، وصار ذلك جبلتهم، فهم ﷺ معصومون من الزلل والخطأ والنسيان، حيث لم يبقَ لهم شيء يقعون به في العصيان، فصاروا مستقرّين في أمر الله جزاءً لموتهم في قبضة الله»، الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٢٤٠.

(٢) من دعاء الإمام الحسين ﷺ وهو يجود بنفسه: «إلهي رضاً بقضائك وتسليماً لأمر لا معبود سواك يا غياث المستغيثين»، (مقتل الحسين، ص ٣٥٧). «الرضا: سرور العبد بما يردّ عليه من مولاه وابتهاجه به في ما يحبّ ويكره، لعلمه بأنّ ما يقضي عليه هو صلاحه دون غيره، ولما فيه من ذكر المولى له وعدم نسيانه له، فكأنّه أتخفه بتحفة وأهداه بهديّة»، (الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٣٤٣). يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «كلّ ما يجري في عالم الوجود ويحدث إنّما هو بيد المبدأ، ولو أنّ شخصاً قال آخ، فهو لم يصل إلى التوحيد ولم يدرك معناه أصلاً». عن الإمام الصادق ﷺ حين سُئل: بأيّ شيء يعلم المؤمن بأنّه مؤمن؟ قال: «بالتسليم لله والرضا في ما ورد عليه من سرورٍ وسخط»، الكافي، ج ٢ ص ٦٢ ح ١٢.

(٣) عن الصادق ﷺ: «لما سار أبو عبد الله الحسين بن علي ﷺ من مكة ليدخل =

يريد أن يرسل العون له. إذاً، من الذي سيتصدى لهذا الأمر؟ جالت عين^(١) ذلك البصير في العالم، ففتشت «عين الله»^(٢) العالم كله، باحثاً عن الشخص المناسب ليُعين الحسين عليه السلام. عيّن الله ذلك الشخص، فتوجّه الحسين بكل وجوده نحو الخيام. يا ترى مَنْ هو القادر على تأمين هذا المعنى للإمام الحسين عليه السلام؟

حبيبي يا حسين، إن القادر على نصرتك وإعانتك بما هو أهلٌ لعظمتك هو نفسه الموجود في خيمتك. اذهب إليه، فهو يستطيع أن يسكن وجع قلبك ويعينه

=المدينة، (لقيه) أفواج من الملائكة المسوّمين والمردفة في أيديهم الحراب على نجب من نجب الجنة، فسلموا عليه وقالوا: يا حجة الله على خلقة بعد جده وأبيه وأخيه، إن الله عز وجل أمدّ جدك رسول الله بنا في مواطن كثيرة، وإن الله أمدّك بنا... فقال لهم: الموعد حفرتي وبقعتي التي أستشهد فيها وهي كربلاء، فإذا وردتها فأتوني، فقالوا: يا حجة الله، إن الله أمرنا أن نسمع لك ونطيع، فهل تخشى من عدو يلقاك فنكون معك؟ فقال: لا سبيل لهم عليّ، ولا يبلغوني بكراهية أو أصل إلى بقعتي. وأنته أفواج من مؤمني الجن فقالوا له: يا مولانا، نحن شيعتك وأنصارك فمُرنا بما تشاء، فلو أمرتنا بقتل كل عدو لك وأنت بمكانك لكفيناك ذلك، فجزاهم خيراً وقال لهم: أما قرأتم كتاب الله المنزل على جدي رسول الله ﷺ في قوله: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾، فإذا أقمت في مكاني فبم يمتحن هذا الخلق (المتعوس) وبماذا يختبرون؟ ومن ذا يكون ساكناً في حفرتي بكربلاء؟ وقد اختارها الله عز وجل لي يوم دحى الأرض وجعلها معقلاً لشيعتنا ومحبينا، تقبل بها أعمالهم وصلاتهم، ويجب دعائهم ويسكن إليها شيعتنا فتكون لهم أماناً في الدنيا والآخرة. ولكن تحروني يوم السبت وهو يوم عاشوراء الذي في آخره أقتل، ولا يبقى بعدي مطلوب من أهلي وبني وإخواني وأهل بيتي، ويسار برأسي إلى يزيد بن معاوية لعنه الله. فقالت الجن: نحن والله يا حبيب الله وابن حبيبه، لولا أنّ أمرك طاعة وأنه لا يجوز مخالفتك، لخالفناك وقتلنا جميع أعدائك قبل أن يصلوا إليك، فقال لهم: ونحن والله أقدر عليهم منكم، ولكن ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيى على بينة»، الملهوف، ص ٢٩.

(١) قال رسول الله ﷺ وهو يصف بصره ليلة الإسراء والمعراج: «فجعلتُ أبصرُ بقلبي كما أبصرُ بعيني بل أبعدُ وأبلغ»، تأويل الآيات الباهرة، ج ٢ ص ٦٢٥ ح ٩.

(٢) قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «نحن وجه الله ونحن عين الله في خلقه ويده المبسوطة بالرحمة على عباده»، الكافي، ج ١ ص ١٤٣.

ويشفيه، ذلك القلب المملوء بإله الحسين نفسه وقد ظهر هذا الإله بصفة «يا ناصر». ولذا قولوا: إن الحسين ذهب ليلقى الله الذي ظهر في صفة «يا ناصر» و«يا معين».

من هو المناسب لتأمين هذا المعنى وهذه الحقيقة للحسين ﷺ؟ لقد آمن القرآن هذا المعنى لرسول الله ﷺ من خلال الظرف الوجودي للصديقة الطاهرة ﷺ، فالآن عن طريق أيّ ظرف وجودي وبواسطة مَنْ سيؤمن هذا المعنى لسيد الشهداء ﷺ؟

جاء الحسين ﷺ إلى الخيمة وأزاح ستارها. وعادةً، يكون الطفل في حضن أمّه لتوليه عنايتها، ولكنه ﷺ لم يطلب من الأم أن تعطيه الطفل، بل قال: «أختاه يا زينب، إيتيني بولدي الرضيع حتى أودّعه»^(١). ما معنى الوداع؟ يعني الإيداع في تلك الحقيقة^(٢)، فالوديعة هي الإيداع. وفي تعبيرنا نقول: أريد أن أملأه مني. وبالتالي، أصبح هو نفسه، وهو كل شيء في الوجود. فلا وجود، في عالم الوجود، لأيّ أحدٍ سواه مثلما لم يكن هناك أيّ شيء في كربلاء سوى الإمام الحسين ﷺ. وكأن الله لم يُجرِ حكومته هناك. فكل شيء كان، كان بظهور الحسين ﷺ.

احتضنت السيدة زينب ﷺ الرضيع، وأعطته لأخيها بكلتي يديها، فقد كان ذلك الحمل ثقيلاً إلى درجة أن الإمام الحسين ﷺ لم يستطع حمله أيضاً. وحين احتضنه الإمام أمام الخيمة، بدأت قدماء ترتجفان. فجلس على بابها، ولم يستطع أن يحمله ويسير به خطوة واحدة. (إذا أعطاكم أحد العظماء هدية عظيمة، ماذا تفعلون بها؟).

كان الله ناظراً هناك. أخذ الحسين ﷺ الهدية وكان لا بدّ أن يراعي شرط

(١) «فتقدم الإمام ﷺ إلى باب الخيمة وقال لأخته زينب: ناوليني ولدي الرضيع حتى أودّعه»، زينب الكبرى من المهد إلى اللحد، ص ٢٠٧؛ كتاب الملهوف، ص ١٦٨.

(٢) من دعاء للإمام الباقر ﷺ: «اللهم إني أستودعك ديني ونفسي ودياري وآخرتي وأهلي ومالي»، مفاتيح الجنان.

الأدب فيها. كان عليه أولاً أن يقبلها ويضعها في عينيه. فجلس الحسين عليه السلام أمام الخيمة وعليّ الأصغر عليه السلام بين يديه، وراح يحدّق به. وعادةً، عندما يكون هناك ما هو لافت للنظر، يحوّل الجميع أنظارهم إليه ويقيمون كذلك مدة من الزمن.

فتح عليّ الأصغر عليه السلام عينيه. وتبسّم في وجه الإمام الحسين عليه السلام، ما أوجد في الإمام رغبةً في تقبيله. «فأراد أن يقبله»، ورفع عليّاً الأصغر حتى صار مقابل وجهه، وما كادت شفتا الحسين عليه السلام تصلان إلى وجنتي عليّ الأصغر وشفتيه، حتى «رماه حرملة بن كاهل الأسدي بسهم له ثلاث شعب، فذبحه من الأذن إلى الأذن ومن الوريد إلى الوريد»^(١).

مُحَمَّدٌ بْنُ

(١) «فأخذه وأوما إليه ليقبله فرماه حرملة بن كاهل بسهم فوقع في نحره فذبحه»، زينب الكبرى من المهدي إلى اللحد، ص ٢٠٧؛ كتاب الملهوف، ص ١٦٨.

الفيض السابع

التوحيد لا يُكتسب بالتعلّم

(١) لا يمكن إيجاد حقيقة التوحيد والوصول إليها من خلال التعلّم والتعليم

(١) عن أمير المؤمنين عليه السلام: «العلم علّمان مطبوع ومسموع، ولا ينفع المسموع إذا لم يكن المطبوع»، (نهج البلاغة، الحكمة ٣٣٨). يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «الحديث ليس بالتعليم والتعلّم، بل الحديث هو بالوجدان والشهود والصيرورة نفس الحقيقة المخبر عنها والمطلع عليها، ولكن لا بدّ من الالتفات إلى أنّ صيرورة الحديث، وهو الحقيقة الكامنة وراء الحديث، لا تكون بالعبادة، بل تكون بالعبودية»، انتهى. قال السيّد محمّد باقر القزويني رحمته الله: «إنّ في الطاعون الشديد الذي حدث في أرض العراق من المشاهد وغيرها في عام ست وثمانين بعد المائة والألف، هرب جميع من كان في المشهد الغروي من العلماء المعروفين وغيرهم. قال: كنت أقعد اليوم في الصحن الشريف، ولم يكن فيه ولا في غيره أحد من أهل العلم إلا رجلاً معتمماً من مجاوري أهل العجم، كان يقعد في مقابلي وفي تلك الأيام لقيت شخصاً معظماً مبيجلاً في بعض سكك المشهد؛ ما رأيته من قبل ذلك اليوم ولا بعده، مع كون أهل المشهد في تلك الأيام محصورين، ولم يكن يدخل عليهم أحد من الخارج، قال: ولما رأيته، قال ابتداء منه: أنت تُرزق علم التوحيد بعد حين. وبعد ذلك في ليلة من الليالي قد رأى ملكين نزلا عليه بيد أحدهما عدّة ألواح فيها كتابة، ويبد الآخر ميزان فأخذا يجعلان في كل كفة من الميزان لوحاً يزنها ثم يعرضون الألواح المتقابلة عليّ فأقرأها وهكذا إلى آخر الألواح، وإذا هما يقابلان عقيدة كل واحد من خواصّ أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وخواصّ أصحاب الأئمة عليهم السلام مع عقيدة واحد من علماء الإمامية من سلمان وأبي ذر إلى آخر البوّابين، ومن الكليني والصدوقين، والمفيد والمرتضى، والشيخ الطوسي إلى بحر العلوم خالي العلامة الطباطبائي ومن بعده من العلماء. قال: فاطلعت في ذلك المنام=

والتكلم^(١) والاستماع. فطريق الوصول^(٢) إلى مقام التوحيد مغاير لكل الطرق الاعتيادية الموجودة في أذهاننا وعقولنا^(٣) وأفكارنا.

لم تنجح كل العلوم^(٤) الرفيعة، كعلم الفلسفة والحكمة والكلام، على الرغم من تدوينها وتأليف الكتب المفصلة عنها بغية الوصول إلى التوحيد، في بناء أي موحد قط.

وإن صحت هذه العلوم، فذلك لأنّ أحد الموحّدين قد تمكّن من التكلم وإظهار ذخائره الذهنية والفكرية على صورة مكتوبة. ولكن، هل تستطيع هذه الكلمات والأحاديث والكتابات أن تصنع من غير الموحّد موحّداً؟ كلا. ومن أجل إثبات هذه المسألة، سنطرح دليلاً متقناً ومُحكماً.

رسول الله ﷺ مُتصدّر ميدان التوحيد

لا شكّ أن خاتم الأنبياء ﷺ هو المتصدّر في ميدان التوحيد. وقد نزل عليه،

=على عقائد جميع الإمامية من الصحابة وأصحاب الأئمة ﷺ وبقية علماء الإمامية، وإذا أنا محيط بأسرار من العلوم لو كان عمري عمر نوح ﷺ وأطلب هذه المعرفة، لما أحطتُ بعشر معشار ذلك وذلك بعد أن قال الملك الذي بيده الميزان للملك الآخر الذي بيده الألواح: إعرض الألواح على فلان، فإنّا مأمورون بعرض الألواح عليه، فأصبحتُ وأنا علامة زماني في العرفان»، جنة المأوى، ص ١٠٢.

(١) «لو كان السير بكثرة القيل والقال، لكان لي معك الكثير من الأمور والأحوال»، حافظ الشيرازي.

(٢) «مِنْكَ أَظْلُبُ الْوُصُولَ إِلَيْكَ، وَبِكَ أَسْتَدِلُّ عَلَيْكَ، فَاهْدِنِي بِنُورِكَ إِلَيْكَ»، دعاء الإمام الحسين ﷺ يوم عرفة، مفاتيح الجنان.

(٣) عن الإمام عليّ ﷺ: «إتَّهَمُوا عَقُولَكُمْ، فَإِنَّهُ مِنَ الثِّقَةِ بِهَا يَكُونُ الْخَطَأُ»، غرر الحكم، ص ٥٦.

(٤) «جميع الكمالات يحصرها الإنسان بالعلم الذي توصل إليه وأدركه، فالفقيه يتصوّر أن لا شيء غير الفقه في العالم، والعارف يتصوّر أن لا شيء غير العرفان، والفيلسوف يتصوّر أن لا شيء غير الفلسفة، والمهندس يتصوّر أن لا شيء سوى الهندسة، فلعلّهم يعتبرون العلم عبارة عمّا عرفوه بالمشاهدة والتجربة وأمثال ذلك. لذا، يرون أن هذا هو العلم وغيره ليس بعلم وهذا حجاب كبير»، تفسير آية البسملة (محاضرات معرفية)، ص ٦٦.

در این ره انبیا چون ساریان اند
وز ایشان سید ما گشته سالار
ز احمد تا احد يك میم فرق است
جمال جانفرایش شمع جمع است

دلیل ورهنمای کاروان اند
هم او اول هم او آخر در این کار
جهانی اندر آن يك میم غرق است
مقام دلگشایش جمع جمع است

وقد قال القرآن الكريم في النبي ﷺ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ^(٢) ،
﴿فَمَا رَحْمَةٌ مِّنَ اللَّهِ لِيَن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ ^(٣) .

هل وصلت هذه الحقيقة المتميزة في عالم الخلق، والمصطفاة والمختارة من قبل الحق المتعال، إلى التوحيد وتصدّرت عرشه من خلال سورة الإخلاص؟

ليس هناك في العالم كاتبٌ أفضل من الذات المقدسة للحق نفسه، حيث يقول: ﴿تَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾^(٤). كُتِبَ ذلك الكتاب بتلك القدرة. وأما الوساطة في تنزيل حديثه، فكان أمين وحي الله جبرائيل عليه السلام.

فهل لم يكن للرسول طريق إلى التوحيد ثم أصبح موحداً بعد ذلك عن طريق ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾؟ أم أن اعتقادنا في هذا الباب أن الرسول ^(٥) كان موحداً

(١) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «انّ جبرائيل كان واسطة بين الحقّ وبينّ رسوله لأجل مخاطبة الخلق، فلقد كان جبرائيل يفهم المطالب للخلق».

(٢) سورة الأنبياء، آية ١٠٧.

(٣) سورة آل عمران، آية ١٥٩.

(٤) سورة القلم، آية ١.

(٥) كان الرسول الأكرم ﷺ عالماً بالقرآن الكريم قبل أن يُبْعَثَ نبياً، ودليل ذلك العديد من الآيات القرآنية والروايات، حيث يقول الله تعالى مخاطباً رسوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ (سورة طه، آية ١١٤)، وقوله كذلك: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (سورة القيامة، آية ١٦ - ١٧ - ١٨)، فمعنى ذلك أن القرآن كان موجوداً عنده ﷺ من قبل نزول الوحي. إضافة إلى العديد من =

=الآيات التي يخاطب الله عز وجل فيها النبي قائلاً: «ألم تر»، كما في الآيات: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ (سورة الفيل، آية ١)، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ (سورة الفجر، آية ٦)، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ﴾ (سورة الفرقان، آية ٤٥)، فإله يسأل نبيه ألم تر؟ يعني ألم تشاهد وتبصر ما فعله ربك بأصحاب الفيل وقوم عاد؟ ما يعني أنه كان للنبي وجود قبل الوجود العنصري الذي ظهر به. كما ورد عنه ﷺ: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين» (بحار الأنوار، ج ١٨ ص ٢٧٨). كما تقول الرواية أنه «لما ولد (أمير المؤمنين ﷺ) في البيت الحرام، وكعبة المسلك العلامة، خرّ ساجداً ثم رفع رأسه الشريف فأذن، وأقام وشهد الله بالوحدانية، ولمحمد ﷺ بالرسالة ولنفسه بالخلافة والولاية، ثم أشار إلى رسول الله ﷺ فقال: اقرأ (أقرأ) يا رسول الله؟ فقال: نعم، فابتدأ بصحف آدم فقرأها حتى لو حضر شيت لأقرّ أنه أعلم بها منه، ثم تلا صحف نوح وصحف إبراهيم والنوراة والإنجيل، ثم تلا ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (سورة المؤمنون، آية ١)، فقال له النبي: نعم، أفلحوا إذ أنت إمامهم»، (مشارق أنوار اليقين، ص ٧٥). ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيُ يُوحَى﴾ (سورة النجم، آية ٤)، فالرسول ﷺ هو نفس الوحي كما أنه نفس الذكر حيث يقول ﷺ: «الذكر أنا والأئمة أهل الذكر»، (الكافي، ج ١ ص ٢١٠)، ويقول تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَفُؤٌّ مُبِينٌ﴾ (سورة يس، آية ٦٩). وبالتوازي، فرسول الله ﷺ هو نفس الوحي الذي يوحى، وكل ما اشتقّ من الوحي يرتبط به. وليس هذا فحسب بل إن فعل «يُوحى» أتى مجهولاً، ولا شك في أن الله هو من يوحى ولكن لا بدّ لهذا الأمر من تعيّن وظهور، وهذا التعيّن والظهور لا يكون إلا في الرسول وأهل بيته صلوات الله عليهم، ودليله ما جاء في حديث الإمام الصادق ﷺ مع المفضل بن عمر حيث قال له: «فاستمع لما يوحى إليك...»، (الهداية الكبرى، الباب ٤ ص ٢٧٥)، فالإمام هنا هو الذي يوحى إلى المفضل. كما أنّ هناك الكثير من الآيات التي ورد فيها فعل «أوحى» بصيغة الجمع مثل: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ (سورة القصص، آية ٧)، ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾ (سورة طه، آية ٣٨)، وقد ورد عن أهل البيت ﷺ أنهم قالوا: «كلّ ما كان في القرآن من جمع نحن فعلنا وإنّا صنعنا، فنحن والله أولئك الرسل الذين نكتب ونقسم بأمره تعالى وإرادته ومشئته، ومتى كان من أحد فرد فهو الله ربنا»، (صحيفة الأبرار، ج ٢ ص ٥٢٥ - ٥٢٦)، ما يعني أنّ رسول الله وأهل بيته صلى الله عليهم هم الوحي وهم الموحون، وإنّ كان ناقل الوحي (بالظاهر) هو جبرائيل ﷺ. وللإشارة فإنّ قول جبرائيل ﷺ في حديث الكساء: «إن الله قد أوحى إليكم يقول...»، يدلّ على أنّ الوحي قد سبق ووصل إلى أهل البيت ﷺ لأنّ الفعل أتى بالزمن الماضي، أمّا جبرائيل ﷺ فقد نقل الوحي بالتعبير والكلام بهدف تعريف الناس على مضمونه. كما أنّ ما كان ينقله جبرائيل هو الوحي التدريجي وليس الدفعي.

وواصلًا إلى كل مقامات التوحيد وبعدها تحدّث قائلاً: ﴿يَسْمِ اللَّهَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ * قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾؟

الحقيقة الوجودية لأمر المؤمنين ﷺ

لقد تنزّل التوحيد من مقدّمة عالم الوجود التي هي تكويناً وتشريعاً^(١)

(١) «مفتاح الدائرة ومختمها، ومؤخر السلسلة ومقدمها، محمد ﷺ المصطفين من الله، الذين بهم فتح الله وبمعرفتهم عُرف الله، الأسباب المتصلة بين سماء الإلهية وأراضي الخلقية، الظاهر فيهم الولاية، والباطن فيهم النبوة والرسالة، الهادين بالهداية التكوينية سرّاً والتشريعية جهراً، الآيات التامات، الأنوار الباهرات»، (شرح دعاء السحر، ص ١٨ - ١٩). لا تقتصر السنن والغايات التكوينية، التي بيّنها الله تعالى في القرآن الكريم، على كونها معارف تكوينية عقائدية فحسب، إنما هي أيضاً آيات تشريعية؛ إذ أن الغايات والسنن التكوينية هي غايات وسنن تشريعية في الوقت عينه. ومتى ما كانت هناك إرادة تكوينية من الله عزّ وجلّ، كانت هناك إرادة تشريعية حتماً. والحقيقة أن السنن والغايات التشريعية هي وسيلة للوصول إلى السنن والغايات التكوينية. فالتشريع تابع لملكات التكوين وملكات التكوين قائمة على حقائق التكوين. والإنسان تكويناً مرتبط بالكون، فما يجري في هذا الكون (كالأبراج وحركة الكواكب والمناخ وغير ذلك) ينعكس عليه ولا يستطيع معاكسته أو مخالفته، وهكذا هو الحال بالنسبة للتشريع. على سبيل المثال، ورد في الروايات: «أنّ العرش لم يستقرّ حتى كُتب عليه بالنور: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، عليّ وليّ الله»، (بحار الأنوار، ج ٢٥ ص ١٧٠ ح ٣٨)، كما قال رسول الله ﷺ: «مكتوبٌ على باب الجنة: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، عليّ ابن أبي طالب أخو رسول الله قبل أن يخلق الله السماوات والأرض بألفي عام»، (ذخائر العقبى، ص ٦٦)، فلاّن العرش والجنة ومن ورائهما كلّ الوجود قائم تكويناً على «لا إله إلا الله، محمد رسول الله، عليّ وليّ الله»، ذُكرت هذه الشهادات الثلاث تشريعاً في الأذان ودعاء الافتتاح والتشهد، حيث ورد أنه يستحبّ قراءة دعاء الافتتاح بعد تكبيرة الإحرام وهو: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً على ملة إبراهيم ودين محمد وولاية أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين»، (المقنعة للمفيد، ص ١٠٤). و«يجوز أن يقول المصلي في التشهد بعد «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»: «وأنّ علياً نعم الولي» وأن يقول في التسليم بعد=

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(١)، ما يعني أن حديث ذات رسول الله المقدسة في باب التوحيد ممنوع أن يبدأ من دون ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٢). فلا

=«السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته»: «السلام على الأئمة الهادين المهديين»، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، (جامع أحاديث الشيعة، ج ٥ ص ٣٣١ ح ٨ عن مصباح الشيخ الطوسي). وهكذا، يمكن استثمار هذه القاعدة في الآيات التكوينية التي حصلت بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، حيث أمطرت السماء دماً أحمر وما رُفع حجر إلا ووجد تحته دم عبيط... فما هي، يا تُرى، الآثار التشريعية لهذه الآيات التكوينية؟

(١) عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «كلّ ما في القرآن في الفاتحة، وكلّ ما في الفاتحة في البسملة، وكلّ ما في البسملة في الباء، وكلّ ما في الباء في النقطة، وأنا النقطة تحت الباء»، (ينابيع المودة، ص ٨١ - ٨٢). وعن الرضا عليه السلام قال: «إن بسم الله الرحمن الرحيم أقرب إلى اسم الله الأعظم من سواد العين إلى بياضها»، (عيون أخبار الرضا، ج ١ ص ٩ ح ١١)، وهذا معناه أنهما واحد. وأمير المؤمنين عليه السلام يقول في خطبته المعروفة بخطبة البيان: «وأنا الإسم الأعظم». كما ورد عنه عليه السلام: «فإسمي لا يُمحى في السماء ولا في الأرض ولا في الدنيا ولا في الآخرة»، (الهداية الكبرى، ص ١٤٣). ويُلاحظ أنّ هناك ١٠ أحرف من أصل ٢٨ حرفاً عربياً يستحيل أن تجد اسماً عربياً واحداً لا يحتوي على أحدها وهي: (ب، س، م، ا، ل، هـ، ر، ح، ن، ي) وهي حروف كلمات عبارة «بسم الله الرحمن الرحيم».

(٢) «وأما بالنسبة إلى العالم المعنوي، فالباء منها (أي من البسملة): بإزاء الحقيقة المحمّدية وصورته الجامعة المصطفوية. والسين منها: بإزاء الحقيقة الآدمية وصورته الجسدية. والميم منها: بإزاء الحقيقة النوحية وصورته الجسدية. والألف من «الله»: بإزاء الحقيقة الإبراهيمية وصورته الجسدية. واللام الأولى منه (أي من «الله»): بإزاء الحقيقة الداودية وصورته الجسدية. واللام الثانية: بإزاء الحقيقة الموسوية وصورته الجسدية. والهاء منه: بإزاء الحقيقة العيسوية وصورته الجسدية. والألف من «الرحمن»: بإزاء الحقيقة المرتضوية وصورته الجسدية. واللام من «الرحمن»: بإزاء الحقيقة الحسينية وصورته الجسدية. والحاء من «الرحمن»: بإزاء الحقيقة السجادية وصورته الجسدية. والميم من «الرحمن»: بإزاء الحقيقة الباقية وصورته الجسدية. والنون من «الرحمن»: بإزاء الحقيقة الجعفرية وصورته الجسدية. والألف من «الرحيم»: بإزاء الحقيقة الكاظمية وصورته الجسدية. واللام من «الرحيم»: بإزاء الحقيقة الرضوية وصورته الجسدية. والراء من «الرحيم»: بإزاء=

ينبغي الخوض في شأن التوحيد وإظهاره من دون هذه العبارة. وبالتالي، على هذا الموحد الأول بلا منازع في ميدان التوحيد أن يبتدئ حديثه بـ﴿يَسْمِ اللَّهَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾، أي أن يبدأ من الحقيقة الوجودية لأمر المؤمنين ﷺ^(١) ومن ثم بعد ذلك يقول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. وكل توحيد خارج عن هذا المنطق، ما هو إلا توحيد مليء بالشرك^(٢) والكفر^(٣) والنفاق^(٤)

=الحقيقة الجوادية وصورته الجسدية. والحاء من «الرحيم»: بإزاء الحقيقة النقية وصورته الجسدية. والياء من «الرحيم»: بإزاء الحقيقة العسكرية وصورته الجسدية. والميم من «الرحيم»: بإزاء الحقيقة المحمدية، المعبر عنها بالمهدي، وصورته الجسدية»، (المقدمات من كتاب نصّ النصوص، ٣١٣ - ٣١٤)، وقد ورد عن أمير المؤمنين ﷺ أنه قال: «أنا تكلمت على لسان عيسى بن مريم في المهد، وأنا آدم، وأنا نوح، وأنا إبراهيم، وأنا موسى، وأنا أنقلب في الصور كيف أشاء، من رأي فقد رأيهم، ومن رأيهم فقد رأيهم»، نجات الهالكين، ص ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٣١٢، ٣١٣.

(١) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ أمير المؤمنين ﷺ هو النقطة تحت الباء، فقد كان متجلياً في كلّ أدوار الخلقة فهو، على هذا، نقطة عالم الوجود؛ ولو أنّ هذا الحديث سكن في القلب لصار للإنسان منزلة كمنزلة المقداد حيث صارت منزلته بمنزلة الألف من القرآن»، انتهى... وعن أمير المؤمنين ﷺ أنه قال: «العلم نقطة كثرتها الجاهلون»، (مستدرک نهج البلاغة، ص ١٨٥)، بل كسرها الجاهلون.

(٢) عن سماعة بن مهران قال: سألت أبا عبد الله ﷺ عن قول الله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (سورة الكهف، آية ١١٠) قال: «العمل الصالح المعرفة بالائمة ﷺ ولا يشرك بعبادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ التسليم لعلّي ﷺ لا يشرك معه في الخلافة من ليس له ذلك ولا هو من أهله»، (البرهان في تفسير القرآن، ج ٢ ص ٤٩٧). «لا يمكن الورع والتحرّز عن الشرك والانتهاة عن الفحشاء والمنكر إلا بمعرفتهم في السر»، الشمس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٢٠٤.

(٣) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي دام ظله: «حقيقة الكفر هي أن يكون للإنسان اطلاع على الحقائق والموازين ومن ثمّ يفعل ما يتعارض مع هذه المعرفة الكامنة المهمة من قبل الحقّ تعالى»، انتهى. إن السبب في عمارة بيوت الكفر هو تخريب بيوت عبادة الله.

(٤) عن أبي جعفر الباقر ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ذكر عليّ بن أبي طالب عبادة، ومن علامات المنافق أن يتنفر عن ذكره، ويختار استماع القصص الكاذبة وأساطير=

والإنحراف^(١) وبكل شيء عدا الله تعالى.

حقائق عالم الوجود في تراب كربلاء

تلك الذوات المقدسة هي أربعة عشر ذاتاً، فلم هذا العدد؟ ذلك لأننا عاجزون عن تلقفهم^(٢) في الوحدة. ولكن رغم هذا التعدد والتكثّر، لم نتمكن أيضاً من إدراكهم. ولذلك، صنّع سلمان^(٣) كتّنزلٍ منهم، ولكن حتى سلمان لم

=المجوس على استماع فضائله، ثم قرأ ﷺ: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾. فسُئِلَ صلوات الله عليه عن تفسيرها، قال: أما تدرون أنّ رسول الله ﷺ كان يقول: اذكروا عليّ بن أبي طالب في مجالسكم، فإنّ ذكره ذكري وذكرى ذكر الله، فالذين اشْمَأَزَّتْ قلوبهم عن ذكره، واستبشروا عن ذكر غيره أولئك الذين لا يؤمنون بالآخرة ولهم عذاب مهين»، عين الحياة، ج ١ ص ٣٤٦ - ٣٤٧.

(١) عن أبي عبد الله الصادق ﷺ في حديثٍ طويل: «إن الله تبارك وتعالى لو شاء لعرف العباد نفسه ولكن جعلنا أبوابه وصراطه وسبيله والوجه الذي يؤتى منه، فمن عدل عن ولايتنا أو فضّل علينا غيرنا، فإنهم عن الصراط لناكبون، فلا سواء من اعتصم الناس به ولا سواء حيث ذهب الناس إلى عيون كدرة يفرغ بعضها في بعض، وذهب من ذهب إلينا إلى عيون صافية تجري بأمر ربها، لا نفاذ لها ولا انقطاع»، الكافي، ج ١ ص ١٨٣.

(٢) استيعاب الأمر وحملُه والأخذ والإقرار به.

(٣) عن أبي عبد الله الحسين ﷺ: «وإنما صار سلمان من العلماء لأنه امرء منا أهل البيت، فلذلك نسبته إلى العلماء»، (الكافي، ج ١ ص ٤٠١). وقال رسول الله ﷺ: «سلمان بحر لا ينزف، وكنز لا ينفذ، سلمان منا أهل البيت سلسل يمنح الحكمة ويؤتي البرهان»، (الاختصاص، ص ٣٤١). وعن أبي عبد الله ﷺ قال: «كان عليّ محدثاً وكان سلمان محدثاً»، (الاختصاص، ص ٤٠٧). وينقل أحد الرواة أنه سأل مولانا الصادق ﷺ قائلاً: ما أكثر ما أسمع منك سيدي ذكر سلمان الفارسي؟ قال ﷺ: «لا تقل سلمان الفارسي ولكن قل سلمان المحمدي، أدري ما أكثر ذكري له؟ قلت: لا. قال ﷺ: لثلاث خصال: إثارة هوى أمير المؤمنين ﷺ على نفسه، والثانية: حبه للفقراء واختياره إياهم على أهل الثروة والعدد، والثالثة: حبه للعلم والعلماء»، (الدرجات الرفيعة، ص ٣٠٩ - ٣١٠). ومن كلامٍ لأمير المؤمنين ﷺ عن سلمان: «امرؤ منا وإلينا أهل البيت، من لكم بمثل لقمان الحكيم، على العلم الأول والعلم الآخر، وقرأ الكتاب الأول والكتاب الآخر وكان بحراً لا ينزف»، (الإحتجاج، ص ١٣٩) وعن الصادق ﷺ =

نستطع تلقّفه. مرة جديدة، صُنِعَ المقداد^(١) وعمّار^(٢) ورشيد^(٣) كتّزل^(٤) منهم أيضاً، ولكنّا فشلنا في تلقّفهم كذلك. جاءوا بالاثنتين والسبعين شهيداً في كربلاء ومجدداً، لم نتمكن من تلقّفهم. ثم بعد ذلك صُنِعَ تراب كربلاء في إطار التنزل أيضاً، إلا أننا مرة جديدة، فشلنا في هذه المهمة. إنك إنسان وصاحب روح، وهم قاموا بتنزيل كل شؤون عالم الوجود وحقائقه في تراب كربلاء وقالوا: يا صاحب الروح، أيها المتجلي من مقام الإنسانية، قمنا بتنزيل تلك الحقائق في التراب، فتعال واشتغل هنا. ولكننا، مع ذلك، لم ننجح في الأمر.

=أنه قال: «وسلمان خير من لقمان»، (بصائر الدرجات، ص ٦). وعنه عليه السلام: «إنّ سلمان علّم الاسم الأعظم»، رجال الكشي، ص ٩.

(١) قال أبو عبد الله عليه السلام: «إنما منزلة المقداد بن الأسود في هذه الأمة كمنزلة ألف في القرآن لا يلزق بها شيء»، (الاختصاص، ص ١٠). كما ورد في الأثر: «ما بقي أحد إلا وقد جال جولة إلا المقداد بن الأسود فإنّ قلبه كان مثل زبر الحديد وهو من الذين مضوا على منهاج نبيهم ولم يغيروا ولم يبدلوا»، (معجم رجال الحديث، ج ١٣، ص ٣٦٠ - ٣٦٣). سأل جابر بن عبد الله الأنصاري رسول الله صلى الله عليه وآله: «... فما تقول في المقداد؟ قال صلى الله عليه وآله: وذاك منا أبغض الله من أبغضه وأحب الله من أحبه»، المصدر السابق، ج ١٨، ص ٣٦٨.

(٢) عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «إنما شيعة أمير المؤمنين الحسن والحسين وسلمان وأبوذر والمقداد وعمار ومحمد بن أبي بكر الذين لم يخالفوا شيئاً من أوامره»، (الاحتجاج، ص ٢٣٤). قال أمير المؤمنين عليه السلام: «حينما سئل عن عمار: «ذلك امرؤ حرم الله لحمه ودمه على النار، وأن تمس شيئاً منهما»، (الاحتجاج، ص ١٣٩). قال النبي صلى الله عليه وآله: «يا عمار! بالعلم نلت ما نلت من هذا الفضل، فازدد منه تزداد فضلاً»، (تفسير الإمام ص ٢٦٢). قيل للباقر عليه السلام: «ما تقول في عمار؟ قال: رحم الله عماراً ثلاثاً، قاتل مع أمير المؤمنين وقُتل شهيداً»، روضة الواعظين، ص ٢٤٠.

(٣) قال أمير المؤمنين عليه السلام لرشيد الهجري: «أنت معي في الدنيا والآخرة»، (بحار الأنوار، ج ٤٢، ص ١٣٦). وعن سيف بن عميرة قال: «سمعت العبد الصالح أبا الحسن عليه السلام ينعى إلى رجل نفسه، فقلت في نفسي: وإنه ليعلم متى يموت الرجل من شيعته؟ فقال شبه الغضب: يا إسحاق قد كان رشيد الهجري يعلم علم المنايا والبلايا فالامام أولى بذلك»، بصائر الدرجات، ص ٧٣.

(٤) ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ شَيْئاً﴾، سورة مريم، آية ٦٤.

أعطي هذا التراب القدرة، علّك تأتي وتسجد له. وقد كُنّي صاحب الولاية بأبي تراب^(١)، ما يعني أنه وضع يد الأبوة على ذاك التراب ووهب له القدرة بالتجلي التام حتى نخضع ونسجد، ولكننا عاجزون عن ذلك أيضاً^(٢).

أهل البيت ﷺ خاصّة الله

لم نقبل بأنه «يد الله»^(٣)، فوضعوا ذلك جانباً. وقالوا: إن هذه المسألة خاصّة بالله ومرتبطة بالذات. و«يد الله»^(٤) هي حلالة مشاكل عالم الوجود في ذلك المكان.

(١) عن عباية بن ربعي قال: قلت لعبد الله ابن عباس: «لم كنى رسول الله ﷺ علياً أبا تراب؟ قال: لأنه صاحب الأرض وحجة الله على أهلها بعده، وبه بقاؤها، وإليه سكونها، ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه إذا كان يوم القيامة ورأى الكافر ما أعدّ الله تبارك وتعالى لشيعه عليّ من الثواب والزلفى والكرامة يقول: يا ليتني كنت ترابياً، أي يا ليتني من شيعه عليّ وذلك قول الله عز وجل: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾»، بحار الأنوار، ج ٣٥ ص ٥١.

(٢) لأننا اخترنا السجود والخضوع لنزواتنا وأهوائنا ودياننا وللكرسي والمنصب والجاه والشهوة وحبّ النساء. يقول بشر الحافي: «أخرج حبّ الدنيا من قلبك، فإذا بقي شيء منها في قلبك، فكل سجدة لك إنما هي السجود لذلك الشيء»، خمسة من العرفاء، ص ١٧.

(٣) عن الإمام الباقر ﷺ أنه قال: «إذا قام قائمنا ﷺ، وضع يده على رؤوس العباد فجمع بها عقولهم وكملت بها أحلامهم»، (كمال الدين، ص ٦٧٥). وعنه ﷺ قال: «إذا قام قائمنا وضع الله يده على رؤوس العباد، فجمع بها عقولهم، وكملت به أحلامهم»، (الكافي، ج ١ ص ٢٥). ومن كلام للإمام الصادق ﷺ: «يا مفضل، يسند القائم ﷺ ظهره إلى الحرم ويمد يده فترى بيضاء بغير سوء ويقول: هذه يد الله - ويمين الله - وعن الله وبأمر الله ثم يتلو هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهُ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾» (سورة الفتح، آية ١٠)، فيكون أول من يقبل يده جبرائيل ﷺ ثم يبايعه ثم تبايعه الملائكة ونجباء الجن ثم النقباء»، بحار الأنوار، ج ٥٣ ص ٨.

(٤) عن أمير المؤمنين ﷺ: «أقبلوا ذوي المروءات عثراتهم، فما يعثر منهم عاثر إلا ويد الله بيده يرفعه»، نهج البلاغة، الحكمة ٢٠.

لم نقبل بأنه «وجه الله»، فوضعوا ذلك جانباً. وقالوا: إن هذه المسألة خاصة بالله، والله نفسه ينظر بهذا الوجه والجمال.

لم نقبل بأنه «عين الله». فقالوا: كونه كذلك، فمن أجل أن يرى حقيقة عالم الذات. لم نقبل بأي شيء حتى منحونا تنزلاً.

فقالوا: يا أيها الإنسان، يا صاحب الروح، أنظر إلى هذا التراب. أنت الذي تمتلك مرتبة أعلى من التراب في الخلقة، أنت الإنسان، تعال وانظر إلى تجلي التوحيد في هذا التراب. ولكن مرة أخرى، ركنا إلى الإنكار والعناد والجهل.

ولذلك، فإن أمير المؤمنين عليه السلام هو خاص بالله، والإمام الحسين عليه السلام خاص بالله أيضاً. إنه «قتيل الله»^(١) و«ثار الله» و«وجه الله» و«عين الله الناظرة» و«يد الله الباسطة» و«جنب الله»^(٢).

المنطق الشيعي والمنطق المغاير

لقد أراد الموحد المنقطع النظير أن يرتل نغمة التوحيد، وهو المسمى باسم محمد بن عبد الله عليه السلام الذي يمسك بذيل عباة ويتبعه جميع الأنبياء لكونه الرائد. فعندما أراد هذا الموحد التحدث عن التوحيد، ابتدأ حديثه بـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٣).

(١) ورد في الزيارة المطلقة للإمام الحسين عليه السلام: «السَّلامُ عَلَيْكَ يَا قَتِيلَ اللَّهِ وَابْنَ قَتِيلِهِ»، الزيارة المطلقة الأولى للإمام الحسين عليه السلام، مفاتيح الجنان.

(٢) أمير المؤمنين عليه السلام قال: «أنا لسان الله الناطق، أنا وجه الله تعالى في السماوات، أنا جنب الله الطاهر»، (الفضائل ص ٨٣). كما قال عليه السلام: «أنا علم الله وأنا قلب الله الواعي ولسان الله الناطق وعين الله الناظرة وأنا جنب الله وأنا يد الله»، (بحار الأنوار، ج ٢٤ ص ١٩٨). وعنه عليه السلام: «أنا وجه الله الذي يتقلب بين أظهركم، أنا حي لا أموت وإذا متّ أرت الأرض ومن عليها»، الفضائل، ص ٨٣.

(٣) وتعيّن اسم الذات الأحد والصمد وغيرهما... هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. عن ابن سنان قال: «سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام: هل كان الله عز وجل عارفاً بنفسه قبل أن يخلق الخلق؟ قال: نعم، قلت: يراها ويسمعها؟ قال: ما كان محتاجاً إلى ذلك لأنه لم يكن يسألها ولا يطلب منها، هو نفسه ونفسه هو، قدرته نافذة فليس يحتاج أن=

بناءً على المنطق الشيعي، لا يمكن القول بأن رسول الله ﷺ لم يكن على علم بمسألة التوحيد منذ البداية، وأن آية ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ هي التي صنعت منه رسولاً أعظم ﷺ. بل إن الشيعي الذي استمدّ النور والتجلي من صاحب الولاية الكلية والمطلقة يقول: ما دام الإنسان قاصراً عن معرفة رسول الله ﷺ، فإن كل ما يؤديه من أحكام منتزلة كالصلاة والصيام والحج وما إلى ذلك هي باطلة^(١). ولذلك، ينبغي عليه أن يقبل برسول الله ﷺ وأن يصل إلى معرفته^(٢) حتى يقبل بكلامه وإلا فإن كل أعماله لا تعدو كونها تقليداً.

خلق را تقلیدشان بر باد داد ای دو صد نفرین بر این تقلید باد

=يسمّي نفسه، ولكنه اختار لنفسه أسماء لغيره يدعوها بها لأنه إذا لم يُدع باسمه لم يعرف، فأول ما اختار لنفسه: العليّ العظيم لأنه أعلى الأشياء كلها، فمعناه الله واسمه العلي العظيم، هو أول أسمائه، علا على كل شيء»، الكافي، ج ١ ص ١١٣.

(١) المعرفة بالنبي والإمام شرط لصحة الأعمال، فعن أبي عبد الله ﷺ: «نحن والله الأسماء الحسنى التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلا بمعرفتنا»، (الكافي، ج ١ ص ١٤٤). وعن أبي سلمة عن أبي عبد الله ﷺ قال: «سمعت يقول: نحن الذين فرض الله طاعتنا، لا يسع الناس إلا معرفتنا ولا يعذر الناس بجهالتنا، من عرفنا كان مؤمناً، ومن أنكرنا كان كافراً، ومن لم يعرفنا ولم ينكرنا كان ضالاً حتى يرجع إلى الهدى الذي افترض الله عليه من طاعتنا الواجبة فإن يمت على ضلالته يفعل الله به ما يشاء»، الكافي، ج ١ ص ١٨٧.

(٢) عن أبي خنيس الكوفي قال: «حضرت مجلس الصادق ﷺ وعنده جماعة من النصاري فقالوا: فضل موسى وعيسى ومحمد (على نبينا وآله وعليهما أفضل الصلاة والسلام) سواء، لأنهم أصحاب الشرائع والكتب. فقال الصادق ﷺ: إن محمداً ﷺ أفضل منهما وأعلم ولقد أعطاه الله تبارك وتعالى من العلم ما لم يعط غيره. فقالوا آية من كتاب الله تعالى نزلت في هذا؟ قال ﷺ: نعم، قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾، وقوله تعالى لعيسى ﷺ: ﴿وَلَا يُبَيِّنْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾، وقوله تعالى للسيد المصطفى ﷺ: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رَحْمَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدْداً﴾ فهو والله أعلم منهما ولو حضر موسى وعيسى بحضرتي وسألاني لأجبتهما وسألتهما ما أجابا»، مناقب ابن شهر آشوب، ج ٤ ص ٢٦٢.

ولكن تقليد لمن؟^(١) تقليد لأولئك الذين انحرفوا^(٢) عن

(١) في تفسير آية، ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ (سورة الإنشقاق، آية ٢٠)، قال رسول الله ﷺ: «التركبن سنة من كان قبلكم حذو النعل بالنعل، والقذة بالقذة ولا تخطئون طريقتهم، شبر بشبر، وذراع بذراع، وباع بباع، حتى أن لو كان من قبلكم دخل جحر ضب لدخلتموه، قالوا: اليهود والنصارى تعني يا رسول الله؟ قال: فمن أعني؟ لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، فيكون أول ما تنقضون من دينكم الإمامة وآخره الصلاة»، تفسير القمي، ج ٢ ص ٤١٣.

(٢) نذكر على سبيل المثال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ إِنَّكُمْ أَنْفُسُكُمْ بِأَيِّدِكُمُ الْعَجَل فَتُؤْبَإُ إِلَى بَارِكُمْ فَأَقْلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة البقرة، آية ٥٤)، عن الإمام العسكري عليه السلام أنه قال: «... وذلك أن موسى عليه السلام لما أبطل الله عز وجل على يديه أمر العجل، فأنطقه بالخبر عن تمويه السامري، وأمر موسى عليه السلام أن يقتل من لم يعبد من يعبد، تبرأ أكثرهم وقالوا: لم نعبد. فقال الله عز وجل لموسى عليه السلام: إبرد هذا العجل الذهب بالحديد برداً، ثم ذره في البحر، فمن شرب من مائه اسودت شفتاه وأنفه، وبان ذنبه. ففعل، فبان العابدون للعجل. فأمر الله تعالى الاثني عشر ألفاً أن يخرجوا على الباقيين شاهرين السيوف يقتلونهم ونادى مناديه: ألا لعن الله أحداً اتقاهم بيد أو رجل، ولعن الله من تأمل المقتول لعله تبيته حميماً أو قريباً فيتوقاه، ويتعداه إلى الأجنبي، فاستسلم المقتولون. فقال القاتلون: نحن أعظم مصيبة منهم، نقتل بأيدينا آبائنا وأبناءنا وأخواتنا وقربائنا، ونحن لم نعبد، فقد ساوى بيننا وبينهم في المصيبة. فأوحى الله تعالى إلى موسى: يا موسى إنني إنما امتحنتهم بذلك لأنهم ما اعتزلوهم لما عبدوا العجل، ولم يهجرهم، ولم يعادوهم إلى ذلك. قل لهم: من دعا الله بمحمد ﷺ أن يسهل عليه قتل المستحقين للقتل بذنوبهم. فقالوا، فسهل الله عليهم ذلك، ولم يجدوا لقتلهم لهم ألماً»، (البرهان، ج ١ ص ٩٨ - ٩٩ ح ١). وقال الإمام العسكري عليه السلام: «إن الله عز وجل أوحى إلى موسى عليه السلام: يا موسى بن عمران، ما خذل هؤلاء بعبادتهم واتخاذهم إلهاً غيري إلا لتهاونهم بالصلاة على محمد وآله الطيبين، وجحودهم لمولاتهم ونبوة النبي ووصية الوصي حتى أداهم ذلك إلى أن اتخذوا العجل إلهاً فإذا كان الله تعالى إنما خذل عبدة العجل لتهاونهم بالصلاة على محمد ووصيته علي، فما تخافون أنتم من الخذلان الأكبر في معاندتكم لمحمد وعلي وقد شاهدتموهما وتبينتم آياتهما ودلائلهم؟ ثم قال عز وجل: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي عفونا عن أوائلكم وعبادتهم العجل لعلكم أيها الكائنون في عصر محمد من بني إسرائيل تشكرون تلك النعمة على أسلافكم وعليكم بعدهم. ثم قال ﷺ: وإنما عفا الله عز =

الولاية^(١) مائة وثمانين درجة بعد رسول الله ﷺ وأولئك الذين جعلوا ذلك الموجود الغيبي جليساً لمنزله^(٢). فمثل هذا الإنسان يقلّد أولئك الأفراد في كلامهم عن مسألة التوحيد، إذ يقولون إن آية ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٣) هي التي صنعت رسول الله حين نزلت، وقبل نزولها لم يكن لدى الرسول أي علم بالتوحيد.

=وجل عنهم لأنهم دعوا الله عز وجل بمحمد وآله الطيبين، وجدّدوا على أنفسهم الولاية لمحمد وعليّ وآلهما الطاهرين، فعند ذلك رحمهم الله وعفا عنهم»، تفسير الإمام العسكري، ص ٢٥١.

(١) ولا يكون التوليّ إلا بالتبرّي، قيل للصادق عليه السلام: «إن فلاناً يؤاليكم إلا أنه يضعف عن البراءة من عدوّكم، فقال: «هيهات، كذب من ادّعى محبتنا، ولم يتبرأ من عدوّنا»، (السرائر، ج ٣ ص ٦٤٠). وعن أبي حمزة الثمالي قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «يا أبا حمزة، إنما يعبد الله من عرف الله وأما من لا يعرف الله كأنما يعبد غيره هكذا ضالاً، قلت: أصلحك الله وما معرفة الله؟ قال: يصدّق الله ويصدّق محمداً رسول الله ﷺ في موالاته عليّ والإيتام به وبأئمة الهدى من بعده، والبراءة إلى الله من عدوّهم، وكذلك عرفان الله»، (بحار الأنوار، ج ٢٧ ص ٥٧). عن أبي عبد الله الصادق قال: «وحبّ أولياء الله والولاية لهم واجبة، والبراءة من أعدائهم واجبة ومن الذين ظلموا آل محمد وهتكوا حجابهم فأخذوا من فاطمة فذك، ومنعوا ميراثها وغصبوها وزوجها حقوقهما، وهمّوا بإحراق بيتها، وأسّسوا الظلم، وغيروا سنة رسول الله، والبراءة من الناكثين والقاسطين والمارقين واجبة، والبراءة من الأنصاب والأزلام أئمة الضلال وقادة الجور كلهم أولهم وآخرهم واجبة، والبراءة من أشقى الأولين وآخرين شقيق عاقر ناقة ثمود قاتل أمير المؤمنين واجبة، والبراءة من جميع قتلة أهل البيت واجبة»، الخصال، ص ٦٠٧.

(٢) بقي ٢٥ عاماً جليّس داره، ولذا علينا أن نتبرأ إلى الله من عدوّه؛ «برئت إلى الله عزّ وجل من أعدائكم ومن الجبت والطاغوت والشياطين وحزبهم الظالمين لكم الجاحدين لحقكم والمارقين من ولايتكم والغاصبين لإرثكم الشاكّين فيكم المنحرفين عنكم»، (الزيارة الجامعة الكبيرة، مفاتيح الجنان). وقد قال رسول الله ﷺ: «من ناصب عليّاً الخلافة بعدي فهو كافر، وهذا فلان قد ناصب عليّاً الخلافة وغضبه، فما تقول؟»، (مشارك أنوار اليقين، ص ١٠١). وعنه عليه السلام: «مَنْ ناصب عليّاً على الخلافة بعدي فهو كافر وقد حارب الله ورسوله، ومن شكّ في عليّ فهو كافر»، الطرائف، ص ٧.

(٣) عن الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام أنه قال: «إن الله عزّ وجلّ علم أنه يكون في آخر=

يقولون إنه قبل نزول سورة الإخلاص لم يكن لرسول الله ﷺ أي طريق إلى التوحيد. أما الشيعي فيقول: إن الرسول الأكرم موحد كامل وحائز على مقام حقيقة التوحيد التامة، ولذلك تكلم في التوحيد وتحدث عنه. إنه وحده من تحدث عن التوحيد ولأنه امتلك تلك الحقيقة، تمكن من نشرها. وقد ابتدأ حديثه بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(١) التي هي ظهور الولاية الكلية والمطلقة والقدسية والقدوسية لذات أمير المؤمنين المقدسة ﷺ.

ومن أجل هذا السبب، وأثناء تأدية المنحرفين لصلاتهم^(٢)، يُسقطون عبارة «بسم الله» ولا يتلفظون بها. وذلك لأن لا طريق لهذه الحقيقة إلى بواطنهم^(٣).

فعندما كان معاوية لعنة الله عليه يؤم الناس في صلاة الجماعة، كان المقرَّبون منه يسألونه على الدوام: لم لا تقول «بسم الله» عند ابتدائك بالصلاة؟ فكان يجيبهم: لا أدري لماذا، إني أنساها دائماً، ومهما فعلت لا أتمكن من قولها

=الزمان أقوام متعمقون، فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ﴾، والآيات من سورة الحديد إلى قوله: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، فمن رام وراء ذلك فقد هلك»، أصول الكافي، ج ١ ص ٩١ ح ٣.

(١) من دعاء أمير المؤمنين ﷺ: «فأسألك باسمك الذي ظهرت به لخاصة أوليائك فوحدوك وعرفوك بحقيقتك أن تعرفني نفسك لأقر لك بربوبيتك على حقيقة الإيمان بك»، بحار الأنوار، ج ٩١ ص ٩٦؛ ربيع الأبرار، ج ٢ ص ٢٥٣.

(٢) ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ (سورة الأنفال، آية ٣٥). يقول آية الله السيد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إن صلاة المخالف باطلة، ولو صلى ما صلى، وذلك لأنه يصلي كما كان يصلي من لا إمكانية ولا قدرة له على طي طريق التوحيد، فهي باطلة لأن التوحيد معه لا يحقق التوحيد مع الله تعالى».

(٣) ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ (سورة آل عمران، آية ١٧٦). من كلام آية الله السيد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «أعداء آل محمد ﷺ هم الذين لا يسيرون في مسيرهم ولا يأتَمرون بأوامرهم؛ نعم قد يوجد شخص معادٍ لهم في باطنه، ولكنه يقوم في الظاهر بما يقومون به، ففي هذه الحالة تُحسب هذه العبادة الظاهرية كعامل أقوى في البعد عنهم، وهو أسوأ ممَّن لا يقوم بأي عمل، ولذا فإنَّ كلَّ عمل يقوم به الشخص الذي لا اتحاد روحي له معهم غير مقبول»، انتهى... فكما يقول رسول الله ﷺ: «كم من قارئ للقرآن والقرآن يلعنه»، بحار الأنوار، ج ٨٩ ص ١٨٥.

وتغيب دائماً عن ذهني. ومردّ ذلك إلى أنه ليس لديه أيّ طريق إلى حقيقة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(١) المتصلة بصاحب الولاية الكلية والمطلقة، أي أمير المؤمنين عليه السلام^(٢)، ولذلك ينساها دائماً. وهذا هو حال كل من لا طريق له إلى هذا المعنى، حتى ولو دُعِيَ إلى هذا الحديث^(٣).

غير أن اعتقاد الشيعة، المستنير بنور^(٤) ولاية أهل البيت عليهم السلام، في النبوة^(٥)

(١) عن عبد الله بن سنان قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن تفسير «بسم الله الرحمن الرحيم» قال: «الباء بهاء الله، والسين سناء الله، والميم مجد الله. وروى بعضهم: الميم ملك الله والله إله كل شيء، الرحمن بجميع خلقه والرحيم بالمؤمنين خاصة»، (أصول الكافي، ص ١٦٦). وعن الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «علامات المؤمن خمس: صلاة إحدى وخمسين، وزيارة الأربعين، والتختم باليمين، وتعفير الجبين، والجهر بسم الله الرحمن الرحيم»، مصباح المتعبد، ص ٧٨٩.

(٢) قال أبو جعفر عليه السلام: «إن الله عز وجل نصّب علياً عليه السلام علماً بينه وبين خلقه فمن عرفه كان مؤمناً ومن أنكره كان كافراً ومن جهله كان ضالاً ومن نصّب معه شيئاً كان مشركاً ومن جاء بولايته دخل الجنة ومن جاء بعداوته دخل النار»، الكافي، ج ١ ص ٣٨٨ - ٣٨٩.

(٣) ﴿فَإَيَّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾، سورة المرسلات، آية ٥٠.

(٤) ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ (سورة النور، آية ٣٥). «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»، (بحار الأنوار، ج ٢٥ ص ٢١). «يا عَفَّارُ بُنُورِكَ اهْتَدَيْنَا»، (دعاء أبي حمزة الثمالي، مفاتيح الحنان). عن أبي خالد الكابلي قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورَ الَّذِي أُنْزِلَنَا﴾ فقال: «يا أبا خالد، النور والله الأئمة من آل محمد عليهم السلام إلى يوم القيامة، وهم والله نور الله الذي أنزل، وهم والله نور الله في السماوات وفي الأرض. والله يا أبا خالد، لنور الإمام في قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئة بالنهار، وهم والله ينورون قلوب المؤمنين»، الكافي، ج ١ ص ١٩٤.

(٥) «في بيان حقيقة النبوة أن لكل نفس بل كل موجود نصيباً منها، وأن محمداً وآله عليهم السلام آياتها الكبرى ومظاهرها الكلية، وسائر الخلق مظاهرها الجزئية، فالحقيقة المحمدية الإلهية والحقيقة العلوية الإلهية كلاهما موجودتان مكنونتان في كل شيء، فال محمد عليه السلام لما خُصّوا بانبعث تمام مراتب الاسم الأعظم الذي هو الآية الكبرى للحقيقة المحمدية والحقيقة العلوية الإلهيتين خُصّوا بما ذكره الإمام عليه السلام من كليات تلك الخصال السبع لا يكون شيء في السماء والأرض إلّا بها، ولذا كانوا محيطين بعلم ما كان وما هو كائن =

هو على الشكل الآتي: أنّ هناك موحدًا واصلًا إلى مقام التوحيد التام بحيث تضمّنت ذاته كل حقيقة التوحيد تحدّث قائلاً: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. فلا نتكلم بكلام المنحرفين الذين يقولون بأن رسول الله ﷺ أصبح موحدًا عن طريق آية ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. ومن يقول هذا الكلام، يخرج عن الاعتقاد الشيعي القائل بأنّ حضرته كان محمّدًا، بكلّ حيثياته، أولاً، ثم بعد ذلك نطق بالحديث.

الكلّ موحدٌ بالفطرة

هل يمكن لأحدٍ في العالم، غير هذه الذات المقدّسة وأولئك المختصّون بالعصمة، بأن يقول أنا موحد بذاتي وسأتكلم بالتوحيد في ما بعد؟ طبقاً للروايات، فإنّ الكلّ موحد بذاته، إلا أن الكلام عن التوحيد^(١) خاصّ بالأنبياء والرّسل فحسب.

قال النبي الأكرم ﷺ: «كلُّ مولود يولد على الفطرة»^(٢)، فالكلّ موحد وعارفٌ بالتوحيد بذاته، غير أنه لا يتمكن من إظهار هذا التوحيد بالتعبير والكلام. فلو كان الأمر كذلك، لكان الجميع أنبياء. وهل يمكن لأحدٍ الإدّعاء بأنّه وصل إلى التوحيد ثم كتب عنه وجعل الآخرين يتبعونه؟ لا، فهذا ممنوع.

الاقتداء في التوحيد

إنه خاتم الأنبياء ﷺ، ونحن نقرّ لفظاً بالخاتميّة له، بمعنى أنّ لا نبيّ بعده. ولكن، إذا ما قبلنا بأن هناك من وصل إلى التوحيد وبات بإمكانه التكلم عنه بكلام جميل واتبعناه في ذلك، نكون غير مقرّين عملياً بالخاتميّة لرسول الله ﷺ. لقد بيّنا هذا المطلوب لكي نقول إنه في مسألة التوحيد، يجب ألاّ نسير وراء

=دون سائر الخلق، وينبعث فيهم تمام مراتب الخلق دون غيرهم، وصاروا شهداء الخلق»، الشمس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٣٠٤.

(١) التوحيد مراتب ويختلف إدراكه أو التحقق به باختلاف الأشخاص، ﴿فَطَرَتَ اللَّهُ إِلَهِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ﴾ (سورة الروم، آية ٣٠)، فطرة الله هي التوحيد.

(٢) الكافي، ج ٢ ص ١٢؛ بحار الأنوار، ج ٥٨ ص ١٨٧.

أحد^(١). وإذا تمكّن أحدهم من الوصول إلى التوحيد، يكون ذلك خاصاً به، ويعود إلى اتباعه لفطرته. ولكن، لم يفلح أيّ من علم الكلام أو الفلسفة أو الحكمة أو كل هذه الكتب المؤلفة في إيصال أيّ إنسان إلى ذلك المقصد. ذلك لأنه في مسألة التوحيد، ينبغي اتباع واقتفاء أثر خاتم الأنبياء ﷺ حصراً دون غيره^(٢).

وقد استمدّ رسول الله ﷺ، في التوحيد، نبع الحياة من ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. وهنا يصل المبدأ والمعاد في خطه الدائري إلى نقطة اتصال، فالمعاد يرجع إلى نقطة المبدأ نفسها.

الرجوع إلى المبدأ

ينبغي تعلّم التوحيد من بيت رسول الله ﷺ. إن التوحيد لا يأتي بالتعليم والتعلم^(٣) ولكن إذا ما جرى التكلم عن تحصيل التوحيد بهذه الطريقة، فالمقصود من ذلك هو الاستفادة من الفطرة التي نمتلكها أصلاً - أي هذه القدرة الكامنة فينا^(٤) - وإظهارها من خلال

(١) عن أبي عبد الله ﷺ أنه قال: «من دخل في هذا الدّين بالرجال أخرجه منه الرجال كما أدخلوه فيه، ومن دخل فيه بالكتاب والسنة زالت الجبال قبل أن يزول»، بحار الأنوار، ج ٢ ص ١٠٥.

(٢) ورد في الزيارة الجامعة الكبيرة: «فالراغب عنكم مارق واللازم لكم لاحق والمقصر في حقكم زاهق»، (مفاتيح الجنان). ومن كلام لآية الله السيد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «في كلّ هذه المراتب سواء كانت مرتبة التّوحيد أو مرتبة الوحدة، الوحيد الذي يحضر هذه الحقائق إلى وجود الإنسان هو الذات المقدسة للولي المطلق، ولا يوجد أيّ شخص غيره يمكنه أن يحقق هذه المراتب من التّوحيد والوحدة، لأنّه مجموع كلّ الوجود وهو الذي اتصل بالحق».

(٣) عن الإمام الصادق ﷺ: «لَيْسَ الْعِلْمُ بِكَثْرَةِ التَّعَلُّمِ، إِنَّمَا هُوَ نُورٌ يَقَعُ فِي قَلْبٍ مَنْ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ، فَإِذَا أَرَدَتِ الْعِلْمَ فَاطْلُبْ أَوَّلًا فِي نَفْسِكَ حَقِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ، وَاطْلُبِ الْعِلْمَ بِاسْتِعْمَالِهِ وَاسْتَفْهِمِ اللَّهَ يُفْهِمَكَ»، منية المريد، ص ١٤٩ - ١٦٧.

(٤) ﴿وَقَى أَنْفُسَكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (سورة الذاريات، آية ٢١). قال أمير المؤمنين ﷺ: «ليس العلم في السّماء فينزل إليكم، ولا في تخوم الأرض، فيخرج لكم، ولكنّ العلم يجول في قلوبكم، تأدّبوا بأداب الرّوحانيين، وتخلّقوا بأخلاق الصّديقين، يظهر بكم (يظهر على =

التكلم^(١) والتعليم والتعلم والاكتساب. إذًا، ما الذي علينا فعله؟

لقد دلّنا رسول الله ﷺ على السبيل حين قال: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها»^(٢). فإذا أردتَ تعلّم هذا العلم^(٣)، عليك أن تقصد عتبة باب أمير

=قلوبكم)» (قرّة العيون، ص ٤٣٨). وقال نبي الله عيسى، على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام: «ليس العلم في السماء فينزل عليكم وليس في باطن الأرض حتى يخرج إليكم لكنّه مجبول بأنفسكم، فتأدّبوا بآداب الروحانيين تجدوا هذا العلم».

(١) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «كلّ من يتكلّم إنّما يتكلّم من مقامه ومنزله... ولو وصل الإنسان إلى يقين أنّ كلّ شخص إنّما يتكلم من منزله الخاصّ، فسوف تحلّ كثير من الإشكالات حيث أنّ بعض الناس لا يمكن رفعهم في الفهم والإدراك إلى الأعلى. ومن هنا قول رسول الله ﷺ: «إنّا معاشر الأنبياء أمرنا أنّ نكلّم الناس على قدر عقولهم»، لأنّهم لم يصلوا إلى مستوى شهودنا وإدراكنا للحقائق».

(٢) (بحار الأنوار، ج ٤٠ ص ٢٠٢). ومن المعلوم أنّهم ﷺ أبواب مدينة العلم، «سأل جابر بن يزيد الجعفي، لمولانا أبي جعفر الباقر ﷺ بستان ألف خبر وقال له: ذلك أستودعه علماً وفضلاً في هذه الدلالة فحدّثه الباقر ﷺ الستين ألف خبر، فقال له: يا مولاي كيف أكون فيها، فقال: تحدث منها بعشرين ألف خبر، وعشرين ألف خبر، أخفيها (أخفيها) ولا تظهرها، فقال: يا مولاي ضعف صبري عن إخفائها فقال: أحفر لها حفيرة في الجبانة وتحدث بها فإذا أخرجت رأسك منها أدفنها، ففعل جابر ذلك كله فلما أن حدث الحفيرة ودفنها، أنبتت الحفيرة قصباً فكانوا يأخذون القصب من قصبها ويلعبون فيها تنطق بما حدّث به جابر للحفيرة فقصد إليها الكهول والشيوخ فأخذوا من ذلك القصب ونفخوا فيه فنطق بالعشرين ألف خبر عن جابر عن محمد الباقر ﷺ فسمعوه وكتبوه فخاف جابر على نفسه من بني أمية فقشر القصب وركبه وركض في طرقات المدينة فنظر إليه الناس، وقالوا له: ما شأنك أيها الحكيم، فقال لهم: جُنّ جابر، فصاح الناس جُنّ جابر، بما قال عن أبي جعفر، فرفع بعض الأخبار إلى بني أمية فأنفذوا ليريدوا قتله فصادفوه في طرقات المدينة راكب القصب يطوف ويصيح جُنّ جابر فكتبوا يخبرون السلطان من بني أمية بجنونه فبعث إليهم أردنا قتله لما فعل فإذا كان قد جُنّ اتركوه فقال أهل المدينة: الجنون لجابر خير من القتل، فقلنا: سبحان الله سمعنا بهذا الخبر لكن نسيناه وأما هذا بفضل موالينا أهل البيت ﷺ وهذا من دلائله ﷺ»، الهداية الكبرى، ص ٣٣٩ - ٣٤٠.

(٣) عن أبان عن أبي عبد الله ﷺ قال: «العلم سبعة وعشرون حرفاً فجميع ما جاءت به الرُّسُل حرفان فلم يعرف النَّاس حتى اليوم غير الحرفين، فإذا قام قائمنا أخرج الخمسة =

المؤمنين ﷺ^(١)، إذ إن معاد هذا الأمر إلى أمير المؤمنين ﷺ، وهو معاد كل عالم الدنيا. وهذا يعني أنه لا يمكن الحصول على التوحيد المتنزل من حقيقة ﴿يَسْمِ اللَّهَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾ إلا من هذا الموضع نفسه. فإذا ما كنت تريد أن تحصل في عالم الدنيا على التعلم والتعليم، الذي به ظهور معادك، ينبغي الرجوع إلى أمير المؤمنين ﷺ. «أنا الأول والآخر والظاهر والباطن»^(٢)، وهذا يسري في كل الأمور.

=والعشرين حرفاً فبثّها في النَّاسِ، وضمّ إليها الحرفين، حتى يثبّتها سبعة وعشرين حرفاً»، (بحار الأنوار، ج ٥٢ ص ٣٣٦). كما جاءت الرواية بطريقة أخرى: عن أبي عبد الله ﷺ، قال: «العلم سبعة وعشرون جزءاً، فجميع ما جاءت به الرسل جزءاً، فلم يعرف الناس حتى اليوم غير الجزئين. فإذا قام القائم، أخرج الخمسة والعشرين جزءاً فبثّها في الناس، وضمّ إليها الجزئين»، الخرائج والجرائح، ج ٢ ص ٨٤١ ح ٥٩.

(١) ورد في الزيارة الجامعة الكبيرة: «من أتاكم نجا ومن لم يأتكم هلك»، (مفاتيح الجنان). عن أمير المؤمنين ﷺ: «وقد جعل الله للعلم أهلاً، وفرض على العباد طاعتهم، بقوله: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾، والبيوت: هي بيوت العلم الذي استودعه الأنبياء وأبوابها أوصياؤهم ﷺ»، (الاحتجاج، ج ١ ص ٥٨٢ ح ١٣٧)، وعنه ﷺ: «نحن البيوت التي أمر الله أن يؤتى أبوابها، نحن باب الله وبيوته التي يؤتى منه، فمن بايعنا وأقر بولايتنا فقد أتى البيوت من أبوابها، ومن خالفنا وفضل علينا غيرنا فقد أتى البيوت من ظهورها...»، (الاحتجاج، ج ١ ص ٥٤٠ ح ١٢٩). فأمر المؤمنين ﷺ سبيل الله وصراطه وعبية علمه، فعنه ﷺ أنه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرْصُوفٍ﴾ (سورة الصف، آية ٤). أتدرون ما سبيل الله؟ ومن سبيله؟ ومن صراط الله؟ ومن طريقه؟ أنا صراطه الذي من لم يسلكه هوى، وأنا سبيله الذي نصبني بعد نبيه ﷺ، أنا قسيم الجنة والنار، وأنا حجة الله على الفجار والأبرار، فانتبهوا من رقدة الغفلة وبادروا بالعمل قبل حلول الأجل وسابقوا إلى مغفرة من ربكم قبل أن يضرب بسور باطنه الرحمة وظاهره العذاب، فتنادوا (فتنادون) فلا يُسمع نداؤكم وتضجوا (تضجون) فلا يُحفل بضجيجكم، وقبل أن تستغيثوا فلا تُغاثوا، فسارعوا إلى الطاعات قبل فوت الأوقات، (نهج البلاغة الثاني، ص ٣٢). وقال النبي ﷺ لعليّ ﷺ: «يا عليّ، إذا كان يوم القيامة، أقعد أنا وأنت وجبرائيل على الصراط، فلا يجوز على الصراط إلا من كانت معه براءة بولايتك»، الاعتقادات، ص ٨٧.

(٢) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ أمير المؤمنين ﷺ أوّل=

«أنا أحيي وأنا أميت»^(١)، من الذي قال هذا الكلام؟ ذاته المقدسة قالت ذلك. يا للعجب! ألا يقول القرآن: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٢)؟ إذاً، كيف ينطق بهذا الكلام وهو النصير الأول للتوحيد؟ هذا يعني أن التوحيد يرجع إلى نفس الإنسان. فذلك المستغرق والفاني في التوحيد، يستطيع أن يقول: «أنا الذي أحيي وأميت أنا الأول والآخر والظاهر والباطن»^(٣). أما إذا قال أحد آخر هذا الكلام، فهو مطرود. وإن ادّعى ذلك، فهو ملعون.

=لأنه أدرك بالتوحيد الأوليّة، وهو آخر لأنه أدرك بالتوحيد الآخريّة، وهي الأوليّة التي لا يفرض لها آخريّة، والآخريّة التي لا يفرض لها أوليّة، والأمر سيّان بالنسبة إلى الظاهر والباطن. عندما يبيّن أثمتنا ﷺ مراتب التّوحيد، فهم يبيّنونه بالنظر إلى وجودهم وإدراكه، وبيانه لنا يحصل لنا القرب، وأمّا إدراكه فلا يتحقّق إلّا بالفناء الكامل فيهم صلوات الله عليهم. لا يتحقّق الفناء في الله لأحد إلّا أن يكون فانياً في محمّد وآل محمّد؛ (يا رب الحسين، يا رب الحجّة، يا رب أمير المؤمنين)، انتهى. إن أمهات الأسماء أربعة: الأول والآخر والظاهر والباطن ويجمعها الاسم الجامع وهو الله والرحمن ﴿قُلْ ادْعُوا﴾ فكلّ منهما الأسماء الحسنی الداخلة تحت حيطتهما. فكل اسم يكون مظهره أزليّاً وأبديّاً وأزليته من الاسم «الأول» وأبديته من الاسم «الآخر» وظهوره من الاسم «الظاهر» وبطونه من الاسم «الباطن» فالأسماء المتعلقة بالإبداء والإيجاد داخلة في «الأول» والمتعلقة بالإعادة (المعاد) والجزاء داخلة في «الآخر» وما يتعلق بالظهور والبطون داخلة في «الظاهر» و«الباطن»، وبظاهرها ندرك الظاهر وبباطننا ندرك الباطن، والأشياء لا تخلو من هذه الأربعة: الظهور والبطون والأولية والآخريّة.

(١) من كلام لأمر المؤمنين ﷺ: «أنا أخلق وأرزق وأحيي وأميت»، (إلزام الناصب في إثبات الحجّة الغائب، ج ٢ ص ٢١٤)، وذلك لأنه ﷺ اسم الله فهو يحيي ويميت وكونه كذلك، أي إسم الله، يعني أنه ممسوس بذات الله وقد قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا علياً فإنه ممسوس في ذات الله تعالى»، (حلية الأولياء، ج ١ ص ٦٨). وقال ﷺ أيضاً: «علي مخشوشن في ذات الله»، الاستيعاب، ج ٣ ص ١١٤.

(٢) سورة الحديد، آية ١ - ٢.

(٣) (بحار الأنوار ج ٤٢ ص ١٨٩). تقول الرواية: «فلما صلى رسول الله ﷺ الفجر وأمير المؤمنين معه في الصلاة، أقبل عليه وقال: قم يا أبا الحسن إلى ما أمرك الله به ورسوله فأنت البقيع حتى تقول للشمس ما قلت لك، وأسّر إليه سرّاً كان فيه الدعوات =

قَصُرَتْ عَنْ فَهْمِهِ الْعُقُولُ

قصدَ عدَّةَ أفرادِ أميرِ المؤمنين ﷺ وقالوا له: حدِّثنا يا أمير المؤمنين، فكل ما سمعناه عنك صدر من الآخرين. مولانا عليّ، حدِّثنا عن نفسك، نريد أن

=التي علمه إياها. فخرج أمير المؤمنين ﷺ يسعى إلى البقيع حتى بزغت الشمس، فهمهم بذلك الدعاء همهمة لم يعرفوها، وقالوا: هذه الهمهمة ما علّمه محمد من سحره! وقال للشمس: السلام عليك يا خلق الله الجديد، فأنطقها الله بلسان عربي مبين وقالت: السلام عليك يا أخا رسول الله ووصيه، أشهد أنك الأول والآخر والظاهر والباطن وأنت عبد الله وأخو رسوله حقاً، فارتعدوا واختلطت عقولهم وانكفؤوا إلى رسول الله ﷺ مسوِّدة وجوههم، تفيض أنفسهم، فقالوا: يا رسول الله، ما هذا العجب العجيب؟ لم نسمع من الأولين ولا من المرسلين ولا في الأمم الغابرة القديمة، كنت تقول لنا: إن علياً ليس ببشر وهو ربكم فاعبدوه! فقال لهم رسول الله بمحضٍ من الناس في مسجده: تقولون ما قالت الشمس وتشهدون بما سمعتم؟ قالوا: يحضر عليّ فيقول فنسمع ونشهد بما قال للشمس وما قالت له الشمس. فقال لهم رسول الله ﷺ: لا بل تقولون. فقالوا: قال عليّ للشمس: السلام عليك يا خلق (الله) الجديد، بعد أن همهم همهمة تزلزلت منها البقيع، فأجابته الشمس وقالت: وعليك السلام يا أخا رسول الله ووصيه، أشهد أنك الأول والآخر والظاهر والباطن، وأنت عبد الله وأخو رسول الله حقاً. فقال لهم رسول الله ﷺ: الحمد لله الذي خصّنا بما تجهلون وأعطانا ما لا تعلمون ثم قال: قد تعلمون أنني واخيئ علياً دونكم، وأشهدتكم أنه وصيي، فماذا أنكرتم؟ عساكم تقولون: ما قالت له الشمس: إنك الأول والآخر والظاهر والباطن. قالوا: نعم يا رسول الله، لأنك أخبرتنا بأن الله هو الأول والآخر والظاهر والباطن في كتابه المنزل عليك، فقال رسول الله ﷺ: ويحكم وأتّى لكم بعلم ما قالت له الشمس؟ أمّا قولها (إنك الأول) فصدّقت، إنه أول من آمن بالله ورسوله ممن دعوته إلى الإيمان من الرجال - وخديجة من النساء - وأمّا قولها (الآخر)، فإنه آخر الأوصياء وأنا خاتم الأنبياء وخاتم الرسل، وأمّا قولها (الظاهر)، فإنه ظهر على كل ما أعطاني الله من علمه، فما علمه معي غيره، ولا يعلمه بعدي سواه ومن ارتضاه لسره من ولده، وأمّا قولها (الباطن)، فهو والله الباطن على الأولين والآخرين وسائر الكتب المنزلة على النبيين والمرسلين، وما زادني الله تعالى من علم ما لم يعلموه وفضل ما لم يعطوه، فماذا تنكرون؟ فقالوا بأجمعهم: نحن نستغفر الله يا رسول الله، لو علمنا ما تعلم لسقط الإقرار بالفضل لك ولعليّ، فاستغفر الله لنا، فأُنزل الله سبحانه: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ﴾، بحار الأنوار، ج ٣٥ ص ٢٧٨ - ٢٨٠.

نسمع مناقبك عن لسانك. فقال ﷺ: «ويحكم، إن كلامي صعب مستصعب لا يعقله إلا العالمون»، أي إنكم لا تحتملون سماعه، قوموا وارحلوا. ولكنهم أصرّوا على ذلك، فوافق أمير المؤمنين ﷺ وقال: «أنا الذي أحيي وأميت وأنا الأول والآخِر والظاهر والباطن»^(١).

وما إن سمعوا هذا الكلام من المولى، حتى تملكهم الغضب^(٢) وقالوا بلسانٍ واحد: كفر ابن أبي طالب وقاموا من أماكنهم^(٣). وحين همّوا بالخروج، أشار أمير المؤمنين ﷺ إلى الباب قائلاً: «يا باب، استمسك عليهم»^(٤). إن الباب من الجمادات، ولكنه انصاع وأطاع وأمسك عليهم.

قال لهم المولى ﷺ: ألم أقل لكم إن كلامي صعب مستصعب^(٥) وإنكم لا

(١) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «أمير المؤمنين ﷺ قد تحقّق بالتوحيد، فلذلك يقول: «أنا الأوّل أنا الآخر»، فقد صار ﷺ واحداً مع المبدأ، وهذا التوحيد مع المبدأ ليس في مقام الصفة بل هو في مقام الذات».

(٢) ﴿وَإِذَا نُتِلَّ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾، سورة الحج، آية ٧٢.
(٣) ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ (سورة النجم، آية ٢٩ - ٣٠). ﴿وَلَيْنَ أَتَيْنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾، سورة البقرة، آية ١٤٥.

(٤) ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾، سورة الأعراف، آية ١٥٥.

(٥) عن الإمام الصادق ﷺ: «علمنا صعب مستصعب، وسرنا وعربيد على اللسان أن يترجم عنه إلا تلويحاً»، (الهداية الكبرى، الباب ٤ ص ٢٧٥). «أما السر الذي فيه للمؤمن نصيب، فهو أيضاً صعب مستصعب، وأشدّ صعوبة وإغماضاً المتشابه بالوجوه القابل للتأويل، الذي يخالف ظاهره باطنه، وأمثله في القرآن والأحاديث والأخبار والأدعية كثير، فمن ذلك من القرآن قوله: وقفوهم انهم مسؤولون ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُشْغِلُ عَنْ دُنْيِهِ إِنْسٌ وَلَا جَآنٌ﴾، وهذا في الظاهر تناقض لأنه أمر أن يقفوههم ويسألوهم، ثم أخبر أنهم لا يسألون، وبيان ذلك: أن العباد لا يسألون يوم القيامة إلا عما عهد الله إليهم من حب عليّ، فعنه... يسأل إذ يُبعثون، وشيعة عليّ لا يسألون عن ذنوبهم لأنهم وفوا بالعهد، فلا ذنب عليهم، وقوله: ﴿لَا يُشْغِلُ عَنْ دُنْيِهِ إِنْسٌ وَلَا جَآنٌ﴾، هذا لفظ عام ومعناه خاص، لأن معناه لا يسأل عن ذنبه يوم القيامة إنس ولا جان من شيعة عليّ، لأن الله أخذ عليهم عهد الإيمان بعليّ، وضمن لهم بذلك الجنة، فإن وفوا بالعهد وجبت لهم في رحمته للوفاء=

تملكون السَّعة لسماعه^(١)؟ وقد كان حديث أمير المؤمنين عليه السلام مع الباب كفيلاً بتنبههم^(٢)، إلا أنهم لم يفهموا ما قاله المولى وبالتالي لم يكن لذلك أية فائدة^(٣).

بعد أن خلى عنهم الباب، قال أمير المؤمنين عليه السلام: تعالوا واجلسوا حتى آيبن لكم. فجلسوا. حينها، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا الأول» يعني «أنا أول من آمن بالله وأسلم»، «أنا الآخر» يعني «أنا آخر من سجى على النبي ثوبه»، «أنا

= بالعهد، وقد وفوا بعهدهم، فلا ذنب عليهم يُسألون عنه إذن، لأنَّ حبَّ عليٍّ هو الحسنات، فإذا كان في الميزان فأين السيئات؟ وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، وأكبر الحسنات حبَّ عليٍّ، بل هو الحسنات، فإذا كان في الميزان فلا ذنب معه، وأين ظلمة الذنب مع تلالؤ نور الربِّ؟ لأنَّ ولاية عليٍّ هي نور الربِّ، وأين ظلمة الليل عند ضياء البدر المنير؟ أم مسَّ السيئات عند خالص الأكسير؟ ومن ذلك قوله: ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ والتناقض لازم له في الظاهر من غير تأويل، لأنَّ مَنْ لا مثل له مِنْ أين له يدان مبسوطتان؟ وَمَنْ له يد مبسوطة كيف يكون بلا شبه ولا مثل؟ هذا واضح لمن عرف الإستعارة اللغوية، مشارق أنوار اليقين، ص ٣١٥ - ٣١٦.

(١) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنَّ التَّوْحِيدَ الَّذِي يَكْشِفُهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام إِنَّمَا يَنْكَشِفُ لِأَفْهَامِنَا بِمَقْدَارِ سَعَتِنَا الْوُجُودِيَّةِ وَاسْتِعْدَادِنَا الذَّاتِي، وَإِلَّا فَإِنَّ عَقُولَنَا وَأَفْهَامَنَا وَحَتَّى قُلُوبَنَا عَاجِزَةٌ وَقَاصِرَةٌ عَنْ نَيْلِ مَا يَرِيدُ أَنْ يَقُولَهُ مَوْلَى الْمُوَحِّدِينَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام»، انتهى... بمقدار السَّعة الوجودية أي حسب نواياكم تُرزقون. وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديثه مع كميل بن زياد: «إن ههنا - وأشار بيده إلى صدره - لعِلماً جَمّاً، لو أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً»، بحار الأنوار، ج ٢٣ ص ٤٦.

(٢) ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، (سورة الأحقاف، آية ٢٦). ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخَيِّمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾، سورة الشورى، آية ٢٤.

(٣) ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾، (سورة الإسراء، آية ١٠٧). يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «مَنْ لا يستطيع أن يحلّل الأمور على جهاتها المختلفة ولا يمكنه أن يدرك الحيثيات المتعددة فيها، فلاَنْ رتبته على هذا التحو... إنَّ سبب الاختلاف هو أنَّ كلَّ شخص يريد أن يرى الآخرين في رتبته الخاصّة به».

الظاهر والباطن» يعني «أنا عندي علم الظاهر والباطن» وكنت ظاهراً مع رسول الله وباطناً مع الأنبياء^(١)، «أنا أحيي وأميت» يعني «أنا أحيي السنة وأميت البدعة». بعدما سمعوا هذا الكلام، قالوا: يا عليّ، الحمد لله، لقد أرحتنا^(٢).

(١) قال النبي الأعظم ﷺ: «بُعِثَ عَلَيَّ مع كل نبيٍّ سرّاً وبعث معي جهرّاً» (شرح دعاء الجوشن، ص ١٠٤؛ جامع الأسرار، ص ٣٨٢ - ٤٠١). «رُوي بلفظ: «يا عليّ، إن الله تعالى قال لي: يا محمد، بعثتُ عليّاً مع الأنبياء باطناً ومعك ظاهراً» ثم قال صاحب كتاب القدسيّات: وصرّح بهذا المعنى في قوله: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى ولكن لا نبي بعدي» ليعلموا أن باب النبوة قد خُتِمَ وباب الولاية قد فُتِحَ... إنَّ باب الولاية كان موجوداً مع كل نبي سرّاً، إلا أنه لم يُفَتَحَ ظاهراً، فكان الأنبياء جميعاً يستفيدون من هذا السرّ الولاوي إلى أن وصل إلى النبي الأعظم ﷺ فظهر هذا السرّ إلى العلن. ويؤيد ذلك ما رُوي عن أبي محمد العسكري ﷺ قال: «فنحن السّنام الأعظم وفينا النبوة والولاية والكرم، ونحن منار الهدى والعروة الوثقى، والأنبياء كانوا يقتبسون من أنوارنا ويقتفون آثارنا»... فهذا صريح في أن أنوار محمد وآل محمد ﷺ كانت مع كل نبي سرّاً، والكون ليس لمجرده بل ليستفيدوا منه، ويقتفون آثاره وآثار محمد التي لا يعرف تفسيرها إلا هم، وإلا كيف يكون للنور السري مع كل نبي أثرٌ يُقتفى ويُهتدى به؟ وما رُوي عن أمير المؤمنين ﷺ لمن سأله عن فضله على الأنبياء الذين أعطوا من الفضل الواسع والعناية الإلهية قال: «والله قد كنت مع إبراهيم في النار: وأنا الذي جعلتها برداً وسلاماً، وكنت مع نوح في السفينة فأنجيتُهُ من الغرق، وكنت مع موسى فعلمته التوراة، وأنطقْتُ عيسى في المهد وعلمته الإنجيل، وكنتُ مع يوسف في الجُب فأنجيتُهُ من كيد إخوته، وكنتُ مع سليمان على البساط وسخرتُ له الرياح»، (الأنوار النعمانية، ج ١ ص ٣١)، مشارق أنوار اليقين، ص ٢٤٧.

(٢) روي أن أمير المؤمنين ﷺ كان قاعداً في المسجد وعنده جماعة من أصحابه، فقالوا له: «حدثنا يا أمير المؤمنين، فقال لهم: ويحكم إنَّ كلامي صعب مستصعب لا يعقله إلا العالمون، قالوا: لا بدّ من أن تحدثنا، قال: قوموا بنا فدخل الدار فقال: أنا الذي علوت فقهرت، أنا الذي أحيي وأميت، أنا الأول والآخر والظاهر والباطن، فغضبوا وقالوا: كفروا! وقاموا، فقال علي ﷺ للباب: يا باب استمسك عليهم، فاستمسك عليهم الباب، فقال: ألم أقل لكم: إن كلامي صعب مستصعب لا يعقله إلا العالمون؟ تعالوا أفسر لكم، أما قولي: أنا الذي علوت فقهرت فأنا الذي علوتكم بهذا السيف فقهرتكم حتى آمنتم بالله ورسوله، وأما قولي: أنا أحيي وأميت فأنا أحيي السنة وأميت البدعة، وأما قولي: أنا الأول فأنا أول من آمن بالله وأسلم وأما قولي: أنا الآخر فأنا آخر من=

إنّ هذا التوضيح كافٍ لذلك الذي يقول: «قد كفر ابن أبي طالب»^(١).

حقيقة المعنى

«أنا الأول والآخر»، يعني أنه مظهر الأول والآخر بتمام معناه. «والظاهر والباطن»، يعني هو مظهر الظاهر والباطن^(٢) بتمام معناه. «أنا أحيي وأميت»، أي أنه مظهر المحيي والمميت بتمام معناه. وفي ما يخص مسألة التوحيد، يعني هذا أن كل ما تعرفه بشأن «الأول» هو متعيّن^(٣) ومتشخّص في هذه الذات

=سجّى على النبي ﷺ ثوبه ودفنه، وأما قلبي: أنا الظاهر والباطن فأنا عندي علم الظاهر والباطن، قالوا: فَرَجَتْ عَنَّا فَرَجَ اللهُ عَنْكَ، (بحار الأنوار ج ٤٢ ص ١٨٩؛ مدينة المعاجز، ج ٢ ص ٢٥٥). «... وسئل (أمير المؤمنين ﷺ) كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت وأنا الصديق الأول، والفاروق الأعظم، وأنا وصي خير البشر، وأنا الأول، وأنا الآخر، وأنا الباطن، وأنا الظاهر، وأنا بكل شيء عليم، وأنا عين الله، وأنا جنب الله، وأنا أمين الله على المرسلين، بنا عبد الله، ونحن خزان الله في أرضه وسمائه، وأنا أحيي وأميت، وأنا حيّ لا أموت. فتعجب الأعرابي من قوله. فقال ﷺ: أنا الأول أول من آمن برسول الله ﷺ. وأنا الآخر آخر من نظر فيه لما كان في لحده. وأنا الظاهر، فظاهر الإسلام. وأنا الباطن، بطين من العلم. وأنا بكل شيء عليم، فإني عليم بكل شيء أخبر الله به نبيه فأخبرني به...»، (مناقب آل أبي طالب، ج ٢ ص ٣٨٥). وفي رواية أيضاً: «... إذ خرج علي ﷺ فقال للشمس: كيف أصبحت يا خلق الله؟ فقالت: بخير يا أبا رسول الله يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن يا من هو بكل شيء عليم»، (بحار الأنوار، ج ٤١ ص ١٨١).

(١) عن أمير المؤمنين ﷺ: «المرءُ عدوٌّ ما جهل»، (شرح غرر الحكم، ج ١ ص ١١٦). وعنه ﷺ: «لو أخذت مائة قلوبهم كالذهب المصفى، ثم أخذت من المائة عشرة، ثم أخذت من العشرة واحداً، ثم اختبرته ببعض ما عندي فإذا لقال: عليّ أكذب العرب، وذلك لأن الناس أعداء ما جهلوه، فإذا طلع لهم باب من العلم فقصر دونه أفهامهم كذبوا قائله»، آداب النفس، ج ١ ص ٩٢.

(٢) ورد في الزيارة الرجبية: «يا باطناً في ظُهوره، وياً ظاهراً في بطنونه وَمَكُونِهِ»، (أدعية شهر رجب، مفاتيح الجنان) والمقصود بذلك اسم الله تعالى.

(٣) «إنّ تعيّناتهم ﷺ مصاديق كَلِيَّةٍ لحقيقة الولاية الكَلِيَّةِ الإلهية، فهي محيطة بجميع المصاديق الجزئية، وإنّ المصاديق الجزئية بتمام مراتبها وشؤونها تكون فعلية في عوالمهم ﷺ، وبذلك صاروا شهداء الخلق من الأولين والآخرين»، (الشموس الطالعة=

المقدسة^(١)، والأمير نفسه ينطبق على «الآخر»^(٢).

لقد قدّم أمير المؤمنين عليه السلام هذا التوضيح لأولئك الناس حتى لا يقولوا «قد كفر ابن أبي طالب». فعندما يكون الإنسان صاحب لسان غير منضبط وقلب زائع وضال^(٣) وعديم الأدب قد استحوز الكفر^(٤) على وجوده إلى هذا الحد، لا بد أن يتلقى تفسيراً كهذا.

=من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٢٩٢). «الأعيان هم العشاق الذين اضمحلّت أعيانهم في التجليات الإلهية والشؤونات الربّانية الذاتية، لا عين لها عند الذات المتجلية بها، ولا أثر ولا حكم لها في نفسها ولا خبر، بل إنّ هي إلا أحكامها وأخبارها، إذ الشؤون الذاتية منزلتها من الذات الخبر والحكاية عنها، كما كان منزلة وجه الشيء الذي هو شأنه وظله وطوره من نفس ذلك الشيء منزلة الخبر والوصف والكشف عنه، ووصف الشيء وكشفه هو ذلك الشيء بعينه، لكن بوجه الوجه والوصف والحكاية والكشف، وإلى مثل هذه النكتة اللطيفة الدقيقة كأنه يشير قول قبلة العارفين عليّ عليه السلام: تجلّى للأوهام بها، وامتنع بها عنها، فهي في وجه إنما هي صور صفات الله العليا وأسمائه الحسنى ومظاهرها، ومن ذلك الوجه أيضاً نفس أسمائه الحسنى وصفاته العليا، ومن ذلك الوجه إن هي إلا عينها أي عنت الوجوه للحقّ القيوم، وهو معكم أينما كنتم، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، إلى الله تصير الأمور، فإليه يرجع الأمر كله»، مقدمة وتعليقات مفاتيح الغيب، ص ٨٥٣ - ٨٥٤.

(١) عن الحارث الأعور، عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه دخل السوق فإذا هو برجل موليه ظهره يقول: لا والذي احتجب بالسبع، فضرب عليّ عليه السلام ظهره، ثم قال: «من الذي احتجب بالسبع؟ قال: الله يا أمير المؤمنين، قال: أخطأت ثكلتك أمك، إن الله عزّ وجلّ ليس بينه وبين خلقه حجاب لأنه معهم أينما كانوا، قال: ما كفارة ما قلت يا أمير المؤمنين؟ قال: أن تعلم أن الله معك حيث كنت، قال: أطعم المساكين؟ قال: إنما حلفت بغير ربك»، (توحيد الصدوق، ص ١٨٤)، أي أنّ الاسم الأعظم متعيّن ومتشخّص بأمر المؤمنين عليهم السلام.

(٢) عن أمير المؤمنين عليه السلام: «وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه»، (نهج البلاغة، الخطبة ١)، فهذه الصفات ترجع لاسمه وليس لذاته. وعن الصادق عليه السلام: «وهو المعنى ونحن أسماؤه المعاني»، الهداية الكبرى، صحيفة الأبرار، ج ٢ ص ٥١٨.

(٣) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾، سورة محمد، آية ٢٣.

(٤) ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾، سورة فاطر، آية ٣٩.

الكون ظل وجود أمير المؤمنين ﷺ

ثمة من احترق قلبه في هذا الباب فتكلم بكلام جميل للغاية وقال: إذا قلت لهؤلاء الناس إن الشيطان موجود في كل مكان، سيقولون: نعم، إنه في كل مكان. وحتى الآن لم يأت ولو شخص واحد ليقول: إن الله وحده هو الموجود في كل مكان، وهذا الكلام يتعارض مع التوحيد. فالله هو الحاضر والناظر في كل الأماكن! إن «الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق»^(١)، أي إنه موجود حتى في الوريد أيضاً.

أما إذا قلت للناس: إن المولى أمير المؤمنين ﷺ موجود في كل مكان^(٢)،

(١) (عوالي اللثالي، ج ١ ص ٢٧٣ ح ٩٧؛ بحار الأنوار، ج ٦٠ ص ٣٣٢). عن أبي جعفر ﷺ

قال: «إن آدم ﷺ قال: يا رب سلطت عليّ الشيطان وأجريتني مني مجرى الدم...»، (الكافي، ج ٢ ص ٤٤٠). «الشيطان يطلع على قلب المؤمن في كل يوم ٣٢٠ مرة بالوسواس والإضلال، فجعل الله شهباً من نور الولاية رجوماً للشياطين بعدد تلك النظرات، ليمحو من قلبه ما ران الشيطان، لأن من خالجه الشكوك في قلبه، وطئته الشياطين بمناسمها»، مشارق أنوار اليقين، ص ٣١٨.

(٢) قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا بِرَأْيِ اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (سورة التوبة، آية ١٠٥).

﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ (سورة البروج، آية ٢٠)، وعن صاحب الزمان ﷺ أنه قال: «فإننا نحيط علماً بأنبائكم، ولا يعزب عنا شيء من أخباركم»، (موسوعة الامام المهدي، ج ٢ ص ١٤٥). ﴿فَاتَيْنَا تُولُوا فَمَجَّهَ اللَّهُ﴾، (سورة البقرة، آية ١١٥). وعن أمير المؤمنين ﷺ:

«يا طارق الإمام كلمة الله وحجة الله ووجه الله ونور الله وحجاب الله وآية الله»، (بحار الأنوار، ج ٢٥ ص ١٦٩ - ١٧٤ ب ٤؛ مشارق أنوار اليقين، ص ١١٤ - ١١٧).

وعنه ﷺ أنه قال: «أنا أقلب في الصور كيف أشاء»، (مشارق أنوار اليقين، ص ١٧١).

فهو يظهر بأي صورة شاء، فإن شاء بصورة واحدة وإن شاء بصور متعددة، لأنه مهيمن على جميع الحدود والصور، فلا يشغله شأن عن شأن ولا حدّ عن حدّ ولا تعيّن عن تعيّن، فيتقلب في الصور كيف يشاء. فإن شاء ليس صورة النطفة واستقرّ في الأرحام والأصلاب، وإن شاء تصوّر بصورة شخص تامّ الخلقة وإن شاء اتّحد وإن شاء نزل في الأرض وإن شاء صعد إلى السماء وإن شاء وقف في الهواء وإن شاء شرّق وإن شاء غربّ وإن شاء ظهر بصورة إنسان وإن شاء ظهر بصورة الحيوانات الشريفة كالأسد وأمثاله وإن شاء بصورة الملك وإن شاء احمرّ وإن شاء اصفرّ وإن شاء ابيضّ وإن شاء اخضرّ وإن=

فسيقولون لك: لا تقل هذا الكلام، فهو يتعارض مع التوحيد. هذا يعني أن مثل هذا الإنسان هو عابد للشيطان بذاته أكثر مما هو محبّ لأمر المؤمنين عليه السلام، وذاته تشهد. إذهبوا إلى كل أولئك الذين يدعون التشيع ^(١) وقلوا لهم إن أمير المؤمنين عليه السلام يحضر عند كل من يموت ^(٢). سيقولون لكم: كيف يكون ذلك؟

= شاء ظهر بالرجولية وإن شاء عاد إلى الطفولية وإن شاء مرض وإن شاء صحّ وإن شاء مات وإن شاء حيي وإن شاء شبّ وإن شاء هرم وإن شاء خفي وإن شاء ظهر وإن شاء غاب وإن شاء حضر، إلى غير ذلك من الحالات والأطوار الوجودية. وبالجملة، لا يمنعه حدّ عن حدّ ولا طور عن طور، فيمكن أن يظهر بجسمه الشريف في آن واحد في أمكنة غير محصورة كما أفطر أمير المؤمنين عليه السلام في ليلة واحدة في أربعين مكاناً ومع ذلك كان عند الله تعالى في العرش. وأما سائر المؤمنين، فلهم أيضاً أن يظهروا بصور متعددة إذا أخلصوا في اتباعهم عليه السلام وتشبهوا بهم في الأعمال والأخلاق، لأنّ أصل أجسامهم أيضاً نظيفة روحانية مأخوذة من تراب الجنة، فيظهرون في أي مكان شاؤوا، بأيّ صورة شاؤوا، غير أن هذا يحصل في الدنيا لقليل من المؤمنين وهم الخصيصون.

(١) عن أبي جعفر محمد بن عليّ صلوات الله عليهما أنه قال: «لو قد قام قائمنا بدأ بالذين ينتحلون حبنا فيضرب أعناقهم»، (معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام، ج ٣ ص ٣٠٤ ح ٨٤٢). وعن الإمام الصادق عليه السلام: «فإذا خرج القائم من كربلاء وأراد النجف والناس حوله، قتل بين كربلاء والنجف ستة عشر ألف فقيه، فيقول الذين حوله من المنافقين: إنه ليس من ولد فاطمة وإلا لرحمهم، فإذا دخل النجف وبات فيه ليلة واحدة، فخرج منه من باب النخيلة محاذي قبر هود وصالح، استقبله سبعون ألف رجل من أهل الكوفة يريدون قتله، فيقتلهم جميعاً فلا ينجي منهم أحد»، (كتاب نور الأنوار، ج ٣؛ مجمع النورين وملتقى البحرين، ص ٣٤). وعن إبراهيم بن عبد الحميد، قال: أخبرني من سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إذا خرج القائم عليه السلام خرج من هذا الأمر من كان يرى أنه من أهله ودخل فيه شبه عبدة الشمس والقمر»، غيبة النعماني، ص ٣١٧ ح ١.

(٢) ﴿وَكَاذِبٌ يَوْمَ الَّذِينَ * حَتَّىٰ أَتَنَّا آلَيْفِينَ﴾، (سورة المدثر، آية ٤٦ - ٤٧). يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «يا حار همدان، من يمُت يَرني من مؤمنٍ أو منافقٍ قبلاً»، (بحار الأنوار، ج ٣٩ ص ٢٤١). وقال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «إني ومن يجري مجراي من الأئمة لا بدّ لنا من حضور جنازكم في أيّ بلد كنتم فاتقوا الله في أنفسكم»، (مناقب ابن شهر آشوب، ج ٤ ص ٢٩٢). إن أمير المؤمنين عليه السلام هو «صاحب الولاية المطلقة الكلية والولاية باطن الخلافة... فهو عليه السلام بمقام ولايته الكلية قائم على كل نفس بما =

فواحدٌ يموت في المشرق وآخر في المغرب. ولكنَّ الحقيقة أنه ليس فقط يحضر عند كل من يموت، بل إن هذا الكون^(١) بأسره ما هو إلا شعاعٌ لوجوده^(٢)، ولا يعدو كونه ظلاً لوجوده المقدس ﷺ^(٣).

صاحب بيعة الغدير تنزيل العزيز الحكيم

لقد أمر الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ بالصلاة. ويقول النبي الأكرم: «صلوا كما رأيتموني أصلي»^(٤). فأبعاد الصلاة غير مذكورة في القرآن، حيث لم يرد أنها

=كسبت، ومع كل الأشياء معية قيومية ظلّية إلهية، ظل المعية القيومية الحقّة الإلهية»، (مصباح الهداية، ص ١٤٢). ﴿أَمَّنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾، سورة الرعد، آية ١٣٠.

(١) «إن للإمام خلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون»، الحكومة الإسلامية، ص ٥٢.

(٢) ورد عنهم ﷺ: «وفتق من نور عليّ الخلائق أجمعين»، (بحار الأنوار، ١/٢٦). كما قالوا: «نحن عين الوجود، وحجة المعبود ولا يقبل الله عمل عامل جهل حقنا»، (مشارك أنوار اليقين، ص ٧٣ - ٧٤). من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «كلّ هذا العالم هو شعاع نور الولي ولكن من شدّة الظهور لا يمكن رؤية هذا النور».

(٣) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ كلّ الموجودات وكلّ ما سوى الله هو الظل الممدود للحقّ تعالى... إنّ وجود الولي المطلق هو ذو الظل، سواء عبّر عنه بالحقيقة المحمدية أو الحقيقة العلوية أو الفاطمية والحسنية والحسينية إلى الحقيقة المهدوية، فإنّها كلّها ذو الظل»، انتهى. «الوجود المطلق الساري في الأعيان الإمكانية هو مادة مواد الحقائق الإمكانية. وما يتحقّق في الخارج هو سنخ الوجود، ولو أنّ الوجود الإمكانية هو وجودٌ ظليّ»، مقدّمة كتاب مصباح الهداية، جلال الدين الآشتياني، ص ٢٣٥.

(٤) (بحار الأنوار، ج ٨٥ ص ٢٧٩). من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «(صلوا كما رأيتموني أصلي)، وهذا أمرٌ بالصيرورة واحداً معه، وهذا التوحيد والوحدة في الظاهر لهما من الأثر بحيث يسريان إلى الباطن، فتتحقّق الوحدة في الباطن كما في الظاهر»، ويقول دام ظلّه: «عندما يجد الموالي أنّ الرسول الأكرم ﷺ يصلي، ويجد أنّ أمير المؤمنين ﷺ يصلي والإمام الحسن ﷺ يصلي، فإنّه يصلي لأجل هذا».

من ركعتين أو أربع أو أنه ينبغي قراءة سورة الفاتحة مع سورة أخرى ثم الركوع والسجود مرتين ثم التشهد. لم يُذكر أيُّ من هذا في القرآن، بل ذكره رسول الله والأئمة صلوات الله عليهم أجمعين.

خوِط رسول الله بالقول: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾^(١)، بَلِّغْ عن ولاية عليٍّ عليه السلام، ولكن لم تُذكر الكيفية أيضاً. فقام رسول الله ﷺ، أولاً، باختيار يوم خاص، الثامن عشر من ذي الحجة، كما اختار وقتاً خاصاً، قبل ساعة من ظهر ذلك اليوم. وطلب من الجميع الحضور والتجمع، ثم صُنِعَ له منبر من أحداج الإبل، فارتقاه وأخذ يتحدث عن عليٍّ عليه السلام. في الواقع، لم يتبقَّ للشيعة سوى أمرين، وما لم يكن هذان الأمران عند الشيعة، فليس عنده شيء على الإطلاق. الأول هو عاشوراء والثاني هو الغدير. وقد أخذت عاشوراء رونقها فالكل قبل بها. أما واقعة الغدير فلا يزال لونها خافتاً، وعلينا أن نُبرزه. وقد قال رسول الله ﷺ: فليبلغ الشاهد الغائب^(٢)، أي أنه طلب ممن يشهدون الحدث أن يبلغوا من يأتون في ما بعد، ليفعلوا الأمر نفسه.

(١) (سورة المائدة، آية ٦٧). نزلت هذه الآية الشريفة يوم الثامن عشر من ذي الحجة سنة حجة الوداع لما بلغ النبي الأعظم ﷺ غدير خم، فأناه جبرئيل بها على خمس ساعات مَضَتْ من النهار فقال: «يا محمد، إن الله يُقرِّوك السلام ويقول لك: يا أيها الرسول بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ - في عليٍّ - وإن لم تفعل فما بَلَّغْتَ رسالته، الآية»، (الغدير، ج ١ ص ٢١٤). قال الإمام الرضا عليه السلام: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي قَبُولِهِمْ وِلاَءَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام في يوم غدير خم كَمَثَلِ الْمَلَائِكَةِ فِي سَجُودِهِمْ لِأَدَمَ عليه السلام»، ومَثَلُ مَنْ أْبَى ولاية أمير المؤمنين عليه السلام في يوم الغدير مثل إبليس»، إقبال الأعمال، ج ٢ ص ٢٦٢؛ زاد المعاد، ص ٢٠٥.

(٢) من خطبة رسول الله ﷺ في حجة الوداع في غدير خم: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَلَا فِي تَوْحِيدِهِ وَدَنَا فِي تَقَرُّدِهِ وَجَلَّ فِي سُلْطَانِهِ وَعَظَّمَ فِي أَرْكَانِهِ، وَأَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً وَهُوَ فِي مَكَانِهِ، وَقَهَرَ جَمِيعَ الْخَلْقِ بِقُدْرَتِهِ وَبِرْهَانِهِ... أَسْمَعُ لِأَمْرِهِ وَأَطِيعُ وَأَبْأَدِرُّ إِلَى كُلِّ مَا يَرْضَاهُ وَأَسْتَسْلِمُ لِمَا قَضَاهُ... وَأَقِرُّ لَهُ عَلَى نَفْسِي بِالْعُبُودِيَّةِ، وَأَشْهَدُ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَأُوَدِّي مَا أَوْحَى بِهِ إِلَيَّ، حَذْراً مِنْ أَنْ لَا أَفْعَلَ فَتَجَلَّ بِي مِنْهُ قَارِعَةٌ لَا يَدْفَعُهَا عَنِّي أَحَدٌ وَإِنْ عَظُمَتْ حِيلَتُهُ وَصَفَتْ خُلَّتُهُ؛ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. لِأَنَّهُ قَدْ أَعْلَمَنِي أَنِّي إِنْ لَمْ أُبَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيَّ فِي حَقِّ عَلِيِّيٍّ فَمَا بَلَّغْتُ رِسَالَتَهُ، وَقَدْ ضَمِنَ لِي تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْعِصْمَةَ مِنَ النَّاسِ وَهُوَ اللَّهُ الْكَافِي=

=الْكَرِيمُ. فَأَوْحَى إِلَيَّ: ﴿يَسْمِعُ اللَّهُ الْخَفِيَّ الْخَصِيمَ﴾. مَعَاشِرَ النَّاسِ، مَا قَصَّرْتُ فِي تَبْلِيغِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيَّ، وَأَنَا أُبَيِّنُ لَكُمْ سَبَبَ هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّ جَبْرِئِيلَ هَبَطَ إِلَيَّ مَرَارًا ثَلَاثًا يَأْمُرُنِي عَنِ السَّلَامِ رَبِّي - وَهُوَ السَّلَامُ - أَنْ أَقُومَ فِي هَذَا الْمَشْهَدِ فَأُعَلِّمَ كُلَّ أَبِيضٍ وَأَسْوَدَ: أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ أَخِي وَوَصِيِّي وَخَلِيفَتِي عَلَى أُمَّتِي وَالْإِمَامُ مِنْ بَعْدِي، الَّذِي مَحَلُّهُ مِنِّي مَحَلُّ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَهُوَ وَلِيُّكُمْ بَعْدَ اللَّهِ وَرَسُولُهُ. وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيَّ بِذَلِكَ آيَةً مِنْ كِتَابِهِ هِيَ: ﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾، وَعَلَيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي أَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَهُوَ رَاكِعٌ يُرِيدُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كُلِّ حَالٍ. وَسَأَلْتُ جَبْرِئِيلَ أَنْ يَسْتَعْفِيَ لِي السَّلَامَ عَنْ تَبْلِيغِ ذَلِكَ إِلَيْكُمْ - أَيُّهَا النَّاسُ - لِعِلْمِي بِقِلَّةِ الْمُتَّقِينَ وَكَثْرَةِ الْمُنَافِقِينَ وَإِدْغَالِ اللَّائِمِينَ وَحِيلِ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالْإِسْلَامِ، الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ بِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ بِالنَّبِيِّينَ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَيَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ، وَكَثْرَةَ أَذَاهُمْ لِي غَيْرَ مَرَّةٍ، حَتَّى سَمَوْنِي أَذْنًا وَرَعَمُوا أَتِي كَذَلِكَ لِكَثْرَةِ مُلَارَمَتِهِ إِيَّايَ وَإِقْبَالِي عَلَيْهِ وَهَوَاهُ وَقَبُولِهِ مِنِّي، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾. وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَسْمِيَ الْفَائِلِينَ بِذَلِكَ بِأَسْمَائِهِمْ لَسَمَّيْتُ، وَأَنْ أَوْمِئَ إِلَيْهِمْ بِأَعْيَانِهِمْ لَأَوْمَأْتُ، وَأَنْ أَدُلَّ عَلَيْهِمْ لَدَلْتُ، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ فِي أُمُورِهِمْ قَدْ تَكَرَّمْتُ. وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يَرْضَى اللَّهُ مِنِّي إِلَّا أَنْ أَبْلُغَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيَّ فِي حَقِّ عَلِيٍّ، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ - فِي حَقِّ عَلِيٍّ - ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾... مَا مِنْ عِلْمٍ إِلَّا وَقَدْ أَحْصَاهُ اللَّهُ فِيَّ، وَكُلُّ عِلْمٍ عَلَّمْتُ فَقَدْ أَحْصَيْتُهُ فِي إِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَمَا مِنْ عِلْمٍ إِلَّا وَقَدْ عَلَّمْتُهُ عَلِيًّا، وَهُوَ الْأَمَامُ الْمُبِينُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي سُورَةِ يَس: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾. مَعَاشِرَ النَّاسِ، لَا تَضِلُّوا عَنْهُ وَلَا تَنْفَرُوا مِنْهُ، وَلَا تَسْتَنْكِفُوا عَنْ وَلَايَتِهِ، فَهُوَ الَّذِي يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَيَعْمَلُ بِهِ، وَيُزْهِقُ الْبَاطِلَ وَيَنْهَى عَنْهُ، وَلَا تَأْخُذْهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ. أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِي أَحَدٌ، وَالَّذِي قَدَى رَسُولَ اللَّهِ بِنَفْسِهِ، وَالَّذِي كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا أَحَدٌ يَعْبُدُ اللَّهَ مَعَ رَسُولِهِ مِنَ الرِّجَالِ غَيْرُهُ... مَعَاشِرَ النَّاسِ، فَضَّلُوهُ فَقَدْ فَضَّلَهُ اللَّهُ، وَاقْبَلُوهُ فَقَدْ نَصَبَهُ اللَّهُ. مَعَاشِرَ النَّاسِ، إِنَّهُ إِمَامٌ مِنَ اللَّهِ، وَلَنْ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَى أَحَدٍ أَنْكَرَ وَلَايَتَهُ وَلَنْ يَغْفِرَ لَهُ... فَاحْذَرُوا أَنْ تُخَالِفُوهُ، فَتَضِلُّوا نَارًا وَقُودَهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ... مَلْعُونٌ مَلْعُونٌ، مَغْضُوبٌ مَغْضُوبٌ مَنْ رَدَّ عَلَيَّ قَوْلِي هَذَا وَلَمْ يُؤَافِقْهُ. أَلَا إِنَّ جَبْرِئِيلَ خَبَّرَنِي عَنِ اللَّهِ تَعَالَى بِذَلِكَ وَيَقُولُ: «مَنْ عَادَى عَلِيًّا وَلَمْ يَتَوَلَّهُ فَعَلَيْهِ لَعْنَتِي وَعَظْمِي»، ﴿وَلَتَنْظُرَنَّهُ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾. مَعَاشِرَ النَّاسِ، إِنَّهُ جَنْبُ اللَّهِ الَّذِي ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، فَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّنْ يُخَالِفُهُ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ﴾... إِنْ مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا عَلِيٌّ مَوْلَاهُ، وَهُوَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَخِي وَوَصِيِّي، وَمَوْلَاتُهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْزَلَهَا عَلَيَّ... ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ أَوْلَى بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ؟ قَالُوا: اللَّهُ=

المقام الشامخ لأبي طالب عليه السلام

على من يريد الوصول إلى ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، أن لا ينسى حضرة أبي

=وَرَسُولُهُ. فَقَالَ: أَلَا فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا عَلَيَّ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ وَأَنْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ وَاحْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ... اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ وَأَنْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ وَاحْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ وَالْعَنْ مَنْ أَنْكَرَهُ وَاعْظِبْ عَلَى مَنْ جَحَدَ حَقَّهُ. اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَنْزَلْتَ الْآيَةَ فِي عَلَيٍّ وَلَيْكَ عِنْدَ تَبْيِينِ ذَلِكَ وَنَصْبِكَ إِلَيْهِ لِهَذَا الْيَوْمِ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، وَقُلْتُ: ﴿إِنَّ الْوَيْلَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾، وَقُلْتُ: ﴿هُوَ مِنِّي﴾. اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُكَ أَنِّي قَدْ بَلَغْتُ. مَعَاشِرَ النَّاسِ، إِنَّمَا أَكْمَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ دِينَكُمْ بِإِمَامَتِهِ. فَمَنْ لَمْ يَأْتَمْ بِهِ وَبِمَنْ يَقُومُ مَقَامَهُ مِنْ وَلَدِي مِنْ صَلْبِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالْعَرْضِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ، ﴿لَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُظْرَوْنَ﴾... وَمَا نَزَلَتْ آيَةُ رِضَى فِي الْقُرْآنِ إِلَّا فِيهِ، وَلَا خَاطَبَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَّا بَدَأَ بِهِ، وَلَا نَزَلَتْ آيَةُ مَدَحٍ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا فِيهِ، وَلَا شَهِدَ اللَّهُ بِالْجَنَّةِ فِي ﴿هَذَا أَقْبَلُ عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ إِلَّا لَهُ، وَلَا أَنْزَلَهَا فِي سِوَاهُ وَلَا مَدَحَ بِهَا غَيْرُهُ... إِنَّ إِبْلِيسَ أَخْرَجَ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ بِالْحَسَدِ، فَلَا تَحْسُدُوهُ فَتَحْبِطَ أَعْمَالُكُمْ وَتَزُولَ أَفْدَامُكُمْ... أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَبْغِضُ عَلِيًّا إِلَّا شَقِيٌّ، وَلَا يُوَالِي عَلِيًّا إِلَّا تَقِيٌّ، وَلَا يُؤْمِنُ بِهِ إِلَّا مُؤْمِنٌ مُخْلِصٌ... فَلْيَعْمَلْ كُلُّ امْرِئٍ عَلَى مَا يَجِدُ لِعَلِيٍّ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْحُبِّ وَالْبُغْضِ... الثَّوْرُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَسْلُوكٌ فِيَّ، ثُمَّ فِي عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، ثُمَّ فِي النَّسْلِ مِنْهُ إِلَى الْقَائِمِ الْمَهْدِيِّ الَّذِي يَأْخُذُ بِحَقِّ اللَّهِ وَيَكُلُّ حَقَّ هُوَ لَنَا... وَسَيَجْعَلُونَ الْأَمَّةَ بَعْدِي مُلْكًا وَاعْتَصَابًا، أَلَا لَعَنَ اللَّهُ الْغَاصِبِينَ الْمُعْتَصِبِينَ، وَعِنْدَهَا سَيَفْرُغُ لَكُمْ أَهْلُ الثَّقَلَانِ مَنْ يَفْرُغُ، وَيُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظُ مِنَ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ... إِنَّهُ مَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَاللَّهُ مُهْلِكُهَا بِتَكْذِيبِهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمُمْلِكُهَا الْأَمَامَ الْمَهْدِيِّ وَاللَّهُ مُصَدِّقٌ وَعْدُهُ... إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَرَنِي وَنَهَانِي، وَقَدْ أَمَرْتُ عَلِيًّا وَنَهَيْتُهُ بِأَمْرِهِ. فَعَلِمَ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ لَدَيْهِ، فَاسْمَعُوا لِأَمْرِهِ تَسْلِمُوا وَأَطِيعُوا تَهْتَدُوا وَأَنْتَهُوا لِنَهْيِهِ تَرْشُدُوا... ﴿يَسْمِعُ اللَّهُ الْمُخْتَصِرَ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فِي نَزَلَتْ وَفِيهِمْ وَاللَّهُ نَزَلَتْ... حِجُّوا الْبَيْتَ، فَمَا وَرَدَهُ أَهْلُ بَيْتٍ إِلَّا اسْتَغْنَوْا وَأُبْشِرُوا، وَلَا تَخَلَّفُوا عَنْهُ إِلَّا بُتِرُوا وَافْتَقَرُوا... إِنَّ فَضَائِلَ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ - وَقَدْ أَنْزَلَهَا فِي الْقُرْآنِ - أَكْثَرُ مِنْ أَنْ أُحْصِيَهَا فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ، فَمَنْ أَنْبَأَكُمْ بِهَا وَعَرَفَهَا فَصَدَّقُوهُ...»، خطبة الغدير لمحمد باقر الأنصاري، ص ٢٧.

طالب عليه السلام ^(١). فمجرى ^(٢) الوصول إلى ولاية علي عليه السلام هو مقام الأبوة الشامخ

(١) سأل أحدهم الإمام علي عليه السلام في رحبة الكوفة فقال: يا أمير المؤمنين، إنك بالمكان الذي أنزلك الله، وأبوك معذب في النار؟! فقال له: «مه، فض الله فاك!! والذي بعث محمداً بالحق نبياً، لو شُفّع أبي في كل مذنب على وجه الأرض لشفعه الله فيهم! أبي معذب في النار، وابنه قسيم الجنة والنار؟! ثم قال: والذي بعث محمداً عليه السلام إن نور أبي طالب يوم القيامة ليطفئ أنوار الخلق إلا خمسة أنوار: نور محمد، ونوري، ونور فاطمة، ونور الحسن والحسين، ومن ولدته من الأئمة، لأن نوره من نورنا الذي خلقه الله تعالى من قبل أن يخلق آدم بألفي عام»، (أمالي الطوسي، ج ١ ص ٣١١ - ٣١٢). أبو بصير ليث المرادي قال: «قلت لأبي جعفر عليه السلام: سيدي، إن الناس يقولون: إن أبا طالب في ضحضاح من نار يغلي منه دماغه! فقال عليه السلام: كذبوا، والله إن إيمان أبي طالب لو وضع في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في كفة لرجح إيمان أبي طالب على إيمانهم. ثم قال: كان والله أمير المؤمنين يأمر أن يحجّ عن أب النبي وأمه عليهما السلام وعن أبي طالب في حياته، ولقد أوصى في وصيته بالحجّ عنهم بعد مماته»، (بحار الأنوار، ج ٣٥ ص ١١١). عن محمد بن عبد الله بن مسكان، عن أبيه قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إن فاطمة بنت أسد جاءت إلى أبي طالب لتبشّره بمولد النبي عليه السلام فقال أبو طالب: إصبري سبتاً [آتيك] أبشرك بمثله إلا النبوة. وقال: السبت ثلاثون سنة، وكان بين رسول الله عليه السلام وأمير المؤمنين عليه السلام ثلاثون سنة»، (أصول الكافي، ج ١ ص ٤٥٢ - ٤٥٣). إن فضل أبي طالب عليه السلام على دين الإسلام لا يضاهيه فضل فهو الذي حين توفي، أتى جبرائيل عليه السلام إلى رسول الله عليه السلام ليخبره عن الله تعالى بأن: «أخرج منها - أي من مكة - فقد مات ناصرك!»، فلقد كان أبو طالب عليه السلام ناصر النبي الأعظم عليه السلام بتوصيف الله عز وجل. ولم يكن ناصر فحسب، بل إنه ومنذ عهد طفولة الرسول عليه السلام، آواه يتيم الأب والأم، ورباه ورعاه ثم نصره فيما بعد عند نزول رسالة الإسلام عليه عليه السلام. إذاً، فأبو طالب عليه السلام هو تعيّن وتشخص الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَكَوَىٰ﴾ (سورة الضحى، آية ٦)، وكلّ يتيم من أيتام آل محمد عليه السلام قد تمّ إيوأه والتحنّ عليه فهو بالواقع مدينٌ لأبي طالب عليه السلام لأنّ هذه المسألة متعيّنة به على وجه الخصوص. أمّا من لم يجد المأوى والملاذ بعد، فما عليه إلا التوسّل بناصر رسول الله عليه السلام وهو يتكفّل بآيوائه.

(٢) الإمام عليه السلام له مطالع ومجاري، «وخلقت بها الكواكب وجعلتها نجومًا وبروجًا ومصابيح وزينةً ورُجومًا، وجعلت لها مشارق ومغارب وجعلت لها مطالع ومجاري، وجعلت لها فلَكًا ومسابح وقدّرتها في السماء منازل فأحسنّت تقديرها»، (دعاء السمات، مفاتيح الجنان)، كما أنّ له منازل مثل القمر، ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾، سورة يس، آية ٣٩.

لحضرة أبي طالب. غير أن الشيعة كلهم غافلون عن هذه المسألة. ولأبي طالب أعظم حق في عنق رسول الله ﷺ من الخلق أجمع. ولولا وجوده، لما حظينا بأمير المؤمنين (عليه السلام) في الظهور. فمن أسباب الظهور العلوي، ذلك الأب، واسمه المبارك عمران أو عبد مناف، وتلك الأم، واسمها فاطمة بنت أسد^(١). ألا نخجل من قولنا إننا شيعة أمير المؤمنين (عليه السلام) مع هذا الظلم والتجني الذي ألحقه التاريخ بأبي طالب (عليه السلام) بتوجيهه كلاماً خاطئاً ولا أساس له من الصحة إليه^(٢)؟ أتظنون أن سبب تعاستنا هو الأوضاع الاقتصادية أو السياسية أو غير ذلك من الأمور؟ لا أبداً، إنما مردّ تعاستنا إلى عدم معرفتنا^(٣) بآل محمد ﷺ.

وعندما أراد الله تبارك وتعالى أن يعرف عن الولاية في حديث السلسلة الذهبية القدسي، الذي هو على قدر كبير من العظمة، بحيث ينقله كبار المحدثين الشيعة مع سنده، لم يقل الله تبارك وتعالى: ولاية عليّ حصني، بل قال: «ولاية عليّ بن أبي طالب حصني». فوالده، أبو طالب (عليه السلام)، مُتضمن في هذا المطلب. ومثلما أنّ أبا الفضل وعليّ الأكبر وعليّ الأصغر والسيدة زينب (عليها السلام) من أركان وأساس وأصل حادثة نينوى، كما نقبلهم بكل وجودنا، فكذلك أبو طالب هو أصل في مسألة ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام). وعندما وُلد ذلك المولود^(٤)، نادى أبو

(١) روى الحاكم النيسابوري: «لَمَّا مَاتَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ أَسَدَ بْنِ هَاشِمٍ كَفَّنَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي قَمِيصِهِ وَصَلَّى عَلَيْهَا وَكَبَّرَ عَلَيْهَا سَبْعِينَ تَكْبِيرَةً وَنَزَلَ فِي قَبْرِهَا فَجَعَلَ يَوْمِي فِي نَوَاحِي الْقَبْرِ كَأَنَّهُ يَوْسَعُهُ وَيُسَوِّي عَلَيْهَا وَخَرَجَ مِنْ قَبْرِهَا وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ وَحُثَا فِي قَبْرِهَا... فَقَالَ: ... إِنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ كَانَتْ أُمِّيَ الَّتِي وَلَدْتَنِي...»، مستدرک الحاكم، ج ٣ ص ١٠٨.

(٢) «إِذَا كَانَ السُّلْطَانُ مَجْهُولاً خَارِجَ دِيَارِهِ، فَلَا تَغْتَمُّ فَهَكَذَا الْحَالُ أَيْضاً دَاخِلَ دِيَارِهِ (بَيْنَ الشَّيْعَةِ)»، منطق الطير، ص ٢١٥.

(٣) «وَأَجْعَلْ أَوْسَعَ أَزْوَاقِنَا عِنْدَ كِبَرِ سِنِّنَا، وَأَحْسَنَ أَعْمَالِنَا عِنْدَ اقْتِرَابِ آجَالِنَا، وَأَطْلُ فِي طَاعَتِكَ وَمَا يُقَرِّبُ إِلَيْكَ وَيُحْظِي عِنْدَكَ وَيُزِلُّ لَدَيْكَ أَعْمَارَنَا، وَأَحْسِنْ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِنَا وَأُمُورِنَا مَعْرِفَتِنَا»، من أدعية ليلة ويوم المبعث في كتاب البلد الأمين.

(٤) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ تَحَقِّقَ وَلَادَتَهُ فِي وَجُودِنَا، فَإِنَّ الْكَعْبَةَ هِيَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ وَبَيْتُ اللَّهِ هُوَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ، وَعِنْدَمَا يَنْكَسِرُ هَذَا الْقَلْبُ وَيَتَشَقَّقُ وَيَسْتَقِرَّ الْغَمُّ فِي عَمَقِهِ وَتَجْلِسُ الْغَصَّةُ فِي الْفُؤَادِ، عِنْدَهَا يَتَوَلَّدُ أَمِيرٌ =

طالب عليه السلام قائلاً: «يا ربّ، يا ذا الغسق الدجي والقمر المبتلج المضيّ، بينّ لنا من حكمك المقضيّ، ماذا ترى في إسم ذا الصبيّ». وإذا بلوح كُتب فيه: «سمّه عليّاً، عليّ اشتق من العليّ»^(١). فأيّ ارتباط كان يحظى به أبو طالب عليه السلام؟^(٢) وأيّ موحد تامّ كان وما عرّفه أحد؟ لقد طلب من الله تعالى أن يحدّد اسماً لمولوده! فجاءه الجواب فوراً، فمن يكون أبو طالب هذا؟!

مُحَمَّدٌ طَالِبٌ

=المؤمنين عليهم السلام، فعندما تقول (يا عليّ) بكلّ حرقة قلب ذائق للغصة والغمّ والهَمّ، عند ذلك يتولّد الوليّ من قلبك». وفي موضع آخر يقول سماحته: «عندما يصل عملك وسعيك إلى سدّ يمنع من تحقّق ما تريد وتقول (يا عليّ)، عند ذلك يتولّد أمير المؤمنين عليه السلام في وجودك، وهذه هي المعرفة».

(١) المناقب، ج ٢ ص ١٧٤؛ الفضائل، ص ٥٧.

(٢) عن محمّد بن يونس، عن أبيه، عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «يا يونس ما تقول الناس في أبي طالب؟ قلت: جعلت فداك يقولون: هو في ضحضاح من نار، وفي رجليه نعلان من نار تغلي منهما أمّ رأسه! فقال: كذب أعداء الله! إنّ أبا طالب من رفقاء النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً»، (بحار الأنوار، ج ٣٥ ص ١١١).
عن عليّ بن حسان، عن عمّه عبد الرحمن بن كثير قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّ الناس يزعمون أنّ أبا طالب في ضحضاح من نار! فقال: كذبوا، ما بهذا نزل جبرئيل على النبيّ صلى الله عليه وآله. قلت: وبما نزل؟ قال: أتى جبرئيل في بعض ما كان عليه فقال: يا محمّد، إنّ ربّك يقرؤك السلام ويقول لك: إنّ أصحاب الكهف أسروا الإيمان وأظهروا الشك، فاتاهم الله أجراً مرتين، وإنّ أبا طالب أسر الإيمان وأظهر الشك فاتاه الله أجراً مرتين، وما خرج من الدنيا حتّى أتته البشارة من الله تعالى بالجنّة. ثمّ قال عليه السلام: كيف يصفونه بهذا وقد نزل جبرئيل ليلة مات أبو طالب فقال: يا محمّد، أخرج من مكّة فما لك بها ناصر بعد أبي طالب؟»، المصدر نفسه.

الفيض الثامن

مقاما الإستغراق والفناء

إن أعلى مسألة معنوية وأسمى حقيقة موجودة في عالم الوجود هي التوحيد^(١). ومن أجل إدراك التوحيد، ينبغي أن يتوفر في الموحد مقامان ألا

(١) قال أبو محمد الحسن العسكري عليه السلام: «إن رجلاً جاء إلى علي بن الحسين عليه السلام برجل يزعم أنه قاتل أبيه، فاعترف، فأوجب عليه القصاص، وسأله أن يعفو عنه ليعظم الله ثوابه فكأن نفسه لم تطب بذلك، فقال علي بن الحسين عليه السلام للمدعي للدم الولي المستحق للقصاص: إن كنت تذكر لهذا الرجل عليك فضلاً فهب له هذه الجناية واغفر له هذا الذنب. قال: يا ابن رسول الله له علي حق ولكن لم يبلغ أن أعفو له عن قتل والدي. قال: فتريد ماذا؟ قال: أريد القود، فإن أراد لحقه علي أن اصالحه على الدية صالحته وعفوت عنه، فقال علي بن الحسين عليه السلام: فماذا حقه عليك؟ قال: يا ابن رسول الله، لقّني توحيد الله ونبوة محمد رسول الله وإمامة علي والأئمة عليهم السلام، فقال علي بن الحسين عليه السلام: فهذا لا يفي بدم أبيك؟ بلى والله هذا يفي بدماء أهل الأرض كلهم من الأولين والآخرين سوى الأنبياء والأئمة عليهم السلام إن قتلوا، فإنه لا يفي بدمائهم شيء أن يقنع منه بالدية. قال: بلى. قال علي بن الحسين للقاتل: أفتجعل لي ثواب تلقينك له حتى أبذل لك الدية فتنجو بها من القتل؟ قال: يا ابن رسول الله أنا محتاج إليها، وأنت مستغن عنها فإن ذنوبي عظيمة، وذنبي إلى هذا المقتول أيضاً بيني وبينه لا بيني وبين وليه هذا. قال علي بن الحسين عليه السلام: فتستسلم للقتل أحب إليك من نزولك عن هذا التلقين؟ قال: بلى، يا ابن رسول الله. فقال علي بن الحسين لولي المقتول: يا عبدالله، قابل بين ذنب هذا إليك وبين تطوّله عليك، قتل أباك حرمة لذة الدنيا وحرملك التمتع به فيها، على أنك إن صبرت وسلمت فرفيقك أبوك في الجنان، ولقّنتك الإيمان فأوجب لك به جنة الله الدائمة وأنقذك من عذابه الدائم، فأحسنه إليك أضعاف أضعاف جنايته عليه، فإما أن تعفونه جزاءً على إحسانه إليك لأحدثكما بحديث من فضل رسول الله صلى الله عليه وآله خير لك من الدنيا بما فيها، وإما أن تأبى أن تعفونه حتى أبذل لك=

وهما الاستغراق والفناء. هذان المقامان هما واحد بنظر الموحد البصير ولكن في حيثيتين، الأولى يقال لها استغراق والثانية فناء، وإلا فالإثنان مادة لمعنى واحد.

ويصل الموحد إلى مقام التوحيد عندما يتحقق له الاستغراق والفناء. ويتحقق هذان المقامان من خلال ثلاث مقدمات معنوية. الأولى هي العبادة، حيث توصل العبادة الصحيحة الإنسان إلى الاستغراق والفناء. والثانية هي الذكر، فالذكر^(١) الصحيح يمكن الوصول إلى هذا المقام. وأما الثالثة فهي الأكثر تأثيراً والأقل خطورة مقارنةً بسابقتها، كما أن شروطها أسهل وضمانتها أقوى وأؤكد، ألا وهي العشق والمحبة. فإذا عشق المرء الحق، ينال هذه الدرجة وهذا المقام، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾^(٢).

إذا أصبحت العبادة وشرائطها ملكة عند الإنسان، يمكن لها أن تحقق الإستغراق والفناء. وإذا أدى الذكر إلى اتحاد الذاكر والمذكور، يمكن له أيضاً تحقيق هذين المقامين.

ولكن العشق ليس كذلك، لأن العشق يتضمن في داخله الاستغراق والفناء. فالعاشق الحق^(٣) لا يحصل الإستغراق أولاً ومن ثم يصل إلى الفناء بالعشق، بل

=الدّية لتصالحه عليها، ثم أخبرته بالحديث دونك فلما يفوتك من ذلك الحديث خير من الدنيا بما فيها لو اعتبرت به. فقال الفتى: يا ابن رسول الله، قد عفوت عنه بلا دية ولا شيء إلا ابتغاء وجه الله ولمسألتك في أمره، فحدّثنا يا ابن رسول الله بالحديث. قال عليّ بن الحسين عليه السلام: إن رسول الله صلى الله عليه وآله لما بُعث إلى الناس كافة بالحق بشيراً ونذيراً...»، بحار الأنوار، ج ٢ ص ١٢ - ١٣.

(١) يقول بايزيد البسطامي: «ذكرته بقدر ذكر الخلق كله إلى أن صار ذكري ذكره، فهاجت معرفته فيّ حتى ففيت، ثم هاجت كرة أخرى فحييت»، خمسة من العرفاء، ص ١١٢.

(٢) (سورة البقرة، آية ١٦٥). قال النبي صلى الله عليه وآله: «يا عليّ، حبّك إيمان وبغضك نفاق»، (إحقاق الحق، ج ٧ ص ٢١٣)، فتحصل أنّ الذين يحبّون علياً أشدّ حباً لله.

(٣) «إنّ العاشق الحقّ هو الذي يعشق شيئاً ثابتاً لا يتلوّن ولا يتغيّر... وإنّ عشق الذهب يصيب الإنسان بالهموم والبلايا... والعاشق يفضّل المعشوق على كل ما عداه من نعيم وملك وأموال... والعاشق الحقّ هو الذي يتخلّى عن روحه طواعية من أجل محبوبه... والعشق الإلهي يشغل العاشق عن الاهتمام بأمور الغير»، (منطق الطير، ص ٩٢ - ٩٣). إنّ العشاق على مراتب، فالعاشق الحائر على المرتبة الأولى في العشق، لا يكون عنده =

إن الإثنين معاً يتمركزان داخله بواسطة العشق وليس الهوى^(١)، فنحن لا نتكلم هنا عن الهوى إنما عن العشق^(٢).

كيف تكون الصلاة حقيقية؟

لهذه المسألة آثار كما هو الحال مع كل المسائل المعنوية. مثلاً، إن الصلاة الصحيحة ﴿تَهَيَّ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(٣)، فإذا أردنا أن نعرف إن كنا نوّدي الصلاة على نحوٍ صحيحٍ وجيّد وإن كانت هذه الصلاة مقبولة^(٤) عند الله تعالى

=حافظ ليعرف الحكمة من تصرّف معشوقه. ولكن بعض العشّاق الأقلّ مرتبةً، قد يسألوا ليعرفوا الحكمة، وحتى إن سألوا، فسؤالهم يختلف عن سؤال غير العاشق لأن سؤال غير العاشق يكون من باب الشكّ، إذ أنّ حقيقة سؤاله تكون الإعتراض (فلسان قلبه يقول: يا ليتني لم يفعل ما فعل). ومن جهةٍ أخرى، قد يصل المحبّ إلى معرفة الحكمة ويحصل على الإجابة لسؤال: لماذا فعل محبوبي ما فعل؟ لكنّ الإجابة تأتيه حسب مقامه وليس حسب مقام المحبوب. أمّا المشكلة الحقيقية عندنا، فهي أننا لم ندرك معنى العبودية الحقيقية ولم نتعوّد على الخضوع لمن له ولاية علينا وغرقنا في بحر الشكّ والوهم!

(١) إحذر! فعندما تودّع القلب عند كل هوى، يُسَلِّبُ منك شيءٌ ما في الخفاء.
(٢) «أصيب عاشقٌ بالاضطراب من فرط العشق، فنام على التراب في ذلّة وانكسار، ثم مرّ به معشوقه وهو في مرقده هذا، فرآه نائماً وقد غاب عن وعيه، فكتب وريقةً تليق به وربطها على كمّ عاشقه، وما أن استيقظ عاشقه من نومه، وقرأ الوريقة، حتى سيطر الحزن عليه وكان المكتوب يقول: أيها الرجل الخامل، إن كنت تاجراً للفضّة، فانهض واسع، وإن كنت زاهداً، فتهجّد بالليل وعش في تضرّع حتى النهار وكُن لله عابداً، وإن كنت عاشقاً، فليعترك الخجل، فمتى جاز لعين العاشق أن تنام؟ فالعاشق كالريح بالنهار وفي الليل يبدو في حرقة كالقمر، ولما كنت يا عديم الضياء لا هذا ولا ذاك، فقلّ من التفاخر الكاذب بعشقتنا، فإذا نام العاشق ففي الكفن، أما أنت فعاشقٌ لنفسك. وإن كنت بالعشق جاهلاً، فاهدأ باليوم لأنك لست للعشق أهلاً»، منطق الطير، ص ٣٧٧.

(٣) سورة العنكبوت، آية ٤٥.

(٤) هناك فرق بين صحّة العمل وقبول العمل، فالقبول له علاقة بالولاية، فعن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) أنّه قال: «لا يقبل الله عملاً لعبداً إلّا بولايته فمن لم يوالنا كان من أهل هذه الآية: ﴿وَقَدْ مَنَّا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾»، (الكافي، ج ١ ص ٢٤). وعن أبي عبد الله (عليه السلام) أنّه قال: «لا يبالي الناصب صلى أم زنى وهذه الآية نزلت فيهم: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ * تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾»، مرآة العقول، ج ٢٦ ص ٢٣.

ولائقة بمقام الأهمية^(١)، علينا أن ننظر إلى آثارها، ﴿تَهَيَّ عَنْ أَلْفَحْشَاءَ
وَالْمُنْكَرِ﴾. فإن وجدت داخلكم تلك الحالة من البعد الكلي عن الخبائث^(٢)،
ذلك يعني أنكم تصلون حقاً، وإلا فأنتم لم تبلغوا الصلاة الحقيقية بعد، وإلى
الآن لم تصلوا. أما إذا رأيتم أن هذا العمل العبادي يؤمن لكم العروج ويقتلع
مادة الخبائث من داخلكم، فاعرفوا أنكم تصلون حقاً، ذلك أن «الصلاة قربان
كل تقي»^(٣)، أي أنها وسيلة للتقرب إلى الحق من قبل المتقين^(٤)، الذين يتبعون
التقوى في كل شيء.

التحلي بالأدب والوقوف عند الحد

وفقاً للمنطق الشيعي ومنطق أهل البيت عليه السلام، من غير المقبول الانطلاق من
دون مراعاة الأدب وعدم الوقوف عند حد^(٥) أبداً، فهذا لا يُسمى استقامة، إنما

-
- (١) ورد في دعاء السيفي الصغير: «ربي أدخلني في لجة بحر أحدىتك»، مفاتيح الجنان.
(٢) الخبائث لها أصل وفرع؛ أصلها هو المخالفون للولاية لأنهم عين النجاسة والرجاسة
وفرعها النجاسات المادية.
(٣) الإمام الرضا عليه السلام، الكافي، ج ٣ ص ٢٦٥.
(٤) ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الزمر، آية ٣٣)، وصفات
المتقين هي: الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة والإنفاق والإيمان بكل ما أنزل إلى النبي
محمد عليه السلام والأنبياء من بعده، والإيقان بالآخرة، ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلتَّقِيينَ * الَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ
هُمْ يُوقِنُونَ﴾، سورة البقرة، آيات ٢ - ٣ - ٤.
(٥) ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (سورة الطلاق، آية ١)، ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾
(البقرة، آية ٢٢٩). وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «أفضل الأدب أن يقف
الإنسان عند [على] حده ولا يتعدى قدره»، (غرر الحكم، ص ٢٤٧)، و«رحم الله امرئ
عرف حده فوقف عنده». ففي موطن، عليك بالتقية وفي آخر بالمداراة وفي ثالث بالوغل
برفق في طرح الأمور الولائية وفي موطن مغاير بإظهار الحقيقة كما هي بمنتهى الشجاعة
وأن لا تأخذك في الله لومة لائم وتشخيص هذه الأمور يرجع إلى الشرع (باب الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر) والعقل والإلهام والمكان والزمان، فليس كل ما يُعلم يقال
ولا كل ما يقال تجد له رجال.

هو عنادٌ وامتناءٌ للنفس^(١) والعَدُو بها. وقد أوجَدَ هذا الأمرُ شُبْهةً في أذهان الكثيرين من أهل الطريق، غير أنَّ هذا الطريق، في الواقع، ليس بالطريق الشيعيِّ.

إن الحق^(٢) المطلق في العالم هو أمير المؤمنين عليه السلام، أما الباطل المطلق فهو الذي يقف في قبالة، أيّاً يكن. ولقد نهض رجل لحماية الحق^(٣) المطلق ومحاربة

(١) «الموت حقٌ لست أخشاه وإنما أخشى من نفسي ومن عبادتي لها»، حافظ الشيرازي.
 (٢) قال الله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، (سورة الأعراف، آية ٨). قال رسول الله ﷺ: «الحق مع عليّ بن أبي طالب حيث دار»، (فرائد السمطين، ج ١ ص ١٧٧). «... عليّ مع الحق والحق مع عليّ يدور معه حيثما دار، والمراد من «الحق» سلطان الوجود وخلّاق الوجود. ولا يريد القاصرون أن يفهموا أنَّ معنى الحديث الواقعي وارد في شأن خاتم الأولياء، وأي شيء أعلى من عليّ؟»، (مقدمة كتاب مصباح الهداية، تحقيق جلال الدين الأشتياني، ص ١٦٤). كما ورد في دعاء الإفتتاح: «اللَّهُمَّ مَا عَرَفْتَنَا مِنَ الْحَقِّ (عليّ) فَحَمِّلْنَاهُ، وَمَا قَصُرْنَا عَنْهُ فَبَلِّغْنَاهُ». وورد في الزيارة الجامعة الكبيرة: «والحق معكم وفيكم ومنكم وإليكم وأنتم أهله ومعنده»: «المراد بالحق: هو الاسم الأعظم الذي هو حقيقة النبوة في العالم الإلهي، ومظهرها التام هو رسول الله ﷺ، ثم آله الطاهرون، والقرآن عبارة عمّا أوتي محمد ﷺ من اثنين وسبعين حرفاً من حروف ذلك الاسم الأعظم، وهو كتابه ومبدؤه، وآية تامة لحقيقة النبوة الإلهية... فالمراد بالحق هو حقيقة النبوة. فقلوه ﷺ: «والحق معكم»، لأنهم ﷺ مظاهرها التامة، وليس أحد مظهرها التام إلا محمد وآله الطاهرين ﷺ. وقوله ﷺ: «وفيكم»، يعني لا يزال عنكم إلى ما لا نهاية له. وقوله ﷺ: «ومنكم»، يعني كلّ ما كان فيه آية من حقيقة النبوة، فهي من فاضل فطرتكم. وقوله ﷺ: «وإليكم»، يعني بعد زوال تمام مراتبها وفنائها ترجع إلى حقيقة النبوة التي هي مبدؤكم»، الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٣٤٦.

(٣) عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إن أمرنا هو الحقّ وحقّ الحقّ وهو الظاهر وباطن الظاهر وباطن الباطن، وهو سرّ وسرّ السرّ وسرّ المستسرّ وسرّ مقنّع بالسرّ»، (بصائر الدرجات، ج ١ ص ٤٩ ح ٤)، «فالمراد بالحق والظاهر: هو مرتبة الله الذي هو مبدأ تمام الأسماء الحسنی»، (الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٦٧). قال أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ صَارَعَ الْحَقَّ صِرْعَهُ»، نهج البلاغة، الحكمة ٤٠٨.

الباطل المطلق، واسمه مالك الأشتر^(١)، حامي أمير المؤمنين عليه السلام، الذي كان يُكثر من مدحه، حيث قال في حقه: «كان لي كما كنت لرسول الله»^(٢) ﷺ. ولكنَّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يعطه هذا المقام والمنصب من البداية، إنما أعطاه إياه في آخر الطريق.

(١) قال رسول الله ﷺ في مالك الأشتر: «إنَّه المؤمن حقاً»، (أعيان الشيعة، ج ٩ ص ٤١). وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام في وصف مالك: «ليت فيكم مثله إثنان، بل ليت فيكم مثله واحد يرى في عدوي مثل رأيه»، (بحار الأنوار، ج ٣٢ ص ٥٤٧). وكتب أمير المؤمنين عليه السلام إلى مالك الأشتر حينما دعاه من نصيبين إلى الكوفة لتوليته حكم مصر: «أما بعد، فإنك مَنْ أَسْتَظْهَر به على إقامة الدين وأَقْمَعَ به نخوة الأئيم، وأسَدَّ به ثغر المخوف»، (سفينة البحار، ج ٤ ص ٣٨٤). ولما بعث الإمام علي عليه السلام مالكا إلى مصر، كتب في حقه رسالة إلى أهل مصر، وقد عُثِر بعد استشهاد علي هذه الرسالة بين ملابسه ورحله، وقد ورد فيها: «وإني قد بعثت إليكم عبداً من عباد الله لا ينأى أيام الخوف ولا ينكل عن الأعداء...»، (الكنى والألقاب، ج ٢ ص ٢٤). وفي رسالة أخرى بحق مالك، كتب أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «إن الذي كنت وليته أمر مصر كان رجلاً لنا ناصحاً وعلى عدونا شديداً ناقماً، فرحمه الله، فلقد استكمل أيامه ولاقى حمامه، ونحن عنه راضون، أولاه الله رضوانه، وضاعف الثواب له»، (نهج البلاغة، الكتاب: ٣٤). وأدى استشهاد مالك إلى حزن الإمام عليه السلام حزناً بالغاً والبكاء عليه كثيراً، ثم ارتقى المنبر دافع العين، وقال: «لله درّ مالك، لو كان من جبل لكان أعظم أركانه، ولو كان من حجر كان صلداً. أما والله ليهدن موتك عالماً، فعلى مثلك فلتبك البواكي...»، (تحفة الأحاب، ص ٤٢٧؛ بحار الأنوار، ج ٣٣ ص ٤٥٤؛ سفينة البحار، ج ٤ ص ٣٨٥). وظل أمير المؤمنين حزيناً متألماً، فقال راداً على تعازي القرشيين: «مالك وما مالك، لو كان جبلاً لكان فنداً، ولو كان حجراً لكان صلداً، لا يرتقيه الحافر ولا يوفي عليه الطائر»، (نهج البلاغة، ص ١٢٣ الحكمة ٤٤٣) وقال: «لا أرى مثله بعده أبداً»، (بحار الأنوار، ج ٣٣ ص ٥٩٢). وقد ورد في مضمون حديث المفضل عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «يخرج مع القائم من ظهر الكوفة سبع وعشرون رجلاً، خمسة عشر من قوم موسى الذين كانوا يهدون بالحق وبه يعدلون، وسبعة من أهل الكهف، ويوشع بن نون وسلمان وأبو دجانة الأنصاري والمقداد ومالك الأشتر، فيكونون بين يديه أنصاراً وحكاماً»، (الإرشاد، ص ٣٩٣).

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٢ ص ١٧٦؛ رجال العلامة، ص ١٦٩؛ ترجمة شرح نهج البلاغة، ج ٦ ص ٣١٤.

كان مالك الأشتر يحارب الباطل المطلق، في معركة صفين، وكان معاوية في طريقه إلى الهزيمة، حيث كانت خيامه أمام ناظرَي مالك الأشتر الذي كان يتقدم نحوها. ومع وصول مالك إلى هذا الموقع، أرسل له أمير المؤمنين (عليه السلام) أمراً بالعودة. فردّ مالك قائلاً: مولاي، أمهلني بضع دقائق أُجهزُ فيها على معاوية. ولكن مرة ثانية، أمره أمير المؤمنين (عليه السلام) بأن يعود^(١). فقال له: سيدي، إني أرى خيمته أمامي. وفي المرة الثالثة، قال له أمير المؤمنين (عليه السلام): إذا كنت تريدني^(٢)، فارجع^(٣).

(١) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «مالك الأشتر إنّما بلغ ما بلغ من الرتبة المعنويّة عندما وضع سيفه في غمده، وأمّا عندما كان يضرب بسيفه فقد كان أمر وليّه مخلوطاً بما تريده نفسه، بل وبنفس المقدار الذي كان فيه يضرب بالسيف كان مكان أمير المؤمنين (عليه السلام) خالياً في وجوده، وأمّا في ذاك الموضع الذي رفع فيه يده عن سيفه، قال فيه أمير المؤمنين (عليه السلام): «لقد كان لي كما كنت لرسول الله» (وسائل الشيعة، ج ٣٠ ص ٤٥٣)، وهذا هو التّوحيد مع الولي لا مع الذات الربوبية». ويقول حفظه الله تعالى: «لا طريق للإنسان في مجال معرفة النفس إلّا أن يكون مُطيعاً لمولاه في طريق الولاية، وينبغي أن يضع كلّ أنانيته وتشخيصه الشّخصيّ جانباً. ومن شدّة هذه الولاية وشدّة ظهورها أنّ الموالي لو عمل بأمر ما متخيلاً أنّ مولاه صاحب الولاية قد أمره به وإن لم يكن مولاه في الواقع قد أمره به، فإنّ العمل بذاك الأمر المتخيّل سوف يُعطي النتيجة التامة ويوصل إلى الحقيقة المطلوبة، ولو قال له مولاه بعد ذلك إني لم أقله»، ويقول سمّاحته في موضع آخر: «في معرفة النفس، كلّ التشخيصات الموجودة لا بدّ أن تُوضع جانباً، ولا بدّ أن يحلّ محلّها إطاعة الولاية، فكلّ ما يقوله الولي هو الدين الصحيح».

(٢) أحد الدراويش وبينما كان واقفاً وسط شاطئ نهر دجلة والأمواج تتدافع بين يديه وهو ينظر إلى ذرى المآذن وقباب المساجد على الضفة المقابلة، أتى أحدهم على متن قارب وسأله: أتريد أن أوصلك إلى الضفة الأخرى؟ قال الدراويش: لا. فقال له الرجل: إذن، إبتعد عن الحافة حتى لا تسقط وتغرق. فقال الدراويش: لا أريد الابتعاد. فسأله الرجل: أتريد أن تغرق؟ أجابه: لا. فعاوّد الرجل السؤال: ماذا تريد إذن؟ فقال الدراويش: أريد أن لا أريد.

(٣) «... في هذه الأثناء جاء الإمام (عليه السلام) زهاء عشرين ألفاً من جيشه والذين أصبحوا من الخوارج، فقالوا له: يا عليّ، أجب القوم إلى كتاب الله وإلّا قتلناك. وفي تلك الساعة كان مالك الأشتر، يقاتل ويتقدم نحو خيمة معاوية، فصاح هؤلاء: يا عليّ، ابعث إلى الأشتر ليتوقّف عن القتال. فبعث الإمام (عليه السلام) إليه، فذهب الرسول إلى الأشتر وأخبره=

إن أصعب عملٍ يواجهه الإنسان هو العمل الذي لا يمتلك القدرة على تحمّله^(١)، وهو ما قام به مالك الأشر. فمن المعلوم أنه هو من كان يعدو ويحارب ويضرب بالسيف، ولكنّ الذي أرجعه هو أمير المؤمنين عليه السلام.
بس نكته غير حُسن بيايد كه تا كسى مقبول طبع مردم صاحب نظر شود^(٢)

التقوى والسيطرة على النفس

ينبغي تحلّي الإنسان بالتقوى^(٣) بكلّ وجوده، فالتقوى لازمةٌ في كل شيء. وإنّ الانطلاق من دون توقف محصور بالوليّ وحده. ولكن في الظهور، عندما

= عن اختلاف القوم وقول الإمام عليه السلام، وما كان الأشر يحبّ مغادرة جبهة القتال ولو أمهلوه ساعة لقضى على معاوية وجيشه، لكن لالتزامه بالولاية والطاعة توقّف وعاد، وإن كان يرى المصلحة في الاستمرار في القتال، بعكس أولئك الخوارج الذين خرجوا عن الولاية ولولاهم لاستمرت ولايتهم إلى عصرنا»، بحار الأنوار، ج ٣٢ ص ٥٣٣.
(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام عندما سُئل عن أصعب ما يمكن للرجل أن يواجهه: «أصعب شيء على الرجل هو أن تُضربَ حليته أمامه وهو مأمور بالسكوت». وعنه عليه السلام: «احتمل ما يمرّ عليك فإن الاحتمال ستر العيوب، وإن العاقل نصفه احتمال، ونصفه تغافل»، (ميزان الحكمة، ج ١ ص ٤٥). وقد ورد في الزيارة الجامعة الكبيرة: «مُطِيعٌ لَكُمْ عَارِفٌ بِحَقِّكُمْ، مُقَرَّرٌ بِفَضْلِكُمْ، مُحْتَمَلٌ لِعِلْمِكُمْ»، مفاتيح الجنان.
(٢) ديوان حافظ.

(٣) ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَنَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾، (سورة الطلاق، آية ٢ - ٤ - ٥).
«حقيقة التقوى وكلمتها ذلك النور (الذي أودعه الله تعالى في كلّ نفس من سرّ آل محمد عليهم السلام)... وحقيقة الورع هي ترك الاقتحام والدخول في ظلمة الطاغوت الذي هو سرّ أعداء آل محمد عليهم السلام وفروعهم من الفواحش وجميع المنهيات... وإذا عرفت حقيقة التقوى وشؤونها وأنها سرّ آل محمد عليهم السلام، ظهر لك أنهم أعلام التقى في السرّ والعلانية... بهم يمتاز ما أمر الله به عمّا نهى عنه، وفي السرّ لأن بأنوارهم المكنونة في كلّ نفس، يُعرف الله ربّ العالمين، ويأوي السالكون إليه تعالى، والحمد لله ربّ العالمين»، الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ١٩٩ - ٢٠٠ - ٢٠١ - ٢٠٢.

يُجلس ذلك الولي سلمان إلى جانبه، يمتنع عن الانطلاق من دون توقف، وكذلك الأمر بالنسبة إلى المقداد وعمّار. ولهذا السبب، لازَمَ الولي المطلق منزله مدّة خمس وعشرين سنة^(١). ورغم أن وجوده يسير في درب اللانهاية وأن باستطاعته الإنطلاق في هذا الدرب من دون توقف، إمتنع عن ذلك وتوقف لأن المقداد وسلمان وأبا ذرّ وعمّار وغيرهم يحيطون به. ولكن، حينما توقف، تبدّل حال سلمان ولم يستطع أن يتحمّل^(٢) وقال متسائلاً: سيّدي، أيّ وضع هو هذا؟ ولذلك قال له أمير المؤمنين: جدّد البيعة يا سلمان^(٣).

فليس القويّ هو من يستطيع المضيّ على نحوٍ مطلق لا توقف فيه، إنما القويّ هو مَنْ يتمكّن من التوقف في موضعٍ ما، والقويّ مَنْ يستطيع ربط جأشه في ذلك الموضع^(٤)، والقويّ مَنْ يتلقّى الصفحة لا مَنْ يوجّهها ومَنْ يتلقّى الشتيمة لا مَنْ يتلفظ بها، ومَنْ يُمنع حقّه لا مَنْ يمنع الناس حقوقهم. وإذا أردتم رؤية هذا المشهد كاملاً، فلتنظروا إلى كربلاء.

العارفون بطريق العشق

إذاً، ليست الحركة هي المطلوبة في طريق اللانهاية، في التوحيد، بل

(١) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «ظهور الولاية يختلف من دور إلى دور، فتارة يجلس في بيته وأخرى يشهر ذا فقاره في الحرب، فشمس الولاية ليست على منوالٍ واحد، وحالة قبض وبسط المؤمن حكاية عن ذي الظلّ ذاك».

(٢) من ألقاب أمير المؤمنين (عليه السلام) «مظهر العجائب»، والعجائب لا تعني بالضرورة المعجزات حصراً. فالعجائب تعني ما يثير التعجّب من تصرّف غير متوقع أو غير مألوف. ولو كنّا معاصرين للإمام عليّ (عليه السلام)، هل كنّا سنتحمّل ما يصدر منه؟ هل كنّا سنُسَلِّم؟

(٣) قال الإمام الباقر (عليه السلام): «... فأما سلمان، فإنه عرض في قلبه عارضٌ أنّ عند أمير المؤمنين (عليه السلام) اسم الله الأعظم لو تكلم به لأخذنهم الأرض وهو هكذا، فلبّ ووجئت عنقه حتى تُركت كالسلعة (الغدة في الجسم)، فمرّ به أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال له: يا أبا عبد الله!.. هذا من ذلك، بايع فبايع...»، كتاب جواهر البحار، ج ٢٨ ص ٢٣٩ نقلاً عن كتاب الكشي، ص ١١؛ الاختصاص، ص ١٠.

(٤) وهذا من معاني «شديد القوى».

التوقف. فالتقوى هي الاتقاء في كل شؤون الوجود. وفي كل الأمور، ينبغي على الإنسان أن يضع، ولو احتمال واحد في المئة، لإمكانية التوقف. فكل من ضرب بالحدود عرض الحائط وأثار الفوضى في الدنيا، كان ممن انطلق ولم يعرف حداً للتوقف عنده. ولهذا السبب، كان العجز^(١) في العبودية^(٢) وكانت المسكنة والفقر^(٣). فواحدة من عنايات الحق ومرحماته وألطافه الجليلة والخفية هي أن

(١) يقول بايزيد البسطامي: «هتف بي هاتف قائلاً: يا بايزيد خزائننا مليئة من الطاعات والخدمات المقبولة. إذا طلبتنا فأتنا بشيء ليس عندنا. فقلت: يا إلهي ما هذه الأشياء التي ليست عندك؟ فقال الله عز وجل: المسكنة والعجز والحاجة والذل والانكسار». ويقول بايزيد أيضاً: «طرفتُ باب الحق تعالى بكلّ الأيدي ولم يفتح إلا بيد البلاء، وطلبْتُ وصاله بكلّ اللغات ولم أنله إلا بلغة الحزن، وسلكتُ طريقه بكلّ الأقدام ولم أصل بلاط العز إلا بقدَم الذلّ»، خمسة من العرفاء، ص ٥٨.

(٢) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «أيّها الموالي العزيز، لا علم لك ولا خبر عن العبوديّة إلاّ أنّ تكون عبداً، وإلاّ فما لم تكن عبداً لا مجال لك أن تفهم شيئاً من شؤون العبوديّة وحقائقها».

(٣) «الفقر مراتب: كترك الدنيا ضبطاً وطلباً، وتجريد النفس من التعلّق بها، والذهول عنها وعن تركها ذكراً وتصوراً ووجوداً وعدمًا وحسناً وقبحاً إلى أن ينتهي إلى الطمس في نور الأحدية بالكلية، حتى لا يرى حولاً وقوة لنفسه ولا حالاً ولا مقاماً ولا وجوداً ولا تدوّناً إلا من فضل الله، ويرجع إلى عدمه الأصلي بحكم السبب الأزلي ولذا قال العارفون بالله: إنّ الفقير هو الذي يكون مع الله الآن كما كان في الأزل وقيل: «الفقير لا يحتاج إلى شيء» وذلك لأن الاحتياج من لوازم الوجود والفقير لا وجود له فعند ذلك يصير غنياً. ومن قواعدهم «إذا جاوز الشيء حدّه انعكس ضدّه» فإليه يومي قول الداعي: «يا غنائي عند افتقاري»... ولما كان الفقر الكليّ الذي بإزاء الغنى الكليّ، مخصوصاً بنبيّنا ﷺ كما قال ﷺ: «لولا تمرّد عيسى عن طاعة الله لكنّت على دينه» أي بأن يكون طاعة الكلّ طاعته ويكون مظهرًا لاسم الله الأعظم، افتخر به ﷺ وقال: «الفقر فخري» وكذا قوله ﷺ: «الفقر سواد الوجه في الدارين» إشارة إلى محو وجه النفس فإن لكل شيء وجهين: وجه إلى الله ووجه إلى النفس؛ فالفقر محو وجه النفس للشيء عن صفحة صحيفة الوجود، وصحو وجهه إلى الله كما قال سيّد الفقراء والمساكين عليّ أمير الموحّدين في بيان: «الحقيقة محو الموهوم وصحو المعلوم» وقوله ﷺ: «كاد الفقر أن يكون كفراً» إشارة إلى أنّ الفقير يكاد أن يتفوّه بالشطحيات التي لا تليق بمثله... أو يكون «الكفر» عبارة عن ستر وجوه الأشياء إلى أنفسها. ولا يأبى عن أن يكون الظاهر أيضاً - أعني ضيق المعيشة مع عدم الصبر مراداً، لأنّ الباطن لا يزاحم الظاهر، والروح لا =

المؤمن يُبتلى^(١) أحياناً بارتكاب المعاصي^(٢)، ولولا ذلك لصدق قائلاً: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ
الْأَعْلَى﴾^(٣)، كما قال فرعون.

آشنایان ره عشق در این بحر عمیق غرقه گشتند، نگشتند به آب آلوده^(٤)

وفي عين هذا الحال من التقوى والانغماس بالعجز، يمنحه الحق المتعال
المقام والرتبة والمنزلة، ويضعه موضعاً لا يمكن لعقله أو فكره أن يدركاه.
فالعجز ضروري^(٥)، وإلا لن يكون هناك سبيل أمام الإنسان للوصول.

ذلك الطريق الصحيح الذي لا تعترضه أية آفة إذا صدر بشكل صحيح من

=ينازع الجسد. ومثله قوله ﷺ: «الفقر الموت الأكبر»، وقد ورد عنه أن: الفقراء ملوك
أهل الجنة والناس كلهم مشتاقون إلى الجنة والجنة مشتاقة إلى الفقراء»، (شرح الأسماء
أو شرح دعاء الجوشن الكبير، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ - ٢٠٨). ويقول بايزيد البسطامي:
«إلهي، فقري وفاقتي أوصلاني إليك ولطفك لم يزلهما»، خمسة من العرفاء، ص ١١٢.

(١) ورد عن الإمام العسكري ﷺ: «ما من بليّة إلا ولله فيها نعمة تحيط بها»، (تحف
العقول، ص ٤٨٩). كما قيل: «البلاء مشعل العارفين وموقظ المريدين ومهلك الغافلين»،
خمسة من العرفاء، ص ٧٦.

(٢) عن الإمام الصادق ﷺ: «إن الله علم أن الذنب خير للمؤمن من العجب ولولا ذلك ما
ابتلى مؤمناً بذنب أبداً»، (جامع السعادات، ج ١ ص ٢٨٥). وقال الله تعالى لداود ﷺ:
«يا داود بشر المذنبين وأنذر الصديقين، قال: يا رب كيف أبشر المذنبين وأنذر
الصديقين؟ قال: يا داود، بشر المذنبين أنني أقبل التوبة وأعفو عن الذنب، وأنذر
الصديقين ألا يعجبوا بأعمالهم فإنه ليس عبد أنصبه للحساب إلا هلك»، الكافي، ج ٢
ص ٣١٥.

(٣) (سورة النازعات، آية ٢٤). «إن الله سبحانه لما خلق النفس ناداها: من أنا؟ فقالت
النفس: فمن أنا؟ فألقاها في بحر الرجوع الباطن حتى وصلت إلى الألف المبسوط
وخلصت من رذائل دعوى الأنانية الأينية ورجعت إلى نشأتها، ثم ناداها: من أنا؟
فقالت: أنت الواحد القهار»، مجموعة ورام، ج ١ ص ٢٣٩.

(٤) ديوان حافظ.

(٥) يقول الإمام السجاد ﷺ: «وَعَجَزَتِ الْعُقُولُ عَنْ إِدْرَاكِ كُنْهِ جَمَالِكَ، وَانْحَسَرَتِ الْأَبْصَارُ
دُونَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَلَمْ تَجْعَلْ لِلْخَلْقِ طَرِيقاً إِلَى مَعْرِفَتِكَ إِلَّا بِالْعَجْزِ عَنْ مَعْرِفَتِكَ»،
(المناجاة الثانية عشرة، مناجاة العارفين). وعنه ﷺ أنه قال: «سُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ
الْإِعْتِرَافَ بِالْعَجْزِ عَنِ الشُّكْرِ شُكْراً»، تحف العقول، ص ٢٨٣.

قلب^(١) السالك، هو طريق المحبة التامة^(٢) التي تسمى عشقاً. أما بقية الطرق، فكلها مليئة بالأخطار ومحفوفة بالمخاطر من كل الجوانب والأطراف والجهات.

المحبة والمعرفة من صنع الله

كيف يمكن لنا تأمين هذا الطريق واكتسابه؟ هناك روايتان تدلان على أن هذه الموهبة لا تُصنع ولا تُعلّم ولا تُكتسب. ولهاتين الروايتين معنى واحد مثل الإستغراق والفناء، إذ يفهم منهما المعنى نفسه. «المحبة هي صنع الله»^(٣) و«المعرفة من صنع الله»^(٤).

(١) عن الإمام الباقر عليه السلام: «القلوب ثلاثة: قلب منكوس لا يعي على شيء من الخير وهو قلب الكافر، وقلب فيه نكتة سوداء فالخير والشر يعتلجان، فما كان منه أقوى غلب عليه، وقلب مفتوح فيه مصباح يزهر ولا يُطفأ نوره إلى يوم القيامة، وهو قلب المؤمن»، (الكافي، ج ٢ ص ٤٢٣). وفي رواية أخرى، قال الصادق عليه السلام لأبي أسامة: «اقرأ. فافتحت سورة من القرآن فقرأتها فرق وبكى، ثم قال: يا أبا أسامة، إرعوا قلوبكم بذكر الله عزّ وجلّ واحذروا النكت، فإنه يأتي على القلب تارات أو ساعات - الشك من صباح - ليس فيه إيمان ولا كفر، شبه الخرقه البالية أو العظم النخر. يا أبا أسامة، أليس ربما تفقدت قلبك فلا تذكر به خيراً ولا شراً، ولا تدري أين هو؟ قلت له: بلى إنه ليصيبني وأراه يصيب الناس، قال: أجل ليس يعرى منه أحد، قال: فإذا كان ذلك فاذكروا الله عزّ وجلّ، واحذروا النكت، فإنه إذا أراد بعبد خيراً نكت إيماناً، وإذا أراد به غير ذلك نكت غير ذلك، قلت: ما غير ذلك، جعلت فداك ما هو؟ قال: إذا أراد كفراً نكت كفراً»، (الكافي، ج ٨ ص ١٦٧). وعنه عليه السلام: «إن الله تبارك وتعالى إذا أراد بعبد خيراً نكت في قلبه نكتة من نور وفتح مسامع قلبه، ووكل به مالكاً يسدّه. وإذا أراد بعبد سوءاً، نكت في قلبه نكتة سوداء سدّ مسامع قلبه، ووكل به شيطاناً يضلّه..»، المصدر نفسه، ج ٢ ص ٢١٤ ح ٧.

(٢) المحبة والمودة التامتان لآل محمد عليهم السلام.

(٣) قال الإمام الباقر عليه السلام: «إني لأعلم أن هذا الحب الذي تحبّونا ليس بشيء صنعتموه ولكن الله صنعه»، (المحاسن، ص ١٤٩). سألوا معروف الكرخي، حاجب الإمام الرضا عليه السلام، عن الحب، فقال: «الحب لا ينبثق من تعليم خلق الله، وإنما هو موهبة من الله عزّ وجلّ وفضل منه»، خمسة من العرفاء، ص ٢٩٢.

(٤) (بحار الأنوار، ج ٥ ص ٢٢١). قال الإمام الصادق عليه السلام عن لقمان الحكيم: «فلماً =

فمقام المحبة والمعرفة^(١) هو من صنع الله وحده، وليس لنا من الأمر شيء^(٢). فطريقه غير معلوم ومخفي. وفي عاشوراء، أخفي هذا الطريق عن أعين الجميع أكثر، فما المعيار الذي اختار على أساسه الإمام الحسين عليه السلام أصحابه الإثنين والسبعين؟ لا أحد يعلم ما كانوا يمتلكون.

=أمسى وأخذ مضجعه من الليل، أنزل الله عليه الحكمة فغشاه بها من قرنه إلى قدمه وهو نائم، وغطاه بالحكمة غطاء، فاستيقظ وهو أحكم الناس في زمانه»، (بحار الأنوار، ج ١٣ ص ٤١٠). سئل العلامة السيّد بحر العلوم رحمته الله عن سرّ ذكائه وفقاهته ووصوله إلى مرتبة المرجعية فقال: «رأيتُ في المنام جدّي رسول الله وقد وضع صدره على صدري وفتح عليّ أبواب العلم»، (عش في رحاب رسول الله، ص ١٧٧). ينقل الشيخ النوري عن الشيخ التستري رحمته الله: «لما فرغت من تحصيل العلوم الدينية... رجعت إلى وطني، وقمت بأداء ما كان عليّ من هداية الناس على تفاوت مراتبهم. ولعدم تَصْلُحي بالآثار المتعلقة بالمواعظ والمصائب، كنتُ مكتئباً بأخذ (تفسير الصافي) بيدي على المنبر والقراءة منه في شهر رمضان والجُمُعات... ولم أكن ممن يمكنه الإنذار والإبكاء بما أودعه في صدره. إلى أن مضى عليّ عام، وقُرِبَ شهر محرّم الحرام، فقلت في نفسي الليلة: إلى متى أكون صحفياً لا أفارق الكتب؟! فقامت أتفكر في الإستغناء عنه والإستقلال في الخطاب، وسرّحتُ بريد فكري في أطراف هذا المقام، إلى أن سممتُ منه وأخذني المنام، فرأيتُ كأني بأرض كربلاء في أيام نزول المواكب الحسينية فيها، وخيمهم مضروبة، وعساكر الأعداء في تجاههم كما في الرواية. فدخلتُ على فسطاط سيّد الأنام أبي عبد الله عليه السلام، فسلمتُ عليه، فقرّني وأدنانني، وقال عليه السلام لحبيب بن مظاهر: إنّ فلاناً (وأشار إليّ) ضيفنا. أما الماء؟ فلا يوجد عندنا منه شيء، وإنّما يوجد عندنا دقيق وسمن، فقم واصنع له منهما طعاماً وأحضره لديه. فقام وصنع فيه شيئاً ووضعته عندي، وكان معه ملعقة، فأكلتُ منه لقيمات وانتبهت. وإذا أنا أهتدي إلى دقائق وإشارات في المصائب ولطائف وكنائيات في آثار الأطاييب ما لم يسبقني أحد...»، دار السلام، ج ٢ ص ٣١٤.

- (١) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «فإنّ المعرفة ليست بالتعلّم والتحصيل وليست بمطالعة الكتب وليست بإلقاء المحاضرات»، انتهى. ويقول بايزيد البسطامي: «من المحال أن تعرف الله ثم لا تحبه، والمعرفة من دون العشق لا وزن لها ولا قدر»، (خمسة من العرفاء، ص ٦٤). ﴿وَلَقَبْتُ عَلَيْكَ حَبَّةً مِنِّي وَلِصْنَعِ عَلَى عَيْنِي﴾، سورة طه، آية ٣٩
- (٢) فالأمر بيده، ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبِيدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، سورة آل عمران، آية ٢٦.

التقوى والقلب السليم

لقد كان سلمان صاحب مقام عالٍ جداً، فقد وصل إلى مقام الحب والمعرفة^(١). ولكن، حتّى لا يتخيّل الناس أن سلمان قد وصل إلى هذا المقام

(١) إن كلّ شيء وكل عمل نقوم به منوط بالمعرفة. فالمعرفة هي الأساس في كل الأمور. هل سألنا أنفسنا يوماً ما هو الأصل في امتناعنا عن ارتكاب الحرام وميلنا إلى الحلال؟ هل فكّرنا يوماً ما هو أساس كل هذه القواعد والأحكام التي نعتبر أنها ديننا الذي يُقربنا من الله؟ إذا كانت هي ديننا الذي نبغي من وراءه وجه الله، إذّا، لم أحياناً نرتكب معصية من دون أن نفكر في الله وأحياناً أخرى نستعصم عن المعصية عينها؟ ما المعيار في ذلك؟ لو كان المعيار هو الله، لامتنعنا عن المعصية في كلتا الحالتين. ليس هذا هو دين الله، بل لعله كما قال الإمام الصادق (عليه السلام): «... ذلك شيء اعتاده، فلو تركه استوحش لذلك»، (الكافي، ج ٢ ص ١٠٥). إذن، هي التربية التي نشأنا عليها ولا دخل لله وأهل البيت فيها، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ﴾. أنفسنا هي التي تتحكّم بديننا الموروث هذا، فعندما تروق لها المعصية تنسى كل ما تربّت عليه، وعندما لا تروق لها، تلبس رداء الزاهد النقي. هل فعلاً أساس أفعالنا وتروكنا هو حبّ الله وأهل بيته؟ لو كان كذلك، لكانوا حاضرين فينا بكل لحظة. وقد تكون لنا إرادة جبّارة حتّى، بحيث يكون لنا القدرة على أن نقمع أنفسنا ونبطش بها، ولكن ما الأصل؟ هل الأصل هو حبنا لله أم هي قناعتنا التي نشأنا عليها، والتي تأمرنا بفعل هذا وترك ذاك؟ موسى النبي (عليه السلام) عندما كلمه ربّه سأله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمُوسَى﴾ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَهَسَّ بِهَا عَلَيَّ غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى *، هذه العصا هي عبارة عن الإرادة والعزيمة، فموسى (عليه السلام) كان يهشّ بها على غنمه، أي كان يحكم بها كل الناس، وله فيها مآرب أخرويّة أيضاً. ولكن، عندما أمره الله بلقائها، رآها تهتز كأنها جانّ، فتعجّب منها، حيث لم يكن يعلم أن نفسه كانت على هذه الشاكلة، فولّى منها ولم يعد يريدّها. عندها، قال الله له: إرجع، ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ ومنشأها الأوّل الذي هو إرادة الرّب، لا إرادتك أنت، وإرادة الرّب هي أمير المؤمنين (عليه السلام)، لذا قال (عليه السلام): «أنا عصا الكليم»، (خطبة البيان، نجاة الهالكين، ص ٨٩)، وهنا تفهم معنى قوله عليه سلام الله: «كنت مع الأنبياء باطناً ومع رسول الله ظاهراً»، (مصباح الهداية، ص ١٤٢) فتدبّر. ينبغي أن نعطل أنفسنا التي تتحكّم بديننا، ونترك الله يؤسّس فينا دينه الصحيح. علينا أن نستغيث به ونرجوه أن يكون هو إرادتنا وهو رادعنا عن كل معصية، فكيف أكون هكذا ونفسي حاضرة بيني وبينه؟ «بيني وبينك إنّي ينازعني، فارفع بلطفك إنّي من البين». وعند ذلك، يوحى إلى قلبك بما ينبغي عليك فعله والقيام به، فكل واحد ممّا يمكن أن يوحى إليه، إذ خاطب الإمام الصادق (عليه السلام) =

ونال هذه المرتبة بواسطة ذخيرة واحدة أو عمل واحد تنجذب إليه أعينهم، كتب أمير المؤمنين عليه السلام بيده الشريفة على كفن سلمان ما يلي:

وفدتُ على الكريم بغير زادٍ من الحسنات والقلب السليم^(١)

لأن ما ينفع في يوم القيامة ويؤدي إلى دخول الجنة هو القلب^(٢) السليم والتقوى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(٣)، ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾^(٤). وبالتالي، فإن القلب السليم والتقوى يسيران بصاحبهما إلى

=المفضل بن عمر الجعفي قائلاً له: «فاستمع لما يوحى إليك...»، (الهداية الكبرى، الباب ٤ ص ٢٧٥). ولكن، لا تقف عند أخطاء ماضيك، قد تُبَيَّنَّ إلى الله منها فلا تعاود التفكير فيها، فالتفكر بالله وبأهل بيته سلام الله عليهم هو الأولى. ومن الماضي تأخذ العبرة وتتعلَّم، أما إن لم تخرج منه، فسيُحوَّل حاضرك إلى جحيم ومستقبلك إلى حطام. وصحيحٌ أنَّ الحاضر يحمل الكثير من الماضي، ولكن هناك سبيل واحد يجعل حاضرك ومستقبلك يسيران على ماضيك وليس العكس، وهو سبيل خدمة الإمام الحسين عليه السلام والارتباط به، وهنا ﴿يَذِلُّ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾! ألم يكن زهير «عثماني الهوى»؟ ألم يكن وهب نصرانياً؟ فهل تشهد بالشهادتين بنيتي الدخول في الاسلام؟ وهل صلى صلاة واحدة أو قضى ما عليه من صلوات؟ يقول سماحة السيد أحمد النجفي: إنَّ عشق الحسين عليه السلام يغيِّر الهوية! ما أعظمه من كلام وأبلغها من عبارة! وهناك بيت شعر بالفارسية مفاده: في حضوره، لا وجود لا لإيمان ولا لكفر، لا لجنة ولا لنار، لا لطاعة ولا لمعصية!

(١) نفس الرحمن في فضائل سلمان، ص ١٣٩.

(٢) «إن الإيمان مبثوث على جوارح البدن، وجعل الله لكل واحد منها تكليفاً خاصاً ليتحقق به إيمان كل جزء ويميّز عن كفره... فمنها قلبه الذي به يعقل ويفقه وهو أمير بدنه... وعمله المعرفة، كما في الرواية: قال عليه السلام: «فأما ما فرض على القلب من الإيمان فالإقرار والمعرفة والعقد والرضا والتسليم...»، (الكافي، ج ٢ ص ٣٤ ح ١). «إن المعرفة.. وجدان القلب ذلك المعنى وقراره عنه وعقده به»، الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ١٦٨ - ١٦٩ - ١٧٠.

(٣) (سورة الشعراء، آية ٨٨ - ٨٩). سئل رسول الله صلى الله عليه وآله: ما القلب السليم؟ فقال: «دين بلا شك وهوى، وعمل بلا سمعة ورياء»، (مستدرك الوسائل، ج ١ ص ١٠٣). وسئل الإمام الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، فقال: «القلب السليم الذي يلقي ربه وليس فيه أحد سواه»، الكافي، ج ٢ ص ١٦ ح ٥.

(٤) (سورة البقرة، آية ١٩٧). عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «تزوّدوا رحمكم الله فقد نودي فيكم بالرحيل، وأقلّوا»، ميزان الحكمة، ج ٤ ص ٢٩٦٨.

الجنة حتماً. ولكن المرتبط بالولي ومحبه، عليه أن يتخلى حتى عن هذين الأمرين^(١). ولهذا كتب عليه السلام:

«وفدت على الكريم بغير زاد^(٢) من الحسنات والقلب السليم»، يعني: يا إلهي، لا يمتلك سلمان القادم إليك أي شيء، سواء من التقوى، التي هي زاد الآخرة^(٣)، أو من القلب السليم، وذلك لأنه سلم^(٤) قلبه لأمر المؤمنين عليه السلام.

(١) «أنت لا غيرك مرادي ولك لا لسواك سهري وسهادي»، مناجاة المريدين للإمام زين العابدين عليه السلام.

(٢) من دعاء أمير المؤمنين عليه السلام: «وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ أَفْضَلَ زَادِ الرَّاحِلِ إِلَيْكَ عَزْمُ إِرَادَةِ يَخْتَارُكَ بِهَا وَقَدْ نَاجَاكَ بِعَزْمِ الْإِرَادَةِ قَلْبِي»، من أدعية يوم البعثة النبوية، مفاتيح الجنان.

(٣) عن أبي جعفر عليه السلام قال: «... نحن الدار وذلك قول الله عز وجل: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ نحن العاقبة يا سعد، وأما مودتنا للمتقين فقول الله عز وجل: ﴿بَرَكَةُ اسْمِ رَبِّكَ ذِي الْمَلِكِ وَالْإِكْرَامِ﴾ فنحن جلال الله وكرامته التي أكرم الله تبارك وتعالى العباد بطاعتنا»، (بصائر الدرجات، ج ١٢ ص ٣١٢). ﴿لَبِئْسَ ثَمَرُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ﴾، سورة النحل، آية ٤٠.

(٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ (سورة البقرة، آية ٢٠٨)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (سورة الأحزاب، آية ٥٦)، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، (سورة النساء، آية ٦٥).

﴿فَاطْلُقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقَهَا لِنُفْرَقَ أَهْلُهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ (سورة الكهف، آية ٧١). عندما اعترض موسى عليه السلام على فعل الخضر، جاءه الجواب ولكن بعد الفراق: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (سورة الكهف، آية ٧٩).

عندما تبدأ بالإبحار في بحر الولاية، يعمد خضر زمانك، أي صاحب الزمان عليه السلام، إلى خرق سفينة وجودك ليُعيبها. والسؤال لماذا؟! قد يكون امتحاناً حتى يرى الإمام مدى صبرك وتمسكك بالولاية. وقد يكون تكسيراً لنفسك حتى لا تكبر وتمرد عليك. وقد سبق للإمام الصادق عليه السلام أن فعل مثل هذا الأمر مع أحد أصحابه؛ عن عبد الله بن زرارة قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «اقرأ مني على والدك السلام وقل له: إني أعيبك دفاعاً مني عنك، فإن الناس والعدو يسارعون إلى كل من قربناه وحمدنا مكانه، لإدخال الأذى في من نحبه ونقربه ويذمونه لمحبتنا له وقربه ودنوه منا، ويرون إدخال الأذى عليه وقتله، ويحمدون كل من عيبناه نحن وأن يحمد أمره، وإنما أعيبك لأنك رجلٌ اشتهرت بنا =

لقد أعطى سلمان^(١) قلبه للمعشوق وسالب القلوب، أمير المؤمنين عليه السلام. فهل يأتي ويقول له: سيدي، أرجع إليّ قلبي، فأنا أحججه ليوم القيامة؟ لو كان كذلك، لَمَا أصبح سلمان الذي نعرفه. لقد أقفل أمير المؤمنين عليه السلام هذا الطريق. وإننا نظنّ ونحتمل، وأحياناً، نتيقّن من أنّ هذا هو الطريق، ولكن لا، إنهم لم يعطوه لأحد.

قد يسأل سائل: هل يتطلب الوصول إلى هذا الطريق أن يكون الإنسان ذا جسم ضعيف وقلب متعب؟ أو هل يلزم القيام بعملٍ ما للعثور عليه؟ لا، ليس الأمر كذلك. إذاً، كيف يقبلوننا؟ وكيف يمنحوننا هذا الطريق؟ لقد قالوا هم أنفسهم: نحن نجذب^(٢) مَنْ نريد من دون أيّ

=وَبِمِلِّكَ إِلَيْنَا، وَأَنْتَ فِي ذَلِكَ مَذْمُومٌ عِنْدَ النَّاسِ غَيْرِ مَحْمُودٍ= الأثر بمودّتك لنا ولميلك إلينا، فأحببتُ أن أعينك ليحمدوا أمرك في الدين بعينك ونقصك، ويكون بذلك ممّا دفع شرّهم عنك، يقول الله عزّ وجل: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَتْ أَنْ أُعْيَبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾. هذا التنزيل من عند الله صالحة، لا والله ما عابها إلا لكي تسلم من الملك ولا تعطب على يديه، ولقد كانت صالحة ليس للعب فيها مساع، والحمد لله، فافهم المثل يرحمك الله فإنك والله أحبّ الناس إليّ وأحبّ أصحاب أبي عليه السلام حياً وميتاً، فإنك أفضل سفن ذلك البحر القمقام الزاخر، وإنّ من ورائك ملكاً ظلوماً غصباً يرقب عبور كل سفينة صالحة تردّ من بحر الهدى ليأخذها غصباً ثم يغصبها وأهلها، ورحمة الله عليك حياً ورحمته ورضوانه عليك ميتاً»، (الكشي، ص ١٣٨).

إذاً أيها الموالي، ماذا تعلّمت من قصة موسى مع الخضر عليه السلام؟ ألم تتعلم أن لا تُكثر السؤال على وليّ نعمتك وخضر زمانك وتتركه يتصرّف في سفينة وجودك كما يشاء، وأن تلتزم التسليم والإذعان وتسلّم زمام أمورك لصاحب الزمان؟ إحد من كثرة السؤال والشك، فقد يأتيك الجواب ولكن متى؟ بعد الفراق!

(١) عن زاذان خادم سلمان قال: «لما جاء أمير المؤمنين عليه السلام ليغسل سلمان وجده قد مات، فرفع الشملة عن وجهه فتبسّم وهمّ أن يقعد، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: عُدْ إلى موتك، فعاد»، بحار الأنوار، ج ٢٢ ص ٣٨٤؛ مدينة المعاجز، ج ١ ص ٢٢٨.

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين»، (المقدمات من كتاب نص النصوص، ص ٢٦٨ - ٢٦٩). ومن كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «لو أنّ شخصاً صار يدور ويتحرّك على مدار التوحيد من الصباح حتّى المساء على أثر جذبة تلقّاها، فتمام الناس يجتمعون عليه ليأخذوه إلى دار المجانين، بل=

شرط^(١). وهذا مرتبطٌ بالقدرة والاستغناء واللانهائية.

النظرة الجاذبة

في زمن الإمام الصادق عليه السلام، كان هناك شقيقان، أحدهما محبٌ خالص والآخر عدوٌ خالص. لم يكن الأخير عدوًّا للإمام فحسب، بل كان أيضاً عدوًّا لشيعة ويتعمد الإساءة إليهم بكل الأشكال. أما المحب فكان يتبع الإمام عليه السلام كظله^(٢). وفي يوم من الأيام، كان الإمام يعبر أحد الأزقة وكان الأخ المحب يسير معه، وإذا بعديم الأدب يظهر من بعيد. فتغيّر حال المحب واصفرّ لونه وبدأ يرتجف. سأله الإمام عليه السلام: ما الذي حصل؟ فأجاب الرجل: لا شيء سيدي. قال الإمام: أرى من حالك أن شيئاً ما حصل، فقل ما هو؟ لم أنت مضطرب هكذا؟ أجابه المحب: لا شيء سيدي. فسأله الإمام عليه السلام: أتخاف من أن يتعرّض لي أخوك بالإهانة أو يتسبّب لي بالأذى؟ فأجابه الرجل: أجل يا سيدي، أفضل أن تنشق الأرض وتبتلعني على أن أراه يتجرأ عليك. حينها، سأله الإمام عليه السلام: أتودّ أن يرجع ويصلح حاله؟ أجابه الموالي: لديّ رجاء واحد في حياتي، يا سيدي، وهو أن يصلح حال أخي. وبينما كان الإمام يتكلم، نظر إلى أخيه بطرف عينه^(٣)، وما إن فعل ذلك حتى صاح ذلك المخالف من بعيد باكياً

=ويتأملون فيه كيف يأكل ويشرب ويجلس وكيف يسلم ويلبس وكيف يعبد وكيف وكيف؟ ولو أنّ شخصاً على مدار الأربع وعشرين ساعة تحرك على هذا المنوال، فإن أقرب الناس إليه يذهبون به إلى دار المجانين؛ ولو رأوه يحرك شفّيته بذكر يقوله، يتهمونه بأنّه يتكلّم مع نفسه، فيسألونه عن حاله: هل أنت جيّد؟ هل أصابك مكروه؟ وقد يصل الأمر إلى حدّ يشكّ هو في نفسه لعلّه خولط أو ما شابه. لو أنّ جذبة إلهية جذبت شخصاً واحداً ساعة واحدة، سوف تنصبّ عليه كلّ نظرات الناس وكلّ كلام الناس وإتهاماتهم».

(١) والشاهد على ذلك قضية زهير بن القين ووهب النصراني والحرّ الرياحي.

(٢) عشق كل عاشق ظلّ ومعلول لمعشوقه.

(٣) ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ (سورة القيامة، آية ٧)، ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾، سورة القمر،

وركض صوب الإمام رامياً بنفسه على التراب. فتقدّم الإمام ﷺ إليه وقربه ورفعته عن التراب وقال: إذا أردنا أحداً، فهكذا نجذبه^(١).

بداية الطريق

«المحبة هي صنع الله»، ينبغي على الإنسان أولاً أن يعلم من أين يصدر صنع الله هذا. وإذا كان يتبع إلهاً خيالياً^(٢) لن يعرف شيئاً عن «صنع الله». «المحبة هي صنع الله»، «المعرفة من صنع الله»^(٣)، «الهداية من

(١) «كان لرجلٍ من محبي عليّ ﷺ ابن أخ وهو مُبغضٌ له ﷺ وكان يطلب منه أن يجعله من محبيه، ومضى كذلك إلى أن اتفق أنّ العمّ كان مع أمير المؤمنين ﷺ وهو مع صحبه ولما اجتازوا ولم يسلموا على عليّ ﷺ فأنفعل العمّ من ذلك، فنظر عليّ ﷺ إليه، فرجع وأكبّ على قدمي أمير المؤمنين ﷺ وقال: كنت أبغض الناس عندي والآن أنت من أحبّ الناس لديّ»، (القطرة، ج ١ ص ٢٥). قال رسول الله ﷺ: «جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين»، (المقدمات من كتاب نص النصوص، ص ٢٦٨ - ٢٦٩). ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (سورة فاطر، آية ٨)، ﴿وَمَا كُنْتَ بِمُؤْمِنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، سورة يونس، آية ١٠٠.

(٢) ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَحَ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (سورة الجاثية، آية ٢٣). يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ عبادة الصنم على قسمين: قسم يكون الصنم في الخارج، وهو الذي يصنعه عبّاد الوثن من الجماد ويقومون بعبادته في الخارج، وقسم آخر من الصنم هو الموجود في ذهنك وفكرك».

(٣) (الكافي، ج ١ ص ١٦٣؛ بحار الأنوار، ج ٥ ص ٢٢١). قال أمير المؤمنين ﷺ: «أول عبادة الله معرفته»، (نهج البلاغة، الخطبة رقم ٤)، أي معرفة الله، و«معرفتي بالنورانية معرفة الله»، (بحار الأنوار، ج ٢٦ ص ١). كما قال الإمام الصادق ﷺ: «بنا عُرف الله»، (الكافي، ج ١ ص ١٩٣). إنّ طريق هذه المعرفة هو العلم، وحصول هذا العلم لا يكون إلا بطريقتين: إمّا علم ربّاني (الوحي - الإلهام)، أو علم إنساني (يُحصّل من الخارج بالتعلّم ومن الداخل بالتفكير). وينقسم العلم الربّاني إلى علم وهبي لدنيّ وهو العلم الذي يُفاض على العبد من قبل الله سبحانه من دون واسطة، إذ يقول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾، (سورة الكهف، آية ٦٥)، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة، آية ٢٨٢)، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، (سورة البقرة، آية ٣١)، وعلم =

صنع الله»^(١)، فإذا أردت أن يتحقق لك هذا المعنى، ينبغي أن تكون قبلتك^(٢)

=حضورى وهو يحصل دفعة واحدة ويحتاج إلى عين برزخية إرثية (كان عمّا العباس بن عليّ نافذ البصيرة). ويتولّد الوحي، الذي هو حلية الأنبياء، من إفاضة العقل الكلّي. أما الإلهام، الذي هو حلية الأولياء، فيتولّد من إشراق النفس الكلية (اللوّح المحفوظ). وحين يُرفع الحجاب بين نفس العبد والنفس الكلية، تظهر فيها أسرار المكنونات وتنتقش فيها معاني المكنونات.

أمّا العلم الإنساني فيُقال له العلم الحصولي الكسبيّ وهو الذي يسعى الإنسان إلى اكتسابه بنفسه ويتحقق بواسطة أستاذ أو كتاب أو أي وسيلة يُستفاد منها بالحواس أو بالتفكير. ولهذا العلم ثلاثة شروط: العقل السليم، والخلوّ من أي مرض نفسيّ، وعدم وجود الأنانية. ومن المعروف أنّ العلوم مركوزة في أصل النفوس بالقوّة، وبواسطة التعلم تخرج إلى الفعل. كمثّل البذرة (بالقوّة) التي تصبح نباتاً (بالفعل)، بحيث يكون العالم كالزارع والمتعلّم كالأرض. وقد قام الحكماء باستخراج أكثر العلوم النظرية والصنائع العملية عبر صفاء أذهانهم وقوّة فكرهم وجِدّة حواسهم من غير زيادة تعلّم وتحصيل، فكما ورد: «إنّ تفكّر ساعة خيرٌ من عبادة ستّين سنة»، بحار الأنوار، ج ٦٨ ص ٣٢٧.

(١) ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (سورة القصص، آية ٥٦). ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (سورة النور، آية ٤٦). ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (سورة الأنعام، آية ٨٨). ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ (سورة الحج، آية ١٦). ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ (سورة البقرة، آية ٢٧٢). ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ (سورة الزمر، آية ٢٣). قال الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفه: «وَأَنْتَ الَّذِي هَدَيْتَهُمْ حَيْثُ اسْتَبَانَتْ لَهُمُ الْمَعَالِمُ»، مفاتيح الجنان.

(٢) القبلة هي الكعبة المشرفة وإنّ «الإنسان الكامل والنبّي الخاتم عليه السلام هو الكعبة... فالكعبة أمّ القرى سرّها البيت المعمور وهو سرّ القلب وسرّ سرّها يد الله وسرّها المستتر اسم الله الأعظم، فأهل المعرفة وأصحاب القلوب يُسرون حكم التوحيد من السرّ إلى العلن، ومن الباطن إلى الظاهر كما أنهم في سرّ قلوبهم يفتنون الجهات المتشتتة في الوحدة»، (سرّ الصلاة، ١١٨ - ١٣٧). روى الشيخ الصدوق عن المفضل بن عمر قال: قال الصادق عليه السلام: «كأنّي أنظر إلى القائم على منبر الكوفة وحوله أصحابه ثلاث مائة وثلاثة عشر رجلاً عدة أهل بدر، وهم أصحاب الألوية، وهم حكام الله في أرضه على خلقه، حتى يستخرج من قبائه كتاباً مختوماً بخاتم من ذهب، عهد معهود من رسول الله صلى الله عليه وآله فيجفلون عنه إجمال الغنم فلا يبقى منهم إلا الوزير وأحد عشر نقيباً كما بقوا مع موسى بن عمران عليه السلام، فيجولون في الأرض فلا يجدون عنه مذهباً فيرجعون إليه، والله =

هي حقيقة الكل تلك، أي الولي المطلق، فُصِّنُ الله يبدأ من هناك^(١).

صنايع أهل البيت عليه السلام

على الرغم من كل الاحتياط الذي اتبعه أمير المؤمنين ومولى الموالى وقبله أهل اليقين عليه السلام، فقد تكلم في النهاية بكلام لافت مع معاوية. وعلى الرغم من أن هذا الكلام يعدّ من الأسرار، إلا أنه ذُكر في «نهج البلاغة» أيضاً. فقد كتب معاوية لعنه الله لأمر المؤمنين عليه السلام رسالة تضمّنت تجاوزات من قبله. فأتاه الجواب من أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيه: «إنا صنائع ربنا والخلق بعد صنائع لنا»^(٢).

=إني لأعرف الكلام الذي يقوله لهم فيكفرون به»، (كمال الدين وتمام النعمة، ج ٢ ص ٦٧٢ - ٦٧٣ ح ٢٥). وقد كتب الشيخ الصدوق تعليقا على هذه الرواية، ومما جاء في هذا التعليق قوله: «لعل المراد بالكلام الذي يذكره القائم عليه السلام لأصحابه هو جعله كربلاء قبلة للناس»، فتن في عصر الظهور الشريف، ص ٣٠٤.

(١) ﴿وَلَمُصَنِّعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (سورة طه، آية ٣٩)، وعين الله هو أمير المؤمنين، حيث قال عليه السلام: «أنا علم الله وأنا قلب الله الواعي ولسان الله الناطق وعين الله الناطرة وأنا جنب الله وأنا يد الله»، بحار الأنوار، ج ٢٤ ص ١٩٨ باب ٥٣ ح ٢٥.

(٢) (نهج البلاغة، الكتاب ٢٨). وفي موضع آخر، يقول إمام الزمان عليه السلام: «نحن صنايع ربنا والخلق بعد صنائعنا»، (كتاب الغيبة، ص ٢٨٥؛ بحار الأنوار، ج ٥٣ ص ١٧٨). «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَيْسَ لِقَضَائِهِ دَافِعٌ، وَلَا لِعَطَائِهِ مَانِعٌ، وَلَا كَصُنْعِهِ صُنْعُ صَانِعٍ»، (دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة، مفاتيح الجنان). ويقول الله تعالى: ﴿وَأَصْطَفَيْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (سورة طه، آية ٤١)، ونفس الله هو أمير المؤمنين عليه السلام، ففي إحدى الزيارات التي يُزار بها عليه السلام يرد: «السلام على نفس الله تعالى القائمة فيه بالسنن وعينه التي من عرفها يطمئن»، (بحار الأنوار، ج ١٠٠ ص ٣٣٠ - ٣٣١). ورد في كتاب «مقدمة وتعليقات مفاتيح الغيب»، ص ٨١١: «... النفس الكلية يعني الكلية الإلهية المسماة... شجرة طوبى وسدرة المنتهى وبجثة المأوى، وهي منزلة العلوية العليا التي هي خليفة المحمّدية البيضاء الذي هو عقل الكلّ المسمّى بروح القدس الأعلى، كما ينبغي أن يسمى نفس الكل بروح القدس الأدنى، ومنزلة المحمّدية البيضاء من العلوية العليا منزلة آدم من حواء، كما أشار إليه عليه السلام بقوله المشهور: أنا وأنت يا عليّ أبوا هذه الأمة، يعني الخليفة كلّها، فأين التعلّم من الأستاذ البشريّ بما هو بشريّ، وأنا (أنتي)=

عَلِمَ معاوية أنه لو طلب من الإمام استدلالاً على ذلك، لأظهر الإمام هذه المسألة بالشهود العيني لكل الوجود. لقد قال الإمام عليّ عليه السلام: «إِنَّ كُلَّ هَذَا الْعَالَمِ هُوَ مِنْ صَنْعِ يَدِينَا»^(١)، فاحذروا! هنا، إلتزم معاوية الصمت ولم يعلق على هذه النقطة، ولم يقل: يا أيها الناس، تعالوا وانظروا، إن ابن أبي طالب يدعي الربوبية. وذلك لعلمه بأنه إذا قام بمتابعة هذا الحديث، سيقوم أمير المؤمنين عليه السلام بهذا الفعل وسيُظهر هذا الكلام، ولذا، أثر التزام الصمت.

أثر تحقق المحبة التامة

بناءً على ذلك، فإن الهداية والمعرفة والمحبة هي صنع الله. وفي ظهور المحبة، يكون الله هو حقيقة الكل، بحيث لا يبقى هناك لا محب ولا محبوب ولا حب. إذًا، ما الذي يبقى في ظهور مثل هذه المحبة؟ يبقى الله وحده.

فما هو الله هنا؟ إنه خارجٌ عن إدراك هذا الوجود المادي والمعنوي والظاهري والباطني، أي إنه لا يُدرك^(٢) لا بحسنا الظاهري ولا بحسنا الباطني،

=من الأستاذ الإلهي القائم مقام الإله جلّ وعلا وهو ربّ الإنساني، أي الإنسان المحمّدي الذي هو خليفة الحق الحقيقي الغني المطلق، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، وقال: «الرحمن، علّم القرآن، خلق الإنسان، علّمه البيان»، وقال: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾، والسماء هي المحمدية والميزان هو العلوية، وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، فافهم فهم نور».

(١) إن الذات البحث البات لا يجوز أن تكون بذاتها فاعلاً وعلة للممكنات، وذرات الكائنات لتقدس الحق وتنزهه عن هذه الصفات في رتبة الذات، لعدم كونها من صفات الكمال في رتبتها، فليس فاعلاً ولا مفعولاً، وليست علة ولا معلولاً، وليست صفة ولا موصوفاً، وهذه الاعتبارات إنما هي حدود خلقه وصنعه، ومسميات آثار قدرته ومشيتته، فلا يجري عليه ما هو أجراه في بريته، ولا يعود إليه ما هو أنشأه في خليقته، قال مولانا الرضا عليه السلام: «فكل ما في الخلق لا يوجد في خالقه وكل ما يمكن فيه يمتنع من صانعه»، توحيد الصدوق، ص ٣٥ - ٣٧؛ تحف العقول، ص ٦١.

(٢) إن اختلاف مشاعر الإنسان دليل على اختلاف مداركه وهما دليلان على اختصاص كل إدراك بما يناسبه من المُشعر الخاص به، لذا فلا تطلب الإبصار بحاسة السمع أو=

ولكنّه موجود. إن الله يظهر عند تحقق المحبة التامة^(١)، ولكن حين يتعلق المرء بأيّ شيء، مهما كان شكل التعلق، لا يظهر الله. فالظهور التام لا يحصل إلا حين لا يكون هناك تعلق بأيّ شيء على الإطلاق، حتى لو كان هذا التعلق بالمحبة^(٢) أو بالعبادة. ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، «وحده وحده وحده».

المظهر التام للحقيقة

إن المظهر التام^(٣) لحقيقة «وحده وحده وحده» في العالم هو الذوات المقدسة للأربعة عشر معصوماً، ويتقدمهم جميعاً في المظهرية التامة حضرة سيّد الشهداء (عليه السلام). إنه «وتر الله الموتور»^(٤). ومن «وتر الله الموتور» تنبثق «وحده وحده وحده». ففي هذا الكلام النوراني الذي يهزّ الوجود، «وتر الله الموتور»، تتجلى «وحده وحده وحده» في مراتبها العليا. وفي الظهور التام لـ«الله أحد»، يخرج «وتر الله الموتور» الذي هو الإمام الحسين (عليه السلام)^(٥).

=التكلم بالبصر أو التذوق بالأذن ما دمت في هذه الدنيا ولا إدراك الغيوب بالحواس الظاهرية وكذلك لا بدّ لك من مدرك تصديقي حتى تقبل وتصدق كلام الأنبياء والأئمة سلام الله عليهم وإلا فلا طريق لك لتصديقه.

(١) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «لا بدّ من نفي الصفات ولو لم تُنف الصفات عن المحبوب، فلن تتمّ المحبة».

(٢) ورد في الرواية: «المحبة حجاب بين المحبّ والمحبوب»، نجاة الهالكين، ص ٢٣٨.

(٣) فعلاً وصفةً وذاتاً، كونهم أسماء الله وصفاته، فعن أبي عبد الله (عليه السلام): «نحن والله الأسماء الحسنی التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلا بمعرفتنا»، (الكافي، ج ١ ص ١٤٤). ﴿إِذَا نُنِیَ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ (سورة البقرة، آية ٥٨)، والرحمن هو اسم من أسماء الله تعالى متعین في الإمام الحسين (عليه السلام)، ولعلّ آيات الرحمن هي مجالس العزاء، ولهذا عند سماعها يختر المؤمنون خضوعاً وانكساراً وبكياً.

(٤) ورد في الزيارة المطلقة الأولى للإمام الحسين (عليه السلام): «وَأَشْهَدُ أَنَّكَ وَتَرُ اللهَ الْمَوْتُورُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»، (مفاتيح الجنان)، «والموتور هو الذي قُتل له قتيْل فلم يدرك دمه، ومنه الحديث: «أنا الموتور»، أي صاحب الوتر الطالب بالثأر، مجمع البحرين، ج ٤ ص ٥٠٨.

(٥) إنّ الحسين سلام الله عليه الذي هو صانع كربلاء وموجدّها وهو سرٌّ بحدّ ذاته. فكربلاء =

=هي محطّ الرّحال وهي جامعة الأسرار الإلهية، إذ أن كل ما فيها ظاهره سرّ وباطنه سرّ، بل هي سرّ في سرّ. ومن أراد معرفة شيء من هذه الأسرار لا بدّ له من الورود إلى كربلاء بالقلب والروح لا بالعقل فقط. فحين يتدخّل العقل لتحصيل معرفة ما، لا تتعدّى هذه المعرفة حدود حروفها وكلماتها ولا يكون لها أيّ تأثير في القلب. أما إذا سعى القلب إلى المعرفة، فستحوّل إلى نور يضيء وينير وجود الإنسان كله. ولذا، قال إمامنا الصادق (عليه السلام): «لَيْسَ الْعِلْمُ بِكَثْرَةِ التَّعَلُّمِ، إِنَّمَا هُوَ نُورٌ يَقَعُ فِي قَلْبٍ مَنْ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ»، (منية المريد، ص ١٤٩ - ١٦٧). وعندما تقع هذه المعرفة في القلب، يصبح الإنسان متصلاً بأهلها وهم محمد وآل محمد صلوات الله عليهم.

ورد في زيارة لأمر المؤمنين (عليه السلام): «السلام على شجرة طوبى وسدرة المنتهى»، (الزيارة المطلقة السادسة لأمر المؤمنين (عليه السلام))، فسدرة المنتهى هي أهل البيت عليهم الصلاة والسلام، ما يدلّ على أنهم الغاية والمقصد، ومن كلام للإمام الصادق (عليه السلام) مع المفصّل: «ظهور مولاك رحمة لمن آمن به وأقرّ، وعذاب على من جحد وأنكر، ليس وراءه غاية ولا له نهاية»، (الهداية الكبرى، الباب ٤ ص ٤٣٤)، فالطريق مسدود إلى ذات الحق، كما أفاد أمير المؤمنين (عليه السلام). وبغير طريق أهل البيت سلام الله عليهم لا يظهر التوحيد، إذ إنهم الأسماء الحسنى، كما ورد عنهم. ومن يريد أن يسلك في التوحيد طريقاً توصله إلى ذات الحق بغير أهل البيت (عليه السلام)، إنما يخوض في خيالات لا فائدة منها وأفكار لم ولن تعود عليه بأية نتيجة، ﴿كَرَّابٍ يَقِيعَ يَحْسَبُ الظُّمَأُ مَاءً﴾ (سورة النور، آية ٣٩)، فمن الماء ما هو مالح كماء البحر وما هو عذب كماء النهر، فأما ماء البحر فلا يروي العطشان، ومثله كمثّل ذات الحق التي لا يمكن الوصول إليها، وأما ماء النهر العذب فهو الذي يروي الظمآن وهو أصل الحياة والخلق وإليه يرجع كلّ مخلوق حيّ، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (سورة الأنبياء، آية ٣٠)، ومثّل هذا الماء كمثّل أهل البيت سلام الله عليهم الذين هم منشأ هذا الوجود وأصله. إذًا، فمن يريد أن يصل إلى مقام المعرفة بالحق، بعيداً عن مجرى الأسماء والصفات، لن يُفلح وسيذهب عمله هباءً منثوراً، ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ (سورة الفرقان، آية ٢٣). فبظهور الأسماء والصفات، تظهر ذات الحق وهو ما ورد في الزيارة الرجبية: «فيهم ملأت سماءك وأرضك حتى ظهر أن لا إله إلا أنت». ولنأخذ هذا الكلام ونعرّج به على كربلاء. لقد تحقّق ظهور كل الأسماء والصفات الإلهية في كربلاء، وما يُذكر عن ظهور الحقيقة المحمدية والعلوية والفاطمية هناك ما هو إلا مقدمة لإعلان تجلّي ذات الحق. فحين ظهرت جميع الأسماء والصفات الإلهية في كربلاء، إمتلأت بها سماؤها وأرضها، فتجلّت ذات الحق بكل شيء فيها. ولهذا، أصبح كلّ من يرتبط بكربلاء حيّاً ويربط بالذات، وأمسى، بالتالي، مسجوداً له، ليس ترابها فقط وإنّما كلّ حرفٍ من حروفها=

=وذرة من ذراتها. وتجدر الإشارة إلى أنّ ذات الحقّ تجلّت للإمام الحسين عليه السلام نفسه، أمّا بالنسبة إلينا، نحن ممكنات الوجود، فإنّ تجلّي الذات إنّما يكون عبر الحسين وأهل البيت سلام الله عليهم وليس بشكل مباشر.

لا ندري ما الذي جرى بكربلاء حتى أصبحت عرش الرحمن، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (سورة طه، آية ٥)، ومظهر اسم الرحمن وتعيّنه، بتمامه وكماله، هو الإمام الحسين عليه السلام. فالحقيقة (أي ذات الحق) التي ظهرت في كربلاء لم تظهر في القرآن الكريم لأنّ القرآن هدىّ للنّاس، عامّة لا خاصّة، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ (سورة البقرة، آية ١٨٥). وعلم الله مُطلق ولا يُحدّد بحدّ، حتى ولو كان هذا الحدّ هو القرآن الكريم، بدليل الآية الكريمة: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ (سورة النجم، آية ١٠)، فلم يُعلم كلّ ما أوحى إليه إنّما هناك ما بقي مكتوماً. كما أن ضمير الهاء العائد إلى كلمة «أنزلناه» في آية: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، لا يدلّ على أنّ ما أنزل اقتصر على القرآن فحسب، فضلاً عن أنّ آية ﴿نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا﴾، تشير إلى أن النزول مستمر في ليالي القدر بشكل دائم، حيث جاء الفعل بصيغة المضارع لا الماضي. إذّا، إن الرسول الأعظم عليه السلام لم يُظهر كلّ ما عنده، فقد ورد في رواية للإمام العسكري عليه السلام: «وروح القدس في جنان الصاقورة ذاق من حدائقنا الباكورة»، (بحار الأنوار، ج ٧٨ ص ٣٧٨)، وهذه الجنان هي عبارة عن باطن رسول الله عليه السلام وقلبه وما يختلج في صدره من حبّ وتوحيد لله تعالى وعشق لأمير المؤمنين عليه السلام، فقد حاول جبرائيل، الذي هو مظهر العقل الكلّي، الغوص في قلب الرسول عليه السلام إلا أنه عجز عن ترجمة كل ما كان موجوداً هناك، وبالتالي، بقي الكثير مخفياً ومكتوماً في صدره عليه السلام. ولكنّ تلك الحقيقة ظهرت بكربلاء، حتى أمست كل ذرة من ذرات ترابها مُستبطنّة للألوهية، إذ سطعت أشعة الذات على كربلاء بأسرها. وهنا نسأل، هل كانت أشعة الذات التي سطعت في كربلاء أم الذات نفسها؟! تحتاج هذه المسألة إلى تمعّن وتدبّر، فلو قضى الإنسان ليلة واحدة يتفكّر فيها وفي تفاصيلها، لجلّى الله عزّ وجل على قلبه من تلك الحقائق ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر! وهل التجلي الذي حصل في كربلاء جرى وقتها ثم انتهى وتوقّف؟ لا، بل لا يمكن لظهور ذات الحق أن ينتهي كونه غير مقرون ولا محدود بزمان أو مكان - فكلّ عزاء عاشوراء وكلّ مجلس كربلاء. ولقد حصل التجلي في كربلاء يوم عاشوراء، حيث حضرت السيدة الزهراء عليها السلام عند جسد ولدها الحسين سلام الله عليه، وذاك التجلي سرى وجرى وظهر في كل شؤونات كربلاء وما يرتبط بها، ولذلك ورد أن الزهراء سلام الله عليها تحضر في كل مجلس يُقام على ولدها الحسين عليه السلام.

وحين سطعت الذات أضواء وأنارت كلّ شيء حتى حوّلت الظلمة إلى نور وبدلت =

=السيئة حسنة. ولأجل هذا يقول الإمام الصادق (عليه السلام): «مَنْ أَتَى قَبْرَ الْحُسَيْنِ (عليه السلام) عَارِفًا بِحَقِّهِ غُفِرَ [الله] لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ»، (كامل الزيارات، ص ١٥٠). ويستوجب الغفران خارج أرض كربلاء أَنْ يَسْتَغْفِرَ الْإِنْسَانُ وَيَنْدِمَ عَلَى ذُنُوبِهِ وَيَتُوبَ مِنْهَا، حَتَّى يَتَحَقَّقَ بَعْدُهَا الرَّجُوعُ إِلَى اللَّهِ، فَمَعْنَى التَّوْبَةِ هُوَ الرَّجُوعُ إِلَى اللَّهِ بَعْدَ الْإِنْفِصَالِ عَنْهُ. أَمَّا فِي كَرْبَلَاءَ، فَبِمَجْرَدِ أَنْ تَطَأَ قَدَمَ الزَّائِرِ أَرْضَهَا، يَتَحَقَّقُ الرَّجُوعُ إِلَى اللَّهِ، فَتَكُونُ التَّوْبَةُ تَلْقَائِيَّةَ نَتِيجَةِ وَقُوعِ التَّوْحِيدِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ تِلْكَ الْأَرْضِ، فَيَصْبِحُ وَاحِدًا مَعَ تِلْكَ الْحَقِيقَةِ. كَمَا وَتَذَكَّرُ إِحْدَى الرِّوَايَاتِ أَنَّ أَيَّامَ زِيَارَةِ الْإِنْسَانِ لِكَرْبَلَاءَ لَا تُحْسَبُ مِنْ عَمْرِهِ، فَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ وَجَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ (عليهما السلام) يَقُولَانِ: «إِنَّ اللَّهَ عَوَّضَ الْحُسَيْنَ سَلَامَ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ قَتْلِهِ: أَنَّ الْإِمَامَةَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَالشَّفَاءَ فِي تَرْبِيَّتِهِ، وَإِجَابَةَ الدُّعَاءِ عِنْدَ قَبْرِهِ، وَلَا تُعَدُّ أَيَّامُ زَائِرِيهِ جَائِيًا وَرَاجِعًا مِنْ عُمْرِهِ»، (الأمالي، م ١١ ص ٣١٧ ح ٩١). فلم ذلك؟ هل لأنه دخل في عالم النور؟ أي نور هذا؟ فذات الحق ليست بنور، بل اسم الذات هو نور، «بسم الله النور»، أمّا الحقيقة هنا فأمرٌ مختلف... وعن صفوان الجمال، عن أبي عبد الله (عليه السلام): «قلت: فما لمن قتل عنده - يعني عند قبر الحسين (عليه السلام) - جَارٌ عَلَيْهِ السَّلْطَانُ فَقَتَلَهُ؟ قَالَ: أَوَّلُ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهِ يَغْفِرُ لَهُ بِهَا كُلُّ خَطِيئَةٍ، وَتَغْسِلُ طِينَتَهُ الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى يَخْلُصَ كَمَا خَلَصَتْ الْأَنْبِيَاءُ الْمُخْلِصِينَ»، فتصبح روحه كروحهم، وهكذا تصعد إلى بارئها، فما هذا المقام الذي يصل إليه زائر الحسين! وأي رفعة تلك التي يحصل عليها؟ إن هذه الحقيقة سارية ليس لها إطار أو حد لا ارتباطها بالمطلق، أي بالذات الإلهية إلا أن جهلنا يمنعنا من أن نوقن بها ولذا قالوا: «ما أعظم مصيبتك عند من عرف الله»، فأنتى لمن لا يعرف الله أن يعرف الحسين بن علي وعظم مصابه؟!

إن استخفاف الناس بالروايات التي وردت بشأن كربلاء وزيارتها واستعظامهم لهذا الأمر إنما يرجع إلى جهلهم بأرض كربلاء وبالحقيقة التي ظهرت فيها، فزائر كربلاء لا يدري على أي أرض يقف ولا أي حقيقة تحمل! وإن لم تنتقش هذه الحقيقة بالقلب لا يمكن للعقل أن يفهمها، ولا سبيل لانتقاشها بقلوبنا إلا إذا قاموا هم (عليهم السلام) بنقشها، فقلب المؤمن المتعطش للحب والمعرفة هو اللوح، والقلم الذي يكتب وينقش به هو سيد الشهداء أبو عبد الله الحسين (عليه السلام) ومداد القلم هو دمه الذي لم تسقط منه قطرة واحدة لقداسته والذي أسكنه الله في عالم الخلد «أشهد أن دمك سكن في عالم الخلد واقتشعرت له أظلة العرش». لكن هذه الكتابة وهذا النقش لا يتحققان إلا بعد العطش والطلب لتلك المعرفة. وكلما ازداد العطش واشتد الطلب، كلما كان رسم الكتابة ثابتاً أكثر. وهذا الدم - الذي لا مكان له في هذا العالم ولذا أسكنه الله تعالى في عالم آخر - هو أحد أسرار كربلاء وهو يقطر في حالة واحدة فقط، حين تسقط تلك القطرة في قلب الموالي

والمحبّ. فإذا سقطت في ذلك القلب، تفجّر العشق والحبّ في وجود صاحبه وسرّت الولاية في كلّ ذرّات وجوده، فهذا الدم هو سرّ العشق المنتشر في عالم الوجود.

عندما أتت زينب سلام الله عليها إلى مصرع الحسين (عليه السلام) في آخر لحظات عمره الشريف، كان مغشياً عليه لكثرة ما لاقاه من الجراحات، «فألحّت عليه زينب بالخطاب وكثر منها البكاء الى أن أفاق، فرمقها بطرفه الشريف وأشار إليها بيده فغشي عليها، فلما أفاق قالت له: أخي بحق جدي رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلا ما كلمتني، وبحق أبي أمير المؤمنين إلا ما خاطبتني، يا حشاش مهجتي بحق أمي فاطمة الزهراء إلا ما جاوبتني، يا ضياء عيني كلمني، يا شقيق روحي جاوبني. قال: فانتبه الحسين (عليه السلام) من قولها وقال: يا أختاه هذا يوم التناد والهزاق (لعلّ الكلمة في الأصل «هراق» من إهراق الدماء)، هذا اليوم الذي وعدني به جدّي وهو إليّ مشتاق، ثم أغمّي عليه...»، (معالي السبطين، ج ٢ ص ٤٠). قال لها: «يا أختاه، هذا يوم التناد»، والتناد من المناداة، فمن الذي كان يناديه؟ وهو من كان ينادي؟ ولِمَن كان الحسين بن عليّ يَجُود بنفسه في تلك اللحظات؟ لقد كان شمر بن ذي الجوشن لعنه الله يقطّعه وهو يقول: «ولو قطعني بالحبّ إرباً لما مَالَ الفؤاد إلى سواك!» كما رُوي عن سَكينة بنت الحسين (عليه السلام) أنها قالت: لَمَّا رميتُ بنفسي على جسد أبي الحسين أشمّه وأودّعه، سمعتُ الكلام يخرج من منحره وهو يقول: «بنيّة سَكينة، أقرئي شيعتي عني السّلام، وقولي لهم: إنّ أبي الحسين قُتل عطشان»، (ثمرات الأعواد، ج ١ ص ١٠٢). يصعب على الإنسان تخيّل ما جرى في كربلاء، فأيّ حقيقة ظهرت هناك لم تكْ قد ظهرت من قبل أبداً في الأرض وسائر الوجود؟ لقد تحقّق الظهور التام للتوحيد في كربلاء، وعلى من يريد الوصول إليه أن يقصدها، فعلى أرضها فقط تجلّت ذات الحق وظهر التوحيد بتمامه وكماله.

ورد في زيارة الناحية المقدسة: «السّلام على ساكن كربلاء»! فَمَن الذي يسكن في كربلاء؟ يقول الله تعالى في الحديث القدسيّ: «لا تسعني أرضي ولا سمائي بل يسعني قلب عبدي المؤمن»، وفي حديث قدسيّ آخر: «إن قلب المؤمن عرش الرحمن»، ويقول تعالى في كتابه العزيز: ﴿الزَّحْنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى﴾. وإذا أردنا أن نربط كلّ ما سبق ببعضه البعض، نرى أن القلب الذي وسّع الله، والذي هو عرش الرحمن بحسب الحديث القدسيّ، هو قلب عاشق الحسين (عليه السلام)، وهو قلبٌ يحوي كربلاء. فلم يسكن الله في أيّ مكان ولكنّه سكن كربلاء، إذ أدّى ما جرى على أرضها إلى إحداث تغيير في التكوين، كيف لا وقد قالت السيدة زينب سلام الله عليها مخاطبةً ابن أخيها زين العابدين (عليه السلام) يوم عاشوراء: ما لي أرى الكون قد تغيّر؟ ولكنّ السؤال الذي يطرح نفسه: ما الذي أدّى إلى حصول التغيّر؟ يقول الله تعالى في الحديث القدسيّ: «أنا عند المنكسرة قلوبهم»، فهل هذه «أنا» هي بذاته أم بتمظهر الأسماء والصفات؟ إن الله تعالى يحضر عند المنكسرة =

قلوبهم من عوام الناس ويتجلى فيهم بأسمائه وصفاته، أما حين يُكسر قلبُ كقلب الحسين بن عليّ عليه السلام، فإنَّ الله يحضر عنده بذاته التي تتجلى فيه! وبالتالي، هذه الـ«أنا» تعني تجلي ذات الحق في كربلاء وظهورها ظهوراً تاماً هناك. إذًا، لقد تجلّت ذات الحق للمرّة الأولى في كربلاء، فما الذي حدث عندما تجلّت؟ الأجدر أن نسأل: ما الذي لم يحدث؟ لذا، إياكم والاستخفاف بزيارة قبر الحسين بن عليّ أو بأيّ شأن من شؤونات كربلاء، لأنكم بذلك تستخفّون بذات الحق وتجلياتها وسطوعها وأشعتها، أولم يخبرنا الإمام الرضا عليه السلام أنّ «من زار قبر أبي عبد الله عليه الصلاة والسلام بشطّ الفرات، كان كمن زار الله فوق عرشه»، (التهذيب، ج ٦ ص ٤٥ ح ٩٨)؟ وفي الرواية أيضاً أن الله يجلس مع الحسين بن عليّ على سرير من نور، قال أبو عبد الله الحسين عليه السلام: «إذا قام القائم عليه السلام، وافوا فيها بينهم الحسين عليه السلام حتى يأتي كربلاء فلا يبقى أحد سماوي ولا أرضي من المؤمنين إلا حفوا بالحسين عليه السلام، حتى أن الله تعالى يزور الحسين عليه السلام ويصافحه ويقعد معه على سرير. يا مفضل: هذه والله الرفعة، التي ليس فوقها شيء ولا لوارثها مطلب»، (صحيفة الأبرار، حديث ٩٢)، وهذه من الروايات التي لا يستطيع عقل الإنسان أن يتحمّلها، أمّا القلب فيسكّر بها!

حذار! أن تظنّ أنّ كربلاء نقطة جغرافية، بل ارتقي بخيالك وخلق به. «السلام على ساكن كربلاء»، إن الحسين بن عليّ وصاحب الزمان عليه السلام يسكنان في كربلاء ظاهراً، أمّا باطناً فالله يسكن هناك! لذا، تهفو قلوب العشاق وتنجذب إليها، كما يقصدها كلّ الموالين حين تشتدّ عليهم الأمور ويضيّقون ذرعاً بالدنيا، فكربلاء ليست من هذه الدنيا! ولكنّ الذات، كما قلنا، لم تسطع هناك فقط، بل شعت في كل أرض يُقام فيها عزاء الحسين بن عليّ، حيث تعتبر هذه الأرض جزءاً من كربلاء، وكذلك يعتبر كل قلب فيه الحسين بن عليّ جزءاً من كربلاء ومن العرش أيضاً. ومن هنا، ليست كربلاء نقطة جغرافية، فقلب المؤمن عرش الرحمن، وكل المؤمنين قلبهم واحد، قلبهم «الحسين» الذي يعتلي هذه العروش. ولا بدّ من الالتفات هنا إلى أن الحسين عليه السلام قلبه عرش الرحمن وهو العبد المؤمن الذي يَسعُ الله تعالى حين يكون الكلام من جهة ذات الحق، أمّا حين يكون الكلام من جهة تمظهر الأسماء والصفات الإلهية، فتكون قلوب المؤمنين هي عرش الحسين عليه السلام، المتعيّن فيه اسم الرحمن كما سبق وذكرنا، كما يكون الموالون هم العباد المؤمنون المقصودون بحديث «لا تسعني سمائي ولا أرضي...» لأنه من المعلوم أنّ كل الموجودات مندرجة تحت الوجود المقدّس لرسول الله صلى الله عليه وآله، وبالتالي هي مندرجة تحت الوجود المقدّس لأبي عبد الله الحسين عليه السلام، إذ قال عليه السلام: «حسين مني وأنا من حسين». وتُخبر الرواية أنّه بعد ثلاثة أيام، يُرفع بدن الإمام إلى العرش، كما ورد في الزيارة الجامعة: «جعلكم بعروشه محدقين حتى منّ علينا بكم».

= ما الذي فعلته ذات الحق، حين سطعت في كربلاء، بعليّ الأكبر وسكينة عليهما السلام؟ لقد جعلت عليّ الأكبر ممسوساً بذات الله وسكينة مستغرقة بها، والاستغراق يختلف عن المسّ، إذ إن في المسّ تمام الوحدة. فعندما أراد عليّ الأكبر أن ينزل إلى ساح القتال، إلى ساح العشق، قال الحسين عليه السلام مخاطباً النساء اللاتي تمسكن به: «دعنه فإنه ممسوس في الله»، (حلية الأولياء، ج ١ ص ٦٨). لقد تكلم الإمام الحسين بشيء قد رآه فعلاً، فماذا يعني ممسوس في الله؟ والكلام عن عليّ الأكبر لا الحسين بن عليّ! وهذا مما لا يقبله أحد، أفلهذه الدرجة شعت ذات الحق على الكل، حتّى الأصحاب الذين يخاطبهم الإمام بالقول: «بأبي أنتم وأمي»؟ وإذا كان هذا الذي جرى مع من كانوا بكربلاء، فما الذي جرى مع حسين بن عليّ نفسه؟

عندما سمعت زينب سلام الله عليها، هذه المرأة العلوية واللبوة الحيدرية، الحسين عليه السلام يتكلم في آخر لحظات حياته، عرفت ما يجري في باطنه وظاهره، فأرادت أن تسمع صوت الله من الحسين بن عليّ، لأنّ من كان يتكلم في تلك اللحظات لم يكن الحسين نفسه، إذ يقول الله تعالى عن العبد المؤمن: «... كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها»، فكيف بالحسين بن عليّ؟ إذاً، ما الذي تكلم به الله تعالى في كربلاء وماذا قال هناك؟ لقد عرج رسول الله صلى الله عليه وآله إلى السماء ليلة الإسراء والمعراج وسمع صوت الله تعالى يخاطبه فسأله: أأنت تخاطبني أم عليّ بن أبي طالب؟ هناك، خاطب الله عزّ وجلّ الرسول صلى الله عليه وآله بصوت عليّ عليه السلام، أمّا هنا، فخاطب زينب بصوت الحسين عليه السلام. ولقد عرج صلى الله عليه وآله إلى السماء لأنّه أراد أن يتكلم مع ذات الحق، غير أنّ الحسين بن عليّ لم يعرج، بل إنّ ذات الحق هي التي تراءت وتجلّت له في كربلاء. وقبل أن يجري ما جرى على الحسين بن عليّ، لم يظهر التوحيد بتمامه وكماله على أيّ أرض أو أيّ أحد.

هناك، تمكّنت زينب سلام الله عليها عبر الحسين بن عليّ من أن تسمع الله، إذ كان هو من يتكلم، فبمّ تكلم الله عزّ وجلّ مع زينب في تلك اللحظات؟ ومن الذي انجذب إلى الحقيقة التي ظهرت في كربلاء واستمع إليها؟ لقد سارع الأطفال إلى مصرع الحسين عليه السلام من أجل سماع صوت الله من فم الحسين عليه السلام، إذ كانوا جميعاً تواقين لسماع صوت تلك الحقيقة وهم وحدهم من سمعوها دون الأصحاب، «فواحدة تحنو عليه تضمه»، من كانت تضم؟ «وأخرى عليه بالرداء تُظلل»، لأنها لم تُرد لأحد أن يسمع بتلك الحقيقة أو تنكشف له، وقد ورد في الحديث النبويّ: «إن من عباد الله ما هم ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله»، (فصّ حكمة عصمتية في كلمة فاطميّة، ص ٢٣). لم يسمع بهذه الحقيقة، إذاً، إلا رقيّة وسكينة وزينب وأطفاله وزوجاته، وإلا لم قال الإمام الحسين لرقية: اللقاء في خربة الشام؟ ألم تكن معه ويكن=

=معها طوال الطريق؟ فلقاء مَنْ كان ذاك؟ لقد غيّر الحسين بن علي القضاء والقدر والمكتوب وكذا فعلت رقية، إذ غيّرت كل شيء، لأنّ نفس الحقيقة التي ظهرت في كربلاء، أظهرتها رقية في الشام وبات الرقيّ من هناك، وظهر النور في كل أرض خبيثة وملعونة. لقد كان اللقاء في الشام هو لقاء مع الله، ولذلك يقول آية الله السيد أحمد النجفي حفظه الله أن مثل رقية كمثّل آية ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فهي صغيرة ولكنها تحمل كلّ الحقيقة... لقد زرع الحسين بن علي في كل أرض طفلاً، وكان كل طفل مات على الطريق تلياً لله. فالله كان عنده أنبياء يبلغون رسالته، أما بالنسبة للحسين فكانت السيدة زينب والسيدة رقية والسيدة سَكينة والسيدة خولة والسيدة صفية وكل أطفاله وزوجاته هم المبلّغون لرسالته ولكنّ هذا التبليغ كان بالدم وتحملّ الضرب والقتل والأذى، إذ ورد في الرواية: «كونوا دُعاةً لنا بغير ألسنتكم»، (حاشية مجمع الفائدة والبرهان، ص ٢٤). وقد استطاعوا تحمّل كل ذلك لأن الحقيقة ظهرت فيهم، واجتثّت الأنانية من جذورها، فالأنانية برمتها تنكسر في كربلاء. وبعد التبليغ، فارق الأطفال الحياة لأنهم ما استطاعوا تحمّل الفراق، ووحدها سَكينة من بقيّ منهم، لأنها كانت مستغرقة بالله، فظلت لتعمل على ترسيخ هذه الحقيقة وانتظرت ولادة مَنْ تضعها فيه ثم ارتحلت عن هذه الدنيا بعد ذلك.

هناك في كربلاء، لم يعدّ الحسين بن عليّ هو نفسه، بل أصبح «هو»، وال«هو» إشارة إلى الهوية الغيبية، فصار ﷺ يشير إلى الذات (أي مولاه) ويدلّ على معناه، وقد ورد في الدعاء: «أسألك بحقّ الحسين بن عليّ ﷺ... والدليل على ذاتك...»، (أدعية ساعات النهار، الساعة الثالثة، مفاتيح الجنان). فتلك الحقيقة هي التي كانت تنطق وتكلم بالقرآن الكريم على رأس الرمح. لقد نزل القرآن على نبيّنا محمد ﷺ بصوت جبرائيل، أمّا القرآن الذي كان يُتلى من كربلاء وطوال رحلة السبي، فكان بلسان الله عزّ وجل، ومن فم الحسين بن عليّ، «كنت لسانه الذي ينطق به». وفي الرواية عن زيد بن أرقم: «كنتُ في غرفة لي فمرّوا عليّ بالرأس وهو يقرأ ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾، فوقف شعري وقلت: والله يا ابن رسول الله رأسك أعجب وأعجب». والأعجب من ذلك أن تصدح الذات بالقرآن! لقد ظهرت الحقيقة كل الحقيقة من كربلاء إلى الشام، وبعدها اختفى رأس الحسين بن عليّ، حيث تختلف الروايات عن المكان الذي آل إليه الرأس الشريف، فتقول إحداها إنّ ملكاً أخذ الرأس، وتقول أخرى إنه دُفِن مع الجسد الشريف في كربلاء، بينما تقول ثالثة إنّ بعض الشيعة أخذوه ووضعوه بجانب قبر أمير المؤمنين ﷺ، حيث ورد عن الإمام الصادق ﷺ في جوابٍ على رجلٍ سأله: «جُعِلَتْ فداك أليس الحسين ﷺ بكربلاء؟ فقال: نعم، ولكن لما حمل رأسه إلى الشام سرقه مولى لنا فدفعه بجانب أمير المؤمنين صلوات الله عليهما»، (الفروع من الكافي، =

عالم آرا خودنمایى مى کند یا حسین است و خدایى مى کند
فلا نبیّ مرسل ولا ملك مقرب ولا مؤمن امتحن الله قلبه بنور الإيمان^(١) ولا
أيّ أحد في العالم يصل إلى غبار نعال قدم الغلام الأسود الذي كان مع
الحسين عليه السلام.

ومن أحسن من الله صبغة!

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾^(٢)، «عبدی اطعنی تكن مثلي أقول
للشيء كن فيكون وتقول للشيء كن فيكون»^(٣)، هذا في باب الظهور. يُقال:

=ج ٤ ص ٥٧١). وهي الرواية الأقوى. فبعد أن نشر الرأس الحقيقة، رجع إلى أصله
ومنتهاه ومأواه وإلى الأوّل والآخر، «إنا لله وإنا إليه راجعون». لقد ذهب الإمام
الحسين عليه السلام ولكننا لا ندري إلى أين! ذهب بعد أن أقام الصلاة وآتى الزكاة، «أشهد
أنك قد أقيمت الصلاة وآتيت الزكاة...»، هو وحده من فعل ذلك في حين أنّ غيره لم
يستطع. وإذا ما اتصلنا بهذه الحقيقة الحسينية، من خلال عزائها وتراها وطعامها
وشربها (كناية عن المعرفة والمحبة)، وتوحدنا معها، نكون بذلك قد أقمنا الصلاة
بالتوحيد مع الحسين لا بسواه، وإلا فلن نستطيع إقامة الصلاة أبداً. وقد أعلنها أبو عبد
الله الحسين عليه السلام بصريح العبارة حين قال: «فإنّ مَنْ لحق بي استشهد»، وهكذا يصبح
اللاحق حياً بحياته عليه السلام وإلا فسيرجع إلى العدم.

(١) قال أبو عبد الله عليه السلام: «إن حديثنا صعب مستصعب شريف كريم ذكوان ذكي وعمر لا
يحتمله ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا مؤمن ممتحن»، (بصائر الدرجات، ص ٢٢). قال
أبو جعفر عليه السلام: «إن حديثنا صعب مستصعب ذكوان أجرد لا يحتمله ملك مقرب ولا نبي
مرسل ولا عبد امتحن الله قلبه للإيمان»، بصائر الدرجات، ص ٢٤.
(٢) سورة البقرة، آية ١٣٨.

(٣) ورد في الحديث القدسي: «عبدی اطعنی أجعلك مثلي، أنا حيّ لا أموت أجعلك حياً لا
تموت، أنا غني لا أفقر أجعلك غنياً لا تفقر، أنا مهما أشاء يكون، أجعلك مهما تشاء
يكون»، (الجواهر السنية، ص ٣٦١). ويقول الله تعالى: «يا ابن آدم أنا أقول للشيء كن
فيكون، أطعني في ما أمرتك أجعلك تقول للشيء كن فيكون»، (مستدرك الوسائل، ج ١١
ص ٢٥٨). «يا ابن آدم، أنا الله حيّ لا يموت، إن أطعني وقبلت وصيتي جعلتك حياً لا
تموت. يا ابن آدم أنا الله أقول للشيء كن فيكون، أطعني أجعلك تقول للشيء كن
فيكون»، (رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، ج ١ ص ١٥٨). وفي الحديث القدسي =

«تخلقوا بأخلاق الله»^(١)، واتصفوا بصفات الله، كما يقال الصبغة الإلهية^(٢) والرائحة الإلهية والخُلُق الإلهية والصفة الإلهية، ولا عيب في ما نقوله، فنحن نتكلم عن الصفة لا عن الذات، وكل الوجود هو اسمه. كن أنت اسم الله يا عزيزي^(٣)، إرفع هذه الأستار والحوائل^(٤) التي وضعتها لتكون اسم الله.

=أيضاً: «يا ابن آدم خلقتك للبقاء وأنا حي لا أموت أطعني في ما أمرتك به وান্তه عما نهيتك عنه أجعلك مثلي حياً لا تموت، أنا الذي أقول لشيء كن فيكون أطعني في ما أمرتك به أجعلك مثلي إذا قلت لشيء كن فيكون»، (عدة الداعي، ص ٣١٠). وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن لله عبداً أطاعوا الله فأطاعهم الله يقولون للشيء بأمره كن فيكون»، الصراط المستقيم، ج ١ ص ١٦٩.

(١) (بحار الأنوار، ج ٥٨ ص ١٢٩). وأخلاق الله أسمائه وصفاته وقد كان النبي الأعظم ﷺ ﴿لَعَلَّيْ خُلُقِي عَظِيمٍ﴾.

(٢) حتى يصبغ الله تعالى عبده بتلك الصبغة، يغتّه بالبلاء ليصقله ثم يصبغه بأسمائه وصفاته ليصبح خليفته، فقد ورد عن أبي عبد الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى إذا أحب عبداً غتّه بالبلاء غتاً وثجّه بالبلاء ثجاً، فإذا دعاه قال: لبيك عبي، لئن عجّلْتُ لك ما سألت إني على ذلك لقادر ولئن ادّخرْتُ لك فما ادّخرْتُ لك فهو خير لك»، (الكافي، ج ٢ ص ٢٥٣ ح ٧). إن الله عزّ وجلّ يجعل كل الأسماء الإلهية (كالرحمن والجبار والقهار والرازق والمنتقم...) تختلف في العبد الذي يحبّه وذلك ليربيه ويصقله، فيغته بكلّه، لكي يصير هذا العبد خليفته في الأرض. وليس على العبد سوى الصبر ومعرفة أن ما يجريه عليه آل الله ﷺ ليس سوى تربية له ليجعلوه متخلّقاً بأخلاقهم. ويقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿صَبَّغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾ (سورة البقرة، آية ١٣٨) ففعل الصبغ يقوم به الله سبحانه وتعالى، ولكن اسم «الله» له تعين ليظهر الأحكام الإلهية، ويكون الحاكم على سائر الأسماء، وهذا هو الإنسان الكامل (الإمام المعصوم) الحائز على الصفة الإلهية، فهو الخليفة في هذا العالم.

(٣) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إِنَّ الرَّحِيمَ وَالرَّحْمَنَ وَالْغَفُورَ وَالْوَدُودَ وَكُلَّ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ مِنَ الْجَمَالِيَّةِ وَالْجَلَالِيَّةِ لِلْحَقِّ تَعَالَى قَدْ صُرِفَتْ فِي كُلِّ مَوْجُودٍ وَمِنْ هُنَا، أَيُّهَا الْإِنْسَانُ أَنْتَ مَظْهَرُ كُلِّ أَسْمَاءٍ وَصِفَاتِ الْحَقِّ تَعَالَى بِالْكُلِّ وَلَا بَدَّ أَنْ يَعْرِفَ الْإِنْسَانُ قَدْرَهُ».

(٤) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «لا بدّ لهذا البشريّ، الذي هو خليفة الله تعالى» وفي وجوده تظهر الأسماء والصفات الإلهية وتحقق، أن يتحرّك=

أزل ظلمة^(١) قلبك^(٢) وارفع عنك حُجُب العُجب^(٣) والكِبَر^(٤) والغرور

=ويطوي الطريق نحو التّوحيد في خضمّ المشاكلّ والموانع التي تحول دون وصوله، انتهى. «إنّ الإنسان لما خلقه الله بدأ فطرته في أحسن تقويم، ثم جبّه في عالم الجبلة بما قبله من الولاية والطاعة، ثم رده تعالى أسفل سافلين في عالم الجسم والابتلاء والاختبار، فنسي ما كان عليه من جلاله الشّأن وعظم الخطر، فأرسل الله الرسل... فلم يزالوا مذكّرين مبشّرين ومنذرين، ولن يزالوا كذلك إلى يوم الدين، وكلّ ذلك لأن يوصلوا كلّ نفس إلى مبدئه الذي فطره الله عليه... فمن كشف الحجب عن وجهه ما فطره الله عليه، فمقدار ما يكشف من الحجب ينتفع به وإلا فلا... فمن وإلى آل محمّد ﷺ فباتّباعهم يصل إلى ذلك الكتاب، ويكشف بمتابعتهم عن وجه ذلك النقاب، ويستبدل الفراق بالوصال»، (الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٥٥٧ - ٥٥٨). كلما اختفت (انفتحت) الصّفات البشرية وارتفعت، ظهرت الصّفات الإلهية العلوية كقطعة الفحم المجاورة للنار فتشتعل قليلاً قليلاً إلى أن تصبح ناراً.

(١) قال رسول الله ﷺ: «... ثم إن الله خلق الظلمة بالقدرة فأرسلها في سحائب البصر، فقالت الملائكة: سبّوح قدّوس ربنا، مذ عرفنا هذه الأشباح ما رأينا سوءاً فبحرمتهم إلا كشفت ما نزل بنا، فهناك خلق الله تعالى قناديل الرحمة وعلّقها على سرادق العرش، فقالت: إلهنا لمن هذه الفضيلة وهذه الأنوار؟ فقال: هذا نور أمّتي فاطمة الزهراء، فلذلك سميت أمّتي الزهراء، لأن السماوات والأرضين بنورها ظهرت (زهّرت) وهي ابنة نبيّ وزوجة وصيّ وحجتي على خلقي، أشهدكم يا ملائكتي أنني قد جعلتُ ثواب تسبيحكم وتقديسكم لهذه المرأة وشيعتها إلى يوم القيامة...»، (بحار الأنوار، ج ٢٥ ص ١٦ ح ٣٠). «الظلمة التي هي سرّ أعدائهم (أي آل محمّد ﷺ) ومبدأ كلّ شرّ»، الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ١٩٩.

(٢) كان أويس القرني يعظ الآخرين بالقول: «عليك بقلبك»، خمسة من العرفاء، ص ٢٥٩.

(٣) يقول بشر الحافي: «إذا شعرتْ بالعُجب عند الكلام فاسكت، وإذا شعرتْ بالعجب عند السكوت فتكلم»، خمسة من العرفاء، ص ٢٣٠.

(٤) قال رسول الله ﷺ: «عصى الله إبليسُ فهلك لما كان معصيته بالكبر على آدم، وعصى آدمُ الله بأكل الشجرة، فسليم ولم يهلك لما لم يقارن بمعصيته التكبر على محمد وآله الطيبين، وذلك أنّ الله تعالى قال له: يا آدم، عصاني فيك إبليس وتكبر عليك فهلك ولو تواضع لك بأمرى وعظم عزّ جلالى لأفّح كل الفلاح كما أفّحت، وأنت عصيتني بأكل الشجرة، وعظمتني بالتواضع لمحمد وآل محمد فتفّح» (١) (وبالتواضع لمحمد وآل =

والحسد^(١) والمكر والغضب والشهوة^(٢)، التي تضعك في مصاف البهائم، حتى يصبح مكانك ومأواك ومقامك هناك. والأمر الوحيد القادر على أن يؤمن صبغةً مطابقةً مئة في المئة هو المحبة التامة. وصحيح أن الذكر والعبادة يفعلان الأمر نفسه ولكن بشروط.

إذاً، تؤمن المحبة والعشق صبغةً طبق الأصل، وتجعل وجه المحب عين وجه المحبوب وتصرفات المحب عين تصرفات المحبوب. فحين يحب الإنسان أحداً يتصرف مثله، ويلبس مثله ويتكلم مثله ويتحرك مثله لأنه يحبه. فإذا رسخت هذه المحبة بحقيقتها في شخص معين، يصطبغ بصبغة حبيبه شاء ذلك أم أبى، ويصبح شبيهاً له في كل تفاصيله.

رؤية الله

عندما رجع رسول الله ﷺ من المعراج قال: «من رآني فقد رأى الحق»^(٣)، لأنه تواجد في مكانٍ صبغته المحبة فيه بصبغة محبوبه.

=محمد تفلح (٢) كل الفلاح وتزول عنك وصمة الزلة فادعني بمحمد وآله الطيبين لذلك، فدعا بهم فأفلح كل الفلاح لما تمسك بعروتنا أهل البيت»، (١) الاحتجاج، ج ١ ص ٦٣ - ٦٤؛ (٢) تفسير البرهان، ج ١ ص ١٨٢ - ١٨٣.

(١) عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «اتقوا الله ولا يحسد بعضكم بعضاً، إن عيسى بن مريم كان من شرايعه السيخ في البلاد (أي الذهاب في الأرض للعبادة)، فخرج في بعض سيحه ومعه رجل من أصحابه قصير وكان كثير اللزوم لعيسى عليه السلام، فلما انتهى عيسى إلى البحر قال: بسم الله بصحة يقين منه، فمشى على ظهر الماء فقال الرجل القصير حين نظر إلى عيسى عليه السلام جازه: بسم الله بصحة يقين منه، فمشى على الماء ولحق بعيسى عليه السلام، فدخله العجب بنفسه، فقال: هذا عيسى روح الله يمشي على الماء وأنا أمشي على الماء فما فضله عليّ، قال: فرمس (فسقط) في الماء فاستغاث بعيسى فتناوله من الماء فأخرجه، ثم قال له: ما قلت يا قصير؟ قال: قلت: هذا روح الله يمشي على الماء، وأنا أمشي على الماء، فدخلني من ذلك عجب، فقال له عيسى عليه السلام: لقد وضعت نفسك في غير الموضع الذي وضعك الله فيه فمقتك الله على ما قلت. فثب إلى الله عز وجل مما قلت، قال: فتاب الرجل وعاد إلى مرتبته التي وضعه الله فيها، فاتقوا الله ولا يحسدن بعضكم بعضاً»، الكافي، ج ٢ ص ٣٠٦ - ٣٠٧ ح ٣.

(٢) عشق الذوات المقدسة للمعصومين عليه السلام يُحرق الشهوة، بل يُحرق كل ما سوى الله.

(٣) بحار الأنوار، ج ٦١ ص ٢٣٥.

أتى أحدهم عند الإمام الصادق عليه السلام وسأله: يا ابن رسول الله، هل يرى الله في الدنيا. قال الإمام: لا. فسأله ثانية: هل يرى في الآخرة. أجابه الإمام: لا. عندها، سأله: إذاً، عمّ تحدث هذه الآية التي يقول فيها الحق المتعال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَفُرُونَ﴾؟ فتبسّم الإمام قائلاً: إذا أردت أن ترى الله، فانظر إلى الجالس أمامك^(١). ففي المحبة، يتلوّن المحبّ بلون محبوبه.

كيف يكون أمره أمر الله ونهيه نهى الله وإرادته إرادة الله ومشيته الله، وتريدون بعد ذلك أن لا يكون وجهه وصفاته إلهيين؟ إن المحبة تؤمّن الصبغة نفسها والخُلُق نفسه، حتى أنها تجعل طبع المحبّ وطريقة كلامه نفس طبع المحبوب وطريقته في الكلام.

تجلّي رسول الله ﷺ في كربلاء بعليّ الأكبر

الآن، توجّهوا إلى يوم عاشوراء. قال أبو عبد الله عليه السلام: «اللهم اشهد على هؤلاء القوم فقد برز إليهم غلامٌ أشبه الناس خلقاً وخلقاً ومنطقاً برسولك وكنا إذا اشتقنا إلى نبيّك نظرنا إليه»^(٢)، نظرت عين الحسين عليه السلام في الوجود

(١) عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «قلت له: أخبرني عن الله عز وجل هل يراه المؤمنون يوم القيامة؟ قال: نعم، وقد رأوه قبل يوم القيامة، فقلت: متى؟ قال: حين قال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ ثم سكت ساعة، ثم قال: وإن المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة، ألسنت تراه في وقتك هذا؟ قال أبو بصير: فقلت: له جعلتُ فداك فأحدث بهذا عنك؟ فقال لا، فإنك إذا حدثت به أنكروه منكر جاهل بمعنى ما تقوله ثم قدّر أن ذلك تشبيه كفر وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين، تعالى الله عما يصفه المشبهون والملحدون»، (توحيد الصدوق، ص ١١٧ ح ٢٠). «المراد بلقاء الربّ ولقاء الله والبقاء بالله والفناء في الله، وأمثال ذلك مما ورد في الأخبار والآيات هو لقاء اسم الله المكنون في كلّ نفس والربّ الإسميّ، لا إله إلّا الله وربّ الأرباب جلّت عظمتة؛ لأنّ الخلق ولو الأنبياء لا يتجاوزون حدودهم ولا يسعهم الخروج عن عوالمهم، وكلّما يسиров فهم سائرون في عوالمهم، ويصلون إلى ما هو مكنون فيهم من الأسماء»، الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٢٤٢.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤٥ ص ٤٢؛ اللهوف، ص ٤٩.

وشاهدت كل الصفات، فقال ﷺ: ما من أحد في العالم مساوٍ لرسول الله ﷺ في صفاته أكثر من ولدي عليّ الأكبر ﷺ، وأنت، يا الله، الشاهد على صحة ما أقول، لأن الناس، بل كل الوجود، لا يفقه كلامي.

اللهم اشهد، وأنت تعلم ما أقول. عليّ الأكبر خلقه خلق رسول الله ﷺ وخلقه خلق رسول الله ﷺ^(١) وكذلك هو تماماً مثل رسول الله ﷺ في سيماء ووجهه وهيكله وقامته ومشيه وجلوسه وأكله ونومه وكلامه وحديثه، وذلك لأنه منغمّر بمحبة جدّه الرسول ﷺ.

منطقه هو منطق رسول الله ﷺ. ومنطق الرسول هو منطق الوحي، فمنطق عليّ الأكبر هو منطق الوحي أيضاً. لا تتعجبوا، ولا تستعظموا هذا المطلب، فالله قال في القرآن: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ أَنِ اتَّخِذِ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾^(٢). والوحي هو ارتباط خفيّ داخلي وباطني بحقيقة غيبية معينة، يخصّ الله به من يشاء. فالله قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾^(٣). وبالتالي، لا تقولوا بأنّ الوحي^(٤) مختصّ بالأنبياء فحسب. إرتبط عليّ الأكبر سلام الله عليه باطنياً واتصل داخلياً بجدّه رسول الله ﷺ بحيث بات شبيهاً في خلقه وخلقه ومنطقه بخاتم الأنبياء ﷺ.

(١) قال أبو عبد الله ﷺ: «اللهم اشهد على هؤلاء القوم فقد برز إليهم غلامٌ أشبه الناس خلقاً وخلقاً ومنطقاً برسولك»، فلقد كان عليّ الأكبر ﷺ أشبه الناس خلقاً برسول الله ﷺ من حيث شكله الظاهري؛ وكان خلقه كخلق محمد بن عبد الله ﷺ الذي وصفه الله تعالى في كتابه العزيز بالقول: ﴿وَلَئِكَ لَعَلَّ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة القلم، آية ٤)؛ ما يعني أن عليّاً الأكبر كان على خلق عظيم أيضاً. وكذلك كان ﷺ أشبه الناس منطقاً برسول الله ﷺ، حيث قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (سورة النجم، آية ٣ - ٤)، فعليّ الأكبر ﷺ قد تحققت فيه هذه المقامات الثلاثة. يُشار إلى أنّه ورد في الأحاديث أنّ عليّ الأكبر كان الإمام بعد أبيه الحسين ﷺ، ولكن الله تعالى بدا له بذلك.

(٢) سورة النحل، آية ٦٨.

(٣) سورة القصص، آية ٧.

(٤) ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنِ ارْضِعِي﴾ (سورة القصص، آية ٧)، ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ أَنِ اتَّخِذِ مِنَ

رجوع عليّ الأكبر ﷺ إلى مبدئه

في بعض الأحيان، تقع أحداثٌ في العالم تحكي الحقائق وتثبتها. وهنا، سنطرح مسألة بالغة الدقة. يرجع كل البشر عند الموت وانفصال الروح عن الجسد إلى أمير المؤمنين ﷺ، بما فيهم خاتم الأنبياء ﷺ^(١). فمرجع كل موجود، مهما كبر، إلى أمير المؤمنين ﷺ^(٢)، لأنه مرتبط بحقيقة ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا

لِلْجَبَالِ يُّوْنَا﴾، (سورة النحل، آية ٦٨)، وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي (سورة المائدة، آية ١١١)، ﴿يَا رَّبِّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ (سورة الزلزلة، آية ٥). قال الإمام الصادق ﷺ مخاطباً المفضل بن عمر الجعفي: «فاستمع لما يوحى إليك، وانظر بعين عقلك، وانصب بنور لبك، واسمع وع»، (الهداية الكبرى، الباب ٤ ص ٢٧٥). وقال رسول الله ﷺ مخاطباً أمير المؤمنين عليّ ﷺ: «إن الله أطلعني على ما شاء من غيبه وحياً وتنزيلاً وأطلعك عليه إلهاماً، وإن الله خلق من نور قلبك ملكاً فوكله باللوح المحفوظ، فلا يخطئ هناك غيب إلا وأنت تشهده... فالنبي والولي مطلقان على علم الغيب، لكن النبي لا ينطق به إلا مع الأمر لأنه الرسول، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ أَمْرٌ فَلَا يَقْضُوا وَهُمْ لَا يُدْرِكُونَ﴾» (مشارك أنوار اليقين، ص ٢٥٧). ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ فَلَا يَظْهَرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾، سورة الجن، آية ٢٥ - ٢٦.

(١) ورد في كتاب «كربلاء الشهود»، لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى في النفحة السادسة، ص ١٩٠، تحت عنوان «إياب الولاية الكلية إلى رسول الله ﷺ»، كلام مفاده أنّ كل من يمتلك الولاية الكلية والمطلقة يرجع إلى رسول الله ﷺ حتى أمير المؤمنين ﷺ الذي انتقل، عند استشهاده، إلى فضاء الوجود الالانهائي للنبي الأعظم ﷺ. وفي موضع آخر، نجد أن الوجود كلّ الوجود بما فيه الباء، التي هي الحقيقة المحمدية، يرجع إلى نقطة المبدأ، أي إلى أمير المؤمنين عليّ ﷺ، الذي هو النقطة تحت الباء كما ورد في الحديث، والنقطة هي سرّ التوحيد، (راجع الآداب المعنوية للصلاة، ص ٤٥٣). كما وقد ورد أيضاً في الحديث القدسي: «يا محمد لولاك لما خلقت الأفلاك، ولولا عليّ لما خلقتك، ولولا فاطمة لما خلقتكما»، (مستدرك سفينة البحار، ج ٣ ص ٣٣٤). إذاً، قد يبدو للبعض أن هناك تبايناً في الكلام المطروح، ولكن حقيقة الأمر أن لهذه المسألة حيثيات متعدّدة، وبحسب الحيثية والجهة والمقام، يكون الحديث.

(٢) «انه الاسم الأعظم الجاري في كل شيء، وإنّ كل شيء خلقه الله فإنّ علياً مولاه»

إِلَيْهِ رَجُوعٌ»^(١). والآية تعبر عن هذا الكلام، حيث إنك سترجع^(٢) إلى المصدر

= ومعناه، لأنه كلمة واجب الوجود والنور المشرق في سماء الوجود والوجود، فكل رفعة وإن علت - فأنها تحت درجته، وكل منزلة - وإن علت - فهي دون منزلته، وتحت رتبته، (فقد قال ﷺ): «يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ وَلَا يَرْفَى إِلَيَّ الطَّيْرُ»، شرح نهج البلاغة، ج ١ ص ١٥١)، فمقام الأملاك في صوامع الأفلاك، دون منزلته وتحت رتبته، ومقام ونور الكواكب والأقمار من إشراق شمس عظمتها، فهو العليّ العظيم، ولي العليّ العظيم، فهو عماد الأولياء، ودعوة الأنبياء. فرفعة إسرائيل، وعظمة جبرائيل، وهيبة آدم، وكرم الخليل، وشجاعة موسى وسماحة عيسى، وحكمة داود، وملك سليمان، ذرة من فخره وقطرة من بحره، وكيف لا يكون كذلك؟ وهو العلة في وجودهم، وسرّ موجودهم، فلولا ما دار فلك، ولا سبّح لله ملك، فالنظر إليه عبادة، والوقوف معه عبادة، والموت على حبه شهادة، وموالاته سعادة، وهو الذي قال في حقّه الرسول يوم خبير: «لو لم أخف أن تقول أُمّتي فيك ما قالت النصراني في المسيح ابن مريم لقلت اليوم فيك حديثاً» فلو قال لدعوه ربّاً، لكنّهم دعوه ربّاً، وما قال، وذاك لعظيم الخصال»، مشارق أنوار اليقين، ص ١٩٧.

(١) (سورة البقرة، آية ١٥٦)، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ (سورة النجم، آية ٤٢)، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُنْتَهَىٰ﴾، (سورة القيامة، آية ١٢). يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «المعاد هو إنتقاش التّوحيد بالرجوع الحاصل ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، والموت هو لقاء الله وهو الذي يحقّق التّوحيد، ففي تلك اللحظة ترجع كلّ أشعة الذات إلى الذات، وهذا هو الرجوع إلى نقطة التّوحيد الواحدة، فالكلّ في الموت يرجعون إلى المبدأ». كما يقول حفظه الله تعالى: «عندما يقول الله: «لولاك لما خلقت الأفلاك» فإنّ الخطاب هو للإنسان الكامل، وكلّ الوجود مندرج تحت وجوده (وإياب الخلق إلينا) فالوجود بدأ منهم ولا بدّ أن يرجع إليهم».

(٢) «كما أن القيامة الكبرى للأكوان الخارجيّة بانطماس نورها وهويّتها تحت سطوع النور الربوبي وبرجوع كلّ مظهر إلى ظاهره وفنائه فيه، يكون الأعيان الثابتة والأسماء الإلهية بانقهارها تحت شمس الأحدية الذاتيّة وانمحاق أنوارها لدى نورها بتوسّط الإنسان الكامل في الأعيان الخارجيّة والعين الثابتة المحمدية ﷺ في الأعيان الثابتة والإسم الأعظم الإلهي في الأسماء الإلهية»، (مصباح الهداية، ص ١٥١). «إنّ الآية التي هي نصيب آل محمّد ﷺ من حقيقة النبوّة هي أكبر آياتها، ومحيطه بتمام مراتبها من الكليّة والحزنيّة، وإحاطتها بتمام المراتب، آيات تلك الحقيقة كانت شاهدة على تمام مراتب الخلق... ولأنّ تلك الآية من الحقيقة المحمدية الإلهية في كلّ موجودٍ مصدر سائر=

الذي نزلت منه وأخذت وجودك منه، فحتى رسول الله ﷺ مرجعه إلى أمير المؤمنين (عليه السلام).

وفي هذا العالم، ثمة فردٌ واحد انتقل إلى رسول الله ﷺ وهو بدوره أرجعه إلى أمير المؤمنين (عليه السلام). وهذا الفرد هو عليّ الأكبر (عليه السلام)، في امتيازٍ خاص به وحده. ولذلك في آخر لحظات حياته قال: «يا أباي، هذا جدّي رسول الله قد سقاني بكأسه الأوفى»^(١)، لم ذلك؟ لأنه «أشبه الناس برسول الله ﷺ»^(٢). كان، في ظاهره وباطنه، نفس رسول الله الذي يريد الرجوع إلى أمير المؤمنين (عليه السلام). فهذه الوحدة في حقيقة المحبة وهذا الارتباط صنعاً من عليّ الأكبر رسول الله ﷺ. ووحدها عين الإمام الحسين (عليه السلام)، وليس كل عين، هي التي رأت تلك الوحدة. ومن المؤكّد أن عليّ الأكبر (عليه السلام) وصل في هذا العالم، أثناء تلك اللحظات، إلى مقام الولاية الكلية والمطلقة، وأعطِيَ المقام الذي كان وَجَبَ أن يُعطى له.

عليّ الأكبر (عليه السلام) ممسوس في ذات الله

من يطالع كل كتب المقاتل، يرى أن سيّد الشهداء (عليه السلام) لم يجلس عند أحدٍ من الشهداء ليدعو على قاتله، ذلك لأن التسليم اللانهائي، الذي تحلّى به سيّد الشهداء، يتنافى مع هذا الفعل^(٣).

=مراتبه النازلة، بل هو الذي يتنزّل في عالم الشهادة، ويشهد في كلّ مرتبةٍ من مراتب الموجودات، وبه يموت كل موجودٍ من عالم ويحيى في عالم آخر، وهو الذي خلق للبقاء لا الفناء، إلّا أنّه ينتقل من دار إلى دار، الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٣٦٢ - ٣٦٣.

(١) المصيبة الراتبية، ص ٤٩.

(٢) قال الإمام الحسن (عليه السلام) في قوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾: «صوّر الله عزّ وجل عليّ بن أبي طالب في ظهر أبي طالب على صورة محمد (عليه السلام) فكان علي بن أبي طالب أشبه الناس برسول الله وكان الحسين بن عليّ أشبه الناس بفاطمة وكنت أنا أشبه الناس بخديجة الكبرى»، بحار الأنوار، ج ٢٤ ص ٣١٦.

(٣) لقد كان فعله وصفته وذاته عين فعل الله وصفته وذاته، ﴿لَا يَسْقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾، سورة الأنبياء، آية ٢٧.

فلم، إذاً، جلس عند مصرع عليّ الأكبر عليه السلام ودعا على قاتله قائلاً: «بنّي عليّ، قتل الله قوماً قتلوك، قتلوك وما عرفوك؟» ما هي المعرفة اللازمة هنا؟ لم يعرفوا أنهم يقتلون رسول الله صلى الله عليه وآله. وكما يدعو على كل من آذى رسول الله صلى الله عليه وآله، فكذلك يدعو على من قتل عليّاً الأكبر عليه السلام، لأنه كان يرى رسول الله في عليّ الأكبر بكل ما لهذا الكلام من معنى. لم يقيم الإمام الحسين عليه السلام باللعن من منطلق شخصي، بل إنه قام بذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يذهب من بين يديه.

توجّه عليّ الأكبر عليه السلام وهو على ظهر جواده نحو سيّد الشهداء عليه السلام الذي كان على جواده أيضاً أمام الخيام، فكان الاثنان راكبين. وفي كربلاء، اعترض أهل البيت عليهم السلام طريق فردين اثنين ومانعوا نزولهما إلى الميدان، أحدهما كان الإمام الحسين عليه السلام نفسه، حين جاؤوا وتحلقوا حوله ولم يدعوه ينزل إلى الميدان. والثاني هو عليّ الأكبر عليه السلام، حتى ذكر في بعض المقاتل أن ممانعة أهل البيت عليهم السلام لنزول الأكبر إلى الميدان كانت أشدّ، حيث أحاطوا به ورجّوه قائلين: «إرحم غربتنا». فنظر عليّ الأكبر إلى والده الحسين عليه السلام، طالباً منه أن يُبعد عنه آل الله حتى يتمكن من النزول إلى الميدان. فواحدة أمسكت بعنان جواده، وأخرى بركابه، وثالثة تمسّكت بردائه وراحت ترتجيه.

ترجّل سيد الشهداء عليه السلام عن جواده حتى يبعد آل الله عن جواد عليّ الأكبر قائلاً: «دعنه، فإنه ممسوس بذات الله»^(١). لم يُقل هذا الكلام بحق أحدٍ سوى

(١) «وأما نساء أهل البيت يوم عاشوراء فإنهن لما رأين علي بن الحسين عليه السلام يريد التوجه إلى القتال اجتمعن حوله كالحلقة وقلن له إرحم غربتنا ولا تستعجل في القتال فإنه ليس لنا طاقة في فراقك. قال الراوي فلم يزل يجهد ويبالغ في طلب الإذن من أبيه حتى أذن له، (الدمعة الساكبة، ج ٤ ص ٣٢٩). «فلما تجلّى وجهه طلعت من أفق العقاب، واستولت يده وقدمه على العنان والركاب، خرّجت النساء وأحدقن به فأخذت عمّاته وأخواته بعنانه وركابه، ومنعنه من العزيمة، فعند ذلك تغيّر حال الحسين عليه السلام بحيث أشرف على الموت، وصاح بنسائه وعياله، دعنه فإنه ممسوس في الله ومقتول في سبيل الله، ثم أخذ بيده وأخرجه من بينهن»، معالي السبطين، ج ١ ص ٤١٦.

جده أمير المؤمنين عليه السلام ^(١). يعني أتركه يرحل، فقد اتصل بحقيقة لم يعد بموجبها بشرياً تريباً يتنمي إلى هذه الدنيا.

وبأمر من سيد الشهداء عليه السلام، تراجع أهل البيت ووقفوا بجانب الخيام. وهم عليّ الأكبر بالذهاب، وإذا بسيد الشهداء يقول له: بني، ترجل عن جوادك. فنزل عليّ الأكبر عن جواده. قال له: إمش قليلاً أمامي حتى أراك وأتلدّ بالنظر إليك. فسار عليّ الأكبر قليلاً. ثم قال له الحسين عليه السلام: إرجع حتى أشاهدك وجهاً لوجه.

التدبير في طريق العشق ممنوع

قصّ النبي إبراهيم على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام على ولده إسماعيل رؤياه التي أمر فيها بذبحه، فردّ إسماعيل قائلاً: سمعاً وطاعة، إني حاضر لأكون قرباناً!

إصطحب إبراهيم ولده ليدبحه من دون علم والدته بالأمر. أخذ معه حبلاً ومنديلاً وعكف طوال الطريق على سنّ سكينه بأحد الأحجار. وعندما وصل، وضع إسماعيل على الأرض. فجاء جبرائيل وسأله قائلاً: لم أحضرت هذا الحبل يا إبراهيم؟ فقال: أريد أن أوثق يديّ وقدميّ ولدي حتى لا يحركهما عندما أذبحه، فتظهر عاطفة الأبوة وتكون مانعاً من تنفيذ أمر الحق.

سأله جبرائيل: ولم أحضرت هذا المنديل؟ فقال: حتى أغمض به عينيّ ولدي، بحيث إذا ما التقت أعيننا، لا تظهر العاطفة والمحبة والرافة الأبوية فتكون حائلاً دون تنفيذ أمر الحق. فسأله جبرائيل مجدداً: لماذا تسنّ سكينك هكذا؟ فقال: حتى لا تكون ضعيفة القطع عند الذبح فترتجف يدي وتمنعني من تنفيذ أمر الحق.

رَبَّتْ جبرائيل على يد إبراهيم عليه السلام فوقعت السكين من يده وقال له: قم،

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تسبوا علياً فإنه ممسوس في ذات الله تعالى»، حلية الأولياء، ج ١ ص ٦٨.

فأنت لست أهلاً لهذا العمل، إذهب واذهب شاةً عوضاً عن ذلك^(١). أنت تقوم بالتدبير^(٢) في طريق العشق! إنَّ طريق المحبة تلقائي.

ثم قال له: أنظر. إلتفت إبراهيم ونظر، فرأى سيِّداً جالساً عند جسد ولده، يُخرج يديه من تحت بدنه ويقول له: بني، حرّك يديك ورجليك حتى أسعدَ برؤيتهما. كانت عينا ولده تنزفان دماً، فكان ذلك السيّد يمسح الدماء عنهما بيديه ويقول له: بني، انظر في عيني حتى أسعدَ بذلك.

وقد اصطحب إبراهيم ولده إسماعيل من دون علم أمّه. أما الإمام الحسين (عليه السلام)، فقد أبقي والدته عليّ الأكبر أمام الخيمة وقال لها: شاهدي ولدك كيف ينزل إلى الميدان واسعدِي بالنظر إليه.

حُجَّاتُ

(١) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إن التوحيد بمعناه التام محصور بمحمد وآل محمد عليهم الصلاة والسلام ولا أحد سواهم (يا عليّ ما عرف الله إلا أنا وأنت)، مستدرك سفينة البحار، ج ٧ ص ١٨٢) حتى أن النبي إبراهيم (عليه السلام) لم تصل قدمه إلى غبار نعالهم في هذا الباب. لقد وضعوه في المنجنيق، بين الأرض والسماء، فأتى جبرائيل وسأله: «يا إبراهيم، هل لك حاجة؟». فأجاب قائلاً: «إني محتاجٌ من رأسي إلى أخمص قدمي». قال جبرائيل: «إذاً، قل ما حاجتك؟». فأجابه النبي إبراهيم: «أما منك فلا، إنك غريب، تنجّ جانباً». رأيتم توحيداً أكثر جمالاً ومعرفة من هذا؟ حسناً، لماذا لم يحترق حين سقط في النيران؟ لأنه أراد في باطنه أن لا يحترق. نتكلم في التوحيد، وكل التوحيد يدور حول التسليم. فلو أنه سلّم، لكان احترق. فتعال إلى كربلاء وشاهد! لقد رأى النبي إبراهيم (عليه السلام) في منامه أنه يقتل ولده، فلم لم يقدر على قتله؟ لم يرد ذلك في باطنه. هنا أيضاً أراه الله أن ذلك الطريق الذي استكمل التوحيد حتى النهاية هو طريق كربلاء. فهناك لم يتمّ تخطي مشيئة الحق لحظة واحدة، وهكذا هو الأمر في التوحيد: شاء الله أن يراك قتيلاً».

(٢) العاشق من لا يفكر لحظة في العاقبة.

الفيض التاسع

سُبُل الوصول إلى التوحيد

للوصول إلى مسألة التوحيد^(١)، ذكر أهل الإطّلاع عدة سُبُلٍ مشروطة باستغراق وفناء الموحّد. وتعدّ العبادة إحدى هذه السبل، فإذا حققت العبادة^(٢) الاستغراق والفناء، تفتح للعبد أو العابد طريقاً إلى حرم التوحيد. والسبيل الآخر هو الذكر، فإذا وصل الذكر بالذاكر إلى الاستغراق والفناء، يفتح له طريقاً إلى التوحيد أيضاً. أما السبيل الثالث فهو المحبة، ولكن المحبة غير مشروطة أبداً، لأن بدايتها تكون بالاستغراق والفناء.

الفرق بين الهوى والعشق

إن ما يظهر أحياناً، على نحوٍ مُصطنع، باسم المحبة في إنسانٍ ما هو ليس بمحبة إنما مجرد هوى. أما ما هو مساوٍ للمحبة التامة، فيُعبر عنه بلفظة وكلمة

(١) التوحيد هو التوحيد مع المبدأ.

(٢) ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات، آية ٥٦). ورد عن إمامنا الصادق عليه السلام: «ما استأهل خلق من الله النظر فيه إلا بالعبودية لنا»، (الاختصاص، ص ٢٥٠). ويقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «(عبدك وابن عبدك وابن أمتك)، الزيارة السابعة لأبي عبد الله الحسين عليه السلام»، (مفاتيح الجنان)، نحن كلنا عبيد آل محمد، وهم موالينا، وكلّ العالم عبيدهم، وعبادة هذه الذوات المقدسة هي عبادة الله عز وجل، وإنّ منتهى ظهورها في الإمام الحسين عليه السلام»، انتهى... وهم عبيد الله جلّ وعلا.

عشق، أي الحب الشديد. ولأنَّ البعض غير متآلف مع لفظة العشق، سنعتمد لفظة المحبة، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾^(١).

يترافق تعلق المحب بالمحبيب، في كمال اتصاله به، مع الاستغراق والفناء، وهذا ما يُحصّل التوحيد ويصنع الموحّد. أما في حال لم يُرافقه الاستغراق والفناء، فيكون مجرد هوى.

الإيمان والعمل بمجرى الولي وإذنه

يقف اثنان لأداء فريضة الصلاة. كلاهما ملتفتٌ إلى أحكام الصلاة الشرعية ومُحققٌ لكل الشروط المطلوبة لأداء صلاة صحيحة، بحسب القواعد الفقهية. فلباسهما ومكان صلاتهما غير مغصوبين، كما أنهما مُراعيان تماماً لأحكام الوضوء والطهارة اللازمة لصحة الصلاة.

غير أن أحدهما واقعٌ في الشرك^(٢) التام والآخر في التوحيد التام. فمن هو

(١) سورة البقرة، آية ١٦٥.

(٢) قال الإمام الباقر عليه السلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾، يعني أنه لا يغفر لمن يكفر بولاية علي عليه السلام، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، يعني لمن والى علياً عليه السلام، (تفسير العياشي، ج ١ ص ٢٤٥ ح ١٤٩). وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «ما في القرآن آية أحب إليّ من قوله عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾»، (تفسير الصافي، ج ١ ص ٤٥٨). «والمراد بالشرك كما شهدت به هذه الأخبار والضرورة من الدين: على أن الكافر من أهل النار خالدون فيها أبداً، بل وكثير من الآيات والضرورة من المذهب: على أن الجاحدين لولاية علي عليه السلام أو واحد من الأئمة خالدون في النار هو الشرك بولاية أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام»، (الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٣٨١). عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ألا ومن جحد واحداً منهم (أي الأئمة) فقد جحد نعمتي، ومن غير آية من كتابي فقد افترى عليّ، وويل للمُفترين الجاحدين عند انقضاء مدة عهدي موسى وحيبي وخيرتي (أي موسى الكاظم)، ألا إن المكذب بالثامن (الإمام الرضا) مكذب بكل أوليائي، وعليّ وليّ وناصري ومن أضع عليه أعباء النبوة وأمتحنه بالاضطلاع (بها) يقتله عفريت مستكبر، يدفن بالمدينة التي بناها العبد الصالح ذو القرنين إلى جنب شر خلقي، حق القول منّي لأقرن عينه بمحمد ابنه وخليفته من بعده فهو وارث علمي»، كمال الدين وتمام النعمة، ص ٣١١.

القادر على تشخيص هذا الأمر؟ أيقدران هما على معرفة نفسيهما؟ من هو القادر على تحديد المعيار للفصل بين هذين المصلّين المتوجّهين نحو القبلة والخاضعين كمال الخضوع؟ كلاهما يدّعي أنه يؤدي أمر الحق، ولكن، من القادر على التفريق بينهما والقول بأن هذا مشرك وذاك موحد؟ وحده الولي، صاحب الولاية الكلية والمطلقة، ولا أحد سواه أبداً، هو القادر على تقييمهما^(١) والقول بأن هذا مقبول وذاك مرفوض^(٢).

قالوا إن الطهارة شرط من شروط الصلاة. فإذا أذى الإنسان الصلاة بكلّ شروطها، حتى أنه تلفّظ، مثلاً، بضاد كلمة «الضّالين» على نحو لم يتمكّن يعرب بن قحطان نفسه من تأديته، وحقق مقدّمات الصلاة بشكل لم يُحدّث في أفعاله أيّ خلل، ولكنّه، مع ذلك، أخفق في تحقيق شرط الوضوء والطهارة، فإنه مهما صلى من صلوات طوال عمره ودهره يبقى وكأنه لم يصل أبداً، ذلك أن صلاته افتقدت لشرط الطهارة. والوضوء هو شرط الصحة الظاهرية والفقهية والشرعية للصلاة. ولن يكون هناك أيّة مؤثريّة للصلاة إذا ما تمّت من دون تحقيق ذلك الشرط الأساسي الذي هو أساس التوحيد كذلك.

(١) عن أبي عبد الله عن أبيه عن جده عليه السلام قال: «مرّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في مسجد الكوفة وقنبر معه فرأى رجلاً قائماً يصلي. فقال قنبر: ما رأيت رجلاً أحسن صلاة من هذا. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: مه يا قنبر فوالله لرجل على يقين من ولايتنا أهل البيت خير من عبادة ألف سنة ولو أن عبداً عبد الله ألف سنة لا يقبل الله منه حتى يعرف ولايتنا أهل البيت ولو أن عبداً عبد الله ألف سنة وجاء بعمل الإثنين وسبعين نبياً ما يقبل الله منه حتى يعرف ولايتنا أهل البيت وإلا كَبّه الله على منخريه في نار جهنم»، جامع الأخبار، ص ١٧٨.

(٢) ورد في إحدى زيارات أمير المؤمنين عليه السلام: «السلام على يعسوب الإيمان وميزان الأعمال وسيف ذي الجلال»، (مستدرك الوسائل، ج ١٠ ص ٢٢٢). وعن الإمام الرضا عليه السلام: «ولقد سمعت أبي يحدث عن آبائه عن علي عليه السلام أنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: يا علي، أنت قسيم الجنة والنار يوم القيامة تقول للنار: هذا لي وهذا لك»، عيون الأخبار، ص ٢٣٩.

الولاية شرط قبول الأعمال

جاء في القرآن الكريم: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ^(١) عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا^(٢)﴾، ولكن، ما هو الرابط هنا ما بين كون عرش الحق على الماء وابتلاء الناس؟ إن شروط صحّة الصلاة هي الطهارة والوضوء والغسل والتيمم. ولكن إذا لم تتوفر الولاية، التي هي الشرط الأساسي للتوحيد، في المصلي، لا يكون قد صلى أصلاً.

فقد قالوا عليه السلام: «بنا عبد الله وبنا عرف الله^(٣) وبنا وحد الله^(٤)»، «لولانا ما

(١) «ذلك العرش له الأركان الأربعة، الركن الأبيض وهو عقل الكل، المسمّى بالدرّة البيضاء وبالمحمّدية البيضاء هو الدهر الأيمن الأعلى، ثم الركن الأصفر هو نفس الكل المسمّى بالدرّة الصفراء والعلوية العليا، شجرة طوبى، وسدرة المنتهى وجنة المأوى، وهي الدهر الأيمن الأسفل، ثم الركن الأخضر المسمّى بالدرّة الخضراء، وهو عالم خيال الكل ومثال الكل، وقد يُعبّر عنه بعرش الرحمن، كما سُمّي عقل الكل بالعرش المجيد، ونفس الكل بالعرش الكريم، ثم الركن الأحمر المسمّى بالدرّة الحمراء وهو طبيعة الكل المعبّر عنها بالدهر الأيسر الأسفل، كما يعبّر عن الركن الأخضر بالدهر الأيسر الأعلى، والنور الذي خلق منه عقل الكل الذي هو يمين العرش الأعظم الجامع لجوامع أركانه الأربعة، المترتبة كما قرنا، هو العنصر الأعظم المسمّى بالماء، أي الماء الذي قال تعالى فيه: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾، وذلك النور هو النور المحمّدي الذي هو حقيقة الحقائق وأصل أصولها وهو الاسم الذي أشرقت به السماوات والأرض وهو برزخ البرازخ، فافهم واعلم أن العنصر الأعظم، أي الماء الحقيقي المعنوي الإلهي، هو العذب الفرات الذي به حياة العالم الكلي، وهو عنصر العناصر الكلية الإلهية»، مقدمة وتعليقات مفاتيح الغيب، ص ٨٢٧.

(٢) سورة هود، آية ٧.

(٣) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «الأسماء والصفات الإلهية هي نفس هؤلاء الكمل من آل محمّد وعليّ وهو قوله عليه السلام: «بنا عرف الله، بنا عبد الله»، وأمّا من تلك الجهة الأخرى فلا خبر لنا أصلاً، فما نصل إليه هو معرفة الله، ومعرفة الله هي نفس هؤلاء»، انتهى... وقد ورد عن مولانا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «معرفتي بالنورانية معرفة الله عزّ وجلّ»، بحار الأنوار، ج ٢٦ ص ١.

(٤) الكافي، ج ١ ص ١٤٥.

عُبِدَ اللهُ»^(١)، لولانا ما وُحِّدَ اللهُ، «لولانا ما عُرِفَ اللهُ»^(٢). تقومون بغسل أيديكم بالماء جيداً لتطهيرها من أية نجاسة، وتحتاطون بغسلها ثلاث وسبع مرات وحتى عشرين مرة. وتحرصون على أداء الوضوء بشكلٍ جيّد، لأن الطهارة شرط الصلاة. وتوصلون الماء إلى ما يعلو المرفق، من باب المقدمات العلمية، ثم تغسلون أيديكم، لتحقيق هذا الشرط على نحوٍ صحيح. ولكن، أنت يا من تدقق في كل هذه الشروط، هل دَقَّقْتَ يوماً هكذا في الولاية وهي الشرط الأساسي^(٣) الذي إن لم تتحقق صحّته، تبقى صفر اليدين؟

الصورة المثاليّة لحقيقة الولاية

إن هذا الماء، الذي نحرز به الطهارة، هو الصورة المثالية لحقيقة الولاية الإلهية لمحمد وآل محمد ﷺ، ﴿وَيُنَزَّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ يُطَهِّرُكُمْ بِهِ وَيُذْهِبُ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَيَلْبِطُ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾^(٤).

دَقَّقُوا في قراءة كل آية ترد فيها كلمة «ماء» في القرآن الكريم، وانظروا ماذا يقول الله في تلك الآية وما قصده بكلمة الماء الواردة فيها.

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾^(٥)، إذاً، كيف يكون هذا الماء، الذي تتوقف عليه حياة كل الموجودات، سبباً في موت الكثيرين؟ فعلى سبيل المثال، يغرق أناسٌ كثيرون في البحر، ويكون من بينهم سبّاحون ماهرون حتى. كما يموت

(١) الكافي، ج ١ ص ١٩٣.

(٢) بحار الأنوار، ج ٢٥ ص ٤.

(٣) عن النبي ﷺ أنه قال لعلي: «يا عليّ، لو أنّ عبداً عبد الله عزّ وجلّ مثل ما قام نوح في قومه، وكان له مثل أحد ذهباً فأنفقه في سبيل الله، ومدّ في عمره حتى حجّ ألف عام على قدميه، ثمّ قتل بين الصفا والمروة مظلوماً، ثمّ لم يوالِك يا عليّ لم يشم رائحة الجنّة ولم يدخلها»، (المناقب للخوارزمي، ص ٦٨). ومن كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «لو أنّ شخصاً قصّر في الأحكام والأوامر والتكاليف في متابعة الأصل فسوف يكتب عند ذلك على ورقته الوجوديّة أنّ هذه النسخة غير مطابقة للأصل».

(٤) سورة الأنفال، آية ١١.

(٥) سورة الأنبياء، آية ٣٠.

العطشان إذا شرب كمية زائدة من الماء. وانظروا ماذا يحصل إذا وضعت خرطوم مياه في فم أحدهم، على سبيل المثال. فأَيّ ماء هو هذا الذي ترتبط به حياة الوجود؟ علماً أن القرآن الكريم يقول: «كل شيء»، فلا تنسوا هذه العبارة.

إذاً، يقول القرآن: ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾، والشمس والقمر والسموات وكل الوجود، من «كل شيء». إذا لم يشرب الإنسان الماء يموت، وإذا لم يصل الماء إلى الأشجار والجبال تموت، وهكذا بالنسبة إلى الحيوان، فحياة كل هؤلاء متوقفة على الماء. ولكن هناك أماكن لا تشرب الماء أصلاً، فالجنة من «كل شيء» والنار من «كل شيء». فهل تموت الجنة والنار إن لم يصلهما الماء؟

الماء تنزل الولاية

إن كلام القرآن^(١) موزون وما من أحد قادر على بيانه سوى ذلك الذي يشكّل بنفسه حقيقة القرآن^(٢) وروحه. وقد صدق في قوله: «وَجَعَلْنَا مِنْ

(١) «هذه الصحيفة النورانية صورة الاسم الأعظم كما أن الانسان الكامل أيضاً صورة الاسم الأعظم بل حقيقة هذين في الحضرة الغيبية واحدة، وهما في عالم التفرقة متفرقان على حسب الصورة ولكن على حسب المعنى أيضاً لا يتفرقان وهذا أحد معاني «لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض...» وكما أن الحق تعالى خمر طينة آدم الأول والانسان الكامل بيدي الجلال والجمال كذلك أنزل الكتاب الكامل والقرآن الجامع بيدي الجمال والجلال... كأن الذات المقدسة تقول: إنّنا بالتجلي بمقام الاسم الأعظم، وهو مقام أحدية الجمع والتفصيل بظهور رحمة الرحمانية والرحيمية، نزلنا القرآن في ليلة القدر المحمدية، وحيث أن في عالم الفرق بل فرق الفرق حصلت الفرقانية بين القرآنيين يعني القرآن المكتوب المنزل والقرآن المنزل عليه، يعني الكتاب الالهي والحقيقة المحمدية، فواصلنا بين القرآنيين وجمعنا بين الفرقانيين في ليلة الوصال، وبهذا الاعتبار أيضاً هذه الليلة ليلة القدر ولكن لا يعرف أحد قدرها كما ينبغي غير نفس خاتم النبيين صاحب ليلة القدر بالأصالة وأوصيائه المعصومين أصحابها بالتبعية»، الآداب المعنوية للصلاة، ص ٤٩٠ - ٥٠٢.

(٢) ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (سورة يس، آية ٦٩)، محمد ﷺ هو القرآن. عن الإمام الباقر عليه السلام: «ما ادعى أحد من الناس أنه جمع القرآن كله كما أنزل إلا كذاب، وما =

الماء^(١) كُلُّ شَيْءٍ حَيٍّ، فالحياة والوجود من الماء^(٢)، لأن الماء هو تنزّل ولاية محمد وآل محمد ﷺ.

=جمعه وحفظه كما نزلّه الله تعالى إلا عليّ بن أبي طالب ﷺ والأئمّة من بعده ﷺ، (الكافي، ج ١؛ كتاب الحجّة، ح ١ ص ٢٢٨). عدّة من أصحابنا عن سهل بن زياد عن محمد بن سليمان عن بعض أصحابه، عن أبي الحسن ﷺ، قال: قلت له: «جعلت فداك إنا نسمع الآيات في القرآن ليس هي عندنا كما نسمعها، ولا نُحسِن أن نقرأها كما بلغنا عنكم، فهل نأثم؟ فقال: لا، إقرؤوا كما تعلمتم، فسيجيئكم من يعلمكم»، (الكافي، ج ٢ ص ٦١٩ ح ٢). وعن سالم بن سلمة قال: «قرأ رجل على أبي عبد الله ﷺ وأنا أستمع حروفاً من القرآن ليس على ما يقرؤها الناس، فقال أبو عبد الله ﷺ: كُتِّبَتْ عن هذه القراءة، إقرأ كما يقرأ الناس حتى يقوم القائم، فإذا قام القائم ﷺ قرأ كتاب الله عزّ وجلّ على حدّه وأخرج المصحف الذي كتبه عليّ ﷺ وقال: أخرجه عليّ ﷺ إلى الناس حين فرغ منه وكتبه فقال لهم: هذا كتاب الله عزّ وجلّ كما أنزله الله على محمد ﷺ وقد جمعته من اللوحين فقالوا: هو ذا عندنا مصحف جامع فيه القرآن لا حاجة لنا فيه، فقال: أما والله ما ترونه بعد يومكم هذا أبداً، إنما كان عليّ أن أخبركم حين جمعته لتقرؤوه»، (الكافي، ج ٢ ص ٦٣٣).

(١) لطيفة ولائية: إن الماء هو تنزّل ولاية محمد وآل محمد ﷺ، ومنه جُعِلَ كل شيء حياً، ولكن له ظهور في كل عالم ومرتبة، كلٌّ بحسبه. وهذا هو الماء الذي احتاجه الأصحاب في كربلاء. فهناك، كان الإمام يطلب الماء لكل عالم الوجود وبالخصوص للإنسان، وذلك حتى يجعله حياً بحياته. ومن هنا، إرتبطت كربلاء بكلّ عناصرها بالحسين ﷺ، حيث استمدّت ماء الولاية منه، فأصبح بشرها أفضل البشر، إذ لم يجد الحسين أبرّ وأوفى منهم. وباتت أشجارها أقدس الأشجار، حيث صدحت إحداها بنداء «إني أنا الله»، بينما كانت أخرى شاهدة على ولادة عيسى بن مريم سلام الله عليهما. وقد نال الملائكة صفة المقرّبين لارتباطهم بالحسين ﷺ وكربلائه ولم يصل الأنبياء المرسلون إلى ما وصلوا إليه إلا من خلال ارتباطهم بكربلاء وهكذا بالنسبة للمؤمنين الذين امتحن الله قلوبهم للإيمان. وقد جمعت كربلاء الحسين كل المطهرات التي من شأنها أن تطهّر الإنسان باطناً وظاهراً. فشمسها تصهر الذنوب من جهة، وتصهر العاشق بالمعشوق من جهة أخرى، فتُصَيِّرُه واحداً معه، وماؤها يغسل المعاصي، والغيبة فيها تطهّر الباطن، إذ يغيب العاشق في معشوقه، وتربتها تبدّل الهوية وتُحِيلُ السيئات حسنات. وهكذا، فإن الماء الذي استمدّته كربلاء من الحسين ﷺ، جعلها أشرف بقاع الأرض وأجلّها.

(٢) عن علي بن محمد بن مخلد الجعفي معنعناً عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي

الإنسان عابد للشيطان منكرٌ للولاية

لو ذُكر الاسم في هذه الآية بحيث قيل مثلاً: «ولاية عليّ بن أبي طالب جعلنا منها كل شيء حي»^(١)، لَمَّا قبلنا تنزيلها^(٢) بهذه الصورة التي تمكّن الجميع من لمسها، ولأنكرنا هذا الكلام تماماً، ولَمَّا استطاع أيّ شيء أبداً أن يرفع ذلك الحجاب عنا^(٣). ولذلك، فقد تم تنزيل الولاية إلى هذا الحدّ لكي نفهم، ولكن، مع هذا، ما زلنا لا نفهم. ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٤).

إن هذا الإنسان أنانيّ ومغرور إلى أبعد الحدود. وهو منكر إلى درجة أنه لو قيل له إن الشيطان موجود في كل مكان، لَمَّا اعترض ولا أنكر بأيّ شكل من الأشكال. ولَمَّا قال إن الله وحده الموجود في كل مكان ولَمَّا دافع عن التوحيد، بل لكان وافق على هذا الكلام. ولكن، لو قيل له: إن أمير المؤمنين ﷺ موجود في كل مكان، لَاعترض^(٥) قائلاً: إن هذا الكلام يشكل ضربة للتوحيد.

إن البشريّ بذاته عابد للشيطان، أي إنه لا ينكر التجليات الشيطانية^(٦) إنما لا

خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴿ (سورة الفرقان، آية ٥٤) قال: «خلق الله نطفة بيضاء مكنونة، فجعلها في صلب آدم، ثم نقلها من صلب آدم إلى صلب شيث، ومن صلب شيث إلى صلب أنوش، ومن صلب أنوش إلى صلب قينان، حتى توارثتها كرام الأصلاب ومطهرات الأرحام، حتى جعلها الله في صلب عبد المطلب، ثم قسمها نصفين: فألقى نصفها إلى صلب عبد الله ونصفها إلى صلب أبي طالب، وهي سلالة، فولد من عبد الله محمد ﷺ ومن أبي طالب علي ﷺ فذلك قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ زوج فاطمة بنت محمد، فعليّ من محمد، ومحمد من عليّ، والحسن والحسين وفاطمة نسب، وعليّ الصهر»، بحار الأنوار، ج ٣٥ ص ٣٦٠؛ عن تفسير فرات، ص ٢٩٢.

(١) هي لأهل الحقيقة تلويحاً بغير تصريح.

(٢) ﴿كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَخِطُوا أَعْمَلَهُمْ﴾، سورة محمد، آية ٩.

(٣) ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾، سورة الكهف، آية ١٠١.

(٤) سورة الحشر، آية ٢١.

(٥) ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ (سورة ص، آية ٦٨)، ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْفَرُهُمْ أَلْكَفَرُونَ﴾، سورة النحل، آية ٨٣.

(٦) ثمة من البشر من هو عابد لطبيعته، ذليل لإبليس، مُسَخَّرٌ للهوى، أسير لمأكله وملبسه، =

يتوانى عن إنكار التجليات الولائية والعلوية^(١). بل ويحضر أدلة قرآنية^(٢) على

=معدن للفسق والفجور والمعاصي قد أفرخ إبليس في كل عضو من أعضائه. ولكن هناك من الناس من يحاول دفع الخواطر الشيطانية وردّها عنه: «في كيفية ردّ الخواطر الشيطانية، فعند توارّد الخواطر الشيطانية، يستغفر السالك بالاستغفار الخاص ٧ مرات والأولى سبعين مرّة: «استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيّ القيوم الرحمن الرحيم بديع السماوات والأرض من جميع ظلمي وجرمي وإسرافي على نفسي وأتوب إليه». ثم يستعيز من الشيطان الرجيم ثلاث مرات بهذه الآية الشريفة: ﴿يَسْمِ اللَّهَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾ * وَلَوْ كُفَّ لَمَسَخْنَهُمْ عَلَى مَكَاتِبِهِمْ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ ثم يقول ثلاث مرّات: «استغفر الله من جميع ما كره الله قولاً وفعلاً وخاطراً وسامعاً وناظراً ولا حول ولا قوة إلا بالله». وهذا البرنامج الشريف في دفع الخواطر يكرّر بعد صلاة الصبح بين الطلوعين، فيقول بعد صلاة الصبح (٥١٥) مرة اسم الله الشريف «يا فعّال»: والفعّال هو التوسّل إلى قوّة أزليّة وثابتة ومطلقة ويطلب منها العون في هذا السّير وبعد اسم الله يا فعّال، يذكر اسم الله «يا باسط» (١٤٤) مرة والباسط: هو الطلب من الحقّ جلّ قدسه بسط الرحمة والفيض»، الجفر وجوهر العقيق في سعد التوفيق، ص ٤٣.

(١) ما ذلك العناد والإنكار إلا لوجود مرض أو خبث فيه، ولهذا تكبّر عن الإقرار بشؤون الولاية لمحمد وآل محمد ﷺ. وأتى للمخلوق من عين النجاسة (المنّي) ولمن خرج من موضع البول مرتين أن ينال الثريا ويصدّق بالولاية ويدعن لها؟! ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾، (سورة ص، آية ٦٧ - ٦٨). «هناك أشخاص قلوبهم فيها جحود، فهي منكّرة تنكر كل شيء لكونها لا تستطيع فهمه، وأصحابها يخرجون بهذا الجحود عن الفطرة الإنسانية، فالإنسان يجب أن يكون قبوله لفكرة ما مستند إلى برهان وكذلك نفية لها عن برهان ودليل، فإن لم يكن لديه برهان على النفي أو الإثبات، فعليه أن يقول: لا أعلم، أو: قد تكون الفكرة صحيحة، كل ما تسمعه إحتمل صحته... فقد يكون صحيحاً أو غير صحيح، فلماذا الإنكار؟... فإذا كنا لم نستطع أن نفهم هذا العالم ولم نستطع الإنسان أن يعرفه فما هو مبرر إنكاره لما عند الأولياء؟ هذا القلب قلب إنكاري محروم كلياً من دخول الحقائق والأنوار إليه... فعلى من يريد التحرك للخروج من هذه الظلمات أن يحتمل صحّة تلك الأقوال ولا ينكرها وإلا بقي خلف جدار الإنكار إلى النهاية... عليه أن يسأل الله أن يفتح له سبيل الوصول إلى ما يجب عليه الوصول إليه»، تفسير آية البسملة (محاضرات معرفية)، ص ٩٦ - ٩٧ - ٩٨.

(٢) ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ يَغَيِّرُ سُلْطَانِي أَنْتَهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (سورة غافر، آية ٣٥)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ يَغَيِّرُ سُلْطَانِي أَنْتَهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ

ذلك فيتلو آية: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾^(١) ويقول إنهم بشرٌ أيضاً، فهل يستطيع البشري أن يتواجد في كل مكان؟ ولكن مثل هذا الإنسان ينسى القسم الثاني من الآية الذي يقول: ﴿يُوحَىٰ إِلَىٰ﴾.

ماء الولاية

قال الله تعالى: ﴿وَالْوَلِيُّ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا﴾^(٢)، إن هذا الماء، بصورته المثالية أو المثلية، التي يعتمدها القرآن الكريم لإفهام الحقائق^(٣) للبشر، هو في باطنه ولاية محمد وآل محمد ﷺ.

ولهذا، فإنه عندما يرغب الإنسان في التعبد بهدف أن يصبح عبداً^(٤) أو عابداً^(٥)، ينبغي عليه أن يتوضأ ويتصل بالماء، إذ إن الاختلاط بمسائل عالم المادة والدنيا يُنشئ الحجب^(٦) ويقطع الارتباط بمقام الولاية. ولكن حين يغسل

البصير، (السورة نفسها، آية ٥٦). ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾، سورة يونس، آية ٢١.

(١) سورة فصلت، آية ٦.

(٢) سورة الجن، آية ١٦.

(٣) «إلهي حَقِّقْنِي بِحَقَائِقِ أَهْلِ الْقُرْبِ، وَاسْلُكْ بِي مَسْلِكَ أَهْلِ الْجَذْبِ»، دعاء الإمام الحسين ﷺ يوم عرفة، مفاتيح الجنان.

(٤) قبل أن يصبح النبي الأعظم ﷺ رسولا لله كان عبداً له تعالى، حيث نقول: «أشهد أن محمداً عبده ورسوله».

(٥) ورد في حديث المعراج: «يا أحمد! هل تدري متى يكون لي العبد عابداً؟ قال: لا يا رب، قال: إذا اجتمع فيه سبع خصال: ورع يحجزه عن المحارم، وصمت يكفه عما لا يعنيه، وخوف يزداد كل يوم من بكائه، وحياء يستحي مني في الخلاء، وأكل ما لا بد منه، ويبغض الدنيا لبغضي لها، ويحب الأخيار لحبي إياهم»، إرشاد القلوب، ص ٢٠٥.

(٦) ورد في الزيارة الجامعة الكبيرة: «ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين»، والمراد بقوله ﷺ: (فاكتبنا مع الشاهدين)، أوصلنا وارفع تمام الحجب التي بيننا وبين الفرقان الذي وعده عبادك المتقين، بقولك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ الآية، والنور الذي وعدهم بقولك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ الآية، والمراد بهما حقيقة =

الإنسان رأسه ووجهه بالماء، يعود مجدداً ليرتبط بحقيقة الولاية، وهذا هو سرّ وباطن الوضوء أصلاً.

فإذا أردت أن تتعبّد وتصلّي، عليك بالوضوء، لأنه قد صدرت منك أعمال^(١) لوئنتك وجعلتك ناقصاً ومعيوباً، ولا طريق لك للعودة إلا بملاسة الماء وسكبه على وجهك ويديك. والجدير بالذكر أن كل حركات الوضوء تنطوي على أسرار، من غسل الوجه واليدين إلى المسح على الرأس والقدمين^(٢).

أما إذا انجذب قلبك^(٣) إلى ما لا ينبغي أن ينجذب إليه كثيراً، فعليك أن تغسل كامل وجودك بالماء^(٤). ففي تلك العلاقة الخاصة، ينضمّ الإنسان إلى

=الولاية، وإنّما قلنا: إنّ المراد بالكتابة الإيصال ورفع الحجب، لأنّ كتابة الله تعالى هو إحداث الشيء وتكوينه، وهو هنا بتكوين ذلك النور الفرقاني من قلوب المؤمنين، حتى يشاهده بغفران ذنوبهم، من رفع الحجب التي بينهم وبين ذلك النور، فتطمئنّ قلوبهم به»، الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٥٧٠.

(١) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ البحث في عاقبة العمل مفتاح من مفاتيح معرفة النفس». وعن رسول الله ﷺ: «من قارف ذنباً فارقه عقلٌ لا يرجع إليه أبداً»، ميزان الحكمة، ج ٢ ص ٩٨٧.

(٢) جاء نفر من اليهود إلى رسول الله ﷺ فسألوه عن مسائل وكان في ما سألوه، أخبرنا يا محمّد لأيّ علّة توصّأ هذه الجوارح الأربع وهي أنظف المواضع في الجسد؟ قال النبيّ ﷺ: «لَمَّا أَنْ وَسَّوسَ الشَّيْطَانُ إِلَى آدَمَ ﷺ دَنَا مِنَ الشَّجَرَةِ فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَذَهَبَ مَاءُ وَجْهِهِ، ثُمَّ قَامَ وَمَشَى إِلَيْهَا وَهِيَ أَوَّلُ قَدَمٍ مَشَتْ إِلَى الْخَطِيئَةِ، ثُمَّ تَنَاوَلَ بِيَدِهِ مِنْهَا مَا عَلَيْهَا وَأَكَلَ فَطَارَ الْحَلِيَّ وَالْحَلَلَ عَنْ جَسَدِهِ فَوَضَعَ آدَمُ يَدَهُ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ وَبَكَى، فَلَمَّا تَابَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى ذُرِّيَّتِهِ تَطْهِيرَ هَذِهِ الْجَوَارِحِ الْأَرْبَعِ فَأَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِغَسْلِ الْوَجْهِ لَمَّا نَظَرَ إِلَى الشَّجَرَةِ، وَأَمَرَهُ بِغَسْلِ الْيَدَيْنِ إِلَى الْمَرْفَقَيْنِ لَمَّا تَنَاوَلَ مِنْهَا، وَأَمَرَهُ بِمَسْحِ الرَّأْسِ لَمَّا وَضَعَ يَدَهُ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ، وَأَمَرَهُ بِمَسْحِ الْقَدَمَيْنِ لَمَّا مَشَى بِهِمَا إِلَى الْخَطِيئَةِ»، من لا يحضره الفقيه، ج ١ ص ٥٥ - ٥٦.

(٣) عن الإمام الصادق ﷺ: «القلب حرم الله فلا تسكن الله غير الله»، ميزان الحكمة، ج ٢ ص ٢١٢.

(٤) «قوام حقيقة العبودية بالدّخول تحت ولاية آل محمد ﷺ والخروج من ولاية أعدائهم فلا بدّ في مرتبة الجسم من استعمال الماء الذي هو مظهر الولاية الكلية في عالم الأجسام... وإذا صُبَّ عليه الماء... يظهر ظاهره، وأمّا الأمر بالشهادتين فلتطهير باطن الجسم بهما بما فيه»، الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٣٦.

شخصٍ آخر، فيتعلق به على نحوٍ تامٍّ وينصبّ كلّ توجّهه عليه في تلك الحالة، ومن أجل ذلك وجب الغُسل.

وعندما يموت الإنسان، يتوجب غسله أيضاً، وذلك لأن الموت ملاقة الله. فينبغي أن تخالط بدنه الولاية بصورتها التنزلية التي هي الماء.

غير أن هذا الوضوء والغُسل والاحتكاك بالماء، سواء في الصلاة أو الموت، لا يعود بأية نتيجة على ذلك غير العارف بالحقيقة والمُنكر لها.

حياة التراب

يأخذ التراب ^(١) والأرض حياتهما من الماء، ﴿وَيُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَهِئُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ^(٢). فإذا لم تجد الطريق إلى الماء، تعرّف على الأرض التي وصل إليها أثر من ذلك الماء.

وإذا كانت حجب العالم المادي تسيطر عليك إلى درجة أنها تمنعك من التعرف على تلك الحقيقة، تعرّف، إذاً، على الأرض والتراب ^(٣) واستأنس بهما، لأن ذلك الماء قد انسكب عليهما. فأولياء الله ^(٤) ومحبّو أهل البيت عليهم السلام قد وُجدوا في الدنيا لهذه الغاية. ويقول ابن فارض:

أَبْقِيَ لِي مَقْلَةً لِعَالِي يَوْمًا قَبْلَ مَوْتِي أَرَى بِهَا مِنْ رَأَى
لَمْ يَحْصُلْ أَنْ رَأَيْتُكَ أَوْ تَمَكَّنْتُ مِنَ الْإِتِّصَالِ بِكَ أَوْ تَسْلِمُكَ قَلْبِي. وَلَمْ أَمْتَلِكْ

(١) التراب أنواع، وأفضله وأعظمه تراب كربلاء.

(٢) سورة الروم، آية ٢٤.

(٣) أبو تراب هو أمير المؤمنين عليه السلام والتراب هم شيعة. فالإنسان له خلقان، خلق بالقوّة من آدم الحقيقي وخلق بالفعل من آدم الصوري.

(٤) من كلام للإمام الصادق عليه السلام: «... فَإِنَّ أَدْنَى مَا أَخَافُ عَلَيْكَ أَنْ تَعْتَرِ بُولِي لَنَا فَلَا تَشَمَّ حَظِيرَةَ الْقُدُسِ»، (وسائل الشيعة، ص ٢٠٨). قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصف أوليائه: «... إِنْ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ هُمْ الَّذِينَ نَظَرُوا إِلَى بَاطِنِ الدُّنْيَا إِذَا نَظَرَ النَّاسُ إِلَى ظَاهِرِهَا، وَاشْتَغَلُوا بِأَجْلِهَا إِذَا اشْتَغَلَ النَّاسُ بِعَاجِلِهَا، فَأَمَاتُوا مِنْهَا مَا خَشُوا أَنْ يَمِيتَهُمْ، وَتَرَكُوا مِنْهَا مَا عَلِمُوا أَنَّهُ سَيُتْرَكُهُمْ»، نهج البلاغة، ج ٢، ص ٢٤٦؛ قصار الكلمات، رقم ٤٣٠.

تلك القدرة والقوة والاستعداد والقابلية والعين لرؤيتك. ولذلك، قبل أن أموت،
إسمح لي بأن أرى شخصاً رآك.

﴿وإن كنتم ... فلم تحذوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً﴾^(١).

قيود الأنا

ما الذي يُسعدنا في هذه الدنيا؟ السلام على بعضنا البعض ومعاملة بعضنا البعض؟ وإذا لم نتلقَ المجاملات^(٢)، تظهر فينا كل الصفات الذميمة التي تشكّل

(١) (سورة النساء، آية ٤٣). «عن الصادق عليه السلام: «تقدّم إلى الماء تقدّمك إلى رحمة الله»، (بحار الأنوار، ج ٧٧ ص ٣٣٩). وذاك هو أصل التجلي الذاتي دون تعلق بمرآة ولا تعيّن في مجالي الآيات. فإذا وجد السالك إلى الله طريقاً إلى تجلي الفيض الإطلاقي ومشاهدة الجمال غير المتجدّد بمثال، فليطهر بهذا التجلي مقادير وجوده من أجل الوصول إلى بساط القرب... وعليه أن لا يلتفت إلى الصعيد فهو أصل التقييد والتجديد. فإذا فقد ماء سرّ الوجود، فليطهر في مرآة التعيّن الصعيدي والتجليّ التقيدي بعض تلك المحال (جمع محلّ) وليشاهد - في كسوة التقييد - سرّ الوجود «فإن التراب أحد الطهورين» «وربّ الماء هو ربّ الصعيد»، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ (سورة الزخرف، آية ٨٤). فسرّ الوضوء هو اضمحلال الكثرات في الجمع. أما التيمّم فهو رؤية الوحدة في كسوة الكثرة. وسرّ سرّ الوضوء هو رؤية الحق ونفي غيره ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ (سورة الحديد، آية ٣) والتيمّم: رؤية الذات المقدسة في كسوة الغير، «لو دلّيتم بحبل إلى الأرض السفلى، لهبطتم على الله»، (علم اليقين، ج ١ ص ٥٤). وإجمالاً، فالوضوء هو غسل اليد والوجه ممّا سواه ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (سورة الشعراء، آية ٨٩). والتيمّم: رؤيته في الأشياء «ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله معه أو فيه»، (علم اليقين، ج ١ ص ٤٩)، «داخل في الأشياء لا كدخول شيء في شيء»، (توحيد الصدوق، ص ٣٠٦). والوضوء تطهير بالماء قبل التنزّل، والتيمّم تطهير به بعد التنزّل، فإن التراب هو أحد الطهورين وذلك بمقتضى سراية حكم الباطن إلى الظاهر، والغيب إلى الشهادة. والوضوء - أيضاً - تطهير من النقائص والحدود ف ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ (سورة النساء، آية ٧٩)، والتيمّم رجوع النقائص إلى الحق - بالعرض - ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ (سورة النساء، آية ٧٨)، سرّ الصلاة، ص ١٠٩ - ١١٠.

(٢) روي عن الإمام محمد بن عليّ الباقر عليه السلام أنّه قال لجابر بن يزيد الجعفي: «يا جابر، إغتتم من أهل زمانك خمساً: إن حضرت لم تعرف، وإن غبت لم تفتقد. وإن شهدت =

أساس البعد^(١) عن الحق والحقيقة، كالغضب والحسد والكبر والشهوة وما إلى ذلك^(٢). وبسبب أن شخصاً ما لم يستطع أن يلقي السلام، مثلاً، أو لم يلقي السلام فعلاً أو لم يقف لنا أو لم يوجه إلينا كلاماً جميلاً، ننهي صداقتنا^(٣) معه، وهي صداقة فارغة^(٤) أصلاً. بماذا يتعلق قلبك؟ وهل هذه هي العلاقات التي

=لم تُشاور. وإن قلت لم يقبل قولك. وإن خطبت لم تزوج. وأوصيك بخمس: إن ظلمت فلا تظلم. وإن خانوك فلا تخن. وإن كذبت فلا تغضب. وإن مُدحت فلا تفرح. وإن دُممت فلا تجزع. وفكر في ما قيل فيك. فإن عرفت من نفسك ما قيل فيك فسقوطك من عين الله عز وجل عند غضبك من الحق أعظم عليك مصيبة مما خفت من سقوطك من أعين الناس، وإن كنت على خلاف ما قيل فيك، فتواب اكتسبته من غير أن يتعب بدئك. واعلم بأنك لا تكون لنا ولياً حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك وقالوا إنك رجل سوء لم يحزنك ذلك، ولو قالوا إنك رجل صالح لم يسرك ذلك، ولكن اعرض نفسك على ما في كتاب الله، فإن كنت سالكاً سبيله، زاهداً في تزهيده، راغباً في ترغيبه، خائفاً من تخويفه، فائت وأبشر، فإنه لا يضرك ما قيل فيك، وإن كنت مبيناً للقرآن فما ذا الذي يغرك من نفسك...»، (تحف العقول، ص ٢٨٤). «إن ترغب في أن تكون محط أنظار الخلق، فأنت أسوأ من الصنم، وإن يتفاوت مدحك وذمك لنفسك، فأنت صانع صنم»، منطق الطير، ص ٢٦٤.

(١) من لم يكنس تراب باب الحانة بخده، فلن تصل إلى مشامه رائحة الحق والحقيقة والمحبة. «إلهي ما أقرّبك مني وأبعدني عنك، وما أراقك بي فَمَا الَّذِي يَحْجُبُنِي عَنْكَ»، دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة، مفاتيح الجنان.

(٢) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «ما لم يصل الممكن إلى نقطة التوحيد، لن يصدر منه إلّا الذنب والخطأ والمعصية والكفر والنفاق». كما يقول دام ظلّه: «مجرى التوحيد الذي يريد الإنسان أن يصل إليه هو نفي الإنية على نحو كلي، فإنّ التوحيد هو التحرّر من كلّ ذنب، والذنب بلغة العرب كلّ ما يتعلق بوجود الإنسان وقيّد وجود الإنسان».

(٣) ولكي تُحفظ علاقاتنا، ينبغي استعمال المروءة مع الأصدقاء والمداواة مع الأعداء. وعن رسول الله ﷺ: «مداواة الناس نصف الإيمان والرفق بهم نصف العيش»، (الكافي، ج ٢ ص ١١٧). وعنه أيضاً ﷺ: «رأس العقل بعد الإيمان بالله مداواة الناس في غير ترك حق»، تحف العقول، ص ٤٢.

(٤) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إخوان هذا الزمان جواسيس العيوب، اللابسين أثواب الحسد منهم على كل حسن، الصديق الحميم منهم حميم والسلیم الود منهم كالسليم، والخل=

تُحزِنَكَ إذا ما انقطعت؟ كم تخطّط لهذه المسائل؟ إذا بالغَ في السّلام عليك، تبالغ أكثر في مجاملته، أما إذا كان سلامه بارداً^(١)، فلن تُكثر من مديحك له! أوهذه هي الإنسانيّة؟ أوهذا هو الشرف الإنساني؟ أوهل هذا ما خُلقنا من أجله؟

بارقة المحبة

سطعت بارقة واحدة من المحبة على وجود عالم كالحاج ميرزا حبيب الله الخراساني، فتخلّى عن كل اعتباراته التي حاز عليها، وقد كان مرجعاً ومجتهداً جامعاً للشرائط ومُدّرّساً مميّزاً في خراسان. ولكن، حين ضربت تلك البارقة وجوده، علّم أنه قد أمضى كامل عمره بالتباهي^(٢).

=الودود وخل ودود، وطعامهم الغيبة وأدامهم الريبة، يسرون الحسنات ويظهرون السيئات، ويحبون أن تشيع الفواحش، فثق بالله وذرههم واتخذ إليه سبيلاً، ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْلُجْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾، مشارق أنوار اليقين، ص ٤٢٨.

(١) عن أمير المؤمنين عليه السلام: «من لم يتغافل ولا يغض عن كثير من الأمور تنغصت عيشته»، (ميزان الحكمة، ج ٣ ص ٢٢١٧). «لكل شيء زكاة، وزكاة العقل، احتمال الجهال»، ميزان الحكمة، ج ٢ ص ١١٥١.

(٢) لكسب المنزلة والرّفعة والشهرة في نفوس الناس، ومن كلام لآية الله السيد أحمد النجفي دام ظله: «لا شك بأن الكفر مقيت وبأنه آفة الروح والقلب ولا شك أيضاً بأنه يسدّ الطريق أمام الإنسان. غير أن آفة الشهرة أدهى من الكفر على الروح والقلب. فأهل الطريق يصلون إلى مرحلة يتمنون فيها لو أن أحداً في العالم لا يعرفهم ولو أنهم لا يعرفون أنفسهم حتى، ذلك أن الشهرة تحول ما بين الإنسان والحقيقة وتسدّ الطريق أمامه. وحده المعصوم هو الذي لا تُحدث الشهرة أيّ فرق في تصرفاته ولا تهزّه أصلاً. وقد سلب جابر شهرته لأنه كان من «المختبين»، وإلا ما الفائدة من أنه أصيب بالجنون؟ ولماذا فعل الإمام الصادق عليه السلام ما فعله مع جابر؟ يجب أن نفهم هذه المسألة، إذ كان للتدابير التي يتخذها أهل البيت عليهم السلام أهداف عدة من بينها حقن الدماء وانتزاع الشهرة من أصحابها. فكل من يجعل الله تبارك وتعالى له سبيلاً في باطنه للوصول إلى المقامات المعنوية، يُبتلى بإراقة ماء وجهه وحطّ قدره في أعين الناس وهذه قاعدة لا خيار فيها لأهل محبة أمير المؤمنين عليهم السلام... ولأنّ يوسف عليه وعلى نبينا وآله الصلاة والسلام أراد أن يشرب من كأس الوصال هذا ويتذوق حلاوته، إبتلي هو الآخر بسوء السمعة. كما أرادت مريم أم عيسى عليها السلام أن تتعرف على هذه الحقيقة، فابتليت بهذا البلاء أيضاً، وهذا الأمر من خصائص طريق المحبة».

أحضرنا إلى هذه الدنيا كي يُصنع مِنّا إنسان. فهل هذا ما يحصل؟ نأكل وننام^(١) ونجامل بعضنا البعض ببضع عبارات وينتهي الأمر، أليس كذلك؟ إن لم تتمكن من الوصول إلى ذلك الماء، فاذهب وجد الإنسان الذي استطاع الوصول إليه. فكل الكبار الذين تمكنوا من الوصول إلى الحقيقة قالوا إن أحد العظماء^(٢)، ممّن انسكب ماء الولاية على وجوده، أولانا عنايته ومسح بيده على رؤوسنا. فحياة الوجود متوقفة على الماء الذي هو الصورة المثالية لحقيقة ولاية الذوات المقدسة لمحمد وآل محمد ﷺ. وإن سقوط قطرة واحدة من هذا الماء، بفضل عناية صاحب الولاية الكلية والمطلقة، على وجود شخص ما، كفيل بأن ينقّي وجوده ويزيل منه كل الصفات الذميمة^(٣) ليزرع مكانها الصفات الإنسانية.

(١) قال أبو عبد الله ﷺ: «مَنْ قرأ عند منامه آية الكرسي ثلاث مرّات والآية التي في آل عمران: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ وآية السّخرة وآية السّجدة، وكُلّ به شيطانان يحفظانه من مرّة الشياطين، شاؤوا أو أبوا، ومعهما من الله ثلاثون ملكاً يحمدون الله عزّ وجلّ ويسبحونه ويهلّلونه ويكبرونه ويستغفرون له إلى أن يتبته ذلك العبد من نومه، وثواب ذلك له»، أصول الكافي، ج ٢ ص ٣٩٢.

(٢) «هؤلاء هم حملة الأسرار، وهم الأبواب الذين إليهم تشدّ الرّحال، وإياهم تقصد الرجال، فإن كنت من سنخهم وصقّعهم فهنيئاً لك، وإن لم تكن منهم فتمسّك بعروة محبتهم، واعتصم بحبل مودتهم، فإنهم الأبواب إلى الأئمة الطاهرين، وهم القرى الظاهرة التي أعدت للسير إلى القرى المباركة، ليالي وأياماً آمينين، ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيْرُوا فِيهَا لَيَالِيًّ وَأَيَّاماً آمِنِينَ﴾، (سورة سبأ، آية ١٨)، وقال الباقر ﷺ: «نحن القرى التي بارك الله فيها والقرى الظاهرة شيعتنا» (تأويل الآيات الظاهرة، ج ٢ ص ٤٧٢)، دُرر الأسرار، ص ٣٩.

(٣) ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾، (سورة الفرقان، آية ٧٠). عن الباقر ﷺ: «يؤتى بالمؤمن المذنب يوم القيامة حتى يوقف بموقف الحساب، فيكون الله تعالى هو الذي يتولّى حسابه، لا يُطلع على حسابه أحداً من الناس فيعرفه ذنوبه، حتى إذا أقرّ بسيئاته، قال الله عز وجلّ للكتبة: بدّلوها حسنات وأظهِروها للناس، فيقول الناس حينئذٍ: ما كان لهذا العبد سيئة واحدة؛ ثم يأمر الله به إلى الجنّة، فهذا تأويل الآية، وهي في المذنبين من شيعتنا خاصّة»، (أمالى الطوسي، ج ١ ص ٧٠). وعن الرضا ﷺ، عن أبيه، عن آبائه، =

ساقی را باده از این دست به جام اندازد عارفان را همه در شرب مدام اندازد

ولكننا لم نتذوق طعم ذلك الماء ولذلك ننكر^(١). وما زلنا محرومين من طعم الأُنس بالله، ولذلك ننكر. لم نتذوق بعد طعم محبة أهل البيت عليهم السلام التي تفعل فعلها في وجود الإنسان، ولذلك ننكر. ينبغي أن لا نعلق قلوبنا^(٢) بشيء ولا نسلم أزمّة أنفسنا لأي شيء أبداً^(٣).

= قال: «قال رسول الله ﷺ: حبنا أهل البيت يكفر الذنوب، ويضاعف الحسنات، وإن الله ليحمل من محبينا أهل البيت ما عليهم من مظالم العباد، إلا ما كان منهم على إصرار وظلم المؤمنين، فيقول للسّيئات: كوني حسنات»، (أمالى الطوسي، ج ١ ص ١٦٦). وفي حديث أبي اسحاق القمي، عن الباقر عليه السلام الذي ورد في طينة المؤمن وطينة الكافر ما معناه: «إن الله سبحانه يأمر يوم القيامة بأن تؤخذ حسنات أعدائنا فتردّ على شيعتنا وتؤخذ سيئات محبينا فتردّ على مبغضينا، قال: وهو قول الله تعالى ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ يبدّل الله سيئات شيعتنا حسنات، ويبدّل الله حسنات أعدائنا سيئات»، التفسير الصافي، ج ٤ ص ٢٥.

(١) ﴿ثُمَّ كَانَ عَقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوْتُوا السُّوءَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (سورة الروم، آية ١٠)، فبسبب أعمالنا نكذب وننكر آيات الله. وعن إمام الزمان عليه السلام: «طلب المعارف من غير طريقنا أهل البيت مساوق لإنكارنا وقد أقامني الله وأنا حجة بن الحسن»، (المهدي الموعود، ص ١٠٢). وعن أبي الحسن الأول عليه السلام: «ولا تقلّ لما يبلغك عنّا أو يُنسب إلينا هذا باطل وإن كنت تعرف خلافة، فإنك لا تدري لم قلناه وعلى أيّ وجه وضعناه»، (مختصر بصائر الدرجات، ص ٧٦). وقال الباقر عليه السلام: «ألا ومن سلّم لنا ما لا يدره، ثقةً بأنّا مُحَقِّقُونَ عالمون لا نقف به إلا على أوضح المحجّات، سلّم الله تعالى إليه من قصور الجنة أيضاً ما لا يعلم قدرها هو، ولا يقادر قدرها إلا خالقها وواهبها»، (تفسير الإمام العسكري، ص ١٨١ ح ٩٦). «فلا تكن عنيداً فيحرقك الحبيب كالشمع... والحجر الصلب يذوب بين يديه فيرق ويلين»، حافظ الشيرازي.

(٢) «إلهي هب لي كمال الإنقطاع إليك»، المناجاة الشعبانية.

(٣) عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لا تكن عبداً غيرك وقد جعلك الله حراً»، (ميزان الحكمة، ج ١ ص ٥٨٢). «إلهي ارحمني أنا المسكين وأغثني حتى لا تتمرغ استغاثتي على أعتاب غيرك»، حافظ الشيرازي.

العودة إلى الحقيقة

التوبة تعني العودة إلى حقيقة محمد وآل محمد عليهم السلام^(١). فما الذي يحصل إن لم يُسكب ماء التوبة على وجود الإنسان؟ إن آدم عليه السلام هو أبو البشر جميعهم، وعلى الرغم من أنه عَلَّمَ الأسماء كلها، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾^(٢)، وتمكّن منها جميعها، إلا أنه أُبعد عن الجنة.

﴿قَالَ فِعْزَيْكَ لَاغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾^(٣). ليس للشيطان سبيل إلى الأنبياء. وثمة مكان آخر في العالم يمتاز بهذا الامتياز وهو الجنة، فبإمكان الشيطان الوصول إلى كل الأمكنة إلا الجنة، التي هي مبنية بطريقة لا تسمح لأية آفة بالدخول إليها، بما في ذلك الشيطان.

أدخل النبي آدم عليه السلام إلى الجنة، ذلك المكان الآمن الذي لا يمكن للشيطان أن يصل إليه. إلا أنّ ذاك الحصن الحصين الذي حُفِظ فيه آدم، تعرّض للاهتزاز.

حرمة أهل البيت عليهم السلام

في ما يتعلق بمحمد وآل محمد عليهم السلام، لا يجامل الله تعالى حتى أنبياءه^(٤)،

(١) التوبة معناها الرجوع إلى الله، وقد ورد في الزيارة الجامعة: «وإياب الخلق إليكم»، والرجوع إليهم يحقق التوبة، فإذا زار الموالي قبر أبي عبد الله الحسين عليه السلام كان كمن زار الله فوق عرشه، بحسب الحديث، وهذا معناه أنه يرجع إلى الله. وبالتالي، عند الزيارة، يتحقق الرجوع فتحقق التوبة بذلك.

(٢) (سورة البقرة، آية ٣١). عن الإمام السجّاد عليه السلام: «أسماء كلّ شيء، وفيه أسماء أنبيائه وأوليائه وعتاة أعدائه»، (تفسير الإمام العسكري عليه السلام، ص ٢١٧). «والمراد بأسماء كلّ شيء ليس لغاتها بل حقائقها ومبادئها»، الشمس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ١٣٧.

(٣) سورة ص، آية ٨٢ - ٨٣.

(٤) قال أبو عبد الله عليه السلام مخاطباً المفضل بن عمر: «يا مفضل، والله ما استوجب آدم أن يخلقه الله بيده وينفخ فيه من روحه إلا بولاية علي عليه السلام»، وما كلم الله موسى تكليماً إلا بولاية علي عليه السلام، ولا أقام الله عيسى بن مريم آية للعالمين إلا بالخضوع لعلي عليه السلام، ثم =

= قال: أجمَل الأمر ما استأهل خَلْقُ من الله النظر إليه إلا بالعبودية لنا»، (بصائر الدرجات الكبرى، ج ٢ ص ٩٣). وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الله عرض ولايتي على أهل السموات وعلى أهل الأرض، أقرّ بها من أقرّ وأنكرها من أنكر، أنكرها يونس فحبسه الله في بطن الحوت حتى أقرّ بها»، (بصائر الدرجات، ج ١ ص ٩٦ باب ١٠). عن أبي حمزة الثمالي أنه قال: دخل عبد الله بن عمر على عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام، فقال له: يا بن الحسين، أنت الذي تقول: إنّ يونس بن متى إنّما لقيّ من الحوت ما لقيّ لآته عُرِضَتْ عليه ولاية جدّي فتوقّف عندها؟ قال: بلى، ثكلتك أمك، قال عبد الله بن عمر: فأرني برهان ذلك إن كنت من الصادقين. قال أبو حمزة: فأمر عليّ بن الحسين عليه السلام بشدّ عينيه بعصابة وعيني بعصابة، ثم أمر بعد ساعة بفتح أعيننا، فإذا نحن على شاطئ البحر تضرب أمواجه، فقال ابن عمر: يا سيدي، دمي في رقبتك، الله الله في نفسي فقال له عليّ بن الحسين: «أو ما أردت البرهان؟ فقال: عبد الله بن عمر: أرني إن كنت من الصادقين. ثم قال عليّ بن الحسين عليه السلام: يا أيّتها الحوت، فأطلع الحوت رأسه من البحر مثل الجبل العظيم وهو يقول: لبيك لبيك يا وليّ الله، فقال عليّ بن الحسين عليه السلام: من أنت؟ قال: أنا حوت يونس يا سيدي، قال عليّ بن الحسين عليه السلام: حدّثنا بخبر يونس. قال: «إنّ الله تعالى لم يبعث نبياً من لدن آدم إلى أن صار جدّك محمد عليه السلام إلاّ وقد عرض عليه ولايتكم أهل البيت، فمن قبلها من الأنبياء، سلّم وتخلّص، ومن توقّف عنها وتتنع في حَمَلها لقي ما لقي آدم من المعصية، ولقي ما لقي نوح من الغرق، وما لقي إبراهيم من النار، وما لقي يوسف من الجُبّ، وما لقي أيّوب من البلاء، وما لقي داوود من الخطيئة، إلى أن بعث الله تعالى يونس، فأوحى الله تعالى إليه: أن يا يونس تولّ أمير المؤمنين عليّاً والأئمّة الراشدين في صلبه. قال يونس عليه السلام: كيف أتولّى من لم أره ولم أعرفه، وذهب مغاضباً، فأوحى الله تعالى إليّ أن التقم يونس ولا توهن له عظماً. فالتقمته، فمكّث في بطني أربعين صباحاً يطوف معي في البحار في ظلمات ثلاث ينادي: لا إله إلاّ أنت سبحانك إنّني كنت من الظالمين، قد قبلت ولاية عليّ بن أبي طالب والأئمّة الراشدين من ولده، فلمّا أن آمن بولايتكم أمرني ربّي فقدفته على ساحل البحر»، (مناقب آل أبي طالب، ج ٤ ص ١٥١). عن سليمان بن خالد قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «ما من شيء ولا من آدميّ ولا إنسيّ ولا جنيّ ولا ملك في السموات والأرض إلاّ ونحن الحجج عليهم، وما خلق الله خلقاً إلاّ وقد عرض ولايتنا عليه واحتجّ بنا عليه، فمؤمن بنا وكافر وجاحد، حتى السموات والأرض والجبال»، بصائر الدرجات، ص ٣٤٩.

ولو كان هذا النبي هو آدم أبو البشر. ولذلك أرسل الشيطان إليه ^(١)، ﴿فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ ^(٢) وكانت النتيجة أن ﴿أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ ^(٣).

لم يخاطب الحق المتعال حتى الكفار بهذا القدر من الحدة حيث قال:
﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ ^(٤).

(١) من كلام الآية الله السيد أحمد النجفي دام ظله: «عندما وسوس الشيطان لآدم وحواء ﴿فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾، كان يريد أن يحملهما في طريق العبادة، ويسلب منهما طريق العبودية وحقيقتها، وإلا لو أنهما مع ما هما فيه من العبودية الكامنة في ذواتهما استفادا وأكلا من نفس تلك الشجرة المنهية عنها، لما أخرجهما الله من الجنة التي كانا فيها، ولكن حيث لم ينظرا إلى العبودية، بل نظرا إلى حيثية العبادة، كان أمر إخراجهما من الجنة التي كانا فيها، فاشتما رائحة الشيطان بمجرد أن أقدما على تلك الشجرة، وهذه الرائحة كانت في الواقع صادرة من وجوديهما، أي أنّ رائحة الشيطان كانت صادرة من قلبيهما باعتبار أنهما خدعا بذلك الشخص، وهو الشيطان، الذي كان من أهل الورع والنسك والعبادة فاعتبرا أنّ هكذا شخص لا يمكن أن يتكلم بكلام كاذب وخادع، ومن هنا تجدون أنّ أكثر ما يُخدع بهم الناس أناسٌ من أهل النسك والعبادة والزهد».

(٢) (سورة الأعراف، آية ٢٠). «عمدة تصرّفاته (أي الشيطان) لعنه الله في العالم الطبيعي على ثلاثة أقسام: القسم الأول: تصرّفه في الإنسان بالوسوسة في صدره والإلقاء في قلبه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِكُفَّهِ إِلَى أُولِيَائِهِمْ﴾ الآية وقال تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ أَلْوَسَاسٍ الْخَنَاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ الآية والخناس اسم للشيطان الموكل على الناس كما في الأخبار. وهذا القسم هو الذي عُصِمَ منه المعصومون من الأنبياء والأولياء ولذلك لو تحقق منه لعنه الله وسوسة لهم كان ذلك بالظهور والتجسم لهم... القسم الثاني: تصرّفه لعنه الله في الإنسان غير قلبه كأعضائه مثلاً كما في قصة أيوب ومرضه مرضاً شديداً وهذا في غير المعصومين من الأولياء... القسم الثالث: تصرّفه لعنه الله في غير الإنسان من الأمور الخارجة عنه، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَذْتُ مِنَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَا أُخْلِفُكَ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، الآية والأخبار في هذا الباب أكثر من أن تُحصى، وقال الحق جلّ قدسه حكاية عن الشيطان لعنه الله في سورة الأعراف: ﴿قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتَنِي لِأَلْقِنَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَلْسُنِي * ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرُهُمْ شَاكِرِينَ﴾... أمّا الذين عُصِمَتْ قلوبهم بحياة الحي الذي لا يموت ومعرفة الحق لا طريق للشيطان لعنه الله إلى قلوبهم... وإنه لا أحد من محبي علي عليه السلام قد نظف قلبه من الغش والدغل ونجاسات الذنوب إلا كان أظهر وأفضل من الملائكة...»، الجفر وجوهر العقيق في سعد التوفيق، ص ١٦٠ - ١٦١ - ١٦٢ - ١٦٣ - ١٦٤.

(٣) سورة البقرة، آية ٣٦.

(٤) سورة طه، آية ١٢١.

تقول الرواية إن تلك الشجرة كانت الولاية، في أحد تنزلاتها. وإذا كانت تلك الشجرة شجرة حنطة، فهي عين الماء الذي هو الولاية في باطنه.

كما قيل إنها شجرة الحسد. فقد جلس آدم ﷺ في الجنة مرتاحاً وفرحاً، ثم راح يفكر في تلك النقطة الأولية التي كان بدء خلقها من النور. ورأى الأسماء الخمسة الطيبة مكتوبة هناك، فقال: من أين أتت هذه الأسماء إلى هنا؟ علماً أنها كانت ما تزال أسماء، ولم تكن هي بنفسها بعد. فأسماء تلك الذوات المقدسة^(١) هي التي تجلّت لآدم على نبينا وآله وعليه السلام، ممّا دفعه إلى أن يسأل نفسه قائلاً: لم هذه الأسماء موجودة هناك؟

ولهذا السبب، أخرج الله من الجنة^(٢). فالله تعالى لا يجامل أحداً حين يصل

(١) ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، (سورة البقرة، آية ٣١)، «نحن والله الأسماء الحسنی...».

(٢) بإسناده إلى الهروي قال: «قلت للرضا ﷺ: يا ابن رسول الله أخبرني عن الشجرة التي أكل منها آدم وحواء ما كانت؟ فقد اختلف الناس فيها فمنهم من يروي أنها الحنطة ومنهم من يروي أنها العنب ومنهم من يروي أنها شجرة الحسد. فقال: كل ذلك حق. قلت: فما معنى هذه الوجوه على اختلافها؟ فقال: يا أبا الصلت، إن شجرة الجنة تحمل أنواعاً فكانت شجرة الحنطة وفيها عنب وليست كشجرة الدني. وإن آدم ﷺ لما أكرمه الله تعالى ذكره بإسجاد ملائكته وبإدخاله الجنة، قال في نفسه: هل خلق الله بشراً أفضل مني؟ فعلم الله عز وجل ما وقع في نفسه، فناده: إرفع رأسك يا آدم فانظر إلى ساق عرشي، فرفع آدم رأسه فنظر إلى ساق العرش. فوجد عليه مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين وزوجته فاطمة سيدة نساء العالمين والحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة. فقال آدم ﷺ: يا ربّ من هؤلاء؟ فقال عزّ وجلّ: من ذريتك وهم خير منك ومن جميع خلقي ولولا هم ما خلقتك ولا خلقت الجنة والنار ولا السماء والأرض فإياك أن تنظر إليهم بعين الحسد فأخرجك عن جوارِي. فنظر إليهم بعين الحسد وتمنى منزلتهم. فتسلط الشيطان عليه حتى أكل من الشجرة التي نهى عنه (عنها) وتسلط على حواء لنظرها إلى فاطمة ﷺ بعين الحسد حتى أكلت من الشجرة كما أكل منها آدم فأخرجهما الله عز وجل عن جنته وأهبطهما عن جواره إلى الأرض»، (معاني الأخبار، ص ٤٢؛ عيون الأخبار، ص ١٧٠). وعن موسى بن محمد بن علي، عن أخيه أبي الحسن الثالث ﷺ قال: «الشجرة التي نهى الله آدم وزوجته أن يأكلا منها شجرة الحسد، عهد إليهما أن لا ينظرا إلى من فضّل الله عليه وعلى خلائقه بعين الحسد، ولم =

الأمر إليهم ﷺ، حتى وإن كان آدم، النبي الذي منحه العصمة وأسكنه الجنة الآمنة والمحكمة التي لا سبيل للشيطان إلى دخولها. ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾^(١). وعلى الرغم من تركه للأولى^(٢)، إلا أنه أُخرج من الجنة لهذا السبب.

=يجد الله له عزماً»، (بحار الأنوار، ج ١١ ص ١٨٧). وعن أبي عبد الله ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى عرض على آدم في الميثاق ذريته، فمرّ به النبي ﷺ وهو متكئ على عليّ ﷺ، وفاطمة صلوات الله عليهما تتلوها، والحسن والحسين ﷺ يتلوان فاطمة، فقال الله: يا آدم إياك أن تنظر إليه بحسد أهبطك من جواري، فلما أسكنه الله الجنة مثل له النبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم فنظر إليهم بحسد ثم عرضت عليه الولاية فأنكرها فرمته الجنة بأوراقها، فلما تاب إلى الله من حسده وأقرّ بالولاية ودعا بحق الخمسة: محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم غفر الله له، وذلك قوله: ﴿فَلَقَّيْنَاهُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ﴾»، (بحار الأنوار، ج ١١ ص ١٨٧). وقال الامام العسكري ﷺ: «... وإن الله عز وجل لما لعن إبليس بيبائه وأكرم الملائكة لسجودها لآدم وطاعتهم لله عز وجل، أمر بآدم وحواء إلى الجنة وقال: يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا من الجنة رغداً واسعاً حيث شئتما بلا تعب، ولا تقربا هذه الشجرة، شجرة العلم، شجرة علم محمد وآل محمد، آثرهم الله تعالى به دون سائر خلقه... اغترّ آدم وغلط فتناول فأصابهما ما قال الله تعالى في كتابه: ﴿فَأَرَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ بوسوسته وغروره ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من النعيم...»، تفسير الإمام العسكري، ص ٩٠؛ بحار الأنوار، ج ١١ ص ١٨٩.

(١) سورة البقرة، آية ٣٦.

(٢) إن ترك الأولى ليس هو ترك أمر مؤلوي يقتضي الحَل في طاعة المعصوم عند تركه، بل هو أمرٌ إرشادي يُرشده العقل بواسطة الشرع إلى عدم ارتكابه فهو أولى وأفضل، فإن ارتكبه فلا تعدّ مخالفة ولا يعدّ ذلك نقصاً لكونه أمراً إرشادياً. ولكن فعل الأولى يعدّ كمالاً في عصمة المعصوم، فنهى الله آدم عن الأكل من الشجرة ومخالفة آدم لذلك، يعدّ تركاً للأولى. «إن المعاصي العملية على قسمين: قسم ينشأ من هوى النفس ومتابعة الشيطان وهي المعاصي التي تنافي العصمة، وقسم ينشأ من هوى الربّ ومحبة وهو المسمّى بترك الأولى، لكون خلافه أرجح، وهو لا ينافي العصمة في حق غير الخلق الأول، أعني محمد وآله الطاهرين صلى الله عليه وآله وعليهم أجمعين، لأنه لم ينشأ من جهة الإديار، وإنما نشأ من جهة الإقبال، ولكنه نقص ينافي كمال الفناء في حق المعبود والتسليم لأمره. وإن أردت نظيراً لهذا القسم، فقدّر إنساناً تحبّه شديداً ويحبّك بمحبّتك إياه، فاتفق أنه أمرك بمفارقه أياماً لمصلحة رآها في ذلك، ففارقه، ثم بعثك شدة=

مؤثرية اسم الحسين ﷺ

بعد أن هبط النبي آدم على نبينا وآله وعليه السلام إلى الأرض، كان لا بدّ من التوبة^(١). وبحسب بعض الروايات، فقد أمضى مئتين وخمسين عاماً أو ثلاثمائة عاماً أو حتى ألف عام، وربما أكثر من ذلك أو أقل، تائباً باكياً^(٢) حتى قيل إن

=المحبة للقاءه على خلاف أمره ذلك، فعدت إليه ولم تكمل ما عهد إليك في ذلك، فإن ذلك يعدّ معصية لكونه خلاف ما أمرك به لكنه لا يقاس بسائر المعاصي الناشئة عن هوى النفس لأنه نشأ من المحبة... ومن هذا القسم المخالفات الصادرة عن الأنبياء والخصيصين أحياناً كآدم أبو البشر، فإنه إنما خالف نهى الله تعالى في أكل الشجرة حباً للخلود في جوار الله سبحانه، وهو ناشئ عن محبة الله تعالى؛ وما كان النهي عن الأكل نهى تحريم، بل نهى أرجحية، نظير الصلاة في الحَمَام بالنسبة إلى الصلاة في المسجد، فافهم... لكنه حيث كان منافياً لمقام التسليم الصّرف الذي هو مقتضى قبول ولاية أمير المؤمنين ﷺ على كمال ما ينبغي، لأنّ مقتضى كمال التسليم الارتضاء بكلّ ما يرضاه الحبيب من غير تعرّض له في ذلك... عاتبه الله في ذلك ليُثْمِر له الندم والاستغفار فينال بذلك أعلى درجات المحبة بنسبة مقامه، وسماه الله عصيانياً لأنه قسم منه، بيد أنه ليس بعصيان مُخرج عن حدّ العصمة، بل من قبيل ما للأولى تركه، فإنّه وإن كان ناشئاً عن حبّ الله، ولكنّ التسليم المحض وعدم الاعتبار والالتفات حتى إلى نفس المحبة أولى منه وهو معنى ما ورد أنّ المحبة حجاب بين المحبّ والمحبوب، لأنّ النظر إليها نوع التفات إلى جهة الإنية، فافهم»، (صحيفة الأنوار، ٢٧ - ٢٨). ويقول أهل المعرفة: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

(١) «التوبة ثلاثة أقسام: توبة العام وتوبة الخاصّ وتوبة الأخصّ: فالأولى هي الرجوع عن المعاصي وهي توبة العُصاة. والثانية، التوبة عن ترك الأولى وهي توبة الأنبياء الماضين ﷺ والثالثة، الرجوع عن الالتفات إلى غيره تعالى وتقدّس وهي توبة نبيّنا ﷺ المعصومين، فتوبتهم عبارة عن رجوعهم عمّا لعلّه صدر عنهم من عثرة التوجّه إلى غير جنابه تعالى وهي المعتبرة عند أهل السلوك... عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ، فقال: يا نبيّ الله! امرأة قتلت ولدها، هل لها من توبة؟ فقال ﷺ: والذي نفس محمد ﷺ بيده لو أنها قتلت سبعين نبياً ثم تابت وندمت ويعلم الله من قبلها أنها لا ترجع إلى المعصية أبداً، يقبل الله توبتها»، شرح الأسماء أو شرح دعاء الجوشن الكبير، ص ١١٩ - ١٢٠.

(٢) عن أبي عبد الله الصادق ﷺ قال: «البكاؤون خمسة: آدم، ويعقوب، ويوسف وفاطمة=

دموعه كانت تسيل على خديّه كنهرين جارئين وهو مع ذلك ينادي: يا أرحم الراحمين. ولكن من دون فائدة. وقضى سنوات وهو ينادي: يا غفار الذنوب ويا ستار العيوب، ولكن هذا أيضاً لم ينفعه. ﴿فَلَقَّيْنَاهُ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَمَتِ فَنَابَ عَلَيْهِ﴾^(١).

وفي النهاية، علّمه الله تعالى ما عليه قوله. فقال: يا آدم، لا فائدة مما تفعله، وإن لم تقل ما سألقيه عليك، لن تتحقق لك العودة. فسأل آدم: إلهي، ماذا أقول؟ قل: «إلهي، يا حميد بحق محمد، يا عالي بحق عليّ، يا فاطر بحق فاطمة، يا محسن بحق الحسن...» وحتى تلك اللحظة، لم يطرأ على وجود آدم أيّ تأثر. ولكن ما إن ذكر الاسم المبارك لرحمة الله الواسعة، حضرة سيّد الشهداء ﷺ، «يا قديم الإحسان بحق الحسين»، حتى انقلب حال آدم ﷺ رأساً على عقب وحصل هناك تغييرٌ في باطنه ورجع إلى مقامه. نحن لا نعلم ما هي مؤثريّة الإمام الحسين ﷺ حيث بدّل اسمه كيّان آدم ﷺ^(٢).

=بنت محمد، وعلي بن الحسين ﷺ، فأما آدم فبكى على الجنة حتى صار في خديّه أمثال الأودية، وأما يعقوب فبكى على يوسف حتى ذهب بصره وحتى قيل له: ﴿تَلَوَّاهُ نَفْتَوْا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾، وأما يوسف فبكى على يعقوب حتى تأذى به أهل السجن فقالوا له: إما أن تبكي بالليل وتسكت بالنهار وإما أن تبكي بالنهار وتسكت بالليل، فصالحهم على واحدة منهما، وأما فاطمة فبكت على رسول الله ﷺ حتى تأذى به أهل المدينة فقالوا لها: قد أذيتنا بكثرة بكائك، فكانت تخرج إلى المقابر، مقابر الشهداء فتبكي حتى تقضي حاجتها ثم تنصرف، وأما علي بن الحسين فبكى على الحسين ﷺ عشرين سنة أو أربعين سنة، ما وضع بين يديه طعام إلا بكى، حتى قال له مولى له: جعلت فداك يا ابن رسول الله إني أخاف عليك أن تكون من الهالكين قال: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون، إني لم أذكر مصرع بني فاطمة إلا خنقتني لذلك عبرة»، بحار الأنوار، ج ٤٣ ص ١٥٥.

(١) سورة البقرة، آية ٣٧.

(٢) روى صاحب الدرّ الثمين في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَقَّيْنَاهُ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَمَتِ فَنَابَ عَلَيْهِ﴾ (سورة البقرة، آية ٣٧) أنّه رأى ساق العرش وأسماء النبي والأئمة ﷺ فلقنه جبرئيل قل: يا حميد بحق محمد، يا عالي بحق عليّ، يا فاطر بحق فاطمة، يا محسن بحق الحسن والحسين ومنك الإحسان فلمّا ذكر الحسين سالت دموعه وانخشع قلبه، وقال: يا أخي جبرئيل في ذكر الخامس ينكسر قلبي وتسيل عبرتي؟ قال جبرئيل: ولدك هذا يصاب =

إياب الخلق إلينا

يُعتبر ما سبق، إحدى صور الرجوع إلى هذه الحقيقة. فكل من يريد الرجوع إلى الحق، عليه الرجوع إلى محمد وآل محمد عليهم السلام، «وإياب الخلق إليكم»^(١).

=بمصيبة تصغر عندها المصائب، فقال: يا أخي وما هي؟ قال: يقتل عطشاناً غريباً وحيداً فريداً ليس له ناصر ولا معين، ولو تراه يا آدم وهو يقول: وا عطشاه وا قلّة ناصراه، حتّى يحول العطش بينه وبين السماء كالدخان، فلم يحبه أحد إلا بالسيف، وشرب الحتوف، فيذبح ذبح الشاة من قفاه، وينهب رحله أعداؤه وتشهر رؤوسهم هو وأنصاره في البلدان، ومعهم النسوان، كذلك سبق في علم الواحد المتّان، فيكى آدم وجبرئيل بكاء الثكلي، بحار الأنوار، ج ٤٤ ص ٢٢٣.

(١) ورد في الزيارة الجامعة: «إياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم»، (مفاتيح الجنان). وقال الله تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ (سورة الغاشية، آية ٢٥ - ٢٦). وروى الكليني عن جابر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: «يا جابر، إذا كان يوم القيامة جمع الله عز وجل الأولين والآخرين لفصل الخطاب؛ دُعي رسول الله صلى الله عليه وآله ودُعي أمير المؤمنين عليه السلام، فيكسا رسول الله صلى الله عليه وآله حلّة خضراء تضيء ما بين المشرق والمغرب، ويكسا علي عليه السلام مثلها، ويكسا رسول الله صلى الله عليه وآله حلّة وردية يضيء لها ما بين المشرق والمغرب، ويكسا علي عليه السلام مثلها، ثم يصعدان عندها ثم يُدعى بنا فيُدفع إلينا حساب الناس، فنحن والله نُدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يُدعى بالنبیین عليهم السلام فيُقامون صفّين عند عرش الله عز وجل حتّى نفرغ من حساب الناس، فإذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، بعث ربّ العزة علياً عليه السلام فأنزلهم منازلهم من الجنة وزوّجهم، فعليّ والله الذي يزوّج أهل الجنة في الجنة، وما ذاك إلى أحد غيره، كرامة من الله عزّ ذكره، وفضلاً فضّله الله به ومنّ به عليه، وهو والله يُدخل أهل النار النار، وهو الذي يغلق على أهل الجنة إذا دخلوا فيها أبوابها، لأن أبواب الجنة إليه، وأبواب النار إليه»، (الكافي، ج ٨ ص ١٥٩). وما رواه الكليني أيضاً عن سماعة أنه كان قاعداً مع أبي الحسن الكاظم عليه السلام والناس في الطواف في جوف الليل، فقال الإمام صلوات الله عليه: «يا سماعة، إلينا إياب هذا الخلق وعلينا حسابهم، فما كان لهم من ذنب بينهم وبين الله عز وجل حتمنا على الله في تركه لنا فأجابنا إلى ذلك، وما كان بينهم وبين الناس استوهبناه منهم وأجابوا إلى ذلك وعوّضهم الله عز وجل»، (الكافي، ج ٨ ص ١٦٢). وحديث قبيصة، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾. قال: «فيها، قلت: إنّما أسألك عن التفسير؟ قال: نعم يا قبيصة إذا كان يوم القيامة جعل الله حساب شيعتنا إلينا، فما كان بينهم وبين الله استوهبه محمد صلى الله عليه وآله =

ولإياب صورتان: الأولى هي التوبة والثانية هي الرجوع في يوم القيامة. وتشمل عبارة «إياب الخلق» النبي آدم عليه السلام، فهو من الخلق أيضاً. «وإياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم»^(١).

فهل نمضي في الطريق الذي نحقق من خلاله هذا الهدف الأصلي من الخلقة؟ ما قدر الأعمال التي قمنا بها في هذا السبيل وهل سلّمنا قلوبنا هنا؟ سيصلنا هذا

=من الله، وما كان في ما بينهم وبين الناس من المظالم أذاه محمد عليه السلام عنهم، وما كان في ما بيننا وبينهم وهبناه لهم حتى يدخلوا الجنة بغير حساب»، (الأنوار الالامعة، ص ١٣٧). بإسناده عن المفضل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «من تراهم؟ نحن والله هم، إلينا يرجعون، وعلينا يُعرضون، وعندنا يفضون، وعن حُبنا يُسألون»، (بحار الأنوار، ج ٢٤ ص ٢٧٢ ح ٥٣). عن الصادق عليه السلام أنه قال: «إذا كان يوم القيامة ولينا أمر شيعتنا فما كان عليهم لله فهو لنا وما كان لنا فهو لهم وما كان للناس فهو علينا»، (بحار الأنوار، ج ٢٧ ص ٣١٣ ح ١٠)، وفي رواية ابن جميل: «ما كان عليهم لله فهو لنا، وما كان للناس استوهبناه، وما كان لنا فنحن أحقّ من عفا عن محبيه»، (بحار الأنوار، ج ٢٧ ص ٣١٤ ح ١١). ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾، سورة ق، آية ٤٣ - ٤٤.

(١) (الزيارة الجامعة الكبيرة، مفاتيح الجنان). ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ (سورة الأعراف، آية ٢٩ - ٣٠). يقول آية الله السيد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «وما ورد في الزيارة الجامعة «وإياب الخلق إليكم» يشير إلى أنّ الوجود يرجع إلى أهل البيت عليهم السلام، وهذا يعني أنّه لا بدّ أن ترجع إليهم حتى تفهم الحقيقة»، انتهى. «لآل محمد عليهم السلام في كل نفس بل في كل شيء سرّ، وهو عبارة عن اسم الله الذي هو مصداق لما هو مبدأ لظهورهم. وعلائية، وهي التي بين أظهر الناس من الحجة من آل محمد عليهم السلام في كل زمان من الأئمة الإثني عشر عليهم السلام ومظهر كليّ لإسم الله جامع لتمام مراتبه، فلجامعيته لتمام المراتب الجزئية، صاروا عليهم السلام شهداء الخلق في السرّ، وحججاً عليهم في العلانية، ففي كلّ موجود كان مبدأ تمام عوالمه في السرّ والعلانية وهو سرّ محمد وآل محمد ومرجعها إليه وفي عالم الصورة لخلافتهم عن الله تعالى معاذهم في كل بلية، وملاذهم لكلّ شدة ومرجعهم في كلّ شبهة، ومستسقاها في كلّ علم هو آل محمد عليهم السلام. وإذا حُشِر الناس في القيامة وبرزوا للحساب ليحاسب لهم وعليهم، فهو تعالى أجلّ وأعظم من أن يبرز للخلق، لعدم سعة عالم الإمكان لبروزه وظهوره، فلا بدّ من نصب خليفة يباشر حسابهم»، الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٣٤٨.

الخبز والماء والمسكن وكل لوازم الحياة بشكلٍ من الأشكال^(١)، ولكن كم سَعَيْنَا للوصول إلى الهدف الذي خُلِقْنَا من أجله؟ ما المسافة التي سلكناها وقطعناها لنصل إلى ذلك الهدف؟ إلى أيِّ حدٍّ نكرّس أنفسنا^(٢) في هذا السبيل؟ ما زلنا غارقين في النفي والإثبات. العمر انتهى ونحن نحتضر. فلا يغرتكم شبابكم ويدفعكم إلى التسويف^(٣)، فما أكثر الذين يموتون في سنّ الشباب! وإن لم يحصل الإنسان على معرفة محمد وآل محمد ﷺ، لن يحصل على شيء أبداً، حتى ولو كان التوحيد^(٤).

(١) عن أمير المؤمنين ﷺ: «فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها»، شرح نهج البلاغة، ج ١٦ ص ٢٨٧.

(٢) «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ»، (غرر الحكم ودرر الكلم، ج ٥ ص ١٩٤ ح ٧٩٤٦). ﴿سَرُّهُمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (سورة فصلت، آية ٥٣). إنّ كل الذي تهواه موجود في داخلك ومنقوش ومودّع في سرّك وهذه هي الفطرة وهذا هو كتابك. في باطنك كتاب، اقرأ ما فيه وسيطلعك على حقائق تُنبئ عن كينونته تعالى وعن آيات تدلّ على وحدانيّته وهو قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾. وحتى تقرأ حروف كتابك، عليك بالصّمت والسّكوت والإعراض عن نفسك وشؤوناتها وسكونها عن الوسواس وهذوء القلب من الهواجس والاضطراب ويلزمك صحو القلب ومحو النفس وإسقاط الإنّيّة والأنانية والتجرّد عن الماديات والتشخّصات والتعيّنات والتعريّ عن الكثافات والأعراض والإضافات، وعندها تعرف ربّك يقيناً. فاكشف تلك الثّقْبَ واخرق تلك الحُجُبَ حتى تصل إلى الحرم وتعاين المراد وآية ربّ العباد بالفؤاد، وعلامة وصولك نسيانك نفسك وعصاك وذهولك عن أهلك وناسك وإعراضك عن أبنائك. وليكن دخولك القرية على حين غفلة من أهلها وأعرض عمّا تراه لئلا يصل خبرك إلى فرعون زمانك فيأمر بقتلك.

(٣) «فَقَدْ أَفْنَيْتُ بِالتَّسْوِيفِ وَالْأَمَالِ عُمْرِي»، دعاء أبي حمزة الثمالي، مفاتيح الجنان.

(٤) عن أبي حمزة قال: قال لي أبو جعفر ﷺ: «إنما يعبد الله من يعرف الله، فأما من لا يعرف الله فإنما يعبد هكذا ضلالاً. قلت: جعلت فداك فما معرفة الله؟ قال: تصديق الله عز وجل وتصديق رسوله ﷺ وموالاته عليّ ﷺ والائتمام به وبأئمة الهدى ﷺ والبراءة إلى الله عز وجل من عدوّهم، هكذا يُعرف الله عزّ وجلّ»، (الكافي، ج ١ ص ١٨٠). قال أبو عبد الله ﷺ مخاطباً المفضل بن عمر: «إن الله تبارك وتعالى توخّد بملكه فعرفّ =

عرش الله

يقول الحق تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾^(١). ويقول في مكان آخر: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ

=عباده نفسه، ثم فوّض اليهم أمره وأباح لهم جنّته فمن أراد الله أن يطهّر قلبه من الجن والإنس عرفه ولايتنا ومن أراد أن يطمس على قلبه أمسك عنه معرفتنا»، (بصائر الدرجات الكبرى، ج ٢ ص ٩٣). ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾، (سورة يس، آية ٦٦). عن أبي عبد الله عليه السلام قال: خرج الحسين بن علي عليه السلام على أصحابه فقال: «أيها الناس، إنّ الله جلّ ذكره ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه. فقال له رجل: يا بن رسول الله، بأبي أنت وأمي، فما معرفة الله؟ قال: معرفة أهل كل زمان إمامهم الذي يجب عليهم طاعته»، (علل الشرائع، ج ١ ص ٩). عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «إن الله تبارك وتعالى خلق أربعة عشر نوراً من نور عظمته قبل خلق آدم فهي أرواحنا، ف قيل له: يا بن رسول الله عدّهم بأسمائهم فمن هؤلاء الأربعة عشر نوراً؟ فقال عليه السلام: محمّد وعلي وفاطمة والحسن والحسين وتسعة من ولد الحسين تاسعهم قائمهم، ثم عدّهم بأسمائهم، ثم قال: نحن والله الأوصياء الخلفاء من بعد رسول الله ﷺ، ونحن المثاني التي أعطاه الله نبينا، ونحن شجرة النبوة ومنبت الرحمة ومعدن الحكمة ومصابيح العلم وموضع الرسالة ومختلف الملائكة وموضع سر الله، ووديعة الله جلّ اسمه في عباده، وحرّم الله الأكبر وعهده المسؤول عنه، فمن وفى بعهدهنا فقد وفى بعهد الله ومن خفره (نقضه) فقد خفر ذمة الله وعهده، عرفنا من عرفنا وجهلنا من جهلنا، ونحن الأسماء الحسنى التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلا بمعرفتنا، ونحن والله الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه، إن الله تعالى خلقنا فأحسن خلقنا وصورنا فأحسن صورنا وجعلنا عينه على عباده ولسانه الناطق في خلقه، ويده المبسوطة عليهم بالرفقة والرحمة، ووجهه الذي يؤتى منه وبابه الذي عليه، وخزان علمه وتراجمه وحيه وأعلام دينه والعروة الوثقى والدليل الواضح لمن اهتدى، وبنا أثمرت الأشجار وأينعت الثمار وجرت الأنهار ونزل الغيث من السماء ونبت عشب الأرض وبعبادتنا عبد الله، ولولانا ما عرف الله، وأيم الله لولا وصية سبقت وعهد أخذ علينا لقلت قولاً يعجب منه، أو يذهل منه الأولون والآخرون»، (المحتضر، ص ١٢٩؛ بحار الأنوار، ج ٢٥ ص ٥). وعن أبي عبد الله عليه السلام أيضاً: «نحن والله الأسماء الحسنى التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلا بمعرفتنا»، (الكافي، ج ١ ص ١٤٤).

(١) سورة الحديد، آية ٤.

لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا»^(١). وإذا لم نأول هذه الآية تأويلاً ولائياً، لن يتضح معناها لأحد^(٢).

«قلب المؤمن عرش الرحمن»^(٣)، إن هذا العرش، الذي فيه يكون الله مكيناً، مستقرٌّ على الماء، ما يعني أن قائمة عرش الحق هذا هي ولاية أمير المؤمنين وأبنائه المعصومين عليهم السلام.

گروهی که طلبکار خداييد بياييد
خدا در دل سودازدگان است بجوييد
مجوييد زمين را ونپوييد سما را^(٤)

لقد خلق الحق المتعال السماوات والأرضين في ستة أيام. وهناك يوم سابع أيضاً، الحديث فيه عن الماء، ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾. أراد الحق تعالى أن يظهر ويتجلى، فتجلى من اليوم السابع حيث حمل الماء عرش الحق^(٥).

(١) سورة هود، آية ٧.

(٢) ﴿وَكَانَ مِنْ آيَاتِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾، (سورة يوسف، آية ١٠٥). ﴿وَتَعْبَهُ أَذُنٌ وَّعِيَةٌ﴾، (سورة الحاقة، آية ١٢). ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾، سورة الأنفال، آية ٢٣.

(٣) بحار الأنوار، ج ٥٥ ص ٣٩.

(٤) صفا أصفهاني.

(٥) من كلام لآية الله السيد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (سورة طه، آية ٥)، كربلاء، وهي آخر حدّ الوجود. ومن كلام له دام ظلّه: «لقد اختار الحسين عليه السلام كربلاء لتكون المصداق النهائي للهجرة إلى الله تعالى، فكربلاء ليست نقطة جغرافية كما أنها ليست موطناً، وإنما هي حقيقة كالنبوة والرّسالة والإمامة والولاية. وكذلك الحال بالنسبة لعاشوراء، فهي ليست زماناً بل حقيقة كبقية الحقائق المعنوية. كربلاء هي حقيقة هاجر الحسين عليه السلام إلى الله من خلالها، وقد صدحت بهتاف الوحدة حين زارت قائلة: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾، فأتى ظهور الألوهية منها، ولهذا السبب ينبغي السجود على تربتها. لا يجوز السجود إلا لله، فأنت يا مَنْ تسجد على تراب كربلاء إنما تفعل ذلك بسبب ظهور الله، أي أن تربة الحسين عليه السلام ليست إلا ظهوراً لله، ومن أجل ذلك هاجر الحسين عليه السلام إلى الله. ولذا، ينبغي عليك أنت أيها الموجود في عالم الجسد، أن تنزل باتجاه تلك التربة. «ليس غيري، ليس غيري في الوجود، أسجدوني، =

ولكن، ألا يمكن، من حيث اللطافة الخاصة التي نتكلم بها، أن يكون هذا اليوم السابع هو نفسه يوم السابع من المحرم الذي بدأ فيه العطش والكلام عن الماء؟ ألا يمكن أن يكون هناك روابط معيّنة في هذا العالم تظهر لنا بشكلٍ خاص؟

العطش للولاية لانهائي

ولكن، من أجل ماذا كان العطشُ موجد الماء؟ يرتبط هذا بلانهائية الطريق، ما يعني أن الإمام الحسين عليه السلام لا انتهاء له ولا يمكن لحكايته أن تصل إلى نهايتها وخواتيمها أبداً^(١).

افتاد از ازل ازل واز ابد ابد بر پای عشق و همت بی منتهای تو
نشاخت قدر رفعت ذات تو را کسی غیر از خدا که گفته منم خونبهای تو
بوسه زدی به خنجر تقدیر و سرنوشت خون قضا بریخت به دست رضای تو

هذه الحقيقة لا تقبل الانتهاء، فهي لا نهائية^(٢). ولا يمكن لشيء أن يوصلها إلى خاتمتها أو يعين لها حدوداً. ولذلك، ظل العطش قائماً حتى آخر لحظة وما زال حتى الآن، لأن هذا العطش^(٣) مرتبط بلانهائية الولاية. إنه يحتاج إلى

=أسجدوني في السجود». ولكنّ الواقع أنك غير عارف بهذه التربة التي تضعها أمامك في الصلاة، (اللهم عرفنا كربلاء)، كربلاء الشهود، ص ٩٦.

(١) إن الحسين عليه السلام معجزة فريدة لو لم يكن لرسول الله صلى الله عليه وآله سواه لكفى. فهو معجزة كالقرآن تماماً، إذ إنه في كل عصر غصّ طري لا يبلى على مرّ العصور والدهور، ويجد البشر فيه على مرّ الأيام والأجيال جديداً كما لو أنّه لم يُسمع من قبل، أو كأنه اكتشاف لم يسبق لأحد أن تعرّف عليه. وترى كلّ ما كُتب فيه ناقصاً ينتظر من يبلوره أو يستكشفه من جديد. وفي كل عام، تلقى شذى لم يستشّمه أحدٌ من قبل وأفكاراً وسيراً لم تسمعها الأذان أو تذوقها القلوب. وكلّ من أراد أن يدلو بدلو، ينهل منه بقدر إنائه. فهو والقرآن في ذلك سواء، كلّ يوم من أيامه صفحة من صفحات المصحف وكل عضو من أعضائه جزء من أجزاء القرآن، وكلّ نفس من أنفاسه، كلمة من كلماته. وإن عظماء العلماء لا تطمئنّ قلوبهم إلا بما يقدمونه لسيّد الشهداء عليه السلام.

(٢) لأنها الظل الممدود، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾، سورة الفرقان، آية ٤٥.

(٣) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «في ذاك المقام لا حيّة للماء ولا =

الماء، أي أن موجد الماء في العالم يحتاج إلى الماء! وهو بذلك يُخبرنا أن هذا الطريق لا نهاية له، بل لا بداية له ولا نهاية.

زان يار دلنوازم شكري است با شكايتم گر نکته دان عشقي، بشنو تو اين حكايت
هر خدمتي كه كردم بي مزد بود ومنت يا رب مباد كس را مخدوم بي عنایت
رندان تشنه لب را آبي نمی دهد كس گويا ولي شناسان، رفتند از اين ولايت

التوق إلى الماء

يقول بُرير: في اليوم السابع، قُطِع الماء عن خيام أبي عبد الله عليه السلام. ولم يكونوا قد ادّخروا الماء في وقت سابق لأنهم، بحسب الظاهر، لم يعلموا بأنهم سيُبتلون بنقص في الماء. وفي وقت الظهر، وفي ذلك الحرّ الشديد وتلك الحالة التي كانوا عليها، ارتفع صراخ الأطفال شاكين العطش ^(١). يقول بُرير: احترق قلبي لذلك، فقلت لأصحابي: إننا على قيد الحياة، وأطفال الحسين يتحرّقون عطشاً!

إصطحبتُ معي بعض الأفراد وذهبنا باتجاه المشرعة لإحضار الماء لأطفال الحسين عليهم السلام. وجدنا طريقنا إلى المشرعة. وملأنا القرب بالماء. وفي طريق عودتنا، تنبّه جنود الأعداء إلينا، فقدموا لمنعنا من العودة ودارت بيننا معركة عنيفة. وخلال احتدام المعركة، أُتلفت قِربٌ كثيرة. ولكنّي استطعتُ إحضار قربة من الماء إلى خيام أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

وعندما وصلتُ قرب الخيام، ركض الأطفال باتجاه القربة، فتوقفتُ مكاني.

=حيثية للعطش أصلاً، بل كان عليه السلام يُعانيك ويقول لك: إنّي عطشان، فهو عطشان، ولكنّه عطشان بسبب عطشك، ويمكنه أن يتحمّل هذا العطش لأنّ وجوده وجود سعيّ.
(١) «وفي اليوم السابع اشتدّ الحصار على سيّد الشهداء ومَن معه، وسدّ عنهم باب الورود ونفد ما عندهم من الماء، فعاد كلّ واحد يعالج لهب العطش. وبطبع الحال كان العيال بين أنة وحة وتضور ونشيج ومتطلّب للماء إلى متحرّ له بما يبلّ غلته وكلّ ذلك بعين أبي علي والغيارى من آله والأكارم من صحبه، وماعسى أن يجدوا لهم شيئاً وبينهم وبين الماء رماح مشرعة وسيوف مرهفة»، مقتل الحسين عليه السلام، ص ٢٠٣.

كانوا يتوقون إلى الماء إلى درجة أن القربة وقعت على الأرض وهم يحاولون أخذها منّي. راح بعض الأطفال يضعون أفواههم على القربة ويمسحون ألسنتهم بالرطوبة التي تغطيها من الخارج. ورغم أنني كنت قد أقفلت القربة بشكل مُحكم حتى لا ينسكب ماؤها، إلا أنه لشدة توق الأطفال للماء، فُتح باب القربة فجأة وأريق ماؤها على الأرض^(١).

(١) روى صاحب أسرار الشهادة عن سكينه بنت الحسين عليها السلام قالت: «عزّ ماؤنا يوم التاسع من المحرم حتّى كظنا العطش فلما أمسى المساء عطشْتُ أنا وبعض الفتيات والأطفال فقمّت إلى عمّتي زينب كي أخبرها بعطشنا؛ لعلها قد أدّخت لنا ماءً. فوجدتها جالسة في خيمتها وفي حجرها أخي الرضيع وهي تارة تقوم وتارة تجلس وأخي الرضيع يضطرب على يديها اضطراب السمكة في الماء وهو يصرخ وهي تقول: يا بن أخي وأنتى لك الصبر وأنت على هذه الحالة! يعزّ والله على عمّتك أن تراك عطشاناً. قالت سكينه: فلما سمعتُ كلامها انتحبت باكياً فالتفتت إليّ وقالت لي: يا ابنة أخي ما يبكيك؟! فقلت لها: عمّة أبكي لحال أخي الرضيع. ولم أعلمها بعطشي؛ خشية أن يزيد همّها. ثم قلتُ لها: عمّة لو أرسلت إلى بعض عيالات الأنصار [عسى] أن يكون عندهم ماء؟ فقامت وأخذت الطفل بيدها فمرّت بخيم عمومته وأولاد عمّه فلم تجد عندهم ماءً فرجعت وقد تبعها بعض أطفالهم؛ رجاء أن تسقيهم الماء. ثم جلست في خيمة أولاد عمّي الحسن وأرسلت إلى خيم الأصحاب؛ لعل عندهم ماء فلم يكن عندهم شيء من الماء فلما آيست رجعت إلى خيمتها ومعها ما يقرب من عشرين صبي وصبية فأخذت بالعويل ونحن نتصارخ بالقرب منها فمرّ علينا رجل من أصحاب أبي الحسين يقال له برير بن خضير الهمداني فلما سمع بكاءنا رقّ لحالنا وجعل يبكي فنادى أصحابه وقال لهم: أصحابي ما رأيكم؟ أيسرّكم أن تموت هذه الصبية عطشاً وفي أيدينا قوائم سيوفنا؟! لا والله لا خير في الحياة بعدهم بل نرد دونهم حياض الموت. أصحابي فليأخذ كل واحد منّا بيد فتاة من هذه الفتية ونهجم على المشرعة قبل أن يهلكوا من الظمأ وإن قاتلنا القوم قاتلناهم. فقال له يحيى المازني: إنّ الحرس يمنعونا ويقاثلوننا فإذا أخذنا الأطفال ربما تنالهم بعض السهام فنكون نحن السبب لذلك، لكن الرأي أن نحمل معنا قربة ونملأها لهم فإن قاتلونا قاتلناهم ومن قُتل منّا يكون فداء لبنات رسول الله صلى الله عليه وآله. فقال له برير: شأنك. ثم أخذوا قربة وساروا قاصدين الفرات وأقبلوا نحو المشرعة فأحسّ بهم الحراس وصاحوا: من هؤلاء؟ فقال لهم برير: أنا برير وهؤلاء أصحابي وقد كظنا العطش. فقالوا لهم: مكانكم حتّى نخبر رئيسنا إسحاق بن حوية. ثم إنهم نزلوا إلى المشرعة ونزل برير فلما أحسّ ببرد الماء انتحبت باكياً وقال: لعن الله ابن سعد! هذا الماء يجري وأكباد=

عندها، خلع أطفال الحسين عليه السلام قمصانهم ووضعوا بطونهم على ذاك الماء الممزوج بالتراب لِيُسَلِّوا أنفسهم بذلك، مع العلم أن هذا الفعل تكرر في أكثر من موضع. وهكذا، اشتدَّ العطش في خيام أبي عبد الله الحسين عليه السلام، ولكنَّ الأصحاب كانوا يستطيعون، بطريقة أو بأخرى، تأمين المياه للمخيّم في بعض الأحيان.

=الفاطميات تذوب من العطش! ثمَّ صاح: أصحابي اذكروا ما وراءكم واملؤوا القربة ولا تشربوا حتّى ترووا أكباد الفاطميات. فقال له أصحابه: والله يا بربر لا نشرب قبل أطفال الحسين عليه السلام. قالت: فسمعه رجل من الحرس فصاح بهم: ما كفاكم الورد حتّى تحملوا الماء إلى هذا الخارجي؟! والله لأخبرنّ بأمركم إسحاق بن حوية. فقال له بربر: أكنتم علينا أمرنا. ثمَّ دنا منه وهو يريد قبضه فولّى منهزماً وأخبر إسحاق بذلك فقال اللعين: اعترضوهم وآتوني بهم وإن أبوا فقاتلوهم. فلما تعرّضوا لهم وصاحوا بهم أن إسحاق بن حوية لا يرضى بحملكم الماء فلم يلتفتوا فصاحوا بهم ثانية أنّ فيه إراقة دمائكم فقال بربر: إراقة الدماء أشهى إلينا من إراقة الماء. والله ما ذاق منا أحد طعم فرائدكم وإنما همّتنا أن نروي أكباد أطفال الحسين. والله لا ندع الماء حتّى تراق دماؤنا حول هذه القربة. فقال أحدهم: إنّ هؤلاء مستميتون على يسير من الماء ولا يجدي لهم نفعاً! وقال بعضهم: لا تخالفوا حكم الأمير. ثمَّ أحاطوا بهم فوضع بربر وأصحابه القربة على الأرض ووقفوا دونها وبربر يبكي دونها ويقول: وا لهفتاه على أكباد الفاطميات! صد الله رحمته عمّن صد عنكم يا آل بيت رسول الله. قالت: فحملها رجل منهم على عاتقه فأحسَّ الحرس وجعلوا يرشقونهم بالسهم فأصاب حبل القربة سهم حتّى خاطه إلى عاتقه وسال الدم على ثوبه فلما نظر إلى الدم يسيل من رقبتة قال: الحمد لله الذي جعل رقبتى وقاء لقربتى. فلما رأى بربر أنّ القوم غير تاركيه صاح بأعلى صوته: ويلكم يا أعوان آل أبي سفيان! لا تثيروا الفتنة ودعوا أسياف بني همدان في مغامدها - وكان حول الحسين عليه السلام جماعة - فقال رجل منهم: إني أسمع صوت بربر ينتدب أصحابه تارة ويعظ القوم أخرى. فقال لهم الحسين عليه السلام: إلحقوا به. فقام أبو الفضل العباس وتبعه بعضهم وركبوا فلما رأوا الحرس أنّ العباس انحدر نحوهم انكشفوا عن بربر وأصحابه. قالت: وجاء بربر بالقربة حتّى دنا من الخيمة وقال: اشربوا يا آل بيت رسول الله. فتباشرت الأطفال بالماء وصحّن الفتيات صيحة واحدة: هذا بربر قد جاءنا بالماء! ورمين بأنفسهنّ على القربة؛ هذه تحضنها والأخرى تضع فؤادها عليها والأخرى تضمّها إلى كبدها ولما كثر ازدحام الأطفال على القربة انفلت وكاعها فأريق ماؤها فصحن الفتيات: أريق الماء يا بربر! فرجعن إلى الخيمة باكيات صارخات»، ثمرات الأعواد، ج ١ ص ٢٤٢ - ٢٤٥.

ساقى العطاشى أبو الفضل

وفي يوم عاشوراء^(١)، وصل عطش أبي عبد الله الحسين وأهل بيته عليهم السلام إلى ما لا نهاية^(٢). عند ذلك، لجأ الأطفال إلى عمّهم أبي الفضل العباس عليه السلام. ومؤخراً، قرأت شعراً عند أحد المساقى في كربلاء يقول:

إذا كان ساقى الناس في الحشر حيدر فسقاً عطاشى كربلاء أبو الفضل

اشتدّ عطش الأطفال الذين كان يلزمهم استئناس ذهنيّ مرده إلى الأمر الآتي: في ذلك الزمان، لم يكن الماء متوفراً في كل الأماكن في المدن. وكان أبو الفضل العباس عليه السلام هو من يؤمّن ماء الشرب لبيت الإمام الحسين عليه السلام في المدينة. وبالتالي، كان هو السّاقى^(٣) منذ ذلك الحين، حيث اعتُبر الماء البارد،

(١) يستحبّ في يوم عاشوراء الإمساك عن الطعام، فقد روي عن جعفر بن محمد عليه السلام قال: «كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يتفل يوم عاشوراء في أفواه الأطفال المراضع من ولد فاطمة عليها السلام من ريقه، فيقول: ما نطعمهم شيئاً إلى الليل، وكانوا يروون من ريق رسول الله ﷺ، قال: وكانت الوحش تصوم يوم عاشوراء على عهد داود عليه السلام»، التهذيب، ج ٣ ح ١٣٨٤٠.

(٢) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «ذاك الماء وذاك العطش الذي كان محوراً في واقعة الظّف لم يكن ذاك الماء الذي يطلبه الناس؛ ولكن كيف كان الإمام الحسين عليه السلام يطلب الماء ويقول: إنّي عطشان؟ إنّ الإمام الحسين كان ينظر إلى كلّ الوجود ويقول: عطشان. إنّ توحيد هؤلاء في عالم الوجود ليس قابلاً للمقايسة مع توحيد الموحّدين من الطبقة الأولى في عالم الوجود من إبراهيم وموسى وعيسى والإثنين والسبعين رجلاً. كلّ الموحّدين كانوا يشرعون من ذواتهم ليصيروا واحداً مع المبدأ، أمّا الإمام الحسين عليه السلام فلم يشرع من نفسه، بل كلّ الوجود تحت قدميه عليه السلام، ويدور حول ظلاله».

(٣) روي على ما في ثمرات الأعواد: «أنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كان ذات يوم جالساً وحوله ابنا رسول الله ﷺ وريحانته الإمامان الهمامان الحسن والحسين عليهما السلام، وإلى جنبهم أبو الفضل العباس عليه السلام، فعطش الإمام الحسين عليه السلام، فعرف ذلك أبو الفضل العباس عليه السلام، فقام وهو إذ [ذاك] صبي صغير وأقبل إلى الدار وقال لأمّه أمّ البنين: يا أمّاه، إنّ سيّدي ومولاي الإمام الحسين عليه السلام عطشان فهل لي إلى إيصال شربة من الماء العذب إليه من سبيل؟ فقالت له أمّه أمّ البنين بشغف وشفقة: نعم يا ولدي. ثمّ قامت =

في ذلك الزمان، أفضل أشكال الضيافة. وحينذاك، كان أبو الفضل العباس عليه السلام يحضر الماء البارد لأطفال الحسين عليه السلام كلما رآهم. وهذا ما دعا الجميع إلى اللجوء لأبي الفضل عليه السلام في يوم عاشوراء. ولأنهم كانوا يعلمون أن أبا الفضل عليه السلام هو ساقى الحرم والقادر على تأمين الماء، اجتمعوا وقدموا إلى باب خيمته، مُنادين العطش العطش، حتى بلغت أصواتهم السماء.

لم يتمالك أبو الفضل عليه السلام نفسه، فجمع الأطفال وأحضرهم إلى خيمة أبي عبد الله الحسين عليه السلام وقال: يا مولاي، أما ترى الأطفال وقد فقدوا قدرتهم على تحمّل العطش؟ لم تأذن لي بالنزول إلى الميدان، فإئذن لي على الأقل بالذهاب لإحضار الماء لهم ^(١).

إن عدم سماح سيّد الشهداء لأبي الفضل عليه السلام بالقتال والمبارزة ينطوي على سرّ. فلو بدأ أبو الفضل عليه السلام بالقتال، لكان مشهد كربلاء قد تغيّر. وهذا ما قالته أم البنين عليها السلام: «لو كان سيفه بيده ما دنا منه أحد» ^(٢).

=مسرعة وأخذت معها قدحاً وملأته بالماء العذب ووضعت على رأس ولدها العباس، وقالت له بكلّ رافة وحنان: إذهب به إلى سيّدك ومولاك الإمام الحسين عليه السلام. فأقبل العباس عليه السلام بالماء نحو الإمام الحسين عليه السلام والماء يتصبّب من القدح على كتفيه، فوق عليه نظر أبيه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ورآه قد حمل قدح الماء على رأسه والماء يتصبّب من القدح على كتفيه، تذكّر وقعة (واقعة) كربلاء فرق له، وقال وهو يخاطبه ودموعه تتقاطر على وجنتيه: «ولدي عباس، أنت ساقى عطاشى كربلاء»؛ فسَمّي من ذلك (السّقاء)، (الخصائص العباسية، ص ١١٤). ألا يا أيها الساقى، أدر كأساً وناولها، فإني هائمٌ وجداً فلا تمسك وعجلها.

(١) ورد في السيرة العاشورائية: «فلما كان اليوم العاشر أغمي على بعض الأطفال من العطش، وأقبل بعضهم متعلّقاً بالعباس عليه السلام وهم ينادون عمّ أبا الفضل الظمّ الظمّ العطش العطش قد قتلنا (فصار يبكي لحالهم) وهم يتوسّلون به ويتعلّقون بشيابه، فأذن له الحسين عليه السلام لطلب الماء للأطفال والعطاشى، ووَدّعه باكياً، وانطلق نحو الميدان كالأسد الغضبان متّجهاً نحو المشرعة».

(٢) عُرف العباس بقوّته وقدرته العسكرية، فكانت أمّه فاطمة بنت حزام تفتخر بذلك منشدة: «يا من رأى العباس كرّ * على جماهير النّقد، ووراه من أبناء حيدر * كلُّ ليث ذي لبد، أنبت أن ابني أصيب * برأسه ضرب العمَد، لو كان سيفه في يديه * لما دنا منه =

أقول: يا سيدتي يا أم البنين^(١)، أتعرفين من أخذ السيف من يد أبي الفضل عليه السلام؟ إن سيد الشهداء عليه السلام هو الذي نزع كل أسلحته منه قائلاً له: حبيبي يا عباس، إذا كنت تريد الذهاب لإحضار الماء، فدع سيفك ورمحك وكل أسلحتك التي بحوزتك، واذهب لإحضار الماء فحسب.

توجه أبو الفضل عليه السلام نحو العلقمي، واستطاع ملء القربة بطريقة معينة ثم خرج من المشرعة. لقد استطاع برير إحضار الماء إلى مشارف الخيام، غير أن آمال أبي الفضل العباس عليه السلام قد خابت، إذ لم يستطع جلب الماء إلى المخيم. ولذلك كان له رجاء عند أخيه سيد الشهداء عليه السلام حيث قال له: حبيبي يا حسين، لا تأخذني إلى الخيام، فأنا أشعر بالخجل.

محبّات

=أحد»، (العقيلة والفواطم، ص ١٢١). كما جاء في إقناع اللائم، ص ١٦٢ ما عبارته: «وكانت تقول في نديتها، كما عن الأخفش في شرح كامل المبرد: يا من رأى العباس كَرَّ * على جماهير النَّقْد، ويَلي على شِبلي أَمَّا * ل برأسه صوبَ العَمَد، لو كان سيفك في يديك لَمَّا دَنَا منك أحد»، تاريخ النياحة على الإمام الحسين عليه السلام، ج ١ ص ٩٠.

(١) ماذا فعلت السيدة أم البنين عليها السلام عندما افقدت الحسين وأولادها ولم تتمكن من الذهاب إلى كربلاء لزيارة قبورهم؟ لقد صنعت بنفسها قبوراً! ذلك أن العاشق يطلب الوصال دائماً. وفي عالم الحس، يطلب الوصال بشيء ما يرمز لمعشوقه. كانت تجلس على القبور وتبكي وتنعى. وقد أعلنت أمّ العاشقين عشقها من اليوم الأول. وليس عشقها هو العجيب، بل العجيب أنها أصبحت المعلمة الأولى في مدرسة العشق. وقد تخرّج من مدرسة عشقها مولانا العباس وإخوته عليهم السلام، وكلّ عاشقٍ مدينٌ لها بالفضل. بل ليس من المبالغ فيه أن نعتقد بأن كل عاشق يأخذ الإذن في عشقه من أم البنين عليها السلام، فهي من تعطي تأشيرة الدخول إلى مدينة العشق. تنظر إلى القلب، وإن رأت فيه العباس، تعطيه الإذن، وإلا فلا خير في ذلك القلب. وعلامة العاشق أن يصنع قبوراً يزورها ويحاكيها ويلوذ بها ويستمدّ عشقه منها، فهذا هو جنون العاشقين، وعند ذلك يعلنها قائلاً: «حبّ الحسين أجنّني».

الفيض العاشر

الطريق الخالي من الأخطار

من أجل الوصول إلى التوحيد، يلزم الإستغراق ^(١) والفناء ^(٢). فالإنسان يدرك التوحيد بهاتين المسألتين. ومن أجل تحقيق الاستغراق والفناء، هناك ثلاثة طرق، من بينها طريقان مقرونان دائماً بالأخطار وينطويان على شروط صعبة ^(٣). ولكن ثمة طريق ثالث خالٍ من أية آفة أو شروط خاصة، غير أن إيجاده ليس في عهدة الموحّد والسالك.

ذاتك الطريقان اللذان يحققان الاستغراق والفناء هما العبادة والذكر. إلا أن كليهما ينطويان على آفات صعبة للغاية. فبدل أن يُفتح الطريق أمام الموحّد، تسدّ هذه الآفات أحياناً الطريق في وجهه وتزيد من وعورته وظلمته حتى قبل البدء بالسلوك.

وقد حدّد الحق المتعال للإنسان الذي يختار ^(٤) العبادة طريقاً للوصول إلى

(١) بالله وفي الله.

(٢) الفناء: فناء العبد فعلاً وصفةً وذاتاً بالله (باسم الله)، أي فناء الأنا (الإنية والأناية).

(٣) من الشروط الإخلاص فإن طراً الرياء (الشرك الخفي) على أيّ عبادة أو ذكر ولو بنسبة معيّنة، بطل العمل، وعن رسول الله ﷺ: «إن الله لا يقبل عملاً فيه مثقال ذرة من رياء»، (ميزان الحكمة، ج ٢ ص ١٠١٧) وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أيسر الرياء شرك»، (عيون الحكم والمواعظ، الحكمة ٢٦١١). ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾، سورة النساء، آية ٤٨.

(٤) «إلهي أغنني بتدبيرك لي عن تدبير، وبإختيارك عن اختيار»، دعاء الإمام الحسين يوم عرفة، مفاتيح الجنان.

التوحيد، أهم عمل عبادي وهو الصلاة. ولكن جاء في القرآن، وهو الوحي المنزل من عند الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾^(١). هناك في جهنم الكثير من الأمكنة الرهيبة، إلا أن المكان الأكثر سوءاً فيها هو «الويل»^(٢).

ومن الذاكرين من يكون غافلاً عن الله، فبدل أن يجعل الذكرُ الذاكرَ والمذكورَ واحداً، يكون مُسبباً للغفلة. إذاً، أيّ طريق هو الأكثر سهولة؟ وأيّ طريق هو الخالي من المخاطر والآفات؟ إنه طريق المحبة^(٣) التامة.

ليس في طريق المحبة شروط. وكل الشروط التي تُذكر للدخول إلى حرم الحق المتعال، تُلغى في طريق المحبة. فعلى سبيل المثال، يُمنع غير المُحرز لشروط الطهارة من الدخول إلى المسجد. كما ينبغي للطوائف، عند الطواف، أن يكون طاهراً وإلا يبطل طوافه. ولكن، عند الذهاب إلى حرم سيد الشهداء عليه السلام، لا يحق لك أن تزيل القذارة التي عليك، بل يجب أن تذهب إليه بتلك الحالة، لأنه يقبل من هم هكذا^(٤).

(١) (سورة الماعون، آية ٤). يقول آية الله السيد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إن الإقرار والعمل يخبران عن الدين فهما إشارة وليسا نفس الدين، فالصلاة ليست هي الدين بل هي إشارة عن الدين وعلامة عليه، وقد تكون هذه الإشارة صحيحة وقد لا تكون كذلك، فليس كل من يصلي له دين، وإلا لما قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾».

(٢) ويل هو وادٍ في جهنم خاص بالمصلين الذين أدوا الصلاة الظاهرية ولكنهم كانوا غافلين وساهين عن الصلاة الحقيقية وهي الولاية، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا صلاة المؤمن»، (فضائل ابن شاذان، ص ٨٣). ويقول الله تعالى: ﴿وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْذِرُ عَلَيْهِ ثُمَّ بَصُرُ مُسْتَكْبِرًا كَانَتْ يَسْمَعُهَا فَتَوَلَّى وَجْهَهُ يَعْذَابُ الْمُنِ كَ﴾، سورة الجاثية، آية ٧ - ٨.

(٣) «وَأَنْ تَجْعَلَكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا سِوَاكَ، وَأَنْ تَجْعَلَ حُبِّي إِلَيْكَ قَائِداً إِلَى رِضْوَانِكَ»، (المناجاة التاسعة للإمام زين العابدين عليه السلام)، مفاتيح الجنان. يصبح الحب هو الذي يقود زمام وجود الموالي.

(٤) ورد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: «إذا أردت زيارة الحسين عليه السلام، فزُرْهُ وأنت كئيب حزين مكروب، شعث مغبر، جائع عطشان، فإن الحسين قُتل حزيناً مكروباً شعثاً مغبراً جائعاً عطشاناً، وسلهُ الحوائج، وانصرف عنه ولا تتخذهُ وطناً»، (كامل الزيارات، ص ٢٥٢). أيّ الفعلين أحب إليك عند وصولك إلى كربلاء سيراً على الأقدام من النجف: أن تستحم وتغتسل أولاً ثم تدخل إلى الحرم أم أن تدخل إليه بالملك ووجعك وتعبك، ثم أيهما أحب إلى مولاك؟

بنده ام بنده، ولي بی خردم خواجه با بی خردی می خردم

گر چه سیه روشدم، غلام تو هستم خواجه مگر غلام سیاه ندارد

حَبَّ الْحَسَنِ عليه السلام حَبَّ اللَّهِ

قال الخاتم محمد المصطفى عليه السلام: «والله إني أحب من يحبّ حسيناً»^(١)، أي قسماً بالله، إني، رسول الله ورحمته للعالمين، أحب كل من يحبّ حسيناً عليه السلام.

ولذلك، ترتبط آية ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾^(٢) بسيّد الشهداء عليه السلام. إن كنتم تحبون الله، فاتبعوني، أي اتبعوا رسول الله عليه السلام. في أي شيء نتبع الرسول عليه السلام؟ في محبة الحسين عليه السلام^(٣). وبالتالي، إن كنتم تحبون

(١) قال رسول الله عليه السلام عن الإمامين الحسن والحسين عليهما الصلاة والسلام: «اللهم إني أحبهما وأحب من يحبهما»، بحار الأنوار، ج ٤٣ ص ٢٨٠.

(٢) (سورة آل عمران، آية ٣١). نتبعه بما أمرنا به وقد أمرنا بالموودة في القربى، فهذا أجر رسالته، فهل أعطينا هذا الأجر؟ ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، (سورة الشورى، آية ٢٣). عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام: «لما نزلت هذه الآية على رسول الله عليه السلام، قام رسول الله عليه السلام فقال: أيها الناس، إن الله تبارك وتعالى قد فرض لي عليكم فرضاً، فهل أنتم مؤدّوه؟ قال: فلم يُجبه أحد منهم، فانصرف. فلما كان من الغد قام، فقال مثل ذلك، ثم قام فيهم فقال مثل ذلك في اليوم الثالث فلم يتكلّم أحد. فقال: أيها الناس، إنه ليس من ذهب ولا من فضة ولا مطعم ولا مشرب، قالوا: فألقه إذن. قال: إن الله تبارك وتعالى أنزل عليّ: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، فقالوا: أمّا هذا فنعم. قال الصادق عليه السلام: فوالله ما وفى بها إلا سبعة نفر؛ سلمان وأبو ذرّ وعمار والمقداد بن الأسود الكندي وجابر بن عبد الله الأنصاري ومولى لرسول الله عليه السلام يقال له: النسبة - وفي نسخة: التثب - وزيد بن أرقم». قرب الإسناد، ص ٧٨ - ٧٩.

(٣) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من أراد الله به الخير قذف في قلبه حب الحسين عليه السلام وحب زيارته، ومن أراد الله به السوء قذف الله في قلبه بغض الحسين عليه السلام وبغض زيارته»، وسائل الشيعة، ج ١٤ باب ١٦٤ ص ٤٩٦ ح ١٩٦٧٨.

الله، فأحبّوا الحسين عليه السلام. وهذا الحبّ هو ما خلّقت الخليقة لأجله ^(١)، فهو يمنح الإنسان التوحيد ويحضّره إلى محضره ويسقيه ^(٢) من شرابه.

الحسين عليه السلام خطّ بالدم قصة العشق

سألت حال ذلك المجنون، فقال الطبيب: إنه مصاب بالحمّى وينبغي ضرب عرقه حتى تخرج الدماء منه. وذلك لأن سيلان دماء العروق يزيل الكثير من الآلام، كالدموع التي هي دماء القلب. فالدم يجري في العروق حتى يصل إلى العين ويتحول عندها إلى دموع.

ما إن ضربوا عرق المجنون، وسالت الدماء منه، حتى رأوا تلك الدماء المنسكبة على الأرض تكتب: ليلي، ليلي.

إن الإمام الحسين عليه السلام هو «ثار الله» قبل أن يؤدّي دوره في الواقع. لذا، ينبغي قراءة دوره في جانبه الغيبي. فتلك الدماء لم تنزل منها قطرة واحدة على الأرض لكي يكون لها أثر، وهذا ما ينبغي أن يحصل في جانبها الغيبي الخاص بها.

«يا حسين، أنا ديتك ^(٣)، دعه إنه بعيننا» ^(٤)؛ أي اتركه، فعيننا هي المتلقفة له.

(١) «فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا مَلَائِكَتِي وَيَا سَكَّانَ سَمَاوَاتِي إِنِّي مَا خَلَقْتُ سَمَاءً مَبْنِيَّةً وَلَا أَرْضاً مَدْحِيَّةً وَلَا قَمَراً مُنِيراً وَلَا شَمْساً مُضِيَّةً وَلَا فَلَكَاً يَدُورُ وَلَا بَحْراً يَجْرِي وَلَا فَلَكَاً يَسْرِي إِلَّا فِي مَحَبَّةٍ هَؤُلَاءِ الْخَمْسَةُ الَّذِينَ هُمْ تَحْتَ الْكِسَاءِ»، (حديث الكساء، مفاتيح الجنان). «كنتُ كنزاً مخفياً فأحببتُ أن أُعرَفَ فخلقتُ الخلقَ لكي أُعرَفَ»، (بحار الأنوار، ج ٨٤ ص ١٩٩). بالعشق ظهر الوجود.

(٢) ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ سَرَابًا طَهُورًا﴾ (سورة الإنسان، آية ٢١)، عن الصادق عليه السلام قال: «يطهرهم عن كل شيء سوى الله»، مجمع البيان، ج ١٠ ص ٥٢٤.

(٣) ورد في الحديث عن الله عز وجل: «من طلبني فقد وجدني، ومن وجدني فقد عرفني، ومن عرفني فقد أحبني، ومن أحبني فقد عشقني، ومن عشقني عشقته، ومن عشقته قتلته، ومن قتلته فعلي ديتة، وأنا ديتة»، المواعظ العديدة، ص ٣٠٩.

(٤) «ثم تلقى الدم بكفيه فلما امتلأتا رمى بالدم نحو السماء ثم قال: «هون علي ما نزل بي أنه بعين الله»، (الملهوف على قتلى الطفوف، (الملهوف)، ص ١٦٨ - ١٦٩). «... فبينما =

أيّ عين هي تلك التي أخذته؟ وقد أخذته تلك العين بطريقة لم تدعه فيها يسقط إلى الأرض، حيث التقط أبو عبد الله الحسين عليه السلام الدم بيده المباركة ورمى به نحو السماء ^(١).

=هو يخاطبهم إذ أتاه سهم من قوس حرملة بن كاهل الأسديّ فذبح الطفل من الوريد إلى الوريد، فجعل الحسين يبكي ويقول: اللهم احكم بيننا وبين قوم دعونا لينصرونا فقتلونا.... ثم نودي من الهواء: يا حسين دعه فإن له مرضعاً في الجنة»، تذكرة الخواص، ج ٢ ص ١٦٤.

(١) لطيفة ولائية: لقد قام الحسين عليه السلام برمي الدماء إلى السماء ثلاث مرات، مرة حين حضر شهادة ولده عليّ الأكبر ومرة حين ذُبح طفله الرضيع بين يديه ومرة حين أصيب هو عليه السلام بالسهم المثلث، وفي تلك المرات الثلاث، لم تسقط من الدماء قطرة واحدة إلى الأرض، فقد تناثرت على كل أرواح وقلوب الشيعة في العالم وطال كل واحد منهم مقداراً منها. وعلى أساس هذا المقدار، كانت النظرة، فكان اختيار الله لذلك الشيعيّ وتحدّد قدر محبّته وولايته، كالأصحاب الذين قال عنهم سيّد الشهداء لأخته زينب عليها السلام: «يا أختاه، أعلمني أن هؤلاء أصحابي من عالم الذر»، (وهذا الموقف الذي ظهر يُستدلّ منه على ما بطن منه في ذاك العالم). فالنظرة هي التي جعلت الهدهد يمتاز عن غيره، إذ إنه حين سُئل عن السبب الذي أوصله إلى ذاك المقام والمنزلة عند الله تعالى، قال إنّ النبي سليمان كان يديم النظر إليه ولهذا اختاره الله. وبالتالي، فإن كل شيء قد يتغيّر في وجودنا بنظرة واحدة من الإمام. ومن هذه النظرة يتأتّى الحبّ الذي هو على نوعين: حصولي تدريجي كسبيّ، وحضورى دفعي وهبيّ، يحصل جملة واحدة وبجذبة واحدة، إذ يُقذف في القلب بلا سبب أو واسطة. ومن هنا كانت محبتهم عليهم السلام هي الحل الوحيد للخروج من كل المحن والابتلاءات. وإن في هذه المحبة لَسَرٌّ لم يُكتشف إلى الآن ولا يمكن حصره ضمن قانون معيّن وهذا السّرّ يُغشي بصر المحبّ فيجذبه إليه وإذا ما اشتدّ هذا الجذب وارتفع الحبّ إلى أعلى الدرجات تحوّل إلى عشق ووَلَه ولقد كان عليّ عليه السلام محبوب القلوب ومعشوق الناس، فلماذا وكيف وفيّ امتاز عليّ حتى أثار العشق فولّته به القلوب واصطبغ بصبغة الحياة الخالدة؟ لماذا ترى القلوب شديدة القرب منه ولا تحسبه قد مات بل هو حيّ يُرزق، وإنّ نوره مضاءً ويضيء ولو لم تمسّسه قلوب العاشقين. إن حبّ عليّ ليس من قبيل حبّ الأبطال الشائع في كل الأمم، لأنّ علياً هو الآية العظمى ومظهر صفات الله والاسم الأعظم وعندما نعشقه فإنما نعشق الكمال والحقيقة المطلقة التي يصبو إليها الإنسان بفطرته التي تسعى لكل كمال ومطلق من عشقٍ وحبٍّ وعلمٍ وحياة. إن الذي يعشق عليّاً عليه السلام يصبح حيّاً مطلقاً وذا علم مطلق=

الدم يُرفع إلى السماء

هناك حالتان لم يدع سيّد الشهداء ﷺ فيهما الدماء تسقط إلى الأرض. إحداهما عندما أخذ دماء عليّ الأصغر ﷺ ورمى بها إلى السماء. وقد قال

=لأنه يرتوي بالعشق المطلق وليس بحاجة إلى أيّ عشق محدود. وإن حبّ عليّ ﷺ هو الإكسير الذي يحوّل الشيء إلى شيء آخر وهو الذي يحوّل التراب إلى ذهب ويحوّل الكافر إلى مؤمن والظلمة إلى نور وهو الدواء لكل داء. ولذلك، نجد أن أهل البيت ﷺ ما تعاملوا مع الناس إلا من خلال المحبة لأنه بها لا بسواها يصلح الإنسان وبغيابها تظهر الرذائل والضغائن. وإذا ما أرادوا التأثير بأحد عمدوا إلى محبته. وكذلك هو حال الأولياء أيضاً، فعندما يحبّنا وليّ من الأولياء تتغير قلوبنا وتطهر أرواحنا لأن محبته تصفي وتمحو الصفات الرذيلة الناشئة من الأنانية كالتكبر والعجب وتزيل الحقد والحسد، فهذا الحب هو الإكسير الذي يقلب الماهيات والأشياء والحقائق. ويحكى أنه حين حضر أمير المؤمنين ﷺ مرة إلى سوق العبيد وقف في مكان ما، وراح ينظر إلى العبيد المعروضين. نظر يميناً ويسرى، فوقع نظره على أحد العبيد. وكان ذلك العبد ينظر إلى أمير المؤمنين ﷺ أينما نظر. تبسّم المولى للعبد، فبادله الابتسامة. فقال الأمير لصاحب هذا العبد: بكم تباع هذا؟ طلب البائع سعراً معيناً، ولكن المولى أعطاه ضعف ما طلب. كان ذاك العبد هو قنبر الذي بدأ يبكي حين وصل إلى خدمة أمير المؤمنين ﷺ، وقال له: عندما نظرت إليّ طلبتُ أن أكون عبداً لك. هي نظرة واحدة وانظر ماذا تفعل! وبذلك النظرة تمّ اختيار الشيعة والموالين، فقد ورد عن أمير المؤمنين ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى اطلع إلى الأرض فاختارنا، واختار لنا شيعة» (بحار الأنوار، ج ٤٤ ص ٢٨٧). وإنّ الإمام يعرف ظاهر الأشياء وباطنها وأولها وآخرها بنظرة واحدة، لأنه الاسم الجامع الحاكم على جميع الأسماء والصفات، وهذه الأسماء الأربعة، أي الأول والآخر والظاهر والباطن، هي أمهات الأسماء. فالإمام بكل شيء عليم، مذ كان علمه علم الله، كما أن معرفته هي معرفة مطلقة. أما البشر، فيعرفون بحسب ولايتهم وظرفيتهم وعلمهم ونورهم. فمنهم من يعرف الظاهر ومنهم من يعرف الباطن، ومنهم من يعرف الأول ومنهم من يعرف الآخر. ومنهم من يعرف الإثنين معاً، لكن بحسب اتصاله بالإمام ﷺ، مع العلم أن البشر يعرفون باطن الأشياء وظاهرها وأولها وآخرها من خلال ارتباطهم بالزمان والمكان، بخلاف أهل البيت ﷺ الذين لهم الإحاطة بكل شيء فلا يحتاجون إلى الزمان والمكان. وهذان العاملان يُسهمان في كشف معدن الناس وسرائرهم من خلال الحوادث والابتلاءات، ولذلك انتفت حاجة أهل البيت إليهما.

الإمام الصادق عليه السلام : والله ، لم تسقط من تلك الدماء قطرة واحدة إلى الأرض ^(١) . لم تسقط منها قطرة واحدة وجعلت العالم مجنوناً بهذا الشكل ^(٢) ، إنّه أيضاً ثار الله. ذلك المظلوم هو ثار الله ، فتلك الدماء ذهبت إلى مكانٍ جعله على هذا النحو الذي نتكلم به.

والحالة الثانية هي عند استشهاد عليّ الأكبر عليه السلام . وقد جاء في الروايات أنّ سيّد الشهداء ملاً كفاً واحدة من دماء عليّ الأصغر عليه السلام ، في حين أنه ملاً من دماء عليّ الأكبر عليه السلام أكثر من كفّ ورمى بها نحو السماء فلم يسقط منها قطرة إلى الأسفل ^(٣) . وهذه هي المحبة التامة.

(١) «وعبيد الله بن الحسين عليه السلام ، وأُمّه الرباب بنت إمرئ القيس... قتله حرملة بن الكاهل الأسدي الوالبي، وكان وُلد للحسين عليه السلام في الحرب فأُتيَ به وهو قاعد، وأخذه في حجره ولبّاه بريقه وسماه عبد الله، فبينما هو كذلك إذ رماه حرملة بن الكاهل بسهم فنحره، فأخذ الحسين عليه السلام دمه فجمعه ورمى به نحو السماء فما وقعت منه قطرة إلى الأرض! قال فضيل: وحدثني أبو الورد: أنه سمع أبا جعفر عليه السلام يقول: لو وقعت منه إلى الأرض قطرة لنزل العذاب»، (مع الركب الحسيني، ج ٤ ص ٤٠٨). قال الباقر عليه السلام : «فلم يسقط من ذلك الدم قطرة إلى الأرض»، (الملهوف على قتلى الطفوف، (اللهوف)، ص ١٦٨ - ١٦٩). وجاء في زيارة الناحية المقدّسة: «السَّلامُ عَلَى عبدِ الله بنِ الحُسَيْنِ الطَّفْلِ الرُّضِيعِ، المَرْمِيِّ الصَّرِيعِ، المُتَشَحِّطِ دَمًا، المُصْعَدِ دَمُهُ فِي السَّمَاءِ، المَذْبُوحِ بِالسَّهْمِ فِي حِجْرِ أَبِيهِ».

(٢) روى الوجود وروى أهل الأرض والسماء بدمائه.

(٣) بسند صحيح عن أبي حمزة الثمالي أن الصادق عليه السلام علمه كيف يزور الحسين عليه السلام إلى أن قال له: «ثم صر إلى علي بن الحسين فهو عند رجلي الحسين فإذا وقفت عليه فقل: السلام عليك يا ابن رسول الله ورحمة الله وبركاته وابن خليفة رسول الله وابن بنت رسول الله ورحمة الله وبركاته مضاعفة كلما طلعت الشمس أو غربت السلام عليك ورحمة الله وبركاته. بأبي أنت وأمي من مذبوح ومقتول من غير جرم بأبي أنت وأمي دمك المرتقى به إلى حبيب الله بأبي أنت وأمي من مقدّم بين يدي أبيك يحتسبك ويبيكي عليك محترقاً عليك قلبه يرفع دمك إلى عنان السماء لا يرجع منه قطرة ولا تسكن عليك من أبيك زفرة حين ودعك للفرق فمكانكما عند الله مع آبائك الماضين ومع أمهاتك في الجنان منعمين أبرأ إلى الله ممن قتلك وذبحك»، كامل الزيارة، ص ٢٣٩.

ما هي المحبة المطلقة؟

لا شروط أو قيود في المحبة^(١). ومثلها حاضر في الفطرة، فالمرأة المؤمنة الصالحة تحب ولدها كما تحب المرأة الكافرة المنغمسة في المعصية ولدها أيضاً. ولذلك، كان يُرسل العاصون، في الأمة السالفة، إلى الإمام الحسين عليه السلام.

(١) لأن فيضه وحبّه مطلقان من جهة الله وأسمائه. إنّ الحبّ الذي ليس فيه تبادل للمصالح أو الفوائد هو الحبّ الحقيقي وهو الحبّ الذي لا يُبنى على شهوة أو رغبة. فالحبّ هو الاكسير الحقيقي القادر على التغيير والتحويل وقلب الماهيات، العشق هو الاكسير وله خصائص الكيمياء أي أنّه يحوّل المعدن معدناً آخر. والناس معادن كمعادن الذهب والفضة، والحبّ هو الذي يجعل القلب قلباً ولولا الحبّ لكان القلب مجرد ماء وطين. ومن آثار الحب والعشق، القوة والقدرة، فإنّه يخلق القوة ويحيل الجبان شجاعاً كما هو حال الدجاجة التي تفرع هاربة عند أي صوت تسمعه، وأمّا عندما تصبح أمّاً فإنّ أحداً لا يتجرأ على الاقتراب منها، فمن أين أتت بهذه الشجاعة والقوة؟ إنّ الحبّ الذي أحال الدجاجة الجبانة حيواناً جريئاً وشجاعاً. إنّ الحبّ يحيل الثقيل الكسول إلى خفيف سريع الحركة، ويحيل الأحمق ذكياً حادّ الذهن، إنّ العشق الذي يحوّل ويبدّل السيئات إلى حسنات، إنّ الحب الذي يجعل من الأم التي كانت بالأمس القريب أنانية مغرورة كسولة تستعجل الأمور ثائرة الأعصاب ضعيفة الصبر قليلة التحمّل، امرأة عجيبة في صبرها وتحملها ورضاها بالجوع والعطش والتعب وقلة النوم وانعدام الأناقة وتحمل المشاق لأجل ولدها، فقط لأنّها تحبّه. إنّ من آثار الحبّ أيضاً، الرقة واللطف وعدم الخشونة والفظاظة وتلطيف العواطف والأحاسيس وكذلك التوحيد والتوحد والتركّز، والقضاء على التشنّج والتفريق. فالحبّ والعشق يوصل النفس إلى كمالها ويظهر المواهب الكامنة، إنّهم القوي المدركة ويقوّي مشاعر الإرادة والعزيمة، وكلما كان المحبوب أعظم كانت الإرادة والعزيمة أقوى، فطوبى لمن كان أمير المؤمنين عليه السلام محبوبه ومعشوقه، تكون عندها إرادته إرادة محبوبه، وإنّ سرّ هذا الحبّ لم يكتشف إلى الآن. إنّ العشق يطهر الروح من الأخلاط والشوائب، فهو يصنّف ويمحو الصفات الرذيلة الناشئة من الأنانية (كالكذب والرياء والحقد والحسد...) ويعمر القلب ويبنيه بعد خرابه ونحوه وسقمه، ويجعله خالصاً مصقّياً كالذهب الخالص، فالحبّ يسوق المحبّ نحو المشابهة والمشاكلة بالمحبوب. فهو الذي جعل زهير بن القين والذي كان عثمانياً الهوى يخرج من عند زوجته زهيراً ويرجع حسيناً! فأينما شِعْ عليه السلام وجوده ظهر الجمال.

ليس هناك أي شرط في محبته^(١)، واحذر أن يخدعوك في أي وقت من الأوقات بوضع شروط لتلك المحبة. فمسألة الشروط لا صلة لها بهذا الطريق كما لا صلة لها بمنطق صاحب الشرع والشرعية. وسنثبت هذا الكلام عن طريق حديثه سلام الله عليه حيث قال: «من بكى أو أبكى أو تباكى، وجبت له الجنة»^(٢).

فهنا، لم يضع المعصوم ﷺ شروطاً وإلا لقال: بشرطها وشروطها. فالمحبة التي تقبل الشروط ليست محبة إلهية، إنما هي محبة مصطنعة ترتبط بعالم المادة^(٣). وعلى سبيل المثال، يقول طرفٌ للآخر: إذا كنت تحبني، فعليك أن تُصغي لكلامي وتقوم بالعمل الفلاني وتُحضر لي الغرض الكذائي. فمثل هذه المحبة تنتمي إلى عالم المادة والطبيعة.

أما في ما يتعلق بالمحبة الإلهية، فعندما يحب الإنسان واقعاً، يكون بذاته مرتبطاً بالمحبوب. وعند ذلك، يمتنع عن القيام بكل ما يبغضه محبوه، إذ يكون رسوله ونبيّه وإلهه موجودين في داخله^(٤). وعندما يغرق الإنسان

(١) عن الصادق ﷺ: «قال رسول الله ﷺ: ... وإنَّ حبَّ الحسن والحسين كذف في قلوب المؤمنين والمنافقين والكافرين فلا ترى لهم ذاماً، ودعا النبي الحسن والحسين قرب موته فقبلهما وشَمَّهما وجعل يرشّهما وعيناه تهملان»، مناقب آل أبي طالب، ج ٣ ص ٣٨٣.

(٢) أمالي الصدوق، ص ١٢٥، مجلس ٢٩؛ الخصائص الحسينية، ص ١٦.

(٣) المحبة الإنسانية شيء والمحبة الإلهية شيء آخر، فالحب عند الله غير الحب عند الناس، لأن أكثره مبني على الإنية والأنانية. والحب على مراتب: حب إلهي منشأ من ذات الإنسان، وحب قلبي منشأ من صفات الإنسان، وحب نفسي منشأ من الشهوة والهوى.

(٤) إنَّ العشق يعني ذوبان العاشق بالمعشوق، بحيث يكون همُّه سعادة وراحة محبوه وإن كان ذلك على حساب سعادته وراحته هو. والعشق يعني أن لا يفكر العاشق إلا بمعشوقه ولا يحزن أو يميل أو ينظر إلا إليه، وأن يُسارع إلى تلبية ما إن يومئ إليه حتى ولو استلزم الأمر من العاشق أن يقتل كل رغباته مقابل تنفيذ رغبات معشوقه. وليس عاشقاً من يشتكي من معشوقه مهما ألمه، فالعشق يعني تحمُّل الآلام في سبيل المعشوق، وليس هذا فحسب، بل إنَّ العشق يعني الموت في سبيل المعشوق، وعندها فقط يصبح العاشق هو نفس المعشوق والمعشوق هو نفس العاشق. وعن أمير المؤمنين ﷺ أنه قال: «إن =

بصدق^(١) في محبة المحبوب المطلق^(٢)، يتصرف على النحو الذي يحبه هذا المحبوب.

لقد وجدت محبة سيد الشهداء ﷺ في عالم الخلقة مطلقة ومن دون شرط أو قيد، وكل من يضع شروطاً لها، يُثبت أنه جاهل بهذا الطريق^(٣). وليس هذا فحسب، بل يُثبت أنه جاهل بالتوحيد أيضاً.

حبّ الحسين ﷺ يقلب الموازين

يعرف أولئك الذي عاشوا سابقاً بالقرب من العتبات الرفيعة أن هناك منطقة تقع ما بين الحلة والكوفة يقال لها «الكفل». وقد أصبحت معروفة بهذا الاسم لأن «ذا الكفل» النبي مدفون فيها.

كان الشيعة يعيشون على أحد طرفي الشطّ هناك، وكان السنة يعيشون على الطرف الآخر منه. في ذلك الوقت، كان هناك رجل شيعي يزاول مهنة التجارة، فيتجول بين هذا الطرف وذاك. وأحياناً، كان يخوض في نقاشات مع أناس من السنة. وفي أحد الأيام، اشتدّ النقاش والنزاع، فتوجّه إليه خصمه السنّي بالقول:

=الله تعالى شراباً لأوليائه، إذا شربوا سكبوا... وإذا وصلوا اتصلوا، وإذا اتصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم»، التحفة السنّية، ص ٨٦.

(١) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «الطريق الوحيد الذي يوصل إلى وادي الحقيقة أن يعمل الإنسان بما يقول».

(٢) إنّ الكلّ يريد الآخر ملكاً حصرياً له، في حين أنه ليس للمرء إلا هو. وعليه، فإنّ كل المشكلة تكمن في تفكيرنا وفهمنا الخاطئ لأصل الحبّ. فالحب هو فقط لعلّي وفي عليّ وإلى عليّ، وعليّ ﷺ يتعالى ويظهر ويتجلى في الصور كيفما شاء وأتى شاء، في الوجود أو الموجود، وما تعلّق قلوبنا بفلانٍ أو فلانة من الناس إلا لأن عليّاً ظهر فيه أو فيها. فأساس حبّنا، إذاً، هو له ﷺ وليس لذلك الشخص الذي تجلّى بصورته، فلا حبّ إلا لك مولاي يا عليّ، يا هو يا من ليس هو إلا هو...

(٣) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ حديث العشق كان واحداً، ولكنّ زمرة الجاهلين أحضروه بينهم فصار بهذا النحو، مُتَكَثِّراً مَلَوْتاً». وعن أمير المؤمنين ﷺ أنه قال: «العِلْمُ نُقْطَةٌ كَثَرَهَا الْجَاهِلُونَ»، مستدرک نهج البلاغة، ص ١٨٥.

إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِي مَا تَقُولُهُ عَنْ مَدَى عِظَمِ مَقَامِ وَقْدَرَةِ مَوْلَاكَ، فَاقْصِدْ عَلَيَّ^(١) واطلب منه أَنْ يُنْزَلَ عَلَيَّ بَلَاءٌ حَتَّى أَهْتَدِيَ. ذهب الشيعي بقلب مكسور إلى حرم المولى أمير المؤمنين عليه السلام وقال: مولاي عليّ، حتى اليوم كنت أنا من أناقشه، ولكن من الآن فصاعداً أنت خصمه. وإلى أَنْ يَأْتِيَنِي خبر هلاكه^(٢)، لن أبرح مكاني هذا. في الليلة نفسها، رأى المولى في منامه. فأخبره عليه السلام قائلاً: إن لهذا الرجل حقاً في أعناقنا وهذا الحق كبير أيضاً. تعجّب الشيعي وقال: مولاي، إنه من المنكرين^(٣) لكم، فأبيح له! قال الإمام عليه السلام: في السنة الماضية، وفي عصر يوم عاشوراء، أتى ذلك الرجل إلى الشطّ ورأى على الطرف الآخر منه جماعة من الشيعة متوجّهين إلى كربلاء. فتذكّر سيّد الشهداء عليه السلام وعطشه. فنظر نظرة إلى الماء وقال في نفسه: ما كان ليحصل لو أعطوه قطرة من هذا الماء وهو ابن رسول الله صلى الله عليه وآله؟ إنكسر قلبه ودمعت عيناه بمقدارٍ لا يتعدى حلقة العين.

قال الإمام الصادق عليه السلام: من تذكّر مصائبنا ودمعت^(٤) عيناه، ولو بمقدار جناح ذبابة، غفر الله جميع ذنوبه ولو كانت بمثل زبد البحر^(٥).

(١) ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخْلَقُونَ﴾ (سورة النبأ، آية ١ - ٢ - ٣). ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾، سورة البقرة، آية ٢١٣.

(٢) ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾، سورة هود، آية ١١٧.

(٣) عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «التاركون ولاية علي المنكرين لفضله المظاهرون أعداءه خارجون من الإسلام من مات منهم على ذلك»، المحاسن، ج ١ ص ٨٩.

(٤) من كلام للسيّد محمد رضا الشيرازي رحمته الله: «أعمالنا لا أمل فيها... خدمة سيّد الشهداء، خدمة أهل البيت تمثّل الأمل... أنقل لكم هذه الرواية مختصرة... مذكورة في كتاب وسائل الشيعة، في كتاب الحجّ، ينقل الراوي عن الإمام الصادق صلوات الله عليه... الإمام يقول له: «رَحِمَ الله دمعتك»، هذه الدمعة لها قيمة كبيرة عند الله سبحانه وتعالى، «أما إنك ستري عند موتك حضور آبائي لك»، دمعته على سيّد الشهداء هذا أثرها، «ووصيتهم ملك الموت بك، ولَمَلِكُ الموت أرقّ عليك من الأمّ الشفيقة على ولدها»، هذا هو أثر الدمعة على سيّد الشهداء. هذا يحتاج إلى أَنْ يفتح الإنسان حساباً مع أهل البيت، مع الإمام الحسين صلوات الله عليه...».

(٥) «من ذكرنا عنده ففاضت عيناه ولو مثل جناح الذباب غفر الله ذنوبه ولو كانت مثل زبد=

إستيقظ الشيعي من نومه وعَبَرَ الشاطئ في حالة من الاضطراب حتى وصل إلى ذلك الرجل، الذي بادره بالقول: كان من المفترض أن يهلكني مولاك، فما الذي حصل؟ أجابه الشيعي قائلاً: لقد أخبرْتُ مولاي فقال إنَّ لك حقاً في أعناقهم، وقصَّ عليه الحكاية كاملةً. وما إن سَمِعَ السَّنيَّ ذلك الكلام حتى قال: أقسم بأن أحداً لا يعلم^(١) بهذه القصة غير الله وأنا، ثم تلفظ بشهادة: «أشهد أن عليّاً وليّ الله» ونهض من مكانه وقصد النجف بصحبة ذلك الرجل وأعلن توبته^(٢).

لا يقبل حرم الإمام الحسين^(٣) الشروط والقيود، وهذا خاصّ به وحده.

=البحر»، (كامل الزيارات، ص ٣٣٥ باب ٣٢ ح ٨؛ بحار الأنوار، ج ٤٤ ص ٢٨٩ ح ٣٠). «البكاء على سيّد الشهداء^(٤) من مراتب الشهادة... البكاء على مصائب سيّد الشهداء^(٥) أفضل من صلاة الليل... البكاء على مصائب أهل البيت^(٦) ولا سيّما سيّد الشهداء^(٧) لعله يكون من المستحبات التي لا يفوقها مستحب... وجود العديل للبكاء على مصائب سيّد الشهداء^(٨) غير معلوم»، (كتاب الناصح، ص ٣٠٨). «ينقل أحد فضلاء الحوزة العلمية في قم المقدسة أنه كنت عازماً على السفر من أجل التبليغ قبل شهر محرم بعدة أيام، وقبل ذلك تشرّفت بالحضور لدى سماحة الشيخ بهجت البالغ مناه من أجل توديعه والاستفادة من محضره بموعظة قبل السفر، فسألْتُ سماحته: ماذا نفعل لكي نفوز بالسعادة وحسن العاقبة؟ وكنت أتصوّر أن سماحته سيعطيني ذكراً معيّناً أو سيبيّن لي أربعينيّة من الأربعينيّات أو بعض الأعمال العباديّة، ولكن فوجئت حينما قال لي: إحرصوا على أن تبكوا على سيّد الشهداء^(٩) كل يوم ولو مرة واحدة»، الرحمة الواسعة، ص ٤٠.

(١) عن المفضل عن أبي عبد الله^(١٠) أنه قال له: «يا مفضل من زعم أن الإمام من آل محمد يعزب عنه شيء من الأمر المحتوم يعني ممّا كتب القلم على اللوح، فقد كفر بما أنزل على محمد، وإنّا لنشهد أعمالكم وما يخفى علينا شيء من أمركم، وإن أعمالكم لتعرض علينا»، (مشارك أنوار اليقين، ص ٢٦١). وعنه^(١١) أنه قال: «يا مفضل، إن العالم ممّا يعلم حتى تقلّب جناح الطير في الهواء»، مجمع النورين، ج ١ ص ٢٨٦.

(٢) إن هذا توفيقٌ من الله تعالى وهو متوقّفٌ على مشيئته، «مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (سورة الأنعام، آية ٣٩). «مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ»، سورة الأنعام، آية ١١١.

(٣) «إن الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة»، (بحار الأنوار، ج ٣٦ ص ٢٠٥). وللإشارة=

الحب المطلق لسيّد الشهداء عليه السلام

قالوا إن كل من يستشفى بتربتنا أهل البيت عليهم السلام، نزيد مرضه سوءاً، لأنه يضيّع بذلك حق جدّنا سيّد الشهداء عليه السلام ^(١). إن المسألة دقيقة للغاية بحيث أن أهل البيت عليهم السلام كانوا يولون عناية كبيرة لكل ما يتعلق بالإمام الحسين عليه السلام ويحرصون على حفظ حقه دائماً.

وتعتبر هذه المحبة، في استتارها وحجابها التامّين، موجدةً للوحدة. فقدرة هذه المحبة عظيمة إلى حدّ يعجز اللسان عن الكلام عنها، والمقاييس عن قياسها، والمنطق عن تبيان آثارها. ولأنّنا لا يمكننا مشاهدة اللامحدوديّة إلا في الحق المتعال، قال الإمام الرضا عليه السلام حين أراد التحدّث عن لا محدوديّة

= فقد ورد أن عليّاً عليه السلام «راية الهدى»، حلية الأولياء، ج ١ ص ٦٦). فالحسين هو مصباحٌ لهدايتنا والنور المبين في الدنيا وهو سفينة النجاة التي ستخلّصنا في الآخرة. وبالتالي، فإنّه معنّا في كل المراتب والعوالم، من البداية إلى النهاية. وقد ورد في الرواية أنه لما وُلد الحسين سلام الله عليه، انطفأت النيران في جهنم كافة (فرائد السمطين، ج ٢ ص ١٥٢). ومن المعاني التي تشتمل عليها هذه الرواية أنه عندما يولد أبو عبد الله الحسين في وجودنا، تُخمد النيران التي سَعَرناها بأعمالنا القبيحة، ولا يبقى لها أيّ حرّ (أثر). ففي كل مرّة يشعر فيها الموالي بحبّ الحسين بن عليّ عليهم السلام في قلبه، يتولد الإمام من جديد في إحدى مراتب وجوده أو مقام من مقاماته أو عالم من عوالمه. فيُطفئ نار ذنوبنا ومعاصينا من جهة، ونار الغربة والفرق والوحشة من جهة أخرى، بفضل تلك الولادة. وإنما تتجلى هذه الولادة، بأبهى صورها، في وجود الموالين خلال أيام محرّم الحرام، فيُبعثون من جديد. وبالتالي، فإن أيام عاشوراء هي أيام البعث عند العاشقين، وساعة البعث هي ساعة الحضور في مجالس أبي عبد الله الحسين سلام الله عليه.

(١) عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام: «كل تربة لنا محرّمة، إلا تربة جدي الحسين بن عليّ عليهم السلام، فإن الله جعلها شفاءً لشيعتنا وأوليائنا»، (بحار الأنوار، ج ٩٨ ص ١١٨؛ الوسائل، ج ١٠ ص ٤١٥). عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لو أنّ مريضاً من المؤمنين يَعْرِفُ حقّ أبي عبد الله عليه السلام وحُرْمته وولايته أخذ له من طين قبره على رأس ميل كان له داوؤً وشفاءً»، (كامل الزيارات، ص ٢٩٣). وعن محمّد بن مارد، عن عمّته قالت: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنّ في طين الحائر الذي فيه الحسين عليه السلام شفاءً من كلّ داء وأماناً من كلّ خوف»، كامل الزيارات، ص ٢٩٣.

تلك المحبة: «من زار قبر أبي عبد الله بشطّ الفرات كان كمن زار الله فوق عرشه»^(١).

ولو كان يمكن الكلام بأكثر من ذلك، لتكلّم الإمام عليه السلام. وهناك الكثير من الروايات^(٢) في هذا الباب.

على الموحّد أن يركن إلى الحبّ التام والكامل^(٣). ولم يخلق الله تعالى محبوباً أكثر إطلاقاً من الإمام الحسين عليه السلام. فطوبى لكل من يرتبط قلبه بحبّ الوجود المقدّس لسيدّ الشهداء عليه السلام. أما من لا خبر له عنه، فهو خالي الوفاض^(٤). وليُدخل في خياله وفي خيال الناس ما يريد^(٥)، فمثل هذا الإنسان

(١) التهذيب، ج ٦ ص ٤٥ ح ٩٨؛ ثواب الأعمال، ص ١١٢ ح ١.

(٢) «بالأصل قبل الصادقين والباقرين عليهم السلام»، نُقل عدد نادر من الروايات عن سيّد الشهداء، عليّ بن الحسين والحسن بن عليّ. [الناس] لم يكن لهم علاقة معهم. [وقد نُقل] حتى أعظم من هذا، أنّ ابن عباس وحضرة سيّد الشهداء عليه السلام كانا [مع بعضهما] فجاء شخص وسأل ابن عبّاس مسألة. فأجابه سيّد الشهداء عليه السلام. فقال ذاك الشخص: لم أسألك أنت. أي أني سألتُ ابن عباس. إلى هذه الدرجة [كانوا بعيدين عن أهل البيت عليهم السلام]. فقال ابن عبّاس: «هذا من معادن العلم»، (هو من معادن العلم لا تقسه بالآخرين)، الرحمة الواسعة، ص ٨٢.

(٣) لن يموت أبداً من يعيش قلبه على العشق الدائم.

(٤) ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾، سورة التكويد، آية ٢٧ - ٢٨.

(٥) المقصود هنا إدخال الأوهام والشكوك والوساوس في خيالات وأذهان الناس. عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «بعث طلحة والزبير رجلاً من عبد القيس يقال له خدّاش إلى أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وقال له: إنّنا نبعثك إلى رجلٍ طالما كنّا نعرفه وأهل بيته بالسحر والكهانة، وأنت أوثقُ من بحضرتنا من أنفسنا من أن تمتنع من ذلك، وأنّ تحاجّه لنا حتى تفقه على أمر معلوم، واعلم أنه أعظم الناس دعوى فلا يكسرتك ذلك عنه، ومن الأبواب التي يخدع الناس بها الطعام والشراب والعسل والدهن وأنّ يخالي الرجل، فلا تأكل له طعاماً، ولا تشرب له شراباً، ولا تمسّ له عسلاً ولا دهناً ولا تخلّ معه واحذر هذا كلّ منه، وانطلق على بركة الله، فإذا رأيته فاقراً آية السخرة، وتعوّذ بالله من كيده وكيد الشيطان. فإذا جلسَ إليه فلا تُمكنه من بصرك كلّ ولا تستأنس به. ثم قل له: إنّ أخويك في الدين وابني عمك في القرابة يناشدانك القطيعة، ويقولان لك: أمّا تعلم أنّا تركنا الناس لك وخالفنا عشائرك فيك منذ قبض الله عزّ وجلّ محمداً عليه السلام؟ فلمّا نلت =

فقير كل الفقر^(١) ومحتاج كل الاحتياج.

نظرتك العطرة

يا أبا عبدالله، إذا كان الجميع لا يعلم، فأنت تعلم جيداً أنه مذكنا أطفالاً وبدأنا نعي، لم نقبل بمحبة أحد سواك^(٢).

عهد من با خط مشكين تو امروزي نيست دیرگاهی است کزین جام هلالی مستم

=أدنى منال، ضيقت حرمتنا وقطعت رجاءنا، ثم قد رأيت أفعالنا فيك وقدرتنا على التأني عنك، وسعة البلاد دونك، وإن من كان يصرفك عنا وعن صلتنا كان أقل لك نفعاً وأضعف عنك دفعاً منا، وقد وضع الصبح لذي عينين، وقد بلغنا عنك انتهاك لنا ودعاء علينا، فما الذي يحملك على ذلك؟ فقد كنا نرى أنك أشجع فرسان العرب، ألتخذ اللعن لنا ديناً، وترى أن ذلك يكسرننا عنك؟ فلما أتى خدش أمير المؤمنين عليه السلام صنع ما أمره، فلما نظر إليه علي عليه السلام - وهو يناجي نفسه - ضحك وقال: ههنا يا أخا عبد قيس - وأشار له إلى مجلس قريب منه - فقال: ما أوسع المكان، أريد أن أؤدي إليك رسالة، قال: بل تطعم وتشرب وتحل ثيابك وتدهن ثم تؤدي رسالتك، قم يا قنبر فأنزله، قال: ما بي إلى شيء مما ذكرت حاجة، قال: فأخلو بك؟ قال: كل سر لي علانية، قال: فأنشذك بالله الذي هو أقرب إليك من نفسك، الحائل بينك وبين قلبك، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، أتقدم إليك الزبير بما عرضت عليك؟ قال: اللهم نعم، قال: لو كتمت بعدما سألتك ما ارتد إليك طرفك، فأنشذك الله هل علمك كلاماً تقول إذا أتيتني؟ قال: اللهم نعم، قال علي عليه السلام: آية السخرة؟ قال: نعم، قال: فاقراها وجعل علي عليه السلام يكررها ويرددها ويفتح عليه إذا أخطأ حتى إذا قرأها سبعين مرة قال الرجل: ما يرى أمير المؤمنين عليه السلام أمره بتردها سبعين مرة؟ ثم قال له: أتجد قلبك اطمأن؟ قال: إي والذي نفسي بيده...»، (الكافي، ج ١ ص ٣٤٣ - ٣٤٤)، وقال المولى صالح المازندراني في (شرح أصول الكافي، ج ٦ ص ٢٥٧): «... وفيه دلالة على أن قراءة هذه الآية سبعين مرة يوجب صفاء القلب واطمئنانه ورفع شكّه ووساوسه».

(١) «إلهي أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيراً في فقري، إلهي أنا الجاهل في علمي فكيف لا أكون جهولاً في جهلي»، «ماذا وجد من فقدك، وما الذي فقد من وجدك»،

دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة، مفاتيح الجنان.

(٢) أيها الموالي، أحب واعشق من شئت ولكنتك في نهاية المطاف لن تجد من يستأهل هذا القلب الذي تملكه غير الحسين بن علي عليه السلام.

وإذا أريد لهذا المعنى الذي يسمّى محبة أن يتحقق في امرئ ما، لن يكون ذلك اكتسابياً ولا اختيارياً، إنما هو من ينظر^(١) ويختار^(٢). إنه المحبوب وهو من يحدّد المحبّ. فلا يمكن الحصول على ذلك بأية قدرة أو قوة أو عمل. يهب من يشاء لطفه وعنايته، ولا يكون ذلك بنحو يترك فيه الإنسان الذي اختاره. فلا تغتمّوا ولا تفكروا^(٣) في وقت من الأوقات بأنه سيسلب منا ما وهبنا إياه.

لا تسلب مني ما أنا فيه

فكرت في وقت من الأوقات بأنه يمكن لقلة الأدب أحياناً أن تكون موجبة لنقصان هذا المعنى ولاسترداد هذه المحبة. وكان دليلي على ذلك العبارة

(١) من دعاء لأمير المؤمنين (عليه السلام): «والحظني بلحظة من لحظاتك تنور بها قلبي بمعرفتك خاصّة ومعرفة أوليائك إنك على كلّ شيء قدير»، بحار الأنوار، ج ٩١ ص ٩٦.

(٢) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «الإختيار موجود ولا بدّ أن يكون موجوداً، ولكنّه لا بدّ أن يكون بيده وهو كذلك، فعندما نتحدث عن الإختيار، فلا تتخيّل أنّ هذا الإختيار هو بأيدينا بل هو بإختياره».

(٣) ﴿الشَّيْطَانُ يَذْكُمُ الْفَقْرَ﴾ (سورة البقرة، آية ٢٦٨). يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «لو فكّر الإنسان في أيّ شيء فإنّه يتحقّق ويظهر؛ فلو تصوّرت إنساناً بمليون رأس فإنّه يتحقّق، ومن هنا لا بدّ أن تواظب على كلّ تفاصيل تفكيرك وخيالك، فإنّ كلّ ما يفكر به الإنسان يتحقّق في هذا العالم، فلو فكّر خيراً فخير، ولو شراً فشرّ. العالم ليس كإنسان له أولاد وأطفال حتّى يتولّد منه كما يتولّد من الإنسان، بل إنّ فكرك من الصّباح حتّى المساء هو الذي يُظهر الوجود الخارجي للأشياء، ولكنّ الإنسان لا يصدّق هذه الحقائق ولا يعتقد بها، لأنّه لم يعرف هذا الطريق، ولم يطأ هذا المسير. إذاً، ينبغي أن يواظب الإنسان على التفكير بالأمور الحسنة حتّى لا يتحقّق في هذا العالم إلّا الحسن والخير»، انتهى... ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (سورة الزلزلة، آية ٧ - ٨). عن الإمام عليّ (عليه السلام): «أفضل الورع حسن الظنّ»، (ميزان الحكمة، ج ٢ ص ١٧٨٥). وعن الإمام الرضا (عليه السلام): «أحسن الظنّ بالله فإنّ الله عزّ وجل يقول: أنا عند ظن عبدي المؤمن بي إنّ خيراً فخيلاً وإنّ شراً فشراً»، (الكافي، ج ٢ ص ٧٢). وعن الإمام العسكري (عليه السلام): «أحسن ظنّك ولو بحجر، يطرح الله فيه سرّه»، بحار الأنوار، ج ٧٥ ص ١٩٧، رواية ١٤.

المذكورة في زيارة السيِّدة المعصومة عليها السلام حيث نقول: «فلا تسلب مني ما أنا فيه»^(١)، «فلا تسلب مني محبَّتكم».

طلبت من السيِّدة المعصومة عليها السلام كثيراً أن توضح لي هذا المطلب. فرأيتُ كم أن المعنى معلوم وواضح وجلِّي، حتى أكثر من اللفظ نفسه. ومفاده أن: يا مولاتي، أتيتُ إليك بقدمي أنا وبعقلي أنا، وإني أعلم أن قدومي باختيارِي^(٢) هو غير صائب. ولكن بعدما قدمتُ إلى هنا، أوليني عنايتك ولا تسلبني هذا مني، أي تدخلي أنت في هذه المسألة. فهذه الـ«أنا» في عبارة «لا تسلب مني ما (أنا) فيه» ليس لها أية مؤثريّة.

لقد أتيتُ وأنا أعلم بأنني لست أهلاً لذلك، ولكن لا تسلبني هذا مني. «فلا تسلب منّا ما نحن فيه»^(٣)، مولانا يا حسين، لقد أتينا بأقدامنا وتشخيصنا الخاصّ، فلا تسلب هذا منّا. إقبلنا بالوضع الذي نحن عليه.

(١) من زيارة السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تَخْتِمَ لِي بِالسَّعَادَةِ فَلَا تَسْلُبَ مِنِّي مَا أَنَا فِيهِ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ. اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ لَنَا وَتَقَبَّلْهُ بِكَرَمِكَ وَعِزَّتِكَ وَبِرَحْمَتِكَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ أَجْمَعِينَ وَسَلِّمْ تَسْلِيماً يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»، بحار الأنوار، ج ٩٩ ص ٢٦٥ - ٢٦٦.

(٢) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «كلّ من يضع قدمه في وادي المحبّة يجعل اختياره بيد محبوبه، وأنت أيّها المسكين تريد أن تكون الأمور باختيارك! ولو بقيت مصراً على اختيارك قم وصلّ، قم وضّم وأنظر كيف هي صلاتك وصيامك». وعن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال: «خير لي مصرعُ أنا لاقيه»، بحار الأنوار، ج ٤٤ ص ٧٦٢.

(٣) عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَوْفٍ وَمُسْتَوْفٍ﴾ قال عليه السلام: ما يقول أهل بلدك الذي أنت فيه؟ قال: قلت: يقولون مستقرّ في الرحم ومستودع في الصلب. فقال عليه السلام: كذبوا، المستقرّ ما استقرّ الإيمان في قلبه فلا ينزع منه أبداً، والمستودع الذي يستودع الإيمان زماناً ثمّ يسلبه وقد كان الزبير منهم، (بحار الأنوار، ج ٦٦ ص ٢٢٢). قال أبو الحسن عليه السلام: «إن الله خلق الأنبياء على النبوة فلا يكونون إلا أنبياء، وخلق المؤمنين على الإيمان فلا يكونون إلا مؤمنين، واستودع قوماً إيماناً فإن شاء أتمّه وإن شاء سلبهم إياه، وإن أبا الخطاب كان ممّن أعاره الله الإيمان فلماً كذب على أبي سلبه الله الإيمان»، (رجال الكشي، ص ٢٥١). ومن كلام لأمير المؤمنين عليه السلام: «واعلموا أن المسلوب من سلب دينه»، (شرح نهج البلاغة، ج ٣ =

رهرو منزل عشقيم ز سر حدّ عدم تا به اقليم وجود اين همه راه آمده ايم

ثقل الوحي

لا يصل شيء في عالم الوجود إلى رتبة محبة سيّد الشهداء (عليه السلام). فالمحبة تتعلق بنحو تامّ بوجوده المقدّس، ما يعني أنه المحبوب المطلق. وقد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يسعدّ باسمه وعشقه وذكره والاعتناء به. وعندما كان الوحي ينزل على رسول الله (صلى الله عليه وآله) بواسطة جبرائيل (عليه السلام)، كانت تسيطر عليه حالة يعرف الجميع من خلالها بأن الوحي ينزل في تلك الأثناء.

في البداية، كان الرسول (صلى الله عليه وآله) يغمض عينيه ثم يتغير لون وجهه فيصبح أصفر مائلاً إلى السواد. وبعد ذلك تلهب وجنتاه احمراراً. فيعلم المقربون منه بنزول جبرائيل عليه بالوحي. ثم يغطي العرق جبهته المباركة. وفي تلك الأثناء، كان الجميع يلتزم الصمت ويفقد القدرة على الكلام. وفيما بعد، ما عاد رسول الله (صلى الله عليه وآله) يصاب بتلك الحالة أبداً. ولكن حين كان الإمام الحسين (عليه السلام) يضع قدمه على ركبة الرسول (صلى الله عليه وآله)، كان كل من حوله يرونه يغمض عينيه في تلك اللحظات^(١). وعندما كان (عليه السلام) يضع قدمه على منكبه، كانت تتغير حالة

=ص (١٨٥). ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ (سورة المؤمنین، آية ١٨)، والسماء تأويلاً هي القلب، وقد ورد عن القلب: «القلب حرم الله فلا تسكن حرم الله غير الله»، (ميزان الحكمة، ج ٢ ص ٢١٢)، ومن أحد معاني الماء هو الحب، فالله تعالى يُنزل الحب من القلوب وهو قادر حين يشاء على رفع هذا الحب والذهاب به.

(١) عن أبي عبد الله (عليه السلام)، قال: «بينما رسول الله (صلى الله عليه وآله) في منزل فاطمة (عليها السلام) والحسين في حجره إذ بكى وخرّ ساجداً ثم قال: يا فاطمة، يا بنت محمد، إنّ العليّ الأعلى تراءى لي في بيتك هذا في ساعتی هذه في أحسن صورة وأهيا هيئة، وقال لي: يا محمد، أتحبّ الحسين (عليه السلام)، فقلت: نعم قرّة عيني وريحانتي وثمرة فؤادي وجلدة ما بين عيني، فقال لي: يا محمد - ووضع يده على رأس الحسين (عليه السلام) - بورك من مولود عليه بركاتي وصلواتي ورحمتي ورضواني؛ ولعنتي وسخطي وعذابي وخزيي ونكالي على من قتله وناصبه وناواه ونازعه، أما أنه سيد الشهداء من الأولين والآخرين في الدنيا والآخرة»، كامل الزيارات، ص ١٤١ ح ١٦٦ - ١٧٤.

النبي ﷺ، ويحمرّ لونه حين يرفع الحسين ﷺ قدمه إلى كتفه. ولما كان سيّد الشهداء ﷺ يجلس ويتحرّك، كان العرق يتصبّب من الرسول الأكرم ﷺ. وكل ذلك كان من ثقل الوحي في الوجود الجسمي والعنصري لسيّد الشهداء ﷺ على وجود رسول الله ﷺ، فهذا الوحي كان يُثقل روحه.

وفي إحدى المرات، وحينما كان رسول الله ﷺ يصلي، جاء سيّد الشهداء ﷺ وجلس على كتفيه. فلم يرفع رأسه من السجود حتى ينزل الإمام الحسين ﷺ عن كتفيه من تلقاء نفسه^(١). كان ذلك اتصالاً توحيدياً مئة في المئة، فكيف يرفع الرسول ﷺ رأسه من السجود؟ وكان رسول الله ﷺ يرتعش حينما يُذكر اسم الحسين ﷺ.

الحسين ﷺ رحمة الله الواسعة

رسول الله ﷺ هو رحمة للعالمين^(٢)، أما سيّد الشهداء ﷺ فهو رحمة الله

(١) «وأما كون ظهره له مركباً فقد اتّفق كثيراً، وليس هو من العادات كما يتّفق لكثير من الناس في حقّ أولادهم، بل خارق للعادات، وذلك إنّه قد كان يتّفق أنّه يركب ظهر جدّه وهو في السجود في صلاة الجماعة فيُطيل السجود ولا يرفع رأسه المبارك حتّى يقوم هو أي الحسين باختياره. وقد تعجّب الذين كانوا يصلّون معه فسألوه: إنّه هل نزل وحي؟ قال ﷺ: لا، ولكن ابني ارتحلني»، (الخصائص الحسينية، ص ٥٣). وعن عبد الله بن شداد، عن أبيه قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشاء وهو حامل حسناً فتقدم النبي ﷺ فوضعه ثم كبر للصلاة فصلى فسجد بين ظهراي صلاته سجدة فأطالها قال أبي: فرفعتُ رأسي فإذا الصبيّ على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد، فرجعتُ إلى سجودي فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وآله الصلاة قال الناس: يا رسول الله، إنك سجدت بين ظهراي صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننّا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى إليك، قال: كل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته»، بحار الأنوار، ج ٤٣ ص ٣٠٠.

(٢) ورد في الزيارة الجامعة الكبيرة: «أنتم الصراط الأقوم وشهداء دار الفناء وشفعاء دار البقاء والرحمة الموصولة»، (مفاتيح الجنان). «إن رحمة الله تعالى على صرّيين، رحمة امتنانية، وهي التي وسعت كلّ شيء ولا تختصّ شيئاً دون شيء، وهي الرحمة الرحمانية والرحمة الوجوبية، وهي المكتوبة للمتقين، القريبة من المحسنين، وهي الرحمة=

الواسعة. ولذا، فإن كل من يصل به الحال إلى أن يُطرد من قِبَل رسول الله ﷺ، يقوم الحسين عليه السلام بدعوته إليه.

لقد عرفناك وأتينا إليك من تلقاء أنفسنا، ولكن تفضل علينا بحفظك^(١). ليس لدينا أي مكان آخر نلتجئ إليه إذا ما قلتَ لنا بعدما جئناك بقدَمينا: إرحلوا. علماً بأن هذا لم يسبق له أن حصل، وإلا لَمَا كانت تلك المحبة مطلقةً وتلك الرحمة واسعةً. أنحن ملوثون؟ نعم، ليس هناك من هو أكثر تلوثاً منا، إلا أننا قدّمنا قلوبنا للحسين عليه السلام^(٢). فهو لا يعرف الكافر والمسلم، والصالح والطالح، إذ دارت عيناه في عالم الخلقة وأحضرت كل من وقع الاختيار عليه.

ولكن كيف يكون هذا الاختيار؟ يكون بـ«يا بصير»^(٣) المذكورة في القرآن

=الرحيمية والرحمة المكتوبة التي قال في حقها ﴿كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ فهي الرحمة التي هي معاد كل شيء على مشرب من قال بدوام دار جهنم وهي دار العذاب والألم نوعاً، وانقطاع أجلها وانصرام كتابها شخصاً، إن هي إلا الرحمة الامتنانية، وأما الرحمة التي اشترى تعالى المؤمنين أموالهم وأنفسهم بها، وهي جنة الله التي هي ثمن أنفس أهل الإيمان، والتوحيد الممنوع عنها المعقل والمشرِك أهل النار، الكفرة والنفاق بالاتفاق، فلا تغفل. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْتَ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾: وإن تلك الأنفس لهي الأنفس التي سلّمتها أهل الإيمان واليقين والإيقان إلى الله تعالى، فبعد تسليمها صارت هي نفس الله التي قال فيها: كتب على نفسه الرحمة، وهي نفس الكل المسماة... العلوية العليا، وإن من شيعته تلك النفس الكلية الإلهية لإبراهيم الذي هو الأب الرحيم، فاحتفظ والتزم هذا الذي تلونا عليك، مقدمة وتعليقات مفاتيح الغيب، ص ٨٤٥.

(١) ﴿قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَزْهَمُ الرَّحِيمِينَ﴾، (سورة يوسف، آية ٦٤). والحفظ من الله له مراتب ومقامات، كل بحسب ولايته.

(٢) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «لو أنّ شخصاً صار رهن باب أهل بيت العصمة والطهارة عليه السلام تصبح له الطّهارة، وإن كان ملوثاً»، انتهى. «أصبح قتلك محرماً علينا، لأنّ كل من قضم خُبزنا، لا يمكن رفع اليد بالسيف نحوه»، منطق الطير، ص ١٥٣.

(٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (سورة البقرة، آية ١١٠). ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (سورة آل عمران، آية ١٥). ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، سورة الحج، آية ٦١.

الكريم أيضاً. فالبصير يتجلى في عين الله الخاصة بالحسين عليه السلام، وهو يختار بواسطه تلك العين.

اگر چه دوست به چیزی نمی خرد ما را به عالمی نفروشیم مویی از سر دوست

السُّلطان والعظمة

كان المرحوم الشيخ محمد حسين الأصفهاني، المعروف بالكمباني، رجلاً عظيماً واصلاً إلى المحبة التامة، ويعرف العلوم الظاهرية بتمام حدودها. كما تتلمذ على يديه الكثير من المراجع والعلماء^(١). وكان الشيخ الأصفهاني متخصصاً ومجتهداً جامعاً للشرائط، كما أنه ابتكر، في مجال الأصول، نظريات لم يسبقه إليها أحد، فضلاً عن كونه صاحب رأي في الفلسفة. هذا وكان الشيخ الأصفهاني رجلاً ثرياً وقادراً وشريفاً.

في أوائل مرحلة تحصيله العلمي في النجف، كان خادمه يحمل الكتاب تحت إبطه. وعلى هذه الحال، توجه إلى حرم المولى أمير المؤمنين عليه السلام وفي يده سبحة من الفيروز. وما إن وصل إلى الحرم، حتى انحلّ عقد السبحة. فتقدم خادمه ليجمع خرزات السبحة من تحت أقدام الزوّار، ولكنه قال له: لا تمدّن يدك إليها، فحتى لو تناثر وجود الإنسان هنا، ينبغي أن لا يجمعه^(٢).

ويروي أحد الأشخاص قائلاً: كان الجوّ في النجف ممطراً وكانت الأزقة

(١) قال النبي ﷺ: «سألت جبرائيل عليه السلام فقلت: العلماء أكرم عند الله أم الشهداء؟ فقال: العالم الواحد أكرم على الله تعالى من ألف شهيد، فإنّ اقتداء العلماء بالأنبياء، واقتداء الشهداء بالعلماء»، (بحار الأنوار، ج ١ ص ١٨٤ ح ٩٥). وعن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة جمع الله عزّ وجلّ الناس في صعيد واحد ووضعت الموازين، فيوزن دماء الشهداء مع مداد العلماء، فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء»، ميزان الحكمة، ح ١٣٧٠٢.

(٢) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «لا بدّ لسالك طريق الحقيقة أن يواظب على عدم إظهار شأنه، وهذا لا يكون إلا أن يأخذ السالك بأيدي هؤلاء الكمل حتى يصير في دارهم وفي كنفهم».

ملبئة بالوحد والطين. فرأيتُ الشيخ محمد حسين وقد اشترى البصل ووضع في منديل أوثق بابه. وفجأة، حُلّ وثاق المنديل وسقطت حبّات البصل على الوحل. فرأيتُه يجلس بعباءته وقبائه على الأرض ويجمع البصل حتى تلوث لباسه بتلك الوحول. فهذا هو السُلطان^(١) وهذه هي العظمة.

تراب قدَمَيْكَ يُحيي الموتى

كان الشيخ محمد حسين الأصفهاني يتشرّف في ليالي الجمعة بالذهاب إلى كربلاء. فيذهب أولاً لزيارة الإمام الحسين^(٢) ثم بعد ذلك يقصد قمر بني

(١) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «هنا نقول لكم كلمة واحدة إحفظوها حتّى آخر عمركم، كلّ من لم يكن سلطان نفسه لن يكون سلطان أيّ شيء في هذا العالم على الإطلاق، وهذا هو باب معرفة النفس».

(٢) روي عن سليمان الأعمش أنه قال: «كنتُ نازلاً بالكوفة وكان لي جار وكنت آتي إليه وأجلس عنده، فأتيت ليلة الجمعة إليه فقلت له: يا هذا، ما تقول في زيارة الحسين^(عليه السلام)؟ فقال لي: هي بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ذي ضلالة في النار. قال سليمان: فقمّت من عنده وأنا ممتلئ عليه غيظاً، فقلتُ في نفسي: إذا كان وقت السّحر أتته وأحدثه شيئاً من فضائل الحسين^(عليه السلام)، فإن أصرّ على العناد، قتلته. قال سليمان: فلمّا كان وقت السّحر، أتيتُه وقرعتُ عليه الباب ودعوته باسمه. فإذا بزوجه تقول لي: إنه قصد إلى زيارة الحسين من أوّل الليل. قال سليمان: فسرتُ في أثره إلى زيارة الحسين^(عليه السلام)، فلمّا دخلتُ إلى القبر، فإذا أنا بالشيخ ساجد لله عزّ وجلّ وهو يدعو ويبكي في سجوده ويسأله التوبة والمغفرة ثم رفع رأسه بعد زمان طويل فرآني قريباً منه فقلتُ له: يا شيخ، بالأمس كنت تقول زيارة الحسين^(عليه السلام) بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ذي ضلالة في النار واليوم أتيت تزوره! فقال: يا سليمان، لا تُلْمِني فإني ما كنتُ أثبت لأهل البيت إمامةً حتى كانت ليلتي تلك فرأيتُ رؤيا هالكتني وروّعتني. فقلتُ له: ما رأيتُ أيها الشيخ؟ قال: رأيتُ رجلاً جليلاً القدر لا بالطويل الشّاهق ولا بالقصير اللاصق، لا أقدر أصفه من عظم جلاله وجماله وبهائه وكماله وهو مع أقوام يحقّون به حفيفاً ويزفونه زفيفاً وبين يديه فارس وعلى رأسه تاج وللتاج أربعة أركان وفي كل ركن جوهرة تضيء من مسيرة ثلاثة أيام فقلت لبعض خدامه: من هذا؟ فقال: هذا محمد المصطفى. قلتُ: ومن هذا الآخر؟ فقال علي المرتضى، وصيّ رسول الله. ثم مددت نظري فإذا أنا بناقة من نور وعليها هودج من نور وفيه امرأتان والناقة تطير بين السماء والأرض فقلت: =

هاشم عليه السلام لزيارته. وفي إحدى الليالي، رأى جماعة وقد أحضروا شاباً في تابوتٍ برفقة أبيه وأمه وجمعٍ من الناس. وسمع هؤلاء القوم يخاطبون أبا الفضل عليه السلام بهذه الطريقة: يا أبو فاضل، إحيي هذا الميت، وما لم تحييه، لن نرحل من هنا. يقول الشيخ محمد حسين رحمته الله: أدبُت زيارتي وأنا أفكر في مدى بساطة هؤلاء الناس. لا شك في أنّ أبا الفضل عليه السلام وليّ الله ^(١) وفي أنه قام

=لمن هذه الناقة؟ فقال: لخديجة الكبرى وفاطمة الزهراء عليهما السلام. فقلت: ومن هذا الغلام؟ فقال: هذا الحسن بن علي. فقلت: وإلى أين يريدون بأجمعهم؟ فقالوا: لزيارة المقتول ظلماً شهيد كربلاء الحسين بن علي المرتضى. ثم إنني قصدت نحو الهودج الذي فيه فاطمة الزهراء عليها السلام وإذا أنا برقاع مكتوبة تتساقط من السماء، فسألت: ما هذه الرقاع؟ فقال: هذه رقاع فيها أمانٌ من النار لزوّار الحسين عليه السلام في ليلة الجمعة. فطلبْتُ منه رقعةً. فقال لي: إنك تقول زيارته بدعة فإنك لا تنالها حتى تزور الحسين عليه السلام وتعتقد فضله وشرفه. فانتبهتُ من نومي فزعاً مرعوباً وقصدتُ من وقتي وساعتي إلى زيارة سيدي الحسين عليه السلام وأنا تائبٌ إلى الله تعالى. فو الله يا سليمان، لا أفارق قبر الحسين حتى يفارق روحي جسدي»، (بحار الأنوار، ج ٤٥ ص ٤٠١ - ٤٠٢). ويُروى أنه بعد وفاة العلامة الحلّي المعروف، رآه أحد أولاده في المنام وسأله عن حاله في عالم البرزخ، فما كان من الأب إلا أن ردّ عليه بالقول: «لولا كتاب الألفين (وهو كتاب في الدّفاع عن أمير المؤمنين عليه السلام) وزيارة الحسين، لقصمت الفتيا ظهر أبيك نصفين!».

(١) قال الإمام زين العابدين عليه السلام: «وإن للعبّاس عند الله تبارك وتعالى منزلةً يغبطه عليها جميع الشهداء يوم القيامة»، (الخصال، ج ١ ص ٦٨). ومن المعلوم أن للشهيد معنيّين؛ الشهيد بمعنى الشاهد على أمرٍ أو حقيقةٍ ما أو حتى على الخلق بأسره، حيث ورد في الزيارة الجامعة الكبيرة: «ورَضِيكُم خلفاء في أرضه... وشهداء على خلقه»، (مفاتيح الجنان)، والشهيد بمعنى المقتول في سبيل الله. وقد ورد في الرواية عن يوسف بن أبي سعيد قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام ذات يوم فقال لي: «إذا كان يوم القيامة وجمع الله تبارك وتعالى الخلائق، كان نوحٌ عليه السلام أوّل من يُدعى به فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم. فيقال له: مَنْ يشهد لك؟ فيقول: محمّد بن عبد الله عليه السلام. قال: فيخرج نوح عليه السلام فيتخطى الناس حتى يجيء إلى محمّد عليه السلام وهو على كُتَيْبِ المسك ومعه عليٌّ عليه السلام وهو قول الله عزّ وجل: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَتْ وَجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، فيقول نوحٌ لمحمّد عليه السلام: يا محمّد، إن الله تبارك وتعالى سألني: هل بلغت؟ فقلت: نعم. فقال: مَنْ يشهد لك؟ فقلت: محمّد عليه السلام. فيقول: يا جعفر، يا حمزة، إذها واشهدا له أنه قد بلغ. فقال أبو عبد الله عليه السلام: فجعفر وحمزة هما الشاهدان للأنبياء عليهم السلام بما بلغوا، فقلت: جُعِلْتُ =

بمواساة الحسين عليه السلام، أمّا أنه يحيي الموتى، فهذا لا يتوافق مع أية قاعدة. قلتُ: سيأتون صباحاً ويأخذون هذا الميت.

كان الشيخ الأصفهاني رجل دين يقيس كل المسائل بالفلسفة والمنطق ^(١). خلد إلى النوم وفي ذهنه تلك الأفكار. فرأى في منامه أن منبراً عالياً نُصِب في صحن حرم سيّد الشهداء عليه السلام وكان النبيّ الأكرم عليه السلام يعتلي عرش المنبر، ويجلس تحته أمير المؤمنين وكل المعصومين عليهم السلام. وكان الأنبياء والأولياء، يستمعون كالتلاميذ لما يُقال. وثمة من كان يقف تحت المنبر ويبدو وكأنه صاحب هذا المجلس، إضافةً إلى آخر كان متواجداً في الصحن ويتولى تنظيم الجلسة. كل هذا كان يراه في المنام ^(٢).

فهم أنّ من كان متواجداً في الصحن هو أبو الفضل العباس عليه السلام وأنّ صاحب ذلك المجلس، كان سيّد الشهداء عليه السلام. أتى ذلك السيّد المتواجد في الصحن وهمس بكلام في أذن الإمام عليه السلام الذي نقل بدوره ما سمعه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله. ففكر قليلاً ثم قال: لا، لا يمكن ذلك. تكرر الأمر، ولكن هذه المرّة وصل الكلام إلى مسامع المرحوم الكمباني. فسمع أن أبا الفضل عليه السلام يقول للإمام

=فداك، فعليّ عليه السلام أين هو؟ فقال: هو أعظم منزلة من ذلك»، (الكافي، ج ٨ ص ٢٦٧). إذاً، فالشهداء الذين يغبطون أبا الفضل عليه السلام على منزلته يوم القيامة هم أمثال جعفر وحزمة الشاهدين للأنبياء بما بلّغوا! وبما أنّه لم يجر تقييد معنى كلمة «الشهداء» الواردة في الرواية التي تبين منزلة أبي الفضل عليه السلام، فهذا يعني أنّ جميع الشهداء، بكلّ ما للكلمة شهيد من معنى، سيغبطون العباس عليه السلام على منزلته يوم القيامة.

(١) «تري أن كلمات الأئمة عليهم السلام لم تجر على ما جرّت به كلمات أهل المنطق وغيرهم، وأنحاء استدلالاتهم، ولم يذكروا عليهم السلام في محاوراتهم مع الخصوم وغيرهم من المقدمات التي عندهم؛ كالكليات الخمس والكليات الست والكبرى والصغرى والمقدّم والتالي، وأمثالها ممّا تداول عندهم... فاللازم على من ادّعى أنه من محبيهم وشيعتهم المخلصين، فإذا كان كذلك فلا يطلب من الشيعة المخلصين إلا اقتفاء آثارهم وسلوك منهجهم في الألفاظ والمعاني»، درر الأسرار، ص ٥٥ - ٥٦ - ٥٧.

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات، قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة»، ميزان الحكمة، ج ٢ ص ١٠١٠.

الحسين عليه السلام: حبيبي يا أخي، لقد أحضروا هذا الميِّت حتى أحييه، فاطلب من رسول الله صلى الله عليه وآله أن يعطيني الإجازة بذلك. فقال الرسول صلى الله عليه وآله: حبيبي حسين، لا يمكن ذلك.

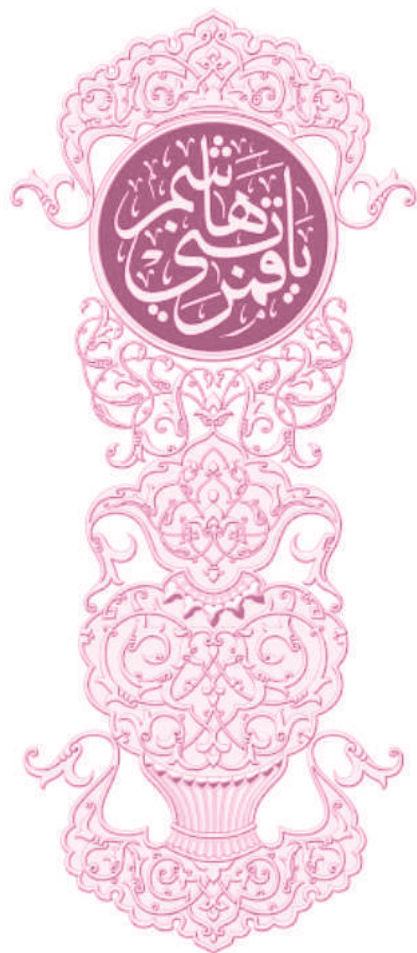
عندها قال قمر بني هاشم عليه السلام: إذًا، إسحبوا مني لقب باب الحوائج. ما إن سمع رسول الله وأmir المؤمنين والأنبياء عليهم السلام هذا الكلام حتى شرعوا في البكاء. ثم قال الرسول صلى الله عليه وآله: حبيبي يا عباس، أنت باب الحوائج، وذلك الميِّت قد أُحيي.

قال المرحوم الشيخ محمد حسين: استيقظتُ من نومي مدهوشاً وقلتُ في نفسي: أيّ منام هو هذا! ربما رأيته لأنني استغرقت بالتفكير في هذا الموضوع. وإن صحَّ، عليّ أن أرى ذلك الشاب الموجود في الحرم. نهض بتلك الحالة واتجه صوب حرم قمر بني هاشم عليه السلام. وما إن دخل إلى الصحن، حتى رأى النساء يُطلقن الزغاريد ويُدْرْنَ حول ذلك الشاب ويأخذن قطعاً من ثوبه. سألتهم: ما الذي حدث؟ فقالوا لي: ليلة أمس، أحضروا ميِّتاً عند أبي الفضل عليه السلام فأحياه.

يا باب الحوائج ^(١)، نقسم عليك بروح أخيك الذي لم تفارقه ولم تفرغ من عشقه لحظة واحدة، بأن تحيي قلوبنا وأرواحنا الميِّتة.

مُحَمَّدُ بَابُ الْحَوَائِجِ

(١) إن أبواب الحوائج هي: الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام والطفل الرضيع وأبو الفضل العباس والسيدة أم البنين ومسلم بن عقيل عليهم سلام الله أجمعين.



الفيض الحادي عشر

محبة أهل البيت ﷺ هي الطريق

من أجل حفظ أصل المطلب المرتبط بالبحث السابق، سنقوم بعرضه مجدداً من باب المقدمة. إن المسألة المعنوية الأكثر علواً والحقيقة الأكثر ثبوتاً في العالم، التي دعا الحق المتعال كل الوجود إليها هي مسألة التوحيد^(١). ومن أجل إدراك التوحيد وتحقيقه، يلزم الاستغراق والفناء. وللوصول إلى الاستغراق والفناء، تم تعيين ثلاثة طرق، من بينها طريقتان يتطلبان الكثير من الشروط والقيود ويتضمنان الكثير من الآفات والمخاطر، وعلى السالك اجتياز كل تلك الشروط والقيود والآفات حتى يصل إلى الاستغراق والفناء ويجد طريق التوحيد، بعد ذلك.

ولكن هناك طريق، بخلاف الطريقتين السابقتين، خالٍ من الأخطار والشروط والقيود ويصل بصاحبه إلى الاستغراق والفناء بنحوٍ أسرع وأعجل.

فأمّا ذانك الطريقتان، فهما العبادة والذكر. وأما الطريق الثالث، فهو طريق المحبة الذي سلكه العباد الخالص. في الطريقتين الأولى والثاني، أي العبادة والذكر^(٢)، لا يخلو المسير الذي يسلكه العامل أو المكلف أو السالك، الذي

(١) يقول مولى الموحّدين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﷺ في خطبته في إخلاص التوحيد: «إنّ أول عبادة الله معرفته وأصل معرفته توحيده»، تحف العقول، ص ٦٢.

(٢) من كلام لبائيزيد البسطامي: «عبدتُ الله ثلاثين سنة وعندما سكّت، نظرت ملياً وإذا بالذكر هو الحجاب بيني وبين الله»، خمسة من العرفاء، ص ١٨٠.

يصبو ليصبح موحدًا، من الأخطار والآفات كما أن دونه الكثير من الشروط والقيود. وقد يسقط السالك في وسط الطريق أو يعود أدراجه. وحتى قد يصل به الأمر إلى الإنكار والدخول في عداد المنكرين، فالكثيرون أصبحوا منكرين في منتصف الطريق لأنهم سلكوا هذين المسلكين. كما تجدر الإشارة إلى أن السلوك في هذين الطريقين لا يكون إلا باختيار السالك وتكليفه واستطاعته، إذ لا يمكن لأحد غيره أن يؤدي أعماله العبادية^(١)، بل عليه أن يؤديها بنفسه ويحرز شرائطها على نحو صحيح كذلك.

أما الطريق الخالي من الأخطار، والذي ليس للسالك أي اختيار فيه لأنه لا يُعطى إلا بالموهبة، فهو طريق المحبة. وهو ليس طريقاً اكتسابياً ولا تعليمياً ولا تعلّمياً.

فإذا أراد الإنسان أن يصل إلى التوحيد، عليه أن يجد طريق محبة^(٢) أهل البيت عليهم السلام، وأن يعرف بمن عليه أن يتعلق وفي أي محبوب يضع محبته.

محبة أهل البيت عليهم السلام هي محبة الله

في التوحيد، يكذب^(٣) من ينسب المحبة إلى ذات الحق المتعال، إذ كما أن ذات الحق غير قابلة للإدراك^(٤)، فكذلك هي غير قابلة للمحبة. ولذلك، وضع الحق المتعال أولياءه إزاء موضوع المحبة الذي أمر به، وهم تحديدًا، محمد وآل محمد صلوات الله عليهم أجمعين. فإذا أراد الإنسان أن يحب الله، عليه أن

(١) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ أداء الواجبات موصل للتوحيد، كما أنّ المحرمات مانعة للتوحيد».

(٢) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أحسن الحسنات حبنا، وأسوأ السيئات بغضنا»، غرر الحكم، ج ١ ص ٢١١ ح ٣٣٦٣.

(٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾، (سورة غافر، آية ٢٨)، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ﴾، سورة الزمر، آية ٣.

(٤) يقول مولى الموحّدين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في خطبته في إخلاص التوحيد: «فليس الله عرف من عرف ذاته»، تحف العقول، ص ٦٢.

يحبّهم هم، لأن محبّتهم هي محبة الله^(١). وليس هذا المطلوب تعليمياً، إذ حتى الأنبياء لم يتمكنوا من القدوم وتعليم الإنسان محبّتهم. فالمحبة تسبق في حركتها خطّي النبوة والرسالة. وبالتالي، لا أحد بإمكانه منح المحبة أو تعليمها لأحد. فقد عجز الأنبياء أنفسهم عن ذلك على الرغم من القدرة التي منحهم إياها الحق المتعال^(٢).

وقد سبق لنا أن ضربنا المثال على ذلك، ولكننا سنكرره لأنه جاذب جداً وموضح جيداً لهذا الطريق وهو التالي: إن المرتبة المتنزلة من هذه المحبة في عالم الطبيعة والمادة وعالم الملك، هي محبة الأب والأم لولدهما. فمحبة الأب والأم للولد ليست اكتسابية، بمعنى أن هذه المحبة لم تتحقق لأنهما دأبا على تلاوة القرآن من أوّله إلى آخره أو على تعلم المحبة ودراسة كيفيّتها أو لأن

(١) عن أم سلمة عن رسول الله ﷺ: «من أحبّ عليّاً فقد أحبّني ومن أحبّني فقد أحبّ الله ومن أبغض عليّاً فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله»، (نور الأبصار، ص ٩٣؛ كنز العمال، ج ١١ ص ٦٢٢). وعن عبد الله بن عباس أنّ النبي ﷺ نظر إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام فقال: «أنت سيّد في الدنيا وسيّد في الآخرة، من أحبّك فقد أحبّني، وحبيب حبيب الله ومن أبغضك فقد أبغضني وبغضك بغض الله، والويل لمن أبغضك بعدي»، (المناقب، ص ٢٣٤). وعن سلمان الفارسي قال: «رأيت رسول الله ﷺ ضرب فخذ علي بن أبي طالب وصدره، وسمعتة يقول: مُحبّك مُحبّي ومُحبّي مُحبّ الله...»، (ترجمة الامام علي من تاريخ دمشق، ج ٢ ص ١٨٧). وعن النبي محمد ﷺ أنّه قال: «حسين منّي وأنا من حسين، أحبّ الله من أحبّ حسيناً، وأبغض الله من أبغض حسيناً، حسين سبط من الأسباط»، (كامل الزيارات، ص ٥٢؛ إرشاد المفيد، ج ٢ ص ١٢٧). من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ التّوحيد مع هؤلاء هو التّوحيد مع الحقّ تعالى، ومحبّتهم هي محبة الله، ومعرفتهم هي معرفة الله، وعبادة هؤلاء وإطاعتهم هي عبادة الله وإطاعته».

(٢) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ الله تعالى بسبب عنايته الخاصة بهم (الأنبياء) قد أحضرهم إلى هذه الدنيا وخلطهم معنا نحن الناقصون حتّى يجذبهم إليه في سيرهم التكاملي، والسرّ الكامن في إحضارهم معنا أنّ العروج إليه لا يكون إلّا بتمام العبودية، ولا تتمّ العبوديّة إلّا باختلاطهم مع أسفل الموجودات في هذا العالم حتّى يدركوا معنى وحقيقة العبودية».

الأنبياء طلبوا من الأمّهات محبةً أبنائهنّ. ولذلك، ترون أن المرأة الكافرة المُرْتَكِبَة لجميع المعاصي تحبّ ولدها بالطريقة نفسها التي تحبّ فيها المرأة المؤمنة والمعتقدة والمتديّنة ولدها أيضاً، من دون أي نوع من الاختلاف. ومن هنا، فإنّ المحبة ليست في وارد النفي والإثبات وهي ليست تعليمية^(١). فإما أن تُعطى لأحد أو لا تُعطى، وإما أن تكون موجودة لدى أحدهم أو لا تكون.

فيض المحبة

لا دخل للمحبّ، ولو بمقدار ذرة، في اكتساب المحبة وجذب المحبوب^(٢). إنّنا نكنّ المحبة لذات سيّد الشهداء المقدسة ﷺ، ولكن لو لم يحبّنا^(٣) هو، لَمَا استطعنا القول له: إنّنا نحبك^(٤). ففي البداية، هو الذي يحبّكم بموجب المُطلقيّة

(١) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «المحبة ليست درساً يؤخذ في الصف، بل تُقذف في قلب الإنسان، وهي طريق التوحيد... كلّ من أراد أن يسلك طريق التوحيد، لا سبيل له إلّا طريق المحبة»، انتهى... إنّ الحبّ يورث المعرفة والمعرفة تورث التوحيد وهو يورث الوحدة.

(٢) عن محمّد بن عليّ ﷺ أنه قال: «... إنّما حبّنا أهل البيت شيء يكتبه الله في قلب العبد، فمن كتبه الله في قلبه لم يستطع أحد أن يمحوه، أما سمعت الله يقول: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ إلى آخر الآية فحبّنا أهل البيت من أصل الإيمان»، (شواهد التنزيل، ج ٢ ص ٢٤٤). وعن عتبة بن عامر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعليّ ﷺ: «لا تلو منّ الناس على حبك، فإنّ حبك مخزونٌ تحت العرش، لا ينال حبّك من يريد، إنّما ينزل من السماء بقدر»، (بشارة المصطفى، ص ٢٠٢ - ٢٠٣). في باب وصايا الصادق ﷺ لأبي جعفر مؤمن الطاق قال: «يا بن النعمان، إنّ حبنا أهل البيت ينزل من السماء من خزائن الذهب والفضة ولا يعطيه إلا خير الخلق، وإنّ له غمامة كغمامة القطر، فإذا أراد الله أن يخصّ به من أحبّ من خلقه أذنَ لتلك الغمامة تهطلت كما تهطلت السماء فتصيب الجنين في بطن أمه»، القطرة، ج ١ ص ٨.

(٣) يقول بايزيد البسطامي: «إلهي، لا أعجب من حبي لك وأنا عبد عاجز ضعيف محتاج، بل أعجب من حبك لي وأنت الله الملك المستغني»، خمسة من العرفاء، ص ١٣٢.

(٤) مسعدة بن اليسع، قُلْتُ لأبي عبد الله جعفر بن محمّد ﷺ: «إني والله لأحبّك، فأطرق ثمّ رفَع رأسه، فقال: صدقت يا أبا بشرٍ، سل قلبك عمّا لك في قلبي من حبّك، =

الحسينية، ثم بعد ذلك تستطيعون مناداته ومخاطبته بالقول: نحبك يا حسين^(١). وهكذا، فإن تلك المحبة التي تظهر من قلوب^(٢) المحبين وتتجلى بهذا الشكل، لا تعود إليهم أو إلى أي أحد آخر، إنما هي رشح وأثر من فيض تلك الحقيقة المطلقة. فذلك الوجود المقدس قد أحبك ولذلك أنت تحبه.

=فَقَدْ أَعْلَمَنِي قَلْبِي عَمَّا لِي فِي قَلْبِكَ»، (الكافي، ج ٢ ص ٦٥٢ ح ٣). «حَبَّكَ لَهُ نَقْصٌ وَحَبُّهُ لَكَ كَمَالٌ»، (حافظ الشيرازي)، هذا من جهة المولى، أمّا من جهة العبد؛ «مَنْ كَانَتْ مَحَاسِنُهُ مَسَاوِي، فَكَيْفَ لَا تَكُونُ مُسَاوِيَهُ مَسَاوِي»، دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة، مفاتيح الجنان.

(١) وَمَنْ مِنَ النَّاسِ أَضْحَى عَاشِقًا وَلَمْ يَنْظُرِ الْحَبِيبَ إِلَى حَالِهِ! وَحَيْثَمَا يَكُونُ الدَّاءُ أَيُّهَا السَّيِّدُ يَكُونُ الطَّيِّبُ وَالِدَوَاءُ.

(٢) «إِنْ قُلُوبَ أَهْلِ السُّلُوكِ بِحَسَبِ الْجِبَلَّةِ وَالْفُطْرَةِ مُخْتَلِفَةٌ، فَبَعْضُ مِنْهَا عَشَقِيٌّ وَمِنْ مَظَاهِرِ الْجَمَالِ وَمَتَوَجِّهٌ إِلَى جَمَالِ الْمَحْبُوبِ بِحَسَبِ الْفُطْرَةِ فَهَؤُلَاءِ إِذَا أَدْرَكُوا فِي سُلُوكِهِمْ ظِلَّ الْجَمِيلِ، أَوْ شَاهَدُوا أَصْلَ الْجَمَالِ تَمَحُّوهُمْ الْعِظْمَةَ الْمُخْتَفِيَةَ فِي سِرِّ الْجَمَالِ فَتَصْعَقُهُمْ، لِأَنَّ فِي كُلِّ جَمَالٍ جَلَالًا مُخْتَفِيًّا وَفِي كُلِّ جَلَالٍ جَمَالًا مُسْتَوْرًا. وَلَعَلَّهُ إِلَى ذَلِكَ أَشَارَ مَوْلَى الْعَارِفِينَ وَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَالسَّالِكِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ أَجْمَعِينَ حَيْثُ قَالَ: «سُبْحَانَ مَنْ اتَّسَعَتْ رَحْمَتُهُ لِأَوْلِيَائِهِ فِي شِدَّةِ نَقْمَتِهِ، وَاشْتَدَّتْ نَقْمَتُهُ لِأَعْدَائِهِ فِي سَعَةِ رَحْمَتِهِ»، فَتَغْشَاهُمْ هَيْبَةُ الْجَمَالِ وَعِظْمَتُهُ وَيَأْخُذُهُمُ الْخُشُوعُ فِي حَيَالِ جَمَالِ الْمَحْبُوبِ... وَبَعْضُ الْقُلُوبِ خَوْفِيٌّ وَمِنْ مَظَاهِرِ الْجَلَالِ، وَأَرْبَابُ تِلْكَ الْقُلُوبِ يَدْرُكُونَ دَائِمًا الْعِظْمَةَ وَالْكِبْرِيَاءَ وَالْجَلَالِ، وَخُشُوعُهُمْ يَكُونُ مِنَ الْخَوْفِ، وَمَنْ تَجَلَّى الْأَسْمَاءُ الْقَهْرِيَّةُ وَالْجَلَالِيَّةُ لِقُلُوبِهِمْ... فَالْخُشُوعُ يَكُونُ مَمْزُوجًا تَارَةً بِالْحُبِّ وَأُخْرَى بِالْخَوْفِ وَالْوَحْشَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي كُلِّ حُبٍّ وَحْشَةٌ، وَفِي كُلِّ خَوْفٍ حُبٌّ»، (الآداب المعنوية للصلاة، ص ٣٩ - ٤٠). «وَكَيْحَيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ»، فَإِنَّ قَلْبَهُ كَانَ خَاضِعًا خَاشِعًا مُنْقَبِضًا. فَتَجَلَّى عَلَيْهِ رَبُّهُ بِصِفَةِ الْجَلَالِ مِنَ الْعِظْمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْقَهْرِ وَالسُّلْطَنَةِ. وَلِهَذَا خَصَّتْ حِكْمَتُهُ بِالْجَلَالِيَّةِ. وَإِنَّمَا تَجَلَّى عَلَيْهِ رَبُّهُ بِالْجَمَالِ كَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِهَذَا قَالَ فِي جَوَابِ يَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «حِينَ اعْتَرَضَ عَلَيْهِ مَعَاتِبًا حِينَ رَأَاهُ يَضْحَكُ فَقَالَ: «كَأَنَّكَ قَدْ أَمَنْتَ مَكْرَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ؟» بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كَأَنَّكَ قَدْ آيَسْتَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ»، فَأَوْحَى إِلَيْهِمَا: «أَحْبَبْكُمَا إِلَيَّ أَحْسَنَكُمَا ظَنًّا بِي»، فَيَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَنْاسِبَةِ قَلْبِهِ وَنَشَأَتِهِ تَجَلَّى عَلَيْهِ رَبُّهُ بِالْقَهْرِ وَالسُّلْطَنَةِ، فَاعْتَرَضَ بِمَا اعْتَرَضَ، وَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَنْاسِبَةِ نَشَأَتِهِ وَمَقَامِهِ تَجَلَّى عَلَيْهِ بِاللَّطْفِ وَالرَّحْمَةِ، فَأَجَابَ بِمَا أَجَابَ، وَوَحَّيَهُ تَعَالَى بِأَنَّ أَحْبَبَّكُمْ إِلَيَّ أَحْسَنَكُمْ ظَنًّا بِي بِمَنْاسِبَةِ سَبْقِ الرَّحْمَةِ عَلَى الْغَضَبِ وَظُهُورِ الْمَحَبَّةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي مَظَاهِرِ الْجَمَالِ أَوَّلًا كَمَا وَرَدَ: يَا مَنْ رَحْمَتُهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ»، شرح دعاء السحر، ص ٦٢ - ٦٣.

ويعظم رسول الله ﷺ هذا المطلب أكثر من ذلك، ويقول: «أحبَّ الله من أحبَّ حسيناً»^(١)، أي إذا كان أحدٌ قد استطاع أن يحبَّ الحسين ﷺ، فذلك لأن الله أحبه أولاً. ولأن الله أحبه، ظهرت هذه المحبة في وجوده.

وهنا، يتغيّر وجه الكثير من المباحث. فإذا اعتقد الإنسان بأن جميع الحثيات المعنوية تُعطى وتوهب من قبل تلك الجهة، وإذا أدرك تماماً هذا الأمر، تختلف عندئذ نظرتة إلى كل المسائل^(٢).

جذبة المحب

ليست المسألة أن ذنوب الإنسان تُغفر عندما يحضر في مجلس الإمام الحسين ﷺ أو يتوجّه لزيارة ثامن الأئمة ﷺ. بل الحقيقة أن ذنوبه تُغفر أولاً^(٣)، ليتمكن بعد ذلك من القدوم إلى مجلس الإمام الحسين ﷺ.

- (١) بحار الأنوار، ج ٤٣ ص ٢٧٠ ح ٣٥ - ٣٦.
- (٢) من دعاءٍ لأمر المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﷺ: «إلهي لو لم تهدني إلى الإسلام ما اهتديت ولو لم ترزقني الإيمان بك ما آمنت ولو لم تُطلق لساني بدعائك ما دعوت ولو لم تُعرفني حلاوة معرفتك ما عرفت ولو لم تُبين لي شديد عقابك ما استجرت»، المصباح للكفعمي، ص ٤٨٦؛ البلد الأمين، ص ٣١٢.
- (٣) ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (سورة البقرة، آية ٢٥٧). فعند التولّي وبمقداره، يخرج الموالى من الظلمات إلى النور بنفس اللحظة التي تولّى بها. والولاية تعني القرب، وبالتالي فإنه في لحظة التولي، يكون القرب، فيتحقق الإخراج مباشرة من الظلمات ذاتاً فصفاً ففعلاً. وعن أبي عبد الله ﷺ: «من زار قبر الحسين ﷺ جعل ذنوبه جسراً على باب داره ثم عبّرها كما يخلف أحدكم الجسر وراءه إذا عبّر»، (من لا يحضره الفقيه، ج ٢ ص ٥٨١). وعنه ﷺ: «إنَّ الرجل ليخرج إلى قبر الحسين ﷺ فله إذا خرج من أهله بأول خطوة مغفرة ذنوبه...»، (كامل الزيارات، ص ١٢٨). «إعلم أنَّ العبد إذا والى أولياء الله واعتقد أنَّهم ﷺ أولى به من نفسه، فقد عَرَضَ نفسه معرض الموت في قبضة المولى، فكأنَّ جنائياته إنَّما صدر بفعله ﷺ لا بفعل العبد، فكأنَّ جنائياته ﷺ عليه لا على العبد؛ لأنَّه كالميّت بين يدي الغسّال، فإذا رضوا بدخول أحد تحت ولايتهم ﷺ، فقد رضوا بأبيهم وأمّي ونفسي باحتمال جنائياته، وإقامة أوده وجبر نقصانه، وإصلاح جميع ما فسد منه... وإذا كانت جنائياته على مولاه، فقد غفرها الله =

والذهاب إلى الزيارة. وهنا، يتغيّر وجه كل المطلب. فلو لم تطهّر، لَمَا استطعت أن تأتي إلى هنا وتذكر اسم الحسين على لسانك. ولو لم تطهّر، لَمَا تمكّنت من أن تخطو خطوة واحدة إلى هذا المجلس ولَمَا قدّرت أن تعقد النية^(١) وتعزم

له ﷺ»، (الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٥٧٢ - ٥٧٣). وعن قائم آل محمد ﷺ أنه دعا بهذا الدعاء: «اللهم إنّ شيعتنا منّا ومُضافين إلينا، وإنهم قد أساءوا وقد قصّروا وأخطأوا، رأونا صاحباً لهم رضاً منهم، وقد تقبلنا عنهم بذنوبهم (ذنوبهم)، وتحملنا خطاياهم لأنّ معولهم علينا، ورجوعهم إلينا، فصّرنا لاختصاصهم بنا، واتكأهم علينا كأنّا أصحاب الذنوب، إذ العبد مضاف إلى سيّده، ومُعول الممالك إلى موالِيهم. اللهم اغفر لهم من الذنوب ما فعلوه اتكالاً على حبنا وطمعاً في ولايتنا وتعويلاً على شفاعتنا، ولا تفضحهم بالسيّئات عند أعدائنا، وولّنا أمرهم في الآخرة كما ولّيتنا أمرهم في الدنيا، وإن أحبطت أعمالهم، فثقل موازينهم بولايتنا، وارفع درجاتهم بمحبّتنا»، بحار الأنوار، ج ٥٣ ص ٣٠٣ - ٣٠٤.

(١) قال الإمام عليّ ﷺ: «النية أساس العمل»، (ميزان الحكمة، ج ٤ ص ٣٤١٠). وعنه ﷺ: «لا عمل لمن لا نية له»، (ميزان الحكمة، ج ٤ ص ٣٤١١). وعن الإمام الصادق ﷺ: «نية المؤمن خير من عمله»، (بحار الأنوار، ج ٧٠ ص ٢٠٩). من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «كلّ العبادات والأفعال هي ظهور وانكشاف النية المعنوية... فالنية هي لبّ العبادة بل كلّ العبادة، ولكنّ هذا لا يعني أنّ يُؤتى بالنية من دون العبادة... فالنية أوّل العبادة لا بمعنى أنّ هناك ثانياً في العبادة، بل بمعنى أنّها أعظم العبادة، وكلّ العبادات الأخرى من الأفعال المخصوصة إنّما هي ظهورات وتجليات هذه النية في الواقع الخارجي».

أيها السالك، يجب أن يكون قلبك حاضراً متوجّهاً مُستحضراً للنية قبل كل عمل، حيث أنّ هنالك تأكيداً على أهمية النية: «إنما الأعمال بالنيات ولكلّ امرئ ما نوى»، (وسائل الشيعة، ج ١ ص ٤٨)، «ما كان الله ينمو»، «على نيّاتكم تُرزقون». النية تحدّد عطية العمل ونتيجته وأثره؛ إنّ خيراً فخير وإنّ شراً فشر. وتُفسّر النية بـ«القصد والإرادة» ومحلّها القلب، وما العمل إلاّ إظهار وتجلّي لها.

عليك أن تستحضر النية قبل الشروع بأيّ عمل وتحافظ عليها حتى تبقى لله ولأهل البيت ﷺ. وأيّ عمل بلا نية مُسبّقة هو عُرضة لتدخل النفس والشيطان. ولكن من الملاحظ أن الكثيرين لا يلتفتون إلى النية ويفرطون بها. يقومون بالعمل بلا نية، فيصحّ على عملهم القول إنّما هي «عادة اعتادوا عليها». لذا يرى الإنسان أن لا بركة لعمله ولا أثر للمنسك الذي يقوم به لأنّه لم يعقد النية من الأساس.

على المجيء إليه^(١).

=أيها الحبيب، إنَّ أيَّ عمل تريد القيام به يجب أن يقترن بنية. إسأل نفسك لماذا تريد القيام بهذا العمل وما هو الهدف والغاية من ورائه. تريد الزواج؟ تريد السفر؟ تريد زيارة أحدهم؟ تريد القيام بأيَّ عمل؟ إسِقه بنية وتفكر في هذه النية. ما هي نيتك في تربية أولادك؟ هل النية هي أن تربّيهم ليكونوا ذُخراً لك ويُعينوك في مستقبلك؟ أم أنك تريد تربيتهم لله؟ قبل أن تتصدّق، وقبل أن تذهب إلى مجلس علم، تحقّق من نيتك. إذا اختلفت مع أحدهم أو إذا تكلمت معه أو إذا عفوت عمّن ظلمك، ما هي نيتك من هذا العمل؟ وحتى عندما تريد كتابة تعليقٍ على موضوع ما، دقّق في الأمر جيّداً، فهل هو لنفسك أم أنّه لله وآل الله؟ صلاتك، صيامك، حجّك... لمن هي ولأيّ هدف تؤدّيها؟! فالنية إما أن تكون لله أو للنفس (أنانية).

ينبغي للنية أن تسبق العمل، ولكن أحياناً تشرع بالعمل وبعدها تفكّر بالنية، وهنا يصعب تصفية النية. وإن كنت قد استبقت عملك بنية، فعليك أن تجددتها أثناء استمرار العمل حتى لا تقع في فخّ النفس وحبائل الشيطان وتنحرف نيتك هذه. ولذلك نحن نجدّد البيعة كل صباح لصاحب الزمان عليه السلام. وإذا كانت المسألة خطيرة إلى هذا الحدّ، لم التهاون بها وعدم المواظبة عليها؟ وما العوامل التي تعيق عقدها بالشكل المفروض؟

الذهن غير الصّافي والفكر المشوّش يؤثّران على عقد النية، ومن أكثر الأشياء تشويشاً للذهن والتركيز هي هذه التكنولوجيا (إنترنت، تلفون، كمبيوتر، تلفزيون، إلخ...).

إنّ هذه المسألة على قدرٍ بالغ الأهميّة، بحيث أنه حتى السّلام بلا نية مُسبّقة وتوجّه لا يترك له أثراً في عالم الغيب والشهود. وللسّلام عدّة ظهورات، لكن بظهوره لا يُستدلّ على عمق بطونه. فقد يكون من اللسان فقط أو من اليد واللسان معاً ولكنّ أساسه ليس من القلب والروح، إذ ربما يكون نفسانياً أو نابعاً من تربية إرثية ورثها المرء. لذا، قبل أن تُسلم على أحد، أنظر إلى أعماقك واعرف من أين يصدر هذا السّلام. وإن كنت صادقاً ومخلصاً فسيصدر سلامك من الله وسيكون أماناً وبركةً ومحبةً وسلاماً لمن تلقّيه عليه. وسينكشف لك أنه هو السّلام ومنه السّلام وإليه يعود السّلام. لذا قبل أن تشرع بالسّلام، أمعن النظر بسلامك.

في الختام نوّكد أنه بالتوجّه إلى إخلاص النية، تصلح كل الأعمال؛ «لا أطلع على قلب عبدٍ فأعلم فيه حبّ الإخلاص لطاعتي لوجهي وابتغاء مرضاتي إلا تولّيت تقويمه وسياسته»، بحار الأنوار، ج ٨٢ ص ١٣٦.

(١) أيها الانسان الغافل الجاهل، يا مَنْ تظنّ أن بيدك شيء، ألا تدري أن الله هو التائب=

قال الإمام الصادق عليه السلام: كل من تدمع عيناه على مصيبة جدنا أبي عبد الله الحسين عليه السلام، ولو بمقدار جناح ذبابة، بحيث لا تكفي لأن تسيل على وجنتيه، «وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»^(١). يا لجمال هذه العبارة، أي أنه في نفس المكان الذي يجلس فيه وفي نفس الوقت الذي ينتابه هذا الحال، تأتي الجنة إليه. وليس الحال أنه هو من يدخل الجنة، لا بل إن الجنة تأتي إليه. فلعبارة «وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ» معنى لطيف وظريف.

= والتواب وهو الداعي والمجيب والحامد والمحمود والراضي والمرضي... وهذه الآيات الكريمات دليل على هذا القول: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (سورة المائدة، آية ٥٤)، فالله يحب عبده أولاً ثم يحبه العبد. ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة التوبة، آية ١١٨)، فالله يتوب أولاً على عبده، ومن بعد ذلك يتوب العبد. ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (سورة التوبة، آية ١٠٠)، يرضى الله أولاً ثم يرضى العبد. كما ورد في الدعاء: «فَوَعَزَّتْكَ لَيْزُنْ لَمْ تَعْصِمْنِي لِأَعْصِيَّتِكَ ثُمَّ لِأَعْصِيَّتِكَ ثُمَّ لِأَعْصِيَّتِكَ»، (أصول الكافي، ج ٢ ص ٤٣٦). فنحن لا حول لنا ولا قوة ولا نملك لأنفسنا ضراً ولا نفعاً إلا عندما نتوحد، بتوفيق من الله تعالى، مع أسماء الله تعالى وصفاته، وقد ورد عنهم صلوات الله عليهم أجمعين: «نحن والله الأسماء الحسنى التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلا بمعرفتنا»، الكافي، ج ١ ص ١٤٣.

(١) «من ذكر الحسين عنده فخرج من عينيه من الدمع مقدار جناح ذباب كان ثوابه على الله عز وجل ولم يرض له بدون الجنة»، (كامل الزيارات، ص ٣٢٤ باب ٣٢ ح ٣؛ بحار الأنوار، ج ٤ ص ٢٨٨). عن موسى بن بكر، قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فقال رجل في المجلس: «أسأل الله الجنة، فقال أبو عبد الله عليه السلام: أنتم في الجنة، فاسألوا الله أن لا يخرجكم منها، فقلنا: جُعِلْنَا فداك نحن في الدنيا، فقال: أَلَسْتُمْ تُقَرُّونَ بِإِمَامَتِنَا؟ قالوا: نعم، فقال: هذا معنى الجنة الذي من أقرَّ به كان في الجنة، فاسألوا الله أن لا يسلبكم»، (المحاسن، ج ١ ص ١٦١). كما ورد عن أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «سمعتني أبو عبد الله عليه السلام وأنا أقول: أسأل [الله] الجنة. فقال لي: يا أبا محمد أنت والله في الجنة، فاسأل الله أن لا يخرجك منها. قلت: وكيف ذلك جُعِلْتُ فداك؟ فقال: من كان في ولايتنا فهو في الجنة»، شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، ج ٣ ص ٤٩٤.

المقصد اللانهائي

تتجه كل الموجودات في حركتها نحو مقصد لا نهائي. والجنة^(١) هي نقطة المنتهى إليه والمقصد الأقصى للصلحاء والصدّيقين والشهداء، إذ إنها المأمن الذي فيه تتحقق السّكينة التامة لجميع المؤمنين والصدّيقين والأبرار وحتى الأنبياء. فما إن يصلوا إلى الجنة، حتى يحصلوا على السّكينة ويحققوا أقصى أمانهم.

كل شيء موجود في هذا العالم يتحرك باتجاه المأمن. وما لم يصل إلى مأمنه، يبقى في حالة من الاستقرار والسكون غير التامّين كما يبقى الوعد الذي قطعه الحق تعالى غير مُنجز. إذًا، يجد المؤمنون والصلحاء وحتى الأنبياء سكنتهم وسكونهم في الجنة. ولكن الجنة بحدّ ذاتها موجود يسعى أيضاً للوصول إلى مقصد يؤمن له الملاذ والسّكينة والأمان. «إن الجنة تشّاق إلى أربعة من أمّتي»^(٢)، وهؤلاء الأربعة هم عليّ وسلمان وأبي ذرّ والمقداد.

الجنة تصبو إليك!

إنّك تسعى إلى الجنة، والجنة تسعى إلى أمير المؤمنين ﷺ وسلمان وأبي ذرّ والمقداد.

وتعبّر جملة «وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ» عن هذا المعنى. فعندما يبكي الإنسان على الحسين^(٣) ﷺ، ولو بمقدار جناح ذبابة، تشّاق الجنة إليه وتستمدّ القوة منه.

(١) «... إن حقيقة الجنة هي النفوس الكاملة في العلم والعمل، وأن أصحاب حقيقة جهنّم هي النفوس الطاغية والمُعْرِضة عن الحق»، (مقدمة كتاب مصباح الهداية، تحقيق جلال الدين الآشتياني، ص ٢٣١). «إن جنة المحمديين هي جنة الصفات والذات»، مقدمة كتاب مصباح الهداية، تحقيق جلال الدين الآشتياني، ص ١٦٤.

(٢) (بحار الأنوار، ج ٢٢ ص ٣٣١). قال رسول الله ﷺ: «إن الجنة لأشوق إلى سلمان من سلمان إلى الجنة وإن الجنة لأعشق لسلمان من سلمان للجنة»، بحار الأنوار، ج ٢٢ ص ٣٤١.

(٣) يقول الشيخ العارف محمد تقي بهجت رحمه الله: «إن فائدة الدمعة هي هذه، إنها اتصال روحي للإنسان مع نفس سيد الشهداء ﷺ ومع الرسول ﷺ ومع الله تعالى».

فيا من تبكي على الحسين عليه السلام، لا تحسب أنك صغير لأنك لست كذلك،
فالجنة تصبو إليك لتصل إلى مقام أمنها.

من که امروزم بهشت نقد حاصل می شود
و عده فردای زاهد را چرا باور کنیم
بهشت عدن ^(١) اگر خواهی، بیا با ما به میخانه
که از پای خمت یکسر به حوض کوثر اندازیم ^(٢)

وإذا فُتِح الطريق أمام أحدهم إلى المعرفة في هذا المقام، يكون السبب في ذلك إتقانه للمحبة. وبتعبير آخر، عندما تصل هذه المحبة إلى درجة الإتيان الكامل، فإنها تمنح المعرفة. وعندها، لا يستبدل المحب محبته بالجنة. وليس هذا فحسب، بل إنه، عند ذلك، يترفع عن الجنة ^(٣).

الحسين عليه السلام جنة العاشقين

ينقل ابن قولويه في «كامل الزيارات» أنه في يوم القيامة، تُهيأ المقامات والمنازل والأماكن في الجنة لأصحابها، ويذهب كل إلى مقامه. إلا أن مجموعة من حوريات الجنة ^(٤) تأتي وتشتكي عند الحق تعالى قائلةً: إلهنا، منذ أن خلقتنا ونحن ننتظر أن نكون من نصيب المؤمنين من محبي محمد وآل محمد عليهم السلام. وقد

(١) أعلى مراتب الجنة.

(٢) حافظ.

(٣) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»، (تفسير الصافي، ج ٣ ص ٣٥٣). وعن الإمام الصادق عليه السلام: «العباد ثلاثة: قوم عبدوا الله عز وجل خوفاً فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله طلباً للثواب فتلك عبادة الأجراء وقوم عبدوا الله عز وجل حباً له فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل العبادة»، الكافي، ج ٢ ص ٨٤.

(٤) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «الحورية هي الرؤية الباطنية، فالحوراء هي المرأة صاحبة العين الوسيعة الذي سوادها غالب على بياضها، أي أن الله يعطي هذا المحب المولي بصيرة كاملة في رؤية الحقائق، فكل عرق في بدنه له رؤية خاصة، وإلا فإن محب أمير المؤمنين عليه السلام لا معاملة له مع عالم الطبيعة».

أخذ الكل نصيبه، فأين نصيبنا نحن؟ فيقول الحق المتعال: هؤلاء الذين تتحدثون عنهم في صحراء المحشر، يجلسون ويتحلّقون حول بعضهم البعض. وقد جعلتكم من نصيبهم، فاذهبوا وادعيتهم إلى الجنة. عندها، تذهب الحوريات وتبدأ بالحدّث معهم: أيها المؤمنون، لقد خلّقنا من أجلكم، تعالوا بنا لنذهب إلى الجنة. يقول الإمام الصادق عليه السلام في تتمّة الرواية: يكون أولئك القوم متوجّهين، حتى في يوم القيامة، إلى مقصدهم اللانهائي وتلك الحقيقة التي تملّكت وجودهم، إلى درجة أنهم لا يسمعون كلام الحوريات. فتأتي الحوريات شاكيةً لله تعالى: إلهنا، لم يولونا أيّ اهتمام. عند ذلك، يأتي معهنّ ملك يمتلك قدرة إلهية. يناديهم، فيسمعون نداه. ولكن بحسب الرواية، «لا يرفعون إلهنّ رؤوسهم»، أي لا يرفعون رؤوسهم لرؤية الملائكة حتى. وينادي منادي الحق: أيها المؤمنون، يا محبّي الحق، قوموا واذهبوا معهنّ فقد أتين لأجلكم. فيصيحون بصوت واحد: إلهنا، لا نريد الذهاب إلى الجنة، أين الحسين؟ فالحسين واسمه جتّنا^(١). إن محبّ الإمام الحسين عليه السلام يترفع عن الجنّة ولا يسعى إليها أو يعتني بها.

التغريب بالمؤمنين باسم الدين

في ليلة عاشوراء، ألقى الإمام الحسين عليه السلام ثلاث خطب مفصّلة. وفي كل

(١) ﴿يَوْمَ نَخْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْنِ وَفْدًا﴾، (سورة مريم، آية ٨٥). بإسناده عن زرارة عن الصادق عليه السلام أنه قال: «... وما من عين أحبّ إلى الله ولا عبرة من عين بكت ودمعت عليه، وما من باكٍ يبكيه إلا وقد وصل فاطمة عليها السلام وأسعدها عليه، ووصل رسوله وأدى حقنا، ما من عبد يحشر إلا وعيناه باكية إلا الباكين (الباكي) على جدي الحسين عليه السلام، فإنه يحشر وعينه قريرة، والبشارة تلقاه، والسرور بين على وجهه، والخلق في الفرع وهم آمنون، والخلق يعرضون وهم حدّاث الحسين عليه السلام تحت العرش، وفي ظل العرش، لا يخافون سوء يوم الحساب، يقال لهم ادخلوا الجنة، فيأبون ويختارون حديثه ومجلسه، وإن الحور لترسل إليهم، إنا قد اشتقناكم مع الولدان المخلدين، فما يرفعون رؤوسهم إليهم لما يرون في مجلسهم من السرور والكرامة»، (كامل الزيارات، ص ٨١؛ مستدرک الوسائل، ج ١٠ ص ٣١٣). وفي رواية مختلفة: «... والخلق في الفرع وهم آمنون، =

خطبة، كان يتكلم بكلام جميل وبلغ إلى درجة لا توصف^(١). وفي خطبته الأخيرة، بدأ ﷺ يعرف أهل الدنيا فقال: «الناس عبيد الدنيا». تلك العين التي شقت أعماق الخلقة إلى حين انقراضها، نظرت وقالت: «الناس عبيد الدنيا والدين»^(٢) لعق على ألسنتهم». إذاً، يا ابن رسول الله، ما حال أولئك الذين يصدقون بالدين ويضجّون ويترنّمون به؟ «لعق على ألسنتهم»، أي ليس دين الله إلا على ألسنتهم فقط^(٣). «يحوطونه ما درّت معاشهم»، إنهم يتكلمون بالدين لأنهم يريدون العيش وتأمين الماء والخبز والمسكن والرئاسة وما إلى ذلك^(٤).

=والخلق يعرضون على الحساب وهم جيران الحسين ﷺ تحت العرش وفي ظل العرش لا يخافون سوء الحساب، يقال لهم: أدخلوا الجنة فيأبون ويختارون مجلسه وحديثه. وإن الحور لترسل إليهم أنا قد اشتقنا لكم مع الولدان المخلدين فما يرفعون رؤوسهم إليهم لما يرون في مجلسهم من السرور والكرامة، وإن أعداءهم من بين مسحوب بناصيته إلى النار، ومن قائل: ما لنا من شافعين ولا صديق حميم. وإنهم ليرون منزلهم، ولا يقدر أن يدنوا إليهم، ولا يصلون إليهم، وإن الملائكة لتأتيهم بالرسالة من أزواجهم ومن خزانهم على ما أعطوا من الكرامة، فيقولون: نأتيكم إن شاء الله تعالى. فيرجعون إلى أزواجهم بمقالاتهم، فيزدادون إليهم شوقاً إذا هم أخبروهم بما هم فيه من الكرامة، وقربهم من الحسين ﷺ، فيقولون: الحمد لله الذي كفانا الفزع الأكبر، وأهوال القيامة، ونجاننا مما كنا نخاف، ويؤتون بالمراكب والرحال على النجائب فيستون عليها، وهم في الثناء على الله، والحمد لله، والصلاة على محمد وآله حتى ينتهوا إلى منازلهم، كامل الزيارات، ص ١٦٧.

- (١) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «لقد تخطى الإمام سيد الشهداء ﷺ في بيان المعرفة كلّ الأنبياء والأولياء، فرسم خطأً دائرياً حول كلّ البناء الوجودي الذي رسمه الأنبياء السابقون والموحدون السابقون، وأسّس بناءً لم يدركه أحدٌ غيره».
- (٢) ورد في زيارة أمير المؤمنين ﷺ في يوم الغدير: «السَّلامُ عَلَيْكَ يَا دِينَ اللَّهِ الْقَوِيمَ، وَصِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ»، مفاتيح الجنان.
- (٣) عن الإمام الكاظم ﷺ: «لا تأخذنّ معالم دينك عن غير شيعتنا فإنك إن تعدّيتهم، أخذت دينك عن الخائنين الذين خانوا الله ورسوله وخانوا أماناتهم، إنهم أوّتمنوا على كتاب الله جلّ وعلا فحرفوه وبدّلوه، فعليهم لعنة الله ولعنة رسوله وملائكته ولعنة آبائي الكرام البررة ولعنتي ولعنة شيعتي إلى يوم القيامة»، بحار الأنوار، ج ٢ ص ٨٢.
- (٤) عن المفضل قال: «لا تأكلوا الناس بآل محمد، فإنني سمعتُ أبا عبد الله ﷺ يقول: =

«وَإِذَا مُحْصُوا بِالْبَلَاءِ قُلَّ الدِّيَّانُونَ»^(١). لا زلتم لا تصدقون^(٢) كلام الإمام الحسين عليه السلام ولذلك تُخدعون. لا زلتم بسطاء للغاية ولا يزال بالإمكان أن يُغرّر^(٣) بكم بشتى الأشكال. في تلك الخطبة أثناء ليلة عاشوراء، اخترق الحسين عليه السلام قلب الوجود وقال: يا أيها الناس، انتبهوا ولا تنخدعوا بأيّ شخص يتكلم بالدين^(٤).

=افترق الناس فينا على ثلاث فرق: فرقة أحبونا انتظار قائمنا ليصيبوا من ديانا؛ فقالوا وحفظوا كلامنا، وقصّروا عن فعلنا، فسيحشرهم الله إلى النار. وفرقة أحبونا وسمعوا كلامنا، ولم يقصّروا عن فعلنا؛ ليستأكلوا الناس بنا، فيملاؤ الله بطونهم ناراً، يسلّط عليهم الجوع والعطش. وفرقة أحبونا وحفظوا قولنا وأطاعوا أمرنا، ولم يخالفوا فعلنا، فأولئك منا ونحن منهم»، تحف العقول، ص ٣٨٤؛ بحار الأنوار، ج ٧٥ ص ٣٨٢.

(١) بحار الأنوار، ج ٤٤ ص ٣٨٣.

(٢) ورد في الزيارة الجامعة الكبيرة: «وسلم من صدقكم وهدى من اعتصم بكم»، مفاتيح الجنان.

(٣) «إنّ الفتنة إذا أنشبت أظفارها في القلوب وزعزعت كل معرفة واطمئنان، فإنّ البديهيّات حينئذ ستكون من أعقد المشكلات، وتقلب الفتنة وقتها شمس رائعة النهار ظلمة حالكة حيث ترتبك الموازين وتضطرب المقاييس وتتطوّح البراهين الواحد تلو الآخر، ونتيجة كل ذلك فساد النتائج»، فتن عصر الظهور، ص ٦٨.

(٤) ورد عن الإمام السجاد عليه السلام أنه قال: «إذا رأيتم الرجل قد حسنَ سمّته وهُدّيه، وتماوت في منطقته، وتخاضع في حركاته، فرويداً لا يغرّركم، فما أكثر من يعجزه تناول الدنيا وركوب المحارم منها، لضعف نيته ومهاتته وجبن قلبه، فنصب الدين فخاً لها، فهو لا يزال يختل الناس بظاهره، فإنّ تمكّن من حرام اقتحمه. وإذا وجدتموه يعفّ عن المال الحرام قلبه، فرويداً لا يغرّركم، فإنّ شهوات الخلق مختلفة، فما أكثر من ينبو (أي يرجع) عن المال الحرام وإن كثر، ويحمل نفسه على شواء قبيحة، فيأتي منها محرّماً. فإذا وجدتموه يعفّ عن ذلك، فرويداً لا يغرّكم حتى تنظروا ما عقده عقله، فما أكثر من ترك ذلك أجمع ثم لا يرجع إلى عقل متين، فيكون ما يفسده بجعله أكثر مما يصلحه بعقله. فإذا وجدتم عقله متيناً، فرويداً لا يغرّكم حتى تنظروا أمتع هواه يكون على عقله، أو يكون مع عقله على هواه؟ وكيف محبته للرئاسة الباطلة وزهده فيها؟ فإنّ في الناس من خسر الدنيا والآخرة. يترك الدنيا للدنيا، ويرى أن لذة الرئاسة الباطلة أفضل من لذة الأموال والنعم المباحة المحلّلة، فيترك ذلك أجمع طلباً للرئاسة، حتى إذا قيل له: اتق الله أخذته العزة بالإثم، فحسبه جهنّم ولبس المهاد. فهو يخطّ خطب عشواء ويقوده أوّل=

=باطل إلى أبعد غايات الخسارة، ويمدّه ربّه بعد طلبه لما لا يقدر عليه في طغيانه، فهو يحلّ ما حرّم الله ويحرّم ما أحلّ الله، لا يبالي بما فات من دينه إذا سلمت له رئاسته التي قد يتّقي من أجلها، فأولئك الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم عذاباً مهيناً. ولكنّ الرجل كلّ الرجل نعمّ الرجل، هو الذي جعل هواه تبعاً لأمر الله، وقواه مبذولة في رضى الله، يرى الذلّ مع الحقّ أقرب إلى عزّ الأبد من العزّ في الباطل، ويعلم أن قليل ما يحتمله من ضرّائها يؤدّيه إلى دوام النعيم في دار لا تبيد ولا تنفد، وإنّ كثير ما يلحقه من سرّائها إن اتبع هواه، يؤدّيه إلى عذاب لا انقطاع له ولا يزول، فذلكم الرجل نعمّ الرجل، فيه فتمسّكوا، وبسنته فاقتدوا، وإلى ربكم به فتوسّلوا، فإنه لا تُردّ له دعوة، ولا تخيب له طلبه»، (العوالم، ج ٣ ص ٤٠٢ - ٤٠٣ ح ٤٣). وعن الوشاء عن الرضا عليه السلام قال: «إنّ ممّن يتّخذ مودّتنا أهل البيت، لمن هو أشدّ فتنةً على شيعتنا من الدجال. فقلت: يا ابن رسول الله، بماذا؟ قال: بموالاة أعدائنا ومعاداة أوليائنا، إنه إذا كان ذلك اختلط الحقّ بالباطل واشتبه الأمر فلم يُعرَف مؤمنٌ من منافق»، (بحار الأنوار، ج ٧٥ ص ٣٩١). وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ من العلماء من يحب أن يخزن علمه ولا يؤخذ عنه، فذاك في الدرك الأول من النار، ومن العلماء من إذا وُعِظ أنف وإذا وُعِظ عنف فذاك في الدرك الثاني من النار، ومن العلماء من يرى أن يضع العلم عند ذوي الثروة والشرف، ولا يرى له في المساكين وضعاً فذاك في الدرك الثالث من النار، ومن العلماء من يذهب في علمه مذهب الجبابة والسلطين فإن ردّ عليه شيء من قوله أو قصّر في شيء من أمره غضب فذاك في الدرك الرابع من النار، ومن العلماء من يطلب أحاديث اليهود والنصارى ليغزّر به ويكثر به حديثه فذاك في الدرك الخامس من النار، ومن العلماء من يصنع نفسه للفتيا ويقول سلوني ولعله لا يصيب حرفاً واحداً والله لا يحب المتكلفين فذاك في الدرك السادس من النار، ومن العلماء من يتخذ علمه مروءة وعقلاً فذاك في الدرك السابع من النار»، (الخصال، ج ١ ص ٣٥٢ - ٣٥٣)، فاعتبر أيّها الموالي واحذر فإنّ من الناس من يدسّ السمّ بالعسل وما أكثرهم في زماننا، والحرّ تكفيه الإشارة. ويقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إنّ أكثر من يُخدع بهم الناس أناسٌ من أهل النسك والعبادة والزهد». وفي موضع آخر يقول دام ظله: «حاذر أيّها الموالي أن تنخدع بعمل الغير وتجعله ميزاناً ومعياراً على الحقّانية، ولا تظن أنّ الموازين المتعارفة عند الناس من صدق الحديث وأداء الأمانة وما شابه هي موازين الولاية، فإنّ شأن الولاية الكلّية الجارية في الخلق غير ما يعرفه الناس، ومن هنا ينبغي على الإنسان أن يتعرّف على حقيقة الولاية وحقيقة صدق الحديث وأداء الأمانة وغيرها من مفاهيم الولاية وشؤونها». وعن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «كمال الدّين ولايتنا والبراءة من عدوّنا»، (الكافي، ج ٢ ص ٧٤ - ٧٥). عن عبد العزيز بن مسلم قال: كنّا مع =

الحسين عليه السلام مستغن عن الكل

في الخطبة الأولى، توجه الحسين عليه السلام إلى من كان معه وقال: لم يشتد ظلام الليل بعد وما زال بإمكانكم أن تبصروا طريقكم، فقوموا وارحلوا^(١)، لأن من سيبقى هنا سيقتل. وكان الحسين قد قال منذ بداية الحركة والمسير: «من كان باذلاً فينا مهجته وموطناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا»^(٢) أو فليرحل معنا.

جوبوا العالم وانظروا. كل من أراد تعليم الناس التوحيد وتلقينهم العلوم^(٣) الإلهية والخاصة بالوحي، حتى وإن كان نبياً، كان يبشرهم، على الأقل، ببشارة الجنة. وأقل ما يقوله: إذا مضيتُ معي، تدخلون الجنة وتطيب معيشتكم. إلا أن الإمام الحسين عليه السلام قال من أول الطريق: ليس هناك أي شيء من هذا، ولن ينال

=الرضا عليه السلام بمرور، فاجتمعنا في الجامع يوم الجمعة، في بدء مقدمنا، فأداروا أمر الإمامة وذكروا كثرة اختلاف الناس فيها، فدخلتُ على سيدي فأعلمته خوض الناس فيه، فتبسّم عليه. ثم قال: «يا عبد العزيز، جهل القوم وخدعوا عن آرائهم، إن الله عز وجل لم يقبض نبيه ﷺ حتى أكمل له الدين وأنزل عليه القرآن فيه تبيان كل شيء بين فيه الحلال والحرام والحدود والأحكام، وجميع ما يحتاج إليه الناس كمالاً، فقال الله عز وجل: ﴿مَا قَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ﴾، وأنزل في حجة الوداع وهي آخر عمره ﷺ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، وأمر الإمامة من تمام الدين»، الاحتجاج، ج ٢ ص ٤٣٣.

(١) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «هذه هي حقيقة الجذبة حيث أنهم يضعون السالك في موضع لا يتصور معه أنه يمكن أن يتحرك ويصل إلى المطلوب، وهذا ما فعله الإمام الحسين عليه السلام، فقد قال لكل أصحابه أن يذهبوا ولا يبقوا معه. وهذا الإبعاد هو الذي يحصل الشوق الأكبر والطلب للحضور في المحضر».

(٢) الملهوف، ص ١٢٦.

(٣) «إذا أردتَ نحواً من أنحاء العلوم، فاطلب موقعه فيك حتى تجده، فإن طلبته من غيره، فلن تجده، فإن كان من علوم اللانهاية، فاصعد إلى ذروة وجودك، وحقيقة ذاتك فاعرفها بها، وإن كان من أحكام البواطن والأسرار، ومعرفة أغصان سدرة المنتهى، بجميع الأوراق والثمار، فالتفت إلى جانب العقل، وهو النور الذائب المتعلق بالعرش، الراكع الخاضع لعظمته سبحانه، فالتمس منه نبيل مطلوبك، خاضعاً لله تعالى وخاشعاً، وهو مليّ بالإجابة، ويفتح لك الباب»، دُرر الأسرار، ص ٣١.

مَنْ يرافقني شيئاً من الدنيا. ولكن ماذا عن الآخرة؟ لقد تخلّى أصحابه الأوفياء بأنفسهم عن الآخرة^(١) أيضاً، وقالوا إنهم لا يريدون غيره^(٢).

قال لهم ﷺ: لن تبقوا أصلاً حتى تحصلوا على شيء، ستقطعون إرباً إرباً وقطعةً قطعة. فإذا أردتم المجيء معي، عليكم أن تُريقوا^(٣) دماء قلوبكم دوني، لا دماء رؤوسكم. وإذا قبلتم، فهيّا تعالوا.

ثم خطب ﷺ مرة ثانية وقال: لا يزال هناك نور وما زال بإمكانكم أن تبصروا الطريق أمامكم، قوموا وارحلوا. فقام بعضهم ورحل.

وبعد صلاة المغرب والعشاء، خطب ﷺ خطبة أخرى قال فيها: إرحلوا في عتمة الليل. ورغم أن الظلام دامس ولن أتمكّن من رؤية من يرحل منكم، إلا أنني، مع ذلك، سأضع رأسي على ركبتيّ، ليرحل من يريد الرحيل منكم^(٤) من دون أن يشعر بالخجل.

(١) الحبّ يُخرج الإنسان من كل شيء ولا يُبقي له شيء، وطوبى لمن يعشق الحسين ﷺ فيُخرجه من الدنيا ولا يُبقي له آخرة ويُجرّده من كل معتقداته وحيثياته وكُل دين مصطنع ويجعله مع الله وفي الله وإلى الله وهذه هي جنّة الذات.

(٢) قال بعض أهل المعرفة: «أول ما يبدو في قلب العارف ممّن يريد الله سعادته نور، ثم يصير ذلك النور ضياء، ثم يصير شعاعاً، ثم يصير نجوماً، ثم يصير قمراً، ثم يصير شمساً. فإذا ظهر النور في القلب، بردت الدنيا في قلبه بما فيها؛ فإذا صار ضياءً، تركها وفارقها؛ فإذا صار شعاعاً انقطع منها وزهد فيها؛ فإذا صار نجوماً فارق الدنيا ولذاتها ومحبوباتها؛ فإذا صار قمراً زهد في الآخرة وما فيها؛ فإذا صار شمساً لا يرى الدنيا وما فيها ولا الآخرة وما فيها ولا يعرف إلا ربّه فيكون جسده نوراً وقلبه نوراً وكلامه نوراً. وأما المحرومون من هذه الأنوار فهم الذين أشار الله إليهم بقوله: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾»، شرح الأسماء أو شرح دعاء الجوشن الكبير، ص ٢١٥ - ٢١٦.

(٣) أي عليكم أن تريقوا كل شيء عند قدمي الولي.

(٤) في تفسير الإمام العسكري ﷺ قال: «إن الله لما امتحن الحسين ﷺ ومن معه بالعسكر الذين قتلوه وحملوا رأسه قال لعساكره: أنتم في حل من بيعتي فالحقوا بعشائركم. وقال لأهل بيته: قد جعلتكم في حلّ من مفارقتي فإنكم لا تطيقونهم لتضاعف أعدادهم وما المقصود غيري فدعوني والقوم فإن الله يعينني كعاداته في أسلافنا. فأما عسكره ففارقوه وأما أهله الأذنون فأبوا وقالوا: لا نفارقك. فقال لهم: فإن كنتم قد وطنتم أنفسكم على=

= ما وطنت نفسي عليه فاعلموا أن الله إنما يهب المنازل الشريفة لعباده باحتمال المكاره وإن الله خصني مع من مضى من أهلي الذين أنا آخرهم بقاء في الدنيا من الكرامات بما يسهل معها احتمال المكروهات وإن لكم شطر ذلك من كرامات الله تعالى واعلموا أن الدنيا حلوها ومرها حلم والانتباه في الآخرة أولاً أحدثكم بأول أمرنا؟ قالوا: بلى يا ابن رسول الله. قال: إن الله تعالى لما خلق آدم علمه أسماء كل شيء وعرضهم على الملائكة جعل محمداً وعلياً وفاطمة والحسن والحسين أشباحاً خمسة في ظهر آدم وكانت أنوارهم تضيء في آفاق السماوات والحجب والجنان والكرسي والعرش فأمر الله الملائكة بالسجود لآدم تعظيماً له إنه قد فضله بأنه جعله وعاء لتلك الأشباح التي عمت أنوارها في الآفاق فسجدوا إلا إبليس أبى أن يتواضع لأنوارنا أهل البيت وقد تواضعت الملائكة كلها واستكبر وترفع، وكان بإيائه ذلك وتكبره من الكافرين»، (تفسير الإمام العسكري عليه السلام، ص ٢١٨ - ٢١٩؛ تأويل الآيات، ج ١ ص ٤٤). وروي عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال: «جمع الحسين عليه السلام أصحابه، بعد ما رجع عمر بن سعد، وذلك قرب المساء، فدنوت منه لأسمع، وأنا مريض، فسمعت أبي وهو يقول لأصحابه: أثني على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء وأحمده على السراء والضراء. اللهم، إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة وعلمتنا القرآن، وفقهتنا في الدين، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، ولم تجعلنا من المشركين، أما بعد فإني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، ألا وإني قد رأيت لكم، فانطلقوا جميعاً في حلّ ليس عليكم مني ذمام. هذا الليل قد غشاكم فاتخذوه جملاً ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي ثم تفرقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرج الله فإن القوم إنما يطلبوني ولو قد أصابوني لهما عن طلب غيري»، (معالم المدرستين، ج ٣ ص ٩٠). وعن سَكينة بنت الحسين عليه السلام، أنها قالت: «كُنْتُ جالسةً في ليلة مقمرة وسط الخيمة، وإذا أنا أسمع من خلفها بكاءً وعويلاً، فخشيت أن يفقه بي النساء، فخرجت أعثر بأذيالي، وإذا بأبي عليه السلام جالس وحوله أصحابه وهو يبكي، وسمعتة يقول لهم: إعلموا أنكم خرجتم معي لعلمكم أنني أقدم على قوم بايعوني بألسنتهم وقلوبهم، وقد انعكس الأمر لأنهم استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله، والآن ليس لهم مقصدٌ إلّا قتلي وقتل من يجاهد بين يدي وسبي حرّمي بعد سلبهم، وأخشى أنكم ما تعلمون وتستحون، والخدع عندنا أهل البيت محرّم، فمن كره منكم ذلك فليصرف، فإنّ الليل ستير والسبيل غير خطير، والوقت ليس بهجير، ومنّ واسانا بنفسه كان معنا غداً في الجنان نجياً من غضب الرحمن، وقد قال جدّي محمد عليه السلام: ولدي الحسين يُقتل بأرض كربلاء غريباً وحيداً عطشاناً فريداً، فمن نصره فقد نصرني ونصر ولده القائم عجل الله فرجه، ولو نصرنا =

إن لدى ذات الحسين المطلقة ﷺ استغناء تاماً، أي أن أحداً لا يمكنه أن ينضمَّ إلى «وتر الله الموتور» هذا، يعني أنه «وحده وحده وحده».

ليس كمثلهم أصحاب

بعد الخطبة الثالثة التي ألقاها سيّد الشهداء ﷺ، بدأ الأصحاب يتكلمون، كلُّ بدوره، حبيب بن مظاهر ومسلم بن عوسجة وبرير وزهير وباقي الأصحاب. وأوّل من تكلم عابس بن ربيع الشاكري الذي قال: مولاي حسين، أنا لا أتكلم بالنيابة عن أحد، إنما بالأصالة عن نفسي. لِأَنَّ قُطْعَتْ بقواطع السّباع في الصحراء، أحبُّ إليّ من أن أتركك.

وبدوره، تكلم زهير بكلام جميل، وهو الذي أضاء سراجَه في كربلاء من مكان آخر، حيث قال: إنَّ أنا تركتك ورحلت، قل لي بم أجيب أمك فاطمة^(١) يوم القيامة؟

=بلسانه فهو في حزينا يوم القيامة. قالت سكينه: فوالله ما أنتم كلامه إلّا وتفرق القوم من عشرة وعشرين، فلم يبق معه إلّا واحد وسبعون رجلاً، فنظرت إلى أبي منكساً رأسه فخنقتني العبرة، فخشيت أن يسمعي ورفعت طرفي إلى السماء وقلت: اللهم إنهم خذلونا فاخذلهم ولا تجعل لهم دعاءً مسموعاً، وسلط عليهم الفقر ولا ترزقهم شفاعه جدّي يوم القيامة، ورجعت ودموعي تجري على خدي، فرأني عمي أم كلثوم، فقالت: ما دهاك يابنتاه، فأخبرتها الخبر، فصاحت واجدّاه وأعليّاه واحسناه واحسيناه، واقلة ناصراه، أين الخلاص من الأعداء ليتهم يقنعون بالفداء، تركت جوار جدك وسلكت بنا بُعد المدى، فعلا منّا البكاء والنحيب. فسمع أبي ذلك فأثنى إلينا يعثر في أذياله ودموعه تجري، وقال: ما هذا البكاء؟ فقالت: يا أخي ردنا إلى حرم جدنا، فقال: يا أختاه ليس لي إلى ذلك سبيل، قالت: أجل، ذكّرهم محل جدك وأبيك وأمك وأخيك، قال: ذكّرتهم فلم يذكروا ووعظتهم فلم يتعظوا، ولم يسمعوا قولي، فما لهم غير قلتي سبيل، ولا بدّ أن تروني على الثرى جديلاً، ولكن أوصيكن بتقوى الله ربّ البرية والصبر على البلية وكظم نزول الرزية، وبهذا أوعد جدكم ولا خلف لما أوعد، ودّعتمكم إلهي الفرد الصمد، ثم تباكيننا ساعة والإمام ﷺ يقول: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، الدمعة الساكبة، ج ٤ ص ٢٧١ - ٢٧٢؛ أسرار الشهادة، ج ١ ص ٢٢٢.

(١) ﴿لَنْ نَأْلُوَ الْلَبَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (سورة آل عمران، آية ٩٢). وقد ورد في الرواية: =

أما حبيب بن مظاهر فقال: حبيبي يا حسين، إن هي إلا روح واحدة، فلو قُتِلْتُ في طريق محبَّتِكَ وقُطِّعت إرباً ثم حُرِّقَتْ وذُرِّيَ رمادي في الهواء، يُفَعَّل بي هذا ألف مرة، لا أتخلى عن نصرتك^(١).

ثم قال بُرير: حبيبي يا حسين، تقول لنا ارحلوا. إن رحلتُ أنا فإلى أين أمضي^(٢)؟ من لي غيرك أذهب إليه، أنا ليس لي مولى سواك^(٣).

= «سُئِلَ الإمام الصادق عليه السلام عن معنى «حَيٍّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ»، فقال: خَيْرُ الْعَمَلِ بِرُّ فاطمةَ ووُلْدِهَا عليهم السلام»، (مناقب آل أبي طالب، ج ٣ ص ٣٣٦). وعن الباقر عليه السلام، قال: «أتدري ما تفسير «حَيٍّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ»؟ قال، قلت: لا. قال: دعاك إلى البرِّ، أتدري بِرُّ مَنْ؟ قلت: لا. قال: دعاك إلى بِرِّ فاطمةَ ووُلْدِهَا»، معاني الأخبار، ص ٤٢.

(١) لأنه باع نفسه ابتغاء مرضات الله، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ (سورة البقرة، الآية ٢٠٧). ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (سورة طه، آية ٧٢). «يقول تعالى: ﴿يَمْعَشَرُ الْيَمِينَ وَالْإِثْمِينَ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (سورة الرحمن، آية ٣٣)، فمن حصل له هذا السلطان ونفذ من أقطار السماوات والأرض، ماذا يضيره إذا ضربه الوثنيون واليهود وغيرهم أو أرادوا قتله، أو إذا انتقم منه اليهودي وتوَعَّده بالقتل؟ وإذا صار هذا الإنسان دوحه إلهية ونفساً مطمئنة لم يكله الله إلى نفسه طرفة عين، بل تولاه وتولى كل أموره، وأغدق عليه أوصاف الصابرين الذين إذا نزلت بهم نازلة تنهوا بأنهم لله وأنهم إليه راجعون، وأنهم ينتمون إلى السماء والملا الأعلى، لا إلى الأرض بترهاتها وسفاهاتها وسخافاتهما واهتماماتهما ورغباتها وأقذارها وشرورها»، خمسة من العرفاء، ص ٦٩.

(٢) كل سالك عرف الطريق إلى دار الخمار، عرف أن الدقَّ على غير بابه يجلب الهلاك والدمار.

(٣) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «... مَنْ أَقَامَ عَلَى مَوَالَاتِنَا أَهْلَ الْبَيْتِ سَقَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ مَحَبَّتِهِ كَأَسْأَلٍ لَا يَبْغُونَ بِهِ بَدَلًا، وَلَا يَرِيدُونَ سِوَاهُ كَافِيًا وَلَا كَالِيًا وَلَا نَاصِرًا، وَمَنْ وَطَّنَ نَفْسَهُ عَلَى احْتِمَالِ الْمَكَارِهِ فِي مَوَالَاتِنَا، جَعَلَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي عَرَصَاتِهَا بِحَيْثُ يَقْصُرُ كُلٌّ مِنْ تَضَمَّنَتْ تِلْكَ الْعَرَصَاتُ أَبْصَارَهُمْ عَمَّا يَشَاهِدُونَ مِنْ دَرَجَاتِهِمْ، وَإِنْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لِيَحِيطَ بِمَا لَهُ مِنْ دَرَجَاتِهِ كِلَا حَاطَتِهِ فِي الدُّنْيَا، (لَمَّا يَلْقَاهُ) بَيْنَ يَدَيْهِ. ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: وَطَّنْتَ نَفْسَكَ عَلَى احْتِمَالِ الْمَكَارِهِ فِي مَوَالَاةِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَمَكَّنَكَ مِنْ تَخْلِيصِ كُلِّ مَا تَحَبَّ تَخْلِيصُهُ مِنْ أَهْلِ الشَّدَائِدِ فِي هَذِهِ الْعَرَصَاتِ، فِيمَدَّ بَصَرَهُ فَيَحِيطُ بِهِمْ، ثُمَّ يَنْتَقِدُ مِنْهُمْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ أَوْ بَرَّهُ فِي الدُّنْيَا بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ رَدِّ غِيْبَةٍ أَوْ حُسْنٍ=

وهكذا، تقدموا الواحد تلو الآخر وتكلموا^(١).

أصعبُ لحظاتِ عاشها أبو الفضل عليه السلام

وسط الجموع، توجه سيّد الشهداء إلى أبي الفضل العباس عليه السلام قائلاً له: أنت أيضاً يا أخي، إن كنت تريد الرحيل، فارحل. ربما، ما من أحد في العالم تكلم مع أحدٍ بأثقل من هذا الكلام، فسماع هذه الكلمات صعب للغاية. ولا أدري كيف مرّت تلك اللحظات والثواني على أبي الفضل العباس عليه السلام.

أبو عبد الله الحسين عليه السلام هو «وتر الله الموتور» وهو مستغنٍ عن كل الوجود، وقد تجلّى ذلك ليلة عاشوراء. بعد تلك الخطب، رحل من رحل وبقي من بقي.

=محضر أو إرفاق، فينتقده من بينهم كما ينتقد الدّرهَم الصحيح من المكسور»، تفسير الإمام العسكري، ص ٢٦١.

(١) ﴿الَّذِينَ يُؤْثِرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ﴾ (سورة الرعد، آية ٢٠). ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا أَسْكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (سورة آل عمران، آية ١٤٦). قال الحسين عليه السلام: «يا بني عقيل، حسبكم من القتل بمسلم، فاذهبوا أنتم فقد أذنت لكم. قالوا: سبحان الله، فما يقول الناس؟! يقولون: إنّنا تركنا شيخنا وسيّدنا وبني عمومنا - خير الأعمام - ولم نرم معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب معهم بسيف، ولا ندرى ما صنعوا؟! لا والله ما نفعل ذلك، ولكن (تفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا)، ونقاتل معك حتّى نرد موردك، فقبّح الله العيش بعدك»، (الإرشاد، ج ٢ ص ٩١ - ٩٢). وقام إليه مسلم بن عوسجة فقال: «أنحن نخليّ عنك ولما نعذر إلى الله سبحانه في أداء حقّك؟! أما والله حتّى أطعن في صدورهم برمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقدفتهم بالحجارة دونك حتّى أموت معك»، (الإرشاد، ج ٢ ص ١٠٣). وقال سعد بن عبد الله الحنفي: «والله لا نخليّك حتّى يعلم الله أن قد حفظنا غيبة رسول الله صلى الله عليه وآله فيك، والله لو علمت أنّي أقتل ثمّ أحيّا ثمّ أحرقت ثمّ أحيّا ثمّ أذرى، يُفعل ذلك بي سبعين مرّة ما فارتكت حتّى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك وإنّما هي قتلة واحدة ثمّ هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً»، (الإرشاد، ج ٢ ص ١٠٣). وقام زهير بن القين البجليّ فقال: «والله لوددت أنّي قتلت ثمّ نشرت ثمّ قتلت حتّى أقتل هكذا ألف مرّة، وأنّ الله تعالى يدفع بذلك القتل عن نفسك، وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك»، (الإرشاد، ج ٢ ص ٩٢).

وأما من بقوا، فخضعوا لامتحان آخر. توجه الإمام الحسين عليه السلام لأصحابه قائلاً لهم: تعالوا لأريكم أماكنكم في الجنة وانظروا ما بين إصبعي. ثم فتح السبابة والوسطى وأرى أصحابه الجنة^(١). وهنا تظهر إحدى اللطائف، إذ يمكن للإنسان أن يحمل شيئاً ثقیلاً بأيّ من أصابعه، ولكن من الصعب جداً حمل غرض ثقیل بين هذين الإصبعين، حتى ولو لم يتجاوز وزنه الكيلو غرام الواحد أو نصف الكيلو حتى. وكأنّ الإمام الحسين عليه السلام يقول: هذه الجنة التي يسعى الجميع إليها، هي بين إصبعي، بل أقل من ذلك أيضاً.

نظر الأصحاب ورأوا ما رأوا. ثم أشاحوا بنظرهم^(٢) وقالوا: مولانا، أتريد إبعادنا عنك وإرسالنا إلى ذلك المكان؟ نقسم بك أننا من المحال أن نخطو خطوة واحدة بعيداً عنك، فأنت جنتنا يا مولانا. عندها، قال الإمام

(١) أصحاب سيد الشهداء في كربلاء كانوا، في بدو الأمر، ذوي مراتب في الولاية والمعرفة والعشق، فمنهم من لم يلتفت أصلاً إلى الجنة بكلّ ما فيها ومنهم من التفت. قال علي بن الحسين عليه السلام: «كنت مع أبي في الليلة التي قتل في صبيحتها، فقال لأصحابه: «هذا الليل فاتخذوه جنة فإن القوم إنما يريدوني، ولو قتلوني لم يلتفتوا إليكم وأنتم في حلّ وسعة، فقالوا: والله لا يكون هذا أبداً فقال: إنكم تقتلون غداً كلكم ولا يفلت منكم رجل، قالوا: الحمد لله الذي شرفنا بالقتل معك. ثم دعا فقال لهم: إرفعوا رؤوسكم وانظروا، فجعلوا ينظرون إلى مواضعهم ومنازلهم من الجنة، وهو يقول لهم: هذا منزلك يا فلان، فكان الرجل يستقبل الرماح والسيوف ب صدره ووجهه ليصل إلى منزلته من الجنة»، (الخراج والجرائح، ج ٢ ص ٨٤٧ - ٨٤٨؛ بحار الأنوار، ج ٤ ص ٢٩٨). وفي رواية أخرى، ثم قال: «فلما رأى الحسين عليه السلام حسن إقدامهم وثبات أقدامهم، قال عليه السلام: إن كنتم كذلك فارفعوا رؤوسكم وانظروا إلى منازلكم في الجنة، فكشف لهم الغطاء ورأوا منازلهم وحورهم وقصورهم فيها، والحدود العين ينادين العجل العجل فإنا مشتاقات إليكم! فقاموا بأجمعهم وسلوا سيوفهم، وقالوا: يا أبا عبدالله، أتأذن لنا أن نغير على القوم ونقاتلهم حتى يفعل الله بنا وبهم ما يشاء. فقال عليه السلام: إجلسوا رحمكم الله وجزاكم الله خيراً»، معالي السبطين، ج ١ ص ٣٤٠ - ٣٤٢.

(٢) ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَيْ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ (سورة القيامة، آية ٢٢ - ٢٣)، لا إلى غير وجهه ناظرة.

الحسين عليه السلام: لقد جالت عيناى هذا العالم، فلم أرَ نبياً أو وصيَّ نبىَّ كان له أصحاب أبرّ وأوفى من أصحابي ^(١)، حتى النبىِّ الخاتم عليه السلام.

محَبَّته نتيجة لطفه وعنايته

كونوا على يقين ^(٢) بأن محَبَّته، التي تتقدّم جميع الحقائق في العالم، هي صانعة أصل التوحيد. وهي ليست اكتسابية ولا تعليمية، إنما تأتي نتيجة لطفه وعنايته. تمسّكوا بذيل عباة جیداً، علّه يلحظ بطرف عينه ^(٣) واحداً من أهل المجلس، فإذا ما حصل ذلك، يصلح حال الجميع.

(١) عن الإمام الحسين عليه السلام أنّه قال بحق أصحابه: «فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي»، (الإرشاد، ج ٢ ص ٩١). وعلمه علم الله.

(٢) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «لا بدّ من الالتفات إلى أنّ عبور هذا الطريق لا يكون إلّا باليقين ونفي الشك والتردد... قد تجد من يذهب إلى زيارة الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام ويحاول أن يمتحنه، ويطلب من الإمام عليه السلام أن يريه شيئاً من ولايته وأمره وشأنه؛ إنّ إمتحان الله وأوليائه يكون لمن لا يفقه شيئاً من ألف باء التوحيد. كلّ من يريد أن يحصل على نتيجة في طريق التّوحيد لا بدّ أن يكون لديه يقين، وأمّا الإمتحان فهو ممّن ليس لديه شيء من اليقين». قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لَا تَجْعَلُوا عِلْمَكُمْ جَهْلًا وَيَقِينَكُمْ شَكًّا إِذَا عِلِمْتُمْ فَأَعْمَلُوا وَإِذَا تَبَيَّنْتُمْ فَأَقْدِمُوا»، نهج البلاغة، الحكمة ٢٧٤.

(٣) «إن احتراق قلبي وذرف دمعي وتأوّهي في وقت السحر ونوحي طوال الليل إنما أعانيها لأجل نظرة واحدة من لطفك»، (حافظ الشيرازي). ﴿إِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ (سورة القيامة، آية ٧). «والحظني بلحظة من لحظاتك...»، (بحار الأنوار، ج ٩١ ص ٩٦). إذا برق البصر وضرب شعاعه عين أحدهم أو وجهه أو أيّ منطقة بجسده، يحولها من الظلمة إلى النور. ويُعلم بوجود الظلمة عند إنسانٍ ما من خلال وجود العقْد النفسية، فإحساسه بالتفور من شيء معيّن فيه سواء بشكله أو شاكلته، دليل على وجود تلك الظلمة وانعدام النور لديه. ولكنّ برق البصر حين يضرب أحداً يطهره حتى يصبح هو نفسه مطهراً، ويغدو كل عضو فيه قادراً على تطهير عضوٍ مقابل له، كاللسان واليد والعين والأذن وهكذا... فلكلّ مدرّك ملوّث بالظلمة، مدرّكٌ مقابلٌ يطهره بالنور. وعلى نحوٍ معاكس، إذا غمّرت الظلمة وجود إنسانٍ ما، يصبح متنجّساً قادراً على نقل النجاسة من الباطن إلى الحواس ومنها إلى غيره من الناس. فمثلما أنّ هناك من يطهر، هناك أيضاً من يُنجس...

وإن لم تكن على يقين بأن نظرة^(١) الرحمة ستطالك، أقسم في قلبك على ذاته المقدسة بأخته زينب عليها السلام^(٢)، وعندها سيقبلك حتماً ولا يمكن أن يردك.

يا أبا عبدالله، نقسم عليك بتلك الحالة التي عاشتها أختك زينب ليلة العاشر من المحرم، وأنت عالم باحترق قلبها، وبذلك الأسرار التي بُحِتَ بها لأختك

(١) «وكلّ من أصابته نظرة حظ، وقفت روحه في لحظة واحدة على مائة سرّ، وإن لم يشمك أحد بنظرة، فكيف يتم لك معرفة خبر يقين عن وجودك»، (منطق الطير، ص ٢٤٨). يقال إنه عندما سأل أحد الطيور الهدد: لم فضلك الله من بيننا وذكرك في محكم كتابه ولم يذكرنا؟ دلنا على العمل الذي قمتَ به؟ فقال الهدد: «أيها الطائر، لقد كان سليمان النبي يديم النظر إليّ في كل أوان، وما حصلت على ذلك بذهب أو فضة، وإنما تنأتى هذه المكانة من نظرة واحدة، وإن تتحقق لشخص هذه الطاعة، فكم يحاول إبليس عرقلة تلك الطاعة وإن يقل شخص إن الطاعة غير واجبة، فستحل اللعنة عليه كل ساعة، فلا تتخلّ عن الطاعة لحظة واحدة ولا تقم وزناً لما تأمرك به نفسك من طاعة، فاقضِ العمر كله في طاعة، حتى تحظى من سليمان النبي بنظرة، فإذا أصبحت مقبولاً لدى سليمان، فقد تحظى بأكثر مما أقول»، المصدر نفسه، ص ٢٤٦.

(٢) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «العارف الكامل هو ذاك الذي انتفى القبح والسوء من كلّ نظره، ولم يدرك معنى القبح في هذا العالم في أيّ مورد في هذا الوجود حتّى الآن، فلا يعلم ما هو النقصان، وهذا هو الإنسان الكامل؛ ولا تفريق في مقام الإنسان الكامل بين المرأة والرجل. زينب عليها السلام، وهي إبنة أوّل موحد في عالم الوجود، بحيث أنّ كلّ الأنبياء حتّى إبراهيم لا يقدرّون أن يدركوا حقيقة تراب نعاله، كانت مولوه أمير المؤمنين عليه السلام، عندما دخلت قصر ذاك الملعون، قال لها: كيف رأيت صنع الله بأهل بيتك؟ فقالت عليها السلام: «ما رأيت إلّا جميلاً». ولكن هذا من خصوصيات العارف الكامل، وأمّا أنت فليست لديك تلك العين التي يمكن أن ترى فيها كلّ شيء جميلاً». ورد في زيارة السيدة زينب عليها السلام المعروفة بالزيارة «المفجعة»: «السّلام عليك يا بنت منّهج دين الإسلام وصاحب القبلّة والقرآن وعلم الصّدق والحقّ والإحسان، السّلام عليك يا بنت صفوة الأنبياء وعلم الأتقياء ومشهور الدّكر في السّماء ورّحمته الله وبرّكاته، السّلام عليك يا بنت خير خلق الله وسيد خلقه وأوّل العبد قبل إيجاد أرضه وسماواته وآخر الأبد بعد فناء الدّنيا وأهلها الذي روحه نسخة اللاّهوت وصورته نسخة الملّك والمَلَكوت وقلبه خزائن الحيّ الذي لا يموت ورّحمته الله وبرّكاته».

في قلب ليلة عاشوراء^(١)، إلا تفضّلت علينا بنظرة^(٢) لطف منك.

يا مولانا، نحن لا نريد الدنيا، ولا نريد الآخرة ولا الثروة ولا السلطة ولا أي شيء مما يسعى إليه الناس^(٣)، إنما نقسم عليك بأختك زينب، أن لا تبعدنا عنك لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ليلة عاشوراء

في ليلة عاشوراء، نام الأطفال مرتاحي البال، إذ كانوا واثقين أن هناك من يقوم بحراسة الحرم وحمايتهم، ومطمئنين إلى أن أبا الفضل العباس عليه السلام، ذاك الأسد الشجاع، يتولى مهمة الحراسة لحرم أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

وفي بعض الأحيان، كانت تأتي السيدة زينب عليها السلام لإعانة أبي الفضل. وفي تلك الجولات التي كانت تحصل، لم تكن زينب تختلي فقط بأخيها سيّد الشهداء عليه السلام وتستمع إلى الأسرار^(٤) والرموز وتُخبر بها، بل أيضاً كانت أحياناً تتحدث إلى أبي الفضل العباس عليه السلام.

(١) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «كلّ الحقائق التي انكشفت لكامل عالم الوجود ومكملته كانت عن مجرى عاشوراء، وظهور هذه الحقائق وانكشاف هذه الأسرار للعالمين يحتاج إلى معرفة بهذا الطريق وبحقيقته».

(٢) «وبالنظرة التي نظرت بها إلى الجبال فتشامخت، وإلى الأرضين فتسطحت، وإلى السماوات فارتفعت، وإلى البحار فتفجرت»، زيارة الإمام الرضا عليه السلام المعروفة بالزيارة الجوادية، بحار الأنوار، ج ١٠٢ ص ٥٥.

(٣) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «عرصة الحقّ تعالى وساحة الكبرياء الإلهي ليست عرصة الأعمال والأفعال، بل إنّ الحقّ تعالى قد أعطى كلّ شيء لمن هو لا شيء، ومن هنا تجد أهل المعرفة يطلبون أن يكونوا لا شيء حتّى يأخذوا من الحقّ كلّ شيء».

(٤) إسمع حديث العشق من المعشوق ولا تسمعه من الواعظ ولو تصنّع كثيراً في عباراته وأقواله... «السّرّ سرّان: سرّ لا يجوز إظهاره للغير، وسرّ يجوز إظهاره للأخلاء من الذين كانوا من الشخص بمنزلة نفسه في الاطلاع على أسرارها، كما في إبراهيم الخليل عليه السلام، حيث إنّه سُمّي خليلاً لبلوغه اللياقة للاطلاع على أسرارها تعالى»، (الشموس الطالعة من=

وفجأة، وفي عتمة الليل وظلمته، سمع أبو الفضل العباس عليه السلام صوت أقدام ورأى سواداً من بعيد. فما كان من ابن غيرة الله وصاحب لواء الحسين عليه السلام وكل آماله، إلا أن استلّ سيفه بسرعة واتجه صوب ذلك السواد. تقدّم منه وصرخ قائلاً: من الذي يتجرأ على التقدّم باتجاه خيام مولاي؟ آل الله ^(١) يستريحون هنا.

وقد ذكرت هذه القصة في كتب المقاتل على شكلين. فالبعض قال إن شمر بن ذي الجوشن لعنه الله أتى في النهار لاستدعاء أبي الفضل عليه السلام، في حين أن هناك من قال إنه أتى في الليل. ولعلّ الوجهين صحيحان. فقد يكون أتى في النهار وخاب أمله، فعاود الكرة في الليل، علّه يتمكن من أخذ أبي الفضل في الظلام.

وكان جرح أبي الفضل العباس عليه السلام لم يلتئم حتى تلك اللحظة من الاقتراح الذي سمعه من أخيه الحسين عليه السلام. وكان لا يزال يفكر في السبب الذي دعا أخوه إلى أن يكلمه بهذا الكلام. ألم يبشّرني بكرباء من أول عمري؟ ألم يقل لي في المدينة ومكة إنك سترافقني في سفري هذا؟ ألم يقل إنه لن يتركني وحيداً وسيصطحبني معه أينما ذهب؟ فما الذي حدث حتى يكلمني الليلة بهذا الكلام؟ وبينما كان يفكر هكذا، أتى ذلك الملعون واقترح عليه اقتراحاً سبّب له أذى روحياً بالغاً، حيث قال له: يا عباس، نحن نعطيك الأمان. غداً، ستقتلون جميعكم. ولكن ثمة صلة قرابة بيننا، فتعال واترك الحسين. إنتفض مظهر الغيرة قائلاً: لعنة الله عليك وعلى أمانك وعلى من أرسلك إلى هنا ^(٢).

=مشارك الزيارة الجامعة، ص ٥٧٣). قال الإمام الصادق عليه السلام: «المُذيع علينا سرّنا كالشاهر بسيفه علينا»، تحف العقول، ص ٣٠٨.

(١) ورد لفظ «آل الله» في روايات أهل البيت عليهم السلام أنفسهم، إذ قال الإمام الحسين عليه السلام وهو يخاطب الأصبغ بن نباتة: «يا أصبغ، إنّ سليمان بن داود أعطي الريح غدوّها شهر ورواحها شهر وأنا قد أُعطيْتُ أكثر ممّا أُعطيَ سليمان، فقلت: صدقتَ والله يا ابن رسول الله. فقال: نحن الذين عندنا علم الكتاب وبيان ما فيه وليس عند أحد من خلقه ما عندنا، لأنّا أهل سرّ الله، فتبسّم في وجهي ثم قال: نحن آل الله وورثة رسوله، فقلت: الحمد لله على ذلك»، العوالم، ص ٥٠.

(٢) «تتحدث كتب التاريخ بأن المدعوّ عبد الله بن أبي المحل ابن أخ (أم) البنين ذهب إلى =

قال هذا الكلام وانطلق بسرعة نحو الخيام ورمى بنفسه على قدمي أخيه قائلاً:
حبيبي يا حسين، إلى الآن لم تبرد حرقه قلبي من الكلام الذي قلته لي. فإن أردت أن
أبقى على قيد الحياة حتى الغد، لا تُسمِعني هذا الكلام مرة أخرى^(١).

=ابن زياد وطلب منه تزويده بكتاب يعطي بموجبه ابن زياد الأمان للعباس وإخوته إن هم
تركوا الحسين عليه السلام فرحبَ ابن زياد بهذه الفكرة وبأدر إلى كتابة كتاب بهذا الشأن ومن
ثم أعطى هذا الكتاب إلى المدعوّ كرمان وكان هذا خادماً عند ابن أبي المحل وتوجه
هذا نحو العباس وأعطاه الكتاب وما أن قرأه العباس عليه السلام حتى ردّ على كرمان ما نصّه:
أقرئ خالي السلام وقل له أن لا حاجة لنا في أمانكم فأمان الله خير من أمان ابن سمية.
فعادَ هذا خائباً حاول الشمر بن ذي الجوشن إعادة الكرّة مرّة أخرى لأنّه كان يعلم بأنّ
العباس هذا هو الذراع الأيمن للحسين عليه السلام. ففي ليلة العاشر من محرّم الحرام ذهب
الشمر قريباً من مخيم الحسين عليه السلام ووقفَ على ربوة تطلّ على معسكر الحسين وصاحَ
قائلاً: أين بنو أختنا أم البنين؟ فخرجَ إليه العباس عليه السلام وإخوته ونادى العباس: ماذا
تريد؟ فقال: أنتم يا بني أختي آمنون. فردّ عليه العباس عليه السلام: لعنك الله ولعن أمانك لئن
كنتَ خالناً كما تدّعي فكيف تؤمننا وابن بنت رسول الله لا أمان له»، تذكرة الخواص،
ص ١٢؛ أسرار الشهادة، ص ١٣٨.

(١) إن العاشق يحفظ حق محبته لمعشوقه، حتى وإن قسى عليه أو جافاه أو تخلى عنه. يروي
آية الله السيد أحمد النجفي دام ظلّه قصّة مفادها أنه كان هناك امرأة عجوز من مدينة
نیشابور تعمل بغزل النسيج لتجمع المال بغرض زيارة الإمام الرضا عليه السلام في المدينة التي
يقطن فيها. فكانت تعمل لفترات طويلة على آلة الغزل حتى أصيبت بالشلل. ولكنها
عاودت محاولاتها لكسب المال من أجل الذهاب للزيارة على ظهر الجمل. وفي أحد
الأيام، وجدت أنّ المدينة تعجّ بأهلها وعلمت أن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قد
قدِم إلى المدينة. فما كان منها، وهي عاجزة مُقعّدة، إلّا أن جلست داخل منزلها تناجي
إمامها وتقول: الكلّ ينظر إليك، وأنا أيضاً أريد أن أحظى ولو بنظرة واحدة إلى وجهك.
كان أهالي المدينة قد نصبوا الخيام والفساطيط لاستقبال الإمام، ولكنّه عليه السلام قال إنه
سينزل في المكان الذي تربض فيه ناقته، فخلّى لجام الناقة التي عبّرت الأزقة لتقف عند
باب العجوز وهي تنادي: يا عليّ بن موسى الرضا! فأجابها الإمام قائلاً: إنّي من أجلك
قدّمتُ إلى المدينة.

تبيّن لنا هذه القصّة أن أهل البيت عليهم السلام يحفظون حقّ المحبة لمن يحترق قلبه حبّاً لهم
ويحترق شوقاً إليهم. ولكن في المقابل، نجد أن هذه المرأة العاشقة حفظت حقّ المحبة
أيضاً، ولم تصدر منها أيّة كلمة اعتراض أو حتى شكوى على ما أصابها طوال تلك
السنين. فلم تعترض على فقرها، ولم تعترض على قدرها الذي حتمّ عليها أن تعمل ليلاً=

عندما بدأوا بنصب الخيام في كربلاء، طلبت السيدة زينب عليها السلام من أخيها بأن لا يفصل بين خيمتها وخيمته أيّ فاصل، قائلة: لا قدرة لي على فراقك ^(١) حتى بهذا المقدار. وكذلك، أمر سيّد الشهداء أبا الفضل العباس عليه السلام بأن تُنصب خيمة زينب وخيمته في مكان واحد وأن تكونا متصلتين من أحد الجوانب. ولكن، ما الذي جرى على زينب عليها السلام ليلة العاشر عندما أتت إلى مصرع أخيها وحالوا بينها وبينه ^(٢)؟

=نهاراً لجني المال، علماً أن قصدها كان معنوياً وهو زيارة الإمام، لا دنيوياً لتحسين وضعها المعيشي. وفوق هذا كله، أصيبت بالشلل الذي زاد من صعوبة مهمتها، فبقيت صامتة راضية لا تنطق ببنت شفة ولا تصدر منها أيّة شكاية، إذ حفظت كل الألفاظ التي منّ بها الإمام عليها، وتحملت من أجل ذلك كل الصعوبات التي واجهتها، وأعظم ما منّ به الإمام عليها أنه منحها عشقه ومحبة.

وهكذا هو الحال مع أبي الفضل العباس عليه السلام حين طلب منه الإمام الحسين الرّحيل، فعلى قدر ما كان وقع هذا الأمر مهولاً عليه وصادماً لقلبه العاشق، إلا أنه تحمّل كلّ ذلك، وحفّظ حق محبة الإمام له، فلم يتراجع ولم يُظهر أيّ استياء أو اعتراض بوجه إمامه، وإنما تجرّع غصة الموقف من دون أن يتوجّه ولو حتى بمجرّد عتاب لأخيه الحسين عليه السلام. ولم يكن الطلب الذي طلبه من أخيه الحسين بعدم إسماعه مثل هذا الكلام مجدداً إلا بهدف بقاءه على قيد الحياة وإدخاره نفسه وكل ما يملكه ليُريقه أمام قدمي إمامه ومعشوقه، فهو كان يعلم يقيناً أنه إذا سمع هذا الكلام مجدداً، ستخمد أنفاسه، إذ أنّ مفارقتها لمعشوقه الحسين عليه السلام تعني مفارقتها الحياة...

(١) عن أمير المؤمنين عليه السلام: «فَقَدْ الْأَحَبَّةُ غُرْبَةً»، (نهج البلاغة، الحكمة ٦٥). وأثناء تأبينه لفاطمة عليها السلام كان عليّ سلام الله عليه يُنشد ويقول: «فراقك أعظم الأشياء عندي وفقدك فاطمٌ أدهى الثكول، سأبكي حسرةً وأنوح شجواً على خِلٍّ مضى أسنى سبيل، ألا يا عين جودي وأسعديني فحزني دائم أبكي خليلي»، بحار الأنوار، ج ٤٣ ص ١٧٩.

(٢) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «كلّ ما جرى في كربلاء لا يمكن أن يتحمّله كلّ عالم الوجود، أمّا زينب عليها السلام فقد تحمّلتها كلّها». ولولا الإمام زين العابدين عليه السلام، لكان الله تعالى قد أفنى الوجود بأكمله بعد واقعة كربلاء، ولكنّ بقاء الإمام عليه السلام حال دون ذلك، إذ ورد في الزيارة الجامعة الكبيرة: «وبكم يُمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه»، (مفاتيح الجنان). وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «لو بقيت الأرض يوماً واحداً بلا إمام لَسَاخَتْ الأرضُ بأهلها»، إكمال الدين وإتمام النعمة، ص ٢٠٤.

الفيض الثاني عشر

حقيقة ارتباط رسول الله ﷺ بسيد الشهداء عليه السلام

قال رسول الله ﷺ: «حسينٌ مني وأنا من حسين»^(١). تبدو هذه العبارة في الظاهر بسيطة للغاية. إلا أنه من بين كل عبارات الثناء التي وصلت عن طريق الوحي والغيب الإلهيين إلى رسول الله ﷺ، ومنه إلى سيد الشهداء عليه السلام، والتي صدرت عن بقية أنبياء الله وأوليائه بحق خامس آل الكساء عليه السلام، يعتبر هذا الكلام النوراني، بما يحمله من معانٍ تليق بسيد الشهداء، هو الأكثر قدرة على تبيان المقام الشامخ لحضرة أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

قال رسول الله ﷺ: «حسينٌ مني وأنا من حسين». حسينٌ مني، أي أنه ولده من ناحية الوجود المقدس للصديقة الطاهرة ولأمير المؤمنين عليه السلام. وقد يأتي هذا الكلام بمعنى أن ارتباط الحسين وتعلقه ومحبه لرسول الله هي على نحوٍ لا تمكّنه من الانفصال عنه أبداً. «وأنا من حسين»، أي أن ارتباط رسول الله ﷺ بالإمام الحسين عليه السلام هو ارتباط وثيق بحيث لا يمكن لهما أن ينفصلا أصلاً^(٢).

(١) (بحار الأنوار، ج ٤٣ ص ٢٦١؛ كامل الزيارات، ص ٥٣). كما قال رسول الله ﷺ: «إنّ عليّاً مني وأنا من عليّ»، (أمالي الطوسي، ص ٢٢ - ٢٣)، «إنهم مني وأنا منهم»، (حديث الكساء)... فلكلّ مقولةٍ من هذه المقولات حيثية خاصة.

(٢) «أخذ النبي ﷺ يوماً الحسين عليه السلام على فخذه الأيمن، وولده إبراهيم على فخذه الأيسر، فنزل عليه جبرائيل وقال: قال الله تعالى: لم يكن ليجمع لك بينهما فاختر من شئت =

يعتبر هذا المعنى الظاهري للعبارة طيباً ولطيفاً غير أن المسألة أكثر سموّاً ودقةً من هذا الكلام.

ولأنه لم يكن بالإمكان تفسير ما تنطوي عليه الجملة الثانية من مفهوم معنوي لأهل الظاهر، فُسِّرَت الجملة الأولى من هذا الحديث الشريف بإعطائها معنى ظاهرياً كذلك. ولأن فهم عبارة «أنا من حسين» يحتاج إلى رشاد معنوي واتّساع فكري، لم يتمكّن أحد من إدراكها أو فهم معناها^(١). وبما أنّ الجملة الثانية غير

=منهما، فقال إذا مات الحسين بكى عليه أنا وعلي وفاطمة، وإذا مات إبراهيم بكى أنا عليه، فاختار موت إبراهيم، فمات بعد ثلاثة أيام، وكان إذا جاء الحسين بعد ذلك يقبّله ويقول: أهلاً ومرحباً بمن فديته بابني إبراهيم»، تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم، ج ١ ص ٥٦٤.

(١) لم يُعرّفنا أهل البيت ﷺ على كل الأمور والحقائق الوجودية، فليس كل شيء يقدر الإنسان على تحمّله. وهناك الكثير من المسائل التي ينبغي على المرء أن يقرّ بها ويُدعّن لها ولو لم يعرفها. فعلى سبيل المثال، هل استطعنا أن نتوصّل إلى معرفة ذات الله عزّ وجلّ؟ لقد حذرنا أهل البيت ﷺ من التفكير والسؤال عن أمور كثيرة في هذا الصدد، فأقرّنا بها من دون أن نعرف تفاصيلها. وكذا، هنالك الكثير من المسائل التي لا نفهمها في هذه الدنيا رغم أنها تواجهنا وتحيط بنا في كل يوم، ولكننا، مع جهلنا وعدم استيعابنا لها، نقرّ بها ونسلم، كالموت، مثلاً، الذي لا ندري ما هو ولا كيف هو ولا ما يحدث قبله أو خلاله أو بعده، ولكننا مجبرون على الإقرار به لأنه موجود واقعاً. وكذلك من الأمور التي نقرّ بها من دون أن نعرفها أو نفهمها عملية التفكير والتحليل والاستنتاج التي يقوم بها العقل وعملية النطق والكلام التي تتمّ عبر تحريك اللسان وانبعاث الصوت من جوف الإنسان، إضافة إلى مسألة النوم وانتقال الروح إلى عالم البرزخ ورؤية المنامات وعملية الزواج والإنجاب وغيرها الكثير من الأمور الحياتية. ومع عدم معرفتنا بها ولا فهمنا لها إلا إننا لا نصرّ على إدراك تفاصيلها، بل اعتدنا عليها وأقرّنا بها وسلمنا لها من دون أن نسأل كيف ولم. وما دام هذا حالنا مع عددٍ لا يحصى من الأمور والمسائل المحيطة بنا، لماذا حين يصل الأمر إلى أهل البيت ﷺ ومقاماتهم، نبدأ بطرح الأسئلة والاستفسارات والتحليلات ونطلب المعرفة والفهم والإثباتات والأدلة، مُعتبرين أن هذا من حقنا كوننا من أصحاب العقول الفذة الذين لا يرضون بالإقرار والتسليم لأمرٍ لا يفهمونه أو يعقلونه؟! هذا مع العلم أن الكثير منّا يصدّق علماء الفلك والمنجمين ويسلم بأقوالهم من دون أن يشكك بها في حين أنه=

=يسارع إلى الطعن والشك في رجالٍ عُرفوا طوال حياتهم بالتقوى والورع والصدق إذا تكلموا عن أهل البيت عليه السلام ومقاماتهم.

في الحقيقة، كل موجود يدلّ وجوده على حياته وقدرته وعلمه ولكن كل بحسبه. ويقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (سورة الإسراء، آية ٤٤)، فالمعنى مطلق في هذه الآية، أي أن كل الأشياء في الوجود، من دون استثناء، تسبح بحمده، وتسبيحها يدل على معرفتها وحياتها وقدرتها، فبحسب المعرفة تكون القدرة والحياة، وكلما كانت المعرفة والتوحيد أعظم كان الوجود أكبر، وكما يقال: لك وجودٌ بقدر توحيدك. وكثيرة هي الروايات التي تتحدث عن وقائع تبين علم الكائنات من حيوانات ونباتات وجمادات، كالروايات التي تُخبرنا عن قيام الإمام عليه السلام بإناطق الحمار ليكلّم الناس ويدلّهم على إمام زمانهم، وكذلك إنطاق الشجر والحجر والشمس والحصي بالعلوم والمعارف، كحجة على البشر، ما يؤكّد أن لها حياة وقدرة وعلماً. ولكن مهما كبرت المعرفة عند الموجودات تبقى محدودة ومقيّدة، كما أن هناك فرقاً كبيراً بين معرفة الشيء وبين إدراكه وفهمه. فمثلاً، تعتبر أعضاء الإنسان من الموجودات، إذ أن فيها حياة وبالتالي فيها قدرة وعلم، ولكنها لا تدرك من الإنسان إلا الشيء القليل، فيدّ ورجله، مثلاً، لا تدركان عقل هذا الإنسان وصفاته وشخصيته وما إلى ذلك، وجلّ ما تدركه هو الوظيفة التي كلّفها بها الله تعالى في جسم هذا الإنسان. والدليل على حياتها وعلمها أن الله يشهدّها على صاحبها يوم القيامة، ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة النور، آية ٢٤). وكذلك فإنّ عقل الإنسان لا يحيط بكلّ مراتبه الوجودية، فعلى الرغم من معرفته بأنه مكوّن من نفس وعقل وروح غير أنه لا يدرك دقائق النفس وتفصيلها وخبايها ولا ماهيّة الروح وأسرارها، فهو قادر على إدراك الماديات لا المجرّادات. وبالتالي فإنّ الإدراك والفهم عند الإنسان وعند كل موجود محدودان، وإن كانت المعرفة موجودة، إذ كما سبق وذكرنا أن إدراك الشيء وفهمه يختلف عن معرفته. وإذا كانت أعضاء الإنسان عاجزة عن إدراكه بكلّه مع أنها متصلة به، فماذا سيدرك الإنسان من الله عز وجل حتى وإن كان متصلاً به؟ هل سيُدرك أو يفهم أو يعرف كل شيء عنه؟ بالطبع لا، فالمحدود لا يمكن له الإحاطة بالمطلق مهما علا شأنه. ومثّل هذه المسألة كمثّل الرّوح في البدن، إذ ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الأرواح تمازج البدن ولا تواكله وإنما هي كلّ للبدن محيطة به»، (مختصر بصائر الدرجات، ص ٣)، فالإنسان عاجزٌ عن إدراك هذه الروح القابعة في بدنه، فهل يعرفها حقّ معرفتها؟ وهل يراها أو يشعر بها؟ أم هل يمكن له أن يحصرها أو أن يحيط بها رغم علمه بأنها في بدنه؟ وهكذا هو الأمر بالنسبة لكثيرٍ من الأمور الغيبية التي لا يمكن للإنسان الإحاطة بها.

=وغاية القول إنّ الإنسان مُجَبَّرٌ على الإقرار ببعض الأمور والحقائق سواء في ما يتعلق بالمسائل الحسيّة الملموسة، أو المسائل الغيبية المجردة، وعلى رأسها حقيقة أهل البيت ومقاماتهم الشامخة. وهنا، على الإنسان أن يُغلق باب التفكير والسؤال، ويوطّن نفسه على الإقرار والتسليم، لأنّه مهما سأل لن يصل إلى الأجوبة التي تروي عقله، فهذه المسائل خارجة عن نطاق وجوده وبالتالي عن حدّ علمه وقدرته، وعليه، إمّا يقبل ويسلم ويقرّ أو ينفر وينكر ويعترض.

وإذا كان التسليم وعدم السؤال عن أمر أهل البيت وولايتهم قد فرضه الله تعالى على أنبيائه ولم يلتمس العذر لهم حتى في الاستفسار عنه، ناهيك عن رفضه، فكيف إذا بعامّة البشر؟ تقول الرواية إن الإمام زين العابدين (عليه السلام) قد خاطب الحوت الذي التقم النبيّ يونس (عليه السلام)، وأمره أمام أحد المخالفين بأن يتكلّم عن سبب التقامه ليونس بأمر من الله تعالى، فقال الحوت: «يا سيدي إن الله تعالى لم يبعث نبياً من آدم (عليه السلام) إلى أن صار جدّك محمد (صلى الله عليه وآله) إلا وقد عرض عليه ولايتكم أهل البيت، فمن قبلها من الأنبياء، سلم وتخلص ومن توقف عنها وتمنّع من حملها، لقي ما لقي آدم سلام الله عليه من المعصية وما لقي نوح سلام الله عليه من الغرق، وما لقي إبراهيم سلام الله عليه من النار وما لقي يوسف سلام الله عليه من الجُبّ، وما لقي أيوب سلام الله عليه من البلاء وما لقي داود سلام الله عليه من الخطيئة إلى أن بعث الله يونس سلام الله عليه فأوحى الله أن يا يونس، تولى أمير المؤمنين عليّاً والأئمة الراشدين سلام الله عليه من صلبه». فقال يونس: «كيف أتولى من لم أره ولم أعرفه؟ وذهب مغتافاً. فأوحى الله تعالى إليّ أن التقي يونس ولا توهني له عظماً. فمكث في بطني أربعين صباحاً يطوف معي البحار في ظلمات ثلاث ينادي أنه: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين قد قبلت ولاية عليّ بن أبي طالب والأئمة الراشدين من ولده، فلما أن آمن بولايتكم أمرني ربي فحذفته على ساحل البحر...»، (بحار الأنوار، ج ١٤ ص ٤٠٢). ومن هنا، صحيح أن هناك أموراً نستطيع، نحن البشر، أن نستفسر عنها ونعرفها، ولكن ثمة الكثير من المسائل المرتبطة بأسماء الله وصفاته، أي بآل البيت (عليهم السلام)، ينبغي علينا أن نقرّ بها وإن لم نعرفها أو نتحمّلها، وإلا فسنبتلّى ونُعاقب. وقد ورد في كتاب «الأربعون حديثاً»، ح ١ ص ٣٥: «ما الفرق بين أن يفتي فقيه بفتوى في باب الديات وأنتم لم تعرفوها، ثم من دون مراجعة دليله تردّونه، وبين أن يقول شخص سالك إلى الله أو عارف بالله قولاً يتعلق بالمعارف الإلهية أو بأحوال الجنة والنار، وأنتم ودون مراجعة لدليله لا تردّونه فحسب، بل وتهينونه أو تتجرّأون عليه؟ فمن الممكن لذلك الشخص وهو من أهل ذلك الوادي وصاحب ذلك الفن أن يكون له دليل من كتاب الله، أو من أحاديث الأئمة ولكنك لم تطع عليه بعد، ففي هذه الحالة تكون قد ردّدت على الله ورسوله دون مبرر مقبول. ومعلوم أن=

واضحة المعنى ومحجوبة خلف ستار الغموض، لن يتضح معنى الجملة الأولى أيضاً.

يقول رسول الله ﷺ: «أنا من حسين». إذا أريد من هذا الكلام الخلقة الظاهرية، فإن هذا خلاف الواقع، لأن رسول الله ﷺ أتى إلى هذا العالم من والد عظيم هو عبد الله ووالدة كريمة هي آمنة بنت وهب. فلو أراد رسول الله ﷺ أن يبين نسبه لقال: «أنا من عبد الله والدي وآمنة بنت وهب أُمِّي»، فقد صدر وجودي الظاهري عن هذا الأب وهذه الأم.

حقيقة «أنا من حسين»

إذا صرفنا نظرنا عن واقع الارتباط في عالم الظاهر ونظرنا إلى ارتباط رسول الله ﷺ بتلك الحقيقة التي انفصل عنها ثم جاء إلى عالم الطبيعة، لرأينا أنه ﷺ يقول: «أنا وعليّ من نور واحد»^(١)، أي أنني جئت إلى عالم الطبيعة بعدما انفصلت عن النور الذي انفصل عنه عليّ أيضاً، وجاء بعده إلى عالم

=الاحتجاج بأسلوب «أن ذلك لا يتلاءم مع ذوقي» أو «لم يصل إليه علمي» أو «سمعت خلاف ذلك من الخطباء»، فإن هذا كله لا يشكل عذراً مقبولاً.

إذاً وبعد كلّ ما مرّ ذكره، فليُنظر كلّ ممّا إلى باطنه وليرَ، هل لا يزال الإنكار هو الحاكم عنده؟ إذا كان الأمر كذلك، فلا بدّ من تبيان أن جبلة الناس على صنفين، إمّا جبلة نورانية ولائية، وإمّا جبلة ظلمانية شيطانية. فأصحاب الجبلة الثانية يقبلون بالتجليات الشيطانية، ويوافقون مثلاً على أن الشيطان موجود في كلّ مكان وعنده الكثير من القدرات والإمكانات، بينما يرفضون التجليات الولائية، ولا يقبلون بأن الإمام ﷺ موجود في كلّ مكان وبأنه قادر على كل شيء لأنه وليّ الله المطلق وخليفته على خلقه. وعليه، من المُحال تبديل الجبلة التي حُلِقَ عليها الإنسان، فلا يمكن إدخال النور إلى قلب جُبِلَ من الظلمة، وكما قال الله جلّ وعلا: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾، سورة القصص، آية ٥٦.

(١) (بحار الأنوار، ج ٣٥ ص ٣٤؛ أمالي الصدوق، ص ٢٣٦). عن جابر بن يزيد الجعفي، قال: قال لي أبو جعفر صلوات الله عليه: «يا جابر، إن الله أول ما خلق، خلق محمداً وعترته الهداة المهتدين»، الكافي، ج ١ ص ٤٤٢.

الطبيعة والكثرة^(١). ويقول ﷺ: «أنا وعليّ من شجرة واحدة»^(٢)، ففي التنزل إلى عالم المادة، أخذنا نحن الإثنين وجودنا من المكان نفسه^(٣). وبناءً على ذلك، فإن النسب المعنوي لرسول الله ﷺ يعود إلى النور، أي أنه انفصل عن النور وأتى إلى عالم المادة. ولكنه يقول هنا: «أنا من حسين». ينبغي البحث في كل مراتب عالم الوجود حتى يتضح لنا معنى «أنا من حسين». وقد تبين أنه في مرتبة عالم المادة والطبيعة، ولد رسول الله ﷺ من أب اسمه عبد الله وأم اسمها آمنة.

ما قبل عالم النور

من مراتب الوجود أيضاً، مرتبة النور، حيث انفصل كلٌّ من رسول الله وأmir المؤمنين صلى الله عليهما وآلهما وسلم من المقام النوراني هناك، وقديماً إلى عالم الكثرة^(٤). ولكن هناك مرتبة ومقام أعلى من هذه المرتبة والمقام، ومنه أتى رسول الله ﷺ إلى وادي النور، أي أن هناك مقاماً قبل عالم النور^(٥) تنزل منه رسول الله ﷺ إلى المقام النوري.

(١) «أول تكثر وقع في دار الوجود، هو هذه الكثرة الأسمائية والصفاتية في الحضرة العلمية ومقام الواحدية بظهور الخليفة الإلهية في صور التعينات الأسمائية وتلبسه بلباس الكثرات واكتسائه بكسوة الصفات وهذه الكثرة هي مبدأ مبادئ كل كثرة وقعت في العين وأصل أصول الاختلاف لمراتب الوجود في الدارين»، مصباح الهداية، ص ٢٩.

(٢) بحار الأنوار، ج ٣٨ ص ٣٠٩؛ كشف الغمّة، ج ١ ص ٥٢.

(٣) قال رسول الله ﷺ مخاطباً عليّ عليه السلام: «أنت مني وأنا معك سرّي وعلايتي، وأنت روعي التي بين جنبيّ، لحمك لحمي، ودمك دمي، وما أفرغ جبرائيل في صدري حرفاً إلا وقد أفرغته في جوفك»، تفسير نور الثقلين، ج ٤ ص ٣٧٩.

(٤) ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾، (سورة التكاثر، آية ١ - ٢). يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «أيّها الإنسان، سوف تبقى مبتلىً بالتكاثر حتّى تزور المقابر، وهي الأماكن المخفية حيث تكمن وراءها الحقيقة».

(٥) قبل تنزلهم إلى عالم الأنوار كانوا في عوالم لا يعلمها إلا الله وهم، فنحن لا ندري كيف كانوا في تلك العوالم.

وعندما يقول رسول الله ﷺ: «أنا من حسين»، فهو يتكلم عن هذا المقام بالذات، أي كأنه يقول: قبل أن أنزل إلى وادي النور الذي هو وادٍ لانهائي في عالم الوجود، كنتُ من حسين وحسينٌ كان مني^(١). ويعتبر هذا المقام أرفع من مرتبة النور والروح وكل مراتب التجرد بجميع أشكالها. فقبل أن يتقلد

(١) كالضوء من الضوء وكنور من النور. وإن لأهل البيت ﷺ في الوجود والعوالم ظهورات وأطواراً متعدّدة، وإنهم ﷺ أمره تبارك وتعالى الذي بين الكاف والنون، بين كن فيكون، ﴿يَنْزِلُ الْأَمْرُ بِبَيْنَ بَيْنَ لِعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة الطلاق، آية ١٢)، إذ يتنزّلون بين العوالم ويظهرون بأيّ صورة شاؤوا، وهذا معنى قول أمير المؤمنين ﷺ: «أنا الذي أتصوّر في الصور كيفما أشاء» (مشارك أنوار اليقين، ص ١٧١)، كما ورد في الزيارة الجامعة: «وأمره إليكم». إذاً، قبل تنزيلهم ﷺ إلى هذا العالم، كان لهم وجود قبل عالم الأنوار والأرواح، وقد ورد في الحديث القدسي: «إني خلقتهم قبل أن أخلق الأنوار خلقتهم في خزانة قدسي ترتع في رياض مشيّي، وتنسّم من روح جبروتي» (بحار الأنوار، ج ٢٦)، إذ لا فرق ولا تعدّد ولا سبق لأحد منهم على الآخر في ذاك المقام، فهم حقيقة واحدة. وهذا ما ورد عن أمير المؤمنين ﷺ في قوله: «... الذي كنّا بكيونته قبل الحلول في التمكين كائنين غير مكوّنين»، (الهداية الكبرى، ص ٤٣٣)، وشرح هذا الأمر مولانا الصادق ﷺ بقوله: «الذي كنّا بكيونته في القدم والأزل هو المكوّن ونحن المكان، وهو المُنشئ ونحن الشيء، وهو الخالق ونحن المخلوقون، وهو الربّ ونحن المربوبون، وهو المعنى ونحن أسماؤه المعاني، وهو المحتجّب ونحن حجه، قبل الحلول في التمكين ممكنين لا نحول ولا نزول وقبل مواضع صفات تمكين التكوين قبل أن نوصف بالبشرية والصور والأجسام والأشخاص ممكن مكوّن كائنين لا مكوّنين، كائنين عنده أنواراً لا مكوّنين. أجسام وصور ناسلين لا متناسلين، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف إلى آدم والحسن والحسين من أمير المؤمنين وفاطمة من محمد، وعلي من الحسين ومحمد من علي وجعفر من محمد وموسى من جعفر وعلي من موسى ومحمد من علي وعلي من محمد والحسن من علي ومحمد من الحسن بهذا النسب لا متناسلين ذوات أجسام ولا صور ولا مثال إلا أنوار نسمع الله ربنا ونطيع يسبح نفسه فنسبحه ويهللها فنهللها ويكبرها فنكبره ويقدها فنقدسه ويمجدها فنمجده في ستة أكوّان منها ما شاء من المدة»، (الهداية الكبرى، صحيفة الأبرار، ج ٢ ص ٥١٨)، وهم ﷺ من جهة الولاية متّحدون، «أولنا محمد وأوسطنا محمد وآخرنا محمد، كلنا نور واحد»، (شرح دعاء السحر، ص ٥٢). وعليه، هناك كانت الحقيقة واحدة، لم تتناسل.

رسول الله ﷺ منصب الرسالة والنبوة^(١) وقبل أن يتقلّد أيّ منصب وجودي ظاهري، «كان من الحسين ﷺ».

سنخوض في بيان هذا المطلب من خلال إحدى الآيات القرآنية وإحدى الروايات الصحيحة. لا شكّ أبداً في أن الفرع دائماً يتجزأ من الأصل، وليس العكس. فحين يكون هناك مخزون أو منبع أو أصل ويتجزأ أيّ شي منه، لا بدّ أن يكون هذا الشيء فرعاً. وهنا، تجدر الإشارة إلى أن البحث متعلق بالحيثية فقط ولا نوذّ أن نقدّم أحداً ونعطيه الأفضلية على أحد. وهذه الحيثية خاصة بالعالم المعنوي. ولو كنا نتكلم عن هذا المطلب في عالم الطبيعة، لوجب القول بأنّ الإمام الحسين عليه السلام أرفع مقاماً من رسول الله ﷺ، غير أن هذا المطلب لا علاقة له بهذا العالم، إنما هو مرتبط بعالم خالٍ من مفاهيم العلوّ والدنوّ والأفضل والأقلّ فضلاً والمقدّم والمؤخّر، إذ ترتبط هذه المفاهيم بعالم المادة هذا.

الرحمة فرعٌ من الرحمة الواسعة

لإدراك هذا المطلب، ينبغي غضّ النظر عن عالم المادة والانفتاح على عالم آخر. وبناء عليه، عند إيضاح هذا المطلب ينبغي أن لا تقولوا: إذاً، الإمام الحسين عليه السلام متقدّم على رسول الله ﷺ وهو أفضل منه. فهذا التقدم والأفضلية

(١) «هذه عوالم ستّة لحقيقة النبوة ليست قابلة للإشارة مطلقاً في ثلاثة منها: الأول: عالم ظهور الصفات بنحو الإجمال. الثاني: عالم الصفات باعتبار ثبوتها للذات من غير اعتبار تعلّقها بمتعلّقاتها. الثالث: عالم ثبوتها للذات باعتبار تعلّقها بها، وهذه العوالم الثلاثة عوالم عينها المضافة ليست قابلة للإشارة لا وجوداً ولا عدماً، لا بالإشارة الإلهية ولا الخلقية. والرابع: عالم تنزّلها إلى مرتبة المعلوم، وفيها قابلية للإشارة الوجودية في العالم الإلهي، وبالإشارة الإلهية، وللإشارة العدمية في عالم الخلق. والخامس: عالم وجودها المطلق، وفيه قابلية للإشارة الوجودية في عالم الخلق أيضاً. والسادس: عالم وجودها النوري»، الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، ص ٦٥.

مرتبطان بعالم المادة^(١)، ولا ينبغي تطبيق كلامنا على هذا العالم، بل ينبغي إرجاعه إلى عالم المعنى.

إن رسول الله برسالته ونبي الله بنبوته وخاتم الأنبياء بخاتمته، حيثيات متحققة لهذا الموجود في عالم المادة. وهو فرع من وجود الإمام الحسين عليه السلام. وقد تنزل هذا الفرع إلى عالم النور. أما الإمام الحسين عليه السلام فهو الأصل^(٢)، لأن الله تعالى يقول في القرآن الكريم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٣). إذا بحثنا في هذا الكلام على ضوء أحد الأحاديث التي صدرت عن رسول الله صلى الله عليه وآله، سيتبين لنا سرّ المطلب. ينظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الحسين عليه السلام ويقول: يا حسين، أنت رحمة الله الواسعة^(٤)، أي أنني فرعٌ منك، فأنا رحمةٌ للعالمين^(٥) ولكنك رحمة الله الواسعة. ليس لهذا علاقة بعالم المادة والطبيعة والكتب والأبحاث والكلام،

(١) حيث أنه بعالم المادة والظهور كان النبي محمد صلى الله عليه وآله هو الأفضل.

(٢) من كلام للإمام الصادق عليه السلام: «ثم إني أخبرك أن الدين وأصل الدين هو رجل وذلك الرجل هو اليقين وهو الإيمان وهو إمام أمته وأهل زمانه فمن عرفه عرف الله ودينه ومن أنكره أنكر الله ودينه ومن جهله جهل الله ودينه ولا يُعرف الله ودينه وحدوده وشرائعه بغير ذلك الإمام»، بحار الأنوار، ج ٢٤ ص ٢٩٠.

(٣) سورة الأنبياء، آية ١٠٧.

(٤) ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، (سورة الأعراف، آية ١٥٦). الرحمة ترجع إلى الرحمن، وقد ورد في الرواية «أن الأمة المرحومة يوم القيامة ألف صف، تسعمائة وتسعة وتسعون صفاً منهم يدخلون الجنة بشفاعه الحسين عليه السلام وصف يدخلون الجنة بشفاعه سائر الأئمة عليهم السلام»، أسرار الشهادة، ص ٨٧.

(٥) عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «قال الله تبارك وتعالى: لا يتكل العاملون لي على أعمالهم التي يعملونها لثوابي، فإنهم لو اجتهدوا وأتعبوا أنفسهم أعمارهم في عبادتي كانوا مقصرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي في ما يطلبون عندي من كرامتي والنعيم في جناتي ورفيع الدرجات العلى في جواربي، ولكن برحمتي فليثقوا وفضلي فليرجوا وإلى حسن الظن بي فليطمئنوا فإن رحمتي عند ذلك تدركهم ومني يبلغهم رضواني ومغفرتي تلبسهم عفوي فإني أنا الله الرحمن الرحيم وبذلك تسميت»، الكافي، ج ٢ ص ٧١.

إنما هو متعلق بعالم ما فوق المقام النوري. وعلينا أن نصل إلى ذلك المقام كي ندرك هذا المطلوب.

وهذا يعني أن من أمّن النبوة والرسالة^(١) في الأنبياء والرسل وأمن الخاتمية في محمد بن عبد الله ﷺ هو الذات المقدسة للإمام الحسين ﷺ قبل مقامها النوري.

روح واحدة في جسدين

يقول رسول الله ﷺ: «أنا من حسين»^(٢) قبل المقام النوري. وتنبئ هذه الـ«أنا» عن كلام رفيع جداً. لم يقل ﷺ: محمد من حسين، بل قال: «أنا من

(١) سئل الإمام الكاظم ﷺ عن هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾، فقال: «هو الذي أمر رسوله بالولاية لوصيه والولاية هي دين الحق، قلت: ﴿يُظهِرُهُ عَلَى الَّذِينَ كُفِّرُوا﴾؟ قال: يُظهِرُهُ عَلَى جَمِيعِ الْأَدْيَانِ عِنْدَ قِيَامِ الْقَائِمِ، قال: يقول الله: ﴿وَاللَّهُ مُتِمِّمُ تَوْرِهِ﴾ ولاية القائم، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ بولاية عليّ، قلت: هذا تنزيل؟ قال: نعم، أما هذا الحرف فتنزّل وأما غيره فتأويل»، الكافي، ج ١ ص ٤٣٢ ح ٩١.

(٢) ورد في زيارة عاشوراء: «السلام عليك يا أبا عبد الله وعلى الأرواح التي حلت بفنائك»، فما هي هذه الأرواح وهل المقصود بها أرواح الشهداء الذين استشهدوا مع الإمام الحسين ﷺ فقط؟ لا يوجد في الزيارة ما يدل على هذا القيد، ما يعني أن الإطلاق يحكم هذه العبارة. وبحسب مطالعتنا للآيات القرآنية والروايات الصادرة عن أهل بيت النبوة ﷺ، نجد أن الأرواح أصناف ومراتب؛ فهناك أرواح أهل البيت ﷺ والأرواح المجردة والأرواح الشريرة والروح القدس والروح الأمين وروح المؤمن وروح الميّت والشهيد وغير ذلك مما ينطبق عليه تسمية الأرواح. وهذه الأرواح، باستثناء الشريرة منها، حلت بفناء الحسين ﷺ. ولكن ما معنى فناء؟ وهل هي بكسر الفاء أو بفتحها؟ يعني الفناء لغة السّاحة والحضرة، وعليه، تعني العبارة الواردة في الزيارة أن تلك الأرواح حلت بساحة سيّد الشهداء وحضرته، أي أنها اجتمعت واستقرت عنده. أما الفناء بالفتحة، فيعني الذوبان وانتفاء الوجود في الله عز وجلّ، وبالتالي فقد فُنيّت هذه الأرواح في فناء الحسين ﷺ الذي فُني في الله تعالى، وكما يقال: العاشق يعيش المعشوق والمعشوق يعيش الله فالعاشق يعيش الله. وثمة معنى ثالث لهذه العبارة وهو أن هذه الأرواح حلت وذابت في فناء الحسين ﷺ حيث فُني، أي حلت وفُنيّت في الله تعالى، وهو ما لم يحصل إلا لبعض الأرواح فحسب. وكل المعاني تصبّ في النقطة =

حسين». وبالتالي، فقد ذكر سيّد الشهداء بالاسم والتنزّل ولكنه تكلم عن نفسه بالإنية الوجودية. لم يقل: محمّد أو رسول الله أو نبيّ الله أو صاحب الكتاب أو ذلك الذي جاء لهداية العالم، من حسين. لم يأت على ذكر أيّ من هذه المناصب، بل قال: «أنا»، أي إن وجودي الأوليّ الصانع لإنيتي قد صدر عن الحسين (عليه السلام). لا وجود هنا لما هو فوق وما هو تحت وما هو أوّل وما هو ثانٍ، بل إن هذه حقيقة. والآن، بات يمكن فهم الجزء الأول منها، بحيث لا يطرأ على الذهن أيّ اعتراض. قال (عليه السلام): «حسين مني». مرة جديدة، وضمن تلك الحقيقة، تجزأ وجود هذه الرحمة الواسعة من إنية رسول الله (صلى الله عليه وآله). إذًا، فكلّا الإثنين روح واحدة في جسدين.

مقام عليّ الأكبر (عليه السلام)

كيف لا يكون رسول الله حسيناً وحسين رسول الله في عالم الوحدة المطلقة الصرفة، على الرغم من أن الحسين (عليه السلام) نفسه قال في يوم عاشوراء: إن ولدي عليّ الأكبر هو رسول الله (١)؟ أي أن ولدي عليّ الذي نزل إلى الميدان هو

=ذاتها وهي أن الحسين (عليه السلام) هو غاية تلك الأرواح وأن رجوعها إليه وحلولها عنده. وهنا ثمة ما ينبغي ذكره وهو أنه في عالم الأبدان، يرجع الكلّ للنبيّ الأعظم (صلى الله عليه وآله). أما في عالم الأنفس، فيرجعون لأمر المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، الذي هو النفس الواحدة، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (سورة الأعراف، آية ١٨٩)، ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (سورة لقمان، آية ٢٨)، ﴿وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ (سورة آل عمران، آية ٦١)، و«أنفسكم في النفوس»، (الزيارة الجامعة الكبيرة). وفي عالم الأرواح، يرجع الكلّ إلى الإمام الحسين (عليه السلام). أما في عالم الأنوار، فالرجوع يكون إلى الصديقة الكبرى فاطمة (عليها السلام).

(١) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: «إن الله تعالى شراباً لأوليائه، إذا شربوا سكرُوا... وإذا وصلوا اتّصلوا، وإذا اتّصلوا لا فرق بينهم وبين حبيهم»، (التحفة السنية، ص ٨٦). كما قال أمير المؤمنين لولده الحسن (عليه السلام): «وجدتك بعضي بل وجدتك كليّ، حتّى كأنّ شيئاً لو أصابك أصابني، وحتّى كأنّ الموت لو أتاك أتاني، فعناني من أمرك ما يعينني عن أمر نفسي...»، كشف المحجّة، ص ١٥٧.

نفس رسول الله ﷺ. وقد قال ﷺ: «اللهم اشهد»، أي يا إلهي، أنت اشهد، فأنت الذي تفهم لغة قلبي، وإن أحداً حتى انتهاء العالم لن يفهم ما أقوله. يا إلهي، أنت اشهد، فأنت الذي تعلم قلبي، «اللهم اشهد فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خلقاً وخلقاً ومنطقاً برسولك».

ليس ولدي من نزل إلى الميدان، بل هو رسول الله نفسه الذي تجلى في عالم الوجود^(١). غير أن الناس لن يفهموا كلامي هذا أبداً ولن يعرفوا ماذا أقول. إنه عين رسول الله ﷺ. «وكنّا إذا اشتقنا إلى نبيّك، نظرنا إليه»، أي أن كل ما كنّا نريد رؤيته في رسول الله ﷺ، كنّا نجده في عليّ الأكبر ﷺ. فكيف يكون ولده رسول الله، ولا يكون هو نفسه تلك الحقيقة؟

الله عز وجل هو دية الحسين ﷺ

وهناك ما هو أرفع من ذلك، إذ نقول في زيارته ﷺ: يا «ثار الله»^(٢). إنه «ثار الله» بيد أننا ما زلنا عالقين في مسألة كونه رسول الله. إنه «ثار الله»، وكل الوجود والخلق من أولها حتى آخرها، في عالم المعنى، هي «ثار الله».

قال الله تعالى: «يا حسين، أنا ديتك». ما الذي يمكن أن يقدمه الله تعالى مقابل الحسين ﷺ^(٣)؟ الجنة؟ تعود الجنة إلى غلامه الأسود الذي يتولى تقسيمها بنفسه، لا بل تعود إلى ذلك الذي تمكّن من أن يضع جبهته، بنية السجود، على أثر تراب نعل قدم شخص عبّر على تلك الأرض، فذاك هو صاحب الجنة وقسيمها. يُعقل أن يقدم الله تعالى الجنة للحسين ﷺ؟ ألهذا

(١) وهناك فرق كبير بين التجلي والتجسيد، كما هو معلوم عند أهل المعرفة.

(٢) «السَّلامُ عَلَيْكَ يَا ثَارَ اللَّهِ وَابْنَ ثَارِهِ وَالْوَثَرَ الْمُؤْتَرَّ»، زيارة وارث، مفاتيح الجنان.

(٣) «إن الإمام الحسين ﷺ قدّم إلى الله كل ما يملكه من عيال ونساء وأنفس ومُهَج، فهل للإنسان أن يتخيّل الكرم الذي يمكن أن يقابل به الحسين ﷺ من قبل الإله المطلق؟ لقد أعطى سيّد الشهداء ﷺ كلّ الله، فأعطى الله كلّ لسيّد الشهداء وهو أكرم الأكرمين»، كربلاء الشهود، ص ٣٢٩.

القدر مقام الحسين قليل؟ نحن نتحدث هنا عن حسيننا، لا عن حسين الله وحسين رسوله وحسين فاطمة عليها السلام، الذي لا يعرفه أحد سواهم ^(١).

هل حسيننا صغير القدر إلى درجة أن تُقدّم الجنة له في المقابل ^(٢)؟ هل حسيننا صغير القدر إلى درجة أن يُمنح رخصة الشفاعة للعاصيين؟ إن جامع الأحذية ^(٣) المتواجد عند عتبته يشفع ^(٤) لكل العاصيين في العالم. وهل حسيننا صغير القدر إلى درجة أن يغفر الذنوب؟ إن جامع الأحذية عند عتبته يغفر

(١) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «إن معرفتهم صلوات الله عليهم لا تكون إلّا بسعة وجود الفرد وظرفيته، وإلّا فإنّ مقامهم ووجودهم ليس في متناول الأيدي ولا الأوهام، فبمقدار ظرف وجود الفرد يتمّ الارتباط بهم ومعرفتهم، فإنّه لا دين إلا بمعرفة، فإنّ الارتباط إنّما يتمّ بمقدار المعرفة والمحبة لهذه الموجودات التامة»، انتهى. «وإذا قدر العقل أن يدرك أثراً من آثار وجودك، فلن يستطيع أن يسلك الطريق إلى إدراك كنهك»، منطق الطير، ص ٩٨.

(٢) قال رسول الله ﷺ لعنه العباس: «يا عم لما أراد الله تعالى أن يخلقنا تكلم بكلمة خلق منها نوراً ثم تكلم بكلمة فخلق منها روحاً فمزج النور بالروح فخلقني وأخي علياً وفاطمة والحسن والحسين فكانا نسيجه حين لا تسبيح ونقدسه حين لا تقديس... ثم فتق نور ولدي الحسين فخلق منه الجنة والحدور العين فنور الجنة والحدور العين من نور ولدي الحسين ونور ولدي الحسين من نور الله ولدي الحسين أفضل من الجنة والحدور العين...»، مدينة المعاجز، ج ٣ ص ٤١٩؛ تأويل الآيات، ج ١ ص ١٣٧.

(٣) إنّ كل من يؤذي خادماً من خدام الحسين عليه السلام ليسقطه ويهدم مروءته أمام الناس لأسباب نفسانية، يتوحد مع النواصب في تلك الأثناء، فيصبح هؤلاء أولياءه، «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ»، (سورة البقرة، آية ٢٥٧)، ويقع تحت سلطتهم. فبعض الناس، وبسبب قلة فهمهم وعظم جهلهم، لا يعلمون أنهم حين يؤذون خدام الحسين عليه السلام يقعون في أحضان النواصب (الدواعش في زماننا) وما كل هذا إلا حصائد ألسنتهم. وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَنْ رَوَى عَلَى مُؤْمِنٍ رَوَايَةَ يَرِيدُ بِهَا شَيْنَهُ وَهَدَمَ مَرُوءَتَهُ لِيَسْقُطَ مِنْ أَعْيُنِ النَّاسِ أَخْرَجَهُ اللَّهُ مِنْ وَلايَتِهِ إِلَى وَلايَةِ الشَّيْطَانِ فَلَا يَقْبَلُهُ الشَّيْطَانُ»، الوسائل، ج ٨ ص ٦٠٨.

(٤) «يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا»، سورة طه، آية ١٠٩.

الذنوب^(١). ستُعلم كل هذه المطالب في يوم القيامة، إذ لا علاقة لها بهذا العالم.

الحسين عليه السلام... تنزله بالاسم وذاته التي لم تُعرف

إن الحسين عليه السلام هو «رحمة الله الواسعة»^(٢) وجدّه «رحمةً للعالمين»، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٣). وفي هذه الحثية، فإن الإمام الحسين عليه السلام هو الأصل ورسول الله صلى الله عليه وآله هو الفرع. «حسين مني وأنا من حسين»، وقد ورد في الجملتين اسم «الحسين». فلو قال صلى الله عليه وآله في الجملة الثانية: «وأنا منه»، لاستطعنا أن نتنزل بمقدار. ولكنه قال: «أنا من حسين»، أي أن اسم الحسين عليه السلام هو الذي يصنع رسول الله صلى الله عليه وآله. ومن اسم الحسين صدرت الإنيَّة الوجودية لرسول الله صلى الله عليه وآله. ولكن ماذا عن ذات الحسين عليه السلام؟ ذاته تعود إليه، ونحن لا نعرف عنها شيئاً، بل إن أحداً لم يصل إلى اسمه بعد، فهل عرف آدم ما هو اسمه؟

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تستخفوا بفقراء شيعة عليّ، فإن الرجل منهم ليشفع بعدد ربيعة ومضر»، بحار الأنوار، ج ٨ ص ٥٩.

(٢) «أول ما ظهر من مظاهر الإسم الأعظم مقام الرحمانية والرحيمية الذاتيتين، وهما من الأسماء الجمالية الشاملة على كل الأسماء، ولهذا سبقت رحمته غضبه»، (مصباح الهداية، ص ٢٦). يتعيّن اسم الرحمن بالإمام الحسن عليه السلام بينما يتعيّن اسم الرحيم بالحسين عليه السلام، وهذا بالظهور العام. ولكن ثمة ظهور خاص حصل في كربلاء، حيث أصبح مقاماً الرحمانية والرحيمية واحداً وتجلياً معاً في الإمام الحسين عليه السلام، وليس هذان المقامان فحسب، بل إن كل مقامات أصحاب الكساء عليه السلام ظهرت في الحسين بكربلاء، فصار هو محمداً وعليّاً وفاطمة والحسن عليه السلام، واجتمعت فيه كل الخصال من حيث الظهور، فظهرت فيه وبه جميع الأسماء والصفات الإلهية على أرض كربلاء، وبالنتيجة ظهر فيه اسم الله الأعظم، فصار ناقل الوحي، ولكن ليس بالتنزل والواسطة والحجاب كما كان جبرائيل وليس حتى عبر الأسماء والصفات، بل صار ناقل الوحي من الذات مباشرة؛ من ذات الله إلى ذاته، وهنا يمكن فهم العبارة الواردة في دعاء الصباح: «يا من دلّ على ذاته بذاته». فما حصل للنبي صلى الله عليه وآله وحياً وتنزيلاً، حصل للحسين عليه السلام إلهاماً وتأويلاً، فعلاً وصفةً وذاتاً.

(٣) سورة الأنبياء، آية ١٠٧.

بالحسين تكون التوبة

أتعلمون ما الذي يفعله اسمه؟ لقد استطاع اسم الحسين عليه السلام أن يرفع أحد الأنبياء واسمه آدم أبو البشر من حضيض عالم الطبيعة ويرفعه إلى كمال التوبة. ولا زلنا نتكلم عن الاسم فحسب.

عندما قال آدم على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام: «يا قديم الإحسان بحق الحسين»، جرت دموعه وأزيلت عنه كل العتمة والظلمة، حتى أن الوثيقة التي كُتِبَ عليها بقلم القدرة ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾^(١)، مُزِّتٌ وأُحرقت وأُرجع آدم مرة ثانية إلى مكانه الأوّل. ولكن آدم شعر بالفخر وقال: يا إلهي، إني ممتنّ لك، فقد لطفت بي، إذ لو لم يصدر عني ذلك الفعل، ما كنت لأتعرّف على الحسين عليه السلام، فالأمر كان يستحق ذلك. «سهل است تلخي مي در جنب ذوق مستی».

من اگرا لوده دامنم چه عجب همه عالم گواه عصمت اوست
من ودل گرفتار شديم چه باک غرض اندر میان سلامت اوست

كان الأمر يستحق أن يقع النبي آدم عليه السلام في ما وقع فيه، حتى يطهر بيد الرحمة. لقد قام أبونا آدم بعملية المبادلة تلك وفيها أهدر استقامته وتشوّه اسمه وظلّ خجلاً أمام الملائكة مدة ثلاثمئة سنة ولم يقبل الله توبته مهما داوم على دعائه منادياً: «يا أرحم الراحمين» و«يا غفار الذنوب»، إلى أن نادى «يا حسين» واستطاع الرجوع بهذا النداء^(٢). فكان الأمر يستحق كل ذلك.

من اگرا لوده دامنم چه عجب همه عالم گواه عصمت اوست
من ودل گرفتار شديم چه باک غرض اندر میان سلامت اوست

(١) سورة طه، آية ١٢١.

(٢) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «لَوْ وجدت أيّ نبي إستجاب الله له دعاءه، فلأنّه صار مرتبطاً بهم صلوات الله عليهم. موسى كليم الله إنّما صار كليم الله ونال هذه الموهبة لأنّه صار مرتبطاً مع هؤلاء الكمّل، وإبراهيم عليه السلام لم يحترق بالنار لأنّه صار مرتبطاً بهم».

سينه گنجينه محبت اوست ديدنه آيينه دار طلعت اوست
من كه سردر نياورم به دو كون گردنم زير با منت اوست

لَمْ تَجَوَّلِ الْحُسَيْنَ   فِي كَرْبَلَاءَ لَيْلَةَ عَاشُورَاءَ؟

في ليلة عاشوراء، وبعد أداء الصلاة، كان الإمام الحسين   يمضي وقتاً طويلاً في التجوّل وحيداً في كربلاء. وأثناء تجوّله، كان   يداوم على عمل معيّن؛ كلّما وقعت عيناه على شجيرة من الشوك، كان يقوم باقتلاعها، حتى قال له الأصحاب وأهل البيت: مولانا حسين، لدينا حطب بما يكفي، فلمَ تقوم بقطع هذه الأحطاب؟ إلا أنه لم يكن يجيبهم. وحين كان يقوم بقلع الأشواك، كان يرميها في مكان بعيد عن الخيام. حينذاك، لم يكن السرّ وراء قيام الحسين  ، بقطع الحطب وجمع الأشواك، معلوماً.

في الليلة الحادية عشرة، كُشف السرّ. فقد كان   يجمع الأشواك حتى لا تنغرز بكثرة في أقدام الأطفال حين يلوذون بالفرار، فيخفّف بذلك من الأذى الذي سيلحق بهم ^(١).

وفي ليلة عاشوراء، كان الإمام الحسين   أينما ذهب، يعود إلى بقعة خافية عن أنظار الباقين. فيمكث هناك مدة من الزمن ثم يمضي في تجواله، ويرجع إليها من جديد.

وقد شهدت تلك البقعة المنخفضة، واقعة جسيمة، إذ كانت هي البقعة التي وقع فيها المصراع. كما شهدت كل البقاع التي مرّ بها الحسين   وقائع في يوم عاشوراء، فكان مروره بها علامة على ذلك.

وفي تلك الليلة، شوهد الإمام   يتعد عن الخيام أكثر ويجلس في مكان هناك، فيأخذ كفاً من التراب ويشتمّه، ثم يضع وجهه عليه.

وأثناء مكوث الحسين   في تلك البقعة، هَرَوَلَتْ زينب   نحوه، إذ كان

(١) في تأويل هذا الأمر، نرى أنّ الإمام الحسين   قد أزال الكرب والبلاء عن كلّ من يدخل إلى كربلاء، فالأطفال هنا هم الشيعة الذين يزورونه.

فراقها^(١) له يترك أثراً بالغاً في نفسها^(٢). أسرعت نحوه وقالت: حبيبي يا حسين، أيّ تراب هذا الذي تشتمّه وتضع وجهك عليه؟ فقال عليه السلام: هنا المكان الذي يسقط فيه العباس عليه السلام، يا زينب، وهنا موضع قبره^(٣).

الشوق للوصال

كان حبيب بن مظاهر كبير الأصحاب. وكان صحابياً جليلاً ورجلاً عجوزاً يحترق من رأسه إلى أخمص قدميه بعشق الإمام الحسين عليه السلام^(٤). وليس الحال أنه احترق بعشق الحسين عليه السلام حين أتى إلى كربلاء، بل كان كذلك منذ وقت سابق. وكان احتراقه بعشق سيّد الشهداء عليه السلام شديداً إلى درجة أنه فقد قواه. وكما أعطى الحسين عليه السلام القوة لفطرس، أعطى حبيباً القوة كذلك^(٥). ولكن

(١) «وقد انحصر هواي في وصاله وانحصر هواه في فراقه، فتركْتُ رغبتني حتى تتحقق رغبتة»، حافظ الشيرازي.

(٢) وأحاديث يوم القيامة وأهوالها التي حدّثنا بها واعظ القرية ما هي إلا كناية عن أيام الهجر والفراق.

(٣) لقد كشف لها عن كربلاء بحاضرها ومستقبلها.

(٤) يقول بايزيد البسطامي: «كمال العارف احتراقه بعشق الله»، (خمسة من العرفاء، ص ٦٤). وقد احترق قلبي بنار العشق وانقضت حياتي وأنا أبحث عن ذاك الكأس، فأين الساقى الذي له أنفاس عيسى حتى يُحيينا بأنفاسه؟

(٥) يقال: «كان الحسين عليه السلام طفلاً صغيراً وحبيب بن مظاهر شاباً في العشرين، وكان يعشق الحسين عليه السلام عشقاً جنونياً حتى أنه كان يتبع أثره أينما ذهب. لاحظ والده تلك الحالة على ولده حبيب فسأله عن سبب ذلك؟ أجابه حبيب: أبي إني أحب الحسين عليه السلام بجنون وأنجذب إليه بمجرد النظر إليه تنتابني حالة من الذوبان فيه! سأله أبوه: وماذا تتمنى يا حبيب؟ قال حبيب: أتمنى لو يزورنا الحسين في بيتنا! فوعده والده أن يكلم الإمام علي عليه السلام ويدعوهم إلى بيته. فوافق الإمام علي عليه السلام أن يحضر إلى الوليمة التي أعدّها مظاهر والد حبيب. ولقد طلب مظاهر من الإمام أن يحضر الحسين معه وأخبره بمدى حبّ حبيب للحسين عليه السلام. وفي يوم الوليمة كان حبيب مرتبكاً ومشتاقاً وفرحاً بقدمهم إليهم وكان يصعد السطح وينزل ليراقب وصولهم وعندما لاح له نورهم ارتبك حبيب وتعثر فسقط من أعلى السطح ومات. وعندما رأى مظاهر ابنه هكذا، خجل من الإمام علي عليه السلام فأخذ الجثة وخبأها حتى ينتهي من ضيافة الإمام وأولاده عليهم السلام، ثم يقوم بدفن =

فطرس جاء للتوبة من معصيته أما حبيب بن مظاهر فأعطاه ﷺ قدرة^(١) جديدة على العشق. وكل من كان يرى حبيباً في كربلاء، كان يتيقن بأنه أكثر حيوية من كل الشباب الذين كانوا هناك.

لقد كُتبت أمور عجيبة وغريبة عن أصحاب الحسين ﷺ ليلة عاشوراء^(٢). فقد

=ابنه، وعندما دخل الإمام عليّ ﷺ لم يخبره مظاهر ب وفاة ابنه تأدباً مع الضيف. لكن الإمام سأله عنه وقال له: إن حبيب مشتاق للحسين وها هو الحسين في بيته أين هو؟ فأخذ مظاهر بالاعتذار بأن حبيب مشغول ببعض الشيء. كرّر الإمام السؤال، وفي كل مرة، يبحث مظاهر عن عذر. لكن الإمام ألح عليه بأن ينادي حبيباً. فاعترف مظاهر بما حدث لولده، فطلب الإمام عليّ ﷺ رؤيته جثته وعندما نظر إليه سالت دموعه ونظر للحسين وقال له: ابني حسين، إن هذا الشاب يحبك وقد مات شوقاً إليك فماذا تصنع له؟ ودمعت عين الحسين ورفع طرفه إلى السماء وطلب من الله أن يحيى، كرامة للحسين ولحبّ الحسين استجاب الله للحسين في الحال وعاد حبيب للحياة. وقال الإمام عليّ ﷺ: لحبك للحسين يا حبيب ستكون مُسجّل زوار ولدي الحسين ﷺ، فلا يزوره إلا من سجلت اسمه يا حبيب.

(١) «من كان في الضعف أكثر عجزاً من النملة، فإن العشق سيمدّه في كل لحظة بقوة هائلة»، منطق الطير، ص ٩٦.

(٢) في رواية عن المفضل بن عمر قال: «قال أبو عبد الله ﷺ لما مُنع الحسين ﷺ وأصحابه الماء، نادى فيهم من كان ظمآن فليجيئ فأناه رجل رجل فيجعل إبهامه في راحة واحداهم فلم يزل يشرب الرجل حتى ارتووا فقال بعضهم والله لقد شربت شراباً ما شربه أحد من العالمين في دار الدنيا. فلما قاتلوا الحسين ﷺ فكان في اليوم الثالث عند المغرب أعقد الحسين رجلاً رجلاً منهم يسميهم بأسماء آبائهم فيجيبه الرجل بعد الرجل فيقعد من حوله ثم يدعو بالمائدة فيطعمهم ويأكل معهم من طعام الجنة ويسقيهم من شرابها. ثم قال أبو عبد الله ﷺ: والله لقد رأيهم عدة من الكوفيين ولقد كرّر عليهم لو عقلوا، قال: ثم خرجوا لرسلمهم فعاد كل واحد منهم إلى بلادهم ثم أتى لجبال رضوي فلا يبقى أحد من المؤمنين إلا أتاه وهو على سرير من نور قد حفت به ابراهيم وموسى وعيسى وجميع الأنبياء ومن ورائهم المؤمنون ومن ورائهم الملائكة ينظرون ما يقول الحسين ﷺ. قال: فهم بهذه الحال إلى أن يقوم القائم وإذا قام القائم ﷺ وافوا فيها بينهم الحسين ﷺ حتى يأتي كربلاء فلا يبقى أحد سماوي ولا أرضي من المؤمنين إلا حقّوا بالحسين ﷺ حتى أن الله تعالى يزور الحسين ﷺ ويصافحه ويقعد معه على=

نصبوا خيمةً وكانوا يذهبون إليها الواحد تلو الآخر للاهتمام بنظافتهم الشخصية من أجل الغد. في هذه الأثناء، كان حبيب بن مظاهر يقف خارج الخيمة يمازح من حوله. فقال له أحد رفاقه: ما بالك أيها العجوز، لم يسمعك أحدٌ من قبل تتكلم هكذا، فما الذي حصل وجعلك تمازحنا الليلة؟ فقال حبيب: إنني أرى ما لا ترونه مما سيحصل يوم غد، وهذا ما يجعلني أتصرف هكذا.

ضيوف سفرة الوصال

كان حبيب قائد الأصحاب، أما أبو الفضل عليه السلام فكان قائد أهل البيت عليهم السلام. وقد وقف الإثنان على طرفي الميدان، واحد على اليمين وآخر على الميسرة. فكان أبو الفضل عليه السلام يوجه التعليمات اللازمة لكل واحدٍ من شبّان بني هاشم، ويكلّمهم قائلاً: إسمعوا يا إخواني وأبناء عمومتي، إن حبيب بن مظاهر وبقيّة الأصحاب قصدوا بابنا. فليس من الرجولة والشهامة والشجاعة، التي يتصف بها أهل بيتنا، أن نقف جانباً وندعهم ينزلون إلى الميدان ويقتلون قبلنا. لذا، سننزل

=سرير. يا مفضل هذه والله الرفعة التي ليس فوقها شيء لا لورائها مطلب»، (مدينة المعاجز، ج ٣ ص ٤٦٤؛ صحيفة الأبرار، ج ٢ ص ١٩٩ - ٢٠٠). وهذا من قبيل التجلّي الذاتي، كما في الحديث القدسي: «وما تقرب إليّ عبْدٌ بشيء أحبّ إليّ مما افترضْتُ عليه، وإنه ليتقرب إليّ بالنافلة حتى أحبه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها»، (الكافي، ج ٢ ص ٣٥٢)، والآيتين: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (سورة الأنفال، آية ١٧)، و﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ (سورة الأحزاب، آية ٥٦). وفي رواية أخرى عن صفوان الجمال قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام لَمَّا أتى الحيرة: هل لك في قبر الحسين؟ قلت: وتزوره جُعِلَتْ فِدَاكَ؟ قال: وكيف لا أزوره والله يزوره في كل ليلة جُمعة يهبط مع الملائكة إليه والأنبياء والأوصياء ومحمد أفضل الأنبياء، ونحن أفضل الأوصياء، فقال صفوان: جُعِلَتْ فِدَاكَ فنزوره في كل جمعة حتّى ندرك زيارة الرّب؟ قال: نَعَمْ يا صفوان، ألزم ذلك تكتب لك زيارة قبر الحسين عليه السلام، وذلك تفضيل وذلك تفضيل»، (كامل الزيارات، ص ١٢١ - ١٢٢)، وتعبير الرّب هنا من قبيل التجلّي الصفاتي.

نحن أولاً، وعندما نُقتل سيعلمون ما عليهم فعله، فلا تسمحوا لأحدٍ منهم بأن يأتي ويُقتل فداءً لنا.

وعلى المقلب الآخر، جمع حبيبُ الأصحاب ونظم صفوفهم وأوكل إلى كل واحدٍ منهم مهمّته. وقال لهم: يا أصحابي، يا من قدِمتم إلى كربلاء، إعلموا أننا أتينا حتى نفدي أولاد الحسين عليه السلام بأنفسنا. وما دام في أحدنا عرق ينبض، ينبغي أن لا ندع أياً من أهل البيت عليهم السلام ينزل إلى الميدان ويتعرض للقتل. فحين نُقتل، سيعلم بذلك الإمام الحسين عليه السلام وأولاده وإخوانه وأقرباؤه ^(١).

(١) «روي عن فخر المخدّرات زينب عليها السلام قالت: لما كانت ليلة عاشوراء من المحرم خرجتُ من خيمتي لأتفقّد أخي الحسين عليه السلام وأنصاره، وقد أفرد له خيمة فوجده جالساً وحده يُناجي ربّه ويتلو القرآن، فقلت في نفسي: أفي مثل هذه الليلة يُترك أخي وحده، والله لأمضيّن إلى إختوتي وبني عمومي وأعاتبهم بذلك، فأتيّت إلى خيمة العباس فسمعتُ منها همهمة ودمدمة، فوقفت على ظهرها فنظرت فيها فوجدت بني عمومي وإختوتي وأولاد إختوتي مجتمعين كالحلقة وبينهم العباس بن أمير المؤمنين عليه السلام وهو جاثٍ على رُكبتيه كالأسد على فريسته. فخطب فيهم خطبة ما سمعتها إلاّ من الحسين عليه السلام مشتملة بالحمد والثناء لله والصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وآله. ثم قال في آخر خطبته: يا إختوتي وبني إختوتي وبني عمومي إذا كان الصباح فما تقولون؟ فقالوا: الأمر إليك يرجع ونحن لا نتعدى لك قولك. فقال العباس عليه السلام: إن هؤلاء، أعني الأصحاب، قوم غرباء والحمل الثقيل لا يقوم إلاّ بأهله، فإذا كان الصباح فأول من يبرز إلى القتال أنتم، نحن نقدمهم للموت، لئلا يقول الناس قدّموا أصحابهم فلما قتلوا عالجوا الموت بأسيا فهم ساعة بعد ساعة، فقامت بنو هاشم وسلّوا سيوفهم في وجه أخي العباس، وقالوا: نحن على ما أنت عليه! قالت زينب عليها السلام: فلما رأيتُ كثرة اجتماعهم وشدة عزمهم وإظهار شيمتهم، سكّن قلبي وفرحتُ ولكن خنقتني العبرة. فأردت أن أرجع إلى أخي الحسين عليه السلام وأخبره بذلك فسمعت من خيمة حبيب بن مظاهر همهمة ودمدمة، فمضيّت إليها ووقفت بظهرها ونظرتُ فيها فوجدتُ الأصحاب على نحو بني هاشم مجتمعين كالحلقة وبينهم حبيب بن مظاهر وهو يقول: يا أصحابي، لم جئتم إلى هذا المكان، أوضحوا كلامكم رحمكم الله فقالوا: أتينا لننصر غريب فاطمة عليها السلام! فقال لهم: لم طلقتم حلائلكم؟ فقالوا: لذلك! قال حبيب: فإذا كان في الصباح فما أنتم قائلون؟ فقالوا: الرأي رأيك ولا نتعدى قولاً لك. قال: فإذا صار الصباح فأول من يبرز إلى القتال أنتم، نحن نقدمهم للقتال ولا نرى هاشمياً مضرجاً بدمه وفينا عرق يضرب، لئلا يقول الناس: قدّموا ساداتهم للقتال=

لذلك، عندما حان وقت النزول إلى الميدان، جاء أبو الفضل العباس عليه السلام ليتحدث مع حبيب. فوقع حبيب على قدمي أبي الفضل عليه السلام يقبلهما ويقول: سيدي، أنت المسؤول عن الإخوان وأبناء الإخوان وأبناء العموم، ولي عندك رجاء. لقد تحدثت مع الأصحاب والأنصار، وما دام فينا أحد حيٍّ، لن نتمكن من أن نقف ونتفرّج مكتوفي الأيدي. علينا أن ننزل نحن أولاً ونبذل أرواحنا، ثم تنزلون أنتم بعد ذلك. لم يستطع حبيب إقناع أبي الفضل ولا استطاع أبو الفضل إقناع حبيب. فقرّرا الاحتكام للإمام الحسين عليه السلام والالتزام بما يحكم به. جاء كلاهما عند الحسين عليه السلام وعرضا عليه المسألة. فتوجّه سيّد الشهداء إلى العباس عليه السلام قائلاً له: حبيبي عباس، إنهم ضيوف على سفرتنا، سفرة العشق والمحبة، سفرة الوصال والوصول إلى الله. فمتى رأيت أننا نقدّم أنفسنا على الآخرين ^(١) حين يتعلق الأمر بالوصول إلى تلك المقاصد النهائية في عالم الوجود؟ دعهم يذهبون ويلتقون بمعشوقهم. وبعد ذلك، نلحق بهم. ولذلك، وصل الأصحاب أولاً إلى مرتبة الشهادة، ثم أتى الدور إلى أهل البيت عليهم السلام بعدهم.

وصية الزهراء عليها السلام

استشهد الأصحاب جميعهم وكذلك بنو هاشم. حتى أن الإمام الحسين عليه السلام أحضر آخر ذخيرة في عالم الوجود، وذلك الذي يتعلّق كل العالم بقمّاطه لنيل الشفاعة، إلى الميدان وأوصله إلى الشهادة. فوصل الدور إلى الإمام

=وبخلوا عليهم بأنفسهم. فهزّوا سيوفهم (في) وجهه، وقالوا: نحن على ما أنت عليه»، معالي السبطين، ج ١ ص ٣٤٠ - ٣٤٢.

(١) ورد أنه جرى بين الحسن والحسين عليهما السلام كلام، فقيل للحسين: «أدخل على أخيك فهو أكبر منك فقال عليه السلام: إني سمعت جدي عليه السلام يقول: أيما اثنين جرى بينهما كلام فطلب أحدهما رضى الآخر كان سابقه إلى الجنة وأنا أكره أن أسبق أخي الأكبر، فبلغ قوله الحسن عليه السلام فأتاه عاجلاً»، (كشف الغمة، ص ١٨٤). فمن تنفّي الإنيّة والأنانية عنده، يقدّم غيره ليسبقه إلى الوصال والاتصال.

الحسين عليه السلام نفسه. نزل عليه السلام ثلاث مرات إلى الميدان وعاد. وقد حملت كل مرة، نزل فيها ورجع، شيئاً ما. ويظهر أنه في كل من تلك المرات الثلاث، كان الحسين عليه السلام يرجع من أجل زينب عليها السلام.

في المرة الأولى التي ذهب فيها الإمام الحسين عليه السلام إلى الميدان، أرجعته السيدة زينب عليها السلام. كان الحسين عليه السلام مصمماً على الذهاب وإنهاء المسألة. إلا أنه سمع أنيناً جذبه: «مهلاً، مهلاً يا ابن الزهراء». كانت السيدة زينب عليها السلام تعلم بأنها إذا ما نادته بأية عبارة أخرى، لن تستطيع إرجاعه، حتى لو أقسمت عليه بروحها. ولذلك، ذكرت اسم أمها وقالت: «مهلاً، مهلاً يا ابن الزهراء». فتوقف الإمام الحسين عليه السلام والتفت إليها وقال: حبيبتي زينب، لماذا توقفيني وتمنعيني من الذهاب؟ «آيا زينبي يا كه آه دردمندان در شبی؟» أي «أأنتِ زينبُ، أم آه المتألمين في ليلهم؟».

دید مشکین موی از جنس زنان بر فلک دستی و دستی در عنان
زن مگو مرد آفرین روزگار زن مگو بنت الجلال آخت الوقار
زن مگو دست خدا در آستین زن مگو خاک درش نقش جبین

ماذا تريدین يا أختاه؟ إني مشتاق للقاء محبوبي والوصال معه. قالت: حبيبي يا حسين، أريد تنفيذ وصية أمي. فسألها عليها السلام: عن أي وصية تتحدثين؟ أجابت: قالت لي أمي الزهراء عليها السلام: عندما يعزم أخوك الحسين عليه السلام على النزول إلى الميدان، قبله في نحره نيابة عني^(١)! عيّنت زينب موضع خنجر الشمر وقبلته.

(١) قال الراوي: وأقبلت إليه أخته الحوراء زينب فقالت له: «أخي، إكشف لي عن صدرك وعن نحرِكَ. فكشف لها الحسين عليه السلام عن صدره وعن نحره؛ شمتته في نحره وقبلته في صدره ثم حوّلت وجهها نحو المدينة وصاحت: يا أمّاه قد استرجعت الأمانة. فتعجّب الحسين عليه السلام من كلامها فقال لها: أحيّة وما الأمانة؟ قالت: أعلم يا ابن والدي لما دنت الوفاة من أمّنا فاطمة، قرّبتني إليها وشمّنتني في نحرِي وقبلّتني في صدري وقالت لي: بنية زينب هذه وديعة لي عندك فإذا رأيت أخاك الحسين وحيداً فريداً، شمّيه في نحره وقبله في صدره. أمّا نحره فإنه موضع السيف وأمّا صدره فإنه موضع حوافر الخيول». قال =

جذبة القلب

نزل الإمام الحسين عليه السلام إلى الميدان وقاتل فترة من الزمن. ثم عاد ثانية إلى الخيام. هذه المرة، كان هناك قلب مع الإمام الحسين عليه السلام يطلبه، ولكنه لم يركض خلفه أو يكلمه بكلمة. بل دخل صاحب هذا القلب إلى الخيمة وأسدل ستارها وراح يتأوه في إحدى زواياها. وقد جذب ذاك القلب الحسين عليه السلام نحوه. جال الإمام عليه السلام حول الخيام قليلاً وتفقد العيال وأراد العودة من دون أن يتكلم مع أحد. ولكنه رأى الجواد لا يتحرك. قام بدفعه عدة مرات غير أنه لم يتزحزح من مكانه.

حتى تلك اللحظة، كان الحسين عليه السلام ينظر إلى السماء، إلا أن قلبه، الذي هو نفس قلب رسول الله والسيدة الزهراء عليها السلام ^(١) وأمير المؤمنين عليه السلام، ناداه قائلاً: أنظر إلى الأسفل، فذلك العرش العظيم الذي يجذب قلبك وعينيك ^(٢) موجود هناك، توجه إليه.

نظر الحسين عليه السلام إلى الأسفل، فرأى سكينه تمسك بالجواد بينما كان هذا الحيوان مُطأطئاً رأسه إلى الأرض ولا يأتي بأية حركة. وبالمناسبة، تعني كلمة

= الراوي: «والله لقد سمعنا منادياً ينادي بين السماء والأرض: وا ولداه! وا حسينا! ثم ودّعهم وحمل على القوم فجعل يضرب فيهم بسيفه وهو يقول: الموت أولى من ركوب العار، والعار أولى من دخول النار»، الملهوف، ص ١٧٠.

(١) «فاطمة عليها السلام عاشت بعد أبيها خمسة وسبعين يوماً في هذه الدنيا واشتدّ عليها الحزن، وكان جبرائيل الأمين يحضر عندها ويعزيها ويخبرها بأمر عن المستقبل... هذه الفضيلة فوق جميع الفضائل الأخرى التي ذكرت للزهراء عليها السلام - رغم عظمة الفضائل الأخرى - وهي لم تحصل لأيّ إنسان آخر سوى الأنبياء عليهم السلام، وليس كل الأنبياء، بل الطبقة الأولى منهم وبعض الأولياء الذين كانوا بمنزلتهم، وبهذا التعبير أي المراودة مع جبرائيل خلال خمسة وسبعين يوماً لم تحصل لحدّ الآن لأيّ إنسان آخر، وهذه من الفضائل الخاصة بالصديقة الزهراء سلام الله عليها»، (منهجية الثورة، ص ١٢٠ - ١٢١). «إن المعنويات والتجليات الملكوتية، الإلهية، الجبروتية، الملكية والناسوتية مجتمعة كلها في هذا الموجود (أي السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام)»، الكلمات القصار، ص ٥٥.

(٢) إن القلب رواق المحبة والعين مرآة لطلعته.

«حيوان» من الناحية اللغوية، مادة الحياة^(١). وهذا الحيوان استقرّ تحت جسد الحسين عليه السلام وأمن المركب لسيد الشهداء عليه السلام.

قال الإمام الحسين عليه السلام : حبيتي سَكينة، قبل انطلاقنا من المدينة، أنت التي أعددت لي لوازم السفر، وأنت التي، حين أردتُ النزول إلى الميدان، أحضرت لي ترسي ودرعي وجهّزته لأجلي. فما بالك الآن تقفين في طريق نزولي إلى الميدان؟

أجابته السيدة سَكينة عليها السلام قائلةً: حبيبي يا حسين، لن أخبرك وأنت على ظهر جوادك، إنزل إليّ. نزل الحسين عليه السلام وقال لها: لمَ تفعلين ذلك؟ أجابت: ما لم تجلس على التراب، لن أقول لك. استطاعت السيدة سَكينة إنزال الإمام الحسين من عزمه الراسخ المطلق، الذي يسير به، إلى التراب وإجلالته عليه.

الغرق في بحر التوحيد

يعجز لسان الوجود عن مدح^(٢) موجودة كالسيدة سَكينة عليها السلام. في أحد الأيام، تقدّمت جماعة من الناس لخطبتها، إلا أن الحسين عليه السلام أجابهم بالقول: «... وأما سَكينة، فغالب عليها الاستغراق مع الله تعالى فلا تصلح لرجل»^(٣)، أي أنها ليست تلك الموجودة التي يمكن لها أن تتزوج في عالم الطبيعة. قالوا: مولانا، إنها بالغة وعاقلة وهي سيّدة يمكن الاعتماد عليها، فكيف لا يكون

(١) ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَلَئِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، سورة العنكبوت، آية ٦٤.

(٢) «مَوَالِي لَا أَحْصِي ثَنَاءَكُمْ وَلَا أَبْلُغُ مِنَ الْمَدْحِ كُنْهَكُمْ وَمِنَ الْوَصْفِ قَدْرَكُمْ»، الزيارة الجامعة الكبيرة، مفاتيح الجنان.

(٣) ورد في الخبر أنّ الحسن المثنى بن الحسن السبط عليه السلام أتى عمّه الحسين عليه السلام يخطب إحدى ابنتيه فاطمة أو سَكينة، فقال له أبو عبد الله عليه السلام : «أختار لك فاطمة؛ فهي أكثر شبهاً بأمي فاطمة بنت رسول الله ﷺ؛ أمّا في الدين: فتقوم الليل كلّهُ، وتصوم النهار، وفي الجمال: تشبه الحور العين، وأمّا سَكينة فغالب عليها الاستغراق مع الله تعالى فلا تصلح لرجل»، إسعاف الراغبين، ص ٢١٠.

عندها استعداد للزواج^(١)؟ قال ﷺ: «لأنه» غالب عليها الاستغراق مع الله تعالى، فلا تستطيع النزول إلى هذا العالم والعيش مع الناس.

كيف، إذًا، لشخص غارق في بحر التوحيد أن يقف في وجه الحسين ﷺ؟ قال ﷺ: حبيبتي سَكينة، لمَ تفعلين هذا؟ قالت: لن أتكلم قبل أن تُجلسني في حجرِكَ. فأجلسها في حجره وحين همَّ بمدَّ يد الحنان والمحبة إلى رأسها ووجنتيها، سارعت إلى إبعاد يده عنها، وكرّرت هذا الفعل مرتين. فسألها: لمَ تفعلين هذا يا ابنتي؟ أجابت: أبي حبيبي، أنظر إلى داخل الخيمة وسترى يتامى مسلم بن عقيل^(٢) جالسين هناك. فإذا أظهرت لي المحبة أكثر من ذلك، ستنكسر قلوبهم. أنظروا ماذا يوجد في كربلاء! أنظروا إلى ما تقوله سَكينة لأبيها! يتيمةً ترشد أباهما كيف يدلّلهما.

وهنا، وفي لحظة من التجلي التام، احتضن الحسين ﷺ سَكينة لا إرادياً، فهمست في أذنه بكلمات لا أحد يعلم ما هي، بما في ذلك الأنبياء والأولياء^(٣). وعندها، راح الحسين ﷺ يقبل ابنته سَكينة.

وبعد أن وقفت في طريقه وأمسكت بقائمتي ذي الجناح ومنعته من الذهاب، جاءت وأحضرت الجواد للحسين ﷺ. في المرّة الأولى، كانت السيدة

(١) يقول آية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «عندما نتحدث في الزواج وأهميته، فهذا باعتبار أنّ الزواج يُحقّق رسم التوحيد، ومن هنا جاء في الرواية: «من تزوّج أحرز نصف دينه»، (الكافي، ج ٥ ص ٣٢٨)، فهو يتمّم الدين بإعتبار أنّه ينقش صورة التوحيد في النفس».

(٢) من كلام لآية الله السيّد أحمد النجفي حفظه الله تعالى: «مسلم بن عقيل ﷺ أراد أن يصل إلى مقام معاينة التوحيد ورؤية توحيده مع الإمام الحسين ﷺ، فطلب كوزاً من الماء حتّى يرى مقدار امتلاء وجوده بالإمام الحسين ﷺ، وليرى في ذاته أنّه لا يوجد غير الحسين ﷺ، فأخذ كوز الماء لا ليشرب لأنّه عطشان، بل حتّى يرى ويعاين حقيقة التوحيد الحاصلة بينه وبين الحسين، وإلّا فإنّ آثار عالم الطبيعة لا تؤثر في أيّ وقت على وجود الأولياء».

(٣) يقول بايزيد البسطامي: «إطلع الحق على قلوب الأولياء، فوجد أن بعضهم لا قبل لهم بحمل ثقل المعرفة، فأشغلهم بالعبادة»، خمسة من العرفاء، ص ١٠١.

زينب عليها السلام هي من أحضر الجواد له عليه السلام ، ولكن هذه المرة سكينه عليها السلام من فعل ذلك. كان ارتباط الحسين بسكينه عليها السلام وثيقاً جداً، بحيث أنه عندما عاد الجواد إلى الخيام وحيداً، كانت سكينه هي أول من ركض باتجاهه سائلة إياه: «يا جواد، هل سقي أبي أم قُتل عطشاناً؟».

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

مُحَمَّدٌ بْنُ

فهرس مصادر التوضيحات بحسب ترتيب أحرف الأبعد

- الآداب المعنوية للصلاة، السيّد روح الله الخميني.
- آراء ومواقف سماحة السيّد أحمد الخميني رحمته الله، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني.
- الأربعون حديثاً، السيّد روح الله الخميني.
- أسرار الشهادة، السيّد كاظم الحسيني الرّشتي.
- تعليقات على شرح فصوص الحكم، السيّد روح الله الخميني.
- تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم، السيّد حيدر الآملي.
- تفسير آية البسمة (محاضرات معرفية)، السيّد روح الله الخميني.
- جامع الأسرار ومنبع الأنوار، السيّد حيدر الآملي.
- الجفر وجوهر العقيق في سعد التوفيق، السيّد حيدر الحسيني.
- الحكومة الإسلامية، السيّد روح الله الخميني.
- الخصائص الحسينية، الشيخ جعفر التستري.
- خمسة من العرفاء، تقي حسين الموسوي.
- دُرر الأسرار، السيّد كاظم الحسيني الرّشتي.
- رائحة الوصال، السيّد أحمد النجفي.
- الرّحمة الواسعة، الشيخ محمد تقي بهجت.
- رؤى حول الأسرار الحسينية، الشيخ الأوحد أحمد الأحسائي.

- سر الصلاة، السيّد روح الله الخميني.
- شرح الأسماء أو شرح دعاء الجوشن الكبير، الملا هادي السبزواري.
- شرح دعاء السحر، السيّد روح الله الخميني، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني.
- شرح فصوص الحكم، الشيخ حسن زاده آملّي.
- الشموس الطالعة من مشارق الزيارة الجامعة، السيّد حسين الهمداني الدروآبادي.
- صحيفة الأنوار، الميرزا محمد تقي المامقاني.
- كتاب التّاصح، الشيخ محمد تقي بهجت.
- كربلاء الشهود، السيّد أحمد النجفي.
- مشارق أنوار اليقين في أسرار أمير المؤمنين، الحافظ رجب البرسي.
- مشارق الأمان ولباب حقائق الإيمان، الحافظ رجب البرسي.
- مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية، السيّد روح الله الخميني، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني.
- المقدمات من كتاب نصّ النصوص، السيّد حيدر الآملّي.
- مقدمة وتعليقات مفاتيح الغيب، الملا صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازي، تعليقات المولى علي النّوري.
- منطق الطير، فريد الدين العطار.
- نجاة الهالكين في حصر العلل الأربع في محمّد وآله الطاهرين، الشيخ محمد آل أبي خمسين الإحسائي.
- مصباح الأنس بين المعقول والمشهود، محمد بن حمزة الفناري.

فهرس المطالب

٥	تمهيد أول
٢٧	تمهيد ثانٍ
٤٩	المقدمة
٦٥	الفيض الأول
٦٥	«الله» في مرتبة التنزل الإسمي
٦٨	«هو» مرتبة بين التنزل الأولي والذات
٧١	اسم الله هو حقيقة الولاية
٧٤	تنزيه ذات الحق عن التشبيه
٧٥	رواية «بسم الله النور»
٨٣	الفرق بين الإسم والمسمى
٨٦	ذات الحق منزّهة عن كل أشكال النسبة
٨٧	ذات الحق لا تقبل الحثيات
٩١	إلقاء الإسم في المسمى
٩٢	ما هو الغلو؟
١٠٠	تحقق الأسماء والصفات في الولي المطلق
١٠٧	الهادي هو أمير المؤمنين ﷺ
١٠٩	أمير المؤمنين ﷺ هو حقيقة الإسم
١١٠	اسم الله هو ولي المؤمنين
١١٥	النور يختار أولياءه
١٢٣	الفيض الثاني

- الظهور التام للتوحيد ١٢٣
- إرتباط رسول الله ﷺ بالتوحيد هو بالإسم ١٢٧
- ما معنى التوحيد؟ ١٣١
- معنى «لا إله إلا الله» ١٣٤
- المراتب الأربع للتوحيد ١٣٧
- المعرفة النورانية ليست لأيّ كان ١٤١
- تعيّن اسم الله وأسماء أهل البيت ﷺ ١٤٧
- نور النور ١٤٩
- الشيعة هم «نور الله» ١٥٠
- المرائي والمجالي والمظاهر ١٥٣
- الأب والأم مظهران لاسم الله «الخالق» و«الرازق» ١٥٦
- بين اللفظ والتعيّن ١٦٠
- مظهر «الرحيم» و«الرحمن» و«الودود» ١٦٢
- عبارتنا شتّى وحسنك واحدٌ وكلٌّ إلى ذاك الجمال يشير ١٦٢
- الفرق بين «الإسم» و«المسمّى» و«المعنى» ١٦٥
- الطريق إلى المعرفة بالعجز عن المعرفة ١٧٠
- رؤية الحق بالروح والقلب ١٧٢
- الفيض الثالث** ١٧٥
- الصفات الإلهية ١٧٥
- التوحيد في الصفات ١٧٨
- نفي الصفات عن الذات ١٨٠
- تحقق الأسماء الإلهية في أهل البيت ﷺ ١٨٠
- حقيقة تراب كربلاء ١٨٣
- الحسين حقيقة لا تُدرَك ١٨٤
- ولاية ومحبة عليّ بن أبي طالب ﷺ ١٨٨
- أثر قدميّ المحبّ ١٨٩
- أشدّ سطوعاً من البياض ١٨٩

١٩١		بغار الطريق
١٩٧		أثر غبار حوافر خيول زوّار الحسين عليه السلام
٢٠١		خلعتي أخذتها من لطف ذلك المحبوب
٢٠٢		الاستغناء التام للإمام الحسين عليه السلام
٢١٠		المحبوب الأوّل لأهل البيت عليهم السلام
٢١٢		أخذت يدي، فلم أسقط
٢١٥		تراب كربلاء بين الإحياء والإماتة
٢١٧		ذو الجناح عاشق عارف
٢٢٠		كربلاء تدفع الكرب والبلاء
٢٢١		كربلاء محطّ رحال الموالين
٢٢٣		الفيض الرابع
٢٢٣		حركة الممكنات من الفعل والصفة إلى الذات
٢٢٥		حركة الذوات المقدسة إلى الصفة والفعل
٢٢٨		فتات سفرة أهل البيت عليهم السلام
٢٣٠		الأدب سبيل الإتصال بعالم النور
٢٣٢		أعلى درجة للأنبياء
٢٣٤		ظهور التوحيد في كربلاء
٢٣٥		عبور ميثم والأصحاب عبر طريق الحسين عليه السلام
٢٤٤		عليّ صاحب لواء الحمد والشفاعة المطلقة
٢٤٨		ظهور الله في صحراء نينوى
٢٥١		حقيقة الجذبة
٢٥٥		برق محبة الحسين عليه السلام
٢٥٥		محبّ الحسين عليه السلام تحت نظر رسول الله صلى الله عليه وآله
٢٥٨		الإتصال بعليّ علوّ
٢٦٣		الفيض الخامس
٢٦٣		كمال التوحيد
٢٦٧		العبادة

- ٢٦٨ خاصية الصلاة
- ٢٦٩ معراج النبي الأكرم ﷺ
- ٢٧٤ حقيقة المعراج
- ٢٧٦ حقيقة إقامة الصلاة
- ٢٧٨ حياة الإسلام بنشر مناقب أمير المؤمنين ﷺ
- ٢٨٠ الوصية تكشف عصارة باطن الإنسان
- ٢٨١ الصلاة المطلوبة
- ٢٨٢ حقيقة الشفاعة
- ٢٨٤ ما هي الصلاة ومن هم المصلون؟
- ٢٨٥ لبسوا القلوب على الدروع
- ٢٨٦ التدبير في طريق العشق
- ٢٨٧ حقيقة الشرك
- ٢٨٩ الاستغراق في التوحيد
- ٢٩٤ نكران الذات، الطريق إلى الحقيقة
- ٢٩٥ الحب موصل للوحدة
- ٢٩٥ محبة الإمام الحسين ﷺ المكنونة
- ٢٩٩ اسم وذكر السيدة فاطمة ﷺ
- ٣٠٩ الفيض السادس
- ٣٠٩ العشق إكسير العبادة
- ٣١٣ لا يكون العشق بالتعلم والتعليم
- ٣١٧ حفظ المحبة وثبات المحب
- ٣١٧ المحبة تُحقّق الوحدة التامة
- ٣١٩ الله هو حقيقة المحبة
- ٣٢٢ جرعة من محبة الحسين ﷺ
- ٣٢٣ نسيم كربلاء يوجد العشق
- ٣٢٤ قبره في قلوب من والاه
- ٣٢٧ مسجود الملائكة

٣٣١		زيارة الله فوق عرشه
٣٣١		موضع سجود أهل القلوب
٣٣٨		الملائكة لا تعرف العشق
٣٣٩		عشق الحسين عليه السلام لا قيود فيه
٣٤١		الوجود المطلق لسيد الشهداء عليه السلام
٣٤١		السجود للتربة نفسها
٣٤٣		عظمة الحسين عليه السلام مطلقة
٣٤٥		ناصر الحسين عليه السلام ومُعيَّنه
٣٤٩		الفيض السابع
٣٤٩		التوحيد لا يُكتسب بالتعلُّم
٣٥٠		رسول الله صلى الله عليه وآله مُتصدِّر ميدان التوحيد
٣٥٣		الحقيقة الوجودية لأمر المؤمنين عليهم السلام
٣٥٦		حقائق عالم الوجود في تراب كربلاء
٣٥٨		أهل البيت عليهم السلام خاصَّة الله
٣٥٩		المنطق الشيعي والمنطق المغاير
٣٦٥		الكلّ موحدٌ بالفطرة
٣٦٥		الاقتداء في التوحيد
٣٦٦		الرجوع إلى المبدأ
٣٧٠		قَصُرَتْ عن فهمه العقول
٣٧٤		حقيقة المعنى
٣٧٦		الكون ظلٌّ وجود أمير المؤمنين عليه السلام
٣٧٨		صاحب بيعة الغدير تنزيل العزيز الحكيم
٣٨١		المقام الشامخ لأبي طالب عليه السلام
٣٨٥		الفيض الثامن
٣٨٥		مقاما الإِسْتِغْرَاقِ والفناء
٣٨٧		كيف تكون الصلاة حقيقة؟
٣٨٨		التحلِّي بالأدب والوقوف عند الحدِّ

- ٣٩٢ التقوى والسيطرة على النفس
- ٣٩٣ العارفون بطريق العشق
- ٣٩٦ المحبة والمعرفة من صنع الله
- ٣٩٨ التقوى والقلب السليم
- ٤٠٢ النظرة الجاذبة
- ٤٠٣ بداية الطريق
- ٤٠٥ صنایع أهل البيت عليه السلام
- ٤٠٦ أثر تحقق المحبة التامة
- ٤٠٧ المظهر التام للحقيقة
- ٤١٥ ومن أحسن من الله صبغة!
- ٤١٨ رؤية الله
- ٤١٩ تجلّي رسول الله ﷺ في كربلاء بعليّ الأكبر
- ٤٢١ رجوع عليّ الأكبر عليه السلام إلى مبدئه
- ٤٢٣ عليّ الأكبر عليه السلام ممسوس في ذات الله
- ٤٢٥ التدبير في طريق العشق ممنوع
- ٤٢٧ **الفيض التاسع**
- ٤٢٧ سبيل الوصول إلى التوحيد
- ٤٢٧ الفرق بين الهوى والعشق
- ٤٢٨ الإيمان والعمل بمجرى الوليّ وإذنه
- ٤٣٠ الولاية شرط قبول الأعمال
- ٤٣١ الصورة المثاليّة لحقيقة الولاية
- ٤٣٢ الماء تنزل الولاية
- ٤٣٤ الإنسان عابداً للشيطان منكراً للولاية
- ٤٣٦ ماء الولاية
- ٤٣٨ حياة التراب
- ٤٣٩ قيود الأنا
- ٤٤١ بارقة المحبة

٤٤٤	العودة إلى الحقيقة
٤٤٤	حرمة أهل البيت عليه السلام
٤٤٩	مؤثرية اسم الحسين عليه السلام
٤٥١	إياب الخلق إلينا
٤٥٤	عرش الله
٤٥٦	العطش للولاية لانهاى
٤٥٧	التوق إلى الماء
٤٦٠	ساقى العطاشى أبو الفضل
٤٦٣	الفيض العاشر
٤٦٣	الطريق الخالى من الأخطار
٤٦٥	حبّ الحسين عليه السلام حبّ الله
٤٦٦	الحسين عليه السلام خطّ بالدم قصة العشق
٤٦٨	الدم يُرفع إلى السماء
٤٧٠	ما هى المحبة المطلقة؟
٤٧٢	حبّ الحسين عليه السلام يقلب الموازين
٤٧٥	الحبّ المطلق لسيّد الشهداء عليه السلام
٤٧٧	نظرتك العطرة
٤٧٨	لا تسلب منى ما أنا فيه
٤٨٠	ثقل الوحي
٤٨١	الحسين عليه السلام رحمة الله الواسعة
٤٨٣	السّطان والعظمة
٤٨٤	تراب قدّميك يُحيى الموتى
٤٨٩	الفيض الحادى عشر
٤٨٩	محبة أهل البيت عليه السلام هى الطريق
٤٩٠	محبة أهل البيت عليه السلام هى محبة الله
٤٩٢	فيض المحبة
٤٩٤	جذبة المحبّ

- ٤٩٨ المقصد اللانهائي
- ٤٩٨ الجنة تصبو إليك!
- ٤٩٩ الحسين عليه السلام جنة العاشقين
- ٥٠٠ التغرير بالمؤمنين باسم الدين
- ٥٠٤ الحسين عليه السلام مستغن عن الكل
- ٥٠٧ ليس كمثلهم أصحاب
- ٥٠٩ أصعب لحظات عاشها أبو الفضل عليه السلام
- ٥١١ محبته نتيجة لطفه وعنايته
- ٥١٣ ليلة عاشوراء
- ٥١٧ الفيض الثاني عشر
- ٥١٧ حقيقة ارتباط رسول الله صلى الله عليه وآله بسيد الشهداء عليه السلام
- ٥٢١ حقيقة «أنا من حسين»
- ٥٢٢ ما قبل عالم النور
- ٥٢٤ الرحمة فرغ من الرحمة الواسعة
- ٥٢٦ روح واحدة في جسدين
- ٥٢٧ مقام علي الأكبر عليه السلام
- ٥٢٨ الله عز وجل هو دية الحسين عليه السلام
- ٥٣٠ الحسين عليه السلام ... تنزله بالاسم وذاته التي لم تُعرف
- ٥٣١ بالحسين تكون التوبة
- ٥٣٢ لم تجوّل الحسين عليه السلام في كربلاء ليلة عاشوراء؟
- ٥٣٣ الشوق للوصال
- ٥٣٥ ضيوف سفرة الوصال
- ٥٣٧ وصية الزهراء عليها السلام
- ٥٣٩ جذبة القلب
- ٥٤٠ الغرق في بحر التوحيد
- ٥٤٣ فهرس مصادر التوضيحات
- ٥٤٥ فهرس المطالب